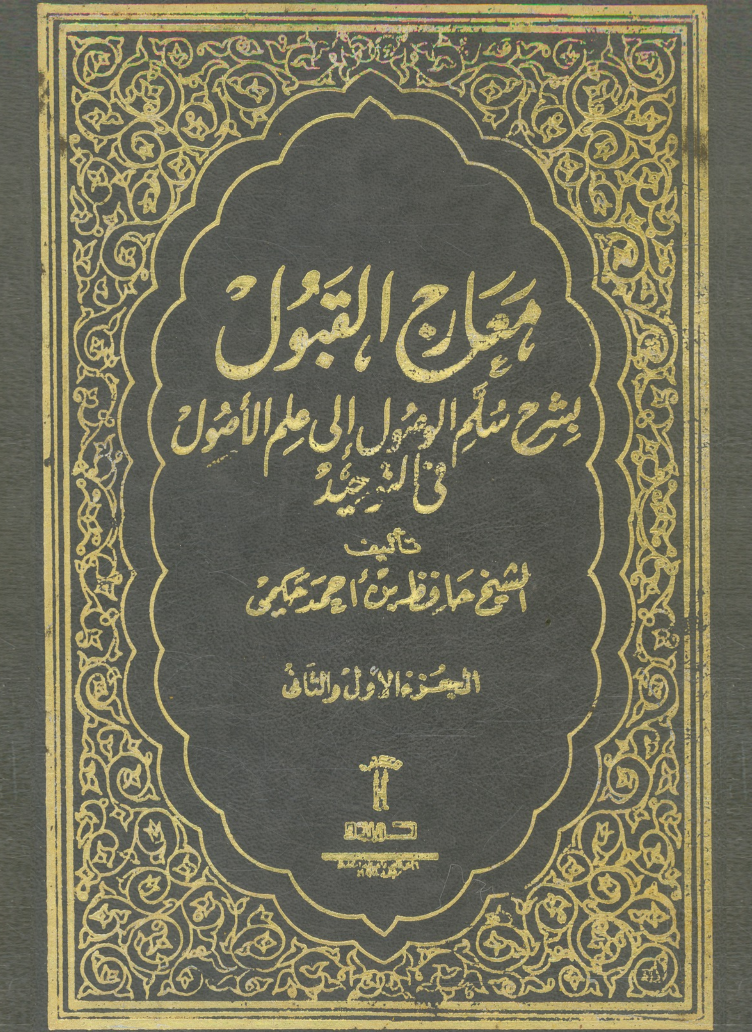
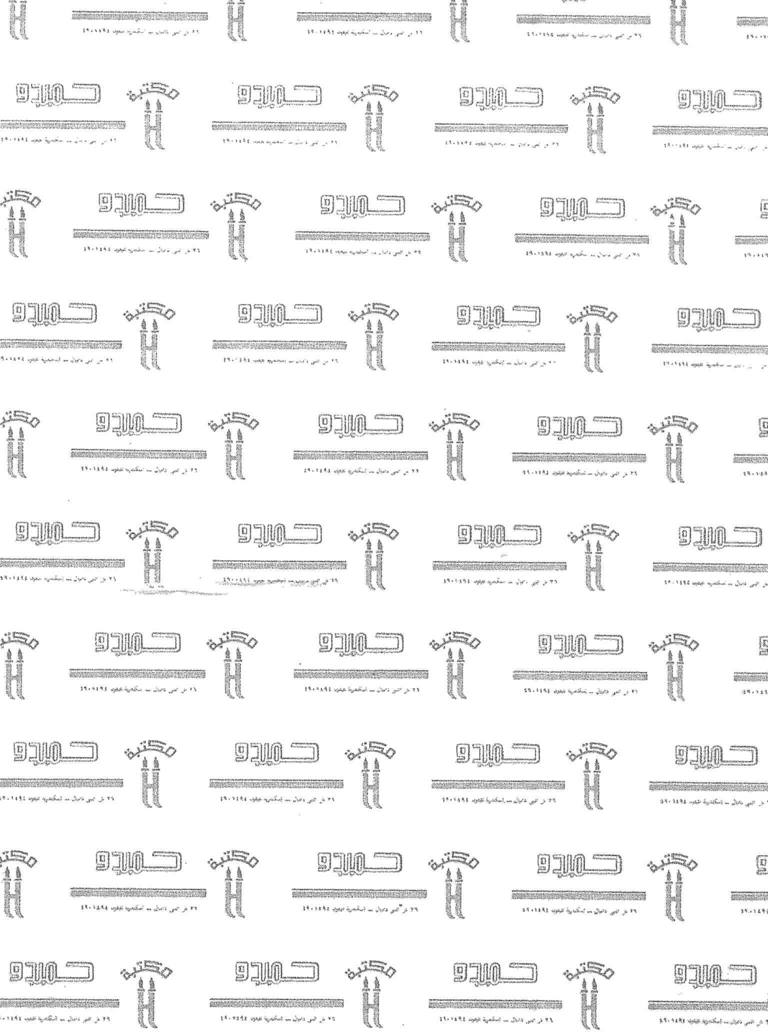
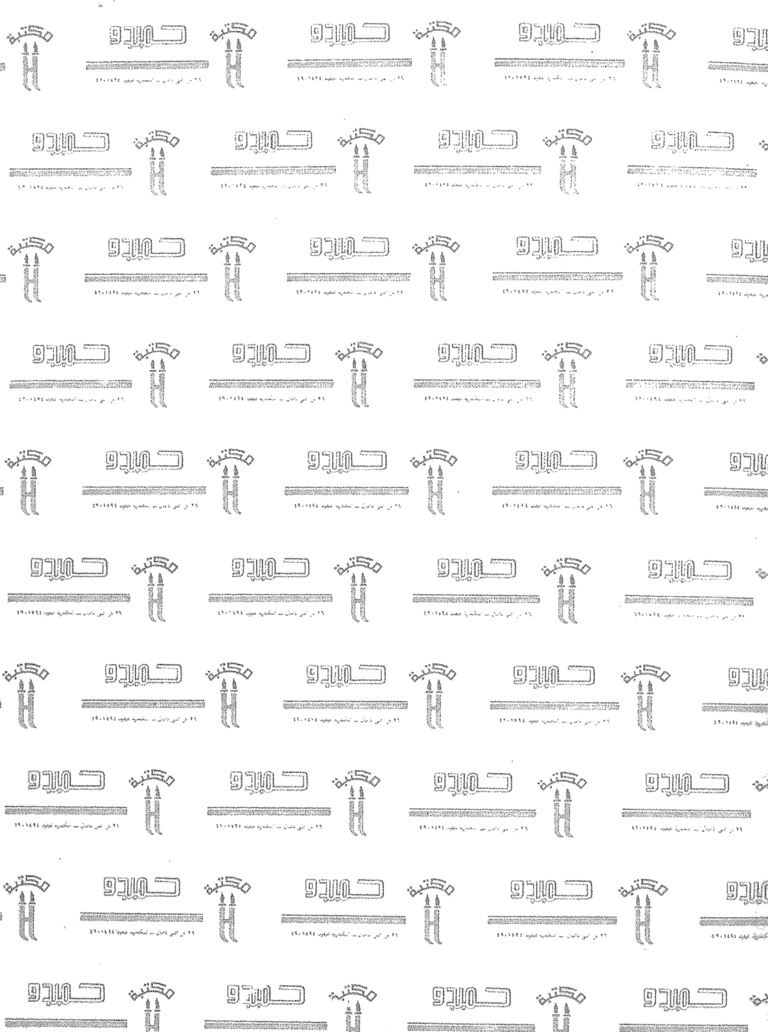

معارج القبول
بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول
في التوحيد
تأليف
الشيخ حافظ بن أحمد حكمي
الجزء الأول والثاني





مَعَارِجُ القَبُول

بِشرحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إلى عِلمِ الأُصُولِ فى التوحيد

تأليف

الشيخ حافظ بن أحمد حكمي

الجُزءُ الأوَّل



٢٦ ش النبى دانيال - اسكندرية
تليفون ٤٩٠١٤٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وما كان معه من إله ، الذى لا إله إلا هو ولا خالق غيره ولا رب سواه ، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى أن لا نعبد إلا إياه ، ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير . عالم الغيب والشهادة الذى استوى فى علمه ما أسر العبد وما أظهر ، الذى علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . كيف لا وهو الذى خلق وقدر ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما الذى كتب على نفسه الرحمة وهو أرحم الراحمين ، الذى غلبت رحمته غضبه كما كتب ذلك عنده على عرشه فى الكتاب المبين ، الذى وسعت رحمته كل شىء وبها يتراحم الخلائق بينهم ، كما ثبت ذلك عن سيد المرسلين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير . الملك الحق الذى بيده ملكوت كل شىء ولا شريك له فى ملكه ولا معين، المتصرف فى خلقه بما يشاء من الأمر والنهى والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، لا راد لقضائه ولا مضاد لأمره ولا معقب لحكمه ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير . القدوس السلام الذى اتصف بصفات الكمال ، وتقدس عن كل نقص ومحال . وتعالى عن الأشباه والأمثال ، حرام على العقول أن تصفه وعلى الأوهام أن تكيفه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . المؤمن الذى آمن أولياءه من خزى الدنيا ووقاهم فى الآخرة عذاب الهاوية ، وآتاهم فى هذه الدنيا حسنة وسيحلهم دار المقامة فى جنة عالية ، المهيمن الذى شهد على الخلق بأعمالهم وهو القائم على كل نفس بما كسبت لا تخفى عليه منهم خافية ، إنه بعباده لخبير بصير . العزيز الذى لا مغالب له ولا مرام لجنابة ، الجبار الذى له مطلق الجبروت والعظمة وهو الذى يجبر كل كسير مما به ، المتكبر الذى لا ينبغى الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه ، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن نازعه صفة منها أحل به الغضب والمقت والتدمير . الخالق البارىء المصور لما شاء إذا شاء فى أى

صورة شاء من أنواع التصوير ، هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ، خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، ما خلقكم وما بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . الغفار الذى لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة ، القهار الذى قصم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره . الوهاب الذى كل موهوب إلى خلقه فمن فيض بحار جوده وفضله ونعمائه الزاخرة ، الرزاق الذى لا تنفد خزائنه ولم يغض ما فى يمينه ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير . يرزق كل ذى قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت فى الأعضاء بحكمته تدبيراً متقناً محكماً ، يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالا وأولاداً وأهلا وخدماً ، ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته ، قضى ذلك قضاء حتماً مبرماً ، وأشرف الأرزاق فى هذه الدار ما رزقه عبده على أيدى رسله من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير . الفتاح الذى يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم ، يفتح على هذا مالا وعلى هذا ملكاً وعلى هذا علماً وحكمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ، العليم الذى أحاط علمه بجميع المعلومات من ماض وآت وظاهر وكامن ومتحرك وساكن وجليل وحقير ، علم فسابق علمه عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار فى العذاب المهين . وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . ما من جبل إلا ويعلم ما فى وعره ، ولا بحر إلا ويدرى ما فى قعره وما تحمله من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير . القابض الباسط فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه ، ويبسطه على من يشاء فيوسع عليه ، وكذا له القبض والبسط فى أعمال عباده وقلوبهم ، كل ذلك إليه ، اذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير . الخافض الرافع ، الضار النافع المعطى المانع فلا رافع لمن خفض ولا خافض لمن رفعه ولا نافع لمن ضر ولا ضار لمن نفعه ولا مانع لما أعطى ولا معطى لمن هو له مانع ، فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء من هو مانعه لم يك ذلك فى

استطاعتهم بواقع. وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير. المعز المذل الذى أعز أولياءه المؤمنين فى الدنيا والآخرة وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة المتظاهرة ، وأذل أعداءه فى الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل وما لمن عاداه وأذله من ولى ولا نصير. السميع البصير لا كسمع ولا بصر أحد من الورى . القائل لموسى وهارون إننى معكما أسمع وأرى ، فمن نفى عن الله وما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذباً وقد خاب من افترى ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . الحكم العدل فى قضائه وقدره وشرعه وأحكامه قولا وفعلا إن ربى على صراطا مستقيم . فلا يحيف فى حكمه ولا يجور ، وما رأيك بظلام للعبيد . الذى حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً ووعد الظالمين الوعيد الأكيد ، وفى الحديث « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ، وهو الذى يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً بل يحصى عليهم الخردلة والذرة والفتيل والقطمير . اللطيف بعباده معافاة وإعانة وعفواً ورحمة وفضلا وإحساناً ، ومن معانى لطفه إدراك أسرار الأمور حيث أحاط بها خبرة تفصيلا وإجمالا وسراً وإعلاناً ، الخبير بأحوال مخلوقاته وأقوالهم وأفعالهم ماذا عملوا وكيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا حقيقة وكيفية ومكاناً وزماناً ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها إن الله لطيف خبير. الحليم فلا يعاجل أهل معصيته بالعقاب، بل يعافيهم ويمهلهم ليتوبوا فيتوب عليهم إنه هو التواب العظيم . الذى اتصف بكل معنى يوجب التعظيم وهل تنبغى العظمة إلا لرب الأرباب . خضعت لعظمته وجبروته جميع العظماء ، وذل لعزته وكبريائه كل كبير . الغفور الشكور الذى يغفر الكثير من الزلل ، ويقبل اليسير من صالح العمل ، فيضاعفه أضعافاً كثيرة ويثيب عليه الثواب الجلل ، وكل هذا لأهل التوحيد . أما الشرك فلا يغفره ولا يقبل معه من العمل من قليل ولا كثير . العلى الذى ثبت له كل معانى العلو ، علو الشأن وعلو القهر وعلو الذات ، الذى استوى على عرشه وعلا على خلقه بائناً من جميع المخلوقات ، كما أخبر بذلك عن نفسه فى كتابه وأخبر عنه رسوله ﷺ فى أصح الروايات ، وأجمع على ذلك أهل الحل والعقد بلا نزاع بينهم ولا نكير . الكبير الذى كل شىء دونه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه كما أخبر بذلك عن نفسه نصاً بيناً محكماً ، الحفيظ على كل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما ، حفظ

أولياءه فى الدنيا والآخرة ونجاهم من كل أمر خطير . المغيث لجميع مخلوقاته ، فما استغاثه ملهوف إلا نجاه ، الحسيب الوكيل الذى ما التجأ إليه مخلص إلا كفاه . ولا اعتصم به مؤمن إلا حفظه ووقاه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه فنعم المولى ونعم النصير . الجليل الذى جل عن كل نقص واتصف بكل كمال وجلال ، الجميل الذى له مطلق الجمال فى الذات والصفات والأسماء والأفعال ، الكريم الذى لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا فى صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، كما روى عنه نبيه المصطفى المفضال ، ومن كرمه أن يقابل الإساءة بالاحسان والذنب بالغفران ويقبل التوبة ويعفو عن التقصير . الرقيب على عباده بأعمالهم ، العليم بأقوالهم وأفعالهم ، الكفيل بأرزاقهم وآجالهم وانشائهم ومآلهم ، المجيب لدعائهم وسؤالهم وإليه المصير . الواسع الذى وسع كل شيء علماً ، ووسع خلقه برزقه ونعمته وعفوه ورحمته كرماً وحلماً ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . الحكيم فى خلقه وتدبيره إحكاماً وإتقاناً ، والحكيم فى شرعه وقدره عدلا وإحسانا ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، ومن أكبر من الله شهادة وأوضح دليلا وأقوم برهاناً . فهو العدل وحكمه عدل وشرعه عدل وقضاؤه عدل ، فله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . الودود الذى يحب أولياءه ويحبونه كما أخبر عن نفسه فى محكم الآيات ، المجيب لدعوة الداعى إذا دعاه فى أى مكان كان وفى أى وقت من الأوقات ، فلا يشغله سمع عن سمع ولا تختلف عليه المطالب ولا تشتبه عليه الأصوات ، فيكشف الغم ويذهب الهم ويفرج الكرب ويستر العيب وهو الستير . المجيد الذى هو أهل الثناء كما مجد نفسه وهو الممجد على اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد ، الباعث الذى بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه إنه هو الفعال لما يريد . الشهيد الذى هو أكبر من كل شيء شهادة وكفى بالله شهيداً ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . هو الحق وقوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير . القوى المتين الذى لم يقم لقوته شيء وهو الشديد المحال . الولى للمؤمنين فلا غالب لمن تولاه وإذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . الحميد الذى ثبت له جميع أنواع المحامد . وهل يثبت الحمد إلا لذى العزة والجلال . فله الحمد كما يقول وخيراً مما نقول لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه وكيف يحصى العبد الضعيف ثناء على العلى الكبير . المحصى الذى أحصى كل شيء عددا وهو القائل (وكل

شيء أحصيناه فى إمام مبين) المبدىء المعيد الذى قال وهو أصدق القائلين (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) . (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .وأنى يعجزه إعادته وقد خلقه من قبل ولم يك شيئاً ، كل يعلم ذلك ويقر به بلا نكير . المحيى المميت الذى انفرد بالإحياء والإماتة فلو اجتمع الخلق على إماتة نفس هو محييها أو إحياء نفس هو مميتها لم يك ذلك ممكناً وهل يقدر المخلوق الضعيف على دفع إرادة الخالق العلام ، الحى الدائم الباقى الذى لا يموت وكل ما سواه زائل كما قال تعالى (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) القيوم الذى قام بنفسه ولا قوام لخلقه إلا به ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره فلا يحتاج إلى شيء وكل شيء إليه فقير . الواحد الأحد الذى لا شريك له فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وملكوته وجبروته وعظمته وكبريائه وجلاله ، لا ضد له ولا ند ولا شبيه ولا كفوً ولا عديل . الصمد الذى يصمد إليه جميع الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم فهو المقصود إليه فى الرغائب المستغاث به عند المصائب ، فإليه منتهى الطلبات ، ومنه يسأل قضاء الحاجات ، وهو الذى لا تعتريه الآفات ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . فهو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه . والحكيم الذى قد كمل فى حكمته ، وهو الذى قد كمل فى صفات الكمال ، ولا تنبغى هذه الصفات لغير الملك الجليل . القادر المقتدر الذى إنما إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه على كل شيء قدير . المقدم المؤخر بقدرته الشاملة ومشيئته النافذة على وفق ما قدره وسبق به علمه وتمت به كلمته بلا تبديل ولا تغيير . الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء والظاهر فليس فوقه شيء ، والباطن فليس دونه شيء ، هكذا فسره البشير النذير ، الوالى فلا منازع له ولا مضاد ، المتعالى عن الشركاء والوزراء والنظراء والأنداد . البر وصفاً وفعلا ومن بره المن على أوليائه بإنجائهم من عذابه كما وعدهم على ألسنة رسله أنه لا يخلف الميعاد ، التواب الذى يرزق من يشاء التوبة فيتوب عليه وينجيه من عذاب السعير . المنتقم الذى لم يقم لغضبه شيء وهو شديد العقاب والبطش والانتقام العفو بمنه وكرمه عن الذنوب والآثام ، الرءوف بالمؤمنين ومن رأفته بهم أن نزّل على عبده آيات مبينات ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، ومن رأفته بهم أن اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة مع كون الجميع ملكه ولم ينزع عنهم التوبة قبل الحمام ، فقال تعالى (يا أيها الذين

آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ذى الجلال والاكرام والعزة والبقاء ، والملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء . المقسط الذى أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وما للظالمين من نصير . الجامع لشتات الأمور وهو جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ، الغنى المغنى فلا يحتاج إلى شىء ولا تزيد فى ملكه طاعة الطائعين ولا تنقصه معصية العاصين من العباد . وكل خلقه مفتقرون إليه لا غنى لهم عن بابه طرفة عين ، وهو الكفيل بهم رعاية وكفاية وهو الكريم الجواد ، وبجوده عم جميع الأنام من طائع وعاص وقوى وضعيف وشكور وكفور ومأمور وأمير . نور السموات والأرض ومن فيهن كما وصف نفسه بذلك فى كتابه ووصفه به محمد عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه وقال ﷺ مستعيذاً به « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » . فبصفات ربنا تعالى نؤمن ولكتابه وسنة رسوله نحكم وبحكمهما نرضى ونسلم ، وإن أبى الملحد إلا جحود ذلك وتأويله على ما يوافق هواه ، (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعلمون بصير) . الهادى الذى بيده الهداية والاضلال فلا هادى لمن أضل ولا مضل لمن هدى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجدله وليا مرشدا) ، (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) ، (قل إن هدى الله هو الهدى) ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) ، البديع الذى أبدع السموات والأرض وما بينهما بلطيف صنعه وبديع حكمته بلا معين ولا مثال ، الباقى الذى كل شىء هالك إلا وجهه فلا ابتداء لأوليته ، ولا لآخريته زوال ، الوارث الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وإليه المرجع والمآل فبإيجاده كل موجود وجد وإليه كل الأمور تصير . الرشيد فى كل أقواله وأفعاله فبالرشاد يأمر عباده وإليه يهديهم . الصبور الذى لا أحد أصبر منه على أذى سمعه ، ينسبون له الولد ويجحدون أن يعيدهم ويحييهم . وكل ذلك بسمعه وبصره وعلمه لا يخفى عليه منهم شىء ثم هو يرزقهم ويعافيهم ، ذلك بأنهم لم يبلغوا نفعه فينفعوه ولا ضره فيضروه . وإنما يعود نفع طاعتهم إليهم ، ووبال

عصيانهم عليهم ، واستغنى الله والله غنى حميد ، زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير .

أحمده تعالى على جزيل إنعامه وإفضاله . وأشكره على جليل إحسانه ونواله وله الحمد على أسمائه الحسنى وصفات كماله ونعوت جلاله ، وله الحمد على عدله قدراً وشرعاً ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق العلى الكبير . تعالى فى إلهيته وربوبيته عن الشريك والوزير ، وتقدس فى أحديته وصمديته عن الصاحبة والولد والوالد والولى والنصير ، وتنزه فى صفات كماله ونعوت جلاله عن الكفؤ والنظير ، وعز فى سلطان قهره وكمال قدرته عن المنازع والمغالب والمعين والمشير ، وجل فى بقائه وديموميته وغناه وقيوميته عن المطعم والمجير . وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله البشير النذير ، المرسل إلى الناس كافة بالملة الحنيفية والهدى المنير ، بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين ، وأنزل عليه كتابه المهيمن والنور المبين والهدى المستبين ، والمنهج المستنير . والشرك مضطرمة ناره ، طائر شراره ، مرتفع غباره ، لا مغير له ولا نكير . فقام بتبليغ الرسالة حق القيام ، وجاهد فى الله حق جهاده إعلاءً لكلمة الله الملك العلام ، حتى جاء الحق وزهق الباطل وأدبر ليل الكفر والضلالة وانفجر فجر الإيمان والإسلام . ونشرت أعلام التوحيد وعلا بنيانه وأشرقت أنواره ، ونكست راية الشرك وانكسرت شوكته وخمدت ناره ورمى بناؤه بالدمدمة والتكسير والتدمير . ﷺ وعلى آله وصحبه شموس الهداية وأوعية العلم وأنصار الدين القويم ، وتابعيهم (الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وعلى من اقتفى أثرهم واتبع سيرهم وسلك صراطهم المستقيم ، وجعلنا من المتقدين بهم المهتدين بهديهم المتمسكين بالكتاب والسنة نقف معهما وبسيرهما نسير .

أما بعد فاعلموا رحمكم الله أنه لاصلاح للعباد ولا فلاح ولا نجاح ولا حياة طيبة ولا سعادة فى الدارين ولا نجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة إلا بمعرفة أول مفروض عليهم والعمل به . وهو الأمر الذى خلقهم الله عز وجل له وأخذ عليهم الميثاق به وأرسل رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم ولأجله خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار وبه حقت الحاقة ووقعت الواقعة وفى شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصحف وفيه تكون الشقاوة والسعادة وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار . ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور . وذلك الأمر هو معرفة الله عز

وجل بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك ، ومعرفة ما يناقضه أو بعضه من الشرك والتعطيل . والتشبيه واجتناب ذلك ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . وتوحيد الطريق إلى الله عز وجل بمتابعة كتابه ورسوله والعمل على وفق ما شرعه الله عز وجل ورسوله ﷺ ، ومعرفة ما يناقضها من البدع المضلة ، ويميل بالعبد عنها فيجانبها كل المجانبة ويعوذ بالله منها . فإن الله تعالى أنزل كتابه تبياناً لكل شيء ، وتفصيل كل شيء وقال (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) . وقال (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) . وأرسل رسوله بذلك الكتاب مبلغاً ومبيناً ليقرأه على الناس على مكث ويبينه لهم أتم البيان ويحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ويهديهم به إلى صراط مستقيم ، فقال تعالى (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) وقال تعالى (ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (وأنزلنا عليك الكتاب لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) وقال تعالى (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) ولا شفاء للقلوب والأرواح ولا حياة لها إلا بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ والاستجابة لله ولرسوله ﷺ قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الآيات . وقال تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) ولم ينج الله تعالى من عذابه ولم يكتب رحمته إلا لمن اتبع كتابه ورسوله كما قال تعالى (عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وقد كان الرسول يبعث فى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى الناس كافة كما قال تعالى

(قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولم يتوفه الله تعالى حتى أكمل له الدين وبلغ البلاغ المبين ، وبين للناس ما نزل إليهم أوضح التبيين ، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك وما من طائر يطير بجناحيه إلا وقد ذكر لهم منه علما . وهدى الله به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم كما قال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وكذلك هى فى قراءة عبد الله وأبى بن كعب . وهذا التفسير مروى عن قتادة ومجاهد أيضاً . وقوله (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) أى من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض . وقوله تعالى (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) قال النبى ﷺ (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة فنحن أول الناس دخولا الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى) رواه عبد الرازق ، وهو فى الصحيح من طرق بألفاظ . وعن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ليوم الجمعة . واختلفوا فى القبلة فاستقبلت النصارى الشرق واليهود بيت المقدس . وهدى الله تعالى أمة محمد للقبلة . واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى ، فهدى الله تعالى أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقالت اليهود كان يهودياً وقالت النصارى كان نصرانياً وجعله الله حنيفاً مسلماً . فهدى الله أمة محمد الى الحق من ذلك واختلفوا فى عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود وقالوا

لأمه بهتاناً عظيماً . وجعلته النصارى إلها وولداً . وجعله الله تعالى روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد لله إلى الحق من ذلك ،.وقال الربيع بن أنس فى قوله عز وجل (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) : أى عند الاختلاف أنهم كانوا على ماجاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الاخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون وأن رسلهم قد بلغوهم وأنهم كذبوا رسلهم ، وفى قراءة أبى بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وكان أبوالعالية رحمة الله تعالى يقول : فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلى من الليل قال « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وفى الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا إجتنابه ، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً » .

اختلاف الفرق الإسلامية

واعلم أنه كما أخبرنا الله تعالى عن الأمم السابقة أنهم اختلفوا اختلافاً شديداً وافترقوا افتراقاً بعيداً ، وفى ذلك أعظم واعظ وأكبر زاجر عن الاختلاف والتفرق ، ولم يقتصر سبحانه فى تذكيرنا بذلك عليه بل زجرنا عن الاختلاف زجراً شديداً ، وتوعد على ذلك وعيداً أكيداً فقال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال ابن عباس رضى الله عنهما : تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف ، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف . ثم فصل تعالى مآل الفريقين ، وأين توصل أهلها كل من الطريقين فقال تعالى (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) وحذرنا من ذلك نبينا محمد ﷺ الذى هو أولى بنا من أنفسنا فقال ﷺ « ألا وإن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة

وهم الجماعة » ، وفى بعض الروايات « هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

وقد حصل مصداق ما أخبر به الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق من الافتراق ، وتفاقم الأمر وعظم الشقاق فاشتد الاختلاف ونجمت البدع والنفاق فافترقوا فى أسماء الله تعالى وصفاته إلى نفاة معطلة ، وغلاة ممثلة ، وفى باب الإيمان والوعد والوعيد إلى مرجئة ووعيدية من خوارج ومعتزلة ، وفى باب أفعال الله وأقداره إلى جبرية غلاة وقدرية نفاة ، وفى أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته إلى رافضة غلاة وناصبة جفاة ، إلى غير ذلك من فرق الضلال ، طوائف البدع والانتحال ، وكل طائفة من هذه الطوائف قد تحزبت فرقاً وتشعبت طرقاً ، وكل فرقة تكفر صاحبتها وتزعم أنها هى الفرقة الناجية المنصورة .

الفرقة الناجية

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الفرقة الناجية هم من كان على مثل ما كان عليه هو وأصحابه ، وليس أحد من هؤلاء كذلك ، بل إنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل . وذلك لأنه لا يعرف ماكان عليه النبى ﷺ وأصحابه إلا من طريق سننه المروية وآثاره المصطفوية التى هى الشريعة الغراء والمحجة البيضاء ، وهؤلاء من أبعد الناس عنها وأنفرهم منها ، وإنما تصلح هذه الصفة لحملتها وحفاظها ونقادها المنقادين لها المتمسكين بها ، الذابين عنها يقفون عندها ويسيرون بسيرها ، لا ينحرفون عنها يميناً ولا شمالا ، ولا يقدمون عليها لأحد مقالا ، ولا يبالون من خالفهم ولا من خذلهم ، ولا يضرهم ذلك حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى . أعنى بذلك أئمة الحديث وجهابذة السنة وجيش دولتها ، المرابطين على ثغورها الحافظين حدودها الحامين حوزتها ، وفقهم الله عز وجل للاستضاءة بنورها والاهتداء بهديها القويم ، وهداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فآمنوا بما أخبر الله به فى كتابه وأخبر به عبده ورسوله محمد ﷺ فى سننه ، وتلقوه بالقبول والتسليم إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل ، فهم الوسط فى فرق هذه الأمة كما أن هذه الأمة هى الوسط فى الأمم ، فهم وسط فى باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة ، وهم وسط فى باب أفعال الله تعالى بين الجبرية والقدرية ، وفى باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم ، وفى باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية وفى

أصحاب رسول الله ﷺ بين الرافضة والخوارج . فهم والله (أهل السنة والجماعة) ، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ، الذين لم تزل قلوبهم على الحق متفقة مؤتلفة ، وأقوالهم وأعمالهم وعقائدهم على الوحى لا مفترقة ولا مختلفة . فانتدبوا لنصرة الدين دعوة وجهاداً ، وقاوموا أعداءه جماعات وفرادى ، ولم يخشوا فى الله لومة لائم ولم يبالوا بعداوة من عادى ، فقهروا البدع المضلة وشردوا بأهلها واجتثوا شجرة الإلحاد بمعاول السنة من أصلها ، فبهتوهم بالبراهين القطعية فى المحافل العديدة ، وصنفوا فى رد شبههم ودفع باطلهم وإدحاض حججهم الكتب المفيدة ، فمنهم المقتصى للرد على الطوائف بأسرها ، ومنهم المخلص لعقائد السلف الصالح من غيرها ، ولم تنجم بدعة من المضلين الملحدين ، إلا ويقيض الله لها جيشاً من عباده المخلصين ، فحفظ الله بهم دينه على العباد ، وأخرجهم بهم من ظلمات الزيغ والضلالة إلى نور الهدى والرشاد ، وذلك مصداق وعد الله عز وجل بحفظه الذكر الذى أنزله . كما قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وإعلاء لكلمته وتأييداً لحزبه إذ يقول (وإن جندنا لهم الغالبون) .

سبب نظم المتن وتأليف الشرح

وقد سألنى من لا تسعنى مخالفته من المحبين ، أن أنظم مختصراً يسهل حفظه على الطالبين ، ويقرب مناله للراغبين ، ويفصح عن عقيدة السلف الصالح ويبين فأجبته إلى ذلك مستعينا بالله ، راجياً الثواب من الله ، قائلا لا حول ولا قوة إلا بالله . وضممت إلى ذلك مسائل نافعة تتعلق بهذه العصور من التنبيه على ما افتتن به العامة من عبادة الأشجار والأحجار والقبور ، ومناقضتهم التوحيد بالشرك الذى هو أقبح المحظور ، وصرف جل العبادة لغير الله من الدعاء والرجاء والخوف والمحبة والذبح والنذور ، فيسر الله تعالى ذلك بمنه وإفضاله ، وأعاننى وله الحمد والمنة على إكماله ، وسميته (سلم الوصول ، إلى مباحث علم الأصول فلما انتشر بأيدى الطلاب ، وعظمت فيه رغبة الأحباب ، سئل منى أن أعلق عليه تعليقاً لطيفاً ، يحل مشكلة ويفصل مجملة ، مقتصراً على ذكر الدليل ومدلوله ، من كلام الله تعالى وكلام رسوله ، فاستخرت الله بعلمه . واستقدرته بقدرته ، فعن لى أن أعزم على ذلك الأمر المسئول ، مستمداً من الله تعالى الإعانة على نيل السول . وسميته (معارج القبول ، بشرح سلم الوصول ، إلى علم الأصول) . والله أسأل أن يعين على إكماله بمنه وفضله ، وأن ينفعنى وطلاب العلم به وبأصله ، وأن يهدينا الصراط المستقيم ، ويجعلنا من

أنصار التوحيد وأهله ، إنه سميع قريب مجيب ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أبدأ باسم الله مستعيناً   راض به مدبرا معيناً)

(أبدأ) فى جميع حركاتى وسكناتى وأقوالى وأعمالى وفى شأنى كله ومنه هذا التصنيف (باسم الله) متبركا و (مستعينا) به أو إياه يتعدى بالباء وبدونه أى طالباً منه العون على فعل طاعته وترك معصيته ، كما قال تعالى معلمنا لنا فى فاتحة الكتاب (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال النبى ﷺ لابن عمه عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » وهو خطاب شامل لجميع الأمة ، وفى ضمن ذلك الأمر الواقع فى جواب الشرط نهى لنا عن الاستعانة بغير الله عز وجل لأنه لا خالق للعباد وأفعالهم غيره تعالى ، فإذا كان المخلوق لا يقدر على فعل نفسه إلا بما أقدره الله تعالى عليه فكيف يجوز أن تطلب الإعانة منه على فعل غيره والعاقل يفهم ذلك بادىء بدء .

خلاصة القول فى تفسير البسملة

والكلام على تفسير البسملة مستوفى فى كتب المفسرين ، ولنذكر خلاصة ذلك فنقول : الباء أداة تخفض ما بعدها ، ومعناها فى البسملة الاستعانة ، وتطويلها فى القرآن تعظيماً لكتاب الله عز وجل ، وإسقاط الألف من الاسم طلباً للخفة لكثرة استعمالها ، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء ليدل على السقوط ، ولذلك لما كتبت الألف فى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ردت الباء إلى هيئتها . والاسم هو المسمى وعينه وذاته فانك تقول : يا الله يا رحمن يا رحيم ، فتدعوه بأسمائه التى سمى بها نفسه كما قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) وقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماتدعوا فله الأسماء الحسنى) ، ولو كانت أسماء الله غيره لكان الداعى بها مشركاً إذ دعا مع الله غيره ، ولكانت مخلوقة إذ كل ما سوى الله مخلوق ، وهذا هو الذى حاوله الملحدون فى أسماء الله تعالى وصفاته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وسيأتى بسط القول فى ذلك إن شاء الله تعالى فى الكلام على الأسماء (الله) علم على ذاته تبارك وتعالى وكل الأسماء الحسنى تضاف إليه كما قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى) وقال تعالى (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) ألا ترى أنك تقول الرحمن من أسماء الله تعالى والرحيم من أسماء الله ونحو ذلك ،

ولا تقول الله من أسماء الرحمن ، وقال النبى ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » واختلفوا فى كونه مشتقاً أو لا ، ذهب الخليل وسيبويه وجماعة من أئمة اللغة والشافعى والخطابى وإمام الحرمين ومن وافقهم إلى عدم اشتقاقه لأن الألف واللام فيه لازمة فتقول يا الله ولا تقول يا الرحمن ، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام . وقال آخرون إنه مشتق ، واختلفوا فى اشتقاقه إلى أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله الاهة . فأصل الاسم الإله . فحذفت الهمزة وأرغمت اللام الأولى فى الثانية وجوباً فقيل الله ، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض) مع قوله عز وجل (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ومعناه ذو الألوهية التى لا تنبغى إلا له . ومعنى أله يأله آلهة عبد يعبد عبادة فالله المألوه أى المعبود . ولهذا الاسم خصائص لا يحصيها إلا الله عز وجل ، وقيل إنه هو الاسم الأعظم . (الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم فالرحمن يدل على الرحمة العامة كما قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) والرحيم يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين كما قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً) ذكره ابن جرير بسنده عن العزرمى بمعناه وفى الدعاء المأثور « رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما » ، والظاهر المفهوم من نصوص الكتاب والسنة أن اسمه الرحمن يدل على الصفة الذاتية من حيث اتصافه تعالى بالرحمة ، واسمه الرحيم يدل على الصفة الفعلية من حيث إيصاله الرحمة إلى المرحوم ، فلهذا قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً) ، (إنه بهم رءوف رحيم) ولم يأت قط إنه بهم رحمن ، ووصف نبيه محمداً ﷺ بأنه رءوف رحيم فقال تعالى (حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) ولم يصف قط أحداً من خلقه أنه رحمن فتأمل ذلك ، والله أعلم . (راض) خبر لمبتدأ محذوف تقديره وأنا راض (به) أى بالله عز وجل (مدبراً) حال من الضمير المجرور أى بتدبيره لى فى جميع شئونى ، فإن أزمة الأمور بيده وهو الذى يعلم ما لا نعلم ويقدر على ما لا نقدر ، وهو الذى يدبر الأمر من السماء إلى الأرض (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) . و (معيناً) لى على جميع أمورى الدينية والدنيوية فإنى لا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ولا علم لى إلا ما علمنيه فلا أعبد إلا إياه ولا أستعين إلا به ولا أتوكل إلا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا منجا ولا ملجأ إلا إليه .

القول فى حمد الله وشكره والاستعانة به

والحمد لله كما هدانا　　　　إلى سبيل الحق واجتبانا

أى (و) أثنى بحمده فأقول (الحمد لله) كما أثنى به على نفسه فى كتابه فقال (الحمد لله رب العالمين) وأمر بذلك عباده فقال تعالى مخاطباً لنبيه خطاباً يدخل فيه جميع أمته (قل الحمد لله) فله الحمد كالذى يقول وخيراً مما نقول سبحانه لا نحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ، فله الحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العلى وله الحمد على نعمه الظاهرة والباطنة ، وله الحمد فى الأولى والآخرة . وعن الأسود بن سريع رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بهاربى تبارك وتعالى . فقال ﷺ « أما إن ربك يحب الحمد » رواه أحمد والنسائى ، وعن الحكم بن عمير رضى الله عنه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « إذاقلت الحمد لله فقد شكرت الله فزادك » رواه ابن جرير . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » رواه الترمذى والنسائى وبن ماجه وقال الترمذى حسن غريب . وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطى — يعنى من هدايته للحمد — أفضل مما أخذ » رواه ابن ماجة ، وللقرطبي عنه عن النبى ﷺ قال « لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك » قال القرطبى وغيره : أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا . لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) وقال على رضى الله عنه : الحمد لله كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب أن تقال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الحمد لله كلمة الشكر ، وإذا قال العبد الحمد لله قال شكرنى عبدى . وقال رضى الله عنه : الحمد لله كلمة كل شاكر . وقال رضى الله عنه . الحمد لله هو الشكر لله ، هو الاستخذاء له والإقرار له بنعمته وهدايته وابتدائه وغير ذلك . الحمد لله رداء الرحمن ، وقال كعب الأحبار . الحمد لله ثناء الله . وفى معنى الحمد لله وفضلها آثار غير ما ذكرنا لا تحصى . ولما كان من أكبر نعم الله علينا ، وأجل مننه الواصلة إلينا ، هدايته إيانا إلى صراطه المستقيم ، الذى هو دين الإسلام الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد غيره ، ناسب الثناء عليه بها فقلت (كما

هدانا) أى على ما هدانا إرشاداً ودلالة بكتبه ورسله وتوفيقاً وتسديداً بمشيئته وقدره (إلى سبيل الحق) وهو دين الإسلام والإيمان (واجتبانا) له ، وبذلك قال تعالى ممتنا علينا وله الحمد والمنة (واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » ولما كان الحمد الخبرى أبلغ من الانشائى لدلالته على الثبوت والاستمرار قدمته عليه أولا ثم عطفت عليه الانشائى جميعاً بينهما فقلت .

أحمده سبحانه وأشكره ومن مساوى عملى أستغفره

(أحمده) أى أنشىء له حمداً آخر متجدداً على توالى نعمه وتواتر فضله ، فله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه (سبحانه) أى تنزيهاً له عما لايليق بنعوت جلاله وصفات كماله ، وهذه العبارة تتضمن معنى قوله ﷺ فى الحديث المتفق عليه « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (وأشكره) على ما أنعم وألهم امتثالا لقوله عز وجل (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) . واختلف العلماء فى معنى الحمد والشكر هل هما مترادفان أو لا ، فذهب إلى ترادفهما ابن جرير الطبرى صاحب التفسير وجعفر الصادق وغيرهما ، وذهب جماعة من المتأخرين إلى التفرقة بينهما ، وقال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى : الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن ، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر . فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر لأنه يكون على المحاسن والإحسان ، فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، وما خلقه فى الآخرة والأولى ، ولهذا قال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وقال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة) وقال تعالى (الحمد لله فاطر

ـ السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء . وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه ، لكنه يكون بالقلب واليد واللسان كما قيل :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور) والحمد يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة اسبابه . وفى الحديث و« الحمد لله رأس الشكر » ، فمن لم يحمد الله لم يشكره ، وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها » ، والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى . (ومن مساوىء) جمع مساءة (عملى) مضاف إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف . (أستغفره) السين للطلب أى أطلب منه مغفرة تلك المساوىء ما تقدم منها وما تأخر إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

وأستعينه على نيل الرضا   وأستمد لطفه فى ما قضى

(وأستعينه) أطلب منه العون (على نيل الرضا) أي على فعل الأعمال الصالحة التى بسببها ينال رضاه أن يرزقنيها وينيلنى رضاه بفضله ورحمته ، (وأستمد) أى أطلب منه الإمداد بأن يرزقنى (لطفه) فى (فيما قضى) وقدر من المصائب ، وأن يجعلنى راضياً بذلك مؤمناً به مستيقناً أنه من عند الله وأن وقوعه خير عندى من كونه لم يقع ، وأن يهدى قلبى كما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم) وكما قال ﷺ « وأسألك الرضا بعد القضاء » الحديث ، فإن ذلك أعلى درجات الإيمان بالقدر ، وهو الرضا بالمصيبة .

القول فى كلمة الشهادة

وبعد إنى باليقين أشهد   شهادة الإخلاص أن لا يعبد
بالحق مألوه سوى الرحمن   من جل عن عيب وعن نقصان

(وبعد) هو ظرف زمانى يؤتى به للتنبيه على ما بعده وفصله عما قبله ، ويبنى على

الضم لقطعه عن الإضافة ويغنى عن إعادة المضاف إليه (إنى باليقين) القاطع الجازم بدون شك ولا تردد (أشهد شهادة) مصدر مؤكد (الإخلاصْ) مضاف إلى شهادة من إضافة الصفة إلى الموصوف (أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن مستكن والتقدير أنه ، والخبر (لا يعبد) بضم الياء وفتح الباء بالبناء للمفعول (بالحق) يتعلق بيعبد (مألوه) نائب الفاعل ليعبد ومعناه معبودى (سوى) أداة استثناء بمعنى إلا (الرحمن) أى لا معبود بحق إلا الله عز وجل ، والتقييد بحق يخرج به الآلهة المعبودة بباطل فإنها قد عبدت ، والمنفى هو استحقاق العبادة عن غير الله عز وجل لا وقوعها ، وهذه هى شهادة أن لا إله إلا الله ، ولما لم يكن فى النظم الإتيان بلفظها نظمتها بمعناها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط القول فى تفسيرها (من جل) فى صفات كماله ونعوت جلاله (عن عيب وعن نقصان) وهما لفظان مترادفان فكل عيب يسمى نقصاناً وكل نقصان يسمى عيباً والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك كله ، بل له الجلال المطلق والكمال المطلق فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

وأن خيــر خلقــه محمــــدا	مــن جاءنــا بالبينــات والهدى
رسولـه إلـى جميــع الخلــق	بالنـــور والهدى وديـــن الحق

(و) أشهد (أن خير) أفضل (خلقه) هاء الضمير يعود على الرحمن (محمدا) يدل من خير أو عطف بيان ، ومعناه الكثير الحامد فهو أبلغ من محمود . (من جاءنا بالبينات والهدى) من عند الله عز وجل ، هذه الجملة صلة من وهو محله النصب نعت لمحمد ﷺ والخبر (رسوله) الرسول بمعنى المرسل وهو من أوحى إليه وأمر بالتبليغ ، فإن أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى فقط ، فكل رسول نبى ولا عكس (إلى جميع الخلق) كافة قال الله عز وجل (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وفى الصحيح من حديث الخصائص « وكان الرسول يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة وفيه أيضاً والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » . (بالنور المبين) وهو القرآن الذى قال الله عز وجل فيه (يا أيها الناس قد جاءكم

برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله » الآية ، وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وغير ذلك من الآيات (والهدى) الإرشاد والدلالة إلى الصراط المستقيم ، (ودين الحق) الإسلام الذى لا يقبل الله تعالى من أحد غيره قال الله عز وجل (وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وكل من القرآن والرسول والإسلام يسمى نوراً وهدى وصراطاً مستقيماً . وكل الثلاثة متلازمة تقول أرسل الله عز وجل رسوله وأنزل عليه كتابه بدين الإسلام ، وتقول دين الإسلام هو الذى أرسل الله به رسوله وأنزل عليه كتابه ، وكل منها نور مبين ، وهدى مستبين ، وصراط مستقيم .

القول فى الصلاة ، والتعريف بالآل والأصحاب

صلى عليه ربنا ومجدا ... والآل والصحب دواماً سرمدا

(صلى عليه ربنا) قال أبو العالية : الصلاة من الله عز وجل ثناؤه على عبده فى الملأ الأعلى ، ذكره عنه البخارى . ومنه قوله تعالى (وهو الذى يصلى عليكم وملائكته) وفى الصحيح من الحديث القدسى « وإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » . (ومجدا) بألف الإطلاق أى شرفه وزاده تشريفاً وتمجيداً (والآل) أى آله ﷺ وهم أتباعه وأنصاره إلى يوم القيامة كما قيل :

آل النبى همو أتبـاع ملته ... على الشريعة من عجم ومن عرب
لو لم يكن آله إلا قرابته ... صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

ويدخل الصحابة فى ذلك من باب أولى ، ويدخل فيه أهل بيته من قرابته وأزواجه وذريته من باب أولى وأولى . (والصاحب) جمع صحابى وهو من رأى أو لقى النبى ﷺ مؤمناً به ولو لحظة ومات على ذلك ولو تخللت ردة فى الأصح ، وهم أفضل القرون فى هذه الأمة ، وسيأتى فى آخر المتن الكلام على فضل بعضهم على بعض إن شاء الله تعالى .

التعريف بموضوع الكتاب

وبعد هذا النظم فى الأصول — لمن أراد منهج الرسول
سألنى إياه من لابد لى — من أمتثال سؤله الممتثل

(وبعد) تقدم الكلام عليه قريباً ، أى وبعد الشهادتين والصلاة والسلام على محمد ﷺ وآله وصحبه (هذا النظم) الألف واللام للعهد الحضورى ، موضوعه (فى الأصول) والمراد بها هنا أصول الدين من الإيمان بالله عز وجل وأسمائه وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وأركان الإسلام الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج وما يتعلق بكل منها ، والكلام على رسالة نبينا محمد ﷺ وما يتعقل بها ، والكلام فى مسألة الخلافة ، والاعتصام بالكتاب والسنة وما تحتوى عليه كل مسألة من ذلك ، وسترى إن شاء الله تعالى تبيانها مفصلا (لمن أراد) من المؤمنين . (منهج الرسول) سبيله ومسلكه وهو ما عليه أهل السنة والجماعة . (سألنى الخ) البيت بين واضح .

فقلت مع عجزى ومع إشفاق — معتمداً على القدير الباقى

(فقلت) جواب سألنى (مع عجزى) عدم قدرتى على ذلك (ومع إشفاق) خوفى من الغلط فى هذا الباب الذى المسألة منه أكبر من الدنيا وما فيها ، وذلك لقصر باعى وقلة اطلاعى ، والذى قوى عزمى على ذلك هو كونى (معتمداً) أى متوكلا (على القدير) الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض (الباقى) الذى كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

مقدمـــة

تعرف العبد بما خلق له ، وبأول ما فرض الله تعالى عليه

وبما أخذ الله عليه به الميثاق فى ظهر أبيه آدم ، وبما هو صائر إليه

اعلـم بـأن الله جـل وعـــلا لـم يتـرك الخلـق سدى وهملا

بـل خلـق الخلـق ليعبـــدوه وبالإلهيـــــــة يفـــــــردوه

(اعلم) كلمة يؤتى بها للاهتمام وللحث على تدبر ما بعدها ، والخطاب بها فى هذا الموضع لكل المكلفين . (بأن الله جل) شأنه وتنزه عن كل نقص (وعلا) بكل معانى العلو (لم يترك الخلق سدى و) لا (هملا) أى لا يأمرهم ولا ينهاهم فى الدنيا ولا يبعثهم فيجازيهم فى الآخرة ، لأنه تعالى ما خلقهم إلا بالحق لا عبثاً ولا باطلا ، بل لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، قال الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) . (ربنا ما خلقت هذا) أى الخلق (باطلا) لا بل بالحق . ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا (سبحانك) أى عن أن تخلق شيئاً باطلا تباركت وتعاليت . وقال تعالى (خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات بما حوت ، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، ثم نزه تعالى نفسه عن شرك من عبد غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له . فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له . ثم نبه تعالى على خلق جنس الإنسان من نطفة أى مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً ، وهذا كقوله تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منا ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب

(وأنكم إلينا لا ترجعون) أى لا تعودون فى الدار الآخرة ، لا ، ليس الأمر كذلك ، إنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ثم نبعثكم ليوم لا ريب فيه فنجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا يقوله تعالى لأهل النار توبيخاً وتقريعاً وتبكيتاً بعد ما رأوا الحقائق عين اليقين . ثم قال تعالى منزهاً نفسه عما حسبوه (فتعالى الله الملك الحق) أى تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ، وليس الأمر كما يظنه الذين كفروا الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً وإنما يعتقدون هذه الدار فقط (فويل للذين كفروا من النار) أى ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم . ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) أى لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلابد من دارٍ أخرى يثاب فيها هذا المتقى ويعاقب فيها هذا الفاجر . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلابد فى حكمه الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا المظلوم من هذا الظالم ، وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . وقال تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) يقول تعالى منبهاً على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه قال تعالى : (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله عز وجل الأشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة . ولهذا قال تعالى (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) وقال تعالى (خلق الله السموات والأرض بالحق) أى للحق وإظهار الحق لا على وجه العبث واللعب (إن فى ذلك) أى فى خلقها (لآية) أى لدلالة (للمؤمنين) على أنه تعالى المتفرد بالقدر والخلق والتدبير والإلهية . وقال تعالى (خلق الله السموات والأرض بالحق) أى بالعدل (ولتجزى

كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) . وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى لا على وجه العبث واللعب (وأجل مسمى) أى وإلى مدة معينة مضروبة يعنى يوم القيامة وهو الأجل الذى تنتهى إليه السموات وهو الإشارة إلى فنائهما.

وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال السدى : يعنى لا يبعث . وقال مجاهد والشافعى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا محشور إلى الله فى الدار الآخرة (بل خلق) الله تعالى (الخلق ليعبدوه) عز وجل بما شرعه على ألسنة رسله وأنزل به كتبه (و) مع عبادتهم إياه لا يشركون بعبادته أحداً كائناً من كان بل (بالإلهية يفردوه) دون ما سواه ، فمن عبد الله تعالى ألف سنة ثم أشرك به لحظة من اللحظات ومات على ذلك حبط جميع عمله وصار هباء منثورا حيث أشرك مع الله فى عبادته من هو مثله مخلوق لعبادة الله عز وجل ، قال الله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أى إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم لعبادتى . يؤيده قوله عز وجل (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وقال على بن أبى طلحة عن بن عباس رضى الله عنهما : إلا ليعبدون ، إلا ليقروا بعبادتى طوعاً أو كرهاً . وهذا اختيار ابن جرير ، وقال بن جريج ومجاهد : إلا ليعرفون ، وقال الربيع بن أنس : أى إلا للعبادة طوعاً أو كرهاً ، وقال السدى : من العبادة ما ينفع ومنها ملا لا ينفع (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فهذا منهم عبادة ولا ينفعهم مع الشرك وقال الضحاك : المراد بذلك المؤمنون . ا . هـ . من تفسير ابن كثير . وقال الكلبى والضحاك وسفيان : هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين يدل عليه قراءة ابن عباس (وما خلقت الجن والإنس — من المؤمنين — إلا ليعبدون) ثم قال فى آية أخرى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) وقال بعضهم : وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتى ، والأشقياء منهم إلا لمعصيتى . وهذا معنى قول زيد بن أسلم قال : هم على ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة ، وقيل : معناه إلا ليخضعوا إلى ويتذللوا ، ومعنى العبادة فى اللغة التذلل والانقياد ، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله ومتذلل لمشيئته ولا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولا ضر . وقيل : إلا ليعبدون ، إلا ليوحدون . فأما المؤمن فيوحد فى الشدة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده فى

الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء ، بيانه قوله عز وجل (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) الآية : ا. هـ . من تفسير البغوى رحمه الله تعالى . قلت : وهذه الأقوال فى هذه الآية ، وإن كانت متقاربة والآية تسع جميعها ، أرجحها الأول وهو قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : إلا لآمرهم وأدعوهم لعبادتى . يؤيده قوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) وقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) الآية وغيرها من الآيات . ويؤيد ذلك أن الله تبارك وتعالى إنما شاء العبادة من جميع عباده وأرادها منهم وقضاها عليهم فى الشرع لا فى الكون ، فمن أطاع أمره وأتى بما أراده وشاءه منه فله رضاه والجنة ومن خالف فى ذلك فله سخطه والنار . ولو شاء الله تعالى من جميعهم العبادة وأرادها فى الكون لم يكن لهم بد من ذلك ولم يكن لأحد إلى معصية الله تعالى من سبيل ، ولا يخرج عن قضائه تعالى وقدره شىء من المخلوقات مثقال ذرة ، فإنه لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مضاد لأمره ، ولا ناقض لما أبرمه ، ولا دافع لما قدره ، ولذلك قال المفسرون هذا المعنى فى قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) فقال ابن عباس وقتادة والحسن : وأمر ربك . وقال الربيع ابن أنس : وأوجب ربك . وقال مجاهد : وأوصى ربك . وقرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) ولو أنه تبارك وتعالى قضى فى الكون أن لا يعبد إلا إياه لم يشرك به أحد من خلقه ، وإنما قضى ذلك شرعاً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . وهذه المشيئة منه للعبادة من عباده شرعاً عامة لمؤمنهم وكافرهم ، وأما مشيئته للعبادة الكونية القدرية فخاصة للمؤمنين ، فلهذا اتفقت فيهم المشيئتان فوافقوا المشيئة الشرعية لما سبق لهم فى المشيئة القدرية الكونية ، وأما الكافر فلم يوافق المشيئة الشرعية لما سبق عليه فى المشيئة القدرية من الشقاوة . فتبين بهذا أن المشيئة الكونية القدرية لا خروج لأحد منها ، ولا محيد له عنها ، سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة . وأما المشيئة الشرعية فمن كان سبق له فى القدرية أنه يوافقها كان كذلك ، أو يخالفها كان كذلك .

وأما معنى العبادة فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة — يعنى الظاهرة — وكذلك حب الله ورسوله وخشيته والانابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هى من العبادة لله — يعنى الباطنة — وجماع العبادة كمال الحب مع كمال الذل . وسيأتى إن شاء الله تعالى زيادة بحثها فى بابها من المتن

أخرج فيما قد مضى من ظهر آدم ذريته كالذر

وأخذ العهد عليهم أنه لا رب معبود بحق غيره

(أخرج) أى الله تبارك وتعالى (فيما) أى الزمن الذى (قد مضى) ذلك بعد خلقه آدم عليه الصلاة والسلام (من ظهر . آدم) أبى البشر عليه السلام (ذريته) كل من يوجد منهم إلى يوم القيامة (كالذر) أى كهيئته (وأخذ) عز وجل (العهد عليهم) وتفسير العهد (أنه) الضمير للشأن أو الحال هو ربهم (لا رب معبود) مستحق للعبادة ولذا قيد (بحق غيره) وإلا فكم قد اتخذ أعداؤه من أرباب وعبدوها بالباطل بدون حق بل بالظلم العظيم قال الله تبارك وتعالى :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِماَ فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتدياً به ؟ قال . فيقول : نعم ، فيقول قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجاه فى الصحيحين . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال تعالى (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من

قبل وكنا ذرية — إلى قوله — المبطلون) رواه أحمد والنسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد روى من طرق كثيرة موقوفاً وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية — فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » رواه أحمد وأبوا داود والنسائى والترمذى وابن أبى حاتم وابن جرير وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : هذا حديث حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصاً من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال : أى رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب، رده من عمرى أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها لابنك داود ؟ قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته . ونسى آدم ، فنسيت ذريته » رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يارب لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال : كى تشكر نعمتى وقال آدم : يارب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً ؟ قال : هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » . ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم . وعن هشام ابن حكيم رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، أتبدأ الأعمال أم قد قضى القضاء ؟ قال فقال رسول الله ﷺ « إن الله قد أخذ ذرية

آدم من ظهورهم ، ثم أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم فى كفيه ثم قال: هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار . فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه . وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال قال يا أصحاب الشمال قالوا : لبيك وسعديك . قال : ألست بربكم ، قالوا : بلى . ثم خلط بينهم . فقال له يارب لم خلطت بينهم ، قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، ثم ردهم فى صلب آدم » رواه ابن مردويه ، وفيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء . رواه ابن جرير . وله عنه رضى الله عنه قال : إن الله تعالى مسح صلب آدم فأستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالرزق . ثم أعادهم فى صلبه . فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول . ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة . وله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم قال : أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم واشهدهم على أنفسهم : الست بربكم ؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وصحيح ابن كثير وقفه . وعن أبى بن كعب رضى الله عنه فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآيات ، قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ، ثم إستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . الآية ، قال : فانى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئاً ، وإنى سأرسل إليكم رسلا ليذكروكم عهدى وميثاق وانزل عليكم كتبى . قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ،

فقال يارب لو سويت بين عبادك قال إنى احببت ان اشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله) الآية ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه ، وفى البغوى قال مقاتل وغيره من أهل التفسير : إن الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر يتحركون ، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال يا آدم هؤلاء ذريتك ، ثم قال لهم ألست بربكم ، قالوا بلى ، فقال للبيض : هؤلاء فى الجنة برحمتى ولا أبالى وهم أصحاب اليمين ، وقال للسود : هؤلاء فى النار ولا أبالى وهم أصحاب الشمال ، ثم أعادهم جميعاً فى صلبه ، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء ، قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) وقال بعضهم أهل التفسير : إن أهل السعادة أقروا طوعاً وقالوا بلى . وأهل الشقاوة قالوا تقية وكرهاً . وذلك معنى قوله تعالى (وله اسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً) واختلفوا فى موضع الميثاق قال ابن عباس رضى الله عنهما : ببطن نعمان واد إلى جنب عرفة . وروى عنه أيضاً أنه بدهناء من أرض الهند وهو الموضع الذى هبط آدم عليه السلام عليه ، وقال الكلبى : بين مكة والطائف ، وقال السدى : اخرج آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبطه من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته ، وروى أن الله تعالى أخرجهم جميعاً وصورهم وجعل لهم عقولا يعلمون بها وألسناً ينطقون بها ثم كلمهم قبلا يعنى عياناً وقال : ألست بربكم ؟ وقال الزجاج : وجائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذر فهما تعقل به كما قال تعالى (قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم) قال البغوى : فإن قيل ما معنى قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) وإنما أخرجهم من ظهر آدم ؟ قيل إن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء فى الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره . قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أى أشهد بعضهم على بعض ، قوله (شهدنا أن تقولوا) قرأ أبو عمرو أن يقولوا ، أو يقولوا ، بالياء فيهما ، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما . واختلفوا فى قوله (شهدنا) قال السدى : هو خبر من الله عز وجل عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على

إقرار بنى آدم ، وقال بعضهم هو خبر عن قول بنى آدم أشهد الله بعضهم على بعض فقالوا بلى شهدنا ، وقال الكلبى ذلك من قول الملائكة وفيه حذف تقديره لما قالت الذرية بلى قال الله عز وجل للملائكة اشهدوا قالوا شهدنا . قوله (أن يقولوا) يعنى وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا أى لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا . ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام أخاطبكم ألست بربكم لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أى عن هذا الميثاق والإقرار ، فإن قيل كيف يلزم الحجة واحداً لا يذكر الميثاق ؟ قيل قد أوضح الله تعالى الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا ، فمن أنكره كان معانداً ناقضاً للعهد ولزمته الحجة ، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد إخبار المخبر صاحب المعجزة ، قوله (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) يقول إنما أخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون إنما أشرك آباؤنا من قبل ونقضوا العهد وكنا ذرية من بعدهم أى كنا أتباعاً لهم فاقتدينا بهم فتجعلوا هذا عذراً لأنفسكم وتقولوا (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين ؟ فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد (وكذلك نفصل الآيات) أى نبين الآيات ليتدبرها العباد (ولعلهم يرجعون) من الكفر إلى التوحيد . ا. هـ . البغوى وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : وذهب طائفة من السلف والخلف أن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » أخرجاه . وفى صحيح مسلم عن عياض ابن حمار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وعن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون الذرية » ؟ فقال رجل يارسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين . ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن ولقد قال الله تعالى فى كتابه « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) قالوا ولهذا قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد

قرن كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال تعالى (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) (أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا ، قال والشهادة تكون بالقول كقوله تعالى (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالمقال ، وتارة يكون بالحال كقوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فان قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب إن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال تعالى (أن تقولوا) أى لئلا تقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن التوحيد (أى تقولوا إنما أشرك آباؤنا) الآية ا. هـ . قلت : ليس بين التفسيرين منافاة ولا مضادة ولا معارضة فإن هذه المواثيق كلها ثابتة بالكتاب والسنة ، الأول الميثاق الذى أخذه الله تعالى عليهم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم عليه السلام واشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى) الآيات ، وهو الذى قاله جمهور المفسرين رحمهم الله فى هذه الآيات ، وهو نص الأحاديث الثابتة فى الصحيحين وغيرهما . الميثاق الثانى ميثاق الفطرة وهو أنه تبارك وتعالى فطرهم شاهدين بما أخذه عليهم فى الميثاق الأول كما قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) الآية . وهو الثابت فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار والأسود بن سريع رضى الله عنهم وغيرها من الأحاديث فى الصحيحين وغيرهما . الميثاق الثالث هو ماجاءت به الرسل وأنزلت به الكتب تجديداً للميثاق الأول وتذكيرا به (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيما) فمن أدرك هذا الميثاق وهو باق على فطرته التى هى شاهدة بما ثبت فى الميثاق الأول فانه يقبل ذلك من أول مرة ولا يتوقف ، لأنه جاء موافقاً لما فى فطرته وما جبله الله عليه فيزداد بذلك يقينه ويقوى إيمانه فلا يتعلثم ولا يتردد . ومن أدركه وقد تغيرت فطرته عما جبله الله عليه من الإقرار بما ثبت فى الميثاق الأول بأن كان قد اجتالته الشياطين عن دينه وهوده أبواه أو نصراه

أو مجساه فهذا إن تداركه الله تعالى برحمته فرجع إلى فطرته وصدق بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب نفعه الميثاق الأول والثانى ، وإن كذب بهذا الميثاق كان مكذباً بالأول فلم ينفعه إقراره به يوم أخذه الله عليه حيث قال (بلى) جواباً لقوله تعالى (ألست بربكم) وقامت عليه حجة الله وغلبت عليه الشقوة وحق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء . ومن لم يدرك هذا الميثاق بأن مات صغيراً قبل التكليف مات على الميثاق الأول على الفطرة فإن كان من أولاد المسلمين فهم مع آبائهم ، وإن كان من أولاد المشركين فالله أعلم بما كان عاملا لو أدركه كما فى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال ﷺ « الله تعالى إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين » . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن ذرارى المشركين فقال ﷺ « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وبعد هذا رسله قد أرسلا	لهم وبالحق الكتاب أنزلا
لكى بذا العهد يذكروهم	وينذروهم ويبشروهم
كى لا يكون حجة للناس بل	لله أعلى حجة عز وجل
فمن يصدقهم بلا شقاق	فقد وفى بذلك الميثاق
وذاك ناج من عذاب النار	وذلك الوارث عقبى الدار
ومن بهم وبالكتاب كذبا	ولازم الاعراض عنه والإبا
فذاك ناقض كلا العهدين	مستوجب للخزى فى الدارين

(وبعد هذا) أى الميثاق الذى أخذه عليهم فى ظهر أبيهم ثم فطرهم وجبلهم على الاقرار به وخلقهم شاهدين به (رسله) باسكان السين للوزن مفعول أرسل مقدم (قد أرسلا) بألف الاطلاق (لهم) أى إليهم (وبالحق) متعلق بأنزل أى بدين الحق (الكتاب) جنس يشمل جميع الكتب المنزلة على جميع الرسل (أنزلا) بألف الاطلاق والأمر الذى أرسل الله تعالى به الرسل إلى عباده وأنزل عليهم به الكتب هو (لكى بذا العهد) الميثاق الأول (يذكروهم) تجديداً له وإقامة لحجة الله البالغة عليهم (وينذروهم) عقاب الله إن هم عصوه ونقضوا عهده (ويبشروهم) بمغفرته ورضوانه إن هم وفوا بعهده ولم ينقضوا ميثاقه وأطاعوه وصدقوا رسله ، والحكمة فى ذلك (لكى لا يكون حجة) على الله عز وجل (للناس بل لله) على جميع عباده (أعلى حجة) أبلغها وأدمغها (عز) سلطانه (وجل)

شأنه عن أن يكون لأحد عليه حجة ، كما قال تعالى لنبيه محمد ﷺ وهو خاتم الرسل والمصدق لما جاء وابه وكتابه مصدق لما بين يديه مما معهم من الكتب ومهيمن عليه (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما) وقال تعالى لنبيه ﷺ (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) وقال تعالى له ﷺ (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً) الآيات . وقال تعالى له (إن أنت إلا نذير) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) الآيات . وقال تعالى (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وغير ذلك من الآيات التى يخبر الله تعالى فيها أنه ما أرسل من رسول إلا داعياً إلى عبادة الله عز وجل لا شريك له والكفر بما سواه من الأنداد ومبشراً لمن صدقه وأطاعه بالجنة ونذيراً لمن كذبه وعصاه من النار . ثم أخبر تعالى أن المراد بذلك (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (قل فلله الحجة البالغة) . وتقدير البحث فى الرسالة واتفاق الرسل فى دعوتهم يأتى فى بابه إن شاء الله عز وجل . (فمن يصدقهم) يعنى الرسل (بلا شقاق) تكذيب ولا مخالفة (فقد وفى) لربه عز وجل (بذلك الميثاق) العهد الأول ، وهؤلاء هم القليل من الثقلين ولكن هم جند الله الغالبون المنصورون فى الدنيا ، وحزبه المفلحون الفائزون فى الآخرة ، وجواب الشرط (فذاك ناج من عذاب النار) إذ لم يرتكب أسباب دخولها من معصية الله وتكذيب رسله كما ارتكب ذلك من خلق لها (وذلك الوارث عقبى الدار) وهى الجنة لفعله أسبابها التى أمره الله عز وجل بها من الوفاء بعهد الله وميثاقه وتصديق رسله وكتبه والعمل بجميع طاعته تبارك وتعالى (ومن بهم) أى بالرسل (وبالكتاب) أى الكتب التى أنزل الله عليهم ليبلغوها إلى عباده ويبينوها ليعملوا بما فيها (كذبا) ، (ولازم الأعراض عنه) عما أرسل الله به رسله (والإبا) أى الامتناع ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا

به رسلنا فسوف يعلمون) الآيات وقال تعالى فيهم (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشه ضنكا) الآيات وغيرها وهؤلاء أكثر الثقلين كما قال الله تبارك وتعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) وقال تعالى (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وغير ذلك من الآيات .
وجواب الشرط (فذاك) أى المكذب بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله الآبى منه المعرض عنه المصر عن ذلك حتى مات عليه هو (ناقض كلا العهدين) الميثاق الذى أخذه الله عليه وفطره على الاقرار به وما جاءت به الرسل من تجديد الميثاق الأول وإقامة الحجة (مستوجب) بفعله ذلك (للخزى فى الدارين) أى فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) وقد وفى بذكر الفريقين الموفين بالعهد والناقضين له وما لكم منهم وما عليه فى الدنيا والآخرة قول الله عز وجل (للذين استجابوا لربهم) أى فيما دعاهم إليه على ألسنة رسله وهم الفريق الأول (الحسنى) الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وهم الفريق الثانى « لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) وتأويل ذلك ما ورد فى الصحيحين من طرق عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى لأهون أهله النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ما فى الأرض من شىء أكنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بى » وقد تقدم ذكره قريبا « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق) يعنى الفريق الأول (كمن هو أعمى) يعنى الفريق الثانى ، لا والله ليسوا سواء (إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) يتناول كل العهود والمواثيق التى أمر الله عز وجل بالوفاء بها مع الحق ومع الخلق وتناولها للميثاق المذكور من باب أولى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من صلة الأرحام ومن الإيمان بالله ورسله وعدم التفريق بين أحد منهم (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا) على قدر الله وعلى ملازمة طاعته وعن معصيته (ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) .
فكأنه قيل : ما هى ؟ فقال تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ثم ذكر الفريق الثانى بصفاتهم السيئة وبين جزاءهم عليها والعياذ بالله تعالى فقال

تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) فسبحان الله وبحمده ما أبلغ حكمته وأعدل حكمه ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فصل فى انقسام التوحيد إلى نوعين
وبيان النوع الأول وهو توحيد المعرفة والإثبات

أول واجـب علـى العبيـد	معرفـة الرحمـن بالتوحيـد
إذ هو من كل الأوامر أعظم	وهـو نوعـان أيـاً مـن يفهـم
إثبـات ذات الـرب جل وعـلا	أسمائـه الحسنـى صفاتـه العلـى
وأنـه الـرب الجليـل الأكبـر	الخالـق البـارىء والمصـور
بارى البرايا منشىء الخلائـق	مبدعهـم بـلا مثـال سابـق

(أول واجب) فرضة الله عز وجل (على العبيد) هو (معرفة الرحمن) أى معرفتهم إياه (بالتوحيد) الذى خلقهم له وأخذ عليهم الميثاق به ، ثم فطرهم شاهدين مقرين به ، ثم أرسل به رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم : (إذ) حرف تعليل لأولية وجوب معرفة العباد ربهم تبارك وتعالى بالتوحيد (هو من كل الأوامر) جمع أمر وهو خطاب الله عز وجل المتعلق بالمكلفين بصيغة تستدعى الفعل (أعظم) كما أن ضده من الشرك والتعطيل والتمثيل هو أعظم المناهى ، ولهذا لا يدخل العبد فى الإسلام إلا به ولا يخرج منه إلا بضده ولم يزحزح عن النار ويدخل الجنة إلا به . ولا يخلد فى النار ويحرم الجنة إلا بضده ولم تدع الرسل إلى شىء قبله ولم تنه عن شىء قبل ضده . (هو) أى التوحيد (نوعان) : الأول التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . والثانى التوحيد الطلبى القصدى الإرادى وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به رباً وإلهاً وولياً وأن لا يجعل له عدلا فى شىء من الأشياء وهو توحيد الإلهية . والقرآن كله من أوله إلى آخره فى تقرير هذين التوحيدين ، لأنه إما خبر عن الله عز وجل وما يجب أن يوصف به وما يجب أن ينزه عنه وهو التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الطلبى الإرادى . وإما أمر ونهى وإلزام بطاعته فذلك من حقوق

التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا من النصر والتأييد وما يكرمهم به فى الآخرة وهو جزاء توحيده . وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يفعل بهم فى العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده . فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم ، اقرأ فى الجمع بين التوحيدين (طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) وآية الكرسى وقل هو الله أحد وغيرها من القرآن . واقرأ فى الأمر والنهى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) واقرأ فى إكرام أهل التوحيد فى الدنيا والآخرة (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) واقرأ فى إخزاء أهل الشرك فى الدنيا والآخرة (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) .

والكلام فى هذا الفصل على النوع الأول ، وهو التوحيد العلمى الخبرى الاعتقادى وهو (إثبات) بالرفع بدل بعض من قولنا « نوعان » أى الأول منهما (إثبات ذات الرب جل وعلا) فإن هذه العوالم العلويات والسفليات لابد لها من موجد أوجدها ويتصرف فيها ويدبرها . ومحال أن توجد بدون موجد . ومحال أن توجد أنفسها . قال الله تبارك وتعالى فى مقام إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) . قال ابن عباس رضى الله عنهما (أم خلقوا من غير شىء) أى من غير رب ومعناه أخلقوا من غير شىء خلقهم فوجدوا بلا خالق ، وذلك مما لا يجوز أن يكون لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم فلابد له من خالق فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق . (أم هم الخالقون) لأنفسهم وذلك فى البطلان أشد لأن ما لا وجود له كيف يخلق فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به (أم خلقوا السموات والأرض) وهذا فى البطلان أشد وأشد فإن المسبوق بالعدل يستحيل إن يوجد بنفسه فضلا عن أن يكون موجداً لغيره وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله عز وجل وهم يعلمون أنه الخالق لا شريك له (بل لا يوقنون) أى ولكن عدم إيقانهم هو

الذى يحملهم على ذلك . وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون) كاد قلبى أن يطير . أخرجاه فى الصحيحين . وكثيراً ما يرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستدلال على معرفته بآياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية كما قال تعالى (وفى الأرض آيات للموقنين) أى فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال عز وجل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) قال قتادة من تفكر فى خلق نفسه علم أنه إنما لينت مفاصله للعبادة ، وكذا ما فى ابتداء الإنسان من الآيات العظيمة إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً إلى أن نفخ فيه الروح . وقال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوى والسفلى (والسماء بنيناها) أى جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً (بأيد) أى بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد ، (وإنا لموسعون) قال بن عباس رضى الله عنهما : لقادرون ، وعنه أيضاً : لموسعون الرزق على خلقنا . وقيل : ذو سعة . وقال ابن كثير : أى قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى . (والأرض فرشناها) أى جعلناها فراشاً للمخلوقات (فنعم الماهدون) الباسطون نحن . قال ابن عباس : نعم ما وطأت لعبادى . (ومن كل شيء خلقنا زوجين) صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض ، والشمس والقمر والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء والصيف ، والجن والإنس ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ، والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والجنة والنار ، والحق والباطل ، والحلو والمر ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والجامد والنامى ، والمتحرك والساكن ، والحر والبرد وغير ذلك (لعلكم تذكرون) أى لتعلموا أن الخالق واحد فرد لا شريك له ، ا. هـ . بن كثير والبغوى . وقال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف

الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) قال أبو الضحى : لمّا نزلت (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) قال المشركون إن كان هكذا فليأتنا بآية : فأنزل الله عز وجل (إن فى خلق السموات والأرض) تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع (واختلاف الليل والنهار) هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر . ويعقبه ولا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان ، كما قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا (والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) كما قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) إلى قوله (ومما لا يعلمون) . (وبث فيها من كل دابة) على اختلاف أشكالها وأنواعها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شىء من ذلك كما قال تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) (وتصريف الرياح) فتارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وهى الريح ، وتارة تأتى مبشرات بين يدى السحاب ، وتارة تسوقها ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتى من الشمال وهى الشامية ، وتارة تأتى من ناحية اليمين ، وتارة صبا وهى الشرقية ، وتارة دبور وهى غربية وغير ذلك والله أعلم (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى (لآيات لقوم يعقلون) أى فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى (لقوم يعقلون) فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً غنياً بذاته وكل سواه [illegible] إليه ، قائم بذاته وكل ما سواه لا يقوم إلا به ، قدير لذاته وكل ما سواه عاجز لا [illegible] له إلا [illegible] متصف بجميع صفات الكمال ، وكل ما سواه فلازمه النقص وليس الكمال المطلق إلا له وهو الله تبارك وتعالى . وقال تبارك وتعالى (ومن آياته أن خلقكم من ترا[illegible] ، ثم إذا أنتم تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض

واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أنه تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاماً شكله شكل إنسان ثم كسا الله تعالى تلك العظام لحماً ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم أخرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ويسافر فى أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم فى العلوم والفكر والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ، وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحزن وغير ذلك » رواه أحمد وأبو داود والترمذى . وقال حسن صحيح .
(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً) أى خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً (لتسكنوا إليها) كما قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) يعنى بذلك حواء خلقها الله تعالى من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل الأزواج من جنسهم (وجعل بينهم مودة) وهى المحبة (ورحمة) وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فى عظمة الله وقدرته (ومن آياته) الدالة على قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما

فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار (واختلاف ألسنتكم) يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء إفرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء فرس ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله عز وجل من اختلاف لغات بنى آدم (وألوانكم) أى واختلاف أوانكم أبيض وأسود وأحمر ، وأنتم أولاد رجل واحد ، وامرأة واحدة ، وغير ذلك من اختلاف الصفات والحلى ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشىء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر (إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل فإن فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ، (وإن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع تدبر واعتبار (ومن آياته) الدالة على عظمته أنه (يريكم البرق خوفاً وطمعاً) أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجعون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى (وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها) أى بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على الميعاد وقيام الساعة ، ولهذا قال تعالى (وإن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وقوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال : والذى قامت السموات والأرض بأمره ، أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى من الأرض كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال تعالى (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) وقال

تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) والآيات فى هذا الباب العظيم من الاستدلال بالمخلوقات على وجود خالقها وقدرته وعظمته أكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى وفيما ذكرنا كفاية وغنى يغنى عن خرط المناطقة ومقدماتهم ونتائجهم وتناقضهم فيها ، والله تبارك وتعالى أعلى وأكبر وأجل وأعظم من أن يحتاج فى معرفة وجوده إلى شواهد واستدلالات ، فذات المخلوق نفسه شاهدة بوجود خالقه حيث أوجده ولم يك من قبل شيئاً ، فلم يذهب يستدل بغيره وفى نفسه الآية الكبرى والبرهان الأعظم ، وشأن الله تعالى أكبر من ذلك ، ولم يجحد وجوده من جحده من أعدائه إلا على سبيل المكابرة ، ولهذا قال تعالى فى كفرهم بآياته (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فكيف بوجود الخالق تبارك وتعالى . ولهذا لما قال أعداء الله لرسله على سبيل المكابرة لما جاءوهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا (إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض) وهذا يحتمل شيئين : أحدهما أفى وجوده تعالى شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ولكن قد يعرض لغيرها شك واضطراب وأكثر ذلك على سبيل المكابرة والاستهزاء ، فيجب إقامة الحجة عليهم للاعذار إليهم ، ولهذا قالت لهم رسلهم ترشدهم إلى طريق معرفته فقالوا (فاطر السموات والأرض) الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما فلابد لهما من خالق وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ، وإلهه ومليكه . والمعنى الثانى فى قولهم (أفى الله شك) أى أفى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالخالق ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقربهم . والجواب لهذا الاستفهام على كلا المعنيين : لا ، أى لا شك فيه .

ذكر مناظرة أخرى بين رسل الله وأعدائه

قال الله تبارك وتعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِى حاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، والله لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين) .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : هذا المحاج هو ملك بابل واسمه نمرود

بن كنعان ، ذكروا أنه استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا ، ولما دعاه الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الخالق جل وعلا عناداً ومكابرة فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل عليه الصلاة والسلام (ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق : يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا الآخر ، وهذا ليس بمعارضة للخليل عليه الصلاة والسلام بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع فى الحقيقة ، فإن الخليل عليه الصلاة والسلام استدل على وجود الخالق جل وعلا بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وإماتتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إليه فى وجودها ضرورة لعدم قيامها بأنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام (ربى الذى يحيى ويميت) فقول هذا الجاهل أنا أحيى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مستلزماً ولا عارض الدليل . ولما كان انقطاع مناظرة هذا المحاج قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الخالق وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة (قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ، فإن كنت كما زعمت أنك تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل وأذل من أن تخلق بعوضة أو تتصرف فيها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل عليه الصلاة والسلام به بل انقطع وسكت ، ولهذا قال تعالى (فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) .

ذكر مناظرة أخرى من ذلك أيضاً

قال الله تبارك وتعالى (قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) يذكر تعالى ما كان بين موسى وفرعون من المقاولة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله أظهر جحد الخالق تبارك وتعالى وزعم أنه الإله (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) وقال (يا أيها الملأ ما علمت ليكم من إله غيرى) وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور الإله الحق كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته وإظهار أنه ما ثمَّ رب أرسله (وما رب العالمين) لأنهما قالا له (إنا رسول رب العالمين) فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ، فأجابه موسى قائلا (رب السموات والأرض وما بينهما) أى خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له هو الله الذى خلق الأشياء كلها العالم العلوى وما فيه من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير والسحاب المسخر والرياح والمطر وما يحتوى عليه الجو وغير ذلك من المخلوقات التى يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين ، الجميع مذللون مسخرون وعبيد له خاضعون ذليلون (إن كنتم موقنين) أى إن كانت لكم قلوب مؤقنة وأبصار نافذة (قال) أى فرعون (لمن حوله) من أمرائه ومرازبته وكبرائه ورؤساء دولته على سبيل التهكم والتنقص والاستهزاء والتكذيب لموسى عليه الصلاة والسلام فيما قال (ألا تستمعون) أى ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلهاً غيرى ، فقال لهم موسى (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة فى الآباد فإن كل وا حذ يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ولم يحدث من غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ، وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ومع هذا كله لم

يستفق فرعون من رقدته ولا نزع عن ضلالته بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى ليس له عقل فى دعواه أن ثم رباً غيرى . (قال) أى موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبه فأجاب موسى عليه السلام بقوله (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها وهو الله لا إله إلا هو خالق الظلام والضياء ورب الأرض والسماء رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه والنهار بضيائه والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون وكل فى فلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء . فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، والثابت سائراً والسائر ثابتاً كما قال تعالى عن الذى حاج إبراهيم فى ربه فى الآية السابقة . ولما قامت الحجج على فرعون وذهبت شبهه وغلب وانقطعت حجته ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال جاهه وقوته ، وسلطانه وسطوته ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه الصلاة والسلام فقال وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال (قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) إلى آخر ما قص الله عز وجل عنه ، حتى قصمه الله تعالى قاصم الجبابرة وأخذه أخذ عزيز مقتدر . ومناظرة الرسل لأعداء الله فى هذا الباب يطول ذكرها ومقامات نبينا محمد ﷺ مع هذه الأمة أشهر من أن تذكر ، فمن شاءها فليقرأ المصحف من فاتحته إلى خاتمته ، إلا أن أمته لم يكن فيهم من يجحد الخالق ، بل هم مقرون به وبربوبيته ، غير أنهم لم يقدروه حق قدره بل عبدوا معه غيره ، ولهذا قال تعالى فى شأنهم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) ، (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) إلى غير ذلك من الآيات كما سيأتى بسطه إن شاء الله تعالى .

ذكر ما نقل عن الأئمة وعن غيرهم فى هذا الباب

عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات . وعن أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى فانى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لى أن سفينة فى

البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا : هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم !! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعى رحمه الله تعالى أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل ، فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الابريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاه والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً ، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ، وهو شىء واحد . وعن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله أنه سئل عن ذلك فقال : ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الابريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح ا. هـ . يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الديك . وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى رياض الأرض وانظر   إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات   بأحداق هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات   بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز ، ويروى لأبى العتاهية رحمهما الله تعالى :

فيا عجبا كيف يعصى الإله أم   كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة   وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحد

وسئل بعض الأعراب عن هذا وما الدليل على وجود الرب تعالى ، فقال : يا سبحان الله ، إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ ومن خطب قس بن ساعدة الإيادى وكان على ملة إبراهيم رحمه الله تعالى : أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا و إذا قلتم فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن فى

السماء خبراً ، وإنّ فى الأرض عبراً ، يحار فيهن البصر ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور وبحار لا تفور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد النسطاس ووزن القسطاس . أقسم قس قسما ، لا كاذباً فيه ولا آثما . لئن كان فى هذا الأمر رضى ليكونن سخط ، ثم قال : يا أيها الناس ، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه . وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا . وفى بعض ألفاظها قال : شرق وغرب ، ويتم وحزب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام . لقد ضل الأنام ، نشو مولود ، ووأد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىّ ، تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله كلا بل هو إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى . أما بعد فيامعشرة إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين العليل والعواد ، كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد . فى يوم التناد ، وإذ نفخ فى الصور ، ونقر فى الناقور ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر اللاحظ فويل لمن صدف عن الحق الأشهر والنور الأزهر والعرض الأكبر ، فى يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

أسماءَ الله الحسنى

وأسماء الله الحسنى هى التى أثبتها تعالى لنفسه وأثبتها له عبده ورسوله محمد ﷺ وآمن بها جميع المؤمنين ، قال الله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون) وقال تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وقال تعالى (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) وقال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً

من احصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين ، ورواه الترمذى وزاد « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد ، المحصى المبدىء المعيد ، المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد ، القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف ، مالك الملك ذو الجلال والاكرام ، المقسط الجامع الغنى المغنى المعطى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباق الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب . وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ا. هـ . ورواه الدارمى وزاد : كلها فى القرآن . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى كلاهما فى الدعاء وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة ، أسأل الله الرحمن الرحيم الإله الرب الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الحليم العليم السميع البصير الحى القيوم الواسع اللطيف الخبير ، الحنان المنان البديع الغفور الودود الشكور المجيد المبدى المعيد النور البارىء — وفى لفظ القائم — الأول الآخر الظاهر الباطن العفو الغفار الوهاب الفرد — وفى لفظ القادر — الأحد الصمد الوكيل الكافى الباقى المغيث الدائم المتعال ذا الجلال والاكرام المولى النصير الحق المتين الوارث المنير الباعث — وفى لفظ المجيب — المحيى المميت الحميد — وفى لفظ الجميل — الصادق الحفيظ المحيط الكبير القريب الرقيب الفتاح التواب القديم الوتر الفاطر الرزاق العلام العلى العظيم الغنى الملك المقتدر ، الأكرم الرءوف المدبر المالك القاهر الهادى الشاكر الكريم الرفيع الشهيد الواحد ذا الطول ذا المعارج ذا الفضل الخلاق الكفيل الجليل . وأخرج أبو نعيم عن محمد بن جعفر رحمه الله تعالى قال : سألت أبى جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التى من أحصاها دخل الجنة فقال : هى فى القرآن ، ففى الفاتحة خمسة أسماء : يا الله يارب يارحمن يا رحيم يا ملك ، وفى البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً : يا محيط يا قدير يا عليم يا حكيم ياعلى يا عظيم يا تواب يا بصير يا ولى يا واسع ، يا كافى يا رءوف يا بديع يا شاكر يا واحد

يا سميع يا قابض يا باسط يا حى يا قيوم يا غنى يا حميد يا غفور يا حليم يا إله يا قريب يامجيب ياعزيز يانصير ياقوى ياشديد ياسريع ياخبير. وفى آلعمران: ياوهاب ياقائم ياصادق يا باعث يا منعم يا متفضل . وفى النساء : يا حسيب يا رقيب يا شهيد يا مقيت يا وكيل يا على يا كبير . وفى الأنعام : يا فاطر يا قاهر يا لطيف يا برهان . وفى الأعراف : يا محيى يا مميت . وفى الأنفال : يا نعم المولى ويا نعم النصير . وفى هود : يا حفيظ يا مجيد يا ودود يا فعال لما تريد . وفى الرعد : يا كبير يا متعالى . وفى إبراهيم : يا منان يا وارث . وفى الحجر : يا خلاق . وفى مريم : يا فرد . وفى طه : يا غفار . وفى قد أفلح : يا كريم . وفى النور : يا حق يا مبين . وفى الفرقان : يا هاد . وفى سبأ : يا فتاح . وفى الزمر : يا عالم وفى غافر : يا قابل التوب يا ذا الطول يا رفيع . وفى الذاريات : يا رزاق يا ذا القوة يا متين . وفى الطور : يا بر . وفى اقتربت : يا مقتدر يا مليك . وفى الرحمن : يا ذا الجلال والاكرام يارب المشرقين يارب المغربين يا باقى يا معين . وفى الحديد : يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن . وفى الحشر : يا ملك ياقدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا بارىء يا مصور . وفى البروج : يا مبدى يا معيد . وفى الفجر : يا وتر . وفى الاخلاص يا أحد يا صمد إنتهى . وقد حررها الحافظ ابن حجر رحمه الله فى (تلخيص الحبير) تسعة وتسعين اسماً من الكتاب العزيز منطبقة على لفظ الحديث ورتبها هكذا : الله الرب الإله الواحد الرحمن الرحيم الملك القدوس المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الأول الآخر الظاهر الباطن الحى القيوم العلى العظيم التواب الحليم الواسع الحكيم الشاكر العليم ، الغنى الكريم ، العفو القدير اللطيف الخبير السميع البصير المولى النصير القريب المجيب الرقيب الحسيب القوى الشهيد الحميد المجيد المحيط الحفيظ الحق المبين . الغفار القهار الخلاق الفتاح الودود الغفور الرءوف الشكور الكبير المتعال المقيت المستعان الوهاب الحفى الوارث الولى القائم القادر الغالب القاهر البر الحافظ الأحد الصمد المليك المقتدر الوكيل الهادى الكفيل الكافى الأكرم الأعلى الرزاق ذو القوة المتين غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذو الطول رفيع الدرجات سريع الحساب فاطر السموات والأرض بديع السموات والأرض نور السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والاكرام ا. هـ . وقد عدها جماعة غير من ذكرنا كسفيان بن عيينة وابن حزم والقرطبى وغيرهم ، وعدها ابن العربى المالكى فى (أحكام القرآن) مرتباً لها على السور لكنه أخطأ فى بعض ماعده كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أسماء الله عز وجل ليست بمنحصرة فى التسعة والتسعين المذكورة فى حديث أبى هريرة ولا فيما استخرجه العلماء من القرآن بل ولا فيما علمته الرسل والملائكة وجميع المخلوقين ، لحديث ابن مسعود عند أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحا » . فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » .

واعلم أن من أسماء الله عز وجل مالا يطلق عليه إلا مقترناً بمقابله فإذا أطلق وحده أو هم نقصاً تعالى الله عن ذلك ، فمنها المعطى المانع ، والضار النافع ، والقابض الباسط ، والمعز المذل ، والخافض الرافع ، فلا يطلق على الله عز وجل المانع الضار القابض المذل الخافض كلا على انفراده ، بل لابد من ازدواجها بمقابلاتها ، إذ لم تطلق فى الوحى إلا كذلك ، ومن ذلك المنتقم لم يأت فى القرآن إلا مضافاً إلى ذو كقوله تعالى (عزيز ذو انتقام) أو مقيداً بالمجرمين كقوله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) .

واعلم أنه قد ورد فى القرآن أفعال أطلقها الله عز وجل على نفسه على سبيل الجزاء العدل والمقابلة . وهى فيما سيقت فيه مدح وكمال ، لكن لا يجوز أن يشتق له تعالى منهما أسماء ولا تطلق عليه فى غير ما سيقت فيه من الآيات ، كقوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (ومكروا ومكر الله) وقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) وقوله تعالى (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم) ونحو ذلك فلا يجوز أن يطلق على الله تعالى مخادع ماكر ناس مستهزىء ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه ، ولا يقال الله يستهزىء ويخادع ويمكر وينسى على سبيل الاطلاق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً ، ولا ذلك داخل فى أسمائه الحسنى ، ومن ظن من الجهال المصنفين فى شرح الأسماء أن من أسمائه تعالى الماكر المخادع المستهزىء الكائد فقد فاه بأمر عظيم تقشعر منه الجلود وتكاد الأسماع تصم عند سماعه ، وغر هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على .

نفسه هذه الأفعال فاشتق له منها أسماء ، وأسماؤه تعالى كلها حسنى فأدخلها فى الأسماء الحسنى وقرنها بالرحيم الودود الحكيم الكريم ، وهذا جهل عظيم فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقاً بل تمدح فى موضع وتذم فى موضع فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله تعالى مطلقاً ، فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع ويستهزىء ويكيد ، فكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها بل إذا كان لم يأت فى أسمائه الحسنى المريد والمتكلم ولا الفاعل ولا الصانع لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم والحكيم والعزيز والفعال لما يريد ، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزىء ، ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى الداعى والآتى والجائى والذاهب والقادم والرائد والناسى والقاسم والساخط والغضبان واللاعن إلى أضعاف أضعاف ذلك من التى أطلق تعالى على نفسه أفعالها فى القرآن ، وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل . والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق ، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق فكيف من الخالق سبحانه وتعالى . قلت ومن هنا يتبين لك ما ذكرنا من النظر فى بعض ماعده ابن العربى ، فإن الفاعل والزارع إذا أطلقا بدون متعلق ولا سياق يدل على وصف الكمال فيهما فلا يفيدان مدحاً ، أما فى سياقها من الآيات التى ذكرت فيها فهى صفات كمال ومدح وتوحد كما قال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وقال تعالى (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) الآيات بخلاف ما إما عدت مجردة عن متعلقاتها وماسيقت فيه وله وأكبر مصيبة أن عد فى الأسماء الحسنى رابع ثلاثة وسادس خمسه مصرحا قبل ذلك بقوله : وفى سورة المجادلة اسمان فذكرهما . وهذا خطأ فاحش ، فإن الآية لا تدل على ذلك ولا تقتضيه بوجه لا منطوقاً ولا مفهوماً ، فإن الله عز وجل قال (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) الآية ، وأين فى هذا السياق رابع ثلاثة سادس خمسة ؟ وكان حقه اللائق بمراده أن يقول : رابع كل ثلاثة فى نجواهم وسادس كل خمسة كذلك فإنه تعالى يعلم أفعالهم ويسمع أقوالهم كما هو مفهوم من صدر الآية ، ولكن لا يليق بهذا المعنى إلا سياق الآية والله تعالى أعلم .

واعلم أن دلالة أسماء الله تعالى حق على حقيقتها مطابقة وتضميناً والتزاماً فدلالة اسمه

تعالى « الرحمن » على ذاته عز وجل مطابقة وعلى صفة الرحمة تضميناً وعلى الحياة وغيرها إلتزاماً ، وهكذا سائر أسمائه تبارك وتعالى . وليست أسماء الله تعالى غيره كما يقوله الملحدون فى أسمائه ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً فإن الله عز وجل هو الإله وما سواه عبيد ، وهو الرب وما سواه مربوب ، وهو الخالق وما سواه مخلوق ، وهو الأول فليس قبله شيء وما سواه محدث كائن بعد أن لم يكن ، وهو الآخر الباقى فليس بعده شيء وما سواه فان فلو كانت أسماء الله تعالى غيره كما زعموا لكانت مخلوقة مربوبة محدثة فانية إذ كل ما سواه كذلك ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وقال عثمان بن سعد الدارمى — نقمة الله على بشر المريسى وذويه —: باب الإيمان بأسماء الله تعالى وأنها غير مخلوقة . قال : ثم اعترض المعترض — يعنى ابن الثلجى — أسماء الله تعالى المقدسة فذهب فى تأويلها مذهب إمامه المريسى فادعى أن أسماء الله غير الله وأنها مستعارة مخلوقة كما أنه قد يكون شخص بلا اسم فتسميته لا تزيد فى الشخص ولا تنقص ، يعنى الخبيث أن الله تعالى كان مجهولا كشخص مجهول لا يهتدى لاسمه ولا يدرى ما هو حتى خلق الخلق فابتدعوا له أسماء من مخلوق كلامهم فأعاروه إياها من غير أن يعرف له اسم قبل الخلق ، قال : ومن ادعى التأويل فى أسماء الله فقد نسب الله تعالى إلى العجز والوهن والضرورة والحاجة إلى الخلق ، لأن المستعير محتاج مضطر ، والمعير أبداً أعلى منه وأغنى ، ففى هذه الدعوى استجهال الخالق إذ كان بزعمه هملا لا يدرى ما اسمه . والله المتعالى عن هذا الوصف المنزه عنه لأن أسماء الله تعالى هى تحقيق صفاته سواء عليك قلت عبدت الله أو عبدت الرحمن أو الرحيم أو الملك العزيز الحكيم ، وسواء على الرجل قال كفرت بالله ، أو قال كفرت بالرحمن الرحيم أو بالخالق العزيز الحكيم ، وسواء عليك قلت عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد العزيز أو عبد المجيد . وسواء عليك قلت يا الله أو يا رحمن أو يا رحيم أو يا ملك يا عزيز يا جبار بأى اسم دعوته من هذه الأسماء أو أضفته إليه فانما تدعو الله نفسه من شك فيه فقد كفر . وسواء عليك قلت ربى الله أو ربى الرحمن كما قال تعالى (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) وقال تعالى (سبح الله ما فى السموات وما فى الأرض) وقال (وسبحوه بكرة وأصيلا) كذلك قال فى الاسم (سبح اسم ربك الأعلى) كما قال تعالى (يسبح الله) ولو كان الاسم مخلوقاً مستعاراً غير الله لم يأمر الله تعالى أن يسبح مخلوق غيره ، وقال تعالى (له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ثم ذكر الآلهة التى تعبد من دون الله عز وجل بأسمائهم المخلوقة

المستعارة فقال تعالى (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) وكذلك قال هود لقومه حين قالوا (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا) فقال لهم نبيهم (أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) يعنى أن أسماء الله لم تزل كما لم يزل عز وجل وأنها بخلاف هذه الأسماء المخلوقة التى أعاروها الأصنام والآلهة التى عبدوها من دونه . فإن لم تكن أسماء بخلافها ، فأى توبيخ لأسماء هذه الآلهة المخلوقة إذ كانت أسماؤها وأسماء الله تعالى مخلوقة مستعارة عندكم بمعنى واحد وكلها من تسمية العباد وتسمية آبائهم بزعمهم . ففى دعوى هذا المعارض أن الخلق عرّفوا الله إلى عباده بأسماء ابتدعوها لا أن الله عرفهم بها نفسه ، فأى تأويل أوحش فى أسماء الله تعالى من أن يتأول رجل أنه كان كشخص مجهول أو بيت أو شجرة أو بهيمة لم يسبق لشىء منها اسم ولم يعرف ما هو حتى عرفه الخلق بعضهم بعضاً ، ولا تقاس أسماء الله تعالى بأسماء الخلق لأن أسماء الخلق مخلوقة مستعارة وليست أسماؤهم نفس صفاتهم بل مخالفة لصفاتهم ، وأسماء الله تعالى صفاته ليس شىء منها مخالفاً لصفاته ولا شىء من صفاته مخالفاً لأسمائه . فمن ادعى أن صفة من صفات الله مخلوقة أو مستعارة فقد كفر وفجر ، لأنك إذا قلت الله فهو الله . وإذا قلت الرحمن فهو الرحمن وهو الله ، فإذا قلت الرحيم فهو كذلك ، وإذا قلت حكيم عليم حميد مجيد جبار متكبر قاهر قادر فهو كذلك ، وهو الله سواء لا يخالف اسم له صفته ولا صفته اسماً . وقد يسمى الرجل حكيماً وهو جاهل ، وحكماً وهو ظالم ، وعزيزاً وهو حقير ، وكريماً وهو لئيم ، وصالحاً وهو طالح ، وسعيداً وهو شقى ، ومحموداً وهو مذموم ، وحبيباً وهو بغيض ، وأسداً وحماراً وكلباً وجدياً وكليباً وهراً وحنظلة وعلقمة وليس كذلك . والله تعالى وتقدس اسمه كل اسمائه سواء لم يزل كذلك ولا يزال ، لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن كذلك ، كان خالقاً قبل المخلوقين ورازقاً قبل المرزوقين وعالماً قبل المعلومين وسميعاً قبل أن يسمع أصوات المخلوقين وبصيراً قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة ، قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال فى موضع (ثم استوى على العرش الرحمن) لأنهما بمعنى واحد ، ولو كان كما أدعى المعارض — يعنى ابن الثلجى وإمامه المريسى — لكان الخالق والمخلوق استويا جميعاً على العرش إذ كانت أسماؤه مخلوقة عندهم إذ كان الله فى دعواهم فى حد المجهول أكثر منه فى حد المعروف لأن لحدوث الخلق حداً ووقتاً وليس لأزلية الله تعالى حد ولا وقت لم يزل ولا يزال ، وكذلك أسماؤه لم تزل ولا تزال . ثم احتج المعارض لترويج مذهبه هذا بأقبح قياس فقال : أرأيت لو كتبت اسماً فى

رقعة ثم احترقت الرقعة أليس إنما تحرق الرقعة ولا يضر الاسم شيئاً . فيقال لهذا التائه الذى لا يدرى ما يخرج من رأسه : إن الرقعة وكتابة الاسم ليس كنفس الاسم ، إذا احترقت الرقعة احترق الخط وبقى اسم الله له وعلى لسان الكاتب لم يزل قبل أن يكتب لم تنقص النار من الاسم ولا ممن له الاسم شيئاً ، وكذلك لو كانت أسماء المخلوقين لم تنقص النار من أسمائهم ولا من أجسامهم شيئاً ، وكذلك لو كتبت الله بهجائه فى رقعة ثم أحرقت الرقعة لاحترقت الرقعة وكان الله سبحانه بكماله على عرشه ، وكذلك لو صور رجل فى رقعة ثم ألقيت فى النار لاحترقت الرقعة ولم يضر المصور شيئاً . وكذلك القرآن لو احترقت المصاحف كلها لم ينقص من القرآن نفسه حرف واحد ، وكذلك لو احترق القراء كلهم وقتلوا أو ماتوا لبقى القرآن بكماله كما كان لم ينقص منه حرف واحد لأنه منه بدا وإليه يعود عند فناء الخلق بكماله غير منقوص . وقد كان للمريسى فى أسماء الله مذهب كمذهبه فى القرآن ، كان القرآن عنده مخلوقاً من قول البشر لم يتكلم الله بحرف منه فى دعواه ، وكذلك أسماء الله تعالى عنده من ابتداع البشر من غير أن يقول تعالى (إنى أنا الله رب العالمين) بزعمه قط ، وزعم أنى متى اعترفت بأن الله تعالى تكلم بـ (إنى أنا الله رب العالمين) لزمنى أن أقول تكلم بالقرآن . ولو اعترفنا بذلك لانكسر علينا مذهبنا فى القرآن . وقد كسره الله عليهم على رغم أنوفهم فقال (إنى أنا الله رب العالمين) ولا يستحق مخلوق أن يتكلم بهذا فإن فعل ذلك كان كافراً كفرعون الذى قال (أنا ربكم الأعلى) فهذا الذى ادعوا فى أسماء الله عز وجل أصل كبير من أصول الجهمية التى بنوا عليها محنتهم وأسسوا بها ضلالتهم غالطوا بها الأغمار والسفهاء وهم يرون أنهم يغالطون بها الفقهاء ، ولئن كان السفهاء وقعوا فى غلط مذاهبهم فإن الفقهاء منهم لعلى يقين . أرأيتم قولكم إن أسماء الله مخلوقة ، فمن خلقها ؟ وكيف خلقها ؟ أجعلها أجساماً وصوراً تشغل أعيانها أمكنة دونه من الأرض والسماء أم موضعاً دونه فى الهواء ؟ فإن قلتم لها أجسام دونه فهذا ما تنقمه عقول العقلاء ، وإن قلتم خلقها فى ألسنة العباد فدعوه بها وأعاروها إياه فهو مما ادعينا عليكم أن الله تعالى كان بزعمكم مجهولا لا اسم له حتى أحدث الخلق فأحدثوا له أسماء من مخلوق كلامهم ، فهذا هو الالحاد فى أسماء الله والتكذيب بها ، قال الله تعالى (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين) كما يضيفه إلى رب العالمين ، ولو كان كما ادعيتم لقيل الحمد لله رب العالمين . المسمى الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، وكما قال (الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق) كما قال (تنزيل الكتاب من الله) كذلك قال

(تنزيل من الرحمن ـــ تنزيل من حكيم حميد) (وأنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) كلها بمعنى واحد وكلها هى الله ، والله هو أحد أسمائه ـــ إلى أن قال ـــ وكما قال الله تعالى فى كتابه (أنا الله رب العالمين) كذلك قال على لسان نبيه ﷺ « أنا الرحمن » ثم روى بسنده حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، وهى الرحم شققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » فيقول الله تعالى « أنا شققت لها من اسمى » وادعت الجهمية مكذبين لله ولرسوله أنهم أعاروه الاسم الذى شقها منه . ومن أين علم الخلق أسماء الخالق قبل تعليمه إياهم فإنه لم يعلم آدم ولا الملائكة أسماء المخلوقين حتى علمهم الله تعالى من عنده وكان بدء علمها منه فقال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) وقال رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها وحفظها دخل الجنة » وساق الأسماء الحسنى كما قدمنا ثم قال : فهذا كلها أسماء الله تعالى لم تزل له كما لم يزل بأيها دعوت فانما تدعو الله نفسه . قال : ولن يدخل الإيمان قلب رجل حتى يعلم أن الله تعالى لم يزل إلها واحداً بجميع أسمائه وجميع صفاته لم يحدث له منها شيء كما لم تزل وحدانيته . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

واختلف العلماء فى معنى قوله ﷺ « من أحصاها » فقال البخارى وغيره من المحققين : معناه حفظها وأن إحدى الروايتين مفسرة للأخرى . وقال الخطابى : يحتمل وجو ها : أحدها أن يعدها حتى يستوفيها ، بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها ويثنى عليه بجميعها فيستوجب الموعود عليها من الثواب . وثانيها المراد بالإحصاء الاطاقة ، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بمواجبها فإذا قال « الرزاق » وثق بالرزق وكذا سائر الأسماء . ثالثها المراد بها الإحاطة بجميع معانيها ، وقبل أحصاها عمل بها فإذا قال « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره وأنها جميعا على مقتضى الحكمة ، وإذا قال « القدوس » استحضر كونه مقدساً منزهاً عن جميع النقائص واختاره أبو الوفا بن عقيل . وقال ابن بطال : طريق العمل بها أن ما كان يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها ـــ يعنى فيما يقوم به ، وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم فعلى العبد الإقرار بها

والخضوع لها وعدم التحلى بصفة منها ، وما كان فيه معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة ، وما كان فيه معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة ا. هـ . والظاهر أن معنى حفظها وإحصائها هو معرفتها والقيام بعبوديتها كما أن القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به ، بل جاء فى المراق من الدين أنهم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم . وقال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد كلام طويل على أولية الله تعالى وما فى ذلك الشهود من الغنى التام قال : وليس هذا مختصاً بأوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها ، فمن شهد مشهد علو الله تعالى على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر بها أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة ، بحيث يصير لقلبه صمد يعرج إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحى أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والتصرف من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدولة ومداولة الأيام بين الناس إلى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لا يتصرف فيها سواه فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به . وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات ولا فى قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإراداته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإراداته وجميع احواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية بادية لا يخفى عليه منها شىء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها وسواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه صوت من أسر ولا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هى عنده كلها كصوت واحد كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى حندس الظلماء ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها فى

ظلمة الليل وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاته وسكناته وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء . وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس بما كسبت ، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن وجزاء المسيء إليه وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى . وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو مشهد الربوبية وأعلى منه مشهد الإلهية الذى هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن إلهية ما سواه باطل ومحال كما أن ربوبية ما سواه كذلك فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله . فهو المطاع وحده على الحقيقة والمألوه وحده وله الحكم فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل غنى بغيره فقر وفاقه ، وكل عز بغيره ذل وصغار وكل تكثر بغيره قلة وذلة ، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره ، فهو الذى انتهت إليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ويستحيل أن يكون معه إله آخر فإن الإله على الحقيقة هو الغنى الصمد الكامل فى أسمائه وصفاته الذى حاجة كل أحد إليه ولا حاجة به إلى أحد وقيام كل شيء به وليس قيامه بغيره — إلى أن قال — فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله ، فإن هذا الاسم هو الجامع ، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه فيقال الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله ، ولا يقال الله من أسماء الرحمن . قال الله تعالى (ولله الأسماء الحسنى) فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته . فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب مع كمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق وصار من أغنى العباد ولسان مثل هذا يقول :

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالى عن الشيء لا به اهـ

وقوله تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال ابن عباس وابن جريج ومجاهد : هم

لمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هى عليه فسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا ، فاشتقوا للات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان . وقيل هى تسميتهم الأصنام آلهة ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما يلحدون فى أسمائه أى يكذبون . وقال قتادة : يلحدون يشركون فى أسمائه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الإلحاد التكذيب ، وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف ومنه اللحد فى القبر لانحرافه الى جهة القبلة عن سمة الحفر . أ. هـ . وهذه الأقوال متقاربة ، والإلحاد يعمها وهو ثلاثة أقسام : الأول إلحاد المشركين وهو ما ذكره ابن عباس وابن جريج ومجاهد من عدولهم بأسماء الله تعالى عما هى عليه وتسميتهم أوثانهم بها مضاهاة لله عز وجل ومشاقة له وللرسول ﷺ . الثانى إلحاد المشبهة الذين يكيفون صفات الله عز وجل ويشبهونها بصفات خلقه مضادة له تعالى ورداً لقوله عز وجل (ليس كمثله شىء ، ولا يحيطون به علماً) وهو مقابل لإلحاد المشركين فأولئك جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به ، وهؤلاء جعلوا الخالق بمنزلة الأجسام المخلوقة وشبهوه بها تعالى وتقدس عن إفكهم . الثالث إلحاد النفاة وهم قسمان : قسم أثبتوا ألفاظ أسمائه تعالى دون ما تضمنته من صفات الكمال فقالوا رحمن رحيم بلا رحمة ، عليم بلا علم ، حكيم بلا حكمة ، قدير بلا قدرة ، سميع بلا سمع ، بصير بلا بصر . واطردوا بقية الأسماء الحسنى هكذا وعطلوها عن معانيها وما تقتضيه وتتضمنه من صفات الكمال لله تعالى ، وهم فى الحقيقة كمن بعدهم وإنما أثبتوا الألفاظ دون المعانى تستراً وهو لا ينفعهم . وقسم لم يتستروا بما تستر به إخوانهم بل صرحوا بنفى الأسماء وما تدل عليه من المعانى واستراحوا من تكلف أولئك وصفوا الله تعالى بالعدم المحض الذى لا اسم له ولا صفه وهم فى الحقيقة جاحدون لوجود ذاته تعالى مكذبون بالكتاب وبما أرسل الله به رسله . وكل هذه الأربعة الأقسام كل فريق منهم يكفر مقابله ، وهم كما قالوا كلهم كفار بشهادة الله وملائكته وكتبه ورسله والناس أجمعين من أهل الإيمان والإثبات الواقفين مع كلام الله تعالى وسنة رسولة ﷺ وآله وصحبه أجمعين .

(صفاته العلى) أى وإثبات صفاته العلى التى وصف بها نفسه تعالى ووصفه بها نبيه ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال ، من صفات الذات وصفات الأفعال ، مما تضمنته أسماؤه بالا شتقاق كالعلم والقدرة والسمع والبصر والحكمة والرحمة والعزة والعلو وغيرها ، ومما أخبر به عن نفسه وأخبر بها عنه رسوله ﷺ ولم يشتق منه اسماً كحبه المؤمنين والمتقين والمحسنين ورضائه عن عباده المؤمنين ورضاه لهم الإسلام ديناً . وكراهته انبعاث

المنافقين وسخطه على الكافرين وغضبه عليهم وإثبات وجهه ذى الجلال والإكرام ويديه المبسوطتين بالإنفاق وغير ذلك مما هو ثابت فى الكتاب والسنة والفطر السليمة ، وسيأتى الكلام على ما ذكر من ذلك فى المتن فى محله وما لم يذكر فى المتن ففى خاتمة الباب إنشاء الله تبارك وتعالى .

وأنه الرب الجليل الأكبر	الخالق البارىء والمصور
بارى البرايا منشىء الخلائق	مبدعهم بلا مثال سابق

(وأنه الرب) أى وإثبات ربوبيته بأنه رب كل شيء ومليكه رب الأولين والآخرين رب المشرقين ورب المغربين . رب السموات والأرضين وما بينهما رب العالمين رب الآخرة والأولى . مالك الملك فلا شريك له فى ملكه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدى من يشاء ويضل من يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعطى من يشاء ويمنع من يشاء ويصل من يشاء ويقطع من يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون خلق فسوى وقدر فهدى ، وأضحك وأبكى وأمات وأحيا وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأغنى وأقنى وأوجد وأفنى ، يبدى ويعيد ويفعل ما يريد ، رفع سمك السماء فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، وبسط الأرض ودحاها ، فراشاً لعباده ومهاداً ، ونصب الجبال عليها أوتاداً ، سخر الفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . خالق الكون وما فيه ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه . مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ، وأسبغ على عباده نعمه الظاهرة والباطنة وجعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر

أو أراد شكوراً ، علم وألهم ، ودبر فأحكم وقضى فأبرم لا راد لقضائه ولا مضاد لأمره ولا معقب لحكمه ولا شريك له فى ملكه ولا إله غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الجليل) أى المتصف بجميع نعوت الجلال وصفات الكمال ، المنزه عن النقائص والمحال ، المتعالى على الأشباه والأمثال ، له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى .

(الأكبر) الذى السموات والأرض وما فيهن وما بينهما فى كفه كخردلة فى كف آحاد عباده له العظمة والكبرياء وهو أكبر كل شىء شهادة لا منازع له فى عظمته وكبريائه ولا ينبغى العظمة والكبرياء إلا له ومن نازعه فى صفة منهما أذاقه عذابه وأحل عليه غضبه ومن يحلل عليه غضبه فقد هوى .

(الخالق) أى المقدر والمقلب للشىء بالتدبير إلى غيره كما قال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) وقال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا) الآية . وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (الله خالق كل شىء) وقال تعالى (والله خلقكم وما تعلمون) فالله تبارك وتعالى الخالق وكل ما سواه مخلوق له مربوب له لا خالق غيره . فجميع السموات والأرض ومن فيهن وما بينهما وحركات أهلها وسكناتهم وأرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم كلها مخلوقات له محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، وهو خالق ذلك كله وموجده ومبدئه ومعيده ، فمنه مبدأها وإليه منتهاها (ألا إلى الله تصير الأمور) .

(البارىء) أى المنشىء للأعيان من العدم إلى الوجود ، والبرىء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده

سوى الله عز وجل كما قيل :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق لا يفرى

أى أنت تنفذ ما خلقت أى قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع كل ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى التنفيذ .

(المصور) الممثل للمخلوقات بالعلامات التى يتميز بعضها عن بعض ، أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها ، يقال هذه صورة الأمر أو مثاله فأولا يكون خلقاً ثم برءاً ثم تصويراً ، وهذه الثلاثة الأسماء التى فى سورة الحشر فى خاتمتها (هو الله الخالق البارىء المصور) قال ابن كثير رحمه الله تعالى : أى الذى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التى يريد والصورة التى يختار كقوله تعالى (فى أى صورة ما شاء ركبك) .

(بارى البرايا) جميع الموجودات (منشىء الخلائق) أى جميع المخلوقات (مبدعهم) أى خالقهم ومنشئهم ومحدثهم ، يفسر ذلك (بلا مثال سابق) أى بلا نظير سالف ، ومنه سميت البدعة بدعة لأنها على غير مثال سبق فى الشرع ، وقال الله تعالى (بديع السموات والأرض) أى محدثها وموجدها على غير مثال سبق . وهذا مفسر للبيت الذى قبله وقد تقدم الكلام عليه ولله الحمد والمنة .

الأول المبـدى بـلا ابتـداء　　　　والآخـر البـاق بـلا انتهـاء

(الأول) فليس قبله شيء (المبدىء) الذى يبدىء الخلق ثم يعيده (بلا ابتداء) لأوليته تعالى (والآخر) فليس بعده شيء (الباقى) وكل ما سواه فان (بلا انتهاء) لآخريته تعالى قال الله عز وجل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وقال تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) . وقال تعالى (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) وقال تعالى (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) وقال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقال تعالى (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) وقال رسول الله ﷺ « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل

دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وانت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء . اقض عنى الدين وأغننى من الفقر » رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ . وفى الصحيحين عن عمران ابن حصين رضى الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا . مرتين . ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قبلنا يا رسول الله قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، قال « كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » الحديث . وقال عمر رضى الله عنه : قام فينا النبي ﷺ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه . رواه البخارى . وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما « أنه تعالى يطوى السموات بيده ثم يقول : أنا الملك أنا الملك أنا الجبار المتكبر ، أين ملوك الأرض أين الجبارون أين المتكبرون » وفى حديث الصور « أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلا : « لله الواحد القهار » أى الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . ولابن أبي حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « ينادى مناد بين يدى الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة ، فيسمعه الأحياء والأموات . قال : وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول : لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى أثناء كلامه على هذه الأسماء الأربعة وهى الأول والآخر والظاهر والباطن : هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالعبد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . واعلم أن لك أنت أولا وآخراً وظاهراً وباطناً بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه ، وأخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة ى إحاطتان زمانية ومكانية ، فإحاطة أوليته وأخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى

أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده ، فالأول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه ، فسبق كل شيء بأوليته وبقى بعد كل شيء بآخريته وعلا على كل شيء بظهوره ودنا من كل شيء ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ،والبعيدمنه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد فهو الأول فى آخريته والآخر فى أوليته والظاهر فى بطونه والباطن فى ظهوره لم يزل أولا وآخراً وظاهراً وباطناً . ثم ساق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فشفى وكفى-رحمه الله تعالى ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله ﷺ فى حديث أبى هريرة المتقدم قريباً بأوجز عبارة وأحصرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم ﷺ .

الأحـد الفـرد القديـــر الأزلى	الصمـد البـر المهيمـن العلـى
علـو قهـر وعلـــو الشـــأن	جـلّ عـن الأضداد والأعــوان
كـذا لـه العلـــو والفوقيـــة	علـى عبـاده بـــلا كيفيـــة

(الأحد الفرد) الذى لا ضد له ولا ند له ولا شريك له فى إلهيته وربوبيته ولا متصرف معه فى ذرة من ملكوته ، ولا شبيه له ولا نظير له فى شىء من أسمائه وصفاته . فهو أحد فى إلهيته لا معبود بحق سواه ولا يستحق العبادة إلا هو ولذا قضى ألا نعبد إلا إياه ، وهو أحد فى ربوبيته فلا شريك له فى ملكه ولا مضاد ولا منازع ولا مغالب . أحد فى ذاته وأسمائه وصفاته فلا شبيه له ولا مثيل ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً . فكما أنه الأحد الفرد فى ذاته وإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فهو المتفرد فى ملكوته بأنواع التصرفات — من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والخلق والرزق والإعزاز والإذلال والهداية والإضلال والإسعاد والإشقاء والخفض والرفع والعطاء والمنع والوصل والقطع والضر والنفع — فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن وما بينهما على إماتة من هو محييه أو إعزاز من هو مذله أو هداية من هو مضله أو إسعاد من هو مشقيه ، أو خفض من هو رافعه أو وصل من هو قاطعه ، أو إعطاء من هو مانعه أو ضر من هو نافعه أو عكس ذلك لم يكن ذلك بممكن فى استطاعتهم ، وأنى لهم ذلك والكل خلقه وملكه وعبيده وفى قبضته وتحت تصرفه وقهره ، ماض فيهم حكمه عدل

فيهم قضاؤه نافذة فيهم مشيئته لا امتناع لهم عما قضاه ولا خروج لهم من قبضته ولا تحرك ذرة فى السموات والأرض ولا تسكن إلا بإذنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . فسحقاً لأصحاب السعير كيف جحدوا بآياته وأشركوا فى إلهيته وربوبيته من هو مخلوق مربوب مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاًولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ، واتخذوهم من دونه أرباباً وأنداداً سووهم به وعدلوهم به واعتقدوا أنهم متصرفون معه فى ملكوته وعبدوهم من دونه . وهم يرون ويعلمون أنهم محدثون بعد أن لم يكونوا ، مسبوقون بالعدم عاجزون عن القيام بأنفسهم فقراء إلى من يقوم بهم . وألحدوا فى أسماء الله وصفاته وآياته على اختلافهم فى صناعة الإلحاد فبين مشبه له تعالى بالعدم وهم نفاة أسمائه وصفاته بل هم نفاة وجود ذاته ، وبين مشبه له بالمخلوقات ممثل صفاته تعالى بصفات الحادثات المحدثات حاكمين عليه بعقولهم واصفين له بمالم يصف به نفسه. وآخرون جحدوا إرادته ومشيئته النافذة وقدرته الشاملة وافعاله وحكمته وحمده وجعلوا أنفسهم هم الفاعلين لما شاءوا الخالقين لما أرادوا من دون مشيئة لله ولا إرادة ، وجحدوا أن يكون الله خلقهم وما يعملون] . وآخرون جعلوا قضاءه وقدره حجة لهم على ترك أوامره ونواهيه ، وأنهم لا قدرة لهم ولا اختيار ، وأنه كلفهم بفعل مالا يطاق فعله وترك مالا يطاق تركه ، وجعلوا معاصيه طاعات إذ وافقت مشيئته الكونية وقدره الكونى فخاصموه بمشيئته وأقداره وعطلوا أوامره ونواهيه ونسبوه إلى الظلم تعالى ، وأن تعذيبه من لم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولم يقم الصلاة ولم يؤت الزكاة ولم يصم ولم يحج ولم يعمل الطاعات ولم يترك المعاصى كتعذيب الذكر لم يصر أنثى والأنثى لم تصر ذكرا ، وأن أمرهم بالصلاة وغيرها كأمر الآدمى بالطيران والأعمى بنقط المصاحف أولئك خصماء الله يوم القيامة ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً . ورضى الله عن المؤمنين إذ عرفوه حق معرفته وقدروه حق قدره ووحدوه بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه ، ونفوا عنه التمثيل ، وآمنوا بقضائه وقدره بالرضا والتسليم ، وأن ذلك موجب ربوبيته ومقتضى إلهيته واللائق بحكمته وحمده ، وتلقوا أمره بالسمع والطاعة والامتثال والانقياد ، ووقفوا عند نواهيه وحدوده فلم يعتدوها ، ونزلوا كلا من القدر والشرع منزلته ولم ينصبوا الخصام بينهما ، فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به ، والأمر والنهى يطاع ويمتثل ، فالإيمان بالقدر من كمال التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بالأمر والنهى موجب شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ، فمن لا يؤمن بالقضاء والقدر وينقاد للامر والنهى فهو مكذب بالشهادتين ولو نطق بهما بلسانه . وهذا البحث سيأتى تفصيله عن قريب إن شاء الله فى

موضعه ، وإنما ساقنا إليه هاهنا الكلام على كمال أحدية الله عز وجل فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وقدره وشرعه ، وأنه لا معارض لمشيئته ولا معقب لحكمه ، وأن المخلوق لا تصرف له فى نفسه فضلا عن غيره ولا قدرة له على ما لم يقدره الله تعالى عليه ، فكيف يسوى به ويعدل به ويشرك معه فى إلهيته أو ينسب إليه التصرف فى شىء من ملكوته ، وكم يقيم الحجة تبارك وتعالى على من أشرك معه إلها غيره بأحديته فى الربوبية والأسماء والصفات وإقرار المشرك بها ، وأن آلهته التى أشرك لا تتصف بشىء منها ويلزمه إفراده بالألوهية الملازمة للربوبية كما قال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقال تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون) وقال تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) إلى غير ذلك من الآيات .

(القدير) الذى له مطلق القدرة وكما لها وتمامها الذى ما كان ليعجزه من شىء فى الأرض ولا فى السماء الذى ما خلق الخلق ولا بعثهم فى كمال قدرته إلا كنفس واحدة الذى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، الذى وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما أى لا يكرثه ولا يثقله ، الفعال لما يشاء إذا شاء كيف شاء فى أى وقت شاء ، قال الله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) وقال تعالى بعد الكلام على البدء والاعادة (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) الآية وقال تعالى بعد الكلام على هذا المعنى (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديرا) وقال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى . بلى إنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقال (ولقد

خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) وقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) وقال تعالى (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير) وقال تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين) وقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون) وقال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير) وقال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) والآيات فى هذا الباب كثيرة يطول ذكرها ، بل كل آيات الله الظاهرة والمعنوية وجميع مخلوقاته العلوية والسفلية تدل على كمال قدرته الشاملة التى لا يخرج عنها مثقال ذرة كما أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وعبارة العبد تقصر عن ذلك المعنى العظيم ، وكفى العبد دليلا أن ينظر فى خلق نفسه كيف قدره أحكم الحاكمين وخلقه فى أحسن تقويم ، وشق له السمع فسمع والبصر فأبصر واللسان فنطق والفؤاد فعقل إلى غير ذلك ، فكيف إذا سرح قلبه فى عجائب الملكوت ، ونظر بعين بصيرته إلى مبدعات الحى الذى لا يموت ، ورأى الآيات الباهرة والبراهين الظاهرة على كمال قدرة ذى العزة والجبروت (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) وفى حديث الاستخارة المتفق عليه « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم » الحديث .

(الأزلى) بذاته وأسمائه وصفاته الذى لا ابتداء لأوليته ولا انتهاء لآخريته وليس شيء من أسمائه وصفاته متجدداً حادثاً لم يكن قبل ذلك ، كذلك له كمال الربوبية ولا مربوب ، واسم الخالق ولا مخلوق ، هو العليم قبل إيجاده المعلومات والسميع قبل إيجاده المسموعات ، والبصير قبل إيجاده المبصرات ، وكذلك سائر أسمائه وصفاته أزلية بأزلية ذاته ، باقية ببقاء ذاته ، لم يزل متصفاً بها فى أوليته وكذلك لم يزل متصفاً بها فى سرمديته ، ليس بعد خلق

الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى ، بل هو سبحانه الخالق قبل خلق المخلوقين والرزاق قبل وجود المرزوقين ، وهو المحيى المميت قبل خلقه الموت والحياة ، وكذلك وصف نفسه تبارك وتعالى فقال (وكان الله عليماً قديراً ــ وكان الله غفوراً رحيما ــ وكان الله عزيزاً حكيما ــ وكان الله سميعاً بصيرا ــ وكان الله لطيفاً خبيرا ــ إن الله كان علياً كبيرا) إلى غير ذلك قال ابن عباس : أى لم يزل كذلك ا. هـ . ولا يجوز أن يعتقد أن الله تعالى وصف بصفة لم يكن متصفاً بها لأن صفاته سبحانه كلها صفات كال وفقدانها صفة نقص ، ولا يجوز كونه قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفاً بضده ، وتقدم فى الأزلية حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما فى بدء الخلق (كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء) .

(الصمد) قال عكرمة عن ابن عباس : يعنى الذى يصمد إليه الخلائق فى حوائجهم ومسائلهم . وقال على بن أبى ابن طلحة عن ابن عباس : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه والعليم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمته وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدود وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفؤ ولي كمثله شىء سبحان الله الواحد القهار وعن أبى وائل : « الصمد » الذى قد انتهى سؤدده ، ورواه عن ابن مسعود رضى الله عنه . وعن زيد بن أسلم الصمد السيد ، وقال الحسن وقتادة : هو الباقى بعد خلقه . وقال الحسن أيضاً : الصمد الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : الصمد الذى لم يخرج منه شىء ولم يطعم . وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله ابن بريدة وعكرمة أيضاً وسعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح وعطية العوفى والضحاك والسدى : الصمد الذى لا جوف له . وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب . وقال عبد الله ابن بريدة أيضاً : الصمد نور يتلألأ . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : روى ذلك كله وحكاه ابن أبى حاتم والبيهقى والطبرانى ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده . وقال الطبرانى فى كتاب السنة له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال فى تفسير الصمد : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا عز وجل ، وهو الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك . وقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن منيع أخبرنا أبو سعد هو

الصنعانى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب ان المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد) والصمد الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت وليس شىء يموت إلا سيورث وإن الله تعالى لا يموت ولا يورث (ولم يكن له كفواً أحد) قال : لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شىء ، حديثنا عبد بن حميد أخبرنا عبيد الله بن موسى عن أبى جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية أن النبى ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا : انسب لنا ربك ، قال فأتاه جبريل عليه السلام بهذه السورة (قل هو الله أحد) فذكر نحوه ولم يذكر فيه أبى بن كعب ، وهذا أصح من حديث أبى سعيد ا. هـ . قلت : وهذه السورة العظيمة التى قال فيها النبى ﷺ « إنها تعدل ثلث القرآن » مشتملة على توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات ، جامعة بين الإثبات لصفات الكمال وبين التنزيه له تعالى عن الأشباه والأمثال ، متضمنة الرد على جميع طوائف الكفر من الدهرية والوثنية والملاحدة من المشبهة والمعطلة وأهل الحلول والاتحاد ومن نسب له الصاحبة والولد وغيرهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . والله أعلم .

(البر) وصفا وفعلا ، قال ابن عباس : اللطيف . وقال الضحاك : الصادق فيما وعد .

(المهيمن) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى ومقاتل : هو الشهيد على عباده بأعمالهم ، يقال هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشىء كما قال تعالى (والله على كل شىء شهيد) وقوله (ثم الله شهيد على ما يفعلون) وقال (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقال الحسن : الأمين ، وقال الخليل هو الرقيب الحافظ ، وقال ابن زيد : المصدق . وقال سعيد ابن المسيب والضحاك : القاضى . وقال ابن كيسان : هو اسم من أسماء الله تعالى فى الكتب ، والله أعلم بتأويله . ا. هـ .

(العلى) فكل معانى العلو ثابتة له ، (علو قهر) فلا مغالب له ولا منازع ، بل كل شىء تحت سلطان قهره (قل إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار) . (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه ، هو الله الواحد القهار) وقد جمع الله تعالى بين علو الذات والقهر فى قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) أى وهو الذى قهر كل شىء وخضع لجلاله كل شىء ، وذل لعظمته وكبريائه كل شىء ، وعلا بذاته على عرشه فوق كل شىء .

(وعلو الشأن) فتعالى عن جميع النقائص والعيوب المنافية لإلهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ∵ تعالى فى أحديته عن الشريك والظهير والولى والنصير ، وتعالى فى عظمته وكبريائه وجبروته عن الشفيع عنده بدون إذنه والمجير . وتعالى فى صمديته عن الصاحبة والولد والوالد والكفؤ والنظير . وتعالى فى كمال حياته وقيوميته وقدرته عن الموت والسنة والنوم والتعب والإعياء ، وتعالى فى كمال علمه عن الغفلة والنسيان وعن عزوب مثقال ذرة عن علمه فى الأرض أو فى السماء ، وتعالى فى كمال حكمته وحمده عن الخلق عبثاً وعن ترك الخلق سدى بلا أمر ولا نهى ولا بعث ولا جزاء ، وتعالى فى كمال عدله عن أن يظلم أحداً مثقال ذرة أو أن يهضمه شيئاً من حسناته ، وتعالى فى كمال غناه عن أن يطعم أو يرزق أو أن يفتقر إلى غيره فى شىء ، وتعالى فى صفات كماله ونعوت جلاله عن التعطيل والتمثيل . قال الله تعالى (وما من إله إلا الله) وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال تعالى (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات) وقال (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) وقال تعالى (ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وقال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقال تعالى (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) وقال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وقال تعالى (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) وقال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) وقال تعالى (وهو الذى يجير ولا يجار عليه) وقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) وقال تعالى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) وقال تعالى (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) وقال تعالى (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بل إنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) وقال تعالى (وما كنا عن الخلق غافلين) وقال تعالى (وما كان ربك نسيا) وقال تعالى عن موسى لما قال له فرعون (فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) وقال تعالى (عالم الغيب لا

يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) وقال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) وقال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وقال تعالى (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) وقال تعالى (وما ربك بظلام للعبيد) وقال تعالى (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) وقال تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعِم ولا يطعَم) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وقال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) وقال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . والآيات فى هذا الباب كثيرة جداً ، وهذان المعنيان من العلو لم يخالف فيهما أحد ممن يدعى الإسلام وينتسب إليه ، إنما ضل من ضل منهم وأخطأ فى التنزيه الذى هو مقصوده حيث لم يسلك الطريق الموصلة إليه ، وأحسن الظن بنفسه وعقله ومتبوعه ،وأساءه بالكتاب والسنة ، وكثير منهم اغتر بقول كان مقصود قائله الزيغ والفساد والكفران ، فحسب — لا حسان الظن به — أن مقصوده التحقيق والإيمان والعرفان . واتبعوا السبل المضلة فتفرقت بهم عن صراط الرحمن ، فمنهم من نزهه تعالى عن فوقيته على عرشه بائناً من خلقه ووقع فى أعظم من ذلك حيث اعتقد أنه فى كل مكان ، ولم ينزهه حتى عن الأماكن الخسيسة . ومنهم من نزهه عن العلو والفوقية وجعله هو الوجود بأسره ، ومنهم من نزهه عن وجود ذاته ووصفه بالعدم المحض ، ومنهم من نزهه عن أفعاله ومشيئته فراراً من وصفه بالظلم ، ووقع فى تعطيله عن قدرته ونسبته إلى العجز ، وغلا بعضهم فى ذلك حتى أنكر علمه السابق ووصفه بضده ، ومنهم من غلا فى مسألة القدر وإثباته وخاصم به الأمر والنهى فراراً مما وقع فيه الأولون ووقع فى أعظم ذلك تعطيل الشريعة ونسبته تعالى إلى الظلم وإلى تكليف عباده مالا يطاق تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، ففروا من الهدى إلى الضلالة ومن الرشد إلى الغى ومن الإسلام إلى الكفر ومن السنة إلى البدعة ومن النور إلى الظلمات وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق باذنه فجعلوا

إمامهم وقدوتهم الكتاب والسنة وساروا معهما حيث سارا ووقفوا حيث وقفا . فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلا ، وآمنوا بالقدر خيره وشره وتلقوه بالرضا والتسليم ، وانقادوا للشريعة فقابلوا أوامرها ونواهيها بالامتثال والتعظيم فما أثبت الله لنفسه أثبتوه ، وما نفاه عن نفسه نفوه ، فإذا سمعوا آيات الصفات وأحاديثها قالوا آمنا به كل من عند ربنا ، وإن أحسنوا قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإن أساءوا قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، وإذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .

(كذا) ثابت (له العلو والفوقية) بالكتاب والسنة وإجماع الملائكة والأنبياء والمرسلين وأتباعهم على الحقيقة من أهل السنة والجماعة (على عباده) فوقهم مستويا على عرشه عالياً على خلقه بائناً منهم ، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه منهم خافية ، والأدلة فى ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى وأجل من أن تستقصى ، والفطر السليمة ، والقلوب المستقيمة مجبولة على الاقرار بذلك لا تنكره ، ولنشر إلى بعض ذلك إشارة تدل على ما وراءها وبالله التوفيق

فمن ذلك أسماؤه الحسنى الدالة على ثبوت جميع معانى العلو له تبارك وتعالى كاسمه الأعلى واسمه العلى واسمه المتعالى واسمه الظاهر واسمه القاهر وغيرها. وقال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) ولما نزلت قال النبى ﷺ اجعلوها فى سجودكم ، وقال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) وقال تعالى (إن الله كان علياً كبيرا) وقال تعالى (ذلك بأن الله هو الحى وإنما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) وقال تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) وقال تعالى (إنه على حكيم) وقال تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) وقال تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) وقال النبى ﷺ فى دعائه « وأنت الظاهر فليس فوقك شىء » وقال تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وهذه الأسماء تدل على ثبوت جميع معانى العلو له تبارك وتعالى ذاتاً وقهراً وشأناً .

ومن ذلك التصريح بالاستواء على عرشه كما قال تعالى فى سورة الأعراف (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) وقال تعالى فى سورة يونس (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر)

وقال تعالى فى سورة الرعد (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) وقال تعالى فى سورة طه (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى فى سورة الفرقان (الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن) وقال تعالى فى سورة الم تنزيل السجدة (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) الآية وقال تعالى فى سورة الحديد (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وفى حديث أنس فى فضل الجمعة وتسميته فى الآخرة يوم المزيد الحديث بطوله وفى آخره قال « وهو اليوم الذى استوى فيه ربك على العرش » وقد رواه الشافعى فى مسنده وعبد الله بن أحمد فى كتاب السنة وابن خزيمة وغيرهم . وقد جمع أبو بكر بن أبى داود طرقه فى جزء وسيأتى إن شاء الله تعالى بطوله وألفاظه فى إثبات رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله تعالى الخلائق حاسبهم فيميز بين أهل الجنة وأهل النار وهو تعالى فى جنته على عرشه » قال محمد بن عثمان الحافظ هذا حديث صحيح . وعن قتادة بن النعمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لما فرغ الله من خلقه استوى على عرشه » رواه الخلال فى كتاب السنة باسناد صحيح على شرط البخارى . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن اليهود أتوا النبى ﷺ فسألوه عن خلق السموات والأرض ، فذكر حديثاً طويلا ، قالوا : ثم ماذا يا محمد ؟ قال « ثم استوى على العرش » . قالوا أصبت يا محمد ، لو أتممت : ثم استراح ، فغضب غضباً شديداً ، فأنزل الله تعالى (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) رواه ابن منده والحاكم وصححه ، وفى إسناده البقال ضعفه ابن معين . وعن أبى رزين العقيلى قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض : قال « كان فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء . ثم خلق العرش فاستوى عليه » رواه أبو داود وابن ماجه وقال الذهبى إسناده حسن[1] ، ورواه الترمذى وحسنه لكن لفظه « وخلق عرشه على الماء » قال يزيد بن هارون : العماء ، أى ليس معه شىء . وعن ابن عباس رضى

(١) كذا فى كتاب العلو ولم أر هذا اللفظ فى السنن .

الله عنهما وعن مرة عن ناس من أصحاب النبى ﷺ فى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) قال إن الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضاً ثم فتقها فجعلها سبع أرضين . الحديث . إلى أن قال : فلما فرغ الله عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش . رواه السدى وابن جرير الطبرى فى تفسيره والبيهقى فى الأسماء والصفات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى « أخذ بيده فقال « يا أبا هريرة ، إن الله تعالى خلق السموات والأرضيين وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع » الحديث بطوله رواه النسائى فى تفسير سورة السجدة من سننه الكبرى . وفيه أخضر بن عجلان قال الذهبى وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم يكتب حديثه ، ولينه الأزدى ، وحديثه فى السنن الأربعة وهذا الحديث غريب من أفراده .

ومن ذلك التصريح بالفوقية لله تعالى قال الله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) وقال (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) ولما حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فى بنى قريظة بأن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وتغنم أموالهم قال له النبى ﷺ « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعه » وفى لفظ « من فوق سبع سموات » وأصله فى الصحيحين وهذا سياق ابن إسحاق . وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت زينب رضى الله عنها تفتخر على أزواج النبى ﷺ وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات . وفى سنن أبى داود من حديث جبير ابن مطعم رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . قال رسول الله ﷺ « ويحك أتدرى ما تقول » وسبح رسول الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك . ويحك أتدرى ما الله ، إن عرشه على سمواته لهكذا » وقال بأصبعه مثل القبة عليه « وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب » قال ابن بشار فى حديثه « إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته » وساق الحديث وله عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال « ما تسمون هذه » قالوا : السحاب . قال « والمزن » قالوا : والمزن : قال « والعنان » قالوا : والعنان . قال أبو داود : ولم أتقن العنان جيداً ، قال

« هل تدرون ما بعدما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندرى ، قال « إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك ــ حتى عد سبع سموات ــ ثم فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك » زاد أحمد « وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم » . وفى سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . قال : وذلك قول الله عز وجل (سلام قولا من رب رحيم) قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم فى ديارهم » وفى إسناده الرقاشي ضعيف ، ومعناه ثابت فى الكتاب والسنة . وفى حديث الشفاعة الطويل عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « فأدخل على ربى تبارك وتعالى وهو على عرشه » وذكر الحديث ، وفى بعض ألفاظ البخارى فى صحيحه « فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه » ، قال عبد الحق فى الجمع بين الصحيحين : هكذا قال « فى داره » فى المواضع الثلاثة يريد مواضع الشفاعات الثلاث التى يسجد فيها ثم يرفع رأسه . وعن عمر بن عبد الملك قال : خطبنا على رضى الله عنه فقال : إن رسول الله ﷺ حدثنى عن ربه عز وجل فقال « وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من أهل قرية ولا بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من معصيتى فتحولوا عنها إلى . ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى ، رواه ابن أبى شيبه فى كتاب العرش والعسال فى المعرفة وضعفه الذهبى . وعن جابر بن سليم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن رجلا ممن كان قبلكم لبس بردين فتبختر ، فنظر الله إليه من فوق عرشه فمقته ، فأمر الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها » رواه الدارمى ، وله شاهد فى البخارى من حديث أبو هريرة رضى الله عنه . وفى حديث عمران بن حصين فى بدء الخلق : « كان الله عز وجل على العرش وكان قبل كل شيء ، وكتب فى اللوح المحفوظ كل شيء يكون » حديث صحيح أصله فى البخارى . وعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال « إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى ييسر له نظر الله له من فوق سبع سموات فيقول للملائكة اصرفوه عنه فان يسرته له أدخلته النار »

رواه البغوى وسكت الذهبى عنه . وعنه رضى الله عنه قال « العرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم » قال الذهبى رواه عبد الله بن أحمد فى السنة وأبو بكر بن المنذر وأبو أحمد العسال وأبو القاسم الطبرانى وأبو الشيخ وأبو القاسم اللالكائى وأبو عمرو الطلمنكى وأبو بكر البيهقى وأبو عمر بن عبد البر فى تواليفهم ، وإسناده صحيح . وأخرج ابن أبى شيبه أن حسان بن ثابت رضى الله عنه أنشد النبى :

شهدت بإذن الله أن محمداً	رسول الذى فوق السموات من عل
وأن أخا الأحقاف إذ قام فيهمو	يقول بذات الله فيهم ويعدل
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما	له عمل من ربه متقبل

ومن ذلك التصريح بأنه تعالى فى السماء قال الله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة فى أديم مقروض لم تحصل من ترابها قال فقسمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر ، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء ، قال فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء ، يأتينى خبر السماء صباحاً ومساء » قال فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشر الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار فقال : يارسول اتق الله ﷺ . فقال ﷺ « ويلك ، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ » قال فلما ولى الرجل قال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ قال « لا ، لعله أن يكون يصلى » فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . قال رسول الله ﷺ « إنى لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم » قال ثم نظر إليه وهو مقف فقال « إنه يخرج من ضئضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وأظنه قال « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود » . وعن معاوية بن الحكم فى حديث طويل قال : وكانت لى جارية ترعى غنماً لى قبل أحد والجوانية ، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها ، وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون ، لكنى صككتها صكة ، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك على ، قلت : يارسول الله أفلا

أعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله ؟ » قالت : فى السماء . قال « من أنا ؟ » قالت : أنت رسول الله ﷺ . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وغير واحد من الأئمة فى تصانيفهم . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له فليقل : ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك ، أمرك فى السماء والأرض ، كما رحمتك فى السماء فاجعل رحمتك فى الأرض ، اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع . فيبرأ » رواه أبو داود . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . الرحم شجنة من الرحمن ، فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وله عن عمران ابن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبى « يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً » قال أبى : سبعة ، ستة فى الأرض وواحداً فى السماء . قال ﷺ « فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك » قال الذى فى السماء . قال « يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك » قال فلما أسلم حصين قال : يارسول الله علمنى الكلمتين اللتين وعدتنى . فقال ﷺ « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب ، وقد روى هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » رواه مسلم فى صحيحه .

وعن عمر رضى الله عنهما قال : كنا جلوساً ذات يوم بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة من بناته ، فقال أبو سفيان : ما مثل محمد فى بنى هاشم إلا كمثل الريحانة فى وسط الزبل ، فسمعت فأبلغته رسول الله ﷺ فخرج فصعد على منبره وقال « ما بال أقوام تبلغنى عن أقوام ، إن الله خلق سموات سبعاً فاختار العليا فسكنها ، وأسكن سمواته من شاء من خلقه ، ثم اختار خلقه فاختار بنى آدم فاختار العرب فاختار مضر فاختار قريشاً فاختار بنى هاشم فاختارنى ، فلم أزل خياراً من خيار ، فمن أحب قريشاً فبحبى أحبهم ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم) . قال الذهبى هو حديث منكر رواه جماعة فى كتب السنة وأخرجه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال « الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب ، أخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل » وذكر باقى الحديث رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير واللفظ له ، وفى الباب أحاديث تأتى إن شاء الله تعالى فى ذكر الموت وفتنة القبر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن رسول الله ﷺ قال « لما أسرى بى مررت برائحة طيبة » فقلت يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كانت تمشطها فوقع المشط من يدها ، فقالت بسم الله تعالى ، فقالت إبنته : أبى ؟ قالت لا ، ولكن ربى ورب أبيك الله . فقالت أخبر بذلك أبى ؟ قالت نعم : فأخبرته فدعا بها فقال : من ربك ، هل لك رب غيرى ؟ قالت ربى وربك الله الذى فى السماء . فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم دعا بها وبولدها فألقاهما فيها » وساق الحديث بطوله ، رواه الدارمى وأبو يعلى الموصلى وقال الذهبى : هذا حديث حسن الإسناد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال : اللهم إنك واحد فى السماء وأنا واحد فى الأرض أعبدك » رواه الدارمى فى النقض وقال الذهبى حسن الاسناد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبرائيل فى أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » رواه البخارى . وعن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا ياجبريل ؟ فيقول : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » رواه ابن جرير وابن خزيمة والطبرانى وابن أبى حاتم واللفظ له .

ومن ذلك التصريح باختصاص بعض الأشياء بأنها عنده ، قال الله تبارك وتعالى « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » وقال تبارك وتعالى (وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون » وقال تبارك

وتعالى (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون) وقال تبارك وتعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وقال تبارك وتعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله) الآية . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتى سبقت غضبى » . ولمسلم عنه فى حديث طويل « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فى من عنده » وفيهما عنه رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى فأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منهم وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ، وذكر الحديث إلى أن قال : ثم خرج علينا فقال « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها » فقلنا : يارسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال « يتمون الصفوف الأولى ويتراصون فى الصف » . ولهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى عند ربهما عز وجل ، فحج آدم موسى » وذكر الحديث ، وسيأتى إن شاء الله بتمامه .

ومن ذلك الرفع والصعود والعروج إليه وهو أنواع : منها رفعه عيسى عليه السلام ، قال الله تعالى (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما) وقال تبارك وتعالى (يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا) وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر الأحاديث الواردة فى نزوله إلى الأرض حكماً عدلا فى آخر هذه الأمة بشريعة نبيهم محمد ﷺ فى أشراط الساعة . ومنها صعود الأعمال إليه كما قال تعالى « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (وفى صحيح البخارى عن أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب — ولا يصعد إلى الله إلا الطيب — فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » ورواه مسلم أيضاً والنسائى والترمذى وابن ماجة وابن خزيمة فى صحيحه . وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الذين يذكرون من جلال الله عز وجل من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن

بصاحبهن . ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به » رواه أحمد وابن ماجه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى الله عز وجل كأنها شرارة » قال الذهبي غريب وإسناده جيد . وفى الصحيحين من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه مرفوعاً « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وفى ذلك أحاديث لا تحصى فى الصحيحين وغيرهما .

ومنها صعود الأرواح إلى الله عز وجل أعنى أرواح المؤمنين ، قال الله تبارك وتعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) . وروى الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب الطويل فى قبض الروح — وفيه قال « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال فتخرج فتسيل كما تسيل القطره من السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض ، قال فيصعدون بها فلا يمرون على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ، فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا إلى سماء الدنيا فيستفتحون له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض ، فانى منها خلقتهم وفيها إعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى » وذكر الحديث ، وسيأتى إن شاء الله بطوله . وقد تقدم حديث أبى هريرة فى ذلك وفيه أحاديث جمة سنذكر منها ما يسره الله تعالى فى بابه إن شاء الله .

ومنها عروج الملائكة والروح إليه قال الله تبارك وتعالى (من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادى ، فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » . وعنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم : ما يقول عبادى . قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال فيقول تعالى : هل رأونى ؟ قال فيقولون لا والله مارأوك . قال فيقول وكيف لو رأونى ؟ ، قال يقولون لو رأوك كانوا لك أشد عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً قال يقول فما يسألونى ؟ قال يسألونك الجنة ، قال يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ، قال يقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ ، قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة ، قال فمم يتعوذون ؟ قال يقولون : من النار ، قال يقول : وهل رأوها ؟ ، قال يقولون : لا والله ما رأوها ، قال يقول : فكيف لو رأوها ، قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة ، قال فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : « هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » متفق عليه ، وهذا لفظ البخارى . وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كان ملك الموت يأتى الناس عياناً ، فأتى موسى عليه الصلاة والسلام فلطمه فذهب بعينه ، فعرج إلى ربه عز وجل فقال : يارب بعثتنى إلى موسى فلطمنى فذهب بعينى ولولا كرامته عليك لشققت عليه . قال ارجع إلى عبدى فقل له فليضع يده على ثور فله بكل شعرة وارت كفه سنة يعيشها ، فأتاه فبلغه ما أمره فقال ثم ماذا بعد ذلك ، قال الموت ، قال الآن ، فشمه شمة قبض فيها روحه ، ورد الله على ملك الموت بصره » وفى لفظ « فلطم عينه ففقأها فرجع فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، فرد الله عليه عينه وقال ارجع إلى عبدى فقل له إن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور » . وفيه « قال يارب فالآن ، وقال رب أدننى من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال رسول الله ﷺ : لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » متفق عليه .

من ذلك معراج نبينا محمد ﷺ إلى سدرة المنتهى وإلى حيث شاء الله عز وجل كما ثبتت به الأحاديث الصحيحة المشهورة فى الصحيحين وغيرهما ، قال البخارى رحمه الله تعالى :

باب المعراج : حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : بينما أنا نائم فى الحطيم ــ وربما قال فى الحجر مضطجعاً ــ إذ أتانى آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه . فقلت للجارود وهو إلى جنبى قال من ثغرة نحره إلى شعرته وسمعته يقول من قصه إلى شعرته فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة فقال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه . فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح . ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة . قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمت فردا ثم قالا مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعدت إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يوسف ، قال هذا يوسف فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء ، ففتح فلما خلصت إذا إدريس ، قال هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحباً بالاخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت فإذا هارون ، فقال هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . فلما خلصت فإذا موسى ، قال هذا

موسى فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . فلما تجاوزت بكى ، قيل له ما يبكيك ، قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . ثم صعد بى إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا ، قال جبريل ، قيل ومن معك ، قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ، قيل نعم ، قال مرحباً به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا إبراهيم ، قال هذا أبوك فسلم عليه ، قال فسلمت عليه فرد السلام : قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، قال هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ماهذان ياجبريل ، قال أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت باناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن فقال هى الفطرة أنت عليها وأمتك . ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى فقال بما أمرت ، قال أمرت بخمسين صلاة كل يوم . قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإنى والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشرة صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال بما أمرت ، قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإنى قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال سألت ربى حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادانى مناد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى .

ومن ذلك التصريح بنزوله تبارك وتعالى كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » وقد ثبت فى ذلك أحاديث كثيرة عن نحو ثلاثين صحابياً ، وقد ثبت أيضاً نزوله تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان . وعشية عرفة ، وعند فناء الخلق « حين ينزل إلى السماء الدنيا فينادى : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » وكذا نزوله تعالى لفصل القضاء بين عباده كما

يشاء وعلى ما يليق بجلاله وعظمته ، وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك كله فى آخر هذا الفصل من المتن .

ومن ذلك تنزل الملائكة ، ونزول الأمر من عنده ، وتنزيل الكتاب منه تبارك وتعالى ، قال الله عز وجل (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده (وقال حكاية عنهم) وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وقال تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) الآية ، وقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) وقال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) ، (كتاب أنزلناه إليك) ، (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) ، (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) ، ـــ (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ، (إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) ، (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) ، (تنزيل من الرحمن الرحيم) ، (تنزيل من حكيم حميد) ، (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ، (وإنه لتنزيل رب العالمين) ، (نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين) وغير ذلك من الآيات . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما « بلغ أباذر مبعث النبى ﷺ فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء) . وقد تقدم فى حديث الذهبية قوله ﷺ « يأتينى خبر السماء صباحاً ومساء » . وفى الصحيح قال المغيرة رضى الله عنه « أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا تبارك وتعالى أنه من قتل منا صار إلى الجنة » . وفيه : قالت عائشة رضى الله عنها من حدثك أن النبى ﷺ كتم شيئاً من الوحى فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليه من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يصعمك من الناس) . وفيه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه : قال رجل يارسول الله أى الذنب أعظم ـــ وذكر الحديث إلى أن قال ـــ فأنزل الله تصديقها (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآيات ، وغير ذلك من نصوص الكتاب والسنة .

ومن ذلك رفع الأيدى إليه والأبصار كما فى أحاديث القنوت وأحاديث الاستسقاء . وحديث دعائه ﷺ على النفر الذين طرحوا على ظهره الشريف سلا الجزور وهو ساجد ،

وحديث استغاثته ربه ببدر ومناشدته إياه حتى سقط رداؤه ، وكذا فى أحد والخندق وحنين واستغفاره لرفيق أبى موسى يومئذ وغير ذلك ، فكتبُ السنة مملوءة بهذا النوع ، وقد ورد فى رفع اليدين فى الدعاء أكثر من مائة حديث فى وقائع متفرقة ، وذلك معلوم بالفطر ، فكل من حزبه أمر مَن المؤمنين رفع يديه إلى العلو يدعو الله عز وجل . وكذلك رفع البصر ثبت فى الدعاء بعد الوضوء فى سنن أبى داود وهو فى الصحيح بدون رفع البصر . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « وما طرف صاحب الصور من وكل به مستعداً ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأنه عينيه كوكبان دريان » أخرجه الحاكم وصححه . وأخرج البغوى عن ثابت البنانى قال : كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ثم يركع ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول « إليك رفعت رأسى ياعامر السماء نظر العبيد إلى أربابها ياساكن السماء » قال الذهبى إسناده صالح . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : يحشر الناس حفاة عراة مشاة قياماً أربعمائة سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء . وقد ألجمهم العرق من شدة الكرب ، وينزل الله تعالى فى ظل من الغمام من العرش إلى الكرسى أخرجه أبو أحمد العسال فى كتاب المعرفة . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله فى ظل من الغمام من العرش إلى الكرسى » الحديث بطوله ، قال الذهبى إسناده حسن . وفى أحاديث غير ما ذكرنا .

ومن ذلك إشارة النبى ﷺ إلى العلو فى خطبته فى حجة الوداع باصبعه وبرأسه ، كما فى حديث جابر الطويل عند مسلم وفيه « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم أشهد . اللهم أشهد » ثلاث مرات . وذكر الحديث : وللبخارى من حديث ابن عباس فى خطبته ﷺ يوم النحر — وفيه — ثم رفع رأسه فقال « اللهم هل بلغت ، اللهم هل بلغت » الحديث .

من ذلك النصوص الواردة فى ذكر العرش وصفته وإضافته غالباً إلى خالقه تبارك وتعالى وأنه تعالى فوقه ، قال الله تعالى (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) وقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقال تعالى (وكان عرشه على الماء) وقال

تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) وقال تعالى (وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد) إلى غير ذلك . وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى ﷺ يقول عند الكرب « لا إله إلا الله العليم الحليم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » وفيه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » . وفيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال النبى ﷺ « فأن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » الحديث . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمنه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض أو القبض ، يرفع ويخفض » وفى رواية « وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » . وفيه عن رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » قال الذهبى إسناده صالح وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » رواه أبو داود وابن أبى حاتم ولفظه « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمائة عام » وإسناده جيد رجاله كلهم ثقات ، وفيه جملة أحاديث غير ما ذكرنا وقد تقدم منها جملة وافية .

ومن ذلك ما قصه الله تعالى عن فرعون لعنه الله فى تكذيبه موسى عليه السلام فى أن إلهه الله عز وجل العلى الأعلى خالق كل شىء وإلهه . قال الله تعالى فى سورة القصص (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فأجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين) وقال تعالى فى سورة المؤمن (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) ففرعون لعنه الله تعالى كذب موسى فى أن رب السموات والأرض ورب المشرق والمغرب وما بينهما هو الله الذى فى السماء فوق جميع خلقه مباين لهم لا تخفى عليه منهم

خافية ، فكل جهمى ناف لعلو الله عز وجل فهو فرعونى وعن فرعون أخذ دينه ، وكل سنى . يصف الله تعالى بما وصف به نفسه أنه استوى على عرشه بائن من خلقه فهو موسوى محمدى متبع لرسل الله وكتبه .

ومن ذلك ما قصه الله تعالى فى قصة تكليمه موسى حين تجلى للجبل فاندك الجبل قال الله عز وجل (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) الآية . قال الترمذى فى جامعه فى تفسير سورة الأعراف : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا سليمان بن حرب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال حماد : هكذا ــ وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى ــ قال فساخ الجبل وخر موسى صعقا . هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد ابن سلمة . ورواه أيضاً من طريق معاذ بن معاذ العنبرى عن حماد نحوه ، ومن طريق معاذ أيضاً رواه أحمد حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) قال هكذا ــ يعنى أنه أخرج طرف الخنصر ــ قال أحمد : أرانا معاذ ، فقال له حميد الطويل : ما تريد إلى هذا يا أبا محمد ؟ قال فضرب صدره ضربة شديدة وقال : من أنت ياحميد ؟ وما أنت ياحميد ؟ يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى ﷺ وتقول ما تريد إليه ؟ ورواه أبو جعفر بن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية عن طريق هدبة بن خالد حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال « ووضع الابهام قريباً من طرف خنصره » قال فساخ الجبل ، قال حميد لثابت : يقول هكذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقوله رسول الله ﷺ ويقول أنس وأنا أكتمه ، ورواه الحاكم فى مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ورواه الخلال من طريق هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، ورواه ابن خزيمة فى كتاب التوحيد من طريق عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا حماد بن سلمة ومن طريق عفان ابن مسلم قال حدثنا حماد بن سلمة ، ومن طريق الهيثم بن جميل قال حدثنا حماد بن سلمة ، ومن طريق مسلم بن إبراهيم قال حدثنا حماد ، ومن طريق حجاج يعنى ابن منهال عن حماد بن سلمة ، ومن طريق سليمان بن حرب عن حماد بن

سلمة ، قال أبو بكر بن خزيمة رحمه الله تعالى على هذه الآية قبل سياق الحديث بهذه الطرق : أفليس العلم محيطاً يا ذوى الألباب أن الله عز وجل لو كان فى كل موضع ومع كل بشر وخلق كما زعمت المعطلة لكان متجلياً لكل شيء ، وكذلك جميع ما فى الأرض لو كان الله تعالى متجلياً لجميع أرضه سهلها ووعرها وجبالها وبراريها ومفاوزها ومدنها وقراها وعمارتها وخرابها وجميع ما فيها من نبات وبناء لجعلها دكا كما جعل الله الجبل الذى تجلى له دكا قال الله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) انتهى . وبالجملة فجميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام وجميع كتبه المنزلة وجميع أهل السموات ومؤمنى أهل الأرض من الجن والإنس أتباع رسل الله وجميع الفطر السليمة والقلوب المستقيمة التى لم تجتلها الشياطين عن دينها جميعها شاهدة حالا ومقالا أن خالقها وفاطرها ومعبودها الذى تألهه وتفزع إليه وتدعوه رغباً ورهباً هو فوق كل شيء عال على جميع خلقه استوى على عرشه بائناً من مخلوقاته وهو يعليم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم وجميع تقلباتهم وأحوالهم لا يخفى عليهم منهم خافية ، ولهذا ترى جميع المؤمنين عالمهم وعاميهم وحرهم ومملوكهم وذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم كل منهم إذا دعا الله تبارك وتعالى فى جلب خير أو كشف مكروه إنما يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء إلى جهة العلو إلى من يعلم سره ونجواه متوجهاً إليه بقبلة وقالبه يعلم أن معبوده فوقه وأنه إما يدعى من أعلى ، لا من أسفل كما يقول الجهمية قبحهم الله تعالى وتنزه عما يقولون علواً كبيراً.

ذكر أقوال أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم

روى ابن أبى شيبة عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر رضى الله عنه : أيها الناس ، إن كان محمد إلهكم الذى تعبدونه فإن إلهكم قد مات ، وإن كان إلهكم الله الذى فى السماء فإن إلهكم لم يمت ثم تلا (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) حتى ختم الآية . وللبخارى فى تاريخه عنه رضى الله عنه قال : لما قبض رسول الله ﷺ دخل أبو بكر رضى الله عنه عليه فأكب عليه وقبل جبهته وقال : بأبى أنت وأمى ، طبت حياً وميتاً . وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله فى السماء حى لا يموت . ولابن أبى شيبة عن قيس بن أبى حازم قال : لما قدم عمر رضى الله عنه الشام استقبله الناس وهو على بعيره ، فقالوا لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم . فقال عمر رضى الله عنه : ألا أراكم ههنا ، إنما الأمر

من ههنا فأشار بيده إلى السماء . قال الذهبى إسناده كالشمس . وروى الزهرى عن سالم أن كعبا قال لعمر : ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء : فقال عمر : إلا من حاسب نفسه . فقال كعب : إلا من حاسب نفسه . فكبر عمر ثم خر ساجداً . وعن عبد الرحمن بن غنم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : ويل لديان الأرض من ديان السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل فقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغبة ولا رهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه ، قال ابن غنم : فحدثت بهذا عثمان ومعاوية ويزيد وعبد الملك . رواه أبو نعيم . وعن أبى يزيد المدنى قال : لقيت عمر امرأة يقال لها خولة بنت ثعلبة ، فقال عمر : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات . قال الذهبى هذا إسناد صالح فيه انقطاع ، أبو يزيد لم يلحق عمر رضى الله عنه ، وفى لفظ عن عمر رضى الله عنه أنه مر بعجوز فاستوقفته فوقف يحدثها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك أتدرى من هى ، هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التى أنزل الله فيها (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) وهذا الحديث رواه عثمان بن سعيد الدارمى ، قال ابن عبد البر : حدثنا من وجوه عن عمر رضى الله عنه ، فذكره ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

شهـــدت بأن وعـــد الله حـــق	وأن النـار مثـــوى الكافرينــــا
وأن العـــرش فوق الماء طـــاف	وفـوق العـــرش رب العالمينــــا
وتحملـــه ملائكـــة كـــرام	ملائكـــة الإلـــه مسومينـــا

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : رويناه من وجوه صحاح . وروى الدارمى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ما بين السماء الدنيا والتى تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة وبين الكرسى خمسمائة عام ، وبين الكرسى إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله تعالى فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » وروى الأعمش عن خيثمة عنه « إن العبد ليهم بالأمر من التجارة أو الإمارة حتى إذا تيسر له نظر الله إليه من فوق سبع سموات فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإنه إن يسرته له أدخلته النار » أخرجه اللالكائى باسناد قوى . وعنه رضى الله عنه قال « إن الله تعالى يبرز لأهل جنته فى كل جمعة وكثب من كافور أبيض فيحدث لهم من الكرامة ما لم يروا مثله ويكونون فى الدنو منه كمسارعتهم إلى الجمع » أخرجه ابن بطة فى الابانة الكبرى باسناد

جيد . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : البحر المسجور يجرى تحت العرش . وتقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه « وينزل الله تعالى فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » . وعن أم سلمة رضى الله عنها فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) قالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به إيمان والجحود به كفر . قال الذهبى : هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأى ، ومالك الإمام ، وأبى جعفر الترمذى ، فأما عن أم سلمة فلا يصح لأن أبا كنانة ليس بثقة وأبو عمير لا أعرفه . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قالت الملائكة ياربنا منا الملائكة المقربون ومنا حملة العرش ومنا الكرام الكاتبون وذكر الحديث ، قال الذهبى إسناده صالح . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « وأيم الله إنى لأخشى لو كنت أحب قتله لقتلته — يعنى عثمان رضى الله عنه — ولكن علم الله من فوق عرشه أنى لم أحب قتله » رواه الدارمى . وعن أسماء بنت عميس أن جعفر رضى الله عنه جاءها إذ هم بالحبشه يبكى فقالت قال « رأيت فتى مترفاً من الحبشة شاباً جسيماً مر على امرأة فطرح دقيقاً كان معها فنسفته الريح فقالت أكلك إلى يوم يجلس الملك على الكرسى فيأخذ للمظلوم من الظالم » رواه ابن ماجه وغيره . وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال « لما لعن الله إبليس وأخرجه من سمواته وأخزاه قال : رب أخزيتنى ولعنتنى وطردتنى عن سمواتك وجوارك ، فوعزتك لأغوين خلقك ما دامت الأرواح فى أجسادهم ، فأجابه الرب تبارك وتعالى فقال : وعزتى وجلالى وارتفاعى على عرشى لو أن عبدى أذنب حتى ملأ السموات والأرض خطايا ثم لم يبق من عمره إلا نفس واحد فندم على ذنوبه لغفرتها وبدلت سيئاته كلها حسنات) وقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الشيطان قال : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى ، لا أزال أغفر ما استغفرونى » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال « إن الكرسى الذى وسع السموات والأرض لموضع قدميه ، وما يقدر قدر العرش إلا الذى خلقه ، وإن السموات فى خلق الرحمن عز وجل مثل قبة فى صحراء » رواه عبد الله ابن أحمد فى كتاب السنة . والدارمى عنه رضى الله عنه أنه استأذن على عائشة رضى الله عنها وهى تموت فقال : « كنت أحب نساء النبى ﷺ إليه ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبا ، وأنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله تعالى يذكر فيها إلا وهو يتلى فيها آناء الليل وآناء النهار » . وذكر الطبرانى فى شرح السنة عن مجاهد

قال : قيل لابن عباس إن ناساً يكذبون بالقدر ، قال « يكذبون بالكتاب ، لئن أخذت شعر أحدهم لا ينبتونه ، إن الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً فخلق الخلق فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فإنما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه » . ولإسحق بن راهويه عن عكرمة فى قوله تعالى (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يستطع أن يقول من فوقهم ، علم أن الله تعالى من فوقهم . وليحيى بن سعيد الأموى عن عدى بن عميرة رضى الله عنه قال : خرجت مهاجراً إلى النبى ﷺ ، فذكر قصة طويلة وقال فيها : فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم ويزعمون أن إلههم فى السماء ، فأسلمت وتبعته . وأقوال الصحابة فى هذا الباب وتفاسيرهم أكثر من أن تحصر ، وفيما ذكرنا كفاية .

ذكر أقوال التابعين رحمهم الله تعالى ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة

عن كعب الأحبار رضى الله عنه قال : قال الله عز وجل فى التوراه « أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى أدبر أمور عبادى . ولا يخفى على شىء فى السماء ولا فى الأرض » قال الذهبى رواته ثقات . وعنه رحمه الله قال : إن الله تعالى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ثم جعل بين كل سماءين كما بين السماء الدنيا والأرض ، وجعل كثفها مثل ذلك ، ثم رفع العرش فاستوى عليه . وذكر الأثر . رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة ، قال الذهبى إسناده نظيف ، وأبو صالح لينوه وما هو بمتهم بل سيء الاتقان . وعن مسروق رحمه الله تعالى أنه كان إذا حدث عن عائشة رضى الله عنهما قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة الله المبرأة من فوق سبع سموات ، قال الذهبى إسناده صحيح . ويروى عن عطاء بن يسار رحمه الله أن موسى عليه السلام قال : ياربّ من أهلك الذين هم أهلك الذين تظلـهم فى ظل عرشك ؟ قال : هم الذين يأوون إلى مساجدى كما تأوى النسور إلى أوكارها . وعن عبيد بن عمير قال : ينزل الرب عز وجل شطر الليل إلى سماء الدنيا فيقول : من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له ، حتى إذا كان الفجر صعد الرب عز وجل . أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد فى رده على الجهمية . وعن شريح بن عبيد الله أنه كان يقول : ارتفع إليك ثغاء التسبيح ، وصعد إليك وقار التقديس ، سبحانك ذا الجبروت ، بيدك الملك والملكوت والمفاتيح والمقادير . إسناده صحيح . وعن أبى قلابة رحمه الله تعالى قال « أهبط الله تعالى آدم . قال : يا آدم إنى مهبط معك بيتاً

يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي » وذكر الأثر ، قال الذهبي هو ثابت عن أبي قلابة ، وعن عمرو بن ميمون قال « لما تعجل موسى إلى ربه رأى فى ظل العرش رجلا يغبطه ، فسأل الله تعالى أن يخبره باسمه فقال : لا ولكنى أحدثك بشيء من فعله ، كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يعق والديه ، ولايمشي بالنميمة » قال الذهبي إسناده قوى . وعن مجاهد رحمه الله تعالى قال : ما أخذت السموات والأرض من العرش إلا كما تأخذ الحلقة من أرض الفلاة . وعنه رحمه الله تعالى فى قول الله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال : يجلسه أو يقعده على العرش . قال الذهبي لهذا القول طرق خمسة . وأخرجه ابن جرير فى تفسيره ، وعمل فيه المروزى مصنفاً . وعن نوف البكالى « أن موسى عليه السلام لما سمع الكلام قال : من أنت الذى يكلمنى قال : أنا ربك الأعلى » قال الذهبي إسناده صحيح . وعنه قال : إنى أجد فى التوراة لو أن السموات والأرض كن طبقاً من حديد فقال رجل لا إله إلا الله لخرقتهن حتى تنتهى إلى الله عزوجل» رواه حماده بن سلمة. وعن أبي عيسى يحيى بن رافع رحمه الله تعالى أن ملكاً لما استوى الرب على كرسيه سجد فلا يرفع رأسه حتى تقوم الساعة فيقول : لم أعبدك حق عبادتك . وعن قتادة رحمه الله تعالى قال : قالت بنو إسرائيل « يارب أنت فى السماء ونحن فى الأرض فكيف لنا أن نعرف رضاك وغضبك ؟ قال : إذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم وإذا غضبت استعملت عليكم شراركم » قال الذهبي هذا ثابت عن قتادة . وعن عكرمة رحمه الله تعالى قال : بينما رجل فى الجنة اشتهى الزرع ، فيقول للملائكة ابذروا فيخرج أمثال الجبال فيقول الرب عز وجل من فوق عرشه « كل يا ابن آدم فإن ابن آدم لا يشبع » قال الذهبي إسناده ليس بذاك . وصح فى السنة للالكائى عن ثابت البنانى قال : كان داود عليه السلام يطيل الصلاة ، ثم يرفع رأسه إلى السماء ثم يقول إليك رفعت رأسي نظر العبيد إلى أربابها ياساكن السماء . وفى الحلية باسناد صحيح عن مالك بن دينار أنه كان يقول : خذوا ، فيقرأ ثم يقول : اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه . وعن مجاهد فى قوله تعالى (وقربناه نجيا) قال : بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، فما زال يقرب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال (رب أرنى أنظر إليك) هذا ثابت عن مجاهد إمام التفسير أخرجه البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات . وعن سفيان قال : كنت عند ربيعة بن أبى عبد الرحمن فسأله رجل فقال (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فقال « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول . ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا

التصديق » . وعن حسان بن عطية قال : حملة العرش أقدامهم ثابتة فى الأرض السابعة ورءوسهم قد جاوزت السماء السابعة وقرونهم مثل طولهم عليها العرش . وذكر أيوب السختيانى المعتزلة وقال : إنما مدار القوم على أن يقولوا ليس فى السماء شىء . قال الذهبى : هذا إسناد كالشمس وضوحاً وكالأسطوانة ثبوتاً عن سيد أهل البصرة وعالمهم رحمة الله تعالى . وقرأ ابن محيصين رفيق ابن كثير بمكة (وفى السماء رزقكم وما تودعون). وعن الضحاك فى قوله تعالى: (مايكون من نجوى ثلاثة إلاهو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم) قال : هو على عرشه وعلمه معهم أينما كانوا ، وفى لفظ: هو فوق العرش وعلمه معهم أين ما كانوا . أخرجه العسال وابن بطة وابن عبد البر باسناد جيد . وعن سليمان التيمى رحمه الله تعالى قال : لو سألت أين الله لقلت فى السماء . وعن حبيب بن أبى حبيب قال شهدت خالد بن عبد الله القسرى وخطبهم بواسط فقال « أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ثم نزل فذبحه . قال الذهبى والمعتزلة تقول هذا وتحرف نص التنزيل فى ذلك ، وزعموا أن الرب منزه عن ذلك . وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى التمهيد : وعلماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) هو على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم أحد فى ذلك يحتج به .

طبقة أخرى

عن نوح الجامع قال : كنت عند أبى حنيفة أول ما ظهر جهم ، إذا جاءته امرأة من ترمذ كانت تجالس جهما فدخلت الكوفة فأظننى أقل ما رأيت عليها عشرة آلاف نفس ، فقيل لها : إن ههنا رجلا قد نظر فى المعقول يقال له أبو حنيفة ، فأتيه . فأتته فقالت : أنت الذى تعلم الناس المسائل وقد تركت دينك ، أين إلهك الذى تعبده ؟ فسكت عنها ثم مكث سبعة أيام لا يجيبها ثم خرج إلينا وقد وضع كتاباً إن الله عز وجل فى السماء دون الأرض ، فقال له رجل : أرأيت قول الله عز وجل (وهو معكم) قال : هو كما تكتب إلى الرجل أنى معك ، وأنت غائب عنه . رواه البيهقى ثم قال : لقد أصاب أبو حنيفة رحمه الله فيما نفى عن الله عز وجل من الكون فى الأرض . وأصاب فيما ذكر من تأويل الآية وتبع مطلق السمع بان الله تعالى فى السماء ، قلت وإنما أراد بقوله هو كما تكتب إلى الرجل إلخ

نفى الحلول ، وإلا فربنا تبارك وتعالى سواء عنده الغيب والشهادة والسر والعلانية . وعن أبى مطيع الحكم بن عبد الله البلخى قال « سألت أبا حنيفة عمن يقول لا أعرف ربى فى السماء أو فى الأرض ، قال : إذا أنكر أنه فى السماء أو فى الأرض فقال قد كفر لأن الله تعالى يقول (الرحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سمواته . فقلت إنه يقول : أقول على العرش استوى ، ولكن قال لا يدرى العرش فى السماء أو فى الأرض ، قال إذا أنكر إنه فى السماء فقد كفر » رواه شيخ الإسلام الأنصارى فى الفاروق . وروى المقدسى عنه رحمه الله تعالى أنه قال : من أنكر أن الله عز وجل فى السماء فقد كفر . وعن ابن جريج رحمه الله تعالى قال : كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الخلق . وروى الحاكم عن الأوزاعى رحمه الله تعالى قال « كنا ـــ والتابعون متوافرون ـــ نقول : إن الله عز وجل فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته » وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات . وللثعلبى عنه قوله تعالى (ثم استوى على العرش) قال : هو على عرشه كما وصف نفسه . وسئل رحمه الله تعالى عن أحاديث الصفات فقال : أمرها كما جاءت . وعن مقاتل بن حيان فى قوله تعالى (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) قال : هو على عرشه وعلمه معهم ، رواه عبد الله ابن أحمد فى السنة . وللبيهقى عنه قال : بلغنا والله أعلم فى قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) : هو الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء والظاهر فوق كل شيء والباطن أقرب من كل شيء ، وإنما قربه بعلمه وهو فوق عرشه . وعن سفيان الثورى فى قوله (وهو معكم أينما كنتم) قال علمه . وقال فى جميع أحاديث الصفات أمروها كما جاءت . وعن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى قال : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو منه شيء ، وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ، ثم رفع رأسه فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع ، وأنت صاحب بدعة ، أخرجوه . وفى رواية قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وإنى أخاف أن تكون ضالا . وأمر به فأخرج . وقال سلام بن أبى مطيع : ويلكم ما تنكرون هذا الأمر ، والله ما فى الحديث شيء إلا وفى القرآن ما هو أثبت منه ، قول الله تعالى (إن الله سميع بصير ـــ ويحذركم الله نفسه ـــ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ـــ ثم استوى على العرش والسموات مطويات بيمينه ـــ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ـــ وكلم الله موسى تكليما ـــ يا موسى إننى أنا الله)فما زال فى

ذلك من العصر إلى المغرب . وصح عن ابن الماجشون أنه سئل عما جحدت به الجهمية فقال : أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتابعته الجهمية فى صفة الرب العظيم الذى فاتت عظمته الوصف والتقدير ، وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول دون معرفة قدره ، فلم تجد العقول مساغاً فرجعت خاسئة حسيرة ، وإنما أمروا بالنظر والتفكير فيما خلق ، وإنما يقال « كيف » لما لم يكن مرة ثم كان ، أما من لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو . وساق فصلا طويلا فى هذا المعنى ، وذكر جملة من نصوص الصفات رحمه الله . وقال حماد بن زيد : إنما يدورون على أن يقولوا ليس فى السماء إله ، يعنى الجهمية ، رواه ابن أبى حاتم الرازى . وقال محمد بن إسحاق إمام أهل المغازى : كان الله تعالى كما وصف نفسه إذ ليس إلا الماء عليه العرش ، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام ، الظاهر فى علوه على خلقه فليس شىء فوقه ، الباطن لإحاطته بخلقه فليس شىء دونه ، الدائم الذى لا يبيد ، وكان أول ما خلق النور والظلمة ثم السموات السبع من دخان ، ثم دحى الأرض ، ثم استوى إلى السماء فحبكهن وأكمل خلقهن فى يومين ، ففرغ من خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش .

طبقة أخرى

روى ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الحميد قال : كلام الجهمية أوله عسل وآخره سم ، وإنما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله . وصح عن على ابن الحسن بن شقيق قال : قلت لعبد الله بن المبارك كيف نعرف ربنا عز وجل ؟ قال : فى السماء السابعة على عرشه ، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه ها هنا فى الأرض . فقيل هذا لأحمد بن حنبل فقال : هكذا هو عندنا . وعنه رضى الله عنه أن رجلا قال له : يا أبا عبد الرحمن قد خفت الله من كثرة ما أدعو على الجهمية ، قال : لا تخف فانهم يزعمون أن إلهك الذى فى السماء ليس بشىء . رواه عبد الله ابن أحمد . وقال نوح الجامع وسأله رجل عن الله عز وجل فى السماء هو ؟ فحدث بحديث النبى ﷺ حين سأل الأمة أين الله قالت فى السماء قال « أعتقها فانها مؤمنة » ثم قال : سماها النبى ﷺ مؤمنة أن عرفت أن الله عز وجل فى السماء . رواه عبد الله بن أحمد أيضاً . وقال عباد بن العوام كلمت بشرا المريسى وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهى أن يقولوا ليس فى السماء شىء ، أرى أن لا يناكحوا ولا يوارثوا . وثبت عن أبى يوسف رحمه الله قال : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن

طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن تتبع غريب الحديث كذب . وقد ضرب علياً الأحوال وطوف به فى شأن الكلام وضرب آخر كان معه . وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التى جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ فى صفة الرب عزوجل من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه. فمن فسر شيئا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبى ﷺ وفارق الجماعة لأنه وصفه بصفة لا شىء . وكتب بشر المريسى قبحه الله تعالى إلى منصور بن عمار رحمه الله تعالى يسأله عن قوله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فكتب إليه استواؤه غير محدود والجواب فيه تكلف ومسألتك عن ذلك بدعة والإيمان بجمله ذلك واجب قال الله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) . وقيل ليزيد بن هارون : من الجهمى ؟ قال : من زعم أن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) على خلاف ما يقر فى قلوب العامة فهو جهمى رواه عبد الله بن أحمد . وقال سعيد بن عامر الضبعى وذكر الجهمية قال : هم شر قولا من اليهود والنصارى ؛ قد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله عز وجل على العرش ، وقالوا هم ليس على العرش . وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : حدثنا وكيع عن إسرائيل بحديث « إذا جلس الرب جل جلاله على الكرسى » فاقشعر رجل عند وكيع ، فغضب وكيع وقال : أدركنا الأعمش والثورى يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها . وقال مرة : نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا ولا لم كذا . وقال عبد الرحمن بن مهدى : إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله تعالى كلم موسى وأن يكون على العرش ؛ أرى أن يستتابوا فان تابوا وإلا ضربت أعناقهم . وقال وهب بن جرير : إياكم ورأى جهم فانهم يحاولون أنه ليس شىء فى السماء ، وما هو إلا من وحى إبليس ، ما هو إلا الكفر . وقال الأصمعى لما قدمت أمرأة جهم فقال رجل عندها : الله على عرشه ، فقالت : محدود على محدود . قال الأصمعى : هى كافرة بهذه المقالة . وقال الخليل بن أحمد فى قوله (ثم استوى إلى السماء) يقول ارتفع . وقال الفراء صعد . وعن عبد الله بن أبى جعفر الرازى أنه ضرب رأس قرابة له كان يرى رأى جهم وكان يضرب بالنعل على رأسه ويقول : لا . حتى تقول الرحمن على العرش استوى ، بائن من خلقه .

طبقة الشافعي وأحمد رضى الله عنهما

روى الحافظ المقدسي عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى : القول فى السنة التى أنا عليها ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما إقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وأن الله تعالى على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء ، وذكر سائر الاعتقاد . وقال عبد الله بن مسلمة القعنبى : من لا يوقن أن الرحمن على العرش استوى كما يقر فى قلوب العامة فهو جهمى . وقال عاصم بن على شيخ البخارى رحمهما الله تعالى : ناظرت جهما فتبين من كلامه أنه لا يؤمن أن فى السماء رباً . وقال عبد الله بن الزبير الحميدى : نقف على ما وقف عليه القرآن والسنة ، نقول (الرحمن على العرش استوى) ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمى . وقال هشام بن عبيد الله الرازى وحبس رجل فى التجهم فجىء به إليه ليمتحنه فقال له : أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه ؟ فقال : لا أدرى ما بائن من خلقه ، فقال : ردوه فانه لم يتب بعد . وقال محمد بن مصعب العابد : من زعم أنك لا تتكلم ولا ترى فى الآخرة فهو كافر بوجهك ، أشهد أنك فوق العرش فوق سبع سموات، ليس كما تقول أعداء الله الزنادقة . وقال أبو عمران الطرسوسى قلت لسنيد بن داود : هو عز وجل على عرشه بائن من خلقه ؟ قال نعم : وقال نعيم بن حماد فى قوله (وهو معكم) قال معناه أنه لا يخفى عليه خافية بعلمه ، ألا ترى قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية ، وقال رحمه الله تعالى : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً . وقال بشر الحافى : والإيمان بأن الله تعالى على عرشه استوى كما شاء وأنه عالم بكل ما كان وأنه يقول ويخلق ، فقوله كن ليس بمخلوق ، ومن دعائه : اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الذل أحب إلى من الشرف ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أن الفقر أحب إلى من الغنى ، اللهم إنك تعلم فوق عرشك أنى لا أوثر على حبك شيئاً . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام فى أحاديث الرؤية ، والكرسى موضع القدمين ، وضحك ربنا ، وحديث أين كان ربنا ، فقال : هذه أحاديث صحاح حملها أصحاب الحديث بعضهم عن بعض وهى عندها حق لا شك فيها . ولكن إذا قيل لنا كيف وضع قدمه وكيف يضحك قلنا : لا نفسر هذا ولا سمعنا أحداً يفسره . وقال أحمد بن نصر وسئل عن علم الله ـــ فقال : علم الله معنا وهو على عرشه . وقال مكى بن

إبراهيم : دخلت امرأة جهم على زوجتي فقالت يا أم إبراهيم هذا زوجك الذي يحدث عن العرش من نجره ؟ قالت : نجره الذي نجر أسنانك . قال وكانت بادية الأسنان . وقال قتيبة بن سعيد : قول الأئمة في الإسلام والسنة والجماعة ــ نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه كما قال جل جلاله (الرحمن على العرش استوى) . وقال أبو معمر إسماعيل ابن إبراهيم القطيعي : آخر كلام الجهمية أنه ليس في السماء إله . وقال يحيى ابن معين : إذا قال لك الجهمي وكيف ينزل ؟ فقل كيف يصعد ؟ قلت : الكيف في الحالين منفى عن الله تعالى لا مجال للعقل فيه . وعن على ابن المديني أنه سئل : ما قول أهل الجماعة ؟ قال يؤمنون بالرؤية وبالكلام وأن الله عز وجل فوق السموات على عرشه استوى . فسئل عن قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) فقال : اقرأ ما قبله (ألم تر أن الله يعلم) . وسئل أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام أهل السنة : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال : نعم هو على عرشه ، ولا يخلو شيء من علمه . وقيل له : ما معنى (وهو معكم) قال : علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة . وقال حرب بن إسماعيل الكرماني : قلت لاسحاق بن راهويه قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) كيف تقول فيه ؟ قال : حيث ما كنت فهو أقرب إليك من حبل الوريد وهو بائن من خلقه ، ثم ذكر عن ابن المبارك قوله هو على عرشه بائن من خلقه ، ثم قال : أعلى شيء في ذلك وأبينه قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) رواه الخلال في السنة . وقال إسحاق ابن راهويه : دخلت على ابن طاهر فقال : ما هذه الأحاديث يروون أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ؟ قلت : نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام . فقال : ينزل ويدع عرشه ؟ فقلت يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ قال نعم . قلت فلم تتكلم في هذا ؟ وروى الخلال عنه قال : قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء في أسفل الأرض السابعة . وقال رجل لابن الأعرابي رحمه الله تعالى : يا أبا عبد الله ما معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ؟ قال : هو على عرشه كما أخبر . فقال الرجل : ليس كذلك ، إنما معناه استولى . فقال : اسكت ما يدريك ما هذا ، العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل استولى ، والله تعالى لا مضاد له وهو على عرشه كما أخبر ، ثم قال : الاستلاء بعد المغالبة ، قال النابغة :

إلا لمثلك أو ما أنت سابقه　　　سبق الجواد إذا استولى على الأمد

وقال ذو النون المصرى رحمه الله : أشرق لنور وجهه السموات ، وأنار لوجهه الظلمات ، وحجب جلاله عن العيون ، وناجاه على عرشه ألسنة الصدور .

طبقة أخرى

وقال المزنى فى عقيدته : الحمد لله أحق ما بدى وأولى من شكر وعليه أثنى ، الواحد الصمد ، ليس له صاحبه ولا ولد ، جل عن المثل فلا شبيه له ولا عديل ، السميع البصير العليم الخبير المنيع الرفيع عال على عرشه فهو دان بعلمه من خلقه ، والقرآن كلام الله ومن الله ، ليس بمخلوق فيبيد ، وقدرة الله ونعته وصفاته كلمات غير مخلوقات . دائمات أزليات ، ليس محدثات فتبيد ، ولا كان ربنا ناقصاً فيزيد ، جلت صفاته عن شبه المخلوقين ، عالى على عرشه ، بائن من خلقه . وذكر ذلك المعتقد . وقال : لا يصح لأحد توحيد حتى يعلم أن الله على عرشه بصفاته . قلت : مثل أى شىء ؟ قال : سميع بصير عليم قدير ، رواه ابن منده . وسئل محمد بن يحيى الذهلى رحمه الله تعالى عن حديث عبد الله بن معاوية عن النبى ﷺ « ليعلم العبد أن الله معه حيث كان » فقال : يريد أن الله علمه محيط بكل ما كان والله على العرش . وقال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى رحمه الله تعالى فى آخر الجامع الصحيح فى كتاب الرد على الجهمية : باب قول الله تعالى (وكان عرشه على الماء) قال أبو العالية : استوى على عرشه ارتفع ، وقال مجاهد فى استوى : علا على العرش . وقالت زينب أم المؤمنين رضى الله عنها : زوجنى الله من فوق سبع سموات . ثم إنه بوب رحمه الله تعالى على أكثر ما تنكره الجهمية من الصفات محتجاً بالآيات والأحاديث . وقال أبو زرعة الرازى وسئل عن تفسير (الرحمن على العرش استوى) فغضب وقال : تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه ، وعلمه فى كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : سألت أبى وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة والجماعة فى أصول الدين وما أدركا عليه العلماء فى جميع الأمصار حجازاً وعراقاً ومصراً وشاماً ويمناً ، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه بلا كيف ، أحاط بكل شىء علما . وقال محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلى أبو حاتم الرازى ونعتقد أن الله عز وجل على عرشه بائن من خلقه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . رواه أبو القاسم الطبرى . وقال يحيى بن معاذ الرازى : إن الله على

العرش بائن من خلقه أحاط بكل شيء علما ، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمى يمزج الله بخلقه رواه صاحب الفاروق . وعن محمد بن أسلم الطوسى رحمه الله تعالى قال : قال لى عبد الله بن طاهر : بلغنى أنك لا ترفع رأسك إلى السماء . فقلت : وهل أرجو الخير إلا ممن هو فى السماء . رواه الحاكم فى ترجمته . وقال عبد الوهاب الوراق : من زعم أن الله ههنا فهو جهمى خبيث ، إن الله عز وجل فوق العرش وعلمه محيط بالدنيا والآخرة . وكتب حرب الكرمانى إلى عبد الرحمن بن محمد الحنظلى : ان الجهمية أعداء الله ، وهم الذين يزعمون أن القرآن مخلوق ، وأن الله لم يكلم موسى ، ولا يرى فى الآخرة ، ولا يعرف لله مكان ، وليس على العرش ، ولا كرسى ، وهم كفار فاحذرهم . وقال عثمان بن سعيد الدارمى الإمام فى كتاب النقض : قد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سمواته يعلم ويسمع من فوق العرش لا تخفى عليه خافية من خلقه ولا يحجبهم عنه شيء . وقال أبو محمد بن قتيبة رحمه الله تعالى : كيف يسوغ لأحد أن يقول إن الله سبحانه بكل مكان على الحلول فيه مع قوله (الرحمن على العرش) ومع قوله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) كيف يصعد إليه شيء هو معه ، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهو معه ، قال : لو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم وما ركبت عليه ذواتهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله عز وجل هو العلى الأعلى وأن الأيدى ترفع بالدعاء إليه والأمم كلها عجميها وعربيها تقول إن الله فى السماء ما تركت على فطرها . وقال أبو بكر بن أبى عاصم الشيبانى : جميع ما فى كتابنا ــ كتاب السنة الكبير ــ من الأخبار التى ذكرنا أنها توجب العلم فنحن نؤمن بها لصحتها وعدالة ناقليها ، ويجب التسليم لها على ظاهرها ، وترك تكلف الكلام فى كيفيتها . فذكر من ذلك النزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش . وقال أبو عيسى محمد بن سورة الترمذى رحمه الله فى جامعه لما روى حديث أبى هريرة وهو خبر منكر عند أهل الحديث « لو أنكم أدليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله » فقال : قال أهل العلم أراد لهبط على علم الله وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . وقال أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى فى كتاب السنة من سننه ــ باب فى الجهمية ــ وساق فى ذلك حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله » وفى رواية « فإذا قالوا ذلك فقولوا : الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ من الشيطان » وذكر حديث الأوعال

وحديث جبير بن مطعم وحديث أذن لى أن أحدث عن ملك ، الحديث وقد ترجم قبل ذلك وبعده على معتقدات أهل السنة وما ورد فيها من الأحاديث رحمه الله تعالى كالرؤية والنزول وطى السموات والأرض وتكلم الله عز وجل والشفاعة والبعث وخلق الجنة والنار وفتنة القبر وعذابه والحوض والميزان وغير ذلك ورد على طوائف الجهمية والمرجئة والخوارج والروافض رحمه الله تعالى . وقال ابن ماجه رحمه الله تعالى فى سننه : باب ما أنكرت الجهمية ، فساق حديث الرؤية وحديث أبى رزين وحديث جابر : بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذا سطع لهم نور ، الحديث تقدم ، وحديث الأوعال وغيرها. وكذلك مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه وغيرهم من أهل السنن ساقوا أحاديث الصفات وأمروها كما جاءت لم يتعرضوا لها بكيف ولا تأويل . وقال ابن أبى شيبة رحمه الله تعالى : ذكروا أن الجهمية يقولون ليس بين الله وبين خلقه حجاب ، وأنكروا العرش وأن يكون الله فوقه وقالوا إنه فى كل مكان ففسرت العلماء وهو معكم يعنى علمه ثم تواترت الأخبار أن الله خلق العرش فاستوى عليه فهو فوق العرش متخلصاً من خلقه بائناً منهم . وقال سهل ابن عبد الله التسترى رحمه الله تعالى : لا يجوز لمؤمن أن يقول كيف الاستواء لمن خلق الاستواء ولنا عليه الرضا والتسليم لقول النبى ﷺ « إنه تعالى على العرش » قال : وإنما سمى الزنديق زنديقاً لأنه وزن دقة الكلام بمخبول عقله ، وترك الأثر وتأول القرآن بالهوى فعند ذلك لم يؤمن بأن الله تعالى على عرشه .

طبقة أخرى

قال زكريا بن يحيى الساجى رحمه الله : القول فى السنة التى رأيت عليها أصحابنا أهل الحديث الذين لقيناهم إن الله على عرشه فى سمائه يقرب من خلقه كيف شاء . وساق سائر الاعتقاد . وقال أبو جعفر بن جرير الطبرى إمام المفسرين رحمه الله فى عقيدته : وحسب امرىء أن يعلم أن ربه هو الذى على العرش استوى ، فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر . ونقل فى تفسير (ثم استوى على العرش) فى المواضع كلها أى علا وارتفع ، وتفسيره مشحون بأقوال السلف على الإثبات . وقال حماد بن هناد البوشنجى : هذا ما رأينا عليه أهل الأمصار وما دلت عليه مذاهبهم فيه وإيضاح منهاج العلماء وصفة السنة وأهلها ، إن الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه وعلمه وسلطانه وقدرته بكل مكان . وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة : من لم يقر بأن الله على عرشه استوى فوق سبع سمواته بائن من خلقه فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه

ألقى على مزبلة لئلا يتأذى برائحته أهل القبلة وأهل الذمة . وقال أبو العباس بن سريج : قد صح عن جميع أهل الديانة والسنة إلى زماننا أن جميع الآى والأخبار الصادقة عن رسول الله ﷺ يجب على المسلمين الإيمان بكل واحد منها كما ورد وأن السؤال عن معانيها بدعة ، والجواب كفر وزندقة ، مثل قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) وقوله (الرحمن على العرش استوى) وذكر الاعتقاد . وقال ثعلب إمام العربية (على العرش استوى) : علا . وقال أبو جعفر الترمذى وسأله سائل عن حديث نزول الرب : فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو ؟ فقال : النزول معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وقال الطحاوى الإمام فى عقيدته : والعرش والكرسى حق كما بين فى كتابه ، وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شىء وفوقه . وقال أبو الحسن الأشعرى فى ذكرى مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث : وأن الله على عرشه كما قال تعالى (الرحمن على العرش استوى) : قال : ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله تعالى مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش . وقال أبو محمد البربهارى رحمه الله تعالى : الكلام فى الرب محدثة وبدعة وضلالة ، فلا يتكلم فى الله إلا بما وصف به نفسه ، ولا نقول فى صفاته لم ولا كيف ، يعلم السر وأخفى وعلى عرشه استوى وعلمه بكل مكان .

طبقة أخرى من أئمة الإسلام وعلماء السنة

قال أبو أحمد العسال فى باب تفسير قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فساق ما ورد فيه من أقوال السلف وأئمتهم وحديث ابن مسعود وقد مر . وقال أبو بكر الصبغى فى قوله تعالى (من فى السماء) أى من على العرش كما صحت الأخبار عن رسول الله ﷺ . وقال أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة : باب ماجاء فى استواء الله على عرشه بائناً من خلقه ، فساق فى الباب حديث أبى رزين العقيلى وحديث الأوعال وغيرهما من أحاديث العلو . وقال أبو بكر الآجرى : الذى يذهب إليه أهل العلم أن الله تعالى على عرشه فوق سمواته وعلمه محيط بكل شىء قد أحاط بجميع ما خلق فى السموات العلى وبجميع ما خلق فى سبع أرضين يرفع إليه أعمال العباد . وقال أبو الشيخ فى كتاب العظمة له : ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه وعظم خلقهما وعلو الرب فوق عرشه . وساق جملة أحاديث فى ذلك . وقال أبو بكر الإسماعيلى استوى على العرش بلا كيف فإنه انتهى إلى أنه استوى على العرش ولم يذكر كيف كان استواؤه . وقال الاستاذ أبو منصور الأزهرى : الله تعالى على العرش . وقال أبو الحسن بن مهدى رحمه الله فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) :

اعلم أن الله تعالى فى السماء فوق كل شيء مستو على العرش بمعنى أنه عال عليه ، ومعنى الاستواء الاعتلاء . وإنما أمرنا الله تعالى برفع أيدينا قاصدين إليه برفعها نحو العرش الذى هو مستو عليه . وقال ابن بطة رحمه الله : باب الإيمان بان الله تعالى على عرشه بائن من خلقه وعلمه محيط بخلقه ، أجمع المسلمون من الصحابة والتابعين أن الله على عرشه فوق سمواته بائن من خلقه . وقال الدار قطنى رحمه الله تعالى :

حديث الشفاعة فى أحمد — إلى أحمد المصطفى نسنده
وأما حديث باقعاده — على العرش أيضاً فلا نجحده
أمروا الحديث على وجهه — ولا تدخلوا فيه ما يفسده

وقال ابن منده رحمه الله تعالى : فهو تعالى موصوف غير مجهول ، وموجود غير مدرك ، ومرئى غير محاط به لقربه كانك تراه ، وهو يسمع ويرى ، وهو بالمنظر الأعلى ، وعلى العرش استوى ، فالقلوب تعرفه والعقول لا تكيفه وهو بكل شيء محيط . وقال محمد بن أبى زيد المغربى : وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته ، وأنه فى كل مكان بعلمه . قلت : وقد أطلق هذه العبارة أعنى قوله « بذاته » أبو جعفر بن أبى شيبة والدارمى ويحيى بن عمار وأبو نصر السجزى وابن عبد البر وشيخ الإسلام والأنصارى وأبو الحسن الكرجى وأحمد بن ثابت الطرق وعبد العزيز القحيطى ، وعبد القادر الجيلى وطائفة . وقال ابن فورك رحمه الله : استوى بمعنى علا . وقال فى قوله (أأمنتم من فى السماء) أى من فوق السماء . وقال ابن الباقلانى فى إبانته : فإن قيل فهل تقولون إنه فى كل مكان ؟ قيل معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر فى كتابه فقال تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال (أأمنتم من فى السماء) إلى آخر كلامه وقال أبو أحمد القصاب فى عقيدته : كان ربنا عز وجل وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه ، فخلق كل شيء بقدرته وخلق العرش لا لحاجة إليه فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد ، لاستقرار راحة كما يستريح الخلق . قلت : تفسير الاستواء بالاستقرار لم يرد فى الكتاب ولا السنة ، ونحن لا نصف الله إلا بما ثبت فى الكتاب والسنة ، لا نزيد عليه ولا ننقص منه . وقال الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالى : طريقتنا طريقة السلف المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة ، ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملا بجميع صفاته القديمة لا يزول ولا يحول لم يزل عالماً بعلم بصيراً ببصر سميعاً بسمع متكلماً بكلام . إلى أن قال : وأن الأحاديث التى ثبتت فى العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ، وأن الله بائن من خلقه والخلق بائنون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه فى سمائه دون أرضه . وقال معمر بن زيادة فى أثناء وصيته : وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف مجهول ، وأنه بائن من خلقه والخلق بائنون منه . وذكر سائر الاعتقاد . وقال أبو القاسم اللالكائى فى قوله

تعالى (الرحمن على العرش استوى) وأن الله على عرشه : قال الله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب) وقال (أأمنتم من فى السماء) وقال (وهو القاهر فوق عباده) فدلت هذه الآيات أنه فى السماء وعلمه فى كل مكان ، روى ذلك عن عمر وابن مسعود وابن عباس وأم سلمة ، ومن التابعين ربيعة وسليمان التيمى ومقاتل بن حيان ، وبه قال مالك والثورى وأحمد . وقال يحيى بن عمار : هو بذاته على العرش وعلمه محيط بكل شيء وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء ، وذلك معنى قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) فهذا الذى قلناه هو كما قال الله تعالى وقوله رسول الله ﷺ ، قلت لفظة « بذاته » مستغنى عنها بصريح النصوص الكافية الوافية . وقال القادر بالله أمير المؤمنين فى معتقده المشهور : وأنه خلق العرش لا لحاجة ، واستوى عليه كيف شاء لا استواء راحة ، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ فهى صفة حقيقية لا صفة مجاز . وقال أبو عمرو الطلمنكى رحمه الله تعالى : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) ونحو ذلك من القرآن أنه علمه ، وأن الله تعالى فوق السموات بذاته ، مستو على عرشه كما نطق به كتابه ، وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السلف لم يختلفوا أن الله على عرشه فوق سمواته . وقال أبو نصر السجزى : أئمتنا كسفيان الثورى ومالك وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة والفضل وابن المبارك وأحمد وإسحاق متفقون على أن الله سبحانه ذاته فوق العرش وعلمه بكل مكان . وقال أبو عمرو الدانى فى أرجوزته التى فى عقود الديانة :

كلامــــه وقولــــه قديــــم   وهــو فــوق عرشــه العظيــم

وقال أبو عمر بن عبد البر فى شرح حديث النزول : هذا حديث صحيح لم يختلف أهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل أن الله تعالى فى السماء على العرش فوق سبع سموات كما قالت الجماعة . وقال أيضاً : أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا فى تأويل قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) : هو على العرش وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله . وقال أبو يعلى رحمه الله بعد أن ذكر حديث الجارية : الكلام فى هذا الخبر فى فصلين أحدهما جواز السؤال عن الله سبحانه بأين هو ؟ والثانى جواز الإخبار عنه بأنه فى السماء . وقد أخبرنا تعالى أنه فى السماء فقال (أأمنتم من فى السماء) وهو على العرش . وقال أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى فى كتاب المعتقد له : باب القول فى الاستواء ، قال الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقال (ثم استوى على العرش) ، (وهو القاهر فوق عباده) ، (يخافون ربهم من فوقهم) ، (إليه يصعد الكلم الطيب) ، (أأمنتم من فى السماء) وأراد من فوق السماء كما قال تعالى

(فى جذوع النخل) وقال (فسيحوا فى الأرض) أى على الأرض ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، فمعنى الآية أأمنتم من على العرش كما صرح به فى سائر الآيات .

طبقــة أخــرى

قال أبو الفتح نصر المقدسى : وأن الله مستو على عرشه بائن من خلقه كما قال فى كتابه . وقال شيخ الإسلام الأنصارى صاحب منازل السائرين فى التصوف ، قال فى كتاب له : باب استواء الله على عرشه فوق السماء السابعة بائناً من خلقه من الكتاب والسنة ، فساق الحجة من الآيات والأحاديث إلى أن قال : وفى أخبار شتى أن الله سبحانه وتعالى فى السماء السابعة على العرش بنفسه وهو ينظر كيف تعملون ، وعلمه وقدرته واستماعه ونظره ورحمته فى كل مكان . وقال البغوى رحمه الله تعالى فى قول الله عز وجل « ثم استوى على العرش » قال الكلبى ومقاتل : استقر ، وقال أبو عبيدة : صعد . وأولت المعتزلة الاستواء بالإستلاء ، فأما أهل السنة فانهم يقولون : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل . ثم ذكر قول مالك المتقدم ، وقال : وروى عن سفيان ، الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات . أمروها كما جاءت بلا كيف . وقال أبو الحسن الكرجى فى بائيته :

عقائدهم أن الإلــه بذاتــه ... على عرشه مع علمه بالغوائب
وأن استواء الرب يعقل كونه ... ويجهل فيه الكيف جهل الشهارب

وقال الشيخ عبد القادر الجيلى رحمه الله تعالى فى كتاب الغنية : أما معرفة الصانع بالآيات والدلائل على وجه الاختصار فهو أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : وهو مستو على العرش . محتو على الملك ، محيط بالأشياء ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال : إنه فى السماء على العرش ، كما قال (الرحمن على العرش استوى) ، وينبغى اطلاق ذلك من غير تأويل . وكونه تعالى على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل ، على كل نبى أرسل ، بلا كيف ، وقال أبو عبد الله القرطبى : وقد كان السلف الأول رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أن استواءه على عرشه حقيقة ، وخص عرشه بذلك لأنه أعظم

مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فانه لا يعلم حقيقة كيفيته . قلت : أراد بالجهة إثبات العلو لله تعالى ، أما لفظ الجهة فلم يرد فى الكتاب ولا السنة ، ولا يلزم من إثبات العلو إثباتها ، لأن العرش سقف جميع المخلوقات فما فوقه لا يسمى جهة ، ولو سلمنا أنه يلزم من إثبات العلو إثبات الجهة فلازم الحق حق ، فما استلزمه صريح الآيات والأحاديث فهو حق بلا خلاف عند أهل السنة . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فى العقيدة الواسطية بعد سرد الآيات والأحاديث فى الصفات : فصل وقد دخل فيما ذكرنا من الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به فى كتابه وتواتر عن رسول الله ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه عليّ على خلقه ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون ، كما جمع بين ذلك فى قوله تعالى (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وليس معنى قوله (وهو معكم) أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان ، والله سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلى غير ذلك من معانى ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذى ذكر الله تعالى من أنه فوق العرش وأنه معنا حق على حقيقته ، لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن ظاهر قوله (فى السماء) أن السماء تقله أو تظله ، وهذا باطل باجماع أهل العلم والإيمان فإن الله تعالى قد وسع كرسيه السموات والأرض ، وهو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ا. هـ . ومصنفات هذا الإمام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى فى الانتصار لمعتقد أهل السنة والجماعة قد طبقت المشارق والمغارب ، ولو ذهبنا نذكر أقوال أهل العلم والدين من السلف والخلف لاحتجنا إلى عدة أسفار بل إلى عدة أحمال ، وفيما ذكرناه كفاية . ونحن نشهد الله تعالى وحملة عرشه وجميع ملائكته وأنبياءه ورسله وجميع خلقه أنا نثبت لربنا عز وجل ما أثبته لنفسه فى كتابه وأثبته رسوله ﷺ وأجمع عليه أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً ممن ذكرنا وممن لم نذكر من أن ربنا وإلهنا فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وهو يعلم ما هم عليه لا يخفى عليه منهم خافية ، واستواؤه على عرشه كما أخبر وعلى الوجه الذى عناه وأراده كما يليق بجلال ربنا وعظمته ، لا

نتكلف لذلك تأويلا ولا تكييفاً بل نقول آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ ، ولا نطلب إماماً غير الكتاب والسنة ، ولا نتخطاهما إلى غيرهما ولا نتجاوز ماجاء فيهما ، فننطق بما نطقا به ونسكت عما سكتا عنه ونسير سيرهما حيث سارا ونقف معهما حيث وقفا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وَمَعَ ذَا مَطْلَعٌ إِلَيْهِمُو	بعلمه مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمُ
وذكره للقرب والمعيه	لم يَنْفِ للعُلُوِّ وَالْفُوقِيه
فَإِنَّهُ الْعَلِيُّ فى دُنُوِّه	وهُوَ الْقَرِيبُ جَلّ فى عُلُوِّهِ

(ومع ذا) الاتصاف بالعلو والاستواء على العرش والمباينة منه لخلقه تبارك وتعالى فهو (مطلع) سبحانه وتعالى (إليهمو) الواو للاشباع (بعلمه) المحيط بجميع المعلومات لا تخفى عليه منهم خافية ، كما جمع تبارك وتعالى بين ذلك فى قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) فجمع تعالى بين استوائه على عرشه وبين علمه السر وأخفى ، وكذلك جمع عز وجل بينهما فى قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وهو الأول فليس قبله شيء ، والآخر فليس بعده شيء والظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء ، هكذا فسره رسول الله ﷺ فى حديث أبى هريرة عند مسلم . وكذلك جمع تعالى بينهما فى الآية التى تليها فقال عز وجل (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وكذلك جمع النبى ﷺ بين هذين المعنيين فى حديث الأوعال إذ يقول « والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه » وغير ذلك من الآيات والأحاديث ، وهو إجماع المؤمنين . (مهيمن) رقيب (عليهمو) بواو الاشباع (وذكره) تبارك وتعالى (للقرب) فى قوله عز وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) وقوله تعالى (إنه سميع قريب) وقول النبى ﷺ فى حديث الصحيحين « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ».
(و) كذلك ذكره (المعية) العامه فى قوله تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) وقوله عز

وجل (وهو معكم أينما كنتم) وكذا المعية الخاصة فى قوله عز وجل (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله (واصبروا إن الله مع الصابرين) وقوله لموسى وهارون (إننى معكما أسمع وأرى) وقوله فى قصة نبيناﷺ مع الصديق رضى الله عنه (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) كل ذلك لم ينف العلو المذكور فى النصوص السابقة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة من أنه تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه — إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — تعرج الملائكة والروح إليه — يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . (والفوقية) عطف على العلو وهو رديفه فى المعنى أى ولم ينف قوله عز وجل (وهو القاهر فوق عباده) وقوله (يخافون ربهم من فوقهم) وقول النبى ﷺ (والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه) بل كل ذلك حق على حقيقته ولا منافاة بين قربه عز وجل وبين علوه (فانه) هو (العلى) المتصف بجميع معانى العلو ذاتاً وقهراً وشأناً (فى دنوه) فيدنو تعالى من خلقه كيف شاء . وينزل إلى السماء الدنيا فى آخر كل ليلة وعشية عرفة وغير ذلك كيف شاء ويأتى لفصل القضاء بين عباده كيف شاء ، وليس ذلك منافياً لفوقيته فوق عباده واستوائه على عرشه فانه ليس كمثله شىء فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ومعيته العامة فى قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) معناها إحاطته بهم علماً وقدرة كما يدل عليه أول السياق وآخره ، وهو إجماع الصحابة والتابعين كما تقدم نقل إجماعهم على ذلك وأما معيته الخاصة لاحبابه وأوليائه فتلك غير المعية العامة ، فهو معهم بالإعانة والرعاية والكفاية والنصر والتأييد والهداية والتوفيق والتسديد وغير ذلك مما تجفو عبارة المخلوق عنه ، ويقصر تعريفه دونه ، وكفاك قول الله عز وجل فيما رواه عنه نبيهﷺ إذ يقول « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها « وفى بعض الروايات وقلبه الذى يعقل به ، ولسانه الذى ينطق به » وليس معنى ذلك أن يكون جوارح للعبد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما المراد أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عز وجل بالفرائض ثم بالنوافل قربه إليه ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان ، فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلىء قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذى فى قلبه من المعرفة مشاهداً له بعين البصيرة . إلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله « أحبوا الله من كل قلوبكم » فمتى امتلا القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ، ولم يبق للعبد شىء من نفسه وهواه ، ولا إرادة إلا لما يريد منه مولاه .

فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره ، فان نطق نطق بالله ، وإن سمع سمع به ، وإن نظر نظر به ، وإن بطش بطش به ، فهذا هو المراد بقوله عز وجل « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » . ومن أشار إلى غير هذا فانما يشير إلى الالحاد من الحلول والاتحاد ، والله ورسوله بريئان منه .

(وهو القريب جل فى علوه) فهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه عال على جميع خلقه وهو قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه . ويعلم سره ونجواه ، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته. ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، فإن الذى عند عنق راحلته أو عند حبل وريده لا يعلم ما خفى عليه من كلامه ، والله عز وجل على عرشه ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو مع خلقه بعلمه وقدرته لا تخفى عليه منهم خافية وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو على كل شيء شهيد وبكل شيء محيط ، فهو سبحانه القريب فى علوه ، العلى فى دنوه وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

حـــى وقيـــوم فـــلا ينـــام	وجـــل أن يشبهه الأنـــام
لا تبلـغ الأوهـام كنـه ذاتـه	ولا يكيـف الحجـا صفاتـــه

(حى) لا يموت كما قال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) وقال تعالى (هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) فهو الحى الذى لم تسبق حياته بالعدم ولم يعقب بالفناء ، هو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء ، وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت الذى لا يموت والجن والانس يموتون) .

(وقيوم) فهو القيوم بنفسه القيم لغيره فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنى عنها ولا قوام لها إلا به ولا قوام لها بدون أمره كما قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وهو القائم على كل شيء والقائم بجميع أمور عباده والقائم على كل نفس بما كسبت . وفى الصحيحين من دعائه ﷺ فى صلاة الليل « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض » الحديث . وقد جمع تعالى بين هذين الاسمين (الحى القيوم) فى

ثلاثة مواضع من كتابه : الأول آية الكرسى من سورة البقرة (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم) ، والثانى أول سورة آل عمران (ألم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم) ، الثالث فى سورة طه (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً) وروى ابن مردويه عن أبى أمامة مرفوعاً قال « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاثة سور : سورة البقرة وآل عمران وطه » . (فلا ينام) أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه فإن ذلك نقص فى حياته وقيوميته ، ولهذا أردف هذين الاسمين بنفى السنة والنوم فقال (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) أى لا تغلبه سنة وهو الوسن والنعاس ، ولا نوم ونفيه من باب أولى لأنه أقوى من السنة ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية . وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور — أو النار — لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) . (وجل) عن (أن يشبهه الأنام) فى ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله لأن الصفات تابعة لموصوفها فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات ، ولو اهتدى المتكلمون لهذا المعنى الذى هدى الله إليه أهل السنة والجماعة لما نفوا عن الله ما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ ولما عطلوه عن صفات كماله ونعوت جلاله فراراً بزعمهم من التشبيه فوقعوا فى أعظم من ذلك ولزمهم أضداد ما نفوه من الصفات الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، وسبب ضلالهم أنهم تقدموا بين يدى الله ورسوله واتهموا الوحيين فيما نطقا به ووزنوهما بعقولهم السخيفة وأذهانهم البعيدة وقوانينهم الفاسدة التى هى ليست من الله فى شيء ، ولا من علوم الإسلام فى ظل ولا فيء ، وإنما هى أوضاع مختلفة أدخلها الأعادى على أهل الإسلام لقصد إظهار الفساد ، ولغرس شجرة الإلحاد ، المثمرة تعطيل البارى عز وجل عن صفات كماله وعلوه واعتقاد الحلول والاتحاد .

جاءوا بها فى قالب التنزيـــــــه ... لله كـى يغـوون كـل سفيـه

قالوا صفات كماله منفية ... عنه مخافة موجب التشبيه
تعطيلهم سموه «تنزيهاً» له ... ليروجوا فاعجب لذا التمويه
والوحى قالوا نصه لا يوجب ... العلم اليقين فأى دين فيه
ما الدين إلا ما عن اليونان قد ... جئنا به طوبى لمن يحويه
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم ... وبقوا حيارى فى ضلال التيه

فسموا النور الذى أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ تفصيل كل شىء وتبياناً لكل شىء ولم يفرط فيه من شىء وبيان النبى ﷺ من جوامع كلمه التى اختصه الله بها ، فسموا ذلك كله « آحاداً ظنية لا تفيد اليقين » ، وسموا زخارف أذهانهم ووساوس شيطانهم « قواطع عقلية » ، لا والله ما هى إلا خيالات وهمية ووساوس شيطانية ، هى من الدين بريئة وعن الحق أجنبية ، توجب الحيرة وتعقب الحسرة كثيرة المبانى قليلة المعانى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، وياليته إذا جاءه لم يجده شيئاً لكن وجده اسم النقيع والداء العضال ، فخاخ هلكة نصبها الأعداء لاصطياد الأغنياء ، وخدعة ماكر فى صورة ناصح فعل عدو الله اللعين فى قصته مع الأبوين عليهما السلام فى دلالتهما على الشجرة التى نهاهما ربهما عنها (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور) إلى آخر الآيات ، وكذلك كتب الكلام والمنطق اليونانى أدخله الأعداء علينا وسموه علم التوحيد تلبيساً وتمويهاً وما هو إلا سلم الإلحاد والزندقة ، وجحدوا صفات البارى عز وجل وسموا ذلك تنزيهاً ليغروا الجهال بذلك ، وإنما هو محض التعطيل . وسموا أولياء الله المؤمنين الذين عرفوه بأسمائه وصفاته مشبهة لينفروا الناس عنهم مكراً وخديعة ، فأصبح المغرور بقولهم المخدوع بمكرهم حائراً ، مخذولا لأنهم لما عزلوا كتاب الله عن البيان وحكموا عقولهم السخيفة فى نصوص صفات الديان لم يفهموا منها إلا ما يقوم بالمخلوق من الجوارح والأدوات التى منحه الله إياها ومتى شاء سلبه ، ولم ينظروا المتصف بها من هو ، فلذلك نفوها عن الله عز وجل لئلا يلزم من إثباتها التشبيه ، فشبهوا أولا وعطلوا ثانياً ، فلما نفوا عن الله صفات كماله لزمهم إثبات ضدها وهو النقائض ، فمن نفى عن الله كونه سميعاً بصيراً فقد شبهه بما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئاً وكذلك سائر الصفات وماذا عليهم لو أثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ كما شاء الله تعالى وعلى الوجه الذى أراد ، فجميع صفاته صفات كمال وجلال تليق بعظمة ذاته ونفيها ضد ذلك الملك، ولا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق المسميات فإن الله تعالى قد سمى نفسه سميعاً بصيراً، وأخبرنا أنه جعل الإنسان سميعاً بصيراً، وسمى

نفسه الرءوف الرحيم، وأخبر أن نبيه ﷺ بالمطمنين رءوف رحيم، وسمى نفسه الملك فقال (ملك يوم الدين – ملك الناس) وسمى بعض خلقه ملكاً فقال (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) وهو العزيز وسمى بعض عباده عزيزاً وغير ذلك، فلايلزم من اتفاق التسمية اتفاق الأسماء ومقتضياتها، فليس السمع كالسمع ولا البصر كالبصر ولا الرأفة كالرأفة ولا الرحمة كالرحمة ولا العزة كالعزة، كما أنه ليس المخلوق كالخالق ولا المحدث الكائن بعد أن لم يكن كالأول الآخر الظاهر الباطن، وليس الفقير العاجز عن القيام بنفسه كالحى القيوم الغنى عما سواه وكل ما سواه فقير إليه، فصفات الخالق الحى القيوم قائمة به لائقه بجلاله أزلية بأزليته دائمة بديموميته، لم يزل متصفاً بها ولا يزال كذلك، لم تسبق بضد ولم تعقب به، بل له تعالى الكمال المطلق أولا وأبداً (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير)، فمن شبه الله تعالى بخلقه فقد كفر ومن نفى عنه ما وصف به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه . (لا تبلغ الأوهام كنه ذاته) أى نهاية حقيقتها كما قال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) وقال تعالى (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) وإنما نعرفه تعالى بما وصف به نفسه فى كتبه المنزلة على رسله بأنه أحد صمد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) ، (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى آخر الآية ، (وهو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) ، (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) ، (هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) ، (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) إلى غير ذلك من آيات الأسماء والصفات .

(ولا يكيف الحجا) أى العقل (صفاته) لأنه لا يعلم كيف هو إلا هو ، فالواجب علينا أيها العبيد الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وإمرارها كما جاءت واعتقاد أنها حق كما أخبر الله عز وجل وأخبر رسوله ﷺ ، وعدم التكييف والتمثيل لأن الله عز وجل أخبرنا بأسمائه وصفاته وأفعاله ولم يبين كيفيتها فنصدق الخبر ونؤمن به ونكل الكيفية إلى الله عز وجل ، فصفات ذاته تعالى من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة وغيرها وكذلك صفات أفعاله من الاستواء على العرش والنزول إلى سماء الدنيا والمجىء لفصل القضاء بين عباده وغير ذلك كلها حق على حقيقتها ، علمنا اتصافه تعالى بها بما علمنا فى كتابه وسنة رسوله ﷺ ، وغاب عن جميع المخلوقين كيفيتها ولم يحيطوا بها علماً كما قالت أم سلمة رضى الله عنها وربيعة

الرأى ومالك بن أنس وغيرهم رحمهم الله تعالى : الإستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب السؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق والتسليم ، وكذلك القول فى جميع صفاته عز وجل ، وإنا والله لكأنون حائرون فى كيفية سراية الدم فى أعضائنا وجريان الطعام والشراب فينا وكيف يدبر الله تعالى قوت كل عضو فيه بحسب حاجته ، وفى استقرار الروح التى هى بين جنبينا وكيف يتوفاها الله فى منامها وتعرج إلى حيث شاء الله عز وجل ويردها إذا شاء ، وفى كيفية إقعاد الميت فى القبر وعذابه ونعيمه ، وكيفية قيام الأموات من القبور حفاة عراة غرلا وكيفية الملائكة وعظم خلقهم فكيف العرش الذى لا يقدر قدره إلا الله عز وجل ، كل ذلك نجهل كيفيته ونحن مؤمنون به كما أخبرنا الله عز وجل عنه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام إيماناً بالغيب وإن لم نعلم الكيفية ، فكيف بالخالق عز وجل وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون . آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون . آمنا به كل من عند ربنا ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .

باق فلا يفنى ولا يبيد	ولا يكون غير ما يريد
منفرد بالخلق والإرادة	وحاكم جل بما أراده

(باق) كما أنه الأول بلا ابتداء فهو الباقى بلا انتهاء ، فكما لا ابتداء لأوليته كذلك لا انتهاء لآخريته (فلا يفنى ولا يبيد) بل هو المفنى المبيد ، وهو المبدىء المعيد ، قال الله عز وجل (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) وقال تعالى (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . (ولا يكون) فى الكون (غير ما يريد) والمراد بالإرادة هنا الإرادة القدرية الكونية التى لابد لكل شىء منها ولا محيص ولا محيد لأحد عنها وهى مشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن ، فهو سبحانه الفعال لما يريد ، ولا نفوذ لإرادة أحد إلا أن يريد ، وما من حركة ولا سكون فى السموات ولا فى الأرض إلا بإرادته ومشيئته ، ولو شاء عدم وقوعها لم تقع ، وورود ذلك فى نصوص الكتاب والسنة معلوم كقوله تبارك وتعالى (فعال لما يريد) ، (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) . (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وهذا الأمر القدرى الكونى غير الأمر

الشرعى ، فإن الله لا يأمر بالفسق شرعاً ولا يحب الفاسقين وإنما هو أمر تكوين ، ألا ترى أن الفسق علة (حق القول عليهم) و (حق القول عليهم) علةُ لتدميرهم وهكذا الأمر سبب لفسقهم ومقتضى إله وذلك هو أمر التكوين ؛ وقال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) ، (أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) وقول نوح لقومه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) وقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له) وقوله تعالى (وأن الله يهدى من يريد) ، (قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً) ، (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة) وقوله تعالى (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً) وقوله (يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة) وقوله (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) وقوله صاحب يس (أأتخذ من دونه آلهة إن يردنى الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون) ، وقال تعالى (قل أرأيتم ما تد ون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) وقول النبى ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»، «من يرد الله به خيراً يصب منه » ، « إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حى فأقر عينه بهلاكها » ، « إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبد شراً أمسك عنه بذنوبه حتى يوافى به يوم القيامة » ، « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » ، « إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب الرفق » ، « إذا أراد الله بقوم عذاب أصاب من كان فيهم ثم بعثوا على نياتهم » . والآثار النبوية فى ذلك كثيرة ، وكذلك لفظ « المشيئة » فى الكتاب والسنة وروده معلوم كقوله تعالى (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) وقال تعالى (كذلك يفعل الله ما يشاء) وقال (ولو شاء ربك ما فعلوه) ، (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) ، (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) ، (ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً) ، (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) ، (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ،

(ولو شاء الله لانتصر منهم) ، (ولو شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) ، (فإن يشأ الله يختم على قلبك) ، (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً) ، (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) ، (إنما يأتيكم به الله إن شاء) ، وقوله عن إمام الحنفاء (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً) وقوله عن الذبيح (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وقوله عن شعيب عليه السلام (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما) وقوله عن يوسف (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وقوله عن موسى (ستجدنى إن شاء الله صابراً) وقوله عن قوم موسى (وإنا إن شاء الله لمهتدون) وقوله لنبيه ﷺ (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) ، (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) وقال (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) وعن أهل النار مثل ذلك ، وقال (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) وقال (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وقال (ولكن ينزل بقدر ما يشاء) وقال (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) وقال (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وقال (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) وقال (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) وقال (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) وقال (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فأخبر أن مشيئتهم وفعلهم موقوفان على مشيئته لهم هذا وهذا . وقال (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) وقال (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) وقال (يختص برحمته من يشاء) وقال (ولكن الله يزكى من يشاء) وقال (والله يضاعف لمن يشاء) وقال (نصيب برحمتنا من نشاء) وقال (نرفع درجات من نشاء) وقال (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) وقال (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وقال (فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وقال (الله يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء) وقال (إن ربى لطيف لما يشاء) وقال (يؤتى الحكمة من يشاء) وقال (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) ، (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) وقال (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) وقال (ولو نشاء لجعلناه حطاماً) ، (لو نشاء جعلناه أجاجاً) وقال (فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) وقال (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ،

(إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) ، (ولو شاء الله لأعنتكم) ، (الله يجتبى إليه من يشاء) ، (والله يضاعف لمن يشاء) ، (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً) ، (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله) (وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) ، (فى أى صورة ما شاء ركبك) (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) ، (الله لطيف بعباده يرزق من يشاء) . (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) وغير ذلك من الآيات . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ساق نحواً من هذه الآيات : وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتى الضلال نفاة المشيئة بالكيلة ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم ، وهو سبحانه يخبر تارة أن كل ما فى الكون بمشيئته . تارة أن ما لم يشأ لم يكن ، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذى قدره وكتبه وأنه لو شاء ما عصى وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى وجعلهم أمة واحدة ، فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته ، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته ، وهذا حقيقة الربوبية وهو معنى كونه (رب العالمين) وكونه القيوم القائم بتدبير أمور عباده ، فلا خلق ولا رزق ولا عطاء ولا منع ولا قبض ولا بسط ولا موت ولا حياة ولا ضلال ولا هدى ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه ، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره ا. هـ .

والأحاديث من السنة النبوية فى إثبات المشيئة كثيراً جداً ، منها قوله ﷺ فى شأن الجنين « فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك » وقوله « اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء » ، « إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء » ، « إن الله لو شاء لم تناموا عنها ، ولكنه أراد ليكون لمن بعدكم » ، « قولوا ما شاء الله وحده » ، « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ، « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » وكان ﷺ يقول « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » وقوله عن الله عز وجل « فذلك فضلى أوتيه من أشاء » وقوله « مثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء » ، وقوله « تعرضوا لنفحات رحمة الله ، فإن لله عز وجل سحائب من رحمته يصيب بها من يشاء من

عباده » وقوله فى حديث البيعة « ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله عز وجل ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له » وفى حديث احتجاج الجنة والنار قوله تعالى للجنة « أنت رحمتى أرحم بك من أشاء » وللنار « أنت عذابى أعذب بك من أشاء » وقوله ﷺ « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت وارزقنى إن شئت ، ليعزم المسألة ، فإن الله تعالى لا مكره له » وقوله « ولكن قل قدر الله وما شاء فعل » ، وقوله عن الله عز وجل « ذلك بأنى جواد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » وقوله « ما أنعم الله على عبد من نعمة من أهل وولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آية دون الموت » وفى حديث الشفاعة « فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى » وفى حديث آخر أهل الجنة دخولا الجنة « فيسكت ما شاء الله أن يسكت » وفيه قوله تعالى « لا أهزأ بك ولكنى على ما أشاء قدير » وقال « فأريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى » وقال « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » ، وقال « إنى لأطمع أن يكون حوضى إن شاء الله ما بين أيلة إلى كذا » وقال فى المدينة « لا يدخلها الطاعون ولا الدجال إن شاء الله تعالى » وفى زيارة القبور « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » وفى حصار الطائف « إنا قافلون غداً إن شاء الله » وفى قدومه مكة « منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بنى كنانة » وفى قصة بدر « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله وهذا مصرع فلان إن شاء الله » وفى بعض أسفاره « إنكم تأتون الماء غداً إن شاء الله » وقال « من حلف فقال إن شاء الله فإن شاء مضى وإن شاء رجع غير حنث » وقال « لأغزون قريشاً » ثم قال فى الثانية « إن شاء الله » . وقال « ألا مشمر للجنة » فقال الصحابة نحن المشمرون لها يارسول الله ، فقال « قولوا إن شاء الله » قالوا إن شاء الله ، وغير ذلك من الأحاديث الثابتة .

(منفرد) ربنا عز وجل (بالخلق) فما من مخلوق فى السموات والأرض إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه فهو خالق كل صانع وصنعته وخالق الكافر وكفره والمؤمن وإيمانه والمتحرك وحركته والساكن وسكونه كما قال تعالى (الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) وقال تعالى (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وقال تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) (خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) وقال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وقال تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم

ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء) وقال تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) وقال تعالى (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظللتم تفكهون . أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم) وفى الصحيح من حديث الأشعريين ما أنا أحملكم ولكن الله حملكم . وفيه من حديث المصورين « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيراً » وفيه « من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » وغير ذلك من الأحاديث الثابتة الصحيحة . فلله الخلق والأمر وله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . (والإرادة) أى ومنفرد بالإرادة فلا مراد لأحد معه ولا إرادة لأحد إلا بعد إرادته عز وجل ومشيئته كما قال تعالى (كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وقال تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ، (إن الله عليما حكيما يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما) فللعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة والله خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم ولا قدرة لهم ولا مشيئة إلا بإقدار الله عز وجل لهم إذا شاء وأراد .

(وحاكم جل بما أراده) فلا معقب لحكمه ولا راد لإرادته ولا مناقض لقضائه وقدره (وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض بل هو فعال لما يريد ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة ـــ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ـــ إن الله يحكم ما يريد . ويفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء) لا ناقض لما أبرم ولا معارض لما حكم ولا يقال لم فعل كذا وهلا كان كذا لأنه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وفى حديث أبى ذر عند الترمذى وغيره وفى

آخره قال « ذلك بأنى جواد واجد ما جد أفعل ما أريد عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

فمن يشاء وفقه بفضله	ومن يشأ أضله بعدله
فمنهم الشقى والسعيد	وذا مقرب وذا طريد

قال الله عز وجل (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) وقال تعالى (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) وقال تعالى (من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم من دونه أولياء) وقال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) وقال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقال تعالى (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) وقال تعالى (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال تعالى (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) وقال تعالى (قل إن الهدى هدى الله) وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال النبى ﷺ فى خطبته « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » وقال ﷺ « اللهم آت نفسى تقواها ، زكها أنت خير من زكاها . إنك أنت وليها ومولاها » .

(فمنهم) أى من عباده (الشقى) وهو من أضله بعدله (و) منهم (السعيد) وهو من وفقه وهداه بفضله ، فالسعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله ، فلله الحمد على فضله وعدله (وذا مقرب) بتقريب الله إياه إليه وهو السعيد (وذا طريد) بإبعاد الله إياه وهو الشقى البعيد . فبيده تعالى الهداية والإضلال والإشقاء والإسعاد ، فهدايته العبد وإسعاده فضل ورحمة ، وإضلاله وإبعاده عدل منه وحكمة ، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله وهو الحكيم العليم الذى يضع الأشياء مواضعها ، وهو أعلم بمن هو محل الهداية

فيهديه ، ومن هو محل الإضلال فيضله وهو أحكم الحاكمين ، وهو عليم بالمتقين ، وعليم بالظالمين ، وعليم بالمهتدين ، وهو أعلم بالشاكرين وأعلم بما فى صدور العالمين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى ، وله فى ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة ولذا نقول :

لحكمـــة بالغـــة قضاهـــا   يستوجب الحمد على اقتضاهـــا

أى إن جميع أفعاله من هدايته من يشاء وإضلاله من يشاء وإسعاد من يشاء وإشقاء من يشاء وجعله أئمة الهدى يهدون إلى الحق بأمره وأئمة الضلالة يهدون إلى النار ، وإلهامه كل نفس فجورها وتقواها ، وجعله المؤمن مؤمناً والكافر كافراً عاصياً مع قدرته التامة الشاملة وأنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولو شاء لجمعهم على الهدى ، ولو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ولكن هذا الذى فعله بهم من قسمتهم إلى ضال ومهتد وشقى وسعيد ومقرب وطريد وطائع وعاصٍ ومؤمن وكافر وغير ذلك هو مقتضى حكمته وموجب ربوبيته، وحكمته حكمة حق وهى صفته القائمة به كسائر الصفات ، وهى متضمن اسمه « الحكيم » ، وهى الغاية المحبوبة له ولأجلها خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأسعد وأشقى ، ومنع وأعطى ، وخلق السموات والأرض والآخرة والأولى ، فهو سبحانه الحكيم فى خلقه وتكوينه الحكيم فى قضائه وقدره الحكيم فى أمره ونهيه وجميع شرعه ، فإن أسمائه وصفاته كمال وجلال وأفعاله كلها عدل وحكمة ، والفعل لغير الحكمة عبث ، والعبث من صفات النقص ، والله تعالى منزه بجميع أسمائه وصفاته وأفعاله عن جميع النقائص ، فجميع ما خلقه وقضاه وقدره خير وحكمة من جهة إضافته إليه سبحانه وتعالى ، وكذلك جميع ما شرعه وأمر به كله حكمة وعدل ، وما كان من شر فى قضائه وقدره فمن جهة إضافته إلى فعل العبد لأنها معصية مذمومة مكروهة للرب غير محبوبة ، وأما من جهة إضافته إلى الرب عز وجل فخير محض ولحكمة بالغة وعدل تام وغاية محمودة لا شر فيها البتة ، ولهذا قال تعالى فيما قصه عن الجن (وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) فبنى الفعل فى إرادة الشر للمفعول لأنه لا شر فى حقه تعالى وقال النبى ﷺ فى دعاء الافتتاح من صلاة الليل « لبيك اللهم وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك » فنفى أن يضاف الشر إلى الله بوجه من الوجوه وإن كان هو خالقه ، لأنه ليس شراً من جهة إضافته إليه عز وجل ، وإنما كان شراً من جهة إضافته إلى العبد . وذلك لأن الشر ليس إلا

السيئات وعقوبتها ، وموجب السيئات شر النفس وجهلها ، ولهذا قال النبي ﷺ « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » وقال ﷺ في سيد الاستغفار الذى علمه أمته « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، وقال تعالى فى حكايته استغفار الملائكة للمؤمنين (وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم) ومن وقاه الله السيئات وأعاذه منها فقد وقاه عقوباتها من باب الاستلزام فإذا علم أن موجب السيئات هو الظلم والجهل وذلك من نفس العبد وهى أمور ذاتية لها ، وأن السيئات هى موجب العقوبة والعقوبة من الله عدل محض ، وإنما تكون شراً فى حق العبد لما يلحقه من ألمها ، وذلك بما كسبت يداه جزاء وفاقاً كما قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) وقال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) فأفعال الله عز وجل كلها خير بصدورها عن علمه وحكمته وعدله وغناه التى هى من صفات ذاته ، فإذا أراد بعبده الخير أعطاه من فضله علماً وعدلا وحكمة فيصدر منه الإحسان والطاعة والبر والخير . وإذا أراد به شراً أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها ، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح ، وليس منعه لذلك ظلماً منه سبحانه فإنه فضله يؤتيه من يشاء ، وليس من منع فضله ظالماً ولاسيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به ، وأيضاً فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته تعالى أن يلطف بعبده ويعينه ويوفقه ولا يخلي بينه وبين نفسه . وهذا محض فعله وفضله وهو أعلم بمن يصلح لذلك ، ولهذا قال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله أعلم بالشاكرين) وقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقال تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ، إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وقال تعالى (إن تحرص على هداهم ، فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين) وقال تعالى

(فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وقال تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين) بلى ونحن على ذلك من الشاهدين وقال تعالى (قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ــ إلى قوله ــ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم أن تهدينا الصراط المستقيم صراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا بديع السموات والأرض برحمتك نستغيث ، اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت سبحانك أنى كنت من الظالمين .

(يستوجب) يستحق (الحمد على اقتضاها) الضمير للحكمة ، فله الحمد على مقتضى حكمته فى جميع خلقه وأمره ، فجميع ما يفعله ويأمر به هو موجب ربوبيته ومقتضى أسمائه وصفاته وله الحمد على جميع أفعاله وله الحمد على خلقه وأمره وهو المحمود على طاعة العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلقه الأبرار والفجار ، وعلى خلقه الملائكة والشياطين ، وعلى خلقه الرسل وأعداءهم ، وهو المحمود على عدله وحكمته فى أعدائه ، كما هو المحمود على فضله ورحمته على أوليائه ، وكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحكمته وحمده كما قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقال (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) وقال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون) ، (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) وعلمنا النبى ﷺ فى ذكر الاعتدال

من الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد » وفى الذكر عقب الصلوات « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ، وفى التلبية « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ، وفى الدعاء المأثور « اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك الخير كله وأعوذ بك من الشر كله » وفى دعاء الافتتاح من صلاة الليل « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق » الحديث . والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، والمقصود أن الرب عز وجل لا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا ربا وإلهاً ، فله الحمد كله وله الملك كله لا شريك له فى حمده كما لا شريك له فى ملكه ، وإن كان بعض خلقه محموداً كالرسل والعلماء فمرجع ذلك الحمد إليه ، كما أن مصدره وموجبه منه تعالى وهو الذى جعلهم كذلك ، وهذا كما أنه الملك لا شريك له فى ملكه ويرزق بعض عباده إذا شاء ملكاً وهو مالكه وملكه وكما أنه العليم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فيعلم بعض عباده من علمه ماشاء . وقال فى ذكر عبده يعقوب عليه السلام (وإنه لذو علم لما علمناه) ، وكذلك ما من محمود فى السموات ولا فى الأرض إلا وذلك الحمد راجع إلى الله عز وجل فى الحقيقة ، فحمد كل محمود داخل فى حمده ، كما أن كل ملك داخل فى ملكه ، وكل شيء فمنه وله وإليه ، فله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

(مسألة) : فان قيل قد أخبرنا الله عز وجل فى كتابه وعلى لسان رسوله وبما علمنا من صفاته أنه يحب المحسنين ، ويحب المتقين ، ويحب الصابرين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يحب الظالمين ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد مع كون ذلك بمشيئته وإرادته وأنه لو شاء لم يكن ذلك فانه لا يكون فى ملكه مالا يريد ، فما الجواب ؟ قلنا : إن الارادة والقضاء والأمر كل منها ينقسم إلى كونى وشرعى ولفظ المشيئة لم يرد إلا فى الكونى كقوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ، ومثال الارادة الكونية قوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له) وقوله تعالى (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . ومثال القضاء الكونى قوله تعالى (وإذا قضى أمراً فانما

يقول له كن فيكون) ومثال الامر الكونى قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فهذا القسم من الإرادة والقضاء والأمر هو مشيئته الشاملة وقدرته النافذة وليس لأحد خروج منها ولا محيد عنها . ولا ملازمة بينها وبين المحبة والرضا ، بل يدخل فيها الكفر والإيمان والسيئات والطاعات . والمحبوب المرضى له والمكروه المبغض كل ذلك بمشيئته وقدره وخلقه وتكوينه ، ولا سبيل إلى مخالفتها ولا يخرج عنها مثقال ذرة . ومثال الإرادة الشرعية قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) وقوله تعالى (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) . ومثل القضاء الشرعى قوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ومثال الأمر الشرعى قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) وهذه الإرادة والقضاء والأمر الكونى القدرى هو المستلزم لمحبة الله تعالى ورضاه، فلا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه ولا ينهى إلا عما يكرهه ويأباه . ولا ملازمة بين هذا القسم وما قبله إلا فى حق المؤمن المطيع ، وأما الكافر فينفرد فى حقه الإرادة والقضاء والأمر الكونى القدرى ، فالله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى طاعته ومرضاته وجنته ويهدى لذلك من يشاء فى الكون والقدر هدايته ولهذا قال تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فعمم الدعوة إلى جنته التى هى دار السلام وأنه يدعو إلى ذلك جميع عباده وهو أعلم بمن يستجيب ممن لا يستجيب ، وخص الهداية بمن يشاء هدايته . كما قال تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) .

(مسألة) فان قيل أليس بممكن فى قدرته تعالى أن يجعلهم كلهم طائعين مؤمنين مهتدين ؟ قلنا : بل وقد قدمنا لك جملة وافية من الآيات والأحاديث فى ذلك ، ولكن قدمنا لك أيضاً أن هذا الذى فعله بهم هو مقتضى حكمته وأسمائه وصفاته وموجب ربوبيته وإلهيته وهو أعلم بمواقع فضله وعدله ، فحينئذ قول القائل لم كان من عباده الطائع والعاصى ؟ كقول من قال لم كان من أسمائه الضار النافع والمعطى المانع والخافض الرافع والمنعم والمنتقم ونحو ذلك إذا أفعاله تعالى هى مقتضى أسمائه وآثاره صفاته ، فالاعتراض عليه فى أفعاله اعتراض على أسمائه وصفاته بل وعلى إلهيته وربوبيته ، فسبحان رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(مسألة) واعلم أنه قد يوسوس الشيطان لبعض الناس فيقول : ما الحكمة فى تقدير السيئات مع كراهة الله تعالى إياها ، وهل يأتى المكروه بمحبوب ، فنقول : الحمد لله إيماناً بالهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، واستسلاماً لأقداره وإرادته ، وتسليماً لعدله وحكمته ، اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك أن الواجب على العبد أمر أهم من ذلك البحث وهو الإيمان بالله وأسمائه وصفاته والتسليم لأقداره واليقين بعدله وحكمته والفرح بفضله ورحمته ، ونحن لا نعلم من حكمة الله وسائر أسمائه وصفاته إلا ما علمناه ولا يحيط بكنه شيء منها ونهايته إلا الذى اتصف بها وهو الله الذى لا إله إلا هو ، ومما علمناه من ذلك بما علمنا الله تبارك وتعالى أن السيئة لذاتها ليست محبوبة لله ولا مرضية كما قال تعالى بعد أن نهى عباده عن الكبائر المذكورة فى سورة الاسراء (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها) ولكن يترتب عليها من محابه ومرضاته ما هو أعلم به إما فى حق فاعلها من التوبة والإنابة والإذعان والاعتراف بقدرة الله عليه والخوف من عقابه ورجاء مغفرته ونفى العجب المحيط للحسنات عنه ودوام الذل والانكسار وتمحض الافتقار وملازمة الاستغفار وغير ذلك من الفرائض والطاعات المحبوبة للرب عز وجل التى أثنى فى كتابه على المتصفين بها غاية الثناء . وفى الصحيحين « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » أخرجاه عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ . فالواجب على العبد كراهة ما يكرهه ربه وإلهه وسيده ومولاه من السيئات وعدم محبتها والنفرة منها ، والاجتهاد فى كف النفس عنها ، وأطرها على محاب الله وأن لا يصدر عنها شيء يكرهه الله عز وجل ، فان غلبته نفسه بجهلها وشرارتها فصدر عنه شيء من ذلك المكروه فليبادر إلى دواء ذلك وليتداركه بمحاب الله عز وجل ومرضاته من التوبة والانابة والاستغفار والاذكار وعدم الاصرار ، فإن الله تعالى قد أرشد إلى ذلك وأثنى على من اتصف به ، قال الله عز وجل) وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) وغير ذلك من

الآيات . وفى الحديث « لو لم تذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » أو كما قال . فإن على فعل السيئة من فاعلها هذه الأمور المحبوبة للرب عز وجل فذلك غاية مصلحة العبد وسعادته وفلاحه ، وإن لم يقع منه ذلك فلخبث نفسه وعدم صلاحيتها للملأ الأعلى ومجاورة المولى والله أعلم بالمهتدين ، وحينئذ يترتب عليها فرائض الله عز وجل على أوليائه المؤمنين من الدعوة إلى الله عز وجل التى هى من وظائف الرسل عليهم السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو من أعظم فرائض الله تعالى والجهاد فى سبيله الذى هو ذروة سنام الإسلام ، وعليه يترتب لأوليائه الفتح أو الشهادة ويكفيك فى فضل ذلك قول الله عز وجل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراه والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) ولو سردنا ما فى هذا الباب من الآيات والأحاديث لطال الفصل ، ونحن نستغفر الله العظيم من الخوض فى هذا الباب ولسنا من الراسخين فى العلم ، وسيأتى إن شاء الله مزيد بحث فى هذا فى باب الإيمان بالقدر ، وهناك نذكر مراتبه ومذاهب من خالف فيه أهل السنة والجماعة إن شاء الله تعالى والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وهو الذى يرى دبيب الذر	فى الظلمات فوق صم الصخر
وسامع للجهر والإخفات	بسمعه الواسع للاصوات

فى هذين البيتين إثبات البصر لله تعالى المحيط بجميع المبصرات ، وإثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات ، وهاتان الصفتان من صفات ذاته تعالى وهما متضمن اسمه « السميع البصير » قال عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا) وقال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وقال تعالى (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير) وقال تعالى (قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع) قال ابن جرير وذلك فى معنى المبالغة فى المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع لا يخفى

عليه من ذلك شيء ، ثم روى عن قتادة فى قوله تعالى (أبصر به وأسمع) : فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع ، وقال ابن زيد (أبصر به وأسمع) : يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم إنه كان سميعاً بصيراً ، وقال البغوى رحمه الله تعالى : أى ما أبصر الله بكل موجود وأسمعه لكل مسموع أى لا يغيب عن سمعه وبصره شيء . وقال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام (إننى معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أسمع دعاء كما فأجيبه وأرى ما يراه بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما . وقال تعالى لهما فى موضع آخر (كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) وقال تعالى (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وقال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) وقال تعالى (ألم يعلم بأن الله يرى) وقال تعالى (الذى يراك حين تقوم ، وتقلبك فى الساجدين . أنه هو السميع العليم) وقال تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا) وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركم إن الله سميع بصير) رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقاً وأخرجه النسائى وابن ماجه وابن جرير وابن أبى حاتم ، وفى رواية له عنها رضى الله عنها أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وهى تقول : يارسول الله أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى . اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما) قالت : وزوجها أوس بن الصامت . وقال البخارى رحمه الله تعالى فى كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى (وكان الله سميعاً بصيراً) وذكر خبر عائشة هذا معلقاً . وروى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فكنا إذا علونا كبرنا فقال « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، تدعون سميعاً بصيراً قريباً » ثم أتى على وأنا أقول فى نفسى : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال « يا عبد الله ابن قيس . قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ « إن جبريل عليه السلام نادانى قال : إن الله قد سمع قول

قومك وما ردوا عليك » . وروى فى باب قول الله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون) عن عبد الله رضى الله عنه قال اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشى أوقرشيان وثقفى كثيرة الشحم بطونهم قليلة الفهم قلوبهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا . فأنزل الله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) الآية . وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) إلى قوله تعالى (سميعاً بصيراً) قال : رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه والتى تليها علي عينه ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع إصبعيه . قال ابن يونس قال المقرىء يعنى (إن الله سميع بصير) يعنى أن لله سمعاً وبصراً : قال أبو داود رحمه الله تعالى ، وهذا رد على الجهمية ا. هـ . قلت : يعنى أبو داود رحمه الله أن الجهمية لا يثبتون لله تعالى اسماً ولا صفة مما سمى ووصف نفسه تعالى به وأثبته له رسول الله ﷺ فلا يثبتون أن الله هو السميع البصير ، ولا أنه يسمع ويرى بسمع وبصر ، فراراً بزعمهم من التشبيه بالمخلوقين فنزهوه عن صفات كماله التى وصف بها نفسه وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وشبهوه بالأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ، قال الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام فى دعوته أباه إلى الله عز وجل (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وقد أثبت الجهمية قبحهم الله حجة لعباد الأصنام وجواباً لإنكار خليل الله وجميع رسله عليهم السلام ، فكان للكفار أن يقولوا : ومعبودكم أيضاً لا يسمع ولا يبصر ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، وقالت المعتزلة : سميع بلا سمع بصير بلا بصر واطردوا جميع أسمائه هكذا فأثبتوا أسماء ونفوا ما تتضمنه من صفات الكمال وهو عبارة عن إثبات الألفاظ دون المعانى ، وقولهم فى الحقيقة راجع إلى قول الجهمية مخالف كل منهما للكتاب والسنة والعقول الصحيحة والفطر السليمة . وهدى الله تعالى بفضله أهل السنة لفهم كتابه وآمنوا بما وصف به نفسه وأقروا به كما أخبر ونفوا عنه التشبيه ، كما جمع تعالى بينهما فى قوله عز وجل (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) .

وعلمه بما بدا وما خفى . أحاط علماً بالجلى والخفى

أى ومما أثبته الله عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ أنه عليم بعلم وأن علمه محيط بجميع الأشياء من الكليات والجزئيات وهو من صفاته الذاتية ، وعلمه أزلى بأزليته ، وكذلك جميع صفاته ، فقد علم تعالى فى الأزل جميع ما هو خالق وعلم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار ، وعلم عدد أنفاسهم ولحظاتهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع ومتى تقع وكيف تقع كل ذلك بعلمه وبمرأى منه ومسمع لا تخفى عليه منهم خافية سواء فى علمه الغيب والشهادة والسر والجهر والجليل والحقير لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال الله تعالى (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم) وقال تعالى (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) وقال تعالى (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) وقال تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وقال تعالى (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) وقال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) وقال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) وقال تعالى (والله بكل شىء عليم) وقال تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال عن نبيه شعيب (وسع ربنا كل شىء علماً) وقال تعالى عن خليله (ربنا إنك تعلم ما تخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء) وقال تعالى (لا جرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) وقال تعالى (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) وقال تعالى (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وقال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) وقال تعالى (قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم) وقال تعالى (إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) وقال تعالى (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن

ذلك على الله يسير) وقال تعالى (ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه يوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) وقال تعالى (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) وقال تعالى (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) وقال تعالى (إن تبدو شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما) وقال تعالى (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال تعالى (إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقال تعالى (إنه بكل شيء محيط) وقال تعالى (ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم) وقال تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شيء عليم) وقال تعالى (إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقال تعالى (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار) وقال تعالى (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وقال تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وقال تعالى (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وقال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ، وقال تعالى (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) وقال تعالى (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) وقال تعالى (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة) وقال تعالى (عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) وقال تعالى (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) وقال تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال تعالى (إن ربك هو أعلم بمن ضل

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وقال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) وقال تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) الآية وقال تعالى (إنه يعلم الجهر وما يخفى) وقال تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا) وقال تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) وقال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون) وقال تعالى (إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وقال تعالى (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أن ما أنزل بعلم الله) وقال تعالى (إن الله سميع عليم — إن الله عليم حكيم — إن الله عليم خبير — إن الله عليما حكيما — إن الله كان عليما خبيرا — إنه عليم بذات الصدور) ولو ذهبنا نسوق جميع الآيات فى إثبات علم الله عز وجل لطال الفصل وفيما ذكرنا كفاية .

وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر (ثم يسميه بعينه) خيراً لى فى عاجل أمرى وآجله — أو قال فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه . اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى — أو قال فى عاجل أمرى وآجله — فاصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم أرضنى به » وفيهما من حديث تعاقب الملائكة بأطراف النهار « فيسألهم وهو أعلم بهم » وفيهما من دعاء الكرب « لا إله إلا الله العليم الحليم » وفيهما من حديث الذى أوصى أن يحرق ويذرى ثم قال « لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم » وفيهما من حديث قصة موسى والخضر « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا . فعتب الله عليه إذا لم يرد العلم إلى الله وفى رواية « إليه » وفيه قول الخضر عليه السلام « يا موسى إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه » إلى أن قال « فركبا فى السفينة قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر

لموسى : ما علمك وعلمى وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره » وفى رواية « إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر » . وفيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » وفيهما من حديث أبى موسى الأشعرى « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى » إلى غير ذلك من الأحاديث . وكما أخبر الله تعالى عن علمه بما كان وما سيكون كذلك أخبر عما لم يكن من الممكنات والمستحيلات لو كان كيف يكون فقال تعالى فى الممكن على تقدير وقوعه (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) وقال تعالى (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) الآية ، وقال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به يؤمنون) إلى غير ذلك . وقال تعالى فى المستحيلات لو قدر إمكانها (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) وقال تعالى (قل لو كان فيهما آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) إلى غير ذلك . وأنكرت الجهمية والمعتزلة أن يكون لله علم أضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى الموصوف ، فأنكروا أن يكون أنزل القرآن بعلمه ، وأن أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه ، وجحدوا أن يكون قد أحاط بكل شىء علماً ، وحاربوا نصوص الكتاب والسنة وجميع سلف الأمة ، فليس معبودهم هو العليم الخبير الذى هو بكل شىء عليم ، وإنما يعبدون العدم المحض الذى لا حقيقة له ولا وجود ، فليصفوه بما شاءوا فبعداً للقوم الظالمين .

وهو الغنى بذاته سبحانه	جل ثناؤه تعالى شأنه
وكل شىء رزقه عليه	وكلنا مفتقر إليه

(وهو الغنى بذاته) فله الغنى المطلق فلا يحتاج إلى شيء (سبحانه) وبحمده تنزيهاً له وتحميداً (جل ثناؤه تعالى شأنه) تعظيماً له وتمجيداً (وكل شيء رزقه عليه) لا رازق له سواه ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله (وكلنا) معشر المخلوقات (مفتقر إليه) لا غنى لنا عنه طرفة عين . فكما أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه تعالى فى وجودها فلا وجود لها إلا به فهى مفتقره إليه فى قيامها فلا قوام لها إلا به فلا حركة ولا سكون إلا بإذنه فهو الحى القيوم القائم بنفسه فلا يحتاج إلى شيء ، القيم لغيره فلا قوام لشيء إلا به ، فللخالق مطلق الغنى وكاله ، وللمخلوق مطلق الفقر إلى الله وكاله ، قال الله عز وجل (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز) وقال تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) وقال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد) وقال تعالى (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقال تعالى (ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً) وقال تعالى رداً على اليهود (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا) وقال رداً عليهم أيضاً (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وقال تعالى رداً على المنافقين (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) وقال تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً) والآيات فى هذا الباب كثيرة جداً ، يخبر تعالى بكمال غناه عن خلقه وأنه لا يزيد فى غناه طاعة من أطاع ولا ينقصه معصية من عصى الله ، وأنه لم يخلق الخلق لحاجة إليهم وأنه لو شاء لم يخلقهم ولو شاء لذهب بهم وجاء بغيرهم ويخبر أنهم كلهم فقراء إليه لا غنى لهم عنه فى نفس من الأنفاس ، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم ، وأنهم لم يكونوا موجودين حتى أوجدهم ، ولا قدرة لهم على شيء من أنفسهم ولا غيرها إلا بما أقدرهم عليه الغنى الحميد الفعال لما يريد . وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله محمد ﷺ « يا

عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى كلكم ضال، إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ما زاد ذلك فى ملكى جناح بعوضة ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه . وفى رواية الترمذى « يقول الله عز وجل : يا عبادى كلكم ضال إلا من هديت فسلونى الهدى أهدكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . وكلكم مذنب إلا من عافيت ، فمن علم منكم أنى ذو قدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى . ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى ما نقص ذلك من ملكى جناح بعوضة . ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنى جواد واجد ماجد أفعل ما أريد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما فى يمينه » وروى أبو داود بإسناد جيد من حيث عائشة رضى الله عنها فى الاستسقاء وفيه قول رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، لا إله إلا الله يفعل ما يريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين » وفى بعض

الاسرائيليات يقول الله عز وجل : أيؤمل غيرى للشدائد والشدائد بيدى وأنا الحى القيوم ، ويرجى غيرى ويطرق بابه بالبكرات وبيدى مفاتيح الخزائن وبابى مفتوح لمن دعانى . من ذا الذى أملنى لنائبة فقطعت به ، أو من ذا الذى رجانى لعظيم فقطعت به ، أو من ذا الذى طرق بابى فلم أفتحه له ، أنا غاية الآمال فكيف تنقطع الآمال دونى . أبخيل أنا فيبخلنى عبدى ، أليس الدنيا والآخرة والكرم والفضل كله لى فما يمنع المؤملين أن يؤملونى ، لو جمعت أهل السموات والأرض ثم أعطيت كل واحد منهم ما أعطيت الجميع وبلغت كل واحد منهم أمله لم ينقص ذلك من ملكى عضو ذرة . كيف ينقص ملك أنا قيمه ، فيابؤسا للقاطنين من رحمتى ويابؤسا لمن عصانى وتوثب على محارمى . انتهى . وجاء فى بعض ألفاظ حديث النزول « من يقرض غير عديم ولا ظلوم » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً لو أردنا استقصاءها لطال الفصل وفيما ذكرنا كفاية ، فسبحان من وسع خلقه بغناه ، وافتقر كل شىء إليه وهو الغنى عما سواه (من شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد) .

كلم موسى عبده تكليما ولم يزل بخلقه عليما

أى ومما أثبته ربنا عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ تكليمه عبده ورسوله موسى بن عمران بدون واسطة رسول بينه وبينه بل أسمعه كلامه الذى هو صفته اللائقة بذاته كما شاء وعلى ما أراد ، قال الله عز وجل فى سورة البقرة (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وقال فى سورة النساء (وكلم الله موسى تكليما) فأكده بالمصدر مبالغة فى البيان والتوضيح ، وقال تعالى فى سورة الأعراف (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين) وقال تعالى فى سورة مريم (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) وقال تعالى فى سورة طه (وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست

ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك بيمينك يا موسى ـــ إلى قوله ـــ ألقها يا موسى ـــ إلى قوله ـــ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) إلى آخر الآيات . وقال فى سورة الشعراء (وإذ نادى ربك موسى أنت ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون) الآيات . وقال تعالى فى سورة النمل (إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون . إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه) الآيات . وقال تعالى فى سورة القصص (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأه إنهم كانوا قوماً فاسقين) الآيات . والقرآن ممتلىء بذلك . وفى الصحيحين من حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما وفيه قول آدم لموسى « أنت موسى الذى اصطفاك الله تعالى برسالاته وبكلامه » الحديث . وفيهما من حديث الشفاعة قول إبراهيم عليه السلام « ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله » وفى رواية « ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه تكليما » وفى رواية « ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجياً » . فقد أخبرنا الله عز وجل أنه اصطفى عبده موسى بكلامه واختصه بأسماعه إياه بدون واسطة وأنه ناداه وناجاه وكلمه تكليما ، وأخبرنا تعالى بما كلمه به ، وبالموضع الذى كلمه فيه ، وبالميقات الذى كلمه فيه ، وأخبر عنه رسوله محمد ﷺ بذلك فى أصح الروايات ، فأى كلام أفصح من كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، وأى بيان أوضح من بيان الله

ورسوله . وبأى برهان يقنع من لم يقنع بذلك (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وفى هذا أعلى دلالة وأبينها وأوضحها على ثبوت صفة الكلام لربنا عز وجل وأنه يتكلم إذا شاء بما يشاء وكيف يشاء بكلام يسمعه من يشاء ، أسمعه موسى عليه السلام كيف شاء وعلى ما أراد ، وقد ثبت بالكتاب والسنة نداؤه الأبوين عليهما السلام إذ يقول (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) وأن الملائكة تسمع كلام الله بالوحى كما قال تعالى (حتى إذا فزع على قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير (وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن نبى الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير » الحديث وفيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه . فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض » وثبت بالكتاب والسنة كلامه مع الرسل والملائكة وغيرهم يوم القيامة كما قال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة اهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وقال تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وأنه يقول لأهل الجنة سلام عليكم كما قال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) وأنه يقول لأهل النار (اخسأوا فيها ولا تكلمون) والقرآن ممتلىء بذلك . وفى الصحيح عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » الحديث . وفيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : يا آدم . فيقول : لبيك وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار » وفيه تعليقاً عن جابر عن عبد الله ابن أنيس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يحشر الله

العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وفيه عنه رضى الله عنه قال : يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا أنا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » وفيه من حديث الشفاعة « يقول الله عز وجل : من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فأخرجوه » الحديث ، وفيه من حديث آخر أهل الجنة دخولا الجنة « فيقول الله تعالى : اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » وفيه من كلامه تعالى مع أهل الموقف قوله تعالى « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد » وقوله عز وجل للمؤمنين « أنا ربكم » ، وفيه فى باب كلام الرب عز وجل مع أهل الجنة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال الله تعالى « أنا مع عبدى حيثما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » وفيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : يقول الله عز وجل « إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها » الحديث . وفيهما من حديثه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال « خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم ، فقال مه ؟ قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك » الحديث . وفيه من حديثه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : إذا أحب عبدى لقائى أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائى كرهت لقاءه » . وفيه من حديثه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى » وفيه من حديثه أيضاً فى قصة المذنب المستغفر الحديث وفيه « فقال ربه : أعلم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به . غفرت لعبدى » وذكر الحديث وفيه من حديث عبد الله بن زيد رضى الله عنه قال : مطر النبى ﷺ فقال : « قال الله عز وجل : أصبح من عبادى كافر بى ومؤمن بى » . وفيه من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى ذكر طى الله تعالى السموات والأرض ، وفيه « ثم يهزهز ثم يقول (أنا الملك . أنا الملك) » الحديث ، وفيه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلا سأله كيف سمعت النبى ﷺ يقول فى

أنها يفجر بعضها فى بعض فتمتلىء ، ثم تسجر ناراً فيذهب ماؤها ، ولهذا جمع ابن القيم رحمه الله تعالى بينهما فقال « مسجورة قد فجرت » والله تعالى أعلم .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذلك القمران يأذن ربنا لهما فيجتمعان .. إلخ يشير إلى قول الله عز وجل (وخسف القمر — وجمع الشمس والقمر) وقوله (إذا الشمس كورت) خسف : أظلم وذهب نوره وضوؤه . (وجمع الشمس والقمر) أى صار أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) : أظلمت . وقال العوفى عنه : ذهبت . وقال مجاهد : أضمحلت وذهبت . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير : كورت غورت ، وقال ربيع بن خيثم : رمى بها . وقال أبو صالح : القيت . وعنه أيضاً : نكست ، وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض . وقال ابن جرير : والصواب عندنا من القول فى ذلك أن التكوير جمع الشىء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامه ، وجمع الثياب بعضها على بعض ، فمعنى قوله تعالى (كورت) جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . ولابن أبى حاتم عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) قال : يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله تعالى ريحاً دبوراً فيضرمها ناراً . وكذا قال عامر الشعبى . ولابن أبى حاتم عن ابن يزيد بن أبى مريم عن أبيه أن رسول الله قال فى قول الله تعالى (إذا الشمس كورت) قال « كورت فى جهنم » وللبخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . وللبزار عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الشمس والقمر ثوران فى النار عقيران يوم القيامة » .

وقوله رحمه الله تعالى « وكواكب الأفلاك تنثر كلها إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (وإذا النجوم انكدرت) وقوله تعالى (وإذا الكواكب انتثرت) وقوله تعالى (فإذا النجوم طمست) أى محى نورها وذهب ضوؤها . وانكدرت : تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض . يقال انكدر الطائر إذا سقط عن عشه . قال الكلبى وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذا الشمس تشق شقاً ظاهراً وتمور » إلخ يشير إلى قوله تعالى (إذا السماء انشقت) وقوله تعالى (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) وقوله (يوم تشقق السماء بالغمام) وقوله عز وجل (السماء منفطر به) وقوله تعالى (إذا السماء

انفطرت) وقوله تعالى (وإذا السماء كشطت) وقوله عز وجل (إذا السماء فرجت) وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً) وقوله تعالى (يوم تمور السماء موراً) وقوله عز وجل (يوم تكون السماء كالمهل) وقوله (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) قوله (انشقت) : أى صارت أبواباً لنزول الملائكة (فكانت وردة) عن ابن عباس : تغير لونها ، وعنه قال كالفرس الورد ، وقال أبو صالح : كالبر ذون الورد . وحكى البغوى وغيره أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء وفى الشتاء حمراء فإذا اشتد البرد اغبر لونها ، فشبه السماء فى تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس فى تلونه . (كالدهان) قال الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع : هو جمع دهن ، شبه السماء فى تلونها بلون الورد من الخيل ، وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، وقال عطاء بن أبى رباح : كالدهان كعصير الزيت يتلون فى الساعة ألواناً ، وقال مقاتل : كدهن الورد الصافى ، وقال ابن جريج : تصير السماء كالدهن الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم . وقال ابن عباس والكلبى : كالدهان أى كالأديم الأحمر وجمعه دهنة ودهن . وقال عطاء الخراسانى : كلون الدهن فى الصفرة ، وقال قتادة : هى اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذو ألوان ، وقال ابن كثير رحمه الله : تذوب كما يذوب الدردى والفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول القيامة العظيم . وللإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم » قال الجوهرى : الطش المطر الضعيف . وقوله تعالى (يوم تمور السماء مورا) قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكاً ، وعنه : هو تشققها وقال مجاهد : تدور دوراً ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها فى بعض ، وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة . وقال عطاء الخراسانى : تختلف أجزاؤها بعضها فى بعض ، وقيل تضطرب ، وقال البغوى : تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة ، قال : والمور يجمع هذه المعانى كلها : فهو فى اللغة الذهاب والمجىء ، والتردد والدوران والاضطراب . وقال تعالى (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها) عن على قال : تنشق السماء من المجرة رواه ابن أبى حاتم ، والملك اسم جنس — أى الملائكة — على أرجاء السماء ، قال ابن عباس على مالم ير منها أى حافاتها . وكذلك قال سعيد بن جبير والأوزاعى ، وقال الضحاك : أى أطرافها ، وقال الحسن البصرى : أبوابها ، وقال الربيع بن أنس : على مااسترق من السماء ينظرون إلى أهل

الأرض . وقوله تعالى (السماء منفطر به) : متشقق . قال الحسن وقتادة أى بسببه من شدته وهوله ، و (فرجت) قال ابن كثير : أى انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها .

وقوله رحمه الله « والعرش والكرسى لايفنيهما إلخ » وكذا قوله « والحور لاتفنى كذلك جنة المأوى إلخ » يعنى أن هذه الأشياء مخلوقة للبقاء لا للفناء ، والمخلوق للبقاء باق لا بنفسه بل بإبقاء الله إياه ، وقد ذكر الله تعالى الجنة ونعيمها ودوامها وخلود أهلها فيها وذكر النار وجحيمها ودوام عذابها وخلود أهلها فيها فى مواضع كثيرة من كتابه ، وسيأتى ذكر ماتيسر منها . وقد جاء فى تفسير قوله (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) : إن المراد بذلك الشهداء والحور العين ورضوان وزبانية العذاب ، وقد قال الإمام أحمد فى ذلك : إنه هو اعتقاد السلف الصالح قال فإن احتج مبتدع بقوله عز وجل (كل شىء هالك إلا وجهه) و (كل من عليها فان) قيل إن المراد كل شىء عليه الهلاك والفناء هالك فان . ويؤيد ذلك الاستثناء المذكور فى سورة الزمر ، وأيضاً فإن الجنة دار مقام وسرور وسلامة والموت ضد ذلك فكيف يكتب على من فيها موت . وكذا جاء فى العرش أن الله يأمره أن يأخذ الصور من إسرافيل عليه السلام عند موته كما فى حديث الصور الطويل . وقوله « ولأجل هذا قال جهم إنها عدم إلخ » يعنى أن لجهم إلحاداً فى آيات الله جميعها، فكما ألحد فى آيات الأسماء والصفات ألحد أيضاً فى آيات الوعيد والوعيد ، وجحد وجود الجنة والنار الآن ، وكذلك الآيات والأحاديث الواردة فيهما وقضى أيضاً بفنائهما وأنهما يفنيان ومن فيهما ، وذلك بخلاف النصوص القويمة والفطر المستقيمة كما سيأتى إن شاء الله . وقوله رحمه الله :

والأنبياء فانهم تحت الثرى أجسادهم حفظت من الديدان إلخ

يشير إلى مافى السنن وغيرها وصححه ابن حبان من حديث أوس بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة . فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على . قالوا : يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال يقولون : بليت . قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » وقال ابن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسى عن أبى الدرداء:

قال : قال رسول الله ﷺ « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لايصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ . قال : قلت وبعد الموت ؟ قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ، ورواه ابن ماجه بإسناد جيد ، وفى رواية للطبرانى « ليس من عبد يصلى على إلا بلغنى صلاته . قلنا : وبعد وفاتك ؟ قال : وبعد وفاتى ، إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » والأحاديث فى بلوغ صلاتنا إليه ، وعرض أعمالنا عليه كثيرة جداً ، وبعضها فى الصحيحين لكن بدون ذكر الأجساد .

وقد ثبت أيضاً فى أجساد الشهداء أنها لاتبالى فكيف بأجساد الأنبياء ، كما قال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا حسين المعلم عن عطاء بن جابر قال « لما حضر أحد دعانى أبى من الليل فقال لى : ماأرانى إلا مقتولا فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لاأترك بعدى أعز على منك غير نفس رسول الله ﷺ ، وإن على ديناً فاقض واستوص باخواتك خيراً ، فأصبحنا وكان أول قتيل ، فدفنت معه آخر فى قبره ، ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هيئته غير أذنه » . ولأصحاب السنن عنه رضى الله عنه من حديث طويل ، وفيه فبينا أنا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان إذ جاءنى رجل فقال : ياجابر بن عبد الله ، والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه . فأتيته فوجدته على النحو الذى دفنته ، لم يتغير إلا مالم يدع القتل أو القتيل » . وللبيهقى عنه رضى الله عنه قال : لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استصرخناهم إليهم فأتيناهم فأخرجناهم ، فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دماً » . وفى رواية ابن إسحاق عنه قال « فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس» ، وذكر الواقدى أن معاوية لما أراد أن يجرى العين نادى مناديه : من كان له قتيل بأحد فليشهد ، قال جابر : فحفرنا عنهم فوجدت أبى فى قبره كأنما هو نائم على هيئته ، ووجدنا جاره فى قبره — عمرو بن الجموح — ويده على جرحه — فأزيلت عنه فانبعث جرحه دماً . ويقال أنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك ، رضى الله عنهم أجمعين ، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا ، وفى ذلك آثار كثيرة .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذاك عجب الظهر لايبلى الخ » . يشير إلى حديث أبى هريرة المتقدم قريباً وفيه « وليس من الإنسان شىء إلا سيبلى ، إلا عظماً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذلك الأرواح لاتبلى إلخ » يشير إلى ماتقدم ذكر بعضه قريباً من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة من أن الأرواح ليست هى مطلق حياة الجسم العارضة ، بل هى حقيقة أخرى مستقلة يعمر الجسد بحلولها فيه ويفسد بخروجها منه ، وهى النسمة التى يموت الإنسان بخروجها من جسده ، وأنها لها حقيقة ، وأنها تنفخ وتقبض وتصعد وتهبط ، وأنها بعد مفارقتها الجسد إما أن تنعم أو تعذب ، وإما أن تفتح لها أبواب السماء حتى ينتهى بها إلى الله ، أو تغلق دونها فيذهب بها إلى سجين والعياذ بالله كما قدمنا ذلك ولله الحمد ، وأنها تجمع فى الصور وتطير بنفخ إسرافيل إذا أمره الله ، فتطير كل روح إلى جسدها الذى كانت تعمره فى الدنيا حتى تدخله وتدب فيه دبيب السم فى اللديغ حتى يقوم بشراً سوياً ، وأنها بعد خروجها من الجسد تكلم وتتكلم وتسأل وتجيب وتخبر كما ثبت بنصوص الكتاب والسنة ، وأما عن كيفية الروح وكنهها فليس لبشر العلم به ولا الاطلاع عليه ، ولهذا لما سألت اليهود النبى ﷺ عنه أنزل الله تعالى جوابهم (قل الروح من أمر ربى ، ومأأوتيتم من العلم إلا قليلا) . وقوله رحمه الله تعالى :

ولأجل ذلك لم يقر الجهم ماالأرواح خارجة من الأبدان .

لكنها من أعراض بها إلخ » .

يعنى أن مذهب الجهم فى الروح هو مذهب الفلاسفة الحائرين أن الروح ليس شيئاً يقوم بنفسه بل عرض والعرض فى اصطلاحهم هو مالايستقل ولا يستقر ، فمنزلة الروح عندهم من الجسد كمنزلة السمع من السامع والبصر من المبصر ، يذهب بذهابه ، بل قد يذهب البصر والسمع والذات التى يقوم بها موجودة ، فجحدوا أن لكون النفس التى هى الروح شيئاً قائماً بنفسه ، وأنه ينفخ فى الجنين فى بطن أمه بعد الأربعين الثالثة ، وأن (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، وجحدوا كونها شيئاً يساق وينزع عند الموت ويعرج بها إلى الله عز وجل فيفتح لها أبواب السماء إن كانت محسنة أو تغلق دونها إن كانت مسيئة . ولا أن روح الأنبياء والمؤمنين فى الرفيق الأعلى وأرواح الكفار فى سجين ، فكذبوا بالكتاب ، وبما أرسل الله به رسله ، فضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله رحمه الله تعالى :

فالشأن للأرواح عند فراقها   أبدانها والله أعظم شأن

يعنى أن أعظم شأنا من الحياة الدنيا ، وذلك إنه يكون إذ ذاك الخبر عياناً ، والغيب شهادة والمستور مكشوفاً ، والخبأ ظاهراً ، فليس الخبر كالمعاينة ولا علم اليقين كعين اليقين ، فالمصدق يرى ويجد مصداق ماجاء به النص كما علمه وتيقنه فيزداد بشرى وفرحاً وسروراً ، والمكذب يرى ويجد حور تكذيبه بذلك ، وغب ماجناه على نفسه ويذوق وبال أمره ، وكل يفضى إلى ماقدم .

وقوله « إما نعيم أو عذاب إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة ونعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم) سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، وغير ذلك مما فى معناه من الآيات ، وقدمنا منها جمله وقدمنا من الأحاديث فى أحوال الأحتضار والبرزخ ومايتعلق بذلك مايبلغ حد التواتر ، فليرجع إليه ، ولله الحمد والمنة .

وقوله رحمه الله « وتصير طيراً سارحاً مع شكلها إلخ » يشير إلى حديث كعب بن مالك المسلسل بالأئمة « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » وقوله رحمه الله تعالى « لكن أرواح الذين استشهدوا فى جوف طير أخضر إلخ » . يشير إلى قول الله عز وجل ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات ومافى معناها . وفى الصحيح من حديث الأعمش عن عبد الله بن مره عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية . (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى القناديل ، فاطلع إليهم ربهم عز وجل اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات . فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » وغير ذلك من الأحاديث :

وإذا أراد الله إخراج الورى بعد الممات إلى معاد ثان
ألقى على الأرض التى هم تحتها مطراً غليظاً أبيضاً متتابعاً إلخ

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق) وقال تعالى (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) وقال تعالى (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وقال تعالى (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وقال تعالى (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يؤمنون) وقال تعالى (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) وقال تعالى (كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب) وقال تعالى (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وقال تعالى (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) وقال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات) وقال تعالى (فامنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وقال تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون . وما هو إلا ذكر للعالمين) وقال تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) وقوله تعالى فى هذه الآية (إنه لقول رسول كريم) يعنى به محمداً ﷺ ، وفى سورة التكوير يعنى به جبريل ، ومعنى الإضافة فى كلتا الآيتين إنما هو التبليغ لأن من حق الرسول أن يبلغ عن المرسل . لا أن القرآن كلام الرسول الملكى ولا البشرى كما بين تعالى ذلك بقوله (تنزيل من رب العالمين) وقال تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال تعالى (الرحمن علم القرآن) وقال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) والآيات فى هذا الباب كثيرة جداً بل القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته يشهد بأنه كلام الله وتنزيله وقصصه وتعليمه وألفاظه ومعانيه . وإيجازه وإعجازه يرشد إلى أنه كلام الخالق عز وجل وصفته ، وأنه لا يستطيع البشر الاتيان بسورة من مثله ، وقد أقر بذلك كل عاقل حتى المشركون كما قال أكفر قريش الوليد بن المغيرة لما قرأ عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فرجع إلى قومه فقال أبو جهل : قل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : وماذا أقول فيه ؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالاشعار منى ولا أعلم

برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا . ووالله إن لقوله الذى يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلي، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: قف حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره . فنزلت (فذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهودا) الآيات رواه البيهقى وغيره . ويروى عن عتبة حين قرأ عليه رسول الله ﷺ حم السجدة نحو ذلك . وكذا أبو جهل قبحهم الله . فتبين بهذا أن قولهم فيه : سحر ، شعر ، كهانة ، وغير ذلك من مفترياتهم إنما قالوه عنادا ومكابرة ، وإلا فقد استيقنوا أنه لا يدخل تحت طوق أحد من البشر .

ونحن وجميع أهل السنة والجماعة نشهد الله الذى أنزله بعلمه وشهد به ، ونشهد ملائكته الذين شهدوا بذلك ، ونشهد رسوله الذى أنزل عليه وبلغه إلى الأمة ، ونشهد جميع المؤمنين الذين صدقوه وآمنوا به أنا مؤمنون مصدقون شاهدون بأنه كلام الله عز وجل وتنزيله ، وأنه تكلم به قولا وأنزله على رسوله وحيا . ولا نقول إنه حكاية عن كلام الله عز وجل أو عبارة بل هو عين كلام الله حروفه ومعانيه ، نزل به من عنده الروح الأمين ، على محمد خاتم المرسلين ، وكل منهما مبلغ عن الله عز وجل . والكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً ، قال الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وقال تعالى (فان تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ) وقال تعالى (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغاً من الله ورسالاته) والآيات فى هذا كثيرة جداً ، يخبر تعالى عن رسوله أنه مبلغ عنه مؤد لما أرسله به ، وهذا يعرفه كل أحد يعقل لفظه « رسول » ، فإن الرسول لابد له من مرسل برسالاته . فالمرسِل الله عز وجل ، والرسالة هى القرآن ، والمرسَل محمد ﷺ المبلغ رسالة ربه . وقال أنس : بعث النبى ﷺ خاله حراماً إلى قومه وقال أتؤمنونى أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فجعل يحدثهم ، وقال المغيرة رضى الله عنه : أخبرنا نبينا عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : من حدثك أن النبى ﷺ كتم شيئاً من الوحى فلا تصدقه ، إن الله تعالى يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) . وفى خطبته فى موقف الحج الأكبر قال ﷺ « وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت » وفيها إشارته ﷺ بيده إلى السماء قائلا « اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد » قالها مراراً . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال « لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يارسول الله أغثنى، فأقول لاأملك لك من الله شيئاً قدأبلغتك، لاألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يارسول الله أغثنى، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك » متفق عليه . وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم ويقول « إنى رسول الله وآتيكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى » وغير ذلك من الأحاديث ، يخبر ﷺ أنه مخبر عن الله ومبلغ رسالته وأن ما أمر به ونهى عنه وأخبر به هو تبليغ لأمر الله ونهيه وخبره ، وأنه لم يقل شيئاً من عند نفسه فيقول هو من عند الله ، ومن اعتقد ذلك فهو كافر من حزب أبى جهل والوليد بن المغيرة وملأهم ، قال الله عز وجل (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين وإنه لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) .

(ليس بمخلوق) كما يقول الزنادقة من الحلولية والاتحادية والجهمية والمعتزلة وغيرهم ، تعالى الله عز وجل عن أن يكون شىء من صفاته مخلوقاً ، قال الله عز وجل (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر) وقال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فأخبر تعالى أن الخلق غير الأمر وأن القرآن من أمره لا من خلقه وقال (إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فكن من كلامه الذى هو صفته ليس بمخلوق ، والشىء المراد المقول له « كن » مخلوق ، وقال تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فعيسى وآدم مخلوقان

بكن و « كن » قول الله صفة من صفاته ، وليس الشيء المخلوق هو كن ، ولكن كان بقول الله له كن ، وقد انعقد إجماع سلف الأمة الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون على تكفير من قال بخلق القرآن ، وذلك لأنه لا يخلو قوله من إحدى ثلاث : إما أن يقول إنه خلقه فى ذاته ، أو فى غيره ، أو منفصلا مستقلا وكل الثلاث كفر صريح ، لأنه إن قال خلقه فى ذاته فقد جعل ذاته محلا للمخلوقات . وإن قال إنه خلقه فى غيره فهو كلام ذلك الغير فيكون القرآن على هذا كلام كل تال له وهذا قول الوليد بن المغيرة فيما حكى الله عنه حيث قال تعالى (إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لواحة للبشر) الآيات . وإن قال إنه خلقه منفصلا مستقلا فهذا جحود لوجوده مطلقاً إذ لا يعقل ولا يتصور كلام يقوم بذاته بدون متكلم ، كما لا يعقل سمع بدون سميع ولا بصر بدون بصير ولا علم بدون عالم ولا إرادة بدون مريد ولا حياة بدون حى إلى غير ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، فهذه الثلاث لا خروج لزنديق منها ولا جواب له عنها فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

أصل القول بخلق القرآن

وأول ما اشتهر القوم بخلق القرآن فى آخر عصر التابعين لما ظهر جهم بن صفوان شقيق إبليس لعنهما الله وكان ملحداً عنيداً وزنديقاً زائغاً مبتغياً غير سبيل المؤمنين لم يثبت أن فى السماء رباً ولا يصف الله تعالى بشىء مما وصف به نفسه وينتهى قوله إلى جحود الخالق عز وجل . ترك الصلاة أربعين يوماً وهو يزعم أنه يرتاد ديناً ، ولما ناظره بعض السمنية فى معبوده قال قبحه الله ، هو هذا الهواء فى كل مكان ، وافتتح مرة سورة طه فلما أتى على هذه الآية (الرحمن على العرش استوى) قال : لو وجدت السبيل إلى حكها لحككتها ، ثم قرأ حتى أتى على آية أخرى فقال ما كان أظرف محمداً حين قالها ، ثم افتتح سورة القصص فلما أتى على ذكر موسى جمع يديه ورجليه ثم رفع المصحف ثم قال : أى شىء هذا ذكره ههنا فلم يتم ذكره ، وذكره ههنا فلم يتم ذكره . وقد روى عنه غير هذا من الكفريات ، وهو أذل وأحقر من أن نشتغل بترجمته . وقد يسر الله تعالى ذبحه على يد سالم بن أحوز بأصبهان وقيل بمرو . وهو يومئذ نائبها رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خيراً . وقد تلقى هذا القول عن

الجعد بن درهم لكنه لم يشتهر فى أيام الجعد كما اشتهر عن الجهم ، فإن الجعد لما أظهر القول بخلق القرآن تطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ولم يكن له كثير أتباع غيره ، ثم يسر الله تعالى قتل الجعد على يد خالد بن عبد الله القسرى الأمير ، قتله يوم عيد الأضحى بالكوفة ، وذلك لأن خالداً خطب الناس فقال فى خطبته تلك : أيها الناس ضحوا تقبل الله صحاياكم فإنى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكمل موسى تكليما . تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر ، روى ذلك البخارى فى كتابه خلق أفعال العباد ، ورواه ابن أبى حاتم فى كتاب السنة له وغيرهما ، وهو مشهور فى كتب التواريخ ، وذلك سنة أربعة وعشرين ومائة . وقد أخذ الجعد بدعته هذه عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عند خالد لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى ﷺ وأنزل الله تعالى فى ذلك سورة المعوذتين . ثم تقلد هذا المذهب المخذول عن الجهم بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى المتكلم . شيخ المعتزلة وأحد من أضل المأمون وجدد القول بخلق القرآن ويقال إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة وروى عنه أقوال شنيعة فى الدين من التجهم وغيره مات سنة ثمانى عشرة ومائتين . ثم تقلد عن بشر ذلك المذهب الملعون قاضى المحنة أحمد بن أبى داود وأعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بالقول بخلق القرآن وعلى أن الله لا يرى فى الآخرة ، وكان بسببه ما كان على أهل الحديث والسنة من الحبس والضرب والقتل وغير ذلك ، وقد ابتلاه الله تعالى بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى أهلكه الله تعالى سنة أربعين ومائتين ومن أراد الاطلاع على ذلك وتفاصيله فليقرأ كتب التواريخ ير العجب .

ذكر ما قاله أئمة السنة فى مسألة القرآن وحكم الجهمية

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله وفيه أسماء الله ، وقال : إذا قال الرجل العلم مخلوق فهو كافر لأنه يزعم أنه لم يكن لله علم حتى خلقه ، وقال رحمه الله تعالى من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر لأن القرآن من علم الله قال الله تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) ، وقال تعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا

نصير) وقال تعالى (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) وقال تعالى (ألا له الخلق والأمر) وقال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب) قال أحمد قال سعيد بن جبير : والأحزاب الملل كلها (فالنار موعده) وقال تعالى (ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب) وقال تعالى (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق) وقال رحمه الله تعالى : من قال ذاك القول لا يصلى خلفه الجمعة ولا غيرها فإن صلى خلفه أعاد الصلاة . يعنى من قال القرآن مخلوق . وقال رحمه الله تعالى : إذا كان القاضى جهمياً فلا تشهد عنده وقال إبراهيم الجهمية كفار والقدرية كفار . وقال سليمان التيمى رحمه الله تعالى : ليس قوم أشد بغضاً للاسلام من الجهمية والقدرية ، فأما الجهمية فقد بارزوا الله ، وأما القدرية فإنهم قالوا فى الله ، وقال سلام بن أبى مطيع : الجهمية كفار لا يصلى خلفهم ، وقال خارجة : الجهمية كفار بلغوا نساءهم أنهن طوالق وأنهن لا يحللن لأزواجهن . لا تعودوا مرضاهم ولا تشهدوا جنائزهم . ثم تلا (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) إلى قوله (الرحمن على العرش استوى) وقال مالك رحمه الله (من قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً ويحبس حتى يتوب) وقال سفيان الثورى رحمه الله : من زعم أن قول الله (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) مخلوق فهو كافر زنديق حلال الدم ، وقال أيضاً : من قال إن (قل هو الله أحد . الله الصمد) مخلوق فهو كافر . وقال أبو يوسف القاضى : صنفان ما على وجه الأرض شر منهما الجهمية والمقاتلية . قلت : وأظنه يعنى بالمقاتلية اتباع مقاتل بن سليمان البلخى فإنه رماه الإمام أبو حنيفة بالتشبيه فإنه قال أفرط جهم فى نفى التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشىء ، وأفرط مقاتل فى معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه ، وتابع أبا حنيفة على ذلك جماعة من أئمة الجرح والتعديل من أقرانه كأبى يوسف وغيره فمن بعدهم حتى قال ابن حبان : كان[1] يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذى وافق كتبهم ، وكان يشبه الرب بالمخلوق ، وكذبه وكيع وغيره والله أعلم بحاله ، قال وكيع : مات مقاتل بن سليمان سنة خمسين ومائة ا. هـ . وقال عبد الله بن المبارك : الجهمية كفار ، وقال : ليس تعبد الجهمية شيئاً . وقال : من قال القرآن مخلوق فهو زنديق . وقال : إنا نستجيز أن نحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستجيز أن نحكى كلام الجهمية . وقال سفيان بن عيينة :

(١) أى مقاتل بن سليمان البلخى .

القرآن كلام الله ، من قال مخلوق فهو كافر ، ومن شك فى كفره فهو كافر . وقال : من قال القرآن مخلوق يحتاج أن يصلب على ذياب ، يعنى جبل . وقال عبد الله بن إدريس رحمه الله وقد سئل : ما تقول فى الجهمية يصلى خلفهم ؟ فقال : أمسلمون هؤلاء ، أمسلمون هؤلاء ؟ لا ولا كرامة ، لا يصلى خلفهم . وقال له رجل : يا أبا محمد إن قبلنا ناساً يقولون القرآن مخلوق . فقال من اليهود ؟ قال لا ، قال فمن النصارى ؟ قال لا ، قال فمن المجوس ؟ قال لا ، قال فمن ؟ قال من الموحدين . قال كذبوا ليس هؤلاء بموحدين هؤلاء زنادقة هؤلاء زنادقة . وقرأ ابن إدريس (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال : الله مخلوق ؟ والرحمن مخلوق ؟| والرحيم مخلوق ؟ هؤلاء زنادقة . وسئل عن قوم يقولون القرآن مخلوق ، فاستشنع ذلك وقال : سبحان الله ، شيء منه مخلوق ؟ وقال وكيع فإنى أستتيبه ، فإن تاب وإلا قتلته ، وقال من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث ، ومن زعم أنه محدث فقد كفر ، وقيل له : إن فلاناً يقول إن القرآن محدث . فقال : سبحان الله ، هذا الكفر . قال السويدى وسألت وكيعاً عن الصلاة خلف الجهمية ، فقال : لا تصل خلفهم . وقال : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم أنه محدث يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وقال زهير بن حرب : اختصمت أنا ومثنى فقال مثنى : القرآن مخلوق ، وقلت أنا : كلام الله . فقال وكيع وأنا أسمع : هذا كفر ، وقال من قال القرآن مخلوق هذا كفر . فقال مثنى : يا أبا سفيان قال الله (فما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) فأين هذا ؟ فقال وكيع : من قال القرآن مخلوق هذا كفر ، وقال : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، وقال رحمه الله : القرآن كلام الله أنزله جبريل على محمد ﷺ ، كل صاحب هوى يعرف الله ويعرف من يعبد . إلا الجهمية لا يدرون من يعبدون ، بشر المريسى وأصحابه . وقيل لوكيع فى ذبائح الجهمية ، قال لا توكل هم مرتدون . وقال : من قال فإن كلامه ليس منه فقد كفر . وقال : من قال إن منه شيئاً مخلوقاً فقد كفر . وقال فطر بن حماد سألت معتمر بن سليمان فقلت : يا أبا محمد إمام لقوم يقول القرآن مخلوق أصلى خلفه ؟ فقال : ينبغى أن تضرب عنقه . قال فطر : وسألت حماد بن زيد فقلت يا أبا إسماعيل إمام لنا يقول القرآن مخلوق أصلى خلفه ؟ فقال صل خلف مسلم أحب إلى . وسألت يزيد بن رريع فقلت : يا أبا معاوية إمام لقوم يقول القرآن مخلوق أصلى خلفه ؟ قال لا ولا كرامة . وقال عبد الرحمن بن مهدى : من زعم أن الله لم يكلم موسى يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وقال مرة : لا أرى أن أستتيب الجهمية . وقال رحمه الله : لو كان لى من الأمر شيء لقمت على

الجسر فلا يمر بى أحد من الجهمية إلا سألته عن القرآن فإن قال مخلوق ضربت رأسه ورميت به فى الماء . وقال أبو بكر بن الأسود : لو أن رجلا جهمياً مات وأنا وارثه ما استحللت أن آخذ من ميراثه . وقال أبو يوسف القاضى : جيئونى بشاهدين يشهدان على المريسى ، والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط ، يقول فى القرآن ، يعنى مخلوق . وقال يزيد بن هارون وذكر الجهمية فقال : هم والله زنادقة ، عليهم لعنة الله . وقال رحمه الله : والله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة من قال القرآن مخلوق فهو زنديق وسئل عن الصلاة خلفهم قال لا . وقال معاذ بن معاذ : من قال القرآن مخلوق فهو كافر . وقال شبابة بن سوار : اجتمع رأيى ورأى أبى النضر هاشم بن القاسم وجماعة من الفقهاء على أن المريسى كافر جاحد نرى أن يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وكان أبو توبة الحلبى ونعيم بن حماد وإبراهيم بن مهدى يكفرون الجهمية . وقال بشر بن الحارث : لا تجالسوهم ولا تكلموهم ، وإن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ، كيف يرجعون وأنتم تفعلون بهم هذا ؟ قال يعنى الجهمية . وقال ابن أبى مريم : من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر . وقال أبو الأسود النضر بن عبد الجبار : القرآن كلام الله من زعم أنه مخلوق فهو كافر . هذا كلام الزنادقة . وقال عباد بن العوام : كلمت بشرا المريسى وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهى أن يقولوا : ليس فى السماء شىء . وقال عمرو بن الربيع بن طارق : القرآن كلام الله من زعم أنه مخلوق فهو كافر . وقال هارون أمير المؤمنين : بلغنى أن بشرا المريسى يزعم أن القرآن مخلوق ، لله على أن أظفرنى الله به إلا قتلته قتلة ما قتلتها أحداً قط . وقال هارون بن معروف : من قال القرآن مخلوق فهو يعبد صنما . وقال يحيى بن معين رحمه الله : من قال القرآن مخلوق فهو كافر . وقال رجل لهشيم : إن فلاناً يقول القرآن مخلوق ، فقال : اذهب إليه فاقرأ عليه أول الحديد وآخر الحشر ، فإن زعم أنهما مخلوقان فاضرب عنقه . وقال أبو هاشم الغسانى مثله . وقال أبو عبيد : من قال القرآن مخلوق فقد افترى على الله وقال عليه ما لم تقله اليهود والنصارى . وقال إسحاق بن البهلول لأنس بن عياض أبى ضمرة : أصلى خلف الجهمية ؟ قال لا ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ وسئل عيسى بن يونس رحمه الله عمن يقول : القرآن مخلوق ، فقال : كافر ، أو كفر . فقيل له : تكفرهم بهذه الكلمة ؟ قال : إن هذا من أيسر أو أحسن ما يظهرون . وكان يحيى بن معين رحمه الله يعيد صلاة الجمعة مذ أظهر عبد الله بن هارون المأمون ما أظهر . يعنى القول بخلق القرآن . وقال الحسين بن إبراهيم بن

أشكاب وعاصم بن على ابن عاصم وهارون الفروى وعبد الوهاب الوراق وسفيان بن وكيع : القرآن كلام الله وليس بمخلوق . وسئل جعفر بن محمد رحمه الله عن القرآن فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله . وروى عن أبيه على بن الحسين أنه قال فى القرآن : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله . وقال الزهرى : سألت على بن الحسين عن القرآن فقال : كتاب الله وكلامه . وعن إبراهيم ابن سعد وسعيد بن عبد الرحمن الجمحى ووهب بن جرير وأبى النضر هاشم ابن القاسم وسليمان بن حرب قالوا : القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وقال سفيان بن عيينة : لا نحسن غير هذا ، القرآن كلام الله (فأجره حتى يسمع كلام الله) ، (يريدون أن يبدلوا كلام الله) وقال الإمام مالك بن أنس وجماعة من العلماء بالمدينة وذكروا القرآن فقالوا : كلام الله وهو منه ، وليس من الله شىء مخلوق . وقال حماد بن زيد رحمه الله : القرآن كلام الله أنزله جبريل من عند رب العالمين . وقال أبو بكر بن عياش : من زعم أن القرآن مخلوق فقد افترى على الله . وقال وكيع : القرآن من الله ، منه خرج وإليه يعود . وقال يحيى بن سعيد : كيف يصنعون بقل هو الله أحد ، كيف يصنعون بهذه الآية (إنى أنا الله) يكون مخلوقاً ؟ وقال وهب بن جرير ومحمد ابن يزيد الواسطى وابن أبى إدريس وأبو بكر بن أبى شيبة وأخوه عثمان بن أبى شيبة وأبو عمر الشيبانى ويحيى بن أيوب وأبو الوليد وحجاج الأنماطى ويحيى بن معين وأبو خيثمة وإسحاق بن أبى إسرائيل وأبو معمر : القرآن كلام الله ليس بمخلوق . وقال أبو عمرو الشيبانى لإسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة — وقال القرآن مخلوق — فقال الشيبانى : خلقه قبل أن يتكلم به أو بعدما تكلم به ؟ قال فسكت . وقال حسن بن موسى الأشيب أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم (إياك نعبد وإياك نستعين) فقال حسن : مخلوق هذا ؟ وقال محمد بن سليمان لوين : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ما رأيت أحداً يقول القرآن مخلوق ، أعوذ بالله ا. ه . من كتاب السنة .

وقال الشافعى رحمه الله تعالى فى وصيته : القرآن كلام الله غير مخلوق . وقال عفان بن مسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (يريدون أن يبدلوا كلام الله — الله لا إله إلا هو الحى القيوم — قل هو الله أحد) أمخلوق هذا ؟ أدركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون : القرآن كلام الله ليس مخلوقاً . وقال يحيى بن يحيى : من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوق فهو كافر . وقال هشام بن عبيد الله : القرآن كلام الله غير

مخلوق . فقال له رجل : أليس الله تعالى يقول (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) ؟ فقال : محدث إلينا ، وليس عند الله بمحدث . وقال إسحاق بن إبراهيم الحنظلى رحمه الله : ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، فكيف يكون شىء خرج من الرب عز وجل مخلوقاً . وقال أبو جعفر النفيلى : من قال إن القرآن مخلوق فهو كافر ، فقيل له : يا أبا جعفر الكفر كفران ، كفر نعمة وكفر بالرب عز وجل ؟ قال لا بل كفر بالرب عز وجل ، ما تقول فيمن يقول (الله أحد ، الله الصمد) مخلوق ، أليس كافراً هو ؟ وقال عبد الله بن محمد العيشى : يستحيل فى صفة الحكيم أن يخلق كلاماً يدعى الربوبية ، يعنى قوله تعالى (إننى أنا الله) وقوله (أنا ربك) قلت : والمعتزلة يقولون إن كلام الله لموسى خلقه فى الشجرة ، فعلى هذا تكون الشجرة هى القائلة (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدنى) قبحهم الله فى الدنيا والآخرة . وقال محمد بن يحيى الذهلى : الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص . والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع صفاته وحيث تصرف . وأما كلام البخارى رحمه الله تعالى ومتانته فى هذه المسألة فأشهر من أن يحتاج إلى تعريف ، وله فى ذلك (كتاب خلق أفعال العباد) وقد بوب فى صحيحه على جملة وافية تدل على غزارة علمه وجلالة شأنه . وقال أبو حاتم وأبو زرعة : أدركنا العلماء فى جميع الأمصار فكان من مذاهبهم أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته ، والقدر خيرة وشره من الله تعالى ، وأن الله تعالى على عرشه بائن من خلقه كما وصف نفسه فى كتابه وعلى لسان رسوله بلا كيف ، أحاط بكل شىء علماً ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . وقال محمد بن أسلم الطوسى : القرآن كلام الله غير مخلوق أينما تلى وحيثما كتب لا يتغير ولا يتحول ولا يتبدل ا. هـ . من العلو للذهبى .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى فى كتاب التوحيد بعد تبويبه على تكليم الله موسى عليه السلام : وتكلم الله بالوحى وصفة نزول الوحى وتكليم الله عباده يوم القيامة وتقرير البحث فى ذلك ، ثم قال : باب ذكر البيان من كتاب ربنا المنزل على نبيه المصطفى ﷺ ومن سنة نبينا محمد ﷺ على الفرق بين كلام الله عز وجل الذى به يكون خلقه وبين خلقه الذى يكون بكلامه وقوله ، والدليل على نبذ قول الجهمية الذين يزعمون أن كلام الله تعالى مخلوق ، جل ربنا وعز عن ذلك . قال الله سبحانه وتعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ففرق الله تعالى بين الخلق والأمر الذى به يخلق الخلق بواو الاستئناف وأعلمنا الله جل وعلا فى محكم تنزيله أنه يخلق الخلق بكلامه وقوله (إنما أمرنا

لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) فأعلمنا جل وعلا أنه يكون كل مكون من خلقه بقوله كن فيكون وقوله « كن » هو كلامه الذى به يكون الخلق ، وكلامه عز وجل الذى به يكون الخلق غير الخلق الذى يكون مكوناً بكلامه فافهم ولا تغلط ولا تغالط ، ومن عقل عن الله خطابه علم أن الله سبحانه لما أعلم عباده المؤمنين أنه يكون الشىء بقوله كن أن القول الذى هو كن غير المكون بكن المقول له كن ، وعقل عن الله أن قوله كن لو كان خلقاً على ما زعمت الجهمية المفترية على الله أنه إنما يخلق الخلق ويكونه بخلق لو كان قوله كن خلقاً . فيقال لهم : ياجهلة ، فالقول الذى يكون به الخلق على زعمكم لو كان خلقاً بم يكونه ؟ أليس قول مقالتكم التى تزعمون أن قوله كن إنما يخلقه بقول قبله وهو عندكم خلقه وذلك القول يخلقه بقول قبله وهو خلق حتى يصير إلى مالا غاية له ولا عدد ولا أول ، وفى هذا إبطال تكوين الخلق وإنشاء البرية وإحداث ما لم يكن قبل ، يحدث الله الشىء ونشئه ، وهذا قول لا يتوهمه ذو لب لو تفكر فيه ووفق لادراك الصواب والرشاد ، قال الله سبحانه وتعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فهل يتوهم مسلم أن الله تعالى سخر الشمس والقمر والنجوم مسخرات بخلقه ، أليس مفهوماً ــ عند من يعقل عن الله خطابه ــ أن الأمر الذى سخر به غير المسخر بالأمر وأن القول غير المقول له ؟ فتفهموا ياذوى الحجا عن الله خطابه ، وعن النبى المصطفى ﷺ بيانه ، لا تصدوا عن سواء السبيل فتضلوا كما ضلت الجهمية عليهم لعائن الله ، فاسمعوا الآن الدليل الواضح البين غير المشكل من سنة النبى ﷺ بنقل العدل عن العدل موصولا إليه على الفرق بين خلق الله وبين كلام الله تعالى . ثم ساق الأحاديث فى ذكر كلمات الله تعالى إلى حديث « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » ثم قال : أفليس العلم محيطاً ياذوى الحجا أنه غير جائز أن يأمر النبى ﷺ بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه ، هل سمعت عالماً يجيز أن يقول أعوذ بالكعبة من شر خلق الله ، أو يجيز أن يقول أعوذ بالصفا والمروة أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله ، هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله ، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه . ثم ساق بحثاً طويلا فليراجع منه . وقال أبو معاوية بن خازم الضرير رحمه الله: الكلام فيه بدعة وضلالة. ماتكلم فيه النبى ﷺ ولا الصحابة رضى الله عنهم ولا التابعون ولا الصالحون رحمهم الله تعالى . يعنى قول القرآن مخلوق . وذكر عند أبى نعيم هو الفضل بن دكين من يقول القرآن مخلوق ، فقال : والله والله ما سمعت بشىء من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهم . وكلام أئمة السنة فى هذا الباب يطول ذكره

ولو أردنا استيعابه لطال الفصل . وقد تكرر نقل الإجماع منهم على إثات ما أثبت الله عز وجل لنفسه وأثبته رسوله ﷺ والصحابة فمن بعدهم ونفى التكييف عنها ، لاسيما فى مسألة العلو وفى هذه المسألة مسألة القرآن وتكليم الله تعالى موسى . لأنها أول ما جحده الزنادقة قبحهم الله تعالى،وفى ذكر من سمينا كفاية ، ومن لم نسم منهم أضعاف ذلك ، ولم يختلف منهم اثنان فى أن القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق. من الله بدأ وإليه يعود. وتقلدوا كفر من قال بخلق القرآن ومنعوا الصلاة خلفه وأفتوا بضرب عنقه وبتحريم ميراثه على المسلمين وحرموا ذبيحته وجزموا بأنها ذبيحة مرتد لا تحل للمسلمين . فانظر أيها المنصف أقوالهم ثم اعرضها على نصوص الكتاب والسنة هل تجدهم حادوا عنها قيد شبر ، أو قدموا عليها قول أحد من الناس كائنا من كان ؟ حاشاً وكلا ومعاذ الله ، بل بها اقتدوا ومنها تضلعوا ، وبنورها استضاءوا وإياهم اتبعوا ، فهداهم الله بذلك لما اختلفت فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا مقال المؤمنين جميعهم ... وعصابة التوحيد أعلام الهدى
الكاشفين عوار كل مشبه ... والقامعين لكل من قد ألحدا
زن قولهم بالوحى وانظر هل ترى ... ميلا لهم عما إليه أرشدا
حاشاهم عن أن يميلوا خطوة ... عما إليه الله إياهم هدى
بل أثبتوا لله ما قد أثبتت ... آى الكتاب، وكل نص أسندا
ومن النفاة تبرأوا وكذاك من ... قول الممثل إذ تغالى واعتدى
جعلهم إمامهم الكتاب السنة ... المختار يا طوبى لمن بهما اهتدى
ولذاك أعلى الله جل منارهم ... والملحدون بناءهم قد هددا
وأتم نورهم الإله وغيرهم ... فى ظلمة إذ لم يكن بهم اقتدى
يارب ألحقنا بهم واجعل لنا ... نوراً نميز به الضلال من الهدى

وقضى السلف الصالح رحمهم الله تعالى على الطائفة الواقفة وهم القائلون لا نقول القرآن مخلوق ولا غير مخلوق بأن من كان منهم يحسن الكلام فهو جهمى ومن لم يحسن الكلام منهم بل علم أنه كان جاهلا جهلا بسيطاً فهو تقام عليه الحجة بالبيان والبرهان ، فان تاب وآمن أنه كلام الله تعالى وإلا فهو شر من الجهمية ، وسيأتى إن شاء الله الكلام على اللفظية قريباً وسنذكر إن شاء الله تعالى فى آخر الفصل سائر الفرق المخالفين للسنة فى القرآن وغيره من

الصفات ، لأنا أحببنا تجريد مذهب أهل السنة على حدته لقصد التيسير وبالله التوفيق .

(ولا بمفترى) أى وليس القرآن بمفترى كما قاله كفار قريش وغيرهم من أعداء الله تعالى حيث قالوا فيه (إن هذا إلا سحر يؤثر) ، وقالوا (إن هذا إلا إفك افتراه) ، وقالوا (أساطير الأولين اكتتبها) ، ويقولون (إنما يعلمه بشر) وقالوا شعر ، وقالوا كهانة ، وقالوا (إن هذا إلا اختلاق) . وقالوا (لو نشاء لقلنا مثل هذا) ، وغير ذلك من مفترياتهم وإفكهم ، وكل ذلك إنما قالوه عناداً ومكابرة (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقد كشف الله تعالى شبههم وأدحض حججهم وبهتهم وقطعهم وفضحهم على رءوس الأشهاد وبين عجزهم وكشف عوارهم فى جميع ما انتحلوا فقال تعالى لمن قال (إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) قال الله تعالى (سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر) إلى آخر الآيات وقال تعالى (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) فرد الله ذلك عليهم بقوله (فقد جاءوا ظلما وزورا) (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) فرد الله ذلك عليهم بقوله تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) وقال تعالى (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) فرد الله ذلك عليهم بقوله عز وجل (بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين . ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) قال المفسرون إن المشركين يشيرون بهذا إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش قيل اسمه بلعام ، وقيل يعيش وقيل عائش ، وقيل جبر وقيل يسار وقيل غير ذلك ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه والسنة الشيء ، فرد الله عز وجل عليهم ذلك الافتراء بقوله تعالى (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل ، وقال فى رد قولهم شعر وكهانة (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) وقال تعالى (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون) الآيات وقال تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول

كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين . وإنه لتذكرة للمتقين) إلى آخر الآيات . وقال تعالى لمن قال (إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا) فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله عز وجل (بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) إلى آخر الآيات . ورد عليهم تعالى فى قولهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا) بقوله عز وجل (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثلة ولم كان بعضهم لبعض ظهيرا) وقد تحداهم تعالى على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة مثله فعجزوا عن ذلك كله وبان كذبهم قال الله عز وجل أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) وقال تعالى وتقدس (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون) وقال تعالى (وإن كنتم فى شك مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فعجزوا عن ذلك كله ولم يطمعوا فى شىء منه ، مع أنهم فحول اللغة وفرسان الفصاحة وأهل البلاغة وأعلم الناس بنثر الكلام ونظمه وهجزه ورجزه ، مع شدة معاندتهم لرسول الله ﷺ وما جاء به وحرصهم على معارضته بكل ممكن ولكن جاءهم ما لا قبل لهم به وأتاهم ما لا يطيقون ، كلام ذى الملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء والعزة والجلال والكمال رب الأرض والسماء ورب الآخرة والأولى من له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى ، الذى لا سمى له ولا كفو له وليس كمثله شىء وهو السميع البصير . فلما رأوا وجوه إيجازه وإعجازه ومبانيه الكاملة ومعانيه الشاملة ، وإخباره عن الأمم الماضية والغيوب المستقبلة . والأحكام الواقعة ، ونبأ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتهديد وغير ذلك على أكمل وجه وأوضح بيان وأعلى قصص وأعظم برهان ، علموا أنه ليس بكلام المخلوقين ولا يشبه كلام المخلوقين وعلموا أنه الحق ، وإنما رموه بالافك والبهتان بقولهم كاهن شاعر مجنون وغير ذلك إنما هو مكابرة وعناد مع الاعتراف بذلك فيما بينهم كما تقدم عن الوليد وعتبة وأبى جهل قبحهم الله وغيرهم ، ولو كان تقوله كما زعموا هم لاستطاعوا معارضته ولم ينقطعوا عن مقاومته لأنهم عرب فصحاء مثله عارفون بوجوه البلاغة كلها لا يجهلون منها شيئاً ، ولما عدلوا إلى المكابرة والتبجح بالقول دون الفعل الذى هو

أمقت شيء عند العقلاء . ولكنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد خاتم المرسلين . وسيد ولد آدم أجمعين هدى وبشرى للمسلمين . وتبيانا لكل شيء وتفصيل كل شيء وذكرى للمؤمنين (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فلا يأتى مبطل بشبه إلا وفيه إزهاق باطله وكشف شبهته وإدحاض حجته كما هو معلوم عند من عرف مواقع النزول ، ويكفيك فى ذلك قول الله عز وجل (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) .

يحفظ بالقلب وباللسان	يتلى كما يسمع بالآذان
كذا بالأبصار إليه ينظر	وبالأيادى خطه يسطر
وكل ذى مخلوقة حقيقه	دون كلام بارىء الخليقه
جلت صفات ربنا الرحمن	عن وصفها بالخلق والحدثان
فالصوت والالحان صوت القارى	لكنما المتلو قول البارى
ما قاله لا يقبل التبديلا	كلا ولا أصدق منه قيلا

(يحفظ) بالبناء للمفعول أى القرآن (بالقلب) كما قال تبارك وتعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) وقال (سنقرئك فلا تنسى) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخراب » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم — يعنى ما معه من القرآن — فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال « ما معك يا فلان » فقال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال « أمعك سورة البقرة » قال نعم ، قال « اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية أن لا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقرأوه ، فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان . ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أو كى على مسك » قال الترمذى هذا حديث حسن . وفى حديث سهل بن سعد رضى الله عنه المتفق عليه فى قصة الواهبة نفسها وفيه قال « ما معك من القرآن » قال معى سورة كذا وسورة كذا عددها ، فقال « تقرأهن عن ظهر قلبك »

قال نعم ، قال « اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن » ولأبى داود قال : سورة البقرة والتى تليها ، قال « قم فعلمها عشرين آية » . وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مثل القرآن إذا عاهد عليه صاحبه فقرأه بالليل والنهار كمثل رجل له إبل فان عقلها حفظها وإن أطلق عقالها ذهبت ، فكذلك صاحب القرآن » . ولهما عن عائشة رضى الله عنها قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يقرأ فى سورة بالليل فقال « يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا » والأحاديث كثيرة جدا . (وباللسان يتلى) قال الله تبارك وتعالى (اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث) وقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) وقال تعالى (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم) إلى آخر الآية ، وقال تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) وقال تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) وقال تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) وغير ذلك من الآيات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فسمعه جار له » إلى آخر الحديث رواه البخارى . وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن فضالة بن عبيد عن النبى ﷺ قال « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » ورواه ابن ماجه . وله عن المهاجر بن حبيب قال : قال رسول الله ﷺ « يا أهل القرآن لا توسدوا القرآن ، واتلوه حق تلاوته آناء الليل والنهار وتغنوه وتقنوه واذكروا ما فيه لعلكم تفلحون » والأحاديث فى هذا كثيرة جداً سيأتى ما تيسر منها فى ذكر الصوت .

(كما يسمع بالآذان) قال الله تبارك وتعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) ، وقال تبارك وتعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) ، وقال تعالى (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) ، وقال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) الآيات ، وقال تعالى (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به

ولن نشرك بربنا أحداً إلى قوله تعالى ـــ وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به) الآيات ، وقال تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وغير ذلك من الآيات . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ « اقرأ على القرآن » قلت أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » الحديث متفق عليه . وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ياأبا موسى ، لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة » فقال : أما والله لو أعلم أنك تسمع قراءاتى لحبرتها لك تحبيرا . رواه مسلم . ولأبى عبيد عن عائشة رضى الله عنها قالت : أبطأت على رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء ثم جئت . فقال « أين كنت ، قلت : كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد ، قالت فقام رسول الله ﷺ وقمت معه حتى استمع له ، ثم التفت إلى فقال « هذا سالم مولى أبى حذيفة ، الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا » إسناده جيد ، والأحاديث فى هذا كثيرة .

(كذا بالابصار إليه) متعلقا بـ (ينظر) أى إلى القرآن فى المصحف وهو من أفضل العبادات وأجلها . وروى أبو عبيد باسناد فيه ضعف عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : قال النبى ﷺ « فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرأه ظهرا كفضل الفريضة على النافلة » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أديموا النظر فى المصحف . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا دخل نشر المصحف فقرأ فيه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرأوا وفسر لهم . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ . وذهب كثير من السلف أن قراءة القرآن فى المصحف أفضل من على ظهر قلب ، لأنه يشتمل على التلاوة والنظر فى المصحف وكرهوا أن يمضى على الرجل يومان لا ينظر فى مصحفه . (وبالأيادى خطه يسطر) كما قال تعالى (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) وقال تعالى (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة) وقال تعالى (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة) وقد كتبه الصحابة فى عهد النبى ﷺ بأمره ، وفى خلافة أبى بكر وعثمان ، وإلى الآن يكتبه المسلمون ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ترك النبى ﷺ إلا ما بين الدفتين ، وقال على ابن أبى طالب نحو ذلك ، وقال أبو بكر رضى الله عنه معنى ذلك فى محضر الصحابة لم يقل أحد خلافه . ولو لم يكن الذى فى المصحف كلام الله لم يحرم مسه على أحد ولم يكن من شأنه أن « لا يمسه إلا المطهرون »

بل ولا كان يحرم توسده ، ولذا أجاز الزنادقة ذلك حيث لم يؤمنوا أن فيه كتاب الله ، وهذا من أسفل دركات الكفر قبحهم الله (وكل ذى) المذكورات من القلب وحافظته وذاكرته واللسان وحركته والآذان وأسماعها والأبصار ونظرها والأيادى وكتابتها وأدوات الكتابة من أوراق وأقلام ومداد . كلها (مخلوقة حقيقة) ليس فى ذلك توقف . (دون) القرآن الذى هو (كلام) الله تعالى (بارىء الخليقة) . قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : يتوجه العبد لله تعالى بالقرآن بخمسة أوجه وهو فيها غير مخلوق : حفظ بقلب ، وتلاوة بلسان ، وسمع بأذن ، ونظرة ببصر ، وخط بيد . فالقلب مخلوق والمحفوظ غير مخلوق والتلاوة مخلوقة والمتلو غير مخلوق ، والسمع مخلوق والمسموع غير مخلوق ، والنظر مخلوق والمنظور إليه غير مخلوق ، والكتابة مخلوقة والمكتوب غير مخلوق . انتهى . فأعمال العباد مخلوقة والقرآن حيثما تصرف وأين كتب وحيث تلى كلام الله تعالى غير مخلوق .

جلت صفات ربنا الرحمن عن وصفها بالخلق والحدثان

فليس من صفات الله تعالى شىء مخلوق ، تعالى الله عن ذلك وتعالى عن أن تكون ذاته محلا للمخلوقات ، بل هو الأول بأسمائه وصفاته قبل كل شىء ، والآخر بأسمائه وصفاته بعد كل شىء ، لم يسبق شىء من صفاته بالعدم ، ولم يعقب بالفناء ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً (فالصوت) من جهورى وخفى (والألحان) من حسن وغيره (صوت القارىء لكنما المتلو) المؤدى بذلك الصوت هو (قول البارى) جل وعلا . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ « لم يأذن الله لشىء ما أذن للنبى ﷺ يتغنى بالقرآن » ولابن ماجة باسناد جيد عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « غنوا بالقرآن ليس منا من لم يغن بالقرآن وابكوا فان لم تقدروا على البكاء فتباكوا » رواه البغوى ، ولأبى داود نحوه ، وله عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وله وللنسائى وابن ماجه باسناد جيد عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً — أو قراءة منه » الحديث ، ولابن ماجه عن جابر رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ « إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله » ولأبن عبيد عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابيين . وسيجىء قوم من بعدى يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم » . وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا موسى ، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » ففى جميع هذه الأحاديث التصريح باضافة الصوت والألحان والتغنى إلى العبد لأنه عمله ، والقرآن المؤدى بذلك الصوت هو كلام الله حقيقة ، وكذلك المهارة بالقرآن والتتعتع فيه هو فعل العبد وسعيه لما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » وهذا الفرق واضح ولله الحمد وعليه أهل السنة والحديث كأحمد بن حنبل وأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى وغيرهما رحمهم الله تعالى ، ولو كان الصوت هو نفس المتلو المؤدى به كما يقوله أهل الاتحاد لكان كل من سمع القرآن من أى تال وبأى صوت كليم الرحمن فلا مزية لموسى عليه السلام على غيره ، اللهم لك الحمد ربنا ، لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

(مسألة) . اشتهر عن السلف الصالح كأحمد بن حنبل وهارون الفروى وجماعة أئمة الحديث أن اللفظية جهمية، واللفظية هم من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، قال أئمة السنة رحمهم الله تعالى : ومن قال لفظى بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع ، يعنون غير بدعية الجهمية ، وذلك لأن اللفظ يطلق على معنيين : أحدهما الملفوظ به وهو القرآن وهو كلام الله ليس فعلا للعبد ولا مقدوراً له ، والثانى التلفظ وهو فعل العبد وكسبه وسعيه ، فإذا أطلق لفظ الخلق على المعنى الثانى شمل الأول وهو قول الجهمية ، وإذا عكس الأمر بأن قال لفظى بالقرآن غير مخلوق شمل المعنى الثانى وهى بدعة أخرى من بدع الاتحادية ، وهذا ظاهر عند كل عاقل ، فإنك إذا سمعت رجلا يقرأ (قل هو الله أحد) تقول هذا لفظ سورة الإخلاص ، وتقول هذا لفظ فلان بسورة الإخلاص ، إذ اللفظ معنى مشترك بين التلفظ الذى هو فعل العبد ، وبين الملفوظ به الذى هو كلام الله عز وجل . وهذا بخلاف ما ذكر السلف بقولهم : الصوت صوت القارىء والكلام كلام البارى ، فإن الصوت معنى خاص بفعل العبد لا يتناول المتلوّ المؤدّى بالصوت البته ، ولا يصلح أن تقول هذا صوت

قل هو الله أحد ولا يقول ذلك عاقل ، وإنما تقول هذا صوت فلان يقرأ قل هو الله أحد ونحو ذلك . نعم ، إذا سمع كلام الله عز وجل منه تعالى بدون واسطة كسماع موسى عليه الصلاة والسلام وسماع جبريل عليه السلام وسماع أهل الجنة كلامه منه عز وجل فحينئذ التلاوة والمتلو صفة البارى عز وجل ليس منها شيء مخلوق . تعالى الله علواً كبيراً .

(ما قاله لا يقبل التبديلا) قال الله تعالى (ما يبدل القول لدى) وقال تعالى (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) وقال تعالى (وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم) وقال تعالى (لا تبديل لكلمات الله) .

(كلا) أى لا يكون ذلك (ولا أصدق منه) أى من الله تعالى (قيلا) أى قولا. وهو تمييز محول عن اسم لا ، والتقدير لا قيل أصدق من قيله ، قال الله تبارك وتعالى (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً) وقال تعالى فى الآية الأخرى (ومن أصدق من الله قيلا) أى من أصدق من الله تعالى فى حديثه وخبره ووعده ووعيده ؟ والجواب : لا أحد . وفى خطبة رسول الله ﷺ قال « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ » الحديث .

وقد روى الثقات عن خير الملا	بأنه عز وجل وعلا
فى ثلث الليل الأخير ينزل	يقول هل من تائب فيقبل
هل من مسىء طالب للمغفرة	يجد كريماً قابلا للمعذرة
يمن بالخيرات والفضائل	ويستر العيب ويعطى السائل

أى ومما يجب الإيمان به وإثباته وإمراره كما جاء صفة النزول للرب عز وجل كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة المشهورة عن فضلاء الصحابة كأبى بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وجبير بن مطعم ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن مسعود ، وعمر بن عبسة ، ورفاعة الجهنى ، وعثمان بن أبى العاص الثقفى ، وأبى الدرداء ، وابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وأبى الخطاب ، وعمر بن عامر السلمى . وغيرهم رضى الله عنهم .

فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ينزل الله ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس إلا إنسان فى قلبه شحناء أو شرك » رواه جماعة عن ابن وهب .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لولا أن أشق على أمتى لأخرت العشاء الأخرة إلى ثلث الليل فإنه إذا مضى ثلث الليل هبط الله عز وجل إلى سماء الدنيا لم يزل بها حتى يطلع الفجر فيقول : ألا سائل يعطى ، ألا داع فيجاب ، ألا مذنب يستغفر فيغفر له ، ألا سقيم يستشفى فيشفى » رواه الطبرانى فى السنة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول من يدعونى فأستجيب له . من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له » أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله يمهل ، حتى إذا كان ثلث الليل هبط إلى السماء الدنيا فنادى : هل من مذنب يتوب . هل من مستغفر . هل من سائل » وفى مسند أحمد رحمه الله تعالى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ينزل الله كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له » وحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى النزول قد تعددت طرقه فى الصحيحين وسائر الأمهات ، وقد ساقه إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة فى كتاب التوحيد من أكثر من ثلاثين طريقاً عن أبى هريرة رضى الله عنه إلى النبى ﷺ وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا وله فى كل سماء كرسى ، فإذا نزل إلى سماء الدنيا جلس على كرسيه ثم مد ساعديه فيقول : من ذا الذى يقرض غير عديم ولا ظلوم ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، من ذا الذى يتوب فأتوب عليه . فإذا كان عند الصبح ارتفع فجلس على كرسيه » رواه ابن منده قال وله أصل مرسل . وعن جبير ابن مطعم رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول جل جلاله : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له » حديث صحيح رواه النسائى وأبو الوليد الطيالسى . وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا لثلث الليل فيقول : ألا عبد من عبيدى يدعونى فأستجيب له ، أو ظالم لنفسه يدعونى فأغفر له ، ألا مقتر عليه رزقه ، ألا مظلوم يستنصرنى فأنصره، ألا عان يدعونى فأفك عنه ، فيكون ذلك مكانه حتى يفيء الفجر ، ثم يعلو ربنا عز وجل إلى السماء العليا على كرسيه » رواه الدارقطنى . وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله تعالى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى السماء الدنيا ثم بسط يده فقال : من يسألنى فأعطيه ، حتى يطلع الفجر » حديث حسن رواه أحمد فى

مسنده ورجاله أئمه ، ورواه أبو معاوية بلفظ « إن الله تعالى يفتح أبواب السماء ثم يهبط إلى السماء الدنيا ، ثم يبسط يده فيقول : ألا عبد يسألنى فأعطيه ، حتى يطلع الفجر » وعن رفاعة الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل نزل الله إلى سماء الدنيا فقال : لا أسأل عن عبادى غيرى من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ، من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، حتى ينفجر الفجر » حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده . وعن عثمان بن أبى العاص الثقفى رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ينزل الله إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول : هل من داع فأستجيب له ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له . وأن داود خرج ذات ليلة فقال : لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، إلا أن يكون ساحراً أو عشاراً » رواه الإمام أحمد بنحوه ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل الله تبارك وتعالى فى آخر ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر فى الساعة الأولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه غيره . فيمحو ما يشاء ويثبت . ثم ينظر فى الساعة الثانية فى جنة عدن وهى مسكنه الذى يسكن ، لا يكون معه فيها إلا الأنبياء والشهداء والصديقون ، وفيها ما لم ير أحد ولم يخطر على قلب بشر . ثم يهبط فى آخر ساعة من الليل يقول ألا مستغفر فأغفر له ، ألا سائل فأعطيه ، ألا داع فأستجيب له » رواه عثمان بن سعيد الدارمى . وروى موسى بن عقبة عن إسحاق بن يحيى بن الوليد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : ألا عبد يدعونى فأستجيب له ، ألا ظالم لنفسه يدعونى فأقبله . فيكون كذلك إلى مطلع الصبح ويعلو على كرسيه » . وعن أبى الخطاب رضى الله عنه أنه قال وقد سئل عن الوتر : أحب أوتر نصف الليل ، فإن الله يهبط من السماء السابعة إلى السماء الدنيا فيقول : هل من مذنب هل من مستغفر ، هل من داع ، حتى إذا طلع الفجر ارتفع » رواه محمد بن سعد فى طبقاته . وعن عمرو بن عامر السلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا ذهب ثلث الليل — أو قال نصف الليل — ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول : هل من عان فأفكه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له » رواه ابن منده . وعن عبيد بن السباق أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال « ينزل ربنا من آخر الليل فينادى مناد فى السماء العليا : ألا نزل الخالق العليم . فيخرج أهل السماء وينادى فيهم مناد بذلك . فلا يمر بأهل سماء إلا وهم سجود » رواه أبو داود . وروى أبو اليمان ويحيى بن أبى بكر وعبد

الصمد بن النعمان ويزيد بن هارون . وهذا سياق حديثه ـــ أخبرنا جرير بن عثمان حدثنا سليمان بن عامر عن عمرو بن عبسة قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يارسول الله جعلني الله فداك ، شيء تعلمه وأجهله ينفعني ولا يضرك ، ما ساعة أقرب من ساعة وما ساعة تبقى فيها ؟ يعني الصلاة . فقال « يا عمرو بن عبسة ، لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك . إن الرب تعالى يتدلى من جوف الليل فيغفر ، إلا ما كان من الشرك والبغي . والصلاة مشهودة حتى تطلع الشمس فإنها تطلع على قرن الشيطان وهي صلاة الكفار ، فأقصر عن الصلاة حتى ترتفع الشمس ، فإذا استعلت الشمس فالصلاة مشهودة حتى يعتدل النهار ، فإذا اعتدل النهار فأخر الصلاة فإنها حينئذ تسجر جهنم ، فإذا فاء الفيء فالصلاة مشهودة حتى تدلى للغروب فإنها تعيب بين قرني الشيطان فأقصر عن الصلاة حتى تجب الشمس » وهو في مسلم مطولا . قلت وهذا في معنى قوله تبارك وتعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وفي كتاب السنة للخلال عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا ثلث الليل الأوسط فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ويترك أهل الحقد لحقدهم » وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن الله عز وجل ينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل يفتح الذكر في الساعة الأولى لم يره أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ولا يسكنها من بني آدم غير ثلاثة : النبيين والصديقين والشهداء ، ثم يقول : طوبى لمن دخلك . ثم ينزل في الساعة الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملائكته فينتفض فيقول : قيومي بعزتي . ثم يطلع إلى عباده فيقول : هل من مستغفر أغفر له ، هل من داع أجيبه ، حتى تكون صلاة الفجر » وكذلك يقول (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) فيشهده الله وملائكة الليل والنهار . رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ، وقد تقدم تقريباً بغير هذا اللفظ . وله عن القاسم بن محمد عن أبيه ـــ أو عمه ـــ عن جده رسول الله ﷺ أنه قال « ينزل الله عز وجل ليلة النصف فيغفر للمؤمنين » الحديث رواه ابن زنجوية . وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان ليلة النصف من شعبان هبط الله إلى سماء الدنيا فيغفر لأهل الأرض إلا لكافر أو مشاحن » رواه محمد بن الفضل البخاري . وعن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول « ينزل

ربه إلى سماء الدنيا فى النصف من شعبان فيغفر لأهل الأرض إلا لكافر أو مشاحن » .
قلت ولا منافاة بين أحاديث تخصيص النزول بليلة النصف من شعبان وبين الأحاديث القاضية أنه فى كل ليلة فان النزول فى ليلة النصف من شعبان مطلق والنزول فى كل ليلة مقيد بالنصف فى لفظ وبالثلث فى آخر ، على أنه ليس فى تخصيص النزول بنصف شعبان نفى له فيما عداها ، والأحاديث التى فيها النزول كل ليلة أكثر وأشهر وأصح بلا شك ولا مرية . وقد ثبت النزول أيضاً فى عشية عرفة كما روى ابن أبى حاتم من حديث أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ « إذا كان يوم عرفة فان الله ينزل إلى سماء الدنيا فيباهى بهم الملائكة فيقول « انظروا إلى عبادى ، أتونى شعثاً غبرا ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم » . ورواه الخلال فى السنة من حديث أبى النضر عن أيوب عن أبى الزبير عنه يرفعه « أفضل أيام الدنيا أيام العشر » قالوا يارسول الله ولا مثلهن فى سبيل الله قال « إلا من عفر وجهه فى التراب ، إن عشيه عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا فيقول للملائكة « انظروا إلى عبادى هؤلاء شعثا غبرا جاءوا من كل فج عميق ضاحين يسألونى رحمتى . فلا يرى يوما أكثر عتيقاً ولا عتيقة » وروى خلاد بن يحيى حدثنا عبد الوهاب عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ فجاء رجلان أحدهما أنصارى والآخر ثقفى فذكر الحديث وفيه « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول للملائكة هؤلاء عبادى جاءونى شعثا غبرا من كل فج عميق ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم ذنوبهم » رواه طلحة بن مصرف عن مجاهدبه . وقد روى النزول فى رمضان ، وليس هو نافياً له فى غيره . فروى على بن معبد عن عبيد الله بن عمر عن زيد ابن أبى أنيسة عن طارق عن سعيد بن جبير سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول « إن الله تبارك وتعالى ينزل فى رمضان ، إذا ذهب الثلث الأول من الليل هبط إلى السماء الدنيا ثم قال : هل من سائل يعطى ، هل من مستغفر يغفر له ، هل من تائب يتاب عليه » . وروى عبيد الله بن موسى قال ابن أبى ليلى عن المنهال عن سعيد بن حبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال : « ينزل الله إلى السماء الدنيا فى شهر رمضان يدبر أمر السنة فيمحو ما يشاء غير الشقاوة والسعادة والموت والحياة » وإسناده حسن . وهذا الموقوف له حكم المرفوع عند المحدثين لأنه لا يقال من قبل الرأى . وقد ثبت النزول لفصل القضاء وللتجلى لأهل الجنة كما ستأتى الأحاديث إن شاء الله تعالى فى ذلك .

ونحن نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما فى هذه الأخبار من ذكر نزول

الرب جل وعلا من غير أن نصف الكيفية ، لأن نبينا المصطفى ﷺ لم يصف كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا أنه ينزل ، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه ﷺ بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدقون بما فى هذه الأخبار من ذكر النزول كما يشاء ربنا وعلى ما يليق بجلاله وعظمته عز وجل غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية ، إذ النبى ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول ، فنسير بسير النصوص حيث سارت ونقف معها حيث وقفت لا نعدوها إن شاء الله تعالى ولا نقصر عنها . وقد تكلفت جماعة من مثبتى المتكلمين فخاضوا فى معنى ذلك وفى ذلك الانتقال وعدمه ، وفى خلو العرش منه وعدمه نفياً وإثباتاً وذلك تكلف منهم ، ودخول فيما لا يعنيهم ، وهو ضرب من التكييف لم يأت فى لفظ النصوص ولم يسأل الصحابة النبى ﷺ عن شىء من ذلك حين حدثهم بالنزول ، فنحن نؤمن بذلك ونصدق به كما آمنوا وصدقوا . فان قال لنا متعنت أو متنطع : يلزم من إثبات كذا كيت وكيت فى أى شىء من صفات الله ، قلنا له أنت لا تلزمنا نحن فيما تدعيه وإنما تلزم قائل ذلك وهو رسول الله ﷺ ، فإن كان ذلك لازماً لما قاله حقيقة وجب الإيمان به إذ لازم الحق حق ، وإن لم يك ذلك لازما له فأنت معترض على النبى ﷺ كاذب عليه متقدم بين يديه . وروى البيهقى عن الحاكم عن محمد بن صالح بن هانىء سمع أحمد بن سلمة سمعت إسحاق ابن راهويه يقول : جمعنى وهذا المبتدع ـــ يعنى إبراهيم بن صالح ـــ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر ، فسألنى الأمير عن أخبار النزول فسردتها ، فقال ابن أبى صالح كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء . فقلت آمنت برب يفعل ما يشاء . وقال إسحاق رحمه الله تعالى : دخلت على ابن طاهر فقال ما هذه الأحاديث يروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ؟ قلت نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام . فقال : ينزل ويدع عرشه ؟ فقلت : يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش ؟ قال نعم . قلت فلم تتكلم فى هذا ؟ وقال إسحاق أيضاً قال لى ابن طاهر : يا أبا يعقوب هذا الذى تروونه «ينزل ربنا كل ليلة» كيف ينزل؟ قلت: أعز الله الأمير، لاكيف، إنما ينزل بلا كيف . وقال أحمد بن سعيد الرباطى : حضرت مجلس ابن طاهر وحضر إسحاق ، فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال نعم ، فقال له بعض القواد : كيف ينزل ؟ فقال أثبته فوق حتى أصف لك النزول . فقال الرجل أثبته فوق ، فقال إسحاق قال الله تعالى (وجاء ربك والملك صفا صفاً) فقال ابن طاهر : هذا يا أبا يعقوب يوم القيامة . فقال : ومن يجىء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ ا.هـ . من كتاب العلو .

وهذا الذى قاله إسحاق رحمه الله تعالى هو الذى عليه عامة أهل السنة والجماعة كما قدمنا عنهم فى جميع نصوص الصفات . وأن مذهبهم إمرارها كما جاءت ، والإيمان بها بلا كيف .

وأنــه يجىء بــوم الفصــل كما يشاء للــقضاء العــدل

قال الله تبارك وتعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) وقال تبارك وتعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) وقال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) وقال تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) . وفى حديث الصور المشهور الذى ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ وفيه « إن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاءوا إليه قال : أنا لها أنا لها ، فيذهب فيسجد لله تعالى تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون . قال : وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت . سبوح قدوس الرب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » رواه ابن منده وقال الذهبى اسناده حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة نزل الرب إلى العباد » رواه مسلم . وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يهبط الرب تعالى من السماء السابعة إلى المقام الذى هو قائمه ، ثم يخرج عنق من النار فيظل الخلائق كلهم فيقول : أمرت بكل جبار عنيد ، ومن زعم أنه عزيز كريم ، ومن دعا مع الله إلهاً آخر ، رواه أبو أحمد العسال فى

كتاب السنة . وفى الصحيحين من حديث الشفاعة عن أبى هريرة رضى الله عنه وفيه « يجمع الناس يوم القيامة فيقول : من كا ن يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يتبع الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ــ أو منافقوها ، شك إبراهيم ، يعنى ابن سعد الرواى عن ابن شهاب ــ فيأتيهم الله تعالى فيقول : أنا ربكم . فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا فيتبعونه . ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم » وذكر الحديث بطوله . ولهما نحوه من حديث أبى سعيد ، وفيه « حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ، فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم ، وإنا سمعنا منادياً ينادى ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا ، قال فيأتيهم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا . فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن . ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » وذكر الحديث ، والأحاديث فى هذا كثيرة ، قال الذهبى رحمه الله تعالى : أحاديث نزول البارى متواتره قد سقت طرقها وتكلمت عليها بما أسأل عنه يوم القيامة .

وأنــــه يــــرى بـــلا إنكـــار	فــى جنــة الفـردوس بالابصـار
كــل يـــراه رؤيـــة العيـــان	كمـا أتـى فـى محكـم القـرآن
وفــى حديــث سيــد الأنـــام	من غير ما شك ولا إيهـــــام
رؤيـــة حـــق ليس يمترونهـــا	كالشمس صحوا لا سحاب دونها
وخــص بالرؤيـــة أوليـــاؤه	فضيلـــة وحجبـــوا أعـــداؤه

قال الله تبارك وتعالى (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال تعالى (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) وقال تعالى فى شأن الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فإذا حجب أولياؤه فأى فضيلة لهم على أعدائه ، وقال تعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم) وقال تعالى

(إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون) وهذه الآيات صريحة الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى لا تقبل تحريفا ولا تأويلا ولا يردها إلا مكابر قد ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله .

وقد تواترت الأحاديث بمعنى ما تضمنته هذه الآيات رواها أئمة السنة والحديث فى دواوين الإسلام عن فضلاء الصحابة وأجلائهم : كأبى بكر الصديق ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وجرير بن عبد الله ، وصهيب ، وابن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى موسى ، وأنس ، وبريدة بن الحصيب وأبى رزين ، وجابر بن عبد الله ، وأبى أمامة ، وزيد بن ثابت ، وعمار ابن ياسر ، وعائشة ، وعبد الله بن عمر ، وعمار بن رويبة ، وسلمان الفارسى ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وكعب بن عجرة ، وأبى الدرداء ، وفضالة بن عبيد ، وعدى بن أرطاة ، وأبى موسى الأشعرى وغيرهم رضى الله عنهم . وهذا أوان سردها فألق سمعك وأحضر قلبك ، وتأملها تأمل طالب للحق لا نافر عنه ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وإياك وسوء الظن بكلام الله وكلام رسوله فذلك الهلكة وما ضل من ضل وهلك من هلك إلا لسوء ظنه بالكتاب والسنة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول له ولا قوة إلا به . فعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداة فجلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله ﷺ ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى ، والعصر والمغرب كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الأخيرة ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبى بكر رضى الله عنه : ألا تسأل رسول الله ﷺ ما شأنه ، صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط . قال فسأله فقال : نعم عرض على ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة فجمع الأولون والآخرون فى صعيد واحد فقطع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم ﷺ والعرق يكاد يلجمهم فقالوا : يا آدم أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله عز وجل. اشفع لنا إلى ربك عز وجل . قال لقد لقيت مثل الذى لقيتم ، انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم ، إلى نوح (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) قال فينطلقون إلى نوح ﷺ فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك فى دعائك ولم يدع على الأرض من الكافرين دياراً ، فيقول : ليس ذلكم عندى . انطلقوا إلى إبراهيم ﷺ فإن الله اتخذه خليلا فينطلقون إلى إبراهيم ﷺ فيقول : ليس ذلكم عندى انطلقوا إلى موسى ﷺ فإن الله عز وجل كلمه تكليما ، فيقول موسى ﷺ : ليس ذلكم

عندى ، انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ﷺ فإنه كان يبرىء الأكمه والأرص ويحيى الموتى ، فيقول عيسى : ليس ذلكم عندى انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، انطلقوا إلى محمد ﷺ فليشفع لكم إلى ربكم عز وجل . قال فينطلق فيأتى جبريل ربه تبارك وتعالى فيقول الله عز وجل : ائذن له وبشره بالجنة ، فينطلق به جبريل ﷺ فيخر ساجداً قدر جمعة ويقول الله عز وجل : ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع فيرفع رأسه فإذا نظر إلى وجه ربه عز وجل خر ساجداً قدر جمعة أخرى فيقول الله عز وجل : ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع . قال فيذهب ليضع ساجداً فيأخذ جبريل بضبعيه فيفتح الله عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر قط فيقول أى رب خلقتنى سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه يرد على الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيلة . ثم يقال ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال ادعوا الأنبياء قال فيجىء النبى ومعه العصابة والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى وليس معه أحد ، ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، قال : فاذا فعلت الشهداء ذلك قال فيقول الله عز وجل : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً . قال فيدخلون الجنة . قال ثم يقول الله عز وجل : أنظروا فى أهل النار هل تلقون من عمل خيراً قط ؟ قال فيجدون فى النار رجلا فيقولون له هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أنى كنت أسامح الناس فى البيع . فيقول الله عز وجل : اسمحوا لعبدى بسماحته إلى عبيدى . ثم يخرجون من النار رجلا فيقولون له : هل عملت خيراً قط ؟ فيقول : لا ، غير أنى أمرت ولدى إذا مت فأحرقونى فى النار ثم اطحنونى حتى إذا كنت مثل الكحل فاذهبوا بى إلى البحر فاذرونى فى الريح فوالله لا يقدر علىَّ رب العالمين أبداً . فقال الله عز وجل : لم فعل ذلك ؟ قال من مخافتك . قال فيقول الله عز وجل انظر إلى ملك أعظم ملك فإن لك مثله وعشرة أمثاله ، قال فيقول أتسخر بى وأنت الملك ؟ قال ﷺ وذلك الذى ضحكت منه الضحى » رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن ناساً قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر » قالوا لا يارسول الله ، قال « هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب » قالوا لا ، قال « فانكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تعالى فى صورة غير

صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا عز وجل ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيهم الله عز وجل فى صورته التى يعرفون فيقول : أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ، فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فاكون أنا وأمتى أول من يخير ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا نعم يارسول الله ، قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ومنهم المجازى . فإذا فرغ الله تعالى من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله . فيعرفونهم بأثر السجود وتأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة فيقول : أى رب اصرف وجهى عن النار فإنه قد قشبنى ريحها وأحدقنى ذكاؤها ، فيدعوا الله ماشاء أن يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : هل عسيت إن فعلت ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول لا أسألك غيره ، فيعطى ربه من عهود ومواثيق ماشاء الله فيصرف وجهه عن النار ، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ماشاء الله أن يسكت ، ثم يقول أى رب قدمنى إلى باب الجنة فيقول الله تعالى : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألنى غير الذى أعطيتك ، ويلك ياابن آدم ما أغدرك . فيقول أى رب فيدعو الله حتى يقول له : فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألنى غيره ؟ فيقول لا وعزتك ، فيعطى ربه ماشاء من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة فيرى ما فيها من الخير والسرور ، فسكت ماشاء الله أن يسكت ثم يقول : أى رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألنى غير ما أعطيت ، ويلك ياابن آدم ما أغدرك . فيقول أى رب لا أكون أشقى خلقك . فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله له : تمن . فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره فيقول له تمن كذا وكذا . حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله عز وجل ذلك لك ومثله معه ، قال أبو سعيد وعشره أمثاله معه . قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد مع أبى هريرة لا يرد

عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبو هريرة قال : إن الله عز وجل قال لذلك الرجل ومثله ، قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه ياأبا هريرة ، قال أبو هريرة ما حفظت إلا قوله « ذلك لك ومثله معه » ، قال أبو سعيد : أشهد أنى حفظت من رسول الله ﷺ قوله « ذلك لك وعشرة أمثاله » قال أبو هريرة : وذلك آخر أهل الجنة دخولا الجنة . ولهما عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناساً فى زمن رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ « نعم هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ، وهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب ؟ قالوا لا يارسول الله . قال « ما تضارون فى رؤيته تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبرات أهل الكتاب فتدعى اليهود فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد عزيز ابن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون . قالوا عطشنا ياربنا فاسقنا . فيشار إليهم ألا تردون . فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون فى النار . ثم يقال للنصارى ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله . فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فيقال لهم ماذا تبغون . فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا . فيشار إليهم ألا تردون . فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون فى النار . حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى فى أدنى صورة من التى رأوه فيها . قال فما تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد . قالوا ياربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم . فيقول أنا ربكم . فيقولون نعوذ بالله منكم ولا نشرك بالله شيئا (مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب . فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون نعم . فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم ، فيقولون أنت ربنا . ثم يضرب لهم الجسر على جهنم وتحل الشفاعة . قيل يارسول الله وما الجسر ؟ قال دحض مزلة وخطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شوكية يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق كالريح وكالطير

وكأجاوَيد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس فى نار جهنم . حتى إذا خلِص المؤمنون من النار فو الذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة فى استيفاء الحق من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لا خوانهم الذين فى النار يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون معنا ويحجون ، فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فيحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى أنصاف ساقية وإلى ركبتيه ، فيقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا . فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقولون . ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا ، ثم يقال : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا ، ثم يقال : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً قط . وكان أبو سعيد رضى الله عنه يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو الشجر ما يكون منها إلا الشمس أصيفر وأخيضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض ؟ فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية . قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة . فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين . فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون ياربنا وأى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول تعالى رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » . وفيها عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا جلوساً مع النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشر فقال « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تضامون فى رؤيته . فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا » . وفى صحيح مسلم عن صهيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل تريدون شيئاً أزيدكم ؟ يقولون ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم »

ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) . وللطبرانى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله عز وجل فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى ، ثم ينادى مناد : أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذى خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولى كل أناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون فى الدنيا . أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا بلى ، قال فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون فى الدنيا ، قال فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون: فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر ، وإلى الأوثان من الحجارة وأشباه بما كانوا يعبدون ، قال ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى . ويمثل لمن كان عزيراً شيطان عزير ، ويبقى محمد ﷺ وأمته فيأتيهم الرب عز وجل فيقول : ما بالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس ؟ قال فيقولون : إن لنا إلها ما رأيناه بعد . فيقول : هل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فيقولون إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه . قال فيقول ما هى ؟ فيقولون يكشف عن ساق ، فعند ذلك يكشف عن ساق فيخرون له سجدا ، ويبقى قوم ظهورهم كصياصى البقر يريدون السجود فلا يستطيعون ، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ثم يقول : ارفعوا رءوسكم ، فيرفعون رءوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره على قدر الجبل العظيم يسعى بين أيديهم ومنهم من يعطى نوراً أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نوراً مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى نوراً أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه ، يضىء مرة ويطفأ مرة ، فإذا أضاء قدم قدمه ومشى وإذا طفىء قام ، والرب تبارك وتعالى أمامهم حتى يمر فى النار فيبقى أثره كحد السيف-قال ويقول : مروا ، فيمرون على قدر نورهم ، منهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الفرس ، ومنهم من يمر كشد الرجل ، حتى يمر الذى أعطى نوره على قدر إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه ، تجريد وتعلق يد وتجر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فلا يزال كذلك حتى يخلص ، فإذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله لقد أعطانى الله ما لم يعط أحد إذ نجانى منها بعد أن رأيتها ، قال فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم فيرى ما فى الجنة من خلال الباب فيقول : رب أدخلنى الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أتسأل الجنة وقد

نجيتكم من النار ؟ فيقول : يارب اجعل بينى وبينها حجاباً لا أسمع حسيسها قال فيدخل الجنة . قال ويرى أو يرفع له منزل أمام ذلك كأنما الذى هو فيه إليه حلم ليدخله فيقول : رب أعطنى ذلك المنزل ، فيقول فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره ، فيقول لا وعزتك لا أسأل غيره . وأى منزل يكون أحسن منه . قال فيعطاه فينزله . قال ويرى أو يرفع له أمام ذلك منزل آخر ليدخله فيقول : أى رب أعطنى ذلك المنزل ، فيقول الله عز وجل : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره . قال : لا وعزتك لا أسأل غيره ، وأى منزل يكون أحسن منه . قال فيعطاه فينزله . قال ويرى أو يرفع له أمام ذلك منزل آخر كأنما الذى هو فيه إليه حلم فيقول : رب أعطنى ذلك المنزل . فيقول الله جلَّ جلاله : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره . قال لا وعزتك لا أسأل غيره ، وأى منزل يكون أحسن منه ؟ قال فيعطاه فينزله ثم يسكت . فيقول الله عز وجل : مالك لا تسأل ؟ فيقول : رب قد سألتك حتى استحييتك وأقسمت لك حتى استحييتك ، فيقول الله عز وجل : ألا ترضى أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه . فيقول : أتستهزىء بى وأنت رب العزة ؟ فيضحك الرب عز وجل من قوله . قال فرأيت عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك . فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن قد سمعتك تحدث بهذا الحديث مراراً كلما بلغت هذا المكان من هذا الحديث ضحكت . فقال إنى سمعت رسول الله ﷺ يحدث بهذا الحديث مراراً كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه . قال فيقول الرب عز وجل : لا ولكنى على ذلك قادر ، سل . فيقول : ألحقنى بالناس . فيقول الحق بالناس . قال فينطلق برمل فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجداً ، فيقال له : ارفع رأسك مالك ؟ فيقول : رأيت ربى ، أو تراءى لى ربى . فيقال : إنما هو منزل من منازلك ، قال ثم يلقى فيها رجلا فيتهيأ للسجود فيقال له مه . فيقول رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول له : إنما أنا خازن من خزانك ، عبد من عبيدك ، تحت يدى ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه . قال فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، قال وهو فى درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى ، فى كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها ، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينه سبعين ضعفاً عما كانت قبل ذلك . فيقول لها : والله لقد ازددت فى عينى سبعين

ضعفاً ، فتقول له : والله والله وأنت لقد ازددت فى عينى سبعين ضعفاً . فيقال له : أشرف قال فيشرف ، فيقال له ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصره » قال فقال عمر رضى الله عنه : ألا تسمع إلى ما يحدثنا ابن أم عبد يا كعب عن أدنى أهل الجنة منزلا ، فكيف أعلاهم ؟ قال كعب : يا أمير المؤمنين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، إن الله عز وجل جعل داراً فيها ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة . ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه لا جبريل ولا غيره من الملائكة . ثم قرأ كعب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قال : وخلق دون ذلك جنتين وزينهما بما شاء وأراهما من شاء من خلقه . ثم قال من كان كتابه فى عليين نزل تلك الدار التى لم يرها أحد ، حتى إن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير فى ملكه فلا تبقى خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه فيستبشرون بريحه فيقولون : واها لهذه الريح ، هذا رجل من أهل عليين قد خرج يسير فى ملكه . فقال : ويحك يا كعب هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها . فقال كعب : والذى نفسى بيده إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما يبقى من ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا يخر لركبتيه ، حتى إن إبراهيم خليل الله يقول : « رب نفسى نفسى » حتى لو كان لك عمل سبعين نبياً إلى عملك لظننت أنك لا تنجو » . قال ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا حديث كبير حسن رواه المصنفون فى السنة كعبد الله بن أحمد والطبرانى والدارقطنى رحمهم الله تعالى . وروى يعقوب بن سفيان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى فى كل جمعة » وذكر ما يعطون قال « ثم يقول الله تبارك وتعالى : اكشفوا حجاباً ، فيكشف حجاب ثم حجاب ، ثم يتجلى لهم تبارك وتعالى عن وجهه فكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك ، وهو قوله تبارك وتعالى (ولدينا مزيد) وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » . ولأحمد عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله عز وجل الأمم فى صعيد واحد يوم القيامة ، فإذا بدا لله عز وجل أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحموهم النار ، ثم يأتينا ربنا عز وجل ونحن على مكان رفيع فيقول : من أنتم ؟ فنقول : نحن المسلمون ، فيقول ما تنتظرون ؟ فنقول ننتظر ربنا عز وجل ، فيقول وهل تعرفونه إن رأيتموه ؟ فنقول نعم إنه لا عدل له ، فيتجلى لنا ضاحكاً فيقول : أبشروا يا معشر

المسلمين ، فإنه ليس منكم أحد إلا جعلت فى النار يهودياً أو نصرانياً مكانه » وفى رواية « يتجلى لنا ربنا عز وجل ضاحكاً يوم القيامة » . وللدار قطنى عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يبعث الله يوم القيامة منادياً بصوت يسمعه أولهم وآخرهم : إن الله عز وجل وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه عز وجل » رواه الإمام أحمد وابن وهب . وفى صحيح البخارى عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتى إليه رجل فشكى إليه الفاقة . ثم أتى إليه آخر فشكا إليه قطع السبيل . فقال يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها . قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله عز وجل — قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعارطى الذين سعروا البلاد — ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت كسرى بن هرمز ؟ قال كسرى بن هرمز . ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه . وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقولن ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول بلى يارب . فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم . قال عدى بن حاتم سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة . قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز . ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى ﷺ وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك — وفى لفظ فيلهمون لذلك — فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا عز وجل حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها . ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله عز وجل . قال فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ، ولكن ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا . فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ، ولكن ائتوا موسى الذى كلمه الله تكليما وأعطاه التوراة . فيأتون موسى فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحيى ربه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله

وكلمته ، فيقول :لست هناكم ولكن ائتوا محمدا ﷺ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال : قال رسول الله ﷺ فيأتون فأستأذن على ربى فيأذن لى ، فإذا أنا رأيته فأقع له ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، فيقال : يامحمدا ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ، ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . ثم أعود فأقع ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال : أرفع رأسك يامحمد ، قل تسمع وسل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة . قال فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة قال فأقول : يارب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن » أى وجب عليه الخلود ، وفى رواية لابن خزيمة « يلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوه من الحبس ، فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا ـــ فذكر الحديث إلى أن قال ـــ فينطلقون إلى محمد ﷺ فأقول : أنا لها ، فأنطلق حتى أستفتح باب الجنة فيفتح لى فأدخل وربى على عرشه فأخر ساجداً » وذكر الحديث ، وفى رواية « فأستأذن على ربى فإذا رأيته وقعت ساجداً » وفى رواية « فآتى ربى وهو على سريره ـــ أو كرسيه ـــ فأخر له ساجداً » وساقه ابن خزيمة بسياق طويل وقال فيه « فأستفتح ، فإذا نظرت إلى الرحمن وقعت له ساجداً » وفى حديث أبى هريرة « آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لى فيستقبلنى وجه الجبار جل جلاله فأخر له ساجداً » . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : « النظر إلى وجه الله عز وجل » . وله عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أتانى جبريل عليه السلام وفى كفه كالمرآة البيضاء يحملها فيها كالنكتة السوداء . فقلت ما هذه التى فى يدك ياجبريل ؟ قال هذه الجمعة . قلت وما الجمعة ؟ قال لكم فيها خيراً كثيراً ، قلت وما يكون لنا فيها ؟ قال يكون عيداً لك ولقومك من بعدك ، ويكون اليهود والنصارى تبعاً لكم . قلت وما لنا فيها ؟ قال لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئاً هو له قسم إلا أعطاه إياه ، أو ليس له بقسم إلا ذخر له فى آخرته ما هو أعظم منه . قلت ما هذه النكتة التى فيها ؟ قال هى الساعة . ونحن ندعوه يوم المزيد . قلت وما ذاك يا جبريل ؟ قال إن ربك اتخذ فى الجنة وادياً فيه كثبان من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكرسى بكراسى من نور فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسى ويحف الكراسى بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجواهر ، ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على

تلك المنابر ، ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان ثم يتجلى لهم عز وجل فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى ، فسلونى ، فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم فيفتح لهم فى ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك بمقدار منصرفكم من الجمعة . ثم يرتفع على كرسيه عز وجل ويرتفع معه النبيون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهى لؤلؤة بيضاء وزبرجده خضراء وياقوتة حمراء ، غرفها وأبوابها وأنهارها مطردة فيها وأزواجها وخدامها وثمارها متدليات فيها ، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا نظراً إلى ربهم ويزدادوا منه كرامة ، هذا حديث كبير عظيم الشأن رواه أئمة السنة وتلقوه بالقبول ، وجمل به الشافعى مسنده . ورواه محمد بن إسحاق وعمرو بن أبى قيس ، وفيه « فإذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حف الكراسى بمنابر من نور ، فيجىء النبيون حتى يجلسوا عليها ، ويجىء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكثب . قال : ثم يتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى فينظرون إليه فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى . وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى ، سلونى . فيسألونه الرضا . قال : رضاى أنزلكم دارى وأنا لكم كرامتى . سلونى . فيسألونه الرضا قال فيشهدهم بالرضا . ثم يسألونه حتى تنتهى رغبتهم » . وذكر الحديث . ورواه على بن حرب والحسن بن عرفة وفى روايته « ثم يرتفع على كرسيه ويرتفع معه النبيون والصديقون والشهداء ، ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم » ورواه الدارقطنى أيضاً من طريق آخر عن أنس رضى الله عنه قال : بينا نحن حول رسول الله ﷺ إذ قال « أتانى جبريل فى يده كالمرآة البيضاء فى وسطها كالنكتة السوداء ، قلت ياجبريل ما هذا ؟ قال : هذا يوم الجمعة يعرضه عليك ربك ليكون لك عيداً ولأمتك من بعدك . قال قلت : ياجبريل ما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هى الساعة ، وهى تقوم يوم الجمعة وهو سيد أيام الدنيا ونحن ندعوه فى الجنة يوم المزيد . قال قلت : ياجبريل ولم تدعونه يوم المزيد ؟ قال : إن الله اتخذ فى الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة نزل ربنا عز وجل على كرسيه أعلى ذلك الوادى وقد حف الكرسى بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر وقد حفت تلك المنابر بكراسى من نور ، ثم يؤذن لأهل الغرف فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب السندس والحرير حتى ينتهوا إلى ذلك الوادى ، فإذا اطمأنوا فيه جلوساً بعث الله عز وجل عليهم ريحاً يقال لها المثيرة فأثارت ينابيع المسك الأبيض فى وجوههم وثيابهم ، وهم يومئذ جرد مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة على

صورة آدم يوم خلقه الله عز وجل ، فينادى رب العزة تبارك وتعالى رضوانا ـــ وهو خازن الجنة ـــ فيقول : يارضوان ارفع الحجب بينى وبين عبادى وزوارى . فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هموا له بالسجود ، فيناديهم تبارك وتعالى بصوته : ارفعوا رءوسكم فإنما كانت العبادة فى الدنيا وأنتم اليوم فى دار الجزاء . ساونى ما شئتم ، فأنا ربكم الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، فهذا محل كرامتى ، فسلونى ما شئتم ، فيقولون : ربنا وأى خير لم تفعله بنا ، ألست أعنتنا على سكرات الموت ، وآنست منا الوحشة فى ظلمات القبور ، وآمنت وحشتنا عند النفخة فى الصور ؟ ألست أقلت عثراتنا ، وسترت علينا القبيح من فعلنا ، وثبت على جسر جهنم أقدامنا ؟ ألست الذى أدنيتنا من جوارك ، وأسمعتنا لذاذة منطقك ، وتجليت لنا بنورك ؟ فأى خير لم تفعله بنا ؟ فنعود بالله عز وجل . فيناديهم بصوته : أنا ربكم الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى . فسلونى . فيقولون : نسألك رضاك ، فيقول تعالى : برضائى عنكم أقلتكم عثراتكم وسترت عليكم القبيح من أموركم وأدنيت منى جواركم وأسمعتكم لذاذة منطقى وتجليت لكم بنورى ، فهذا محل كرامتى ، فسلونى ، فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم . ثم يقول عز وجل : سلونى ، فيقولون : رضينا ربنا وسلمنا ، فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويكون ذلك مقدار تفرقهم من الجمعة . قال أنس رضى الله عنه فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، وما مقدار تفرقهم ؟ قال: كقدر الجمعة الى الجمعة.قال ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى معهم الملائكة والنبيون،ثم يؤذن لأهل الغرف فيعودون إلى غرفهم وهما غرفتان من زمردتين خضراوين وليسوا إلى شىء أشوق منهم إلى الجمعة لينظروا إلى ربهم تبارك وتعالى وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته » . قال أنس رضى الله عنه : سمعته من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه أحد . ورواه أيضاً من طريق آخر . ورواه أبو بكر بن أبى شيبة وأبو بكر بن خزيمة وابن بطة فى الإبانة وغيرهم وقد جمع ابن أبى داود طرقه . وللإمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة عن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان » . وللامام أحمد وأبى داود عن أبى رزين رضى الله عنه قال : قلنا يارسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ قال « نعم » قلت وما آية ذلك فى خلقه قال « أليس كلكم ينظر إلى القمر ليلة البدر ؟ قلنا نعم ، قال « الله أكبر وأعظم » . وللامام أحمد عن جابر رضى الله عنه وقد سئل عن الورود فقال : نحن يوم القيامة على كذا

وكذا . أى فوق الناس فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول ومن تنتظرون ؟ فيقولون ننتظر ربنا عز وجل ، فيقول أنا ربكم فيقولون حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى ويضحك . قال فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ، ثم يتبعونه على جسر جهنم وعليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ، ثم يطفأ نور المنافق ثم ينجو المؤمنون فينجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر وسبعون ألفاً لا يحاسبون ، ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم فى السماء ، ثم كذلك ، ثم تحل الشفاعة حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء فى السيل ويذهب حراقه ، ثم يسأل حتى يجعل الله له الدنيا وعشرة أمثالها معها » ورواه مسلم فى صحيحه . وفى رواية « نحن يوم القيامة على تل مشرفين على الخلائق » ذكرها عبد الحق فى الجمع بين الصحيحين . ولعبد الرزاق عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ينظرون إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول : ارفعوا رءوسكم فليس هذا بيوم عبادة » . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يتجلى لنا ربنا عز وجل يوم القيامة ضاحكاً » . ولأبى قرة عنه رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول « إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم » فذكر الحديث وفيه « فيقول أتعرفون الله عز وجل إن رأيتموه؟ فيقولون : نعم . فيقول وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون نعم أنه لا عدل له . فيتجلى تبارك وتعالى فيخرون له سجداً » . وفى سنن ابن ماجه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال تعالى : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وهو قوله عز وجل (سلام قولا من رب رحيم) فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره . وللبيهقى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة فى مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف ، فقال تعالى : يا أهل الجنة سلونى . قالوا : نسألك الرضا عنا . قال تعالى : رضائى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى ، هذا أوانها فسلونى . قالوا: نسألك الزيادة . قال فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر أزمتها زمرد أخضر وياقوت أحمر فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها فيأمر الله بأشجار عليها الثمار . فتجىء جوارى الحور العين وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نباس ونحن الخالدات

فلا نموت أزواج قوم مؤمنين كرام ، ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر فتثير عليهم ريحاً يقال لها المثيرة حتى تنتهى بهم إلى جنة عدن وهى قصبة الجنة ، فتقول الملائكة : يارينا قد جاء القوم ، فيقول : مرحباً بالصادقين ومرحباً بالطائعين . قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تبارك وتعالى ويتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضا . ثم يقول : أرجعوهم إلى القصور بالتحف ، فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضا » فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله تعالى (نزلا من غفور رحيم) رواه فى كتاب البعث والنشور وفى كتاب الرؤية . وللدارقطنى عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبى بكر خاصة » . ولابن وهب والدارقطنى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فكان أكثر خطبته ذكر الدجال يحذرنا منه ويحدثنا عنه ، حتى فرغ من خطبته ، فكان فيما قال لنا يومئذ « إن الله عز وجل لم يبعث نبياً إلا حذره أمته ، وإنى آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة . فإن يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج كل مسلم ، وإن يخرج فيكم بعدى فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، إنه يخرج من خلة بين العراق والشام عاث يميناً وعاث شمالا : ياعباد الله اثبتوا . وإنه يبدأ فيقول : أنا نبى ولا نبى بعدى . ثم يثنى فيقول : أنا ربكم ، ولن تروا ربكم حتى تموتوا ، وإنه مكتوب بين عينيه « كافر » يقرأه كل مؤمن ، من لقيه منكم فليتفل فى وجهه وليقرأ فواتح سورة الكهف . وإنه يسلط على نفس من بنى آدم فيقتلها ثم يحييها ، وإنه لا يعدو ذلك ، ولا يسلط على نفس غيرها . وإن من فتنته أن معه جنة وناراً ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليغمض عينه وليستغيث بالله تكن برداً وسلاماً كما كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وإن أيامه أربعون يوماً : يوماً كسنة ويوماً كشهر ويوماً كجمعة ويوماً كالأيام وآخر أيامه كالسراب ، يصبح الرجل عند باب المدينة فيمسى قبل أن يبلغ بابها الآخر » قالوا فكيف نصلى يارسول الله فى تلك الأيام ؟ قال « تقدرون كما تقدرون فى الأيام الطوال » . وللامام أحمد وأبى داود عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال « قل حين تصبح : لبيك اللهم لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، ومنك وإليك ، اللهم وما قلت من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شىء قدير . اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى

مسلماً وألحقنى بالصالحين ، أسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . أعوذ بك اللهم أن أَظلم أو أُظلم أو أعتدى أو يعتدى على أو أكسب خطيئة محبطة أو دنباً لا تغفره . اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، ذا الجلال والإكرام . فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا وأشهدك وكفى بك شهيدا ، أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شىء قدير . وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق . وأن لقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها . وأنت تبعث من فى القبور ، وأشهد أنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإنى لا أثق إلا برحمتك ، فاغفر لى ذنبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وتب على إنك أنت التواب الرحيم » . وللامام أحمد وابن حبان والحاكم فى صحيحهما عن أبى مجلز قال : صلى بنا عمار رضى الله عنه صلاة فأوجز فيها ، فأنكروا ذلك ، فقال : ألم أتم الركوع والسجود ؟ قالوا بلى . قال : أما إنى قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى . وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة . وكلمة الحق فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » .

وأخرجه بن خزيمة فى كتاب التوحيد وفى صحيح الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ لجابر « ياجابر . ألا أبشرك ؟ قال بلى بشرك الله بخير . قالت شعرت أن الله أحيا أباك ، قال فأقعده بين يديه فقال : تمنّ على عبدى ما شئت أعطكه قال يارب ما عبدتك حق عبادتك . أتمنى عليك أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى ، قال تعالى : إنه قد سلف منى أنك إليها لا ترجع » وهو فى المسند من حديث جابر وللترمذى عنه رضى الله عنه قال : لما قتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد قال رسول الله ﷺ : ياجابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟ قال بلى . قال : ما كلم الله عز وجل أحداً من وراء حجاب وكلم أباك كفاحاً فقال : ياعبدى تمنّ على أعطك ، قال يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية ، قال إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فأبلغ من ورائى . فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) الآية . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . قلت وإسناده صحيح .

وللترمذى والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل ينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وسرره وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة من ينظر إلى وجه الله تبارك وتعالى كل يوم مرتين » . وفى رواية ابن عرفة : ثم قرأ رسول الله ﷺ (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ، وفى رواية سعيد بن هشيم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين إلى الله تبارك وتعالى » ورواه الدارقطنى . وله عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ألا أخبركم بأسفل أهل الجنة » ؟ قالوا بلى يارسول الله ، فذكر الحديث الى أن قال « حتى إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه أشرف الرب تبارك وتعالى عليهم فينظرون إلى وجه الرحمن عز وجل فيقول : ياأهل الجنة ، هللونى وكبرونى وسبحونى بما كنتم تهللونى وتكبرونى وتسبحونى فى دار الدنيا ، فيتجاوبون بتهليل الرحمن ، فيقول تبارك وتعالى لداود : ياداود قم فمجدنى ، فيقوم داود فيمجد ربه عز وجل » . وروى عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على المريسى عن ابن عمر رضى الله عنهما يرفعه إلى النبى ﷺ « إن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نُعيم أفضل منه تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الرحمن عز وجل فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن عز وجل » . وقال الترمذى رحمه الله : حدثنا محمد بن إسماعيل أخبرنا هشام بن عمار أخبرنا عبد الحميد بن حبيب بن أبى العشرين أخبرنا الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب أنه لقى أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة : أتسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة . فقال سعيد : أفيها سوق ؟ قال : نعم ، أخبرنى رسول الله ﷺ « أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم — وما فيهم من دنىء — على كثبان المسك والكافور . وما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلساً . قال أبو هريرة : قلت يارسول الله ، وهل نرى ربنا . قال نعم ، هل تتمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا . قال : كذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم ، ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله تعالى محاضرة حتى يقول للرجل منهم : يافلان ابن فلان أتذكر يوم قلت كذا وكذا ؟ فيذكره ببعض غدراته فى الدنيا ، فيقول : يارب أفلم تغفر لى ؟ فيقول : بلى

فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه . فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ويقول ربنا عز وجل : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم . فنأتى سوقا قد حفت به الملائكة فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب فيحمل إلينا ما اشتهينا ليس يباع فيها ولا يشترى . وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً . قال فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه ، وما فيهم دنىء ، فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتخيل إليه ما هو أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها . ثم ننصرف إلى منازلنا فتتلقانا أزواجنا فيقلن : مرحباً وأهلا ، لقد جئت وإن لك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه . فنقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، ويحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا » هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قلت : ابن أبى العشرين كاتب الأوازعى . قال أحمد وأبو حاتم ثقة ، وقال النسائى ليس بذاك القوى ، وقال البخارى ربما يخالف فى حديثه ، وفى التقريب صدوق ربما أخطأ ، وأما بقية رجاله فلا يسأل عنهم ورواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا وابن أبى عاصم . ولا بن بطة عن عمار بن رويبة رضى الله عنه قال : نظر النبى ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر . لا تضارون فى رؤيته ، فان استطعتم على أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا » . وفى رواية له عنه قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم تبارك وتعالى كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته . فان استطعتم أن لا تغلبوا على ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبهـا فافعلوا » . ولأبى معاوية عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال « يأتون النبى ﷺ فيقولون : يانبى الله إن الله فتح بك وختم بك وغفر لك ، قم فاشفع لنا إلى ربك فيقول : نعم أنا صاحبكم . فيخرج يحوش الناس حتى ينتهى إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة الباب فيقرع ،فيقال من هذا ؟ فيقول محمد ﷺ ، قال فيفتح له فيجئ حتى يقوم بين يدى الله عز وجل فيستأذن فى السجود فيؤذن له » الحديث . ولابن بطة والبزار عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل فإذا فى كفه مرآة كأصفى المرايا وأحسنها وإذا فى وسطها نكتة سوداء قال : قلت ياجبريل ماهذه ؟ قال : هذه الدنيا صفاؤها وحسنها . قال : قلت وماهذه اللمعة فى وسطها ؟ قال : هذه الجمعة . قال : قلت وما الجمعة ؟ قال يوم من أيام ربك عظيم وسأخبرك بشرفه وفضله واسمه فى الآخرة . أما شرفه وفضله فى الدنيا فإن الله تعالى جمع فيه

أمر الخلق . وأما ما يرجى فيه فإن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة مسلمة يسألان الله فيها خيراً إلا أعطاهما إياه . وأما شرفه وفضله واسمه فى الآخرة فان الله تبارك وتعالى إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وجرت عليهم أيامها وساعاتها ليس بها ليل ولا نهار إلا قد علم الله مقدار ذلك وساعاته فإذا كان يوم الجمعة فى الحين الذى يبرز أو يخرج فيه أهل الجنة إلى جمعتهم نادى مناد : ياأهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد لا يعلم سعته وعرضه وطوله إلا الله تعالى فى كثبان من المسك . قال فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور . ويخرج غلمان المؤمنين بكراسى من ياقوت . قال فإذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم بعث الله تبارك وتعالى ريحاً تدعى المثيرة تثير عليهم آثار المسك الأبيض تدخله من تحت ثيابهم وتخرجه فى وجوههم وأشعارهم ، فتلك الريح أعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها ذلك الطيب بإذن الله تعالى . قال ثم يوحى الله سبحانه وتعالى إلى حملة العرش فيوضع بين ظهرانى الجنة وبينه وبينهم الحجب ، فيكون أول ما يسمعون منه أن يقول : أين عبادى الذين أطاعونى فى الغيب ولم يرونى وصدقوا رسلى واتبعوا أمرى ؟ فسلونى فهذا يوم المزيد . قال فيجتمعون على كلمة واحدة : ربنا رضينا عنك فارض عنا . قال فيرجع الله تعالى فى قولهم أن ياأهل الجنة لو لم أرض عنكم لما أسكنتكم جنتى ، فهذا يوم المزيد فسلونى ، قال فيجتمعون على كلمة واحدة : رب وجهك ، رب وجهك ، أرنا ننظر إليه . قال فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره شىء لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا لاحترقوا مما غشيهم من نوره . قال ثم يقال ارجعوا إلى منازلكم قال فيرجعون إلى منازلهم وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره ، فإذا صاروا إلى منازلهم يزاد النور وأمكن . ويزاد وأمكن . حتى يرجعون إلى صورهم التى كانوا عليها قال فيقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ، قال فيقولون : ذلك بأن الله تجلى لنا فنظرنا منه إلى ما خفينا به عليكن . قال فلهم فى كل سبعة أيام الضعف على ماكانوا فيه ، قال وذلك قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء مما كانوا يعملون) . ولابن مهدى عنه رضى الله عنه فى قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : النظر إلى وجه الله عز وجل . قال الحاكم رحمه الله تعالى وتفسير الصحابى عندنا فى حكم المرفوع . ولابن خزيمة عن أبى نضرة قال : خطبنا بن عباس رضى الله عنه فقال : قال رسول الله ﷺ « ما من نبى إلا وله دعوة تعجلها فى الدنيا ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ، فآتى باب الجنة فآخذ بحلقة الباب

فأقرع الباب فيقال : من أنت ؟ فأقول أنا محمد ، فآتى ربى وهو على كرسيه — أو على سريره — فيتجلى لى ربى فأخر له ساجداً » . ولأبى بكر بن أبى داود عن ابن عباس رضى الله عنهما أيضاً عن النبى ﷺ قال « إن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى فى كل جمعة فى رمال الكافور ، وأقربهم منه مجلساً أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوا » . وللصنعانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : خلق الله الملائكة لعبادته أصنافاً فإن منهم لملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة وملائكة ركوعاً خشوعاً من يوم خلقهم إلى يوم القيامة ، وملائكة سجدوا منذ خلقهم إلى يوم القيامة . فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم تعالى ونظروا إلى وجهه الكريم قالوا : سبحانك ماعبدناك حق عبادتك » . وللدارمى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن فضالة — يعنى ابن عبيد رضى الله عنه — كان يقول : اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . وللامام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا ، إن المسيح الدجال رجل قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتئة ولا حجراء ، فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور ، وأنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا » . وقال الصنعانى حدثنا روح بن عبادة حدثنا عباد بن منصور قال : سمعت عدى بن أرطاة يخطب على المنبر بالمدائن ، فجعل يعظ حتى بكى وأبكى ثم قال : كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه : يابنى أوصيك أن لا تصلى صلاة إلا ظننت أنك لا تصلى بعدها غيرها حتى تموت ، وتعال يابنى نعمل عمل رجلين كأنهما قد وقفا على النار ثم سألا الكرة ، ولقد سمعت فلاناً — نسى عباد اسمه — ما بينى وبين رسول الله ﷺ غيره فقال : إن رسول الله ﷺ قال « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ، ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكاً يسبح لله تعالى . قال : وملائكة سجود منذ خلق السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة . وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة . فاذا كان يوم القيامة وتجلى لهم ربهم فنظروا إليه قالوا : سبحانك ما عبدناك كما ينبغى لنا أن نعبدك » . فثبت بهذه الأحاديث المتواترة الصحيحة الصريحة أن الله عز وجل يرى فى الآخرة كما يشاء ، وأن الشهداء بعد موتهم يرونه ، وأن الملائكة يرونه ، وأن النبى ﷺ يراه عند استئذانه فى الشفاعة ، وأن أمة محمد ﷺ برهم وفاجرهم يرونه فى عرصات القيامة ، وهى للفاجر والمنافق ابتلاء وامتحان ونوع من

العقوبة ، وأما رؤية الفرح والسرور والتلذذ بالنظر إلى وجه الله عز وجل فهى خاصة لأوليائه المؤمنين الذين يؤذن لهم فى السجود ويعطون النور التام على الصراط فيتبعونه ثم يتجلى لهم فى الجنة فيرونه كما يشاء . وهى الزيادة فى يوم المزيد كما فى الآيات السابقة وما فى معناها من الأحاديث التى سردناها ، وقد جاءت أحاديث صحيحة فى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل ، منها حديث أبى موسى وحديث أنس وحديث حذيفة وحديث صهيب ، وقد تقدم ذكرها قريباً . وللدارقطنى عن أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : النظر إلى وجه الله عز وجل . ولابن جرير عنه رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن « الزيادة » فى كتاب الله عز وجل قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال ﷺ « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » . ولابن جرير عن كعب بن عجرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (للذين أحسنُوا الحسنىٰ وزيادة) قال « الزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل جلاله ، ورواه ابن حميد عنه بلفظ « الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى » وللحسن بن عرفة عن أنس رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (للذين أحسنُوا الحسنى وزيادة) قال : للذين أحسنوا العمل فى الدنيا والحسنى وهى الجنة ، والزيادة وهى النظر إلى وجه الله عز وجل » وقد روى تفسير « الزيادة » بالنظر إلى وجه الله عز وجل عن أبى بكر رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وأبى موسى ، وعن عبادة بن الصامت وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم ، وعن التابعين عن سعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعبد الرحمن بن السابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحاق ومقاتل وغيرهم رحمهم الله من السلف والخلف ولولا خشية الاطالة لنقلنا أقوالهم بأسانيده وفيما ذكرنا من المرفوع ، كفاية وبالله التوفيق .

ذكر المنقول عن أصحاب رسول الله ﷺ فى هذا الباب

قال أبو بكر رضى الله عنه وقرأ (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقالوا : ما الزيادة يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ قال : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى : وقال على رضى الله عنه : من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى فى جنته . وقال حذيفة رضى الله عنه : الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : والله ما منكم من إنسان إلا أن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، قال فيقول : ما غرك بى يا ابن آدم (ثلاث مرات) . ماذا أجبت المرسلين (ثلاث مرات) . ماذا عملت فيما علمت ؟. وقال رضى الله عنه : الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : كل من دخل الجنة يرى ربه عز وجل ؟ قال نعم . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: يحشر الناس يوم القيامة فى صعيد واحد، فينادى أين المتقون؟ فيقومون فى كنف واحد من الرحمن تعالى لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قال أبو عفيف وهو الراوى عنه : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله فى العبادة ، فيمرون إلى الجنة . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : لن تروا ربكم حتى تذوقوا الموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه ألفى عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى وجه الله جل جلاله فى كل يوم مرتين . وكان فضالة بن عبيد رضى الله عنه يقول : اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك ، وقد تقدم هذا الدعاء عنه ، وتقدم مرفوعاً من حديث زيد بن ثابت وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم . وقال أبو موسى رضى الله عنه (للذين أحسنوا الحسنى) قال : الجنة ، و « الزيادة » هى النظر إلى وجه الله عز وجل . وكان رضى الله عنه يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم ، فقال : ما صرف أبصاركم عنى ؟ قالوا : الهلال . قال : فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله تعالى جهرة ؟ وقال أنس ابن مالك رضى الله عنه فى قوله عز وجل (ولدينا مزيد) : يظهر لهم الرب تبارك وتعالى يوم القيامة . وعن جابر رضى الله عنه قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأديم عليهم بالكرامة جادتهم خيول من ياقوت أحمر لا تبول ولا تورث لها أجنحة ، فيقعدون عليها ثم يأتون الجبار جل وعلا فإذا تجلى خروا له سجدا فيقول : يا أهل الجنة أرفعوا رءوسكم ، فقد رضيت عنكم رضاء لا سخط بعده .

ذكر أقوال التابعين رحمهم الله تعالى فى ذلك

قال سعيد بن المسيب والحسن وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعبد الرحمن بن سابط وعكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وكعب رحمهم الله تعالى . الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل . وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله : أما بعد فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته ، والتمسك بأمره ، والمعاهدة على ما حملك الله من دينه واستحفظك من كتابه ، فإن بتقوى الله عز وجل ولزوم طاعته نجا أولياؤه من سخطه ، وبها وافقوا أنبياءه ، وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم ، وهى عصمة فى الدنيا من الفتن ومن كرب يوم القيامة . وقال الحسن رحمه الله تعالى : لو علم العابدون فى الدين أنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت أنفسهم فى الدنيا . وقال الأعمش وسعيد ابن جبير رحمهما الله : إن أشرف أهل الجنة لمن ينظر إلى الله تبارك وتعالى غدرة وعشية . وقال كعب رحمه الله تعالى : ما نظر الله عز وجل إلى الجنة قط إلا قال طيبى لأهلك . فزادت ضعفاً على ماكانت ، حتى يأتيها أهلها . وما من يوم كان لهم عيد فى الدنيا إلا ويخرجون فى مقداره فى رياض الجنة . فيبرز لهم الرب تبارك وتعالى فينظرون إليه وتسفى عليهم الريح المسك . ولا يسألون الرب تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم حتى يرجعوا وقد ازدادوا على ماكانوا من الحسن والجمال سبعين ضعفاً ، ثم يرجعون إلى أزواجهم وقد ازددن مثل ذلك . وقال هشام بن حسان : إن الله سبحانه وتعالى يتجلى لأهل الجنة فاذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة. وقال طاوس : أصحاب المراء والمقاييس لا يزال بهم المراء والمقاييس حتى يجحدوا الرؤية ويخالفوا أهل السنة. وقال شريك عن أبى إسحاق السبيعى : الزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى . وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى أنه تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا فيها ما سألوا وما شاءوا ، فيقول الله عز وجل لهم : إنه قد بقى من حقكم شىء لم تعطوه ، فيتجلى لهم تبارك وتعالى فلا يكون ما أعطوه عند ذلك الشىء ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه ربهم تبارك وتعالى (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى . وقال على بن المدينى : سألت عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً) قال عبد الله : من أراد النظر إلى وجه الله خالقه فليعمل عملا صالحاً ولا يخبر به أحداً وقال نعيم بن حماد : سمعت ابن المبارك يقول ما حجب الله عز وجل أحداً عنه

إلا عذبه . ثم قرأ (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالو الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) قال : بالرؤية . وقال عباد بن العوام قدم علينا شريك بن عبد الله منذ خمسين سنة فقلت : يا أبا عبد الله : إن عندنا قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا » و « إن أهل الجنة يرون ربهم » فحدثنى بنحو عشرة أحاديث فى هذا، وقال: أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ . فهم عمن أخذوا ؟ وقال عقبة بن قبيصة : أتينا أبا نعيم يوماً فنزل إلينا من الدرجة التى فى داره فجلس وسطها كأنه مغضب فقال : حدثنا سفيان بن سعيد ومنذر الثورى وزهير بن معاوية ، وحدثنا حسن بن صالح بن حي ، وحدثنا شريك بن عبد الله النخعى ، هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثوننا عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى يرى فى الآخرة ، حتى جاء ابن يهودى صباغ يزعم أن الله تعالى لا يرى (يعنى بشراً المريسى قبحه الله) .

ذكر أقوال الأئمة الأربعة وطبقاتهم ومشايخهم رحمهم الله تعالى

قال مالك بن أنس الإمام رحمه الله تعالى : الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم . وسئل رحمه الله عن قوله عز وجل (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) : أتنظر إلى الله عز وجل؟ قال: نعم، قال أشهب: فقلت إن أقواماً يقولون تنظر ما عنده. قال بل تنظر إليه نظراً ، وقد قال موسى (رب أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى) وقال تعالى (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . وذكر الطبرانى وغيره أنه قيل لمالك : إنهم يزعمون أن الله لا يرى ، فقال مالك : السيف السيف . وقال أبو صالح كاتب الليث : أملى على عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ، وسألته عما جحدت الجهمية فقال : لم يزل يملى لهم الشيطان حتى جحدوا قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) فقالوا لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا ، والله أفضل كرامة الله التى أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) فورب السماء والأرض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثواباً لينضر بها وجوههم دون المجرمين وتفلج بها حجتهم على الجاحدين وهم (عن ربهم يومئذ لمحجوبون) لا يرونه ، كما يزعمون أنه لا يرى ، ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم . وقال الأوزاعى رحمه الله تعالى : إنى لأرجو أن يحجب الله

عز وجل جهماً وأصحابه عن أفضل ثوابه الذى وعده الله أولياءه حين يقول (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذى وعده الله تعالى أولياءه وقال الوليد بن مسلم : سألت الأوزاعى وسفيان الثورى ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التى فيها الرؤية فقالوا أمروها بلا كيف . وقال سفيان بن عيينة : من لم يقل إن القرآن كلام الله ، وأن الله يرى فى الجنة فهو جهمى . فذكره الطبرى . وذكر عنه ابن أبى حاتم أنه قال : لا يصلى خلف الجهمى ، والجهمى الذى يقول لا يرى ربه يوم القيامة . وذكر ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الحميد أنه ذكر حديث ابن سابط فى الزيادة أنها النظر إلى وجه الله عز وجل . فأنكره رجل ، فصاح به ، وأخرجه من مجلسه . وذكر أيضاً عن ابن المبارك أن رجلاً من الجهمية قال له : يا أبا عبد الرحمن ، خداي را بآن جهان بيند » ومعناه : كيف يرى الله يوم القيامة ؟ فقال : بالعين . وقال وكيع بن الجراح رحمه الله : يراه تبارك وتعالى المؤمنون فى الجنة ولا يراه إلا المؤمنون . وقال قتيبة بن سعيد رحمه الله تعالى . قول الأئمة المأخوذ به فى الإسلام والسنة : الإيمان بالرؤية ، والتصديق بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله ﷺ فى الرؤية . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام ، وقد ذكرت عنده هذه الأحاديث التى فى الرؤية : هى عندنا حق ، رواها الثقات عن الثقات إلى أن صارت إلينا . إلا أنا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا لا نفسر منها شيئاً ولكن نمضيها كما جاءت . وقال عبد الوهاب الوراق : سألت أسود بن سالم عن أحاديث الرؤية فقال : أحلف عليها أنها حق . وقال محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله تعالى وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول فى قول الله عز وجل (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ؟ فقال الشافعى رحمه الله تعالى : لما أن حجب هؤلاء فى السخط كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضا ، قال الربيع فقلت : يا أبا عبد الله وبه تقول ؟ قال نعم ، وبه أدين الله عز وجل ، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عز وجل . رواه الحاكم عن الربيع عنه . ورواه الطبرانى وغيره عن المزنى قال سمعت الشافعى رحمه الله تعالى يقول فى قوله عز وجل (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) : فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة . وقال محمد بن عبد الله بن الحكم : سئل الشافعى رحمه الله تعالى عن الرؤية ، فقال : يقول الله تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ففى هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل . رواه أبو زرعة الرازى . ولابن بطة عنه رحمه الله تعالى قال : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) دلالة على أن أولياء الله يرونه يوم القيامة

بأبصارهم ووجوههم . وقال إسحاق بن منصور قلت لاحمد : أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة ، أليس تقول بهذه الأحاديث ؟ قال أحمد صحيح . وقال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله — وقيل له تقول بالرؤية — فقال : من لم يقل بالرؤية فهو جهمى . وقال : سمعت أبا عبد الله وبلغه عن رجل أنه قال : إن الله لا يرى فى الآخرة فغضب غضباً شديداً ثم قال : من قال إن الله لا يرى فى الآخرة فقد كفر ، عليه لعنة الله وغضبه من كان من الناس ، أليس يقول عز وجل (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) وقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . وقال أبو داود : سمعت أحمد رحمه الله تعالى وذكر له عن رجل شيء فى الرؤية فغضب وقال : من قال إن الله لا يرى فهو كافر . قال أيضاً : سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وقيل له فى رجل يحدث بحديث عن رجل عن أبى العطوف أن الله لا يرى فى الآخرة فقال : لعن الله من يحدث بهذا الحديث اليوم ، ثم قال : أخزى الله هذا . وقال أبو بكر المروزى : قيل لأبى عبد الله تعرف عن يزيد بن هارون عن أبى العطوف عن أبى الزبير عن جابر : إن استقر الجبل فسوف ترانى وإن لم يستقر فلا ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة . فغضب أبو عبد الله غضباً شديداً حتى تبين فى وجهه . وكان قاعداً والناس حوله فأخذ نعله وانتعل وقال : أخزى الله هذا ، هذا لا ينبغى أن يكتب . ودفع أن يكون يزيد بن هارون رواه أو حدث به وقال : هذا جهمى كافر خالف ما قال الله عز وجل (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) وقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) أخزى الله هذا الخبيث . قال أبو عبد الله : ومن زعم أن الله لا يرى فى الآخرة فقد كفر . وقال أبو طالب قال أبو عبد الله : قول الله عز وجل (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً) فمن قال إن الله لا يرى فقد كفر . وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانىء سمعت أبا عبد الله يقول : من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمى ، والجهمى كافر . وقال يوسف بن موسى بن محمد القطان قيل لأبى عبد الله : أهل الجنة ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى ويكلمونه ويكلمهم ؟ قال نعم ، ينظر إليهم وينظرون إليه ويكلمهم ويكلمونه كيف شاءوا وإذا شاءوا . وقال حنبل بن إسحاق سمعت أبا عبد الله يقول : القوم يرجعون إلى التعطيل فى أقوالهم ، ينكرون الرؤية والآثار كلها ، وما ظننتهم على هذا حتى سمعت مقالاتهم . قال حنبل وسمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لا يرى فى الآخرة فهو جهمى ، فقد كفر ورد على الله وعلى الرسول . ومن زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا فقد كفر ورد على الله قوله . قال أبو عبد الله : فنحن نؤمن بهذه الأحاديث

ونقر بها ونمرها كما جاءت . وقال الأثرم سمعت أبا عبد الله رحمه الله يقول : فأما من يقول : إن الله لا يرى فى الآخرة فهو جهمى . قال أبو عبد الله : وإنما تكلم من تكلم فى رؤية الدنيا . وقال إبراهيم بن زياد الصائغ سمعت أحمد بن حنبل يقول : الرؤية من كذب بها فهو زنديق ، وقال حنبل سمعت أبا عبد الله يقول : أدركنا الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئاً ، أحاديث الرؤية ، وكانوا يحدثون بها على الجملة ، يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين . وقال أبو عبد الله رحمه الله تعالى : قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) ، وكلم الله موسى من وراء حجاب ، فقال (رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) فأخبر الله عز وجل أن موسى يراه فى الآخرة ، وقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ولا يكون حجاب إلا لرؤية ، أخبر الله سبحانه وتعالى أن من شاء الله ومن أراد يراه ، والكفار لا يرونه . قال حنبل وسمعت أبا عبد الله يقول : قال الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) والأحاديث التى تروى فى النظر إلى الله تعالى حديث جابر بن عبد الله وغيره « تنظرون إلى ربكم » أحاديث صحاح . وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) النظر إلى وجه الله عز وجل . قال أبو عبد الله نؤمن بها ونعلم أنها حق أحاديث الرؤية ، ونؤمن بأن الله يرى . نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب . قال وسمعت أبا عبد الله يقول : من زعم أن الله لا يرى فى الآخرة فقد كفر بالله وكذب بالقرآن ، ورد على الله أمره ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، قال حنبل قلت لأبى عبد الله فى أحاديث الرؤية ، قال : هذه صحاح نؤمن بها ونقر بها وكل ما روى عن النبى ﷺ أقررنا به . قال أبو عبد الله : إذا لم نقر بما جاء عن النبى ﷺ ودفعناه رددنا على الله أمره ، قال الله عز وجل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال عبد الله بن طاهر أمير خراسان لإسحاق بن راهوية : يا أبا يعقوب ، هذه الأحاديث التى يروونها فى النزول والرؤية ما هن ؟ فقال : رواها من روى الطهارة والغسل والصلاة والأحكام — ذكر أشياء — فإن يكونوا فى هذه عدولا وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع . فقال : شفاك الله كما شفيتنى . أو كما قال ، ذكره الحاكم . وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة فى كتابه : إن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم القيامة ، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين . وقال نعيم بن حماد للمزنى : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : أقول إنه كلام الله . فقال : غير مخلوق ؟ فقال : غير مخلوق . قال : وتقول إن الله يرى يوم القيامة ؟ قال : نعم . فلما

افترق الناس قام إليه المزني فقال : يا أبا عبد الله شهرتني على رءوس الناس . فقال : إن الناس قد أكثروا فيك ، فأردت أن أبرئك . وقال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب في قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام) أجمع أهل اللغة على أن اللقاء ههنا لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار . قلت : واللقاء ثابت بنص القرآن هذه الآية وغيرها . وبالتواتر عن النبي ﷺ ، وكل أحاديث اللقاء صحيحة كحديث أنس في قصة بئر معونة « إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا » . وحديث عبادة وعائشة وأبي هريرة وابن مسعود رضي الله عنهم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » وحديث أنس « إنكم ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله ﷺ » وحديث أبي ذر رضي الله عنه « لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » وحديث أبي موسى « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » وغير ذلك من أحاديث اللقاء التي اطردت كلها بلفظ واحد ، فهذا كتاب الله عز وجل وسنة رسوله الله ﷺ الصحيحة الصريحة ، وهذه أقوال الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أئمة الهدى ، كلها مجتمعة على أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى في الجنة ، ويتلذذون بالنظر إلى وجهه الكريم . وذلك غاية النعيم وأعلى الكرامات وأفضل فضيلة ، ولذا يذهبون بالنظر إليه عن كل ما هم فيه من النعيم ، فنحن نؤمن بذلك كله ونشهد الله تعالى وملائكته وأنبياءه ورسله والمؤمنين على ذلك ، ونضرع إلى الله تعالى وندعوه بأسمائه الحسنى أن يرزقنا لذة النظر إلى وجهه تعالى في جنة عدن ، وأن لا يحجبنا عنه فنكون من الذين أخبر عنهم أنهم عنه يومئذ لمحجوبون نعوذ بالله من ذلك ، ومن جحد الرؤية فهو كاذب على الله تعالى مكذب بالصدق إذ جاءه راد لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ مخالف لجماعة المؤمنين كافر بلقاء الله عز وجل متبع غير سبيل المؤمنين ، وسيوليه الله ما تولى ويصليه جهنم إن مات مصراً على جحوده ، أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟ بلى وقد وعد الله عز وجل أن المكذبين محجوبون عنه يوم القيامة قال تعالى (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون) . وتقدم تفسير ابن المبارك قوله : (تكذبون) بالرؤية . وقد ورد حديث في وعيد منكري اللقاء وهو متناول منكر الرؤية بلا شك ولا مرية ، روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست فيها سحابة ؟ قالوا لا . قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس فيه سحابة ؟ قالوا لا . قال : فوالذي نفس

محمد بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . فيلقى العبد فيقول أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول بلى . فيقول أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول بلى أى رب . فيقول : أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا . فيقول إنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك ورسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع . فيقول ها هنا إذا . ثم يقال : الآن نبعث شاهداً عليك . فيتفكر فى نفسه من الذى يشهد على ، فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقى فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » ومن تراجم أئمة السنة على هذا الحديث : باب وعيد منكرى الرؤية ، والدلالة منه واضحة منطوقاً ومفهوماً ولله الحمد . ولا خلاف فى ثبوت رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى فى دار الآخرة . وكذا لا خلاف بينهم فى أنه لا يراه أحد قبل الموت ، وإنما وقع الخلاف بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم فى ثبوت رؤية النبى ﷺ ربه ليلة المعراج كما سيأتى إن شاء الله بحث ذلك فى موضعه وبالله التوفيق .

وكل ما له من صفـــــــات	أثـبتها فى محكـــم الآيــــات
أو صح فيمـا قالـــه الرســـول	فحقـــه التسليم والقبـــول

(وكلّ ما) ثبت (له) أى لله عز وجل (من الصفات) الثابتة التى (أثبتها) هو سبحانه وتعالى لنفسه وأخبرنا باتصافه بها (فى محكم الآيات) من كتابه العزيز مما ذكرناه فيما تقدم ومما نذكر كقوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقوله (كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقوله تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) وقوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) وقوله تعالى (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وقوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وقوله تبارك وتعالى (واصطنعتك لنفسى) وقوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) وقوله عن عيسى عليه السلام (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب) وكقوله تعالى (ولتصنع

على عينى) وقوله تعالى (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) وقوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا) وقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وقوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) وقوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه) وقوله تعالى (وكتبنا فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء) وكقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى (والله يحب المتقين) ، (إن الله يحب المحسنين) ، (إن الله يحب الصابرين) ، (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) وقوله (والله لا يحب الظالمين) ، (والله لا يحب الفساد) ، (والله لا يحب كل مختال كفور) وكقوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين) ، (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) ، (ولا يرضى لعباده الكفر) وكقوله تعالى (سخط الله عليهم) وكقوله (كره الله انبعاثهم) وقوله فى اليهود (غضب الله عليهم) وفى قاتل النفس المحرمة (فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) وقوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) وكقوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) وكقوله (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً) وكقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله (وهو الغفور الرحيم) وقوله (فبما رحمة من الله لنت لهم) وكقوله (وهو القوى العزيز) وقوله عن إبليس (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) وقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين) وكقوله (الله نور السموات والأرض) الآية . وكقوله (إن الله عزيز ذو انتقام) وقوله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) وقوله (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقوله تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) وقوله تعالى (ملك الناس) وقوله (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) وقوله تعالى (قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينىوبينكم) وقوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) وقوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً) وقوله تعالى (نبىء عبادى أنى أنا الغفور

الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) وقوله (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) وقوله (والله يقبض ويبسط) وقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقوله (وهو شديد المحال) وغير ذلك من آيات الأسماء والصفات ، صفات ذاته تعالى وأفعاله عز وجل .

(أو صح فيما قاله الرسول) من الأحاديث النبوية الصحيحة كقوله ﷺ عن ربه عز وجل « يقول الله تعالى : أنا مع عبدى حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » متفق عليه من حديث أبى هريرة . ويقول ﷺ «سبحانه الله العظيم وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه» رواه مسلم والأربعة من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، وقوله ﷺ « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده على العرش : إن رحمتى تغلب غضبى » متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وعن جابر رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال النبى ﷺ « **أعوذ بوجهك** » قال (أو من تحت أرجلكم) فقال النبى ﷺ « أعوذ بوجهك » قال (أو يلبسكم شيعاً) فقال النبى ﷺ « هذا أيسر » . رواه البخارى وغيره . وقوله ﷺ « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » رواه محمد بن إسحاق في سيرته. وقوله ﷺ «وأسألك لذة النظر إلى وجهك» الحديث تقدم فى الرؤية. وقوله ﷺ « مثل المجاهد فى سبيل الله ابتغاء وجه الله مثل القائم المصلى حتى يرجع المجاهد » متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقوله ﷺ « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه » رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة من حديث بن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ لسعد بن أبى وقاص « إنك لن تخلف بعدى فتعمل عملا تريد وجه الله تعالى إلا ازددت به رفعة ودرجة » رواه البخارى وغيره من حديثه . وقوله ﷺ « وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا ، فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده » رواه ابن خزيمة والبيهقى من حديث الحارث الأشعرى ، وقوله ﷺ فى صفة الدجال « إلا أنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » الحديث متفق عليه من حديث أنس وابن عمر وغيرهما . وقوله ﷺ فى حديث الشفاعة يقول « الناس لآدم : أنت آدم أبو الناس ، خلقك الله بيده » الحديث متفق عليه

عن أنس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار . وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه . قال : وعرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك» متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما واللفظ للبخارى.
وتصديقه ﷺ اليهودى الذى قال له : يامحمد إن الله تعالى يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول : أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له . متفق عليه من حديث بن مسعود رضى الله عنه . وقوله ﷺ « لما خلق الله الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتى تغلب غضبى » . متفق عليه من حديث أبى هريرة وقوله ﷺ « إن الله تعالى يفتح أبواب السماء فى ثلث الليل الباقى فيبسط يديه فيقول : ألا عبد يسألنى فأعطيه » الحديث تقدمت ألفاظه فى إثبات النزول . وقوله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب — ولا يصعد إلى الله إلا الطيب — فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » متفق عليه من حديث أبى هريرة. وقوله ﷺ فى حديث احتجاج آدم وموسى « فقال آدم : ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراه بيده » الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ « إن يد الله هى العليا ، ويد المعطى التى تليها ، ويد السائل أسفل من ذلك » رواه ابن خزيمة من حديث حكيم بن حزام وأصله فى الصحيح . وقوله ﷺ فى قصة خلق آدم « فقال الله تبارك وتعالى ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت . قال اخترت يمين ربى . وكلتا يدى ربى يمين مباركة . ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته » الحديث أخرجه ابن خزيمة والبيهقى من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ فى قصة سؤال موسى عليه السلام ربه عز وجل عن منازل أهل الجنة « قال يارب فأخبرنى بأعلاهم منزلة ، قال : هذا أردت فسوف أخبرك ، قال غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها » الحديث رواه البيهقى ابن خزيمة من حديث المغيرة بن شعبة . وقوله ﷺ « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكافأها الجبار بيده » الحديث متفق عليه من حديث أبى سعيد رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » رواه مسلم من حديث أبى موسى رضى الله عنه . وقوله ﷺ « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا

أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الحديث أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « إذا أحب الله العبد نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل . فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه » الحديث فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « وما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » رواه البخارى عن أبى موسى رضى الله عنه . وقوله ﷺ « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره » الحديث ,وقوله ﷺ « عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » رواه أحمد والبخارى من حديث بن مسعود . وقوله ﷺ » يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » متفق عليه من حديث أبى هريرة . وقوله ﷺ فى حديث الشفاعة « إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا بعده مثله » . وقوله ﷺ « من أعان على خصومة فى باطل فقد باء بغضب من الله » رواه أبو داود بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وفى رواية « من خاصم فى باطل لم يزل فى سخط الله حتى ينزع » . وقوله ﷺ « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها» . وقوله ﷺ وإذا أبغض عبداً دعا جبرائيل فيقول إنى أبغض فلاناً فأبغضه ، قال فيبغضه جبرائيل ، ثم ينادى جبرائيل فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه ، قال فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » رواه مسلم . وقوله ﷺ « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » رواه مسلم عن أنس رضى الله عنه . وقوله ﷺ فى قصة أصحاب بئر معونة « بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » وهو فى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه ، وهو من التنزيل المنسوخ تلاوة . وقوله ﷺ فى قصة سبى هوازن « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » أخرجاه من حديث عمر رضى الله عنه ، وقوله ﷺ « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً ونزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » أخرجاه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ولمسلم معناه من حديث سلمان رضى الله عنه ، وفيه « كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فإذا كان يوم القيامة كملها بهذه الرحمة » وقوله ﷺ « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت الذى لا يموت والجن والإنس يموتون » أخرجه البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ عن أيوب عليه السلام « وعزتك لا غنى بى عن

بركتك » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقوله ﷺ « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » أخرجاه من حديث بن عباس رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك » لمسلم والأربعة عن عائشة ، وقوله ﷺ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » قال ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) أخرجاه من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، وقوله ﷺ « فإن الله لم يك لينسى شيئاً ، وما كان ربك نسياً » رواه البزار وابن أبى حاتم والطبرانى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه . وقوله ﷺ فى حلفه « لا ومقلب القلوب » أخرجاه من حديث عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما . وقوله ﷺ « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فإذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » رواه أحمد والشيخان وغيرهما من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى صدره : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » . وقوله ﷺ فى صفة الجنة والنار « ولا يزال يلقى فيها — يعنى النار — وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قد قد بعزتك وكرمك » وفى رواية « قط قط » بالطاء أخرجاه من حديث أنس . وقوله ﷺ « لا شخص أغير من الله » علقها البخارى بلفظ الترجمة ووصلها الدارمى فى مسنده . وقوله ﷺ « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين . ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة » رواه البخارى من حديث المغيرة بن شعبة فى الترجمة السابقة . والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً ، يحتاج استقصاؤها إلى بسط طويل وفيما ذكرنا كفاية ، وما أشبهه فسبيله سبيله .

(فحقه التسليم) له (والقبول) الفاء واقعة فى جواب كل ما ، فنقول فى ذلك : ما ذكره الله تعالى عن الراسخين فى العلم حيث قال (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يتذكر إلا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ولا نضرب كتاب الله بعضه ببعض فنتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما يفعله الذين فى قلوبهم زيغ ، أعاذنا الله وعصمنا من ذلك بمنه وكرمه وفضله ، إنه سميع مجيب .

نمرها صريحة كما أتت	مع اعتقادنا لما له اقتضت
من غير تحريف ولا تعطيل	وغير تكييف ولا تمثيل
بل قولنا قول أئمة الهدى	طوبى لمن يهديهم قد اهتدى

أى جميع آيات الأسماء والصفات وأحاديثها (نمرها صريحة) أى على ظواهرها (كما أتت) عن الله تعالى ، وعن رسوله ﷺ بنقل العدل عن العدل متصلا إلينا كالشمس فى وقت الظهيرة صحوا ليس دونها سحاب ، (مع اعتقادنا) إيماناً وتسليماً (لما له اقتضت) من أسماء ربنا تبارك وتعالى وصفات كماله ونعوت جلاله كما يليق بعظمته وعلى الوجه الذى ذكره وأراده (من غير تحريف) لألفاظها كمن قال فى قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) أن التكليم من موسى ، وأن لفظ الجلالة منصوب على المفعولية فراراً من إثبات الكلام كما فعله بعض الجهمية والمعتزلة ، وقد عرض ذلك على أبى بكر بن عياش فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر ، قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمى وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى على على بن أبى طالب وقرأ على بن أبى طالب على رسول الله ﷺ (وكلم اللهُ موسى تكليما) يعنى برفع لفظ الجلالة على الفاعلية وهو مجمع عليه بين القراء ، روى ذلك بن مردويه عن عبد الجبار بن عبد الله عن ابن عياش رحمه الله تعالى. وروى بن كثير أن بعض المعتزلة قرأ على بعض المشايخ (وكلم الله موسى تكليما) فقال له ياابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) يعنى أن هذا لا يقبل التحريف ولا التأويل . وكما قال جهم بن صفوان لعنه الله فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) حيث قال : لو وجدت سبيلا إلى حكها لحككتها ولأبدلتها استولى . وله فى ذلك سلف اليهود فى تحريف الكلم عن مواضعه حيث قال الله تعالى لهم (وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا « حنطة » فخالفوا ما أمرهم الله به من الدخول سجداً وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم فكان جزاؤهم ما ذكره الله تعالى حيث يقول (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وجعلهم الله عبرة لمن بعدهم ، فمن فعل كما فعلوا فسبيله سبيلهم كما مضت سنة الله بذلك (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر) .

و (من غير تحريف) لمعانيها كما فعله الزنادقة أيضاً كتأويلهم « نفسه » تعالى بالغير وأن إضافتها إليه كإضافة بيت الله وناقة الله ، فعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى (ويحذركم الله نفسه) أى غيره وقوله : كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى على غيره ، ويكون قوله تعالى عن عيسى (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) أى ولا أعلم ما فى غيرك . ويكون قوله تعالى لموسى (واصطنعتك لنفسى) أراد واصطنعتك لغيرى ، وهذا لا يقوله عاقل ، بل ولا يتوهمه ولا يقوله إلا كافر ، وكتأويلهم « وجهه » تعالى بالنفس مع جحودهم لها كما تقدم ، فانظر لتناقضهم البين ، وهذا يكفى حكايته عن رده . أما من أثبت النفس وأول الوجه بذلك فيقال له : إن الله تعالى قال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فذكر الوجه مرفوعاً على الفاعلية ولفظ رب مجروراً بالإضافة وذكر ذو مرفوعاً بالتبعية نعتاً لوجه ، فلو كان الوجه هو الذات لكانت القراءة « ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام » بالياء لا بالواو كما قال تعالى (تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام) فخفضه لما كان صفة للرب فلما كانت القرءة فى الآية الأولى بالرفع إجماعاً تبين أن الوجه صفة للذات ليس هو الذات ، ولما رأى آخرون منهم فساد تأويلهم بالذات أو الغير لجأوا إلى طاغوت المجاز فعدلوا إلى أن تأويله به أولى وأنه كما يقول « وجه الكلام » و « وجه الدار » و « وجه الثوب » ونحو ذلك ، فتكلفوا الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ كل التكلف ثم نكسوا على رءوسهم فوقعوا فيما فروا منه ، فيقال لهم : أليس الثوب والدار والكلام مخلوقات كلها وقد شبهتم وجه الله تعالى بذلك ؟ فأين الفكاك والخلاص ولات حين مناص (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين) وكما أولوا اليد بالنعمة واستشهدوا بقول العرب « لك يد عندى » أى نعمة فعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) يعنى نعمتاه فلم يثبتوا لله إلا نعمتين والله تعالى يقول (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة) ويكون قوله تعالى (لما خلقت بيدى) أراد بنعمتى ، فأى فضيلة لآدم على غيره على هذا التأويل وهل من أحد لم يخلقه الله بنعمته ؟ ويكون قوله تعالى (والأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه) أراد مطويات بنعمته . فهل يقول هذا عاقل ؟ وقال آخرون منهم « بقوته » استشهاداً بقوله تعالى (والسماء بنيناها بأيد) أى بقوة فيقال لهم : أليس كل مخلوق خلقه الله بقوة ؟ فعلى هذا ما معنى قوله عز وجل (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) وأى فضل لآدم على إبليس إذ كل منهما خلقه الله بقوته ؟ وما معنى قوله تعالى للملائكة : لا

أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان . أفلم يخلق الملائكة بقوته ، وأى فضل لآدم عليهم إن لم يكن خلقه الله بيده التى هى صفته ، فأنبئونى نعلم إن كنتم صادقين . وكما تأولوا الاستواء بالاستيلاء واستشهدوا ببيت مجهول مروى على خلاف وجهه وهو ما ينسب إلى الأخطل النصرانى :

قد استوى بشر على العــــراق   من غير سيـــف ودم مهـــراق

فعدلوا عن أكثر من ألف دليل من التنزيل إلى بيت ينسب إلى بعض العلوج ليس على دين الإسلام ولا على لغة العرب . فطفق أهل الأهواء يفسرون به كلام الله عز وجل ويحملونه عليه ، مع إنكار عامة أهل اللغة لذلك وأن الاستواء لا يكون بمعنى الاستيلاء بوجه من الوجوه البتة . وقد سئل ابن الأعرابى وهو إمام أهل اللغة فى زمانه فقال : العرب لا تقول للرجل استولى على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب قيل استولى ، والله سبحانه وتعالى لا مغالب له ا. هـ . وقد فسر السلف الاستواء بعدة معان بحسب أداته المقترنة به ، وبحسب تجريده عن الأداة ، ولم يذكر أحد منهم أنه يأتى بمعنى الاستيلاء حتى انتحل ذلك أهل الأهواء والبدع لا باستحقاق صغير ولا كبير ، بل باستنباط مختلق وافق الهوى المتبع . وقد بسط القول فى رد ذلك ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه الصواعق وبين بطلانه من نيف وأربعين وجهاً فليراجع . وكما أولوا أحاديث النزول إلى سماء الدنيا بأنه ينزل أمره ، فيقال لهم : أليس أمر الله تعالى نازلا فى كل وقت وحين ؟ فماذا يخص السحر بذلك ؟ وقال آخرون . ينزل ملك بأمره ، فنسب النزول إليه تعالى مجازاً . فيقال لهم : فهل يجوز على الله تعالى أن يرسل من يدعى ربوبيته ، وهل يمكن للملك أن يقول « لا أسأل عن عبادى غيرى ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له » وهل قصرت عبارة النبى ﷺ عن أن يقول ينزل ملك بأمر الله فيقول إن الله تعالى يقول لكم كذا ، أو أمرنى أن أقول لكم كذا حتى جاء بلفظ مجمل يوهم بزعمكم ربوبية الملك ، لقد ظننتم بالله تعالى ورسوله ﷺ ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . وكما أولوا المجيء لفصل القضاء بالمجاز فقالوا يجيء أمره واستدلوا بقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك) فقالوا فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) فقالوا هو من مجاز الحذف والتقدير يأتى أمر الله . فيقال لهم : أليس قد اتضح ذلك غاية الاتضاح أن مجيء الله عز وجل غير مجيء أمره وملائكته ، وأنه يجيء حقيقة ، ومجيء أمره حقيقة ، ومجيء ملائكته حقيقة ، وقد فصل

تعالى ذلك وقسمه ونوعه تنويعاً يمتنع معه الحمل على المجاز فذكر تعالى فى آية البقرة مجيئه ومجيء الملائكة وكذا فى آية الفجر ، وذكر فى النحل مجيء ملائكته ومجيء أمره ، وذكر فى آية الأنعام إتيانه وإتيان ملائكته وإتيان بعض آياته التى هى من أمره . ثم يقال : ما الذى يخص إتيان أمره بيوم القيامة ؟ أليس أمره آتياً فى كل وقت ، متنزلا بين السماء والأرض بتدبير أمور خلقه فى كل نفس ولحظة (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) . وتأولوا النظر إلى الله عز وجل فى الدار الآخرة بالانتظار قالوا إنه كقوله (انظرونا نقتبس من نوركم) فيقال لهم : أليس إذا كان بمعنى الانتظار تعدى بنفسه لا يحتاج إلى أداة كما فى قوله (انظرونا) ألم يضف الله تعالى النظر إلى الوجوه التى فيها الإبصار ، ويعده بإلى التى تفيد المعاينة بالبصر عند جميع أهل اللغة (قل أأنتم أعلم أم الله) ، أو لم يفسره النبى ﷺ بالرؤية الجلية عياناً بالأبصار فى أكثر من خمسين حديثاً صحيحاً : حتى شبه تلك الرؤية برؤيتنا الشمس صحواً ليس دونها سحاب ، تشبيهاً للرؤية بالرؤية ، لا للمرئى بالمرئى ، ولم يزل الصحابة مؤمنين بذلك ، ويحدثون به من بعدهم من التابعين ، وينقله التابعون إلى من بعدهم وهلم جرا . فنحن أخذنا ديننا عن حملة الشريعة ، عن الصحابة ، عن النبى ﷺ . فأنتم عمن أخذتم ؟ ومن شبهاتهم فى نفى الرؤية استدلالهم بقوله عز وجل (لا تدركه الأبصار) وهذه الآية فيها عن الصحابة تفسيران : أولهما لا يرى فى الدنيا ، وهو مروى عن عائشة رضى الله عنها ، وبذلك نفت أن يكون رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة المعراج . ثانيهما تفسير ابن عباس رضى الله عنهما (لا تدركه) أى لا تحيط به ، فالنفى للاحاطة لا للرؤية ، وهذا عام فى الدنيا والآخرة . ولم ينقل عن أحد من الصحابة من طريق صحيح ولا ضعيف أنه أراد بذلك نفى الرؤية فى الآخرة ، فهذا تفسير الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويل الكتاب هل بينهم من أحد فسر الآية بما افتريتموه ؟ ومن إفكهم ادعاؤهم معنى التأبيد فى نفى (لن ترانى) حتى كذبوا على رسول الله ﷺ حديثاً مختلفاً لفظه : لن ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو موضوع مكذوب على النبى ﷺ باتفاق أئمة الحديث والسنة ، ولم يقل أحد من أئمة اللغة العربية أن نفى « لن » للتأبيد مطلقاً إلا الزمخشرى من المتأخرين قال ذلك ترويجاً لمذهبه فى الاعتزال وجحود صفات الخالق جل وعلا ، وقد رده عليه أئمة التفسير كابن كثير وغيره ، ورده ابن مالك فى الكافية حيث قال :

ومن يرى النفى بلن مؤبدا ... فقوله اردد وسواه فاعضدا

والقائل لموسى (لن تراني) هو المتجلى للجبل حتى اندك ، وهو الذى وعد المؤمنين (الحسنى وزيادة) وهو الذى قال (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) فاتضح بذلك أن قوله لموسى ﷺ (لن تراني) إنما أراد عدم استطاعته رؤية الله تعالى فى هذه الدار لضعف القوى البشرية فيها عن ذلك كما قرر تعالى ذلك بقوله جل جلاله (ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً) الآية ، فإذا لم يثبت الجبل لتجلى الله تعالى فكيف يثبت موسى لذلك وهو بشر خلق من ضعف ؟ وأما فى الآخرة فيخلق الله تعالى فى أوليائه قوة مستعدة للنظر إلى وجهه عز وجل ، وبهذا تجتمع نصوص الكتاب والسنة وتأتلف كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وأما من اتبع هواه بغير هدى من الله ، ونصب الخصام أو الجدال والمعارضة بين نصوص الكتاب والسنة ، واتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، وضرب كتاب الله بعضه ببعض وآمن ببعض وكفر ببعض وشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أعاذنا الله وجميع المؤمنين من ذلك ، ولا يتأتى لأحد من أهل التأويل مراده ولا يستقيم له تأويله إلا بدفع النصوص بعضها ببعض لا محالة ولابد ، فإن كتاب الله تعالى يصدق بعضه بعضاً لا يكذبه كما هو مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه . وكذلك سنة النبى ﷺ تبين الكتاب وتوضحه وتفسره وتدل عليه وترشد إليه ، ولا يشك فى ذلك ولا يرتاب فيه إلا من اتخذ إلهه هواه ، وأدلى بشبهاته لغرض شهواته (بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط) وهذا دأبهم فى جميع نصوص الأسماء والصفات . وإنما ذكرنا هذه الجملة مثالا وتنبيهاً على ما وراء ذلك ، فمن عوفى فليحمد الله ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(ولا تعطيل) أى للنصوص بنفى ما اقتضته من صفات كمال الله تعالى ونعوت جلاله فان نفى ذلك من لازمه نفى الذات ووصفه بالعدم المحض ، إذ مالا يوصف بصفة هو العدم ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً . ولهذا قال السلف الصالح رحمهم الله تعالى فى الجهمية : إنهم يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله يعبد وذلك لجحودهم صفات كماله ونعوت جلاله التى وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ ، وذلك يتضمن التكذيب بالكتاب والسنة ، والافتراء على الله كذبا (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ، والذى جاء بالصدق

وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ، كذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) .

(وغير تكييف) تفسير لكنه شيء من صفات ربنا تعالى كأن يقال استوى على هيئة كذا ، أو ينزل إلى السماء بصفة كذا ، أو تكلم بالقرآن على كيفية كذا ونحو ذلك من الغلو فى الدين والافتراء على الله عز وجل واعتقاد ما لم يأذن به الله ولا يليق بجلاله وعظمته ولم ينطق به كتاب ولا سنة ، ولو كان ذلك مطلوباً من العباد فى الشريعة لبينه الله تعالى ورسوله ﷺ ، فلم يدع ما بالمسلمين إليه حاجة إلا بينه ووضحه ، والعباد لا يعلمون عن الله تعالى إلا ما علمهم كما قال تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقال تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) فليؤمن العبد بما علمه الله تعالى وليقف معه كهذه الصفات الثابتة فى الكتاب والسنة ، وتمسك عما جهله وليكل معناه إلى عالمه ككيفيتها , وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

(ولا تمثيل) أى ومن غير تشبيه لشيء من صفات الله بصفات خلقه ، فكما أنا نثبت له ذاتاً لا تشبه الذوات فكذلك نثبت له ما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات ونعتقد تنزهه وتقدسه عن مماثلة المخلوقات (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . وإذا كان القول على الله بلا علم فى أحكام الشريعة هو أقبح المحرمات كما قال تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فكيف بالقول على الله بلا علم فى إلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته من تشبيه خلقه به أو تشبيهه بخلقه فى اتخاذ الانداد معه وصرف العبادة لهم ، وإن اعتقاد تصرفهم فى شيء من ملكوته تشبيه للمخلوق بالخالق ، كما أن تمثيل صفاته تعالى بصفات خلقه تشبيه للخالق بالمخلوق ، وكلا التشبيهين كفر بالله عز وجل أقبح الكفر ، وقد نزه الله تعالى نفسه عن ذلك كله فى كتابه كما قال تعالى (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) وقال تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) وقال تعالى (فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وقال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) وقال تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) وغير ذلك من

الآيات ، بل جميع القرآن من أوله إلى خاتمته فى هذا المعنى [illegible] بصفات الله تعالى [illegible]
ولم ينزل كتبه إلا بذلك (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

(بل قولنا) الذى نقوله ونعتقده وندين الله به هو ما قاله أئمة الهدى من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة كأبى حنيفة ومالك والأوزاعى والثورى وابن عيينة والليث بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة والشافعى وأحمد وإسحاق بن راهويه وأصحاب الكتب الست وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا الذين قضوا الحق وبه كانوا يعدلون ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . وظاهرها المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله عز وجل فإن الله تعالى لا يشبهه شىء من خلقه وليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، بل الأمر كما قال الأئمة تفسيرها قراءتها . وقال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى رحمهما الله تعالى : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ؛ فمن أثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه مما وردت به الآيات الصريحة ووصفه به رسوله ﷺ مما ورد فى الأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله وعظمته ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى ، وقال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى : آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله ﷺ . وقال أيضا رحمه الله : لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر نبيه ﷺ أمته لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول فان خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكر ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها وتثبت هذه الصفات وينفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه تعالى فقال سبحانه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) . وقال الإمام أحمد رحمه الله : ليس كمثله شىء فى ذاته كما وصف نفسه ، قد أجمل الله الصفة فحد لنفسه صفة : ليس يشبهه شىء . وصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف به نفسه . قال فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ، ولا يبلغ الواصفون صفته ، ولا نتعدى القرآن والحديث ، فنقول كما قال ونصفه بما وصف به نفسه ولا نتعدى ذلك ولا يبلغ صفته الواصفون ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صفاته بشناعة شنعت . وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضعه كنفه عليه ،

فهذا كله يدل على أن الله سبحانه وتعالى يرى فى الآخرة ، والتحديد فى هذا كله بدعة ، والتسليم فيه بغير صفة ولا حد إلا ما وصف به نفسه : سميع ، بصير ، لم يزل متكلما ، عالما ، غفوراً ، عالم الغيب والشهادة ، علام الغيوب . فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد ، وهو على العرش بلا حد كما قال تعالى (ثم استوى على العرش) كيف شاء المشيئة إليه والاستطاعةإليه ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ، لا نتعدى القرآن والحديث ، تعالى الله عما يقول الجهمية والمشبهة . قلت له : والمشبه ما يقول ؟ قال من قال بصر كبصرى ، ويد كيدى وقدم كقدمى فقد شبه الله تعالى بخلقه . انتهى . وكلام أئمة السنة فى هذا الباب يطول ، وقد تقدم كثير منه فى الاستواء والكلام والنزول والرؤية وغير ذلك .

(طوبى لمن بهديهم قد اهتدى) إذ هم خير القرون وأعلم الأمة بشريعة الإسلام وأولا هم باتباع الكتاب والسنة واقتفاء آثار رسول الله ﷺ ، وبهم حفظ الله الدين على من بعدهم ، فرحمهم الله ورضى عنهم وأرضاهم وألحقنا بهم سالمين غير مفتونين إنه سميع الدعاء .

وسم ذا النوع من التوحيـــــد	توحيـد إثبـات بـــلا ترديـــــد
قد أفصح الوحـى المبين عنــــه	فالتمس الهدى المنيـــر منــــــه

(وسم ذا النوع) والإشارة بذا الى ما تقدم من قوله « إثبات ذات الرب » إلى هنا وما يدخل فى ذلك من معانى الربوبية والأسماء والصفات (من) نوعى (التوحيد) المشار إليهما بقول : وهو نوعان (توحيد إثبات) لاشتماله على إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه فى كتابه وأثبته له رسوله ﷺ ومن قبله من الأنبياء والمرسلين من معانى ربوبيته ومقتضى أسمائه وصفاته ونفى ما يناقض ذلك كما نفاه عن نفسه تبارك وتعالى ، فنؤمن بالله تعالى وبما أخبر به عن نفسه سبحانه على ألسنة رسله من صفات كماله ونعوت جلاله بلا تكييف ولا تمثيل ، وننفى عنه ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بجلاله وعظمته فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلا وأبين دليلا من غيره ، وقد عكس الزنادقة الأمر فنفوا عنه ما أثبته تعالى لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات العلى ، وأثبتوا له مانزه نفسه عنه من أضداد ما تقتضى أسماؤه وصفاته ، وكذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم فبعداً لقوم لا يؤمنون .

فائـــــدة

قال الحافظ الذهبى رحمه الله تعالى : المتأخرون من أهل النظر قالوا مقالة مولدة ما علمت أحدا سبقهم بها ، قالوا : هذه الصفات تمر كما جاءت ولا تؤول مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . فتفرع من هذا أن الظاهر يعنى به أمران : أحدهما أنه لا تأويل لها غير دلالة الخطاب كما قال السلف الصالح : الاستواء معلوم ، وكما قال سفيان وغيره : قراءتها تفسيرها ، يعنى أنها بينة واضحة فى اللغة لا ينبغى بها مضايق التأويل والتحريف ، وهذا هو مذهب السلف مع اتفاقهم أيضا أنها لا تشبه صفات البشر بوجه ، إذ البارى لا مثل له لا فى ذاته ولا فى صفاته . الثانى أن ظاهرها هو الذى يتشكل فى الخيال من من الصفة كما يتشكل فى الذهن من وصف البشر ، فهذا غير مراد ، فإن الله تعالى فرد صمد ليس له نظير ، وإن تعددت صفاته فانها حق ، لكن مالها مثل ولا نظير ، فمن ذا الذى عاينه ونعته لنا ، ومن ذا الذى يستطيع أن ينعت لنا كيف سمع موسى كلامه ؟ والله إنا لعاجزون كالون جائرون باهتون فى حد الروح التى فينا وكيف تعرج كل ليلة إلى بارئها ، وكيف يرسلها ، وكيف تستقل بعد الموت ، وكيف حياة الشهيد المرزوق عند ربه بعد قتله ، وكيف حياة النبيين الآن ، وكيف شاهد النبى ﷺ أخاه موسى يصلى قائماً ، ثم رآه فى السماء السادسة وحاوره وأشار إليه بمراجعة رب العالمين وطلب التخفيف منه على أمته ، وكيف ناظر موسى أباه آدم وحجه آدم بالقدر السابق وبأن اللوم بعد التوبة وقبولها لا فائدة فيه ، وكذلك تعجز عن وصف هيئتنا فى الجنة ووصف الحور العين ، فكيف بنا إذا انتقلنا إلى الملائكة وذواتهم وكيفيتها وأن بعضهم يمكنه أن يلتقم الدنيا فى لقمة مع رونقهم وحسنهم وصفاء جوهرهم النورانى ، فالله أعلى وأعظم ، وله المثل الأعلى والكمال المطلق ولا مثل له أصلا (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) انتهى كلامه بحروفه . قلت قوله : من ذا الذى عاينه فنعته ، هذا لا معنى له ، فان المؤمنين يرونه تعالى فى الجنة عيانا بأبصارهم ولا يستطيع أحد منهم نعته تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) . (ولا يحيطون به علماً) وكان حقه أن يقول : من ذا الذى أحاط به علماً فنعته ، وقوله الثانى أن ظاهرها الذى يتشكل فى الخيال إلخ قد قدمنا أن هذا التصور الفاسد هو الذى يعمل جهله النفاة على ما صنعوا من النفى حين لم يفهموا من ظاهرها إلا ما يقوم بالمخلوق ولم يتدبروا من هو

المعروف فأساءوا الظن بالوحي ثم قاسوا وشبهوا بعد أن فكروا وقدروا ثم نفوا وعطلوا ، وسحقاً لأصحاب السعير .

وقد أفصح الوحي المبين ؛ من الكتاب والسنة وكذلك الصحف الأولى (عنه) غاية الإفصاح وسبحانه الله تبارك وتعالى أكثر من شرح بقية الأحكام لعظم شأن متعلقه ، وفحص ؛ كتاب (الهدى المنير) أى من الوحي المبين لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا منه . ومن خرج عن الوحي مثقال ذرة ضل وغوى ولابد ، فانا لا نعلم من علم الله سبحانه إلا ما علمنا هو ، فنصدق بما أخبر به عن نفسه وأخبرت به رسله عنه كما ننقاد ونسلم ونمتثل لما أمر ، ونجتنب ما نهى عنه وزجر ، بل إن تأويل الأمر والنهى أخف جرماً من تأويل معنى الربوبية والأسماء والصفات والتكذيب بالبعث والنشور والوعد والوعيد دون التكذيب بما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى وأخبرت عنه به رسله من ذلك مع أن جرم كل منهما أعظم . أعاذنا الله وجمع المسلمين من الزيغ والضلال ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون .

لا تتبـع أقـوال كل مـارد	غاو مضـل مـارق معانـد
فليس بعـد رد ذا التبيـان	مثقـال ذرة مـن الإيمـان

(لا تتبع) أيها العبد (أقوال كل مارد) على بدعته وزندقته واتباع هواه ، (غاو) زائغ فى دينه مفتون فى عقيدته (مضل) لغيره (مارق) من الإسلام معاند (لنصوص الكتاب والسنة وما دلت عليه . مكذب بالكتاب وبما أرسل إليه به رسله) ، (فليس) يبقى (بعد رد ذا التبيان) الذى جاء فى الكتاب والسنة من الآيات المحكمة الصريحة والأحاديث الثابتة الصحيحة (مثال ذرة من الإيمان) فى قلب من رد ذلك لأن الله تعالى هو الحق وقوله الحق (وماذا بعد الحق إلا الضلال) وقال تعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا) وقال تعالى (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) وقال تعالى (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) وقال تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون . ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) وهذه الآيات يدخل فيها كل مكذب بأى شيء من الكتاب ، فكيف إذا كذب بصفات منزل الكتاب ، بل جحد أن يكون الله تعالى تكلم بالكتاب ، ألا لعنة الله على الظالمين .

فصـــل

والملاحدة فى توحيد المعرفة والاثبات فرق كثيرة وأشياع متفرقة ، ولكن رءوسهم خمس طوائف : الأولى سلبية محضاً يثبتون إثباتا هو عين النفى ويصفون البارى تعالى بصفات العدم المحض الذى ليس هو بشيء البتة ، وليس له عندهم حقيقة غير أنهم يقولون هو موجود لا داخل العالم ولا خارجاً عنه ولا مبايناً له ولا محايثا وليس على العرش ولا غيره ولا يثبتون له ذاتاً ولا اسماً ولا صفة ولا فعلا بل ذلك عندهم هو عين الشرك ، وهذا هو الذى صرح به غلاة الجهمية ، وقد كان قدماؤهم يتحاشون عنه ويتسترون منه ، وكان السلف من أئمة الحديث يتفرسون فيهم ذلك وأنهم يبطنونه ولا يبوحون به ، وقد قدمنا عن جماعة من السلف قولهم فى الجهمية : إنما يحاولون أن يقولوا ليس فى السماء إله يعبد ، ويقول بعضهم : إنهم يزعمون أن إلهك الذى فى السماء ليس بشيء ، ولكنه لم يصرح بذلك ويظهره إلا ابن سينا صاحب الإشارات تلميذ الفارابى ، وهو منسوب إلى أرسطو اليونانى ، وهو يرجع إلى مذهب الدهرية الطبائعية فى المعنى ، وهو الذى نصره الملحد الكبير نصير الشرك الطوسى وأشباهه ، قبحهم الله تعالى .

الطائفة الثانية الحلولية الذين يزعمون أن معبودهم فى كل مكان بذاته وينزهونه عن استوائه على عرشه وعلوه على خلقه . ولم يصونوه عن أقبح الأماكن وأقذرها ، وهؤلاء هم قدماء الجهمية الذين تصدى للرد عليهم أئمة الحديث كأحمد بن حنبل وغيره ، ولهذا قال جهم بن صفوان لما ناظره السمنية فى ربه وحار فى ذلك ففكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر فقال : هو هذا الهواء الذى هو فى كل مكان ، وكذلك كان يقوم كثير من أتباعه ، ولم يكن ولا هم يريدون ذلك وإنما كانوا يتوسلون به إلى السلب المحض والتعطيل الصرف كما فهمه منهم أئمة الإسلام رحمهم الله كلما أفصحوا به من نفى أسماء البارى وصفاته وكلامه ورؤيته فى الدنيا والآخرة وأفعاله وحكمته وغير ذلك كما تقدم حكايته عنهم قريباً ورد شبهاتهم الداحضة .

الطائفة الثالثة الاتحادية وهم القائلون : إن الوجود بأسره هو الحق ، وأن الكثرة وهم ، بل جميع الأضداد المتقابلة والأشياء المتعارضة الكل شيء واحد هو معبودهم فى زعمهم ، وهم طائفة ابن عربى الطائى صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرهما مما حرف فيه

الكلم عن مواضعه وتلاعب فيه بمعانى الآيات وأتى بكفر لا يشبه كفر اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، ولا النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله وقالوا هو الله وقالوا ثالث ثلاثة ، فان النصارى وأشباهم خصوا الحلول والاتحاد بشخص معين وهؤلاء جعلوا الوجود بأسره على اختلاف أنواعه وتقابل أضداده مما لا يسوغ التلفظ بحكايته هو المعبود . فلم يكفر هذا الكفر أحد من الناس ، وكان هذا المذهب الذى انتحله ابن عربى ونظمه ابن الفارض فى تائيته (نظم السلوك) ، وأصل هذا المذهب الملعون انتحله ابن سبعين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن قط الدين أبو محمد المقدسى الرقوطى نسبة إلى رقوطة بلدة قريبة من مرسية ، ولد سنة أربع عشرة وستمائة واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة فتولد له الإلحاد من ذلك وصنف فيه ، وكان يعرف السيمياء ويلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ، ويزعم أنه حال من أحوال القوم . وله من المصنفات كتاب البدو ، وكتاب الهو . وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها أبى نمى ، وجاور فى بعض الأوقات بغار حراء يرتجى فيه الوحى أن ينزل عليه كما أتى النبى ﷺ بناء على مايعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة وأنها فيض يفيض على العقل إذا صفا فما حصل له إلا الخزى فى الدنيا والآخرة إن كان مات على ذلك ، وكان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم كأنهم الحمير حول المدار وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت ، فالله يحكم فيه وفى أمثاله ، وقد نقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال . توفى يوم ثمانية وعشرين من شوال سنة تسع وستين وستمائة .

الطائفة الرابعة نفاة القدر وهم فرقتان : فرقة نفت تقدير الخير والشر بالكلية وجعلت العباد هم الخالقين لأفعالهم خيرها وشرها ، ولازم هذا القول أنهم هم الخالقون لأنفسهم لأن فى قولهم نفى تصرف الله فى عباده وإخراج أفعالهم عن خلقه وتقديره ، فيكون تكونهم من التراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى آخر أطوار التخليق هم بأنفسهم تطوروا ، وبطبيعتهم تخلقوا ، وهذا راجع إلى مذهب الطبائعية الدهرية الذين لم يثبتوا خالقاً أصلا كما قدمنا مناظرة أبى حنيفة لبعضهم فأسلموا على يديه . وفرقة نفت تقدير الشر دون الخير فجعلوا الخير من الله وجعلوا الشر من العبد ، ثم منهم من ينفى تقدير الشر من أعمال العباد دون تقديره فى المصائب ، ومنهم من غلا فنفى تقدير الشر من المصائب والمعايب . وعلى كل حال فقد أثبتوا مع الله تعالى خالقاً بل جعلوا العباد معه خالقين كلهم ، ونفوا أن

يكون الله هو المتفرد بالتصرف فى ملكوته ، وهذا راجع إلى مذهب المجوس الثنوية الذين أثبتوا خالقين خالقاً للخير وخالقاً للشر قبحهم الله تعالى .

الطائفة الخامسة الجبرية الذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسراً ولا فعل له أصلا بل إثبات الفعل للعبد هو عين الشرك عندهم بل هو كالهاوى من أعلى إلى أسفل وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية ولم يكلفه الله وسعه بل حمله مالا طاقة له به ، ولم يخلق فيه اختياراً لأفعاله ولا قدرة له عليها بل الطاعة والعصيان من الأقوال والأعمال هى عندهم عين فعل الله عز وجل ، فرفعوا اللوم عن كل كافر وفاسق وعاص وأنه يعذبهم على نفس فعله لا على أعمالهم القبيحة ، ثم اعتقدوا أن المعاصى التى نهى الله عنها فى كتبه وعلى ألسنة رسله إذا عملوها صارت طاعات لأنهم يقولون أطعنا مشيئة الله الكونية فينا ، بل لم يثبتوا الارادة الشرعية البتة ومن يثبتها منهم يقول فى الطاعات أطعنا الإرادة الشرعية وفى المعاصى التى سماها الله معاصى أطعنا الإرادة الكونية وأما هم فلم يثبتوا معصية أصلا بل أفعالهم جميعها حسنها وقبيحها كلها عندهم طاعات على أصلهم هذا الفاسد ، وفى ذلك رد منهم على الله تعالى أمره ونهيه ووعده ووعيده وفرضه على عباده جهاد الكفار وإقامة الحدود بل فى إرساله الرسل وإنزاله الكتب ، فيجب عندهم تعطيل الشرائع بالكلية والاحتجاج على نفيها بالقدر الكونى ومحاربتها به وإثبات الحجة على الله لكل كافر وفاسق وعاص وهذا كفر لم يسبقهم إليه غير إمامهم إبليس اللعين إذا يحتج على الله تعالى بحجتهم هذه فقال (فبما أغويتنى) والعجب أن هذا المذهب المخذول موروث عن جهم بن صفوان مع تناقضه فى إثبات أفعال الله عز وجل فإنه لا يثبت لله تعالى فعلا يقوم بذاته أصلا بل أفعاله خارجة عنه قائمة بغيره من المخلوقات ، ثم ينقض ذلك بجعله أفعال العباد أفعال الله ، وهذا تناقض بين لكل عاقل فان الفعل إنما يضاف إلى من قام به والقول إلى من قاله وكذا السمع والبصر والقدرة وغيرها محال أن تضاف إلى غير من قامت به ومحال أن يسمى فاعلا بدون فعل يقوم به ، ولو ذهبنا نعد تشعب الفرق من هذه الطوائف ولوازم كل قول مما انتحلوه لاحتاج إلى كتاب مفرد ، وقد أفرد ذلك بالتصنيف غير واحد من الأئمة ، وقد قدمنا البعض من ذلك وذكرنا أمثلة من تحريفهم النصوص ، وسيأتى الكلام على الدهرية فى الايمان بالبعث ، وعلى نفاة القدر والغلاة فيه فى باب القدر ، والكلام على الخوارج والمرجئة والمعتزلة وأشباههم فى باب الإيمان والدين .، والكلام على الروافض والنواصب فى باب ذكر الصحابة . وهذه الطوائف التى خالفت فى توحيد المعرفة والإثبات مرجعها إلى ثلاث :

فالحلولية والاتحادية والسلبية ومن فى معناهم مرجعهم إلى الصَّبائعية الدهرية ، والقدرية النفاة بجميع فرقهم مرجعهم إلى المجوس الثنوية ، والجبرية الغلاة مرجعهم إلى النزعة الجهمية الإبليسية وقد قدمنا قول المؤمنين أتباع الرسل مبسوطاً بما فيه كفاية .

(فصل) والمخالفون لأهل السنة فى القرآن سبع طوائف ذكرهم شيخ الإسلام بن تيمية فى المنهاج وابن القيم فى الصواعق وهذا نصه ، قال رحمه الله تعالى :

(فصل) اختلف أهل الأرض فى كلام الله تعالى ، فذهب (الاتحادية) القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام فى الوجود كلام الله نظمه ونثره وحقه وباطله سحره وكفره ، والسب والشتم والهجر والفحش وأضداده كله عين كلام الله تعالى القائم به كما قال عارفهم :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا المذهب مبنى على أصلهم الذى أصلوه ، وهو أن الله سبحانه هو عين هذا الوجود ، فصفاته هى صفات الله وكلامه هو كلام الله وأصل هذا المذهب إنكار مسألة المباينة والعلو ، فإنهم لما أصلوا أن الله تعالى غيرَ مباين لهذا العالم المحسوس صاروا بين أمرين لا ثالث لهما إلا المكابرة : أحدهما أنه معدوم لا وجود له ، إذ لو كان موجوداً لكان إما داخل العالم وإما خارجاً عنه ، وهذا معلوم بالضرورة ، فإنه إذا كان قائماً بنفسة فإما أن يكون مبايناً للعالم أو محايثا له إما داخلا فيه وإما خارجاً عنه . الأمر الثانى أن يكون هو عين هذا العالم ، فإنه يصح أن يقال فيه حينئذ أنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مبايناً له ولا حالا فيه ، إذ هو عينه ، والشىء لا يباين نفسه ولا يحايثها ، فرأوا أن هذا خير من إنكار وجوده والحكم عليه بأنه معدوم ، ورأوا أن الفرار من هذا إلى إثبات موجود قائم بنفسه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا مباين له ولا محايث ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه فراراً إلى مالا يسيغه عقل ولا تقبله فطرة ولا تأتى به شريعة . ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه إلا على أحد وجهين لا ثالث لهما : أحدهما أن يكون سارياً فيه حالا فيه فهو فى كل مكان بذاته ، وهو قول جميع الجهمية الأقدمين . الوجه الثانى أن يكون وجوده فى الذهن لا فى الخارج فيكون وجوده سبحانه وجوداً عقلياً إذ لو كان موجوداً فى الأعيان لكان إما عين هذا العالم أو غيره ، ولو كان غيره

لكان إما بائناً عنه أو حالا فيه وكلاهما باطل ، فثبت أنه عين هذا العالم ، فجعلوا كل شيء حسن وقبيح وكل صفة كمال ونقص وكل كلام حق وباطل ، نعوذ بالله من ذلك .

المذهب الثانى مذهب (الفلاسفة) المتأخرين أتباع أرسطو ، وهم الذين يحكى ابن سينا والفارابى والطوسى قولهم : إن كلام الله فيض فاض من العقل الفعال على النفوس الفاضلة الزكية بحسب استعدادها ، فأوجب لها ذلك الفيض تصورات وتصديقات بحسب ماقبلته منه . ولهذه النفوس عندهم ثلاث قوى : قوة التصور ، وقوة التخييل ، وقوة التعبير . فتدرك بقوة تصورها من المعانى مايعجز عنه غيرها ، وتدرك بقوة تخييلها شكل المعقول فى صورة المحسوس ، فتتصور المعقول صوراً نورانية تخاطبها وتسمع منها كلاما تؤديه إلى الناس . وهو عندهم كلام الله ، ولا حقيقة له فى الخارج وإنما ذلك من القوة الخيالية الوهمية . قالوا ربما قويت هذه القوة على إسماع ذلك الخطاب لغيرها ، وتشكيل تلك الصور العقلية لعين الرائى ، فيرى الملائكة ويسمع خطابهم ، وكل ذلك من الوهم والخيال لا فى الخارج . فهذا أصل هؤلاء فى إثبات كلام الرب وملائكته ورسله وأنبيائه . والأصل الذى بنوا عليه هذا عدم الإقرار بالرب الذى عرفت به الرسل ودعت إليه وهو الذات نفسه المباين لخليقته العالى فوق سمواته فوق عرشه الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته العالم بجميع المعلومات القادر على كل شيء ، فهم أنكروا ذلك كله .

المذهب الثالث مذهب (الجهمية) النفاة لصفات الرب تعالى القائلين : إن كلامه مخلوق ومن بعض مخلوقاته فلم يقم بذاته سبحانه ، فاتفقوا على هذا الأصل واختلفوا فى فروعه . قال الأشعرى فى كتاب المقالات : اختلفت المعتزلة فى كلام الله تعالى هل هو جسم أو ليس بجسم وفى خلقه على ستة أقاويل : فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن كلام الله جسم وأنه مخلوق وأنه لاشيء إلا جسم . والفرقة الثانية زعموا أن كلام الخلق عرض وهو حركة لأنه لا عرض عندهم إلا الحركة . وأن كلام الخالق جسم وأن ذلك الجسم صوت مقطع مؤلف مسموع وهو فعل الله وخلقه ، وهذا قول النظام وأصحابه . وأحال النظام أن يكون كلام الله فى أماكن كثيرة أو مكانين فى وقت واحد وزعم أنه فى المكان الذى خلق فيه . والفرقة الثالثة من المعتزلة تزعم أن القرآن مخلوق لله وأنه عرض وأنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد إذا تلاه تال فهو يوجد مع تلاوته ، وإذا كتبه وجد مع كتابته ، وإذا حفظه وجد مع حفظه ، وهو يوجد فى الأماكن بالتلاوة والحفظ والكتابة ولا

يجوز عليه الانتقال والزوال . والفرقة الرابعة يزعمون أن كلام الله عز وجل عرض وأنه مخلوق ، وأحالوا أن يوجد فى مكانين فى وقت واحد وزعموا أن المكان الذى خلقه الله تعالى فيه محال انتقاله وزواله منه ووجوده فى غيره ، وهذا قول جعفر بن حرب وأكثر البغداديين . الفرقة الخامسة أصحاب معمر يزعمون أن القرآن عرض ، والأعراض عندهم قسمان : قسم منهما يفعله الأحياء ، وقسم منهما يفعله الأموات ومحال أن يكون ما يفعله الأموات فعلا للأحياء . والقرآن مفعول وهو عرض ومحال أن يكون الله فعله فى الحقيقة ، لأنهم يحيلون أن تكون الأعراض فعلا لله وزعموا أن القرآن فعل للمحل الذى يسمع منه إذا سمع من الشجرة فهو فعل لها ، وحيث سمع فهو فعل المحل الذى حل فيه . الفرقة السادسة يزعمون أن كلام الله عرض مخلوق وأنه يوجد فى أماكن كثيرة فى وقت واحد ، وهذا قول الإسكافى . واختلفت المعتزلة فى كلام الله هل يبقى ؟ فقالت فرقة منهم : يبقى بعد خلقه ، وقالت فرقة أخرى : لا يبقى ، وإنما يوجد فى الوقت الذى خلقه الله ثم يعدم بعد ذلك . وهذا المذهب هو من فروع ذلك الأصل الباطل المخالف لجميع كتب الله ورسله ولصريح المعقول والفطر من جحد صفات الرب وتعطيل حقائق أسمائه وصفاته ونفى قيام الأفعال به ، فلما أصلوا أنه لا يقوم به وصف ولا فعل كان من فروع هذا الأصل أنه لم يتكلم بالقرآن ولا بغيره ، وأن القرآن مخلوق ، وطرد ذلك إنكار ربوبيته وإلهيته فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالا مدبراً متصرفاً فى خلقه يعلم ويقرر ويريد ويسمع ويبصر ، فإذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهى ولوازمهما وذلك ينفى حقيقة الألهية ، فطرد ما أصلوه أن الله سبحانه ليس برب العالمين ولا إله فضلا عن أن يكون لا رب غيره ولا إله سواه .

المذهب الرابع مذهب (الكلابية) أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب أن القرآن معنى قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة ، وأنه لازم لذات الرب كلزوم الحياة والعلم ، وأنه لا يسمع على الحقيقة ، والحروف والأصوات حكاية له دالة عليه وهى مخلوقة وهو أربعة معانى فى نفسه : الأمر ، والنهى ، والخبر ، والاستفهام . فهى أنواع لذلك المعنى القديم الذى لا يسمع ، وذلك المعنى هو المتلو المقروء ، وهو غير مخلوق ، والأصوات والحروف هى تلاوة العباد وهى مخلوقة . وهذا المذهب أول من يعرف أنه قال به ابن كلاب وبناه على أن الكلام لابد أن يقوم بالمتكلم ، والحروف والأصوات حادثة فلا يمكن أن تقوم بذات الرب تعالى لأنه ليس محلا للحوادث ، فهى مخلوقة منفصلة عن الرب ، والقرآن اسم لذلك المعنى وهو غير مخلوق .

المذهب الخامس مذهب (الأشعرى) ومن وافقه أنه معنى واحد قائم بذات الرب تعالى ، لأنه ليس بحرف ولا صوت ولا ينقسم ولا له أبعاض ولا له أجزاء وهو عين الأمر وعين النهى وعين الخبر وعين الاستخبار ، الكل واحد ، وهو عين التوراة وعين الإنجيل والقرآن والزبور ، وكونه أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً صفات لذلك المعنى الواحد لا أنواع له ، فإنه لا ينقسم بنوع ولا جزء وكونه قرآناً وتوراة وإنجيلا تقسيم للعبارات عنه لا لذاته ، بل إذا عبر عن ذلك المعنى بالعربية كان قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا والمعنى واحد وهذه الألفاظ عبارة عنه ولا يسميها حكاية ، وهى خلق من المخلوقات ، وعنده لم يتكلم الله بهذا الكلام العربى ولا سمع من الله ، وعنده ذلك المعنى سمع من الله حقيقة ويجوز أن يرى ويشم ويذاق ويلمس ويدرك بالحواس الخمس ، إذ المصحح عنده لإدراك الحواس هو الوجود ، فكل وجود يصح تعلق الإدراكات كلها به كما قرره فى مسألة رؤية من ليس فى جهة الرائى وأنه يرى حقيقة وليس مقابلا للرائى . هذا قولهم فى الرؤية وذلك قولهم فى الكلام . والبلية العظمى نسبة ذلك إلى الرسول ﷺ وأنه جاء بهذا ودعا إليه الأمة وأنهم أهل الحق ومن عداهم أهل الباطل . وجمهور العقلاء يقولون إن تصور هذا المذهب كاف فى الجزم ببطلانه ، وهو لا يتصور إلا كما يتصور المستحيلات الممتنعات . وهذا المذهب مبنى على مسألة إنكار قيام الأفعال والأمور الاختيارية بالرب تعالى ويسمونها مسألة حلول الحوادث وحقيقتها إنكار أفعاله وربوبيته وإرادته ومشيئته .

وأقول الحق يقال لا نشك أن ابن القيم هذا وشيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى من أعلم من صنف فى المقالات والملل والنحل وأدراهم بمواردها ومصادرها وأبصرهم برد الباطل منها وإدحاضه وأوفاهم تقريراً لمذهب السلف أهل السنة والجماعة وأشدهم تمسكاً به ونصرة له ، وأكملهم تحريراً لبراهينه عقلا ونقلا ، وأكثرهم اشتغالا بهذا الباب وتنقيباً عن عامل البدع فيه واجتثاثاً لأصولها ، ولكن هذا الذى ذكره رحمه الله تعالى عن الأشعرى فى مسألة القرآن هو الذى وجدناه عمن ينتسب إلى الأشعرى ويسمون أنفسهم أهل الحق ويقررون ذلك ويكررونه فى كتبهم ويناظرون عليه . وأما أبو الحسن الأشعرى نفسه رحمه الله تعالى فالذى قرره فى كتابه (الإبانة) الذى هو من آخر ما صنف هو قول أهل الحديث ساقه بحروفه وجاء به برمته واحتج فيه ببراهينهم العقلية والنقلية ثم نقل أقوال الأئمة فى ذلك كأحمد بن حنبل ومالك بن أنس والشافعى وأصحابه والحمادين والسفيانين وعبد العزيز بن الماجشون والليث بن سعد وهشام وعيسى بن يونس وحفص بن غياث وسعد بن عامر وعبد

الرحمن بن مهدي وأبي بكر ابن عياش ووكيع وأبي عاصم النبيل ويعلى بن عبيد ومحمد بن يوسف وبشر بن المفضل وعبد الله بن داود وسلام بن أبي مطيع وابن المبارك وعلي بن عاصم وأحمد بن يونس وأبي نعيم وقبيصة بن عقبة وسليمان بن داود وأبي عبيد القاسم بن سلام [illegible] [illegible] فصول كلامه بحروفه . فإنه وإن أخطأ في تأويل بعض [illegible] الكلام يدل على أنه مخالف للمنتسبين إليه من المتكلمين [illegible] في إثبات الاستواء والنزول والرؤية والوجه واليدين والغضب [illegible] في مقالاته بأنه قائل بما قال الإمام أحمد بن حنبل وأئمة الحديث معتقد ما هم عليه [illegible] لما أنبتوه محو ما أحدث المتكلمون من تحريف الكلم عن مواضعه وصرف اللفظ عن ظاهره وإخراجه عن حقيقته ، وبالجملة فبينه وبين المنتسبين إليه بون بعيد بل هو بريء منهم وهم منه برآء والموعد الله وكفى بالله حسيبا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله (١) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : المذهب السادس مذهب (الكرامية) وهو أنه متعلق بالمشيئة والقدرة قائم بذات الرب تعالى ، وهو حروف وأصوات مسموعة ، وهو حادث بعد أن لم يكن ، فهو عندهم متكلم بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن متكلماً كما يقول سائر فرق المتكلمين أنه فعل بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن فاعلا ، كما ألزموا به الكرامية في مسألة الكلام فهو لازم لهم في مسألة الفعل ، والكرامية أقرب إلى الصواب منهم ، فإنهم أثبتوا كلاما وفعلا حقيقة قائمين بذات المتكلم الفاعل ، وجعلوا لها أولا فراراً من القول بحوادث لا أول لها . وسائر خصومهم أبطلوا حقيقة الكلام والفعل وقالوا لم يقم به فعل ولا كلام البتة ، وأما

---

(١) [illegible] الأشعري [illegible] ثلاثة أدوار : الأول أنه كان مع المعتزلة في البصرة . والثاني [illegible] [illegible] وقد استمر [illegible] نحو عشرين سنة ألف [illegible] المذهب المنسوب إليه . وهو الذي اضطر شرح [illegible] والتنبيه على ما يخالف منه مذهب السلف . أما الدور الثالث من حياة [illegible] بعد انتقاله من البصرة إلى بغداد واتصاله بأهل الحديث وأتباع الإمام [illegible] (الإبانة) . ولا شك أن (الإبانة) من آخر مصنفاته إن [illegible] مترجموه . ففي هذين الكتابين مذهبه الذي أراد أن يلقى الله عليه . والذي كان عليه في [illegible] عنه وبقي منسوباً إليه وهو بريء منه كبراءته من الاعتزال الذي كان من رجاله في صدر حياته .

محب الدين الخطيب

من أثبت منهم معنى قائماً بنفسه سبحانه فلو كان ما أثبته مفعولا لكان من جنس الإرادة والعلم لم يكن شيئاً خارجاً عنهما ، فهم لم يثبتوا لله كلاماً ولا فعلاً ، وأما الكرامية فإنهم جعلوه متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً كما جعله خصومهم فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا .

المذهب السابع مذهب (السالمية) ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة وأهل الحديث أنه صفة قديمة قائمة بذات الرب تعالى لم يزل ولا يزال لا يتعلق بقدرته ومشيئته ومع ذلك هو حروف وأصوات وسور وآيات سمعه جبريل منه وسمعه موسى بلا واسطة ويسمعه سبحانه من يشاء . وإسماعه نوعان : بواسطة وبلا واسطة ، ومع ذلك فحروفه وكلماته لا يسبق بعضهما بعضا بل هي مقترنة الباء مع السين مع الميم في آن واحد ثم لم تكن معدومة في وقت من الأوقات ولا تعدم بل لم تزل قائمة بذاته سبحانه قيام صفة الحياة والسمع والبصر ، وجمهور العقلاء قالوا إن تصور هذا المذهب كاف في الجزم ببطلانه ، والبراهين العقلية والأدلة القطعية شاهدة ببطلان هذه المذاهب كلها وأنها مخالفة لصريح العقل والنقل . والعجب أنها هي الدائرة بين فضلاء العالم لا يكادون يعرفون غيرها . ثم ذكر رحمه الله تعالى قول أتباع الرسل وأطال على ذلك . ثم مسألة تكلم العباد بالقرآن وساق فيه كثيراً من كلام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه وفي كتاب خلق أفعال العباد لأنه من أحسن الأئمة توضيحاً وتفصيلا في هذه المسألة لما جرى عليه من محنة في شأنها . ثم ذكر الكلام على حروف المعجم وساق فيه أقوال الأئمة . ثم ذكر اللفظية في أثناء ذلك والواقفة . ثم ذكر فصلا في الكتابة له في الرق وغيره ، ثم فصلا في السماع ، ثم فصلا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في أول من أظهر إنكار أن الله سبحانه يتكلم بصوت في أثناء المئة الثالثة بن كلاب وأنكر عليه ذلك أئمة الحديث كأحمد والبخاري وغيرهما . وفي غضون هذه الفصول أبحاث نفيسة لا يستغنى عنها فلتراجع معه .

ثم قال رحمه الله تعالى : فصل . منشأ النزاع بين الطوائف أن الرب تعالى هل يتكلم بمشيئته أم كلامه بغير مشيئته ؟ على قولين ، فقالت طائفة كلامه بغير مشيئته واختياره . ثم انقسم هؤلاء أربع فرق . قالت فرقة : هو فيض فاض منه بواسطة العقل الفعال على نفس شريفة فتكلمت به كما يقول ابن سينا وأتباعه وينسبونه إلى أرسطو . وفرقة قالت : بل هو معنى قائم بذات الرب تعالى هو به متكلم وهو قول الكلابية ومن تبعهم . وانقسم هؤلاء فرقتين : فرقة قالت هو معان متعددة في أنفسها أمر ونهي وخبر واستخبار ، ومعنى جامع

لهذه الأربعة . وفرقة قالت بل هو معنى واحد بالعين لا ينقسم ولا يتبعض . وفرقة قالت كلامه هو هذه الحروف والأصوات خلقها خارجة عن ذاته فصار بها متكلماً ، وهذا قول المعتزلة ، وهو فى الأصل قول الجهمية تلقاه عنهم أهل الاعتزال فنسب إليهم . وفرقة قالت يتكلم بقدرته ومشيئته كلاماً قائماً بذاته سبحانه كما يقوم به سائر أفعاله لكنه حادث النوع ، وعندهم أنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً كما قاله من لم نصفهم من المتكلمين أنه صار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا . فقول هؤلاء فى الفعل المتصل كقول أولئك فى الفعل المنفصل ، وهذا قول الكرامية . وفرقة قالت يتكلم بمشيئته ، وكلامه سبحانه هو الذى يتكلم به الناس كله حق وباطله وصدقه وكذبه كما يقوله طوائف الاتحادية . وقال أهل الحديث والسنة إنه لم يزل سبحانه متكلماً إذا شاء ويتكلم بمشيئته ولم تتحدد له هذه الصفة بل كونه متكلماً بمشيئته هو من لوازم ذاته المقدسة وهو بائن عن خلقه بذاته وصفاته وكلامه ليس متحداً بهم ولا حال فيهم . واختلفت الفرق هل يسمع كلام الله على الحقيقة ؟ فقالت فرقة لايسمع كلامه على الحقيقة إنما تسمع حكايته والعبارة عنه ، وهذا قول الكلابية ومن تبعهم . وقالت بقية الطوائف بل يسمع كلامه حقيقة . ثم اختلفوا فقالت فرقة يسمعه كل أحد من الله تعالى . وهذا قول الاتحادية . وقالت فرقة بل لا يسمع إلا من غيره ، وعندهم أن موسى لم يسمع كلام الله منه ، فهذا قول الجهمية والمعتزلة . وقال أهل السنة والحديث : يسمع كلامه سبحانه منه تارة بلا واسطة كما سمعه موسى وجبريل وغيرهما وكما يكلم عباده يوم القيامة ويكلم أهل الجنة ويكلم الأنبياء فى الموقف ، ويسمع من المبلغ عنه كما سمع الأنبياء الوحى من جبريل تبليغاً عنه وكما سمع الصحابة القرآن من الرسول ﷺ عن الله فسمعوا كلام الله بواسطة المبلغ ، وكذلك نسمع نحن بواسطة التالى فإذا قيل المسموع مخلوق أو غير مخلوق ؟ قيل إن أردت المسموع عن الله تعالى فهو كلامه غير مخلوق ، وإن أردت المسموع من المبلغ ففيه تفصيل إن سألت عن الصوت الذى روى به كلام الله فهو مخلوق وإن سألت عن الكلام المؤدى بذلك الصوت فهو غير مخلوق . والذين قالوا إن الله يتكلم بصوت أربع فرق : فرقة قالت يتكلم بصوت مخلوق منفصل عنه وهم المعتزلة . وفرقة قالت يتكلم بصوت قديم لم يزل ولا يزال وهم السالمية والاقترانية . وفرقة قالت يتكلم بصوت حادث فى ذاته بعد أن لم يكن وهم الكرامية . وقال أهل السنة والحديث لم يزل الله تعالى متكلماً بصوت إذا شاء . والذين قالوا لا يتكلم بصوت فرقتان . أصحاب الفيض ، والقائلون إن الكلام معنى قائم بالنفس . انتهى ماأردنا إيراده من كلامه رحمه الله تعالى وقد

أودع هذه الأقوال وغيرها فى مسألة القرآن وغيرها فى نونيته الشافية الكافية . وأما مذهب أتباع الرسل فقد قدمنا فيه الشفاء الكافى من نصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة بما لايحتاج معه إلى غيره . وبالله التوفيق .

فصل فى بيان النوع الثانى من نوعى التوحيد
وهو توحيد الطلب والقصد وأنه معنى لا إله إلا الله

هــذا وثـانى نوعَـى التوحيـد إفـراد رب العـرش عن نـديـد
أن تعبـد الله إلهـاً واحـداً معترفـاً بحقـه لا جاحـداً

(هذا) أى الأمر والإشارة إلى ماتقدم من تحقيق النوع الأول من نوعى التوحيد[1] (وثانى نوعى التوحيد) هو (إفراد رب العرش عن نديد) شريك مساو ، وتفسير ذلك هو (أن تعبدَ الله) سبحانه وتعالى (إلهاً) حال من لفظ الجلالة (واحد) لا شريك له فى إلهيته كما لا شريك له فى ربوبيته وأسمائه وصفاته ، فإن توحيد الإثبات هو أعظم حجة على توحيد الطلب والقصد الذى هو توحيد الإلهية وبه احتج الله تعالى فى كتابه فى غُير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلهية لتلازم التوحيدين ، فإنه لا يكون إلهاً مستحقاً للعبادة إلا من كان خالقاً رازقاً مالكاً متصرفاً مدبراً لجميع الأمور حياً قيوماً سميعاً بصيراً عليماً حكيماً موصوفاً بكل كمال منزهاً عن كل نقص ، غنياً عما سواه ، مفتقراً إليه كل ماعداه ، فاعلا مختاراً لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا تخفى عليه خافية ، وهذه صفات الله عز وجل لاتنبغى إلا له ولا يشركه فيها غيره . فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز لغيره فحيث كان متفرداً بالخلق والإنشاء والبدء والإعادة لا يشركه فى ذلك أحد وجب إفراده بالعبادة دون من سواه لا يشرك معه فى عبادته أحد كما قال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) . وقال تبارك وتعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون — إلى قوله — قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى

تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون . إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.هو الذى جعل الشمس ضياءوالقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقال تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون) وقال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم فينبؤكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين . قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخيفة لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) وقال تعالى (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون . وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) إلى آخرها وقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات

لقوم يعقلون) وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون. خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين — إلى قوله — أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) إلى آخر السورة . وقال تعالى (قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهاداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقال تعالى (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) وقال تعالى (وإذا مس الإنسن ضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وهو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم إلى ربكم مرجعكم فينبؤكم بما كنتم تعملون) وقال تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقال تبارك وتعالى (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) وقال تعالى (ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير . ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء

ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير) وقال تعالى (أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، الله خير أم ما يشركون) إلى قوله (أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وقال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، إنه بكل شىء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) وقال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد — إلى قوله — ألم ترَ أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ، ذلك بأن الله هو الحق وأنما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ، ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، فإذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختال كفور) إلى آخر السورة . وقال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له مافى السموات ومافى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . هو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء

بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأ لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون) . وقال تعالى (هو الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تذكرون) إلى آخر الآيات . وقال تعالى (الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) وقال تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير . ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) وقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) إلى آخر الآيات . وقال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً . فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — إلى قوله — والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذاب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك) إلى آخر الآيات ، بل إلى آخر السورة. وقال تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ، سبحان الله تعالى عما يشركون) وقال تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل

حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون) وقال تعالى (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ، كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) إلى آخر الآيات . وقال تعالى (قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها.وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) وقال (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) الآيات ، وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) وغير ذلك من الآيات التى يقرر الله تعالى فيها ربوبيته ويمتن بنعمه وتفرده بأنواع التصرفات ، وعباد الأوثان يقرون بها لله عز وجل ، ويقرون بأن أوثانهم التى يدعون من دونه مخلوقة لاتملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولاموتاً ولاحياة ولا نشوزا ، ولا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنها شيئاً ، ويقرون بأن الله هو المتفرد بالخلق والرزق والضر والنفع والتقدير والتدبير وأنواع التصرفات ، ليس إليهم ولا إلى أوثانهم من ذلك شيء ، بل هو الخالق وماعداه مخلوق ، وهو الرب وماعداه مربوب ، غير أنهم جعلوا له من خلقه شركاء سووهم به فى استحقاق العبادة وأنكروا أن يكون تفرد بها وقالوا لمن قال لهم قولوا لا إله إلا الله (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) فألزمهم الله تعالى بما أقروا به من التفرد بالربوبية أن يعملوا بمقتضى ذلك ويلتزموا لازمه من توحيد الإلهية وأن يكفروا بما اتخذوا من دونه كما أقروا بعجزهم وعدم اتصافهم بشيء يستحقون به العبادة بل هم أقل وأذل وأحقر وأعجز عن أن يخلقوا ذبابا أو أن يستنقذوا منه شيئا سلبه . ومن تدبر هذه الآيات التى ذكرنا وما فى معناها حق التدبر علم يقينا أن عباد الأوثان مقرون بتوحيد الربوبية وشاهدون بتفرد الله بذلك وأنهم إنما أشركوا بالله فى الإلهية حيث عبدوا معه غيره ، هذا فى

الظاهر وإلا فأنواع التوحيد متلازمة ، من أشرك غير الله معه فى شىء منها فقد أشرك فيما عداه كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى بيان الشرك . ومما يقدر ذلك غاية التقدير حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأبيه حصين قبل إسلامه « كم تعبد اليوم من إله » قال : سبعة آلهة ، ستة فى الأرض وواحداً فى السماء . قال ﷺ « فمن تعد لرغبتك ورهبتك » قال الذى فى السماء . وتقدم أيضاً فى هذه الآية أنهم إنما كان شركهم بالله فى إلهيته فى حالة الرخاء ، وأما فى الشدة فكانوا يخلصون الدين لله لعلمهم أنه لايقدر على كشف ماهم فيه غيره ، وأن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع شيئاً كما قال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلم نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) وما فى معانيها من الآيات مما ذكرنا ومما لم نذكر . والمقصود أن الربوبية والإلهية متلازمان لا ينفك نوع منهما عن الآخر ، وأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إلا مكابرة كفر عون ونمرود ، والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقين اثنين تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

(معترفاً) حال من فاعل تعبد (بحقه) تعالى عليك وعلى جميع عباده (لا جاحداً) وحقه عليك أن تعبده لا تشرك به شيئاً كما قال تعالى (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً) قال (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وقال تعالى (أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وغيرها من الآيات سنذكر ما تيسر منها قريباً إن شاء الله تعالى . وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ﷺ على حمار ، فقال لى « يامعاذ ، أتدرى ماحق الله تعالى على العباد ، وماحق العباد على الله » ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئاً » الحديث .

وهو الذى به إلا له أرسلا — رسله يدعون إليه أولا
وأنزل الكتاب والتبيانا — من أجله وفرق الفرقانا

(وهو) أى توحيد الإلهية (الذى به الإله) عز وجل (أرسلا . رسله) من أولهم إلى آخرهم (يدعون إليه أولا) قبل كل أمر فلم يدعوا إلى شىء قبله ، فهم وإن اختلفت شرائعهم فى تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا فى الأصل الذى هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو إتفقت ، لا يشرك معه فيها غيره ، كما قال ﷺ « نحن

معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » وقد أخبر الله عز وجل عن اتفاق دعوة رسله إجمالا وتفصيلا فقال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد ﷺ وكذلك بقية الرسل ، وقال تعالى (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً) وفى الصحيح عن المغيرة رضى الله عنه قال : قال سعد بن عبادة رضى الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن . ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » وأما فى مقامات التفصيل فقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) إلى آخر الآيات وقال تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) . وهذا فى مقام مناظرته عليه الصلاة والسلام لعباد الكواكب على سبيل الاستدراج أو التوبيخ ليبين لهم سخافتهم

وجهلهم وضعف عقولهم فى عبادتهم هذه الكواكب المخلوقة لحكمة الله عز وجل المسخرة بقدرته وغفلتهم عن خالقها ومسخرها والمتصرف فيها وتركهم عبادته أو إشراكهم معه فيها غيره عز وجل فلما أقام عليهم الحجة) قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شيء علما أفلا تذكرون . وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أى (الذين آمنوا) يعنى صدقوا ووحدوا (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى شرك إذ هو الظلم الذى لايغفره الله عز وجل ، وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينا لم يظلم نفسه ؟ فأنزل الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) فالذين آمنوا الإيمان التام الذى لم تشبه شوائب الشرك الأكبر المنافى لجميعه ، ولا الشرك الأصغر المنافى لكماله ، ولا معاصى الله المحبطة لثمراته من الطاعات ، فأولئك لهم الأمن التام من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، والاهتداء التام فى الدنيا والآخرة . وبحسب ما ينقص من الايمان ينقص من الأمن والاهتداء ، فباجتناب الشرك الأكبر والأصغر يحصل مطلق الأمن والاهتداء ، وباجتناب المعاصى يحصل تمامهما . ثم قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) وقال تعالى (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون ، قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه

ماتعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) وقال تعالى (وإن من شيعته لابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أإفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وماتعملون . قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم) إلى آخر الآيات . وقال تعالى (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً ياأبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) فبين لأبيه أن آلهته لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تقدر على جلب خير ولا دفع شر ولا تغنى عنه شيئاً . فتبين بذلك أن عبادة مثل هذا جهل وضلال . ثم بين له أن عنده دواء ذلك الداء ، والهدى من ذلك الضلال فقال تعالى (إنى قد جاءنى من الغلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) وبين أن فعله ذلك عبادة للشيطان ، موجب لعذاب الرحمن وولاية الشيطان ، عياذاً بالله من ذلك . وقال تعالى (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) إلى آخر الآيات . وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) وقال تعالى عن يوسف عليه السلام (إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم) الآيات وغيرها . وكذلك قص الله تعالى علينا عن جميع الرسل من نوح

إلى محمد ﷺ فقال تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وماكان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا أن نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) الآيات . ولو ذهبنا نذكر قصص الرسل ومحاورتهم مع قومهم وعواقب ذلك لطال الفصل . وأما نبينا محمد ﷺ وسيرته فى قومه وصبره على أذاهم وماجرى له معهم فأجلى من الشمس فى نحر الظهيرة ، والقرآن كله من فاتحته إلى خاتمته فى شأن ذلك .

(وأنزل) الله عز وجل (الكتاب) اسم جنس لكل كتاب أنزله الله عز وجل على رسله وأشهرها الأربعة وهى التوراة على موسى موعظة وتفصيلا لكل شىء . والإنجيل على عيسى فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . والزبور على داود الذى كان إذا قرأه أوبت معه الجبال والطير ، والقرآن المنزل على نبينا محمد ﷺ بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . (والتبيانا) من عطف التفسير الذى هو أعم من المفسر لأن التبيان منه المتعبد بتلاوته والعمل به وهو الكتاب . ومنه المتعبد بالعمل به فقط وهو السنة ومافى معناها . (من أجله) أى من أجل التوحيد (وفرق الفرقانا) إذ يقول تعالى (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) الآيات . وسنذكر إن شاء الله تعالى أصل عبادة الأصنام وغيرها فى فصل بيان ضد التوحيد الذى هو الشرك وبالله التوفيق

وكلف الله الرسول المجتبى	قتال من عنه تولى وأبى
حتى يكون الدين خالصاً له	سراً وجهراً دقه وجله .
وهكذا أمته قد كلفوا	بذا وفى نص الكتاب وصفوا

(وكلف الله) تعالى أى أمر افتراض (الرسول المجتبى) نبيناً محمداً ﷺ (قتال) مفعول كلف الثانى (من عنه) عن التوحيد (تولى وأبى) أى أعرض وامتنع (حتى) غاية

للقتال (يكون الدين خالصاً له) أى لله عز وجل (سراً وجهراً) لا معارض له ولا مشاق (دقه وجله) أى قليل العبادة وكثيرها وصغيرها وكبيرها . قال الله تبارك وتعالى (يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) الآية ، وقال تعالى (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا) وقال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وقال تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) وقال تعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا) يعنى رجعوا عن الشرك إلى التوحيد (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) وغير ذلك من الآيات فى البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة والقتال والحديد والصف وغيرها ، وقال ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل » الحديث فى الصحيح ، ولو ذهبنا نذكر آيات الجهاد وأحاديثه لطال الفصل وليس هذا موضع بسطها .

(وهكذا) كما كلف ﷺ بجهاد الكفار (أمته) المستجيبون له (قد كلفوا بذا) أى الذى كلف به (وفى نص الكتاب) القرآن (وصفوا) أى بذلك كما قال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً) الآية ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) والآيات قبلها وبعدها ، ولو لم يكن فى ذلك إلا قول ربى عز وجل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) لكانت هذه الآية كافية فى نعش القلوب وتهييج النفوس وتشويقها وحملها على تلك البيعة الرابحة التى لا خطر لها ولا يحاط بعظم فضلها ، والله المستعان .

وقـد حـوتـه لفظـــة الشهـــادة　　فهـى سبيـل الفـوز والسعـادة
مـن قالهـا معتقـــداً معناهـــا　　وكـــان عامـــلا بمقتضاهـــا
فـى القـول والفعـل ومـات مؤمنـاً　　يبعـث يـوم الحشـر نـاج آمنـاً

(وقد حوته) أى جمعته واشتملت عليه (لفظة الشهادة) أى شهادة أن لا إله إلا الله (فهى) أى هذه الكلمة (سبيل الفوز) بدخول الجنة والنجاة من النار ، قال الله عز وجل (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . (و) هى سبيل (السعادة) فى الدارين أى طريقهما لا وصول إليهما إلا بهذه الكلمة فهى الكلمة التى أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار . وفى شأنها تكونُ الشقاوة والسعادة ، وبها تؤخذ الكتب باليمين أو الشمال ، ويثقل الميزان أو يخف ، وبها النجاة من النار بعد الورود ، وبعدم التزامها البقاء فى النار . وبها أخذ الله الميثاق ، وعليها الجزاء والمحاسبة ، وعنها السؤال يوم التلاق . إذ يقول تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون) وقال تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) فأما سؤاله تعالى الذين أرسل إليهم يوم القيامة فمنه قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) والآيات قبلها وبعدها وغير ذلك . وأما سؤاله المرسلين فمنه قوله تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ، قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وغير ذلك من الآيات ، وهى أعظم نعمة أنعم الله عز وجل بها على عباده أن هداهم إليها ، ولهذا ذكرها فى سورة النحل التى هى سورة النعم ، فقدمها أولا قبل كل نعمة فقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وهى كلمة الشهادة ومفتاح دار السعادة ، وهى أصل الدين وأساسه ورأس أمره وساق شجرته وعمود فسطاطه ، وبقية أركان الدين وفرائضه متفرعة عنها ، متشعبة منها . مكملات لها ، مقيدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها ، فهى العروة الوثقى التى قال الله عز وجل (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) قاله سعيد بن جبير والضحاك ، وهى العهد الذى ذكر الله عز وجل إذ يقول (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) قال ذلك عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والبراءة من الحول والقوة إلا بالله ، وأن لايرجو إلا الله عز وجل . وهى الحسنى التى قال الله عز وجل (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى) الآيات ، قاله أبو عبد الرحمن السلمى والضحاك ورواه عطية عن ابن عباس .

وهى كلمة الحق التى ذكر الله عز وجل إذ يقول تعالى (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) قال ذلك البغوى . وهى كلمة التقوى التى ذكر الله عز وجل إذ يقول (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) روى ذلك ابن جرير وعبد الله بن أحمد والترمذى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه عن النبى ﷺ . وهى القول الثابت الذى ذكر الله عز وجل إذ يقول تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أخرجاه فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه عن النبى ﷺ . وهى الكلمة الطيبة المضروبة مثلا قبل ذلك إذ يقول تعالى (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء) قاله على بن طلحة عن ابن عباس ، أصلها ثابت فى قلب المؤمن ، وفرعها العمل الصالح فى السماء صاعد إلى الله عز وجل . وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد . وهى الحسنة التى ذكر الله عز وجل إذ يقول (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) قال ذلك زين العابدين وإبراهيم النخعى ، وعن أبى ذر مرفوعاً « هى أحسن الحسنات ، وهى تمحو الذنوب والخطايا » . وهى المثل الأعلى الذى ذكر الله عز وجل إذ يقول (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) قال ذلك قتاده ومحمد بن جرير ، ورواه مالك عن محمد بن المنكدر . وهى سبب النجاة كما فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ سمع مؤذناً يقول « أشهد أن لا إله إلا الله » فقال ﷺ « خرجت من النار » وفيه عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » وفى حديث الشفاعة الآتى إن شاء الله تعالى « أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله . وكان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » . وهى سبب دخول الجنة كما فى الصحيحين عن — عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله الجنة من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » . وفى رواية « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » . وهى أفضل ماذكر الله عز وجل به ، وأثقل شىء فى ميزان العبد يوم القيامة كما فى السند عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ « أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته : آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعن فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن

السموات السبع والأرضين السبع كل حلقة مبهمة لفصمتهن لا إله إلا الله » . وفيه عنه أيضاً عن النبي ﷺ « أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به ، قال : ياموسى قل لا إله إلا الله . قال موسى : يارب كل عبدك يقولون هذا . قال : ياموسى قل لا إله إلا الله ، قال : لا إله إلا الله ، إنما أريد شيئاً تخصني به . قال : ياموسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وعامرهن غيري فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهن لا إله إلا الله » . وفى الترمذى والنسائى فى المسند عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : بلى أن لك عندنا حسنة ، وأنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضر وزنك فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . وهى التى لا يحجبها شيء دون الله عز وجل كما فى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال « لا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تصل إليه » وفيه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « ما من عبد قال لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت لها أبواب السماء حتى تفضى إلى العرش » ، وهى الأمان من وحشة القبور وهول الحشر كما فى المسند وغيره عن النبى ﷺ قال « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله وقد قاموا ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

واعلم أن النصوص الواردة فى فضل هذه الشهادة كثيرة لا يحاط بها ، وفيما ذكرنا كفاية ، وسنذكر إن شاء الله تعالى عند ذكر شروطها ماتيسر من نصوص الكتاب والسنة ، ويكفيك فى فضل لا إله إلا الله أخبار النبى ﷺ أنها أعلى جميع شعب الإيمان ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وسبعون — أو بضع وستون — شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » الحديث . وهذا لفظ مسلم .

(من قالها) أى قال هذه الكلمة حال كونه (معتقداً) أى عالماً ومتيقناً (معناها) الذى دلت عليه نفياً وإثباتاً (وكان) مع ذلك (عاملا بمقتضاها) على وفق ما علمه منها وتيقنه فإن ثمرة العلم العمل به (فى القول) أى قول القلب واللسان (والفعل) أى عمل القلب واللسان والجوارح قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون).ومات مؤمناً) أى على ذلك ، وهذا شرط لابد منه فإنما الأعمال بالخواتيم قال ﷺ « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » الحديث فى الصحيحين عن أبى ذر بطوله (يبعث يوم الحشر) أى يوم الجمع (ناج) من النار (آمناً) من فزع يوم القيامة كما قال تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) .

فإن معناها الذى عليه ... دلت يقيناً وهدت إليه
أن ليس بالحق إله يعبد ... إلا الإله الواحد المنفرد
بالخلق والرزق والتدبير ... جل عن الشريك والنظير

(فإن معناها) أى معنى هذه الكلمة (الذى عليه) متعلق بقوله (دلت) بصريح لفظها (وهدت) أى أرشدت (إليه) وهو (أن ليس بالحق) متعلق بيعبد (إله) هو اسم ليس ومنفيها والنكرة فى سياق النفى تعم والحكم المنفى (يعبد) الذى هو متعلق بالحق والاستحقاق فيخرج ماعبد بباطل ، ولذا سماه المشركون إلهاً فتسميته بذلك باطلة فلا يستحق أن يعبد . فمعنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله ، لا إله نافياً جميع مايعبد من دون الله فلا يستحق أن يعبد ، إلا الله مثبتاً العبادة لله فهو الإله الحق المستحق للعبادة ، فتقدير خبر لا المحذوف بحق هو الذى جاءت به نصوص الكتاب والسنة كما سنوردها إن شاء الله ، وأما تقديره بموجود فيفهم منه الاتحاد ، فإن الإله هو المعبود ، فإذا قيل لا معبود موجود إلا الله ، لزم منه أن كل معبود عبد بحق أو باطل هو الله فيكون ماعبده المشركون من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والأحجار والملائكة والأنبياء والأولياء وغير ذلك هى الله فيكون ذلك كله توحيداً ، فما عبد على هذا التقدير إلا الله إذ هى هو ، وهذا العياذ بالله أعظم الكفر وأقبحه على الاطلاق ، وفيه إبطال لرسالات جميع

الرسل وكفر بجميع الكتب وجحود لجميع السرائع وتكذيب بكل ذلك وتزكية لكل كافر من أن يكون كافراً إذ كل ما عبده من المخلوقات هو الله فلم يكن عندهم مشركاً بل موحداً ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . فإذا فهمنا هذا فلا يجوز تقدير الخبر موجود . إلا أن ينعت اسم لا بحق فلا بأس ويكون التقدير لا إله حقاً موجود إلا الله ، فبقيد الاستحقاق ينتفى المحذور الذى ذكرنا .

(إلا الإله الواحد المنفرد . بالخلق والرزق وبالتدبير . الخ) وهو الله سبحانه وتعالى ، أى هو الإله الحق ، فكما تفرد تعالى بالخلق والرزق والإحياء والاماتة والايجاد والاعدام والنفع والضر والاعزاز والاذلال والهداية والإضلال وغير ذلك من معانى ربوبيته ولم يشركه أحد فى خلق المخلوقات ولا فى التصرف فى شىء منها ، وتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى ولم يتصف بها غيره ولم يشبهه شىء فيها فكذلك تفرد سبحانه بالإلهية حقاً فلا شريك له فيها (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) ، (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ، (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ، (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . ومامن إله إلا الله ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) ، (إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ، (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله ، عليه يتوكل المتوكلون) ، (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) ، (قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن

كنتم صادقين) ، (قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفا تخذتم من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) ، (قل إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض ومابينهما العزيز الغفار) .

وبشروط سبعة قد قيدت وفى نصوص الوحى حقاً وردت
فانه لم ينتفع قائلها بالنطق إلا حيث يستكملها

(وبشروط سبعة) متعلق بقيدت (قد قيدت) أى قيد بها انتفاع قائلها بها فى الدنيا والآخرة من الدخول فى الإسلام والفوز بالجنة والنجاة من النار . (وفى نصوص الوحى) من الكتاب والسنة (حقاً وردت) صريحة صحيحة (فانه) أى الشأن وذلك علة تقييدها بهذه الشروط السبعة (لم ينتفع قائلها) أى قائل لا إله إلا الله (بالنطق) أى بنطقه بها مجرداً (إلا حيث يستكملها) أى هذه الشروط السبعة ، ومعنى استكمالها اجتماعها فى العبد والتزامه إياها بدون مناقضة منه لشيء منها ، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها فكم من عامى اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له اعددها لم يحسن ذلك . وكم حافظ لالفاظها يجرى فيها كالسهم وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها ، والتوفيق بيد الله ، والله المستعان .

العلم واليقين والقبول والانقياد فادر ما أقول
والصدق والاخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبه

هذا تفصيل الشروط السبعة السابق ذكرها التى قيدت بها هذه الشهادة ، فاصغ سمعك وأحضر قلبك لاملاء أدلتها وتفهمها وتعقلها ، ثم اعمل على وفق ذلك ، تفز بسعادة الدنيا والآخرة إن شاء الله عز وجل كما وعد الله تعالى ذلك إنه لا يخلف الميعاد :

الأول (العلم) بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافى للجهل بذلك ، قال الله عز وجل (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وقال تعالى (إلا من شهد بالحق) أى بلا إله إلا الله (وهم يعلمون) بقلوبهم معنى مانطقوا به بألسنتهم . وقال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وقال تعالى (قل هل

يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب ، وقال تعالى (إنما يخشى الله من عادة العلم ،) وقال تعالى (وتلك الأمثال نضر بها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون) وفى الصحيح عن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

(واليقين) أى والثانى اليقين المنافى للشك بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً ، فان الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن ، فكيف إذا دخله الشك ، قال الله عز وجل (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا فى سبيل الله — إلى قوله — أولئك هم الصادقون) فاشترط فى صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا ، أى لم يشكوا ، فأما المرتاب فهو من المنافقين — والعياذ بالله — الذين قال الله تعالى فيهم (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة » وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة » . وفيه عنه رضى الله عنه من حديث طويل أن النبى ﷺ بعثه بنعليه فقال « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » الحديث ، فاشترط فى دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاك فيها ، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط .

(و) الثالث (القبول) لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه ، وقد قص الله عز وجل علينا من أنباء ماقد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين) وقال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وكذلك أخبرنا بما وعد به القابلين لها من الثواب ، وماأعده لمن ردها من العذاب ، كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون) إلى قوله (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) فجعل الله تعالى علة

تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لاإله إلا الله ، وتكذيبهم من جاء بها ، فلم ينفوا ما نفته ولم يثبتوا ما أثبتته ، بل قالوا انكاراً واستكباراً (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق) وقالوا ههنا (أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) فكذبهم الله عز وجل ورد ذلك عليهم عن رسوله ﷺ فقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) إلى آخر الآيات ، ثم قال فى شأن من قبلها (إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) وفى الصحيح عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

(و) الرابع (الانقياد) لما دلت عليه المنافى لترك ذلك قال الله عز وجل (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو مؤمن) وقال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى بلا إله إلا الله (وإلى الله عاقبة الأمور) ومعنى يسلم وجهه أى ينقاد ، وهو محسن موحد . ومن لم يسلم وجهه إلى الله ولم يك محسناً فانه لم يستمسك بالعروة الوثقى ، وهو المعنى بقوله عز وجل بعد ذلك (ومن كفر فلا يحزنك كفره ، إلينا مرجعهم فننبؤهم بما عملوا) ، (إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وفى حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وهذا هو تمام الانقياد وغايته .

(و) الخامس (الصدق) فيها المنافى للكذب ، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه يواطىء قلبه لسانه ، قال الله عز وجل (آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) إلى آخر الآيات . وقال تعالى فى شأن المنافقين الذين قالوها كذبا (ومن الناس من يقول آمنا بالله

وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) وكم ذكر الله تعالى من شأنهم وأبدى وأعاد وكشف أستارهم وهتكها وأبدى فضائحهم فى غير ما موضع من كتابه كالبقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة وسورة كاملة فى شأنهم وغير ذلك . وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار » فاشترط فى إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقاً من قلبه ، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب . وفيها أيضاً من حديث أنس بن مالك وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما من قصة الأعرابى وهو ضمام بن ثعلبة وافد بنى سعد بن بكر لما سأل رسول الله ﷺ عن شرائع الإسلام فأخبره ، قال : هل على غيرها ؟ قال « لا ، إلا أن تطوع » ، قال : والله لا أزيد عليها ولا أنقص منها ، فقال رسول الله ﷺ « أفلح إن صدق » ، وفى بعض الروايات « إن صدق ليدخلن الجنة » فاشترط فى فلاحه ودخول الجنة أن يكون صادقاً .

(و) السادس (الاخلاص) وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك ، قال تبارك وتعالى (ألا لله الدين الخالص) وقال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) الآية وقال تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين) وقال تعالى (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) (قل الله أعبد مخلصاً له دينى) وقال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخصلوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين) وغير ذلك من الآيات . وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « أسعد الناس بشفاعتى من قال لاإله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » وفى الصحيح عن عتبان بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الله حرم على النار من قال لاإله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله عز وجل » . وفى جامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ماقال عبد قط لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضى إلى العرش مااجتنبت الكبائر » قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبى ﷺ « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل

شيء قدير مخلصاً بها قلبه يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله » .

(و) السابع (المحبة) لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال الله عز وجل (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فأخبرنا الله عز وجل أن عباده المؤمنين أشد حبا له ، وذلك لأنهم لم يشركوا معه فى محبته أحداً كما فعل مدعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه ، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه ، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه ، وموالاة من والى الله ورسوله ومعاداة من عاداه ، واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه . وكل هذه العلامات شروط فى المحبة لايتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها قال الله تبارك وتعالى (أرأيت من إتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) الآيات ، وقال تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله) فكل من عبد مع الله غيره فهو فى الحقيقة عبد لهواه ، بل كل ماعصى الله به من الذنوب فسببه تقديم العبد هواه على أوامر الله عز وجل ونواهيه . وقال تعالى فى شأن الموالاة والمعاداة فيه (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) الآيات ، وقال تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) الآية ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم) الآيات ، وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) الآيتين . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) إلى آخر السورة وغير ذلك من الآيات . وقال تعالى فى اشتراط اتباع رسوله ﷺ (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين) وقال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه

وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » أخرجاه من حديث أنس رضى الله عنه . وفيهما عنه وعن أبى هريرة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . وفى كتاب الحجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وذلك الذى جاء به الرسول ﷺ هو الخبر عن الله والأمر بما يحبه الله ويرضاه والنهى عما يكره ويأباه ، فإذا امتثل العبد ما أمره الله به واجتنب ما نهى الله عنه وإن كان ذلك مخالفاً لهواه كان مؤمناً حقاً ، فكيف إذا كان لا يهوى سوى ذلك . وفى الحديث « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فيه » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من أحب فى الله وأبغض فى الله ، ووالى فى الله وعادى فى الله ، فانما تنال ولاية الله بذلك . وقد أصبح غالب مواخاة الناس اليوم على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً . وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : ادعى قوم محبة الله عز وجل فابتلاهم الله بهذه الآية (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) وقال البخارى رحمه تعالى : حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا فليح قال حدثنا هلال بن على عن عطاء ابن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . قال حدثنا محمد بن عبادة أخبرنا يزيد حدثنا سليم — وأثنى عليه — حدثنا سعيد بن ميناء حدثنا — أو سمعت — جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما يقول : جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : إن مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل المأدبة ، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة . فقالوا : أولوها له يفقهها ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : فالدار الجنة والداعى محمد ﷺ ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله ، ومحمد ﷺ فرق بين الناس[1] .

ومن هنا يعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ ، فإذا علم أنه لا تتم محبة الله عز وجل إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، فلا طريق إلى معرفة ما يحبه تعالى ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ واجتناب ما نهى عنه ، فصارت محبته مستلزمة لمحبة رسول الله وتصديقه ومتابعته ، ولهذا قرن محبته بمحبة رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله عز وجل (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين) وغير ذلك من الآيات .

ثم أعلم أن الأحاديث الدالة على أن الشهادتين سبب لدخول الجنة والنجاة من النار لا تناقض بينها وبين أحاديث الوعيد التى فيها : من فعل ذنب كذا فالجنة عليه حرام ، أو لا يدخل الجنة من فعل كذا ، لإمكان الجمع بين النصوص بأنها جنان كثيرة كما أخبر النبى ﷺ وبأن أهل الجنة أيضاً متفاوتون فى دخول الجنة فى السبق وارتفاع المنازل ، فيكون فاعل هذا الذنب لا يدخل الجنة التى أعدت لمن لم يرتكبه ، أو لا يدخلها فى الوقت الذى يدخل فيه من لم يرتكب ذلك الذنب ، وهذا واضح مفهوم للعارف بلغة العرب . وكذلك لا تناقض بين الأحاديث التى فيها تحريم أهل هتين الشهادتين على النار وبين الأحاديث التى فيها إخراجهم منها بعد أن صاروا حمماً لإمكان الجمع بأن تحريم من يدخلها بذنبه من أهل التوحيد بأن تحريمه عليها يكون بعد خروجه منها برحمة الله ثم بشفاعة الشافعين ، ثم يغتسلون فى نهر الحياة ويدخلون الجنة ، فحينئذ قد حرموا عليها فلا تمسهم بعد ذلك . أو يكون المراد أنهم يحرمون مطلقاً على النار التى أعددت للكافرين التى لا يخرج منها من دخلها ، وهى ماعدا الطبقة العليا من النار التى يدخلها بعض عصاة أهل التوحيد ممن شاء الله تعالى عقابه وتطهيره بها على قدر ذنبه ، ثم يخرجون فلا يبقى فيها أحد . وهذه إشارة كافية فى هذا الموضع ، وسنذكر إن شاء الله تعالى بسط ذلك فى موضعه عند ذكر الشفاعات ، ونذكر الأحاديث التى فيها هذا وهذا ، والأحاديث التى يكون بها الجمع بين ذلك . وقد ذكر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى فى هذا الباب كلاماً حسناً بعد سياقه حديث معاذ وحديث عتبان وحديث أبى ذر وحديث عبادة وقد تقدمت مع غيرها من الأحاديث .
قال : وأحاديث هذا الباب نوعان : أحدهما ما فيه أنه من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يحجب عنها ، وهذا ظاهر ، فان النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص ، بل

يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار ، وقد يعفو الله عنه فيدخله الجنة بلا عقاب قبل . وحديث أبي ذر معناه أن الزنا والسرقة لايمنعان دخول الجنة مع التوحيد ، وهذا حق لا مرية فيه ، وليس فيه أن لا يعذب عليها مع التوحيد ، وفى مسند البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « من قال لا إله إلا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه » . الثانى فيه أن يحرم على النار ، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها أو على مايخلد فيها أهلها . وهى ما عدا الدرك الأعلى من النار ، فان الدرك الأعلى يدخله كثير من عصاة الموحدين بذنوبهم ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين . وفى الصحيحين « إن الله تعالى يقول : وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله » قالت طائفة من العلماء : المراد من هذه الأحاديث أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتض لذلك ، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع ، وهذا قول الحسن ووهب ابن منبه وهو أظهر . وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة قال الحسن : نعم العدة ، لكن للاإله إلا الله شروطاً ، فإياك وقذف المحصنات . وقيل للحسن : إن ناساً يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقال : من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة . وقال وهب بن منبه لمن سأله : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن مامن مفتاح إلا له أسنان ، فان أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك . وإلا لم يفتح لك . وهذا الحديث « ان مفتاح الجنة لا إله إلا الله » أخرجه الإمام أحمد بإسناد منقطع عن معاذ رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « إذا سألك أهل اليمن عن مفتاح الجنة فقل : لا إله إلا الله » ويدل على هذا كون النبى ﷺ رتب دخول الجنة على الأعمال الصالحة فى كثير من النصوص ، كما فى الصحيحين عن أبى أيوب أن رجلا قال : يارسول الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ، دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة . قال « تعبد الله لا تشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » فقال الرجل : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقص منه ، فقال النبى ﷺ « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . وفى المسند عن بشير بن الخصاصية قال : أتيت النبى ﷺ لأبايعه ، فاشترط على شهادة أن لا

إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن أقيم الصلاة وأن أوتى الزكاة وأحج حجة الإسلام وأن أصوم رمضان وأن أجاهد فى سبيل الله ، فقلت : يارسول الله ، أما اثنتين فوالله ما أطيقهما الجهاد والصدقة . فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها وقال « فلا جهاد ، ولا صدقة ! فيم تدخل الجنة إذا ؟ » قلت : أبايعك ، فبايعته عليهن كلهن . ففى الحديث أن الجهاد والصدقة شرط فى دخول الجنة مع حصول التوحيد والصلاة والصيام والحج . ونظير هذا أن النبى ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ » ففهم عمر وجماعة من الصحابة أن من أتى بالشهادتين امتنع عن عقوبة الدنيا بمجرد ذلك ، فتوقفوا فى قتال ما نعى الزكاة . وفهم الصديق رضى الله عنه أنه لا يمتنع قتاله إلا بأداء حقوقها لقوله ﷺ « فإذا فعلوا ذلك منعوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » . وقال : الزكاة حق المال . وهذا الذى فهمه الصديق رضى الله عنه قد رواه عن النبى ﷺ صريحاً غير واحد من الصحابة ، منهم ابن عمر وأنس وغيرهما رضى الله عنهم ، وأنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » ودل على ذلك قوله تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) الآية ولا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد ، ولما قرر أبو بكر رضى الله عنه هذا للصحابة رجعوا إلى قوله ورأوه صواباً ، فإذا علم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدى الشهادتين مطلقاً ، بل يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام ، فكذلك عقوبة الآخرة .

وقد ذهب طائفة إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولا وما فى معناها كانت قبل نزول الفرائض والحدود ، منهم الزهرى والثورى وغيرهما ، وهذا بعيد جداً ، فإن كثيراً منها كانت بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود ، وفى بعضها أنه كان فى غزوة تبوك وهى فى آخر حياة النبى ﷺ ، وهؤلاء منهم من يقول : هذه الأحاديث منسوخة ، ومنهم من يقول هى محكمة ولكن ضم إليها شرائط ، ويلتفت هذا إلى أن زيادة النص هل هى نسخ أم لا ؟ والخلاف فى ذلك بين الأصوليين مشهور ، وقد صرح الثورى بأنها منسوخة ، وأنه نسختها الفرائض والحدود . وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح ، فإن السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيراً ويكون مرادهم أن آيات الفرائض والحدود تبين توقف دخول أهل الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم فصارت النصوص منسوخة أى مبينة مفسرة ، ونصوص الحدود والفرائض ناسخة أى مفسرة لمعنى تلك النصوص موضحة لها .

وقالت طائفة تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة فى أحاديث أخر ، ففى بعضها « من

قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » . وفى بعضها « مستيقناً » . وفى بعضها « مصدقاً بها قلبه لسانه » . وفى بعضها « يقولها من قلبه » . وفى بعضها « قد ذل بها لسانه واطمأن بها قلبه » . وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين ، فتحققه بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله أن لا يأله قلبه غير الله حباً ورجاء وخوفاً وطمعاً وتوكلا واستعانة وخضوعاً وإنابة وطلباً . وتحققه بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ أن لا يعبد بغير ما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ ، وهذا المعنى جاء مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة » قيل : ما إخلاصها يارسول الله ؟ قال « أن تحجزك عما حرم الله عليك » وهذا يروى من حديث أنس بن مالك وزيد بن أرقم ، ولكن إسنادهما لا يصح . وجاء أيضاً من مراسيل الحسن نحوه ، وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد « لا إله إلا الله » يقتضى أن لا إله غير الله ، والإله الذى يطاع ولا يعصى هيبة وإجلالا ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً فى شىء من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قوله لا إله إلا الله ونقصاً فى توحيده ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك ، وهذا كله من فروع الشرك ، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصى التى منشأها من طاعة غير الله عز وجل أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه أو العمل ، كما ورد إطلاق الكفر والشرك على الربا وعلى الحلف بغير الله عز وجل وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه وعلى من سوى بين الله وبين المخلوق فى المشيئة مثل أن يقول : ما شاء الله وشاء فلان ، وكذا قوله : مالى إلا الله وأنت ، وكذلك ما يقدح فى التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقى المكروهة وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون . وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح فى تمام التوحيد وكماله ، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التى منشأها من هوى النفس أنها كفر وشرك كقتال المسلم ومن أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها ومن شرب الخمر فى المرة الرابعة وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية ، ولهذا قال السلف : كفرٌ دون كفر ، وشرك دون شرك ، وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع قال تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) قال الحسن رحمه الله : هو الذى لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، وقال قتادة : هو الذى كلما هوى شيئاً ركبه وكلما اشتهى شيئاً أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع . وروى من حديث أبى أمامه مرفوعاً بإسناد ضعيف « ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع » . وفى حديث آخر « لا تزال لا إله إلا

الله تدفع عن أصحابها حتى يؤثروا دنياهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك ردت عليهم ويقال لهم كذبتم » . ويشهد لهذا الحديث الصحيح عن النبي ﷺ « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » ، فدل هذا على أن من أحب شيئاً وأطاعه ، وكان من غاية قصده ومطلوبه ، ووالى لأجله وعادى لأجله ، فهو عبده ، وكان ذلك الشيء معبوده وإلهه . ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى سمى طاعة الشيطان فى معصيته عبادة الشيطان كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) وقال تعالى حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته ، ولم يخلص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن وهم الذين قال فيهم (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) فهم الذين حققوا قول لا إله إلا الله وأخلصوا فى قولها وصدقوا قولهم بفعلهم فلم يلتفتوا إلى غير الله محبة ورجاء وخشية وطاعة وتوكلا ، وهم الذين صدقوا فى قول لا إله إلا الله ، وهم عباد الله حقاً . فأما من قال لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذب قوله فعله ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ، (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) . ثم قال رحمه الله : فياهذا كن عبداً لله لا عبداً للهوى ، فإن الهوى يهوى بصاحبه فى النار (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ، « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار » . والله لا ينجو غداً من عذاب الله إلا من حقق عبودية الله وحده ولم يلتفت إلى شيء من الأغيار ، ومن علم أن إلهه ومعبوده فرد فليفرده بالعبودية ولا يشرك بعبادة ربه أحداً . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

فصل فى تعريف العبادة وذكر بعض أنواعها وأن من صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك

قد عرفت مما قدمنا فى معنى لا إله إلا الله أن الإله هو المألوه الذى تألهه القلوب أى تعبده محبة وتذللا وخوفاً ورجاء ورغباً ورهباً وتوكلا عليه وإطراحاً بين يديه واستعانة به ، والتجاء إليه ، وافتقاراً إليه . وذلك لا ينبغى إلا لله عز وجل خالق كل شيء ومصوره ومصرفه ومدبره ، مبدء الخلق ومعيده ، ومحييه ومبيده ، الفعالُ لما يريد ، الذى هو على كل شيء

شهيد ، الذى لا ملجأ ولا منجأ منه إلا إليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ــ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ــ ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وماذلك على الله بعزيز) . والعبد إن أريد به المعبد أى المذلل المسخر دخل فيه جميع المخلوقات من جميع العالم العلوى والسفلى من عاقل وغيره ومن رطب ويابس ومتحرك وساكن وظاهر وكامن ومؤمن وكافر وبر وفاجر وغير ذلك ، الكل مخلوق لله عز وجل مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ، ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهى إليه (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) كل يجرى لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة ، ذلك تقدير العليم ، وتدبير العدل الحكيم . وإن أريد به العابد خص ذلك بالمؤمنين ، وإن كان أكثر المشركين يعبدون الله عز وجل ويتقربون إليه بكثير من العبادات . لكن لما عبدوا مع الله غيره وأشركوه معه فى إلهيته كانت أعمالهم هباء منثورا (كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء) و (كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً) ، (وكسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) ، (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) . ذلك بأنهم (اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) و (اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) ، وتولوا الطاغوت فأخرجوهم من النور إلى الظلمات ، وعبدوا الشيطان وقد عهد الله إليهم أن لا يعبدوه وبين لهم عداوته وقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) . وقال (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) فخالفوا أمر الله وتولوا أعداءه وكذبوا رسله وأنبياءه وحاربوا حزبه وأولياءه . وأرادوا تشييد الكفر وإعلاءه ورد الحق وإباءه . فأبى الله عز وجل إلا أن يتم نوره ويظهر دينه ويعلى كلمته وينصر أولياءه ويحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ويجعل حزبه هم الغالبين ، ويجعل العاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . لكن المؤمنون هم عباده حقاً الذين أفردوه بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ولم يشبهوه بشىء من خلقه ، ولم يسووا شيئاً من خلقه به . أولئك الذين تضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، كما قال تعالى فى الأولى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال فى الثانية (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل

الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقال فى الثالثة (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون) تولوا الله فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، أخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمات الضلال إلى نور الهدى ، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الغى إلى نور الرشاد . (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) ملأ الله قلوبهم بنور معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه ، فلم تتسع لغيره . دنا الشيطان من قلوبهم فاحترق بنور ايمانهم فنكص على عقبه خاسئاً حسيراً ، وأيس منهم أن يطيعوه فانقلب مذموماً مدحوراً . فعند ذلك عزى نفسه اللعين وقال (إلا عبادك منهم المخلصين) وقال عز وجل (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) حفظوا الله فحفظهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فلم ينكثوا أيمانهم ، تعرفوا إلى الله فى الرخاء بالعبادة فعرفهم فى الشدة بالفرج ، صدقوا رسله وآمنوا بكتابه وانقادوا لأمره . وانكفوا عما نهى عنه ، ثم تجردوا لنصرة دينه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ودخل الناس بذلك فى دين الله أفواجاً طوعاً وكرهاً ، وقادوهم إلى الجنة بالسلاسل . نصروا الله فنصرهم ، وشكروه فشكرهم ، وذكروه فذكرهم . عرفوا ما خلقوا له فأقبلوا عليه ، ورأوا ما سواه مما لا يعنيهم فلم يلتفتوا إليه ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، وتعلقت أرواحهم بالرفيق الأعلى ، أولئك هم خاصة الله من خلقه والمصطفون من عباده ، أولئك هم أولياؤه المتقون وحزبه الغالبون ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

ثم العبادة هى اسم جامع   لكل ما يرضى الإله السامع

(ثم العبادة) التى خلق الله لها الخلق ، وأخذ بها عليهم الميثاق ، وأرسل بها رسله وأنزل كتبه ، ولأجلها خلقت الدنيا والآخرة والجنة والنار (هى اسم جامع لكل ما يحب) و (يرضى) مبنى للمعروف فاعله (الإله السامع) وهو الله عز وجل من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والجهاد فى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإغاثة الملهوف ونصر المظلوم وتعليم الناس الخير والدعوة إلى الله عز وجل وغير ذلك ، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وخشية الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والرغبة والرهبة

إليه ، والاستعانة به ، والحب والبغض فى الله والموالاة والمعاداة فيه ، وغير ذلك . ثم اعلم أنها لا تقبل الأعمال الظاهرة مالم يساعدها عمل القلب . ومناط العبادة هى غاية الحب مع غاية الذل ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر ، ولذا قال من قال من السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . ا . هـ . قلت : وبيان كلامهم هذا أن دعوى الحب لله بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء ولا خشية ولا رهبة ولا خضوع دعوى كاذبة . ولذا ترى من يدعى ذلك كثيراً ما يقع فى معاصى الله عز وجل ويرتكبها ولا يبالى ، ويحتج فى ذلك بالإرادة الكونية وأنه مطيع لها ، وهذا شأن المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) وقالوا (لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم) وغير ذلك . وإمامهم فى ذلك الاحتجاج هو إبليس إذ قال (رب بما أغويتنى) . وإنما المحبة نفس وفاق العبد ربه : فيحب ما يحبه ويرضاه ، ويبغض ما يكرهه ويأباه . وإنما تتلقى معرفة محاب الله ومعاصيه من طريق الشرع ، وإنما تحصل بمتابعة الشارع . ولذا قال الحسن رحمه الله تعالى : ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فمن ادعى محبة الله ولم يك متبعاً رسوله فهو كاذب . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء أو يطير فى الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ وكذلك الرجاء وحده إذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصى الله وأمن مكر الله ، وقد قال الله تعالى (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) . وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بربه وقنط من رحمته ويئس من روحه وقد قال تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) . وقال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) . فالأمن من مكر الله خسران ، واليأس من روحه كفران ، والقنوط من رحمة الله ضلال وطغيان ، وعبادة الله عز وجل بالحب والخوف والرجاء توحيد وإيمان . فالعبد المؤمن بين الخوف والرجاء كما قال تعالى (يرجون رحمته ويخافون عذابه) وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) . وبين الرغبة والرهبة كما قال تعالى فى آل زكرياء عليهم السلام (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين) فتارة يمده الرجاء والرغبة فيكاد أن يطير شوقاً إلى الله . وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى ، فهو دائب فى طلب مرضاة ربه مقبل عليه ، خائف من عقوباته ملتجئ منه إليه ، عائذ به منه

راغب فيما لديه . وكذلك هو فى صفات الله عز وجل لا ناف ولا مشبه . وفى أفعال العباد لا جبرى ولا قدرى ، وفى أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته ليس بذى النصب ولا التشيع . وفى الوعد والوعيد ليس بخارجى ولا مرجىء . فدين الله بين الغلو والجفاء والتفريط والإفراط ، وخير الأمور الأوساط . وللعبادة ركنان لا قوام لها إلا بهما وهما الإخلاص والصدق ، وحقيقة الاخلاص أن يكون قصد العبد وجه الله عز وجل والدار الآخرة كما قال تعالى (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها فأولئك كان سعيهم مشكورا) . وقال تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها . ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) وقال تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين . فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير) . وفى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » بمتفق عليه . ولو ذهبنا نذكر أحاديث الإخلاص لطال الفصل . وأما الصدق فهو بذل العبد جهده فى امتثال ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى الله عنه ،

والاستعداد للقاء الله ، وترك العجز ، وترك التكاسل عن طاعة الله ، وإمساك النفس بلجام التقوى عن محارم الله ، وطرد الشيطان عنه بالمداومة على ذكر الله ، والاستقامة على ذلك كله ما استطاع . قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية ، وقال تبارك وتعالى (آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين — إلى قوله — ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ، أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) الآية وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين — إلى قوله عز وجل — وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) إلى آخر الآيات ، وقال تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المالى على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » وفى الحديث الآخر « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » . وإذا اجتمعت النية الصالحة والعزيمة الصادقة فى هذا العبد قام بعبادة الله عز وجل . ثم اعلم أنه لا يقبل منه ذلك إلا بمتابعته الرسول ﷺ فيعبد الله تعالى بوفق ما شرع ، وهو دين الإسلام الذى لايقبل الله تعالى من أحد سواه ، كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفى رواية لمسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » فهذه الثلاثة الأركان شروط فى العبادة لا قوام لها إلا بها ، فالعزيمة

الصادقة شرط فى صدورها ، والنية الخالصة ، وموافقة السنة شرط فى قبولها ، فلا تكون عبادة مقبولة إلا باجتماعها ، فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمن على الله وتسويف فى العمل وتفريط فيه ، وصدق العزيمة بدون إخلاص فيه يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص . فإن كان الباعث على العمل من أصله هو إرادة غير الله فنفاق ، وإن كان دخل الرياء فى تزيين العمل ، وكان الباعث عليه أولا إرادة الله والدار الآخرة كان كان شركاً أصغر بحسبه ، حتى إذا غلب عليه التحق بالأكبر . وإخلاص النية مع صدق العزيمة إن لم يكن العمل على وفق السنة كان بدعة وحدثاً فى الدين وشرع مالم يأذن الله به ، فيكون رداً على صاحبه ووبالا عليه والعياذ بالله ، فلا يصدر العمل من العبد إلا بصدق العزيمة ، ولا يقبل منه ذلك إلا بإخلاص النية واتباع السنة ، ولذا قال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال : أخلصه وأصوبه ، يعنى خالصاً من شوائب الشرك موافقاً للسنة .

وفى الحديث مخها الدعاء	خوف توكل كذا الرجاء
ورغبة ورهبة خشوع	وخشية إنابة خضوع
والاستعاذة والاستعانة	كذا استغاثة به سبحانه
والذبح والنذر وغير ذلك	فافهم هديت أوضح المسالك
وصرف بعضها لغير الله	شرك وذاك أقبح المناهى

(و) ثبت (فى الحديث) الذى فى السنن كما سنذكره (مخها) أى مخ العبادة ولبها (الدعاء) قال الله عز وجل (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وقال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وغير ذلك من الآيات ، وفى جامع الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عن النبى ﷺ قال « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « الدعاء مخ العبادة » وقال غريب من هذا الوجه لا نعرف إلا من حديث ابن لهيعة ، ومعنى « مخ العبادة » أى خالصها . وفيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ (وقال

ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنه من لم يسأل الله يغضب عليه . » وفيه من حديث ابن عباس مرفوعاً « إذا سألت فاسأل الله » وهو حديث حسن صحيح .

(خوف) أى ومن أنواع العبادة الخوف من الله عز وجل ، قال الله تعالى (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقال سبحانه (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال تبارك وتعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) وقال عز وجل (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وقال تبارك اسمه (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية وغيرها من الآيات . وقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن أبى ذر وحسنه الترمذى . وفى البخارى عن أم العلاء الأنصارية رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «والله لاأدرى والله لاأدرى» وأنا رسول الله ﷺ — ما يفعل بى ولا بكم » . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها » وفيه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » . وله عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله جل ذكره : أخرجوا من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقامى » وله هو وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا ياابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لايقبل منهم (أولئك يسارعون فى الخيرات) . وفيه من حديث أبى جحيفة قال : قالوا يارسول الله قد شبت ، قال « شيبتنى هود وأخواتها » ومن حديث أبى بكر رضى الله عنه « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وغير ذلك من الأحاديث .

(توكل) أى ومن أنواع العبادة التوكل على الله عز وجل ، وهو اعتماد القلب عليه وثقته به وأنه كافيه ، قال الله عز وجل (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فجعله تعالى شرطاً فى الإيمان كما وصف المؤمنين أنهم أهله إذ قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال موسى

لقومه (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا) الآيات وقال تعالى عن رسله إذ قالوا لقومهم (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ماآذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام (إنى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الآية وكذلك عن نبيه نوح عليه السلام إذ قال لقومه (ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة) الآية . وقال تعالى عن شعيب (وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) وقال تعالى (ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا) وقال تعالى (فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) وقال تعالى فى مدح عباده المؤمنين (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال تعالى فيهم (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) وقال تبارك وتعالى (وماعند الله خير وأبقى للذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ، وقال تعالى (أليس الله بكاف عبده) الجواب بلى . والآيات فى هذا الباب كثيرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية (حسبنا الله ونعم الوكيل) : قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) وفى الصحيح عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين لايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » وفى السنن « الطيرة شرك ، الطيرة شرك » قال ابن مسعود : ومامنا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل . وفى جامع الترمذى وغيره من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » وفى حديث الإيمان بالقدر « واعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وماأخطأك لم يكن ليصيبك » . وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه والدارمى عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إنى لأعلم آية فى كتاب الله عز وجل لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتوكل على الله يجعل له مخرجاً ويرزقه

من حيث لايحتسب) ولابن ماجه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن قلب ابن آدم لكل واد شعبة ، فمن أتبع الشعب كلها لم يبال الله بأى واد هلك ، ومن توكل على الله كفاه الشعب » وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

(كذا الرجاء) أى ومن أنواع العبادة الرجاء ، قال عز وجل (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت ، وهو السميع العليم) وقال تعالى (إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وغير ذلك من الآيات وفى الحديث « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء » وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن النار ». قال ﷺ فى دعاء المكروب « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك طرفه عين » الحديث رواه أبو داود عن أبى بكر .

(ورغبة ورهبة خشوع) أى ومن أنواع العبادة الرغبة فيما عند الله عز وجل من الثواب ، وهى راجعة إلى معنى الرجاء . والرهبة مما عند الله من العقاب ، وهى راجعة إلى معنى الخوف . والخشوع هو التذلل لله عز وجل ، قال تعالى فى آل زكريا عليهم السلام (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) وقال تعالى (ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) ، وقال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) وقال تعالى (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ، وقال تعالى (وإياى فارهبون) وقال تعالى (فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) وغير ذلك من الآيات . وفى حديث الدعاء عند النوم « اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، وفوضت أمرى إليك رغبة ورهبة إليك » الحديث فى الصحيحين . ولابن أبى حاتم فى خطبة أبى بكر رضى الله عنه : أما بعد فانى أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وتثنوا عليه بما هو أهله ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله

عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا راغباً وراهباً ، وكانوا لنا خاشعين) وفى الصحيح من حديث دعاء النبى ﷺ فى الركوع والسجود خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » وغير ذلك من الأحاديث .

(وخشية) أى ومن أنواع العبادة الخشية ، وهى مرادفة للخوف . قال الله عز وجل (فلا تخشوهم واخشون) ، قال تعالى فى مدح عبادة المؤمنين (إن اللذين هم من خشية ربهم مشفقون) الآيات ، وقال تعالى (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) الآيات . وقال تعالى فى شأن كتابه العزيز (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) الآيات . وقال تعالى (طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالعيب) الآية وقال عالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) الآية . وقال تعالى (هذا ما تودعون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) الآيات ، وقال تعالى فى شأن الساعة (إنما أنت منذر من يخشاها) . وقال تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى) وغير ذلك من الآيات ، وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) الآية . وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع » ، وفيه عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله . وأما الأثران فأثر فى سبيل الله ، وأثر فريضة من فرائض الله تعالى » وقال حديث حسن . وفى الصحيح « إن أخشاكم ، وأتقاكم لله أنا » الحديث وغير ذلك من الأحاديث .

(إنابة) أى ومن أنواع العبادة الإنابة وهى التوبة النصوح ، والرجوع إلى الله تعالى ، قال الله عز وجل (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) وقال تعالى فى ذكر شعيب (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه إنيب) وقال تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ، ذلكم ربى عليه توكلت وإليه أنيب) وقال تعالى عن إبراهيم والذين معه (ربنا عليك توكلنا

وإليك أنبنا وإليك المصير) وقال تعالى فى شأن عبادة المؤمنين (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادى) وقال عن عبده داود عليه السلام (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) وفى ذلك آيات كثيرة سنذكر إن شاء الله ما تيسر منها فى بابه .

(خضوع) أى ومن أنواع العبادة الخضوع ، وهو الخشوع والتذلل بمعنى وتقدمت الآيات والأحاديث فيه . (والاستعاذة) أى ومن أنواع العبادة الاستعاذة ، وهى الامتناع بالله عز وجل والالتجاء إليه ، وقال عز وجل (وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وقال تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان . وأعوذ بك أن يحضرون) وقال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) ، وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) السورة ، وقال تعالى (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس) السورة . وقال عن كليمه موسى عليه السلام (وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) وقال تعالى عنه عليه السلام (وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون) وقال النبى ﷺ « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وبسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . من همزه ونفخه ونفثه » وقال « أعوذ بكلماتِ الله التامات من شر ما خلق » وقال « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منه » وقال « تعوذوا بالله من الفتن » واستعاذ ﷺ من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال ، ومن الرد إلى أرذل العمر ومن المأثم وال مغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ، ومن فتنة النار وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغنى ، ومن شر فتنة الفقر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال وغير ذلك .

(والاستعانة) أى ومن أنواع العبادة الاستعانة ، وهى طلب العون من الله عز وجل ، قال تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) أى لا نعبد إلا إياك ونستعين إلا بك ، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه ، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك ، فلا حول لأحد عن معصيتك ، ولا قوة على طاعتك ، إلا بتوفيقك ومعونتك . وقال عن نبيه يعقوب عليه السلام (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وقال لنبيه محمد ﷺ (قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) وفى الترمذى من حديث وصية النبى

ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » الحديث . وقال فيه حسن صحيح ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ الحديث وفيه « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله » وفى الترمذى من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى ﷺ « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ... ذلك من الأحاديث .

(كذا استغا. . سبحانه) أى ومن أنواع العبادة الاستغاثة بالله عز وجل وهى طلب الغوث منه تعالى من جلب خير أو دفع شر ، قال الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) وقال تعالى (أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله) الآية وقال تعالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته) الآية . ومن دعاء النبى ﷺ « ياحى ياقيوم ، ياذا الجلال والاكرام ، يابديع السموات والأرض ، برحمتك أستغيث » وفى الطبرانى باسناده من حديث ثابت بن الضحاك أنه كان فى زمن النبى ﷺ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فلقال ﷺ « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » ، وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه فى الاستسقاء : فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » وغير ذلك من الأحاديث .

(والذبح) أى من أنواع العبادة الذبح نسكاً لله تعالى من هدى وأضحية وعقيقة وغير ذلك ، قال الله عز وجل (فصل لربك وانحر) وقال تعالى (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت) الآيات وقال تعالى (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها) الآيات . وفى صحيح مسلم عن على رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات « لعن الله من ذبح لغير الله » الحديث . وفى مسند الإمام أحمد رحمه الله عن طارق بن شهاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب ، قالوا : كيف ذلك يارسول الله ؟ قال : مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً ، فقالوا لأحدهما : قرب . قال : ليس عندى شىء أقرب . فقالوا له : قرب ولو ذبابا .

فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار . فقالوا للآخر : قرب . قال ماكنت لاقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل : فضربوا عنقه فدخل الجنة » .

(والنذر) أى ومن أنواع العبادة النذر لله عز وجل ، قال الله تبارك وتعالى (ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم) وقال تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) ، وقال تعالى (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) الآية . وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » رواه الجماعة إلا مسلماً وعن عمر رضى الله عنه قال : نذرت نذراً فى الجاهلية ، فسألت النبى ﷺ بعدما أسلمت ، فأمرنى أن أوفى بنذرى . رواه ابن ماجه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب إثم من لا يفى بالنذر ، وذكر حديث عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران : لا أدرى ذكر اثنتين أو ثلاثاً بعد قرنه « ثم يجىء قوم ينذرون ولا يوفون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يستشهدون ، ويظهر فيهم السمن » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر قال : يارسول الله ، إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام ، قال « أوف بنذرك » وهو فى الصحيح أيضاً . ولعله هو النذر الذى فى رواية ابن ماجه مبهما فسرته رواية الصحيح ، وفى حديث الرجل الذى سأل النبى ﷺ فقال له : إن أختى نذرت أن تحج وأنها ماتت ، فقال النبى ﷺ « لو كان عليها دين أكنت قاضيه ؟ قال : نعم . قال : فاقض الله ، فالله أحق بالقضاء » وغير ذلك من أحاديث الأمر بوفاء النذر عن النبى ﷺ .

ومن شرط النذر لله تعالى أن يكون طاعة ، وأن يكون مما يطيقه العبد ، وأن يكون فيما يملك ، وأن لايكون فى موضع كان يعبد فيه غير الله تعالى ذريعة إلى عباده غير الله تعالى ، ولمن كان معلقاً بحصول شىء فلا يعتقد الناذر تأثير النذر فى حصوله . أما الأول فلقوله ﷺ « لا نذر فى معصية الله ، ولا فى قطيعة رحم » الحديث رواه أبو داود . وكذا حديث عائشة السابق وغيره . وأما الثانى فلحديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : نذرت أختى أن تمشى إلى بيت الله ، فأمرتنى أن استفتى لها رسول الله ﷺ ، فاستفتيته فقال « لتمش ولتركب » متفق عليه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينا النبى ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم ، فسأل عنه فقال أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى ﷺ « مره فليتكلم وليستظل وليقعد

وليتم صومه » فأمره ﷺ بترك مالم يكن مطيقه ولم يكن مشروعاً، وأمره باتمام الصوم لكونه يطيقه ولكونه مشروعاً . وأما الثالث فلقوله ﷺ « لا وفاء لنذر فى معصية الله . ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود وغيره وإسناده صحيح . وأما الرابع فلحديث ثابت بن الضحاك أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببوانة ، فقال « كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ » فقالوا لا ، قال « فهل كان فيهم عيد من أعيادهم » ! قالوا لا ، قال « أوف بنذرك ، فانه لا وفاء لنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » رواه أبو داود . وفى سد الذرائه إلى ذلك حديث النهى عن اتخاذ القبور مساجد ، ولعن من فعل ذلك كما سيأتى إن شاء الله تعالى . وأما الخامس فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل » ، وهو فى الصحيح . وفيه فى رواية عنه نهى النبى ﷺ عن النذر وقال « إنه لا يرد شيئاً ، ولكنه يستخرج به من البخيل » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « لا يأتى ابن آدم النذر بشىء ، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قدر له ، فيستخرج الله به من البخيل ، فيؤتى عليه مالم يكن يؤتى عليه من قبل » وغير ذلك من الأحاديث ، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى .

(وغير ذلك) أى من العبادات الظاهرة والباطنة والتسبيح والتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير ، وتلاوة القرآن وتدبره وتعلمه وتعليمه وسائر الأذكار المشروعة ومحبة الله ورسوله والمؤمنين ، والحب فى الله والبغض فيه والموالاة والمعاداة لأجله ، وغير ذلك من العبادات التى لا تخرج عن تعريفنا السابق بأن العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وأن مناطها الذى لا قوام لها إلا به هو كمال الحب وغايته مع غاية الذل ، ولا تسمى عبادة إلا مع ذلك كله . فالمحبة وحدها التى لم يكن معها خوف ولا تذلل كمحبة المطعم والمشرب والأهل والمال والولد وغير ذلك ليست بعبادة . وكذلك الخوف بدون محبة للمخوف منه كالخوف من عدو أو غرق أو حرق ونحو ذلك لم يكن عبادة ، فاذا اجتمعا فى العمل كان عبادة : إن كانت لله فهو التوحيد الذى هو أشرف المطالب ، وإن كانت لغيره فالشرك الأكبر المخلد صاحبه فى النار والعياذ بالله . ولذا قلنا (وصرف بعضها) أى شىء منها قل أو كثر (لغير الله) كائنا من كان من ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو جنى أو شجر أو حجر أو غيره ، كل ذلك (شرك) أكبر ، (وذاك) إشارة إلى الشرك هو (أقبح المناهى) على الاطلاق ،

قال الله عز وجل (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) الآيات ، أى لاأحد أضل منه ، وقال تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) وقال الله عز وجل (إن الشرك لظلم عظيم) فالشرك أعظم الظلم ، لأن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه ، ولا أعظم ظلماً من شكاية العبد ربه الذى هو أرحم الراحمين فيما أصابه من ضر أو فاته من خير إلى من لا يرحمه ولا يسمعه ولا يبصره ولا يعلمه ولا يملك لنفسه ولا لداعيه من ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور ، ولا يغنى عنه مثقال ذرة ، وعدوله عمن بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، ويفزع فى قضاء حوائجه إلى من لا قدرة له على شىء البتة (والذين يدعون من دونه مايملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبؤك مثل خبير) وصرفه عبادة خالقه ــ الذى خلقه لعبادته وتوحيده ورباه بنعمه الظاهرة والباطنة وحفظه وكلاه بالليل والنهار وحماه من جميع المخاوف والأخطار ــ لمخلوق مثله خلقه الله بقدرته ولم يك من قبل شيئاً ، بل هو مسخر مدبر مرفوف متصرف فيه الله تعالى بما شاء من أنواع التصرف لا يبدى حراكاً ولا ينفك من قبضة الله عز وجل ، بل هو خلقه وملكه مخلوق لعبادته فيرفعه من درجة العبودية والتأله إلى جعله مألوهاً معبوداً (ضرب لكم مثلا من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) الآية ، هذا والله أظلم الظلم وأقبح الجهل وأكبر الكبائر ، ولذا لم تدع الرسول إلى شىء قبل التوحيد ، ولم تنه عن شىء قبل التنديد ، ولم يتوعد الله على ذنب أكبر مما جاء على الشرك من الوعيد الشديد . وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

وسنذكر إن شاء الله من الآيات والأحاديث قريباً ماتقر به أعين الموحدين وتدحض شبهة المعاندين . ويدمغ باطل الملحدين . والله المستعان وبه التوفيق .

فصل
فى بيان ضد التوحيد وهو الشرك
وكونه ينقسم إلى قسمين أكبر وأصغر
وبيان كل منهما

قد قدمنا انقسام التوحيد إلى قسمين : توحيد المعرفة والإثبالت ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وتوحيد الطلب والقصد وهو توحيد الإلهية والعبادة ، ولكل من هذه الأنواع ضد يفهم من تعريفه ، فإذا عرفت أن توحيد الربوبية هو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور المتصرف فى كل مخلوقاته لا شريك له فى ملكه ، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره ، فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . وإذا عرفت أن توحيد الأسماء والصفات هو أن يدعى الله تعالى بما سمى به نفسه ويوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وينفى عنه التشبيه والتمثيل . فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الالحاد : أحدهما نفى ذلك عن الله عز وجل وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة ، ثانيهما تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه وقد قال تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) وقال تعالى (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحطيون به علما) . وإذا عرفت أن توحيد الإلهية هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة ونفى العبادة عن كل ماسوى الله تبارك وتعالى فضد ذلك هو صرف شىء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل ، وهذا هو الغالب على عامة المشركين وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها .

وأول ماظهر الشرك فى قوم نوح على المشهور ، وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم عليه السلام نحو عشرة قرون كما قدمنا ، وبه قال ابن عباس وغيره فى تفسير قوله عز وجل (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم) ، وذلك لأن الشيطان لعنه الله لم يزل دائباً جاداً مشمراً فى عداوة بنى آدم عليه السلام منذ كان أبوهم طيناً ، فلما نفخ فيه الروح وعلمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من

الكافرين وقال (أأسجد لمن خلقت طيناً) وقال تعالى (لم أكن لا سجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) فلما سأله الله عز وجل عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه ـــ والله تعالى أعلم به ـــ فقال سبحانه له (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) فأجاب الخبيث مفتخراً بأصله ، طاعناً على ربه تعالى فى حكمته وعدله (قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين) فعامله الجبار بنقيض ماقصده وأذاقه وبال حسده ، وأثمر له استكباره الذل الأبدى الذى لا عز بعده) قال اخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) وقال (اخرج منها مذءوماً مدحوراً) الآية وقال (اخرج منها فانك رجيم ، وأن عليك لعنتى إلى يوم الدين) فطلب الإنظار ليأخذ بزعمه من آدم وذريته بالثأر ، ولا يعلم أنه بذلك إنما يزداد من غضب الجبار ، وقد علم أنه لا سبيل له إلا على حزبه وتابعيه من الكفار ، الذين هو إمامهم فى الخروج عن طاعة الله والاستكبار (قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فانك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) أجابه الله تعالى إلى طلبته ليمتحن عباده اختباراً وابتلاء (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فقابل النعمة بالكفران وجدد صفقة الخسران وأقسم ليستعملن مدته وليستغرقن حياته فى إغواء ذرية آدم الذين كان طرده وإبعاده بسببهم إذ لم يسجد لأبيهم ، ولا رأى أن ذلك باستكباره عن أمر ربه ، بل قدس نفسه اللئيمة وأسند الإغواء إلى ربه مخاصمة ومحادة ومشاقة (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) ولم يقل اللعين « من فوقهم » لعلمه أن الله تعالى من فوقهم ، قال الله سبحانه (هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وقد علم الرجيم ذلك فقال آيساً منهم (إلا عبادك منهم المخلصين) ثم لما سعى إلى آدم وحواء زوجه فى الجنة ودلهما على تلك الشجرة التى نهاهما الله عز وجل عنها أن يقرباها ، وأباح لهما ماسهواها من الجنة ، فاستدرجهما اللعين بخداعه وحيلته البائرة ، وغرهما بتلك اليمين الفاجرة (وقاسمهما إنى لكما من الناصحين) فنفذ قضاء الله وتعالى بأكلهما منها (ليقضى الله أمراً كان مفعولا) . وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم وأنه قد أهلكه معه ، ولم يعلم بفضل الله عز وجل وسعة رحمته الذى لا يقدر أحد على شىء منه (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) فلما عاتبهما الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) فلم

يعترضا على قضاء الله وقدره ، ولم يحتجا بذلك على ارتكاب مانهى الله عنه ولم يخاصما به كما قال اللعين مواجها ربه بقوله (فيما أغويتنى) بل اعترفا بقدرة الله عليهما وأقرا بظلمهما لأنفسهما وصرحا بافتقارهما إلى ربهما وبكمال غناه عنهما (قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهذه هى الكلمات التى قال الله عز وجل (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يهبطهم إلى دار أخرى هى دار الامتحان والابتلاء ليتبين حزبه الذين يتبعون رسله ويقاتلون أعداءه ويغرس لهم بصالح الأعمال مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويتبين حزب عدوه الذين اتبعوه وأطاعوه وصاروا من خيله ورجله وقد أعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، وألقى العداوة ونصب الحرب بين هذين الحزبين فى هذه الدار ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم فقال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ثم كان من كيد الشيطان مما قص الله عز وجل من إلقائه الفتنة بين ابنى آدم وقتل أحدهما الآخر كما فى سورة المائدة .
ولما مات آدم عليه السلام كان وصيه شيثاً عليه السلام ، ومضت تلك المدة التى ذكرنا والناس كلهم على شريعة من الحق كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وزين الشيطان لعنة الله لقوم نوح عبادة الأصنام وكان أول ذلك أن زين لهم تعظيم القبور والعكوف عليها ، وبيان ذلك ماروى البخارى رحمه الله تعالى عن ابن عباس قال فى ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنوسى العلم عبدت أ هـ فلو جاءهم اللعين وأمرهم من أول مرة بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوه ، بل أمر الأولين بنصب الصور لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم ، ثم تكون عبادة الله عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يخلفهم . فلما أرسل الله سبحانه إليهم نوحاً عليه السلام فلبث فيهم مالبث يدعوهم إلى الله تعالى وهم مستكبرون عن الحق حتى أهلكهم الله

تعالى بالطوفان . ثم بعدهم عاد عبدوا آلهة مع الله منها هداً وصدى وصموداً ، فأرسل الله عز وجل إليهم هودا عليه السلام فلبث فيهم مالبث يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل ، فلما حق عليهم العذاب أهلكهم الله تعالى بالريح . ثم ثمود كذلك وأرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام فكذبوه فأهلكوا بالصيحة . ثم قوم إبراهيم وعبدوا الشمس والقمر والنجوم وعبدوا الأصنام وغير ذلك ، وقد قص الله تعالى في كتابه كل ذلك مفصلا عن الأمم ورسلهم . وعبد أول بنى إسرائيل العجل وآخرهم عبدوا عزيزا ، وعبدت النصارى المسيح وعبدت المجوس النار وعبد قوم الماء وعبد كل قوم مازينه الشيطان لهم على قدر عقولهم ، هذا فى الأمم الأولى وكل منها له وارث من الأمم المتأخرة ، فالأصنام التى فى قوم نوح قد انتقلت إلى الغرب فى زمن عمرو بن لحى قبحه الله تعالى كما ذكره ابن عباس فيما رواه البخارى عنه رضى الله عنه قال : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وسواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجوف عند سبأ . وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . انتهى . وتفسيره ذلك ماذكره الكلبى حيث قال : وكان عمرو بن لحى كاهناً وله رئى من الجن فقال له : عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، إئت جدة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهب ، ثم أدع العرب إلى عبادتها تجب . فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عدن بن زيد اللات فدفع إليه وداً فحمله . فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبد ود فهو أول من سمى به ، وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام . قال الكلبى : فحدثنى مالك بن حارثة أنه رأى وداً . قال وكان أبى يبعثنى باللبن إليه فيقول اسقه إلهك فأشربه . قال ثم رأيت خالد بن الوليد رضى الله عنه كسره فجعله جذاذاً ، وكان رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم فقتلهم وهدمه وكسره . قال الكلبى : فقلت لمالك بن حارثة صف لى وداً كأنى أنظر إليه ، قال كان تمثال رجل كأعظم مايكون من الرجال ، قد دبر — أى نقش — عليه متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وقبضة فيها نبل بغير جعبة . وأجابت عمرو بن لحى مضر بن نزار فدفع إلى رجل من هذيل يقال له الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة ابن الياس بن مضر سواعاً فكان بأرض

يقال لها وهاط من بطن نخله يعبده من يليه من مضر ، وفى ذلك يقول رجل من العرب :

تراهـم حول قبلتهم عكوفـاً كما عكـفت هذيـل على سواع

وأجابته مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادى يغوث ، وكان بأكمة باليمن تعبده مذحج ومن والاها ، وأجابته همدان فدفع إلى مالك بن زيد بن جشم يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان فعبدته همدان ومن ولاها من اليمن ، وأجابته حمير فدفع إلى رجل من ذى رعين يقال له معدى كرب نسراً فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها فلم يزل يعبدونه حتى هوّدهم ذو نواس ، فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبى ﷺ فهدمها وكسرها ، وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار . وكان أول من سيب السوائب » وفى لفظ « وغير دين إبراهيم » . وروى ابن إسحاق عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجوف الخزاعى « ياأكثم ، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه » فقال أكثم : عسى ألا يضرنى شبهه يارسول الله ، قال « لا ، إنك مؤمن وهو كافر إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامى » . قال بن هشام : حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء — وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح — رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرنا فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه . فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وقال ابن إسحاق : واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما ، وكان إساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم هو إساف بن بغى ونائلة بنت ديك فوقع إساف على نائلة فى الكعبة فمسخهما الله حجرين : قال : وقال أبو طالب :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم بمفضى السيول من إساف ونائل

واتخذوا حول الكعبة نحو ثلاثمائة وستين صنما . قال ابن إسحاق وكان لخولان صنم يقال له عم أنس بأرض خولان يقسمون له من أموالهم من أنعامهم وحروثهم قسما بينه وبين الله بزعمهم ، فما دخل فى حق عم أنس من حق الله تعالى الذى سموه له تركوه له . ومادخل فى حق الله تعالى من حق عم أنس ردوه عليه . وهم بطن من خولان يقال لهم الأديم ، وفيهم أنزل الله تبارك وتعالى فيما يذكرون (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وماكان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون) قال وكان لبنى ملكان بنى كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة ، فأقبل رجل من بنى ملكان بابل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم ، فلما رأته الإبل — وكانت مرعية لا تركب ، وكان يهراق عليه الدماء — نفرت منه فذهبت فى كل وجه ، وغضب ربها الملكانى فأخذ حجراً فرماه به وقال : لا بارك الله فيك ، نفرت على إبلى . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها . فلما اجتمعت له قال :

أتينـــا إلى سعـــد ليجمـــع شملنـــا   فشتتنا سعـــد فلا نحن من سعـــد
وهـل سعـد إلا صخـــرة بتنوفـــة   من الأرض لا تدعو لغى ولا رشد

وكان لدوس صنم لعمرو بن حممة الدوسى . قال وكان لقريش وبنى كنانة العزى بنخلة وكانت سدنتها وحجابها بنو شيبان من سليم حلفاء أبى طالب . قلت فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه فهدمها . قال وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان سدنتها وحجابها بنى معتب من ثقيف . قال وكان مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، وقال ابن هشام فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان بن حرب رضى الله عنه فهدمها ، ويقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال ابن إسحاق : وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة فبعث إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه فهدمها . قال وكانت قلس لطيىء ومن يليها بجبل طيىء بين سلمى وأجأ ، قال ابن هشام فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليها على بن أبى طالب عنه فهدمها فوجد فيها سيفين يقال لأحدهما الرسوب وللآخر المخذم فوهبهما له فهما سيفا على رضى الله عنه . قال وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له رئام . قال :

و كانت رضاء بيتاً لبنى ربيعة بن كعب وفيها يقول المستوغر بن ربيعة حين هدمها فى الإسلام :

ولقــــد شددت على رضاء شدة فتـركتها قفــراً بقـــاع أسحمـــا

وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد بسنداد ، وله يقول أعشى بنى قيس :

بين الخورنـــق والسديـــر وبـــارق والبيت ذى الشرفـات من سنـداد

قال ابن إسحاق وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان قد اتخذ فى داره صنماً من خشب يقال له مناة فلما أسلم فتيان بنى سلمة ـــ معاذ بن جبل وابنه[1] معاذ بن عمرو بن الجموح وغيرهم ـــ ممن أسلم وشهد العقبة وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطروحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذرات الناس منكساً على رأسه فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ قال ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال : والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته . فإذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك ، فيغدو ويلتمسه فيجد به مثل ماكان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ، فيغدون عليه إذا أمسى فيفعلون به ذلك . فلما طال عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : والله لا أعلم من يصنع بك ماترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك . فلما أمسى ونام غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر الناس ، وغدا عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت . فلما رآه أبصر شأنه . وكلمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه ، فقال حين أسلم وعرف من الله ماعرف وهو يذكر صنمه ذلك وماأبصر من أمره وشكر الله إذا أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة :

والله لو كنت إلهاً لم تكـــــن أنت وكـلـب وسط بئر فى قرن
أف لملقـــاك إلهاً مستــــــدن تهان أو تسئل عن سوء الغبـــن
الحمـد لله الـعلى ذى المنــــن الـواهب الـرزاق ديان الديـــن
هو الـذى أنقـذنى من قبـل أن أكـــون فى ظلمـــــة قبر مرتهن

قال ابن إسحاق واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنما يعبدونه ، فإذا أراد رجل منهم سفراً تمسح به فيكون آخر عهده وأول عهده ، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ويطاف بها كما يطاف بالكعبة وينحر عندها كما ينحر الكعبة . وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذوه رباً وجعل الثلاثة أثافى لقدره ، فإذا أرتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك ، وقال أبو رجاء العطاردى لما بعث النبى ﷺ فسمعنا به سمعنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار ، قال وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذاك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به ، قال وكنا نعمد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده . وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه . وقال أبو عثمان النهدى : كنا فى الجاهلية نعبد حجراً ، فسمعنا منادياً ينادى يا أهل الرجال إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً . قال فخرجنا على كل صعب وذلول فبينما نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه ، فإذا حجر فنحرنا عليه الجزور . وقال عمرو بن عبسة كنت ممن يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلهاً يعبده ، ثم لعله يجد ماهو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره . ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما فجعل يطعن بنشبة قوسه فى وجوهها وعيونها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل وهى تتساقط على وجوهها ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت .

وقال ابن القيم رحمة الله تعالى فى خاتمة كتابه الإغاثة :

(فصل) وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم : فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عليه السلاك ، ولهذا لعن النبى ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل ربه سبحانه وتعالى أن لا يجعل قبره وثناً يعبد . ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً ، وقال

« اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل . قلت وسنذكر الأحاديث المسندة فى ذلك قريباً إن شاء الله تعالى قال فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله إما جهلا وإما عناداً لأهل التوحيد ، ولم يضرهم ذلك شيئاً ، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين ، وأما خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة فى العالم عندهم ، وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحجاباً وحجاً وقرباناً ، ولم يزل هذا فى الدنيا قديماً وحديثاً ، فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كانت به أصنام أخرجها بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار . ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة فخر به عثمان رضى الله عنه . ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخر به المعتصم ، وأشد الأمم فى هذا النوع من الشرك الهند . قال يحيى بن بشر : إن شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له برهمن ووضع لهم أصناماً وجعل أعظم بيوتها بيتاً بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولى الأكبر ، وفتحت هذه المدينة فى أيام الحجاج واسمها الملتان . إلى أن قال رحمه الله : وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة وهم قوم إبراهيم عليه السلام الذين ناظرهم فى بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه ، وآلهتهم بيده ، فطلبوا تحريقه . وهو مذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى ، فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل ، وهى أصل نور القمر والكواكب ، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها ، وهى عندهم ملك الفلك يستحق التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على نوع من النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة ياتون البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات فى اليوم ، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعون ويستسقون به ، وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم ، وإذا غربت ، وإذا توسطت الفلك ، ولهذا يقارفها الشيطان فى هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ، ولهذا النبى ﷺ عن تحرى الصلاة فى هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً . وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام . قلت : وقد ذكر الله عز وجل عبادة الشمس عن أهل سبأ من أرض اليمن فى عهد بلقيس ، كما حكى قول الهدهد حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) إلى آخر الآيات ، وهداها الله تعالى إلى الإسلام على يد

نبيه سليمان عليه السلام حيث قال (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فصل) وطائفة أخرى اتخذت القمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة وإليه تدبير هذا العالم السفلى ، ومن شريعة عباده أنهم اتخذوا لهم صنما على شكل عجل ويجره أربعة ، وبيد الصنم جوهرة ، ويعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياماً معلومة من كل شهر ، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور ، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه . ومنهم من يعبدون أصناما اتخذوها علىٰ صور الكواكب وروحانياتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ، ومتى أردت الوقوف على هذا فانظر فى كتاب « السر المكتوب فى مخاطبة النجوم » لابن خطيب الرى تعرف عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها ، وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام ، فإنهم لا تستمر لهم طريق الا بشخص خاص ينظرون إليه ويعكفون عليه ، ومن هنا اتخاذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناماً زعموا أنها على صورهم ، فوضع الصنم إنما كان فى الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه ، وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجراً بيده ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده . ومن أسباب عبادتها أيضاً أن الشياطين تدخل فيهم وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات عنهم وتدلهم على بعض مايخفى عليهم ، وهم لا يشاهدون الشيطان ، فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب ، وعقلاؤهم يقولون إن تلك روحانيات الأصنام ، وبعضهم يقول إنها الملائكة ، وبعضهم يقول إنها هى العقول المجردة ، وبعضهم يقول هى روحانيات الأجرام العلويه ، وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهاً ولا يسأل عما وراء ذلك . وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم عليه السلام وعبادتها فى الأرض من قبل نوح عليه السلام كما تقدم ، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبق الأرض ، قال إمام الحنفاء (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) والأمم التى أهلكها الله تعالى بأنواع الهلاك

كلهم يعبدون الأصنام كما قص الله عز وجل عنهم فى القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين ، ويكفى فى معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض ماصح عن النبى ﷺ أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وقد قال الله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وماوجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها ، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وماحل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حباً لها وتعظيماً ويوصى بعضهم بعضاً بالصبر عليها وتحملها أنواع المكاره فى نصرتها وعبادتها ، وهم يسمعون أخبار الأمم التى تنت بعبادتها وماحل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها ، ففتنة عبادة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها ، والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو يشاهد مايحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر ، غير ماأعد الله له فى الأخرة وفى البرزخ ولا يزيده ذلك إلا إقداماً وحرصاً على الوصول والظفر بحاجته ، فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام وأشد ، فإن تأله القلوب لها أعظم من تألها للصور التى يريد منها الفاحشة بكثير ، والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله وأنهم أعداء الله وأعداء رسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات ونزلت بهم العقوبات وأن الله سبحانه برىء منهم هو وجميع رسله وملائكته وأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف ، وقد أباح الله عز وجل لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة ، فهؤلاء فى شق ورسل الله فى شق . ثم قال رحمه الله تعالى :

(فصل) ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو فى المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظاً من الإلهية وشبهوه بالله تعالى ، وهذا هو التشبيه الواقع فى الأمم الذى أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بانكاره والرد على أهله ، فهو سبحانه ينفى وينهى أن يجعل غيره مثلا له وندا وشبها له ، لا أن يشبه هو بغيره إذ ليس فى الأمم أمة

جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق آصلا وشبهت به الخالقَ فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بنى آدم ، وإنما الأول هو المعروف فى طوائف أهل الشرك غلواً فى من يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الإلهية ، بل صرحوا أنه إله وأنكروا جعل الآلهة إلها واحداً وقالوا اصبروا على آلهتكم ، وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه ويقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التى لا تنبغى إلا لله تعالى . ثم ذكر رحمه الله تعالى فى ذلك بحثاً نفيساً فأجاد وأفاد ، ثم ذكر باقى طوائف المشركين من عباد النار والماء والحيوانات والملائكة وغيرهم من الثنوية والدهرية والفلاسفة ، وذكر من أوضاع شرائعهم الباطلة وأصولها وكيفية عبادتهم لما ألهوه ونقض ذلك عليهم أثم نقض ، تغمده الله برحمته .

والمقصود أن أكثر شرك الأمم التى بعث الله إليها رسله وأنزل كتبه غالبهم إنما أشرك فى الإلهية ، ولم يذكر جحود الصانع إلا عن الدهرية والثنوية ، وأما غيرهم ممن جحدها عناداً كفرعون ونمرود وأضر بهم فهم مقرون بالربوبية باطناً كما قدمنا ، وقال الله عز وجل عنهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً) وبقية المشركين يقرون بالربوبية باطناً وظاهراً كما صرح بذلك القرآن فيما قدمنا من الآيات وغيرها ، مع أن الشرك فى الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم فى الإلهية وكذا فى الأسماء والصفات ، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر ، وهكذا أضدادها فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك فى الباقى ، مثال ذلك فى هذا الزمن عباد القبور إذ قال أحدهم ياشيخ فلان — لذلك المقبور — أغثنى أو افعل لى كذا ونحو ذلك يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحت التراب وقد صار تراباً . فدعاؤه إياه عبادة صرفها له من دون الله لأن الدعاء مخ العبادة ، فهذا شرك فى الإلهية . وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب أو شفاء مريض أو نحو ذلك مما لايقدر عليه إلا الله معتقداً أنه قادر على ذلك هذا شرك فى الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله تعالى فى ملكوته ، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب فى أى وقت كان وفى أى مكان ويصرحون بذلك ، وهذا شرك فى الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعاً محيطاً بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد فاسيلزم هذا الشرك فى الإلهية الشرك فى الربوبية والأسماء والصفات .

والشرك نوعـــان فشرك أكبر   به خلـــود النـــار إذ لا يغفـــر
وهـــو اتخاذ العبـــد غير الله   نداً به مسويـــاً مضاهـــى

(والشرك) الذى هو ضد التوحيد (نوعان) أى ينقسم إلى نوعين (فشرك أكبر) ينافى التوحيد بالكلية ويخرج صاحبه من الإسلام (به خلود) فاعله فى (النار) أبداً (إذا) تعليل لأبدية الخلود أى لكونه (لايغفر) قال الله تبارك وتعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) وقال تعالى (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من أنصار) وقال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) وقال لصفوة خلقه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام بعد أن أثنى عليهم (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) وقال لخاتمهم محمد ﷺ (ولقد أوحينا إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) فالشرك أعظم ذنب عصى الله به ، ولهذا أخبرنا سبحانه أنه لا يغفره وأنه لاأضل من فاعله ، وأنه مخلد فى النار أبداً لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع ، وأنه لو قام الله تعالى قيام السارية ليلا ونهاركا ثم أشرك مع الله تعالى غيره لحظة من اللحظات ومات على ذلك فقد حبط عمله كله بتلك اللحظة التى أشرك فيها ولو كان نبياً رسولا ، ولو كان محمداً ﷺ ، وهذا من تقدير وقوع المحال وهو كثير فى اللغة العربية ، أى لو قدر وقوع ذلك من ملك أو رسول لكان كغيره من المشركين فى حبوط عمله وحلول غضب الله عليه ، وإلا فلم يرسل الله تعالى رسولاً إلا معصوماً من جميع المعاصى فضلا عن الشرك (الله أعلم حيث يجعل رسالته) . والآيات فى بيان أعظم الشرك ووعيد فاعله أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر ، وفى معناها من الأحاديث مالايحصى ، ولنذكر من ذلك ماتيسر فنقول وبالله التوفيق :

فى الصحيح عن عبد الله بن مسود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار » وقلت أنا : ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل

الجنة . وفيه عن جابر رضى الله عنهما قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يارسول الله ماالموجبتان ؟ فقال « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار » . وفيه عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله يقول « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » ، ومن لقى الله يشرك به شيئاً دخل النار » وفيه من حديث أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « أتانى جبريل عليه السلام فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق » . وفيه عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الحديث . وفيه عن أبى بكر رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » الحديث . وروى أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لايعبأ الله به شيئاً ، وديوان لايترك الله منه شيئاً ، وديوان لايغفره الله ج فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) وأما الديوان الذى لايعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة فإن الله تعالى يغفر ذلك ويتجاوزه إن شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لامحالة » يقول « كل ذنب عسى الله يغفره ، إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » ورواه النسائى أيضاً . ولأحمد عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى يقول : ياعبدى ، ماعبدتنى ورجوتنى فانى غافر لك على ماكان منك ، ياعبدى إنك إن لقيتنى بتراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » . وللترمذى وقال حسن صحيح عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ياابن آدم ، إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا أبالى . ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، ياابن آدم لو أتيتنى بتراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » ولابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مامن نفس تموت لاتشرك بالله شيئاً إلا حلت لها المغفرة ، إن شاء الله عذبها وإن شاء غفر لها (إن الله لا يغفر أن يشرك به

ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . ولأبى يعلى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لاتزال المغفرة على العبد مالم يقع الحجاب » . قيل يانبى الله وما الحجاب ؟ قال « الاشراك بالله . قال : مامن نفس تلقى الله لاتشرك به شيئاً إلا حلت لها المغفرة من الله تعالى ، إن شاء أن يعذبها وإن شاء أن يغفر لها » ثم قرأ النبى ﷺ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . ولأحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ولابن أبى حاتم عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن لى ابن أخ لاينتهى عن الحرام ، قال « ومادينه » قال يصلى ويوحد الله قال « استوهب منه دينه ، فان أبى فابتعه منه » فطلب الرجل ذاك منه فأبى عليه ، فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال : وجدته شحيحاً على دينه ، قال فنزلت (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . وللطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى مالم يشرك بى شيئاً » ولابن مردويه عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (أخبركم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله) ثم قرأ (ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما) « وعقوق الوالدين » ثم قرأ (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وللامام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا : يارسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح (يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) » الحديث فى الصحيحين . ولابن مردويه من حديث عبادة وأبى الدرداء رضى الله عنهما « لاتشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم » . ولابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال « لا تشركوا بالله شيئاً وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم » . وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى « يامعاذ : أتدرى ماحق الله على العباد ، وماحق العباد على الله عز وجل » ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » . وللبخارى عن سعيد بن المسيب عن أبيه رضى الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال النبى

ﷺ « أى عم ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أباطالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وقال النبى ﷺ « لا ستغفرن لك مالم أنه عنك » فنزلت (ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) .

والأحاديث فى عظم ذنب الشرك وشدة وعيده أكثر من أن تحصى ، وقد قدمنا من أحاديث التوحيد جملة وافية عند الكلام على لا إله إلا الله وغير ذلك والمقصود أن الشرك أعظم مانهى الله عنه ، كما أن التوحيد أعظم ماأمر الله به ، ولهذا كان أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله عز وجل ونفى الشرك فلم يأمروا بشىء قبل التوحيد ولم ينهوا عن شىء قبل الشرك كما قدمنا بسط ذلك . وماذكر الله تعالى التوحيد مع شىء من الأوامر إلا جعله أولها ، ولا ذكر الشرك مع شىء من النواهى إلا جعله أولها . كما فى آية النساء (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) وكما فى آية الأنعام التى طلب النبى ﷺ البيعة عليها وهى قوله تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) وكما فى آيات الاسراء (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين إحسانا — إلى قوله — ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً) فابتدأ تلك الأوامر والنواهى بالأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، وختمها بذلك . وكما فى آيات الفرقان فى الثناء على عباده المؤمنين فى اجتنابهم الفواحش (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآيات وغير ذلك من الآيات . وكذلك فى أحاديث النبى ﷺ الجامعة للاوامر والنواهى يبدأ فى الأوامر بالتوحيد وفى المناهى بالشرك ، كما فى حديث الكبائر المتقدم . وكما فى حديث

من سأل النبي ﷺ فقال : دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني عن النار ، قال « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً » وذكر الحديث . وكذا في أحاديث أركان الإسلام ، كحديث جبريل المشهور ، وحديث ابن عمر ، وحديث وفد عبد القيس وغيرها يبدأ فيها بالشهادتين . ومن تتبع القرآن والسنة وتدبر نصوصهما تبين له أنها لا تخرج عن الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ومايتعلق بذلك ، ولم يخلق الله الخلق إلا لذلك .

(وهو) أى الشرك الذى تقدم ذكره فى المتن وذكر النصوص فيه فى الشرح (اتخاذ العبد غير الله) من نبى أو ولى أو ملك أو قبر أو جنى أو شجر أو حجر أو حيوان أو نار أو شمس أو قمر أو كوكب أو غير ذلك . (ندا) من دون الله (مسوياً به) الله يحبه كحب الله ويخافه ويخشاه كشخية الله ويتبعه على غير مرضاة الله ويطعيه فى معصية الله ويشركه فى عبادة الله (مضاهي) به الله قال الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وحكى عنهم فى اختصامهم فى النار (قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين) وقد أخبرنا الله عز وجل أنهم لم يسووهم به فى خلق ولا رزق ولا إحياء ولا إماته ولا فى شيء من تدبير الملكوت بل أخبرنا أنهم مقرون لله تعالى بالربوبية (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى تقدمت ، ولكنهم سووهم بالله تعالى فى حبهم إياهم كحب الله ولم يجعلوا المحبة لله وحده فى خوفهم منه وخشيتهم كشخية الله ، ولم يجعلوا الخشية لله والخوف من الله وحده . وأشركوهم فى عبادة الله ولم يفردوا الله بالعبادة دون من سواه . مع أنهم لم يعبدوهم استقلالا بل زعموهم شفعاء لهم عند الله ليقربوهم إلى الله زلفى ، ولكن اعتقدوا تلك الشفاعة والتقريب ملكاً للمخلوق ويطلبونه منه وأن له يشفع بدون إذن الله والله تعالى يقول (مامن شفيع إلا من بعد إذنه) ولهذا سمى الله تعالى استشفاعهم ذلك شركاء كما قال تعالى (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون) فجمعوا فى ذلك بين شريكين : الأول عبادتهم إياهم من دون الله عز وجل . والثانى جعلهم شفعاء بدون إذن الله عز وجل . وقال تعالى (ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دون الله أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقال تعالى (ومانرى

معكم شفعاء كم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) . وأيضا فقد أخبرنا الله تعالى أنهم كانوا يعبدون معه غيره فى الرخاء ، وأما فى الشدة فكانوا يخلصون العبادة لله ، قال الله تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال تعالى (وهو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما نجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) وقال تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) وقال تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) وقال تعالى (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) وقال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) الآيات ، وقال تعالى (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون) وغير ذلك من الآيات . وفى حديث حصين المتقدم لما قاله له النبى ﷺ كم تعبد اليوم من إله » قال : سبعة ، ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال « فمن نعبد لرغبتك ورهبتك » قال : الذى فى السماء . ولما ركب بعض مشركى قريش فارا من النبى ﷺ حين فتح مكة فلما اضطرب البحر عليهم وشاهدوا من أمر الله ماشاهدوا فقال بعضهم لبعض : ادعوا الله فانه لا ينجيكم من هذا إلا هو ، فقال : والله إن كان لا ينفع فى البحر إلا هو فانه لا ينفع فى البر إلا هو ، لئن أخرجنى الله من هذه لأذهبن إلى رسول الله ﷺ فلأضعن يدى فى يده . وهذا بخلاف مشركى زماننا اليوم من عباد القبور وغيرها فانهم يشركون فى الشدة أضعاف شركهم فى الرخاء ، حتى إن كانوا ينذرون لهذا الولى فى الرخاء ببعير أو تبيع أو شاة أو دينار أو درهم أو نحو ذلك فاصابتهم الشدة زادوا ضعف ذلك فجعلوا له بعيرين أو تبيعين أو شاتين أو دينارين أو درهمين أو غير ذلك . وأيضاً فإنهم يعتقدون فيهم من صفات الربوبية وأنهم متصرفون فيما لايقدر عليه إلا الله . وغلا بعضهم حتى جعل منهم المتصرف فى تدبير الكون على سبيل

الاستقلال ويقولون فيه إنها لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا باذن فلان ، تعالى الله وتقدس وجل وعلا عن أن يكون معه إله غيره أو يكون له شريك فى الملك أو ولى من الذل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ــ ماتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ــ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العريش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً) وغير ذلك من الآيات .

يقصده عنــــــد نزول الضر	لجلب خير أو لدفـــــع الشر
أو عنــــد أى غرض لا يقبــــدر	عليــــه إلا المالك المقتـــــدر
مع جعلـــه لذلك المدعــــو	أو المعظــــم أو المرجــــو
فى الغيب سلطانـــاً به يطلـــع	على ضمير من إليــــه يفـــزع

(يقصده) أى المتخذ ذلك الند من دون الله يقصد نده (عند نزول الضر) به مر خير فاته أو شر دهمه (لجلب خير) له (أو لدفع الشر) عنه (أو عند) احتياج (أى غرض) من الأغراض ، والحال أنه (لايقدر عليه) أى على ذلك الغرض (إلا المالك المقتدر) وهو الله سبحانه وتعالى (مع جعله) أى العبد (لذلك المدعو أو المعظم أو المرجو) من ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو شجر أو حجر أو كوكب أو جنى (فى الغيب سلطاناً) أى يعتقد أن له سلطاناً غيبياً فوق طوق البشر (به يطلع) أى بذلك السلطان الذى اعتقده فيه (على ضمير من إليه) إلى ذلك الند (يفزع) فى قضاء أى حاجة من شفاء مريض أو رد غائب أو غير ذلك ، فيرى أنه يسمعه إذا دعاه ويرى مكانه ويعلم حاجته ويقضيها بقدرة اعتقدها فيه مع الله ، والمقصود أنه يثبت له من صفات الربوبية مايرفعه عن درجة العبودية إلى درجة المعبودية ، ويجعله مستحقاً العبادة مع الله . ومن هنا يتبين لك ماقدمنا من أن الشرك فى الألوهية يستلزم الشرك فى الربوبية والأسماء والصفات ولابد ، ويتبين لك عظم ذنب الشرك وأنه أقبح الذنوب وأظلم الظلم وأكبر الكبائر ، وأن الله تعالى لا يغفره ولا يقبل لأحد عملاً معه وأنه لا أشد هلكة منه ، وماأرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا بالنذارة عن الشرك والدعوة إلى التوحيد ، وماهلكت الأمم الغابرة وأعدت لهم النيران فى الآخرة إلا بالشرك والإباء عن التوحيد ،

ولا نجا الرسل وأتباعهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة إلا بالتزام التوحيد والبراءة من الشرك ، فما هلك قوم نوح بالطوفان ولا عاد بالريح العظيم ولا ثمود بالصيحة ولا أهل مدين بعذاب يوم الظلة إلا بالشرك وعبادة الأصنام ، وهكذا الأمم من بعدهم بأنواع العذاب ، ولم يخرج عصاة الموحدين من النار فى الآخرة إلا بالتوحيد ، ولم يخلد غيرهم فيها أبداً مؤبداً إلا بالشرك ..

ثم أعلم أن ماعبد من دون الله إما عاقبل أو غير عاقل ، فالعاقل كالآدمى والملائكة والجن . وينقسمون إلى قسمين : راض بالعبادة له ، وغير راض بها . فالأول كفرعون وإبليس وغيرهما من الطواغيت ، وهؤلاء فى النار مع عابديهم كما قال الله عز وجل (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) وقال تعالى فى شأن إبليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) ، وقال فى شأن فرعون (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) وقال تعالى (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله) وغير ذلك من الآيات . والقسم الثانى وهو من كان مطيعاً لله وغير راض بالعبادة له من دون الله كعيسى ومريم وعزير والملائكة وغيرهم فهم برآء ممن عبدهم فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام (إذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب) إلى آخر الآيات . وقال تعالى فى شأن الملائكة (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ، وقال تعالى فى شأن كل من عبد من دون الله تعالى من الملائكة وعيسى وأمه وعزير وغيرهم من أولياء الله مطلقاً إلى يوم القيامة : (ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيلا ، قالوا سبحانك ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا

الذكر وكانوا قوماً بوراً . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً) الآية وغيرها من الآيات . وأما غير العاقل من الأشجار والأحجار وغيرها مما لا يعقل فيشملها قوله تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) ولكن الأحجار لا أرواح فيها وإنما يعذب بها من عبدها من دون الله كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) الآية ، وكما يعذب عبد الدينار والدرهم بها كما قال الله عز وجل (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهم جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) وفى الصحيح من حديث أبى سعيد فى الشفاعة بطوله وفيه « ينادى مناد : ليذهب كل قوم إلى ماكانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم » وفيه فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث . وفى حديث الصور الطويل : ألا ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ، ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى . ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذى يقول تعالى (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) ، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند الدارقطنى والطبرانى وعبد الله بن أحمد وغيرهم من المصنفين فى السنة عن رسول الله ﷺ الحديث بطوله . وفيه « ثم ينادى أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذى خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدون ولا تشركوا به شيئاً أن يولى كل أناس منكم ماكانوا يتولون ويعبدون فى الدنيا ، أليس ذلك عدلا من ربكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فينطلق كل قوم إلى ماكانوا يعبدون ويتولون فى الدنيا . قال فينطلقون ويمثل لهم أشباه ماكانوا يعبدون ، فمنهم من ينطلق إلى الشمس ومنهم من ينطلق إلى القمر وإلى الأوثان من الحجارة وأشباه ماكانوا يعبدون ، قال ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ، ويمثل لمن كان يعبد عزيرا شيطان عزيرا ، ويبقى محمد ﷺ وأمته » الحديث . قلت وقوله « يمثل لهم أشباه ماكانوا يعبدون » الخ هذا فى مثل عيسى وعزير .

وأما عبدة الطاغوت فتقودهم طواغيتهم حقيقة لا أشباهها كما صرح به الكتاب والسنة والله أعلم .

والثانى شرك أصغر وهو الريا ‏ ‏ فسره به ختـــام الأنبيـــا

(و) النوع (الثانى) من نوعى الشرك (شرك أصغر) لا يخرج من الملة ولكنه ينقص ثواب العمل ، وقد يحبطه إذا زاد وغلب (وهو الريا) اليسير فى تحسين العمل (فسره به) أى فسر الشرك الأصغر بالرياء (ختام الأنبياء) محمد ﷺ فى قوله « إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : يارسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » وبذلك فسر قول الله عز وجل (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وعن شهر بن حوشب قال جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئنى عما أسألك عنه ، أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ؟ فقال عبادة : ليس له شىء ، إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك ، فمن كان له معى شرك فهو له كله لا حاجة لى فيه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيخ عندى ؟ قال قلنا بلى . قال الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يصلى لمقام الرجل » رواه أحمد . وفيه رواية « يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه » . وله عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال : إن أخوف ماأخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول « من الشهوة الخفية والشرك » فقال عبادة بن الصامت وأبى الدرداء : اللهم غفراً ، ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد ؟ قال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق ، آترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله ، إن من صلى لرجل أو صام أو تصدق له قد أشرك . فقال شداد : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » . قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ماابتغى شداد عند ذلك : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى يقول :

أنا خير قسيم لمن أشرك بى شيئا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى » . وله عنه رضى الله عنه أنه بكى فقيل : مايبكيك ؟ قال : شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكانى . سمعت رسول الله ﷺ يقول « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » قلت : يارسول الله أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » ورواه ابن ماجه . وللبزار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله يوم القيامة : أنا خير شريك . من أشرك بى أحداً فهو له كله » ولأحمد عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا بريء منه ، وهو للذى أشرك » . وله عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال « الرياء . يقول الله يوم القيامة إذا جزىء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » . وله عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى — وكان من الصحابة — أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك » أخرجه الترمذى وابن ماجه . ولأحمد عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سمع سمع الله به ، ومن راءى راءى الله به » . وله عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « من يرائى يرائى الله به ، ومن يسمع يسمع الله به » . وله عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من سمع الناس بعلمه سمع الله به مسامع خلقه وصغره وحقره » فذرفت عينا عبد الله . وللبزار عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا ، وأقبلوا هذا فتقول الملائكة : يارب ، والله مارأينا منه إلا خيراً . فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى » ولوهب عن عبد الله بن قيس الخزاعى أن رسول الله ﷺ قال « من قام رياء وسمعة لم يزل فى مقت الله حتى يجلس » . ولأبى يعلى عن ابن . . . رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس

وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » .

ثم اعلم أن الرياء قد أطلق فى كتاب الله كثيراً ويراد به النفاق الذى هو أعظم الكفر وصاحبه فى الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى (كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين) ، وقال تعالى (والذي ينفقون أموالهم رئاء للناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) وقال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وغير ذلك من الآيات النازلة فى المنافقين بلفظ الرياء ، ومنها يصرح بمعناه دون لفظه كقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحو مستهزئون) والآيات التى قبلها وبعدها ومافى معناها . والفرق بين هذا الرياء الذى هو النفاق الأكبر وبين الرياء الذى سماه النبى ﷺ شركاً أصغر خفياً هو حديث « الأعمال بالنيات » وهو مارواه عن عمر رضى الله عنه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما اهاجر إليه » فالنية هى الفرق فى العمل فى تعيينه وفيما يراد به ، وقد أطلقت النية فى القرآن بلفظ الابتغاء وبلفظ الإرادة ، فإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله والدار الآخرة وسلم من الرياء فى فعله وكان موافقاً للشرع فذلك العمل الصالح المقبول ، وإن كان الباعث على العمل هو إرادة غير الله عز وجل فذلك النفاق الأكبر ، سواء فى ذلك من يريد به جاهاً ورئاسة وطلب دنيا ، ومن يريد حقن دمه وعصمة ماله وغير ذلك ، فهذان ضدان ينافى أحدهما الآخر لا محالة . قال الله عز وجل (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) وقال تعالى (ومن كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقال تعالى (ومن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا مافيها وباطل ماكان يعملون) وقال تعالى (ومن كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ۝ وماله فى الآخرة من نصيب) وقال

تعالى يثنى على عباده المخلصين (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وقال (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) وغير ذلك من الآيات . وإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله عز وجل والدار الآخرة ولكن دخل عليه الرياء فى تزيينه وتحسينه فذلك هو الذى سماه النبى ﷺ الشرك الأصغر ، وفسره بالرياء العملى ، وزاده إيضاحاً بقوله « يقوم الرجل فيصلى فيزين يصلاته لما يرى من نظر رجل إليه » وهذا لايخرج من الملة ، ولكنه ينقص من العمل بقدره ، وقد يغلب على العمل فيحبطه كله والعياد بالله . اللهم اجعل أعمالنا صالحة واجعلها لوجهك خالصة ولا تجعل لأحد فيها شيئاً . وأما حديث أبى موسى رضى الله عنه فى الصحيح قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ قال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فى سبيل الله » فهذا الحديث يحتمل المعنيين ، وتعينه لأحدهما النية ، فإن كان أصل العمل لغير الله فهو النفاق ، وإن كان أصله لله وأحب مع ذلك أن يذكر ويثنى عليه به فهو المعنى الذى سبق فى حديث عبادة رضى الله عنه فى الرجل « يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد » الحديث وفى آخره قال « ليس له شىء » . والله تعالى أعلم .

ومنـــه أقسام بغير البـــارى كما أتى فى محكـم الأخبـــار

أى ومن الشرك الأصغر الذى لا يخرج من الملة (إقسام) مصدر أقسم أى الحلف (بغير البارى) كالحلف بالآباء والأمهات والأبناء والأمانة وغير ذلك . كما فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه، فقال « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وفى رواية قال عمر : فو الله ماحلفت بها منذ سمعت النبى ﷺ ذاكراً ولا آثراً . متفق عليه . ولأبى داود والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » ولأحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله » وللنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » . وسمع ابن عمر رضى الله عنهما رجلا يقول : لا والكعبة ، فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله ،

فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من حلف بغير الله فقد كفر » أو « شرك » ، أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، وعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليس منا من حلف بالأمانة » رواه أبو داود . وفى الطبرانى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ سمع رجلا يحلف بالأمانة فقال « ألست الذى يحلف بالأمانة » . وعن قتيلة بنت صفى أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال : إنكم تنددون وإنكم تشركون ، تقولون : ماشاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا « ورب الكعبة » ، ويقول أحدهم « ماشاء الله ثم شئت » رواه أحمد والنسائى وصححه وابن ماجه . وقد ثبت فى كفارة الحلف بغير الله حديث الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من حلف فقال فى حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » . ومن الشرك الأصغر قول ماشاء الله وشئت ، كما روى النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال للنبى ﷺ ماشاء الله وشئت ، فقال « أجعلتنى نداً ؟ ماشاء الله وحده » . ولأبى داود بسند صحيح عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا تقولوا ماشاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ماشاء الله ثم شاء فلان » وتقدم فى ذلك حديث قتيلة ، والفرق بين الواو وثم أنه إذا عطف بالواو كان مضاهياً مشيئة الله بمشيئة العبد إذ قرن بينهما ، وإذ عطف بثم فقد جعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله عز وجل كما قال تعالى (وماتشاءون إلا أن يشاء الله) ومثله قول : لولا الله وفلان هذا من الشرك الأصغر ، ويجوز أن يقول : لولا الله ثم فلان ، ذكره إبراهيم النخعى . ولابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله عز وجل (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) قال : الأنداد الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاءة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتى ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً ، هذا كله به شرك .

فصل فى بيان أمور يفعلها العامة
منها ماهو شرك ، ومنها ماهو قريب منها
وبيان المشروع من الرقى والممنوع منها ، وهل تجوز التمائم

هذهِ الأمور المذكورة التى يتعلق بها العامة غالبها من الشرك الأصغر ، لكن إذا اعتمد العبد عليها بحيث يثق بها ويضيف النفع والضر إليها كان ذلك شركاً أكبر والعياذ بالله ، لأنه حينئذ صار متوكلا على سوى الله ملتجئا إلى غيره .

ومن يثق بودعة أو ناب ... أو حلقة أو أعين الذئاب
أو خيط أو عضو من النسور ... أو وتر أو تربة القبور
لأى أمر كائن تعلقه ... وكله الله إلى ما علقه

(ومن يثق) هذا الشرط جوابه (وكله) الآتى . (بودعة) قال فى النهاية هو شيء أبيض يجلب من البحر يعلق فى حلوق الصبيان وغيرهم . وإنما نهى عنه لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين . (أو ناب) كما يفعله كثير من العامة يأخذون ناب الضبع ويعلقون من العين . (أو حلقة) وكثيراً مايعلقونها من العين وسيأتى فى الحديث أنهم يعلقونها من الواهنة وهو مرض العضد . (أو أعين الذئاب) وكثيرا مايعلقونها يزعمون أن الجن تفر منها ، ومنهم من يقول إنه إذا وقع بصر الذئب على جنى لا يستطيع أن يفر منه حتى يأخذه ، ولهذا يعلقون عينه إذا مات على الصبيان ونحوهم . (أو خيط) وكثيراً مايعلقونه على المحموم ويعقدون فيه عقداً بحسب اصطلاحاتهم ، وأكثرهم يقرأ عليه سورة (ألم نشرح لك صدرك) إلى آخرها ، ويعقد عنه عند كل كاف منها عقدة ، فيجتمع فى الخيط تسع عقد بعدد الكافات ، ثم يربطونه بيد المحموم أو عنقه . (أو عضو من النسور) كالعظم ونحوه يجعلونها خرزاً ويعلقونها على الصبيان يزعمون أنها تدفع العين . (أو وتر) وكانوا فى الجاهلية إذا عتق وتر القوس أخذوه وعلقوه يزعمون عن العين على الصبيان والدواب . (أو تربة القبور) وما أكثر من يستشفى بها لا شفاهم الله ، واستعمالهم لها على أنواع : فمنهم من يأخذها ويمسح بها جلده ، ومنهم من يتمرغ على القبر تمرغ الدابة ، ومنهم من يغتسل بها مع الماء ، ومنهم من يشربها وغير ذلك . وهذا كله ناشيء عن اعتقادهم فى صاحب ذلك القبر أنه ينفع ويضر ، حتى عدوا ذلك الاعتقاد فيه إلى تربته فزعموا أنها فيها شفاء وبركة لدفنه فيها ، حتى إن منهم من يعتقد فى

تراب بقعة لم يدفن فيها ذلك الولى بزعمه بل قيل له إن جنازته قد وضعت فى ذلك المكان . وهذا وغيره من تلاعب الشيطان بأهل هذه العصور زيادة على ماتلاعب بمن قبلهم . نسأل الله العافية (لأى أمر كائن تعلقه) الضمير عائد إلى ماتقدم وغيره (وكله الله) أى تركه (إلى ماعلقه) دعاء عليه أى لا جفظه الله ولا كلأه بل تركه إلى ماوثق به واعتمد عليه دون الله عز وجل . قال الله تعالى (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » رواه أحمد . وله عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن النبى ﷺ رأى رجلا فى يده حلقة من صفر فقال « ماهذا ؟ » قال : من الواهنة ، فقال « أنزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهناً » ، فإنك لو مت وهى عليك ماأفلحت أبداً » ولابن أبى حاتم عن حذيفة رضى الله عنه.أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفى الصحيح عن أبن بشير الأنصارى رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولا أن « لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت » . وعن رويفع رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « يارويفع ، لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وتراً أو استنجعى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً برىء منه » رواه أحمد . وله عن عبد الله بن عكيم مرفوعاً « من علق شيئاً وكل إليه » ورواه الترمذى . وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه ، قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطاً . فقال : ماهذا الخيط ؟ قالت قلت : خيط رقى لى فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » قالت قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت . فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كف عنها . إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال النبى ﷺ « أذهب الباس رب الناس ، أشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاءك ، شفاء لا يغادر سقيماً » رواه أحمد ، وروى جملة الدلالة منه على الباب أبو داود، أعنى الجملة المرفوعة إلى النبى

ﷺ . قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فى كتابه التوحيد : الرقى هى التى تسمى العزائم وخص منه الدليل ماخلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة ، والتمائم شىء يلقونه على الأولاد عن العين ، والتولة شىء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته أ هـ وقوله فى الرقى : وخص منها الدليل ماخلا عن الشرك الخ يشير إلى ماسنذكره بقولنه :

ثم الـــــرقى من حمة أو عين فإن تكن من خالص الوحيين
فذاك من هدى النبى وشرعته وذاك لا اختلاف فى سنتيـــه

(ثم الرقى) إذا فعلت (من حمة) وهى تطلق على لدغ ذوات السموم كالحية والعقرب وغيرها (أو عين) وهى من الإنس كالنفس من الجن وهى حق ولها تأثير ، لكن لا تأثير لها إلا بإذن الله عز وجل ، وقال الله تعالى (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) الآية فسره بإصابة العين ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وفى تحقيقها أحاديث : ففى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « العين حق . ولو كان شىء سابق القدر سبقت العين . وإذا استغسلتم فاغسلوا » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن العين حق » أخرجاه . ولأحمد وابن ماجه عن أبى هريرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « العين حق » . ولأحمد عنه أيضاً رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « العين حق ، ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم » . وله عنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أصدق الطيرة الفأل ، والعين حق » . وله هو والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أسماء رضى الله عنها قالت : يارسولِ الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين . أفأسترقى لهم ؟ قال « نعم ، فلو كانْ يسبق القدر لسبقته العين » ولأحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا هام ، والعين حق ، وأصدق الطيرة الفأل » . وله عن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ خرج وساروا معه نحو مكة حتى إذا كانوا بشعب الحرار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان رجلا أبيض حسن الجسم والجلد ، فنظر إليه عامر بن ربيعة ــ أخو بنى عدى ابن كعب ــ وهو يغتسل : فقال : مارأيت كاليوم ولا جلد مخبأة . فليط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ فقيل له : يارسول الله هل لك فى سهل ، والله مايرفع رأسه ولا يفيق ؟ قال « هل تتهمون فيه من أحد ؟ »

قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة . فدعا رسول الله ﷺ عامرا ، فتغيظ عليه وقال « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ هلا إذا رأيت مايعجبك بركت » ثم قال له « اغتسل له » فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره فى قدح ، ثم صب ذلك الماء عليه ، فصبه رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ القدح وراءه ، ففعل ذلك فراح سهل مع الناس ليس به بأس . وله عن عبيد الله ابن عامر بن ربيعة قال : انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل ، قال فانطلقا يلتمسان الخمر[1] ، قال فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف فنظرت إليه فأصبته بعينى ، فنزل الماء يغتسل قال فسمعت له فى الماء فرقعة فأتيته فناديته ثلاثاً فلم يجبنى . فأتيت النبى ﷺ فأخبرته ، قال فجاء يمشى فخاض الماء فكأنى أنظر إلى بياض ساقيه ، قال فضرب صدره بيده ثم قال « اللهم اصرف عنه حرها وبردها ووصبها » قال فقام ، فقال رسول الله ﷺ « إذا رأى أحدكم من أخيه أو من نفسه أو من ماله مايعجبه ، فليبرك ، فإن العين حق » . وله عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا هامة ولا حسد ، والعين حق » وغير ذلك من الأحاديث المصرحة بأن العين حق ، وسنذكر بعضها أيضاً فى شرعية الرقى منها وغيرها .

ولنرجع إلى المقصود من شرح المتن ، (فإن تكن) أى الرقى (من خالص الوحيين) الكتاب والسنة ، وإضافة خالص إلى الوحيين من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى من الوحى الخالص بأن لا يدخل فيه غيره من شعوذة المشعبذين ، ولا يكون بغير اللغة العربية ، بل يتلو الآيات على وجهها والأحاديث كما رويت وعلى ماتلقيت عن النبى ﷺ بلا همز ولا رمز ، (فذلك) أى الرقى من الكتاب والسنة هو (من هدى النبى) ﷺ الذى كان عليه هو وأصحابه والتابعون بإحسان ، (و) من (شرعته) التى جاء بها مؤديا عن الله عز وجل . (وذاك) معطوف على ذاك الأول ، والمشار إليه بهما واحد ولكن الخبر فى الثانى غير الخبر فى الأول فيكون من عطوف الجملة على الجملة ، والخبر (لا إختلاف فى سنيته) بين أهل العلم إذ قد ثبت ذلك من فعل النبى ﷺ وقوله وتقريره فرقاه جبريل عليه السلام ورقى هو ﷺ أصحابه وأمر بها وأقر عليها ، ولنذكر ماتيسر من الأحاديث فى ذلك وبالله التوفيق .

---

(١) هو ماسترك من شجر أو بناء أو غيره .

قال البخارى رحمه الله تعالى : باب الرقى بالقرآن والمعوذات ، وذكر فيه حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان ينفث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات ، فلما ثقل كنت أنفث عليه وأمسح بيد نفسه لبركتها ، ثم قال : باب الرقى بفاتحة الكتاب ويذكر عن ابن عباس عن النبى ﷺ ، ثم ذكر حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ أتوا على حى من أحياء العرب فلم يقروهم ، فبينما هم كذلك إذا لدغ سيد أولئك فقالوا : هل معكم من دواء أو راق ؟ فقالوا : إنكم لم تقرونا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء ، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ فأتوا بالشاء فقالوا لا نأخذه حتى نسأل النبى ﷺ ، فسألوه ، فضحك وقال « وما أدراك أنها رقية ، خذوها وأضربوا لى بسهم » . ثم قال : باب الشرط فى الرقية بقطيع من الغنم ، وساق فيه باسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ مروا بماء فيه لديغ أو سليم ، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق ؟ إن فى الماء رجلا لدبغاً أو سليماً . فانطلق رجلا منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه . فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجراً . حتى قدموا المدينة فقالوا : يارسول الله . أخذ على كتاب الله أجراً . فقال رسول الله ﷺ « إن أحق ماأخذتم عليه أجراً كتاب الله » . قلت وهذا هو الذى علقه آنفاً عن ابن عباس . ثم قال رحمه الله : باب رقية العين ، وذكر فيه حديث عائشة رضى الله عنها قالت : أمرنى رسول الله ﷺ أو أمر أن يسترق من العين . وحديث أم سلمة رضى الله عنهما أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال « استرقوا لها ، فإن بها النظرة » وذكر باب « العين حق » ثم قال : باب رقبة الحية والعقرب ، وذكر فيه حديث عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : سألت عائشة عن الرقية من الحمة فقالت : رخص النبى ﷺ فى الرقية من كل ذى حمة . ثم قال : باب رقية النبى ﷺ ، وذكر فيه حديث أنس بن مالك رضى الله عنه إذ قال لثابت : ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى قال « اللهم رب الناس ، مذهب الباس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقماً » وحديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول « اللهم رب الناس أذهب الباس ، وأشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » وحديثها رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ

من يرقى يقول « امسح الباس ، رب الناس بيدك الشفاء ، لا كاشف له إلا أنت » .
وحديثها رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول للمريض « بسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا — وفى رواية : وريقة بعضنا — يشفى سقيمنا بأذن ربنا » . وعن أنس رضى الله عنه قال : رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة ، رواه أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه . قال أبو البركات ابن تيمية : النملة قروح تخرج فى الجنب . وعن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخل على النبى ﷺ وأنا عند حفصة فقال « ألا تعلمين ، هذه رقية النملة » الحديث رواه أحمد وأبو داود . وعن عوف بن مالك قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يارسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « أعرضوا على رقاكم ، لابأس بالرقى مالم يكن فيه شرك » رواه مسلم وأبو داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو ابن حزم فقالوا : يارسول الله إنها كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب . وإنك نهيت عن الرقى ، قال « فاعرضوها ، فقال « ما أرى بأساً ، من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » رواه مسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد مايكون من السحر إذا كان كذا . فقال « ياعائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه » الحديث رواه البخارى ومسلم بطوله فى مواضع . وعند ابن أبى شيبة عن زيد بن أرقم قال : سحر النبى ﷺ رجل من اليهود ، قال فاشتكى لذلك أياماً ، قال فأتاه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقداً ، فأرسل رسول الله ﷺ علياً فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة . فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال . ولمسلم عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال « يامحمد ، اشتكيت ؟ قال : نعم . قال بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك » وعن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا رقية إلا من عين أو حمة » رواه ابن ماجه هكذا مرفوعاً ، ورواه مسلم وغيره موقوفاً .

أما الرقى المجهولة المعانى	فذاك وسواس من الشيطان
وفيه قد جاء الحديث أنه	شرك بلا مرية فاحذرنه
إذ كل من يقوله لا يدرى	لعله يكون محض الكفر

أو هو من سحر اليهود مقتبس   على العـــوام لبسوه فالتـــبس

أى أما الرقى التى ليست بعربية الألفاظ ولا مفهومة المعانى ، ولا مشهورة ولا مأثورة فى الشرع البتة ، فليست من الله فى شيء ، ولا من الكتاب والسنة فى ظل ولا فىء ، بل هى وسواس من الشيطان أو حاها إلى أوليائه كما قال تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وعليه يحمل قول النبى ﷺ فى حديث ابن مسعود إن الرقى والتمائم والتولة شرك » وذلك لأن المتكلم به لا يدرى أهو من أسماء الله تعالى أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الشياطين ، ولايدرى هل فيه كفر أو إيمان ، وهل هو حق أو باطل ، أو فيه نفع أو ضر أو رقية أو سحر . ولعمر الله لقد انهمك غالب الناس فى هذه البلوى غاية الانهماك واستعملوه على أضرب كثيرة وأنواع مختلفة ، فمنه مايدعون أنه من القرآن أو من السنة ومن أسماء الله المثبتة فيها ، وأنهم ترجموه هم من عند أنفسهم بالسريانية أو العبرانية أو غيرها وأخرجوه عن اللغة العربية ، ولا أدرى إن صدقناهم فى دعواهم أهم يعتقدون أنه لا ينفع إذا كان باللغة العربية التى نزل بها القرآن وتكلم بها النبى ﷺ بالسنة حتى يترجموه بالأعمجمية أو أنهم يعتقدون أنه بالأعجمية أنفع منه بالعربية ، أو أنه ينفع بالعربية لشيء وبالأعجمية لغيره ولا تصلح إحداهما فيما تصلح فيه الأخرى ، أم ماذا زين لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم ، أم ماذا كانوا يفترون ؟ ومما يزعمون أنه من أسماء الله تعالى التى ليست فى الكتاب ولا فى السنة وأنهم علموها من غيرهما فمنه مايدعون أنه دعا به آدم عليه السلام أو نوح أو هود أو غيرهم من الأنبياء ، ومنه مايقولون إنه ليس إلا فى أم الكتاب ، ومنه مايقولون هو مكتوب فى البيت المعمور ، ومنه مايقولون هو مكتوب على جناح جبريل عليه السلام أو جناح ميكائيل أو جناح إسرافيل أو غيرهم من الملائكة ، أو على باب الجنة أو غيز ذلك . وليت شعرى متى طالعوا اللوح المحفوظ فاستنسخوه منه ، ومتى رقوا إلى البيت المعمور فقرأوه فيه ، ومتى نشرت لهم الملائكة أجنحتها فرأوه ، ومتى اطلعوا إلى باب الجنة فشاهدوه ، كلما شعوذ مشعبذ وتخذلق متحذلق وأراد الدجل على الناس والتحيل لأخذ أموالهم طلب السبل إلى وجه تلك الحيلة ورام لها أصلا ترجع إليه ، فإن وجد شبهة تروج على ضعفاء العقول وأعمياء البصائر وإلا كذب لهم كذباً محصناً وقاسمهم بالله إنه لهم لمن الناصحين ، فيصدقونه لحسن ظنهم به . ومنه أسماء يدعونها ، تارة يدعون أنها أسماء الملائكة وتارة يزعمون أنها من أسماء الشياطين ، واعتقادهم فى هذه الأسماء أنها تخدم هذه السورة أو

هذه الآية ، أو هذا الاسم من أسماء الله تعالى ، فيقولون : ياخدام سورة كذا أو آية كذا أو اسم كذا ، يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان أجيبوا أجيبوا ، العجل العجل ونحو ذلك . ومامن سورة من القرآن ولا آية منه ولا اسم من أسماء الله يعرفونه إلا وقد انتحلوا له خداما ودعوهم له ، ساء مايفترون . وتارة يكتبون السورة أو الآية ويكررونها مرات عديدة بهيئات مختلفة حتى يجعلوا أولها آخرا وآخرها أولا ، وأوسطها أولا فى موضع وآخرا فى آخر . وتارة يكتبونها بحروف مقطعة كل حرف على حدته ويزعمون أن لها بهذه الهيأة خصوصية ليست لغيرها من الهيئات ، ولا أدرى من أين أخذوها وعمن نقلوها ، ماهى إلا وساوس شيطانية زخرفوها ، وخرافات مضلة ألفوها ، وأكاذيب مختلفة لفقوها ، لم ينزل الله بها من سلطان ، ولا يعرف لها أصل فى سنة ولا قرآن ، ولم تنقل عن آحد من أهل الدين والإيمان . إن هؤلاء إلا كاذبون ، أفاكون مفترون . وسيجزون ماكانوا يعملون . وتارة يكتبونها رموزاً من الأعداد العربية المعروفة من آحاد وعشرات ومئات وألوف وغيرها ويزعمون أنها رموز إلى حروف آية أو سورة أو اسم أو شيء مما قدمنا بحساب الحروف الأبجدية المعروفة عند العرب وغير ذلك من الخرافات الباطلة ، والأكاذيب المفتعلة المختلقة ، وغالبها مأخوذ عن الأمة الغضبية الذين أخذوا السحر عن الشياطين وتعلموه منهم ، ثم أدخلوا ذلك على أهل الإسلام بصفة أنه من القرآن أو السنة أو اسماء الله تعالى ، أنهم إنما غيروا ألفاظه وترجموها بغير العربية لمقاصد لاتتم بزعمهم إلا بذلك ، ومنها ماهو من عباد الملائكة والشياطين ونحوهم يأخذون أسماءهم ويقولون للجهال هى أسماء الله ليروجوا الشرك بذلك عليهم فيدعون غير الله من دونه ، وهذه مكيدة لم يقدر عليها إبليس إلا بوساطة هؤلاء المضلين وهو (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) والله تعالى يقول (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك رحمة وذكرى لقوم يؤمنون — ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

فتحصل من هذا أن الرقى لا تجوز إلا باجتماع ثلاثة شروط ، فإذا اجتمعت فيها كانت رقية شرعية ، وإن اختل منها شيء كان بضد ذلك : الأول أن الكون من الكتاب والسنة فلا تجوز من غيرهما ، الشرط الثانى أن تكون باللغة العربية محفوظة ألفاظها مفهومة معانيها فلا يجوز تغييرها إلى لسان آخر ، الثالث أن يعتقد أنها سبب من الأسباب لا تأثير

كما باذن الله عز وجل فلا يعتقد النفع فيها لذاتها ، بل فعل الراقى والله هو المسبب إذا شاء .

وفى التمائم المعلقـــــــــات   إن تلك آيـــات مبينـــــات

فلاختلاف واقـع بين السلـف   فبعضهم أجازها والبعض كف

(وفى التمائم المعلقات) أى التى تعلق على الصبيان والدواب ونحوها (إن تلك) هى أى التمائم (آيات) قرآنية (مبينات) ، وكذلك إن كانت من السنن الصحيحة الواضحات (فالاختلاف) فى جوازها (واقع بين السلف) من الصحابة والتابعين فمن بعدهم (فبعضهم) أى بعض السلف (أجازها) يروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وأبى جعفر محمد بن على وغيرهما من السلف ، (والبعض) منهم (كف) أى منع ذلك وكرهه ولم يره جائزاً ، منهم عبد الله بن عكم وعبد الله بن عمرون وعقبة بن عامر وعبد الله بن مسعود وأصحاب كالأسود وعلقمة ومن بعدهم كابراهيم النخعى وغيرهم رحمهم الله تعالى . ولا شك أن منع ذلك أسد لذريعة الاعتقاد المحظور ، لاسيما فى زماننا هذا فانه إذا كرهه أكثر الصحابة والتابعين فى تلك العصور الشريفة المقدسة والإيمان فى قلوبهم أكبر من الجبال فلان يكره فى وقتنا هذا وقت الفتن والمحن أولى وأجدر بذلك ، كيف وهم قد توصلوا بهذه الرخص إلى محض المحرمات وجعلوها حيلة ووسيلة إليها ، فمن ذلك أنهم يكتبون فى التعاويذ آية أو سورة أو بسملة أو نحو ذلك ثم يضعون تحتها من الطلاسم الشيطانية مالا يعرفه إلا من اطلع على كتبهم ، ومنها أنهم يصرفون قلوب العامة عن التوكل على الله عز وجل إلى أن تتعلق قلوبهم بما كتبوه ، بل أكثرهم يرجفون بهم ولم يكن قد أصابهم شيء ، فيأتى أحدهم إلى من أراد أن يحتال عن أخذ ماله مع علمه أنه قد أولع به ، فيقول له : إنه سيصيبك فى أهلك أو فى مالك أو نفسك كذا كذا أو يقول له إن معك قريناً من الجن أو نحو ذلك . ويصف له أشياء ومقدمات من الوسوسة الشيطانية موهما أنه صادق الفراسة فيه ، شديد الشفقة عليه ، حريص على جلب النفع إليه ، فإذا امتلأ قلب الغبى الجاهل خوفاً مما وصف له حينئذ أعرض عن ربه وأقبل على ذلك الدجال بقلبه وقالبه ، والتجأ إليه وعول عليه دون الله عز وجل وقال له : فما المخرج مما وصفت ، وما الحيلة فى دفعه ؟ كأنما بيده الضر والنفع ، فعند ذلك يتحقق فيه أمله ، ويعظم طمعه فيما عيسى أن يبذله له ، فيقول له إنك إن أعطيتنى كذا وكذا

كتبت لك من ذلك حجابا طوله كذا وعرضه كذا ، ويصف له ويزخرف له فى القول ، وهذا الحجاب علقه من كذا وكذا من الأمراض أثرى هذا — مع هذا الاعتقاد — من الشرك الأصغر ، لا بل هو تأله لغير الله وتوكل على غيره والتجاء إلى سواه ، وركون إلى أفعال المخلوقين وسلب لهم من دينهم ، فهل قدر الشيطان على مثل هذه الحيل إلا بواسطة أخيه من شياطين الإنس (قل من يكلأكم بالليل والنهار من الرحمن ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ثم إنه يكتب فيه مع طلاسمه شيئاً من القرآن ويتعلفه على غير طهارة ويحدث الحدث الأصغر والأكبر وهو معه أبداً لايقدسه عن شيء من الأشياء ، تالله مااستهان بكتاب الله تعالى أحد من أعدائه استهانة هؤلاء الزنادقة المدعين الإسلام به . والله مانزل القرآن إلا لتلاوته ، والعمل به ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وتصديق خبره ، والوقوف عند حدوده ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه والإيمان به ، كل من عند ربنا ، وهؤلاء قد عطلوا ذلك كله ونبذوه وراء ظهورهم ولم يحفظوا إلا رسمه كى يتأكلوا به ويكتسبوا كسائر الأسباب التى يتوصلون بها إلى الحرام لا الحلال ، ولو أن ملكاً أو أميراً كتب كتاباً إلى من هو تحت ولايته أن افعل كذا ، واترك كذا ، وأمر من فى جهتك بكذا وأنههم عن كذا ، ونحو ذلك ، فأخذ ذلك الكتاب ولم يقرأه ولم يتدبر أمره ونهيه ولم يبلغه إلى غيره ممن أمر بتبليغه إليه ، بل أخذه وعلقه فى عنقه أو عضده ، ولم يلتفت إلى شيء مما فيه البتة ، لعاقبه الملك على ذلك أشد العقوبة ولسامه سوء العذاب . فكيف بتنزيل جبار السموات والأرض الذى له المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه هو حسبى لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

وإن تكن مما سوى الوحيين	فانها شرك بغير مين
بل إنها قسيمة الأزلام	فى البعد عن سيما أولى الإسلام

(وإن تكن) أى التمائم (مما سوى الوحيين) بل من طلاسم اليهود وعباد الهياكل والنجوم والملائكة ومستخدمى الجن ونحوهم أو من الخرز أو الأوتار أو الحلق من الحديد وغيره (فانها شرك) أى تعلقها شرك (بغير مين) أى شك ، إذ ليست هى من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة ، بل اعتقدوا فيها اعتقاداً محضاً أنها تدفع كذا وكذا

من الآلام لذاتها الخصوصية زعموا فيها كاعتقاد أهل الأوثان فى أوثانهم ، (بل إنها قسيمة) أى شبيهة (الأزلام) التى كانوا يستصحبها أهل الجاهلية فى جاهليتهم ويستقسمون بها إذا أرادوا أمراً ، وهى ثلاثة قداح مكتوب على أحدها : افعل ، والثانى : لاتفعل ، والثالث : غفل ، فان خرج فى يده الذى فيه افعل مضى لأمره ، أو الذى فيه لا تفعل ترك ذلك ، أو الغفل أعاد استقسامه . وقد أبدلنا الله تعالى — وله الحمد — خيراً من ذلك : صلاة الاستخارة ودعاءها .

والمقصود أن هذه التمائم التى من غير القرآن والسنة شريكة للازلام وشبيهة بها من حيث الاعتقاد الفاسد والمخالفة للشرع (فى البعد عن سيما أولى الإسلام) أى عن زى أهل الإسلام ، فان أهل التوحيد الخالص من أبعد مايكون عن هذا وهذا ، والإيمان فى قلوبهم أعظم من أن يدخل عليه مثل هذا ، وهم أجل شأنا وأقوى يقينا من أن يتوكلوا على غير الله أو يثقوا بغيره .

فصل

من الشرك فعل من يتبرك بشجرة أو حجر أو بقعة أو قبرها أو نحوها يتخذ ذلك المكان عيداً

وبيان أن الزيارة تنقسم إلى سنية وبدعية وشركية .

هذا ومن أعمال أهل الشرك	من غير ماتردد أو شك
مايقصد الجهال من تعظيم ما	لم يأذن الله بأن يعظما
كمن يلذ ببقعة أو حجر	أو قبر ميت أو ببعض الشجر
متخذاً لذلك المكان	عيداً كفعل عابدى الأوثان

(هذا) أى الأمر والإشارة إلى ماتقدم (ومن أعمال أهل الشرك) التى لايفعلها غيرهم ولا تليق إلا بعقولهم السخيفة ، وأفئدتهم الضعيفة ، وقلوبهم المطبوع عليها ، وأبصارهم المغشى عليها (ما) أى الذى (لم يأذن الله) عز وجل فى كتابه ولا سنة نبيه (بأن يعظما) بألف الإطلاق ، وأن ومدخولها فى تأويل مصدر أى لم يأذن الله بتعظيمه ذلك التعظيم الذى منحه إياه من لم يفرق بين حق الله تعالى وحقوق عباده من النبيين والأولياء وغيرهم ، بل لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ولا بين طاعته ومعصيته ، فيتخذ

من دون الله أنداداً وهو يرى أن ذلك الذى فعله قربة وطاعة لله وأن الله يحب ذلك ويرضاه ، ويكذب الرسل ويدعى أنه من أتباعهم ، ويوالى أعداء الله وهو يظنهم أولياءه ، كفعل اليهود والنصارى يجاهرون الله بالمعاصى ويكذبون كتابه ويغيرونه ويبدلونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويقتلون الأنبياء بغير الحق وينسبون لله سبحانه وتعالى الولد ويفعلون الأفاعيل ويقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه . وسبب هذا كله — فى الأمم الأولى والأخرى هو الاعراض عن الشريعة وعدم الاهتمام لمعرفة مااحتوت عليه الكتب من البشارة والنذارة والأمر والنهى والحلال والحرام والوعد والوعيد ، ومعرفة مايجب لله على عباده فعله ومايجب تركه (كمن يلذ ببقعة) أى يعوذ بها ويختلف إليها ويتبرك بها ولو بعبادة الله تعالى عندها ، وتقدم تقييد ذلك بما لم يأذن به الله ، فيخرج بهذا القيد ماأذن الله تعالى بتعظيمه كتعظيم بيته الحرام بالحج إليه وتعظيم شعائر الله من المشاعر والمواقف وغيرها ، فان ذلك تعظيم لله عز وجل الذى أمر بذلك لا لتلك البقعة ذاتها كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما استلم الحجر الأسود : أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ماقبلتك ، وكذلك التعظيم أيضا نفسه إنما أردنا منع تعظيم لم يأذن الله به لا المأذون فيه ، فان الله تعالى قد أمر بتعظيم الرسل بأن يطاعوا فلا يعصوا ويحبوا ويتبعوا ، وأن طاعة الرسول هى طاعة الله عز وجل ومعصيته معصية الله عز وجل ، فهذا تعظيم لا يتم الإيمان بالله إلا به إذ هو عين تعظيم الله تعالى ، فانهم إنما عظموا لأجل عظمة المرسل سبحانه وتعالى وأحبوا لأجله واتبعوا على شرعه ، فعاد ذلك إلى تعظيم الله عز وجل ، فلو أن أحدا عظم رسولا من الرسول بما لم يأذن الله به ورفعه فوق منزلته التى أنزله الله عز وجل وغلافيه حتى اعتقد فيه شيئاً من الإلهية لا نعكس الأمر وصار عين التنقص والاستهانة بالله وبرسله كفعل اليهود والنصارى الذى ذكر الله عز وجل عنهم من غلوهم فى الأنبياء والصالحين كعيسى وعزير ، فكذبوا بالكتاب وتنقصوا الرب عز وجل بنسبة الولد إليه وغير ذلك وكذبوا الرسول فى قوله (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) فصار ذلك التعظيم فى اعتقادهم هو عين التنقص والشتم ، سبحان الله عما يصفون ، وسلام على المرسلين . (أو حجر ، أو قبر ميت ، أو ببعض الشجر) أو غير ذلك من العيون ونحوها ولو بعبادة الله عندها فإن ذلك ذريعة إلى عبادتها ذاتها كما فعل إبليس لعنه الله بقوم نوح حيث أشار عليهم بتصوير صالحيهم ثم بالعكوف على قبورهم

وصورهم وعبادة الله عندها إلى أن أشار عليهم بعبادتها ذاتها من دون الله تعالى فعبدوها ، (متخذاً لذلك المكان) من القبور والأشجار والعيون والبقاع وغيرها (عيداً) أى ينتابها ويعتاد الاختلاف إليها (كفعل عابدى الأوثان) فى تعظيمهم أو ثانهم واعتيادهم إليها ، ولذا سمى النبى ﷺ العكوف على الأشجار وتعليق الأسلحة بها على جهة التعظيم « تألها » ، كما فى الترمذى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها « ذات أنواط » فمررنا بسدرة فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . لتركبن سنن من قبلكم » ولقد عمت البلوى بذلك وطمت فى كل زمان ومكان حتى فى هذه الأمة لاسيما زماننا هذا ، مامن قبر ولا بقعة يذكر لها شيء من الفضائل ولو كذباً إلا وقد اعتادوا الاختلاف إليها والتبرك بها حتى جعلوا لها أوقاتاً معلومة يفوت عيدهم بفواتها ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجل ذلك العيد المعلوم . وآل بهم الأمر إلى أن صنفوا فى أحكام حجهم إليها كتاباً سموها مناسك حج المشاهد . ومن أخل بشيء منها فهو عندهم أعظم جرما ممن أخل بشيء من الحج إلى بيت الله الحرام وجعلوا لها طوافاً معلوماً كالطواف بالبيت الحرام ، وشرعوا تقبيلها كما يقبل الحجر الأسود حتى قالوا إن رحمت فاستلم بمحجن أو أشر إليه ، قياساً على فعل النبى ﷺ بالحجر الأسود ، وشرعوا لها نذوراً من المواشى والنقود ووقفوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية ، وقواعدهم الوثنية . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر النصوص النبوية فى سد ذرائع الشرك فى الفصل الآتى وبالله التوفيق .

ثم الزيـــارة على أقســـام	ثلاثـة يا أمـة الإســلام
فان نوى الزائـر فيمـا أضمـره	فى نفسه تذكـرة بالآخـره
ثم الدعـا له وللامــوات	بالعفـو والصفـح عن الزلات
ولم يكـن شد الرحـال نحوهـا	ولم يقل هجرا كقـول السفهـاء
فتـلك سنـة أتت صريحـة	فى السنـن المثبتـة الصحيحـة

(ثم الزيارة) أى زيارة القبور تأتى (على أقسام ثلاثة) : زيارة سنية وزيارة بدعية ، وزيارة شركية فتفهموها (يا أولى الإسلام) . والبداءة بالشرعية لشرفها والندب إليها ، ثم البدعية لكونها أخف جرما من الشركية ، بعد ذلك . (فإن الزائر) للقبور (فيما أضمره فى نفسه) أى كانت نيته بتلك الزيارة (تذكرة بالآخرة) أى ليتعظ بأهل القبور ويعتبر بمصارعهم إذ [illegible] مثله يؤملون الآمال ويخولون الأموال ، ويجولون فى الأقطار بالأيام والليالى ، ويطمعون فى البقاء ويستبعدون الارتحال ، فبينما هم كذلك إذ بصارخ الموت قد نادى ، فاستجابوا له على الرغم جماعات وفرادى ، وأبادهم ملوكاً ونواباً وقواداً وأجناداً ، وقدموا على ماقدموا غياً كان أو رشاداً ، وصار لهم التراب لحفاً ومهاداً ، بعد الغرف العالية التى كان عليها الحجاب أو صاداً ، تساوى فيها صغيرهم وكبيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وشريفهم وحقيرهم ، ومأمورهم وأميرهم . اتفق ظاهر حالهم واتحد ، ولا فرق للناظر إليهم يميز به أحداً من أحد . وأما باطناً فالله أكبر لو كشف للناظر بن الحجاب ، لرأوا من الفروق العجب العجاب ، فهؤلاء لهم طوبى وحسن مآب ، وأولئك فى أسوأ حالة وأشد عذاب . فليعلم الواقف عليهم الناظر إليهم ، أنه به ملتحق ، ولإحدى الحالتين مستحق ، فليتأهب لذلك ، وليتب إلى العزيز المالك ، وليلتجىء إليه من شر كل ماهناك . (ثم) قصد أيضاً (الدعاء) أى دعاء الله عز وجل (له) أى لنفسه (وللأموات) من المسلمين (بالعفو) من الله عز وجل (والصفح عن الزلات) وكذا يدعو لسائر المسلمين بذلك (و) مع ذلك (لم يكن شد الرحال نحوها) الضمير للقبور لما فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . (ولم يقل هجراً) أى محظوراً شرعاً (كقول) بعض (السفهاء) لما فى السنن من حديث بريدة قال فيه النبى ﷺ « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجراً » (فتلك) الإشارة إلى النوع المذكور من الزيارة (سنة) طريقة نبوية (أتت صريحة) أى واضحة ظاهرة (فى السنن) أى الأحاديث (المثبتة) فى دواوين الإسلام (الصحيحة) سنداً ومتناً ، منها حديث بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فقد أذن لمحمد ﷺ فى زيارة قبر أمه فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة » رواه الترمذى وصححه ، وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « زار النبى ﷺ قبر أمه

فبكى وأبكى من حوله فقال « استأذنت ربى أن استغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزورها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » رواه الجماعة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » رواه أحمد ومسلم والنسائى . ولأحمد من حديث عائشة رضى الله عنها مثله وزاد « اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » . وعن بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . نسأل الله لنا ولكم العافية » رواه أحمد ومسلم وابن ماجه ، زاد مسلم فى رواية « يرحم الله المتقدمين منا ومنكم والمتأخرين » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال « السلام عليكم يأهل القبور ، يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر » رواه الترمذى وقال : حسن . وكذلك الأحاديث فى خروجه ﷺ إلى بقيع الغرقد كثيراً يدعو لهم ويترحم عليهم . وكان الصحابة إذا أتوا قبره ﷺ صلوا وسلموا عليه فحسب ، كما كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك ياأبا بكر ، السلام عليك ياأبتاه ، وكذا التابعون ومن بعدهم من أعلام الهدى ومصابيح الدجى لم يذكر عنهم فى زيارة القبور غير العمل بهذه الأحاديث النبوية وأفعال الصحابة لم يعدلوا عنها ولم يستبدلوا بها غيرها بل وقفوا عندها ، فهذه الزيارة الشرعية المستفادة من الأحاديث النبوية ، وماعليها درج الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان ، إنما فيها التذكر بالقبور والاعتبار بأهلها والدعاء لهم والترحم عليهم وسؤال الله العفو عنهم ، فمن ادعى فيها غير هذا طولب ماليس له به علم . بل إن العلوم الشرعية دالة على ضلاله وجهله (أو قصد الدعاء) من الصلاة وغيرها أو الاعتكاف عند قبورهم أو نحو ذلك (والتوسلا) بألف الإطلاق (بهم) أى بأهل القبور (إلى الرحمن جل وعلا) عما ائتفكه أهل الزيغ والضلال (فبدعة محدثة) لم يأذن الله تعالى بها (ضلالة) كما قال ﷺ « كل بدعة ضلالة » وقال ﷺ « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد » وقال ﷺ فى رواية « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقال ﷺ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » وغير ذلك . فإن من قال : اللهم إنى أسألك بجاه فلان ، وهو ميت أو غائب ، وإن كان يرى

أنه لم يدع إلا الله ولم يعبد سواه فهو قد عبد الله بغير ماشرع وابتدع فى الدين ماليس منه واعتدى فى دعائه ودعا الله بغير مأأمره أن يدعوه به ، فإن الله تعالى إنما أمرنا أن ندعوه بأسمائه الحسنى كما قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوا بها) ولم يشرع لنا أن ندعوه بشيء من خلقه البته ، بل قد نهانا رسول الله ﷺ عن أن نقسم بشيء من المخلوقات مطلقاً فيكف بالأقسام بها على الله عز وجل . وأما حديث الأعمى الذى به يحتج المجوزون للتوسل بالمقبور فلا حجة لهم فيه بحمد الله لو فهموا معناه ووضعوه موضعه ، ولكنهم أخطأوا فى تأويله ، ولم يوفقوا لفهم مدلوله ، فإن هذا الحديث بجميع ألفاظه هو بمعزل عن مدعاهم ، وهذه ألفاظه من الكتب التى خرج فيها : قال الترمذى رحمه الله تعالى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : أدع الله أن يعافينى . قال « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » . قال : فادعه . قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبى الرحمة ، إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى ، اللهم فشفعه فى » هذا حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى جعفر وهو غير الخطمى أ هـ قلت الظاهر بالاستقراء أن أبا جعفر هذا هو الرازى التيمى مولاهم مشهور بكنيته وهو من رجال الأربعة واسمه عيسى بن أبى عيسى عبد الله بن ماهان ، وأصله من مرو كان يتجر إلى الرى ، روى عن عطاء وعمرو بن دينار وقتادة ، وعنه أبو عوانة وشعبة كما فى هذا الحديث قال بن معين ثقة ، وقال ابن الخطمى ثقة يخلط عن المغيرة ، وقال الفلاس سيىء الحفظ ، وقال أبو حاتم : ثقة صدوق صالح الحديث ، وقال فى التقريب : صدوق سيىء الحفظ خصوصا عن المغيرة ، من كبار السابعة مات فى حدود الستين ومائة . والظاهر من عباراتهم أن تخليطه عن المغيرة خاصة وهو ثبت فيمن سواه . وبهذا يجمع بين قول من يضعفه وقول من يوثقه ، كيف ومن الموثقين له شيخا البارى يحيى بن معين وعلى بن المدينى وهما هما . والله أعلم . ورواه النسائى عن عثمان بن حنيف ولفظه أن رجلا أعمى قال : يارسول الله أدع الله أن يكشف لى عن بصرى . قال فانطلق فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيى محمد ﷺ نبى الرحمة ، يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى أن يكشف عن بصرى . اللهم فشفعه فى » قال فرجع وقد كشف الله بصره ، وقال أحمد

رحمه الله تعالى فى مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمى المدينى قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله أدع الله أن يعافينى . فقال « إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » . قال : بل ادع الله لى . فأمره أن يتوضأ وأن يدعو بهذا الدعاء » « اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى ، اللهم فشفعنى فيه وشفعه فى » . قلت : عمير بن يزيد الخطمى هذا هو أبو جعفر الذى فرق الترمذى بينه وبين أبى جعفر المذكور فى روايته . وقد قلنا الظاهر أنه هو الرازى التيمى وكلاهما شيخ لشعبة وكلاهما صدوق فيحتمل أن كلا منهما سمعه من عمارة . وسمعه شعبة من كليهما وحدث به مرة عن هذا ومرة عن هذا ، فرواه عثمان بن عمر عن شعبة عن أبى جعفر الرازى النتيمى ، وسمعه روح منه عن الخطمى فحدث به كذلك والله عز وجل أعلم .
والمقصود أن هذا الحديث إن جز منا بصحته فليس فيه لهم حجة ولا دليل على ماانتحلوه بأفكارهم الخاطئة فإن هذا الأعمى إنما سأل من النبى ﷺ الدعاء له بكشف بصره ، وهو حى حاضر قادر على ما سأله منه وهو الدعاء ، وهو يؤمن على ذلك ويقول : اللهم شفعه . فسأل من النبى ﷺ الدعاء ، وسأل قبول دعائه من الله عز وجل لعلمهم التام بالإيمان بالله عز وجل وأنه لايشفع أحد عنده إلا بإذنه ، وبهذا أمره النبى ﷺ أن يدعو الله تعالى ، فاجتمع الدعاء من الجهتين ، وهكذا كان الصحابة رضى الله عنهم كثيراً ماكانوا يسألونه من النبى ﷺ أن يدعو لهم بالنصر وأن يستسقى لهم إذا أجدبوا وبتكثير الطعام كما سأله منه عمر رضى الله عنه فى غزوة تبوك وقالت له أم أنس خويدمك أنس ادع الله تعالى له ، وأمثال ذلك فى حياته الدنيا مالا يحصى ، وكذلك فى موقف القيامة يسأل الخلائق من أولى العزم أن يشفعوا لهم إلى ربهم فى فصل القضاء واحد بعد واحد ، حتى تنتهى إليه ﷺ فيذهب ويسجد تحت العرش ويحمد الله تعالى ويثنى عليه إلى أن يقول له « أرفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع » وذلك إذا أذن الله عز وجل له فى الشفاعة التى وعده إياها كما سيأتى تقريره . وقد قال ﷺ لعمر وهو ذاهب للعمرة « لا تنسنا من دعائك » وكذلك استسقى عمر رضى الله عنه بالعباس والصحابة متوافرون كما فى صحيح البخارى « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » ، وكان من دعاء العباس يومئذ « اللهم إنه لا ينزل

بلاء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بى القوم إليك لمكانى من نبيك . وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث » ذكره الزبير بن بكرا .
وكان ذلك الجدب عام الرمادة . وكذلك قال معاوية لما استسقى بيزيد بن الأسود الجرشى . فقال « اللهم إنا نستشفع — أو نتوسل — إليك بخيارنا ، يايزيد أرفع يديك ، فرفع يديه ودعا الناس حتى سقوا ، فكان أفضل القرون يسألون الله عز وجل ، ويلتمس الصالحون منهم الحاضرين عندهم أن يسألوا الله عز وجل لهم ولهم ، وتوسلهم إنما كان بدعائهم لا بذواتهم ، وهذا جائز فى كل زمكان ومكان أن تسأل من عبد صالح حاضر عندك أن يدعو لك وتؤمن أنت على دعائه . أو تسأل من مسافر الدعاء يظهر الغيب ونحو ذلك كما ثبت عن النبى ﷺ ودرج عليه السلف الصالح رحمهم الله تعالى . ولو كان ذلك عندهم جائزاً أعنى التوسل بالذوات لم يحتج الأعمى أن يأتى إلى النبى ﷺ ويطلب منه الدعاء ، بل كان يتوسل به فى محله أينما كان إذ لافائدة زائدة فى مجيئه إليه على هذا المعنى ، وكذلك عمر والصحابة معه لم يكونوا ليعدلوا عن ذاته ﷺ إلى ذات العباس لو كان التوسل بالذوات لا بالدعاء ، وكذا معاوية وأصحابه لم يكونوا ليعدلوا عن ذاته ﷺ إلى يزيد ابن الأسود ولم يطلبوا منه الدعاء . ولما أمر النبى ﷺ عمر إذا وجد أويساً أن يطلب منه الاستغفار . بل كان يكفيه أن يقول : اللهم بحق أويس القرنى ، ولم يعرف هذا عن أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان أنه فعل ذلك التوسل بالنبى ﷺ ولا بغيره من الأنبياء ولا بأحد من أفاضلهم الأولياء بعد موته ، ولو كانوا بالذوات يتوسلون فى حال حياتهم لم يكن فرق بين ذلك وبين مماتهم ، وهذا فى التوسل بأهل القبور عام عند القبر وغيره وأما عبادة الله عند القبور كالصلاة عندها والعكوف عليها فهو أشد وأغلظ ، لأنه ذريعة مفضية إلى عبادة المقبور نفسه ، كما قدمنا عن قوم نوح من استدراج الشيطان لهم . وكذلك فعل بغالب هذه الأمة والعياذ بالله ، ولذلك نهى النبى ﷺ أن يصلى على القبور أو إليها وغلظ فى ذلك ودعا على فاعله باللعنة وشدة الغضب كما سيأتى فى الفصل الآتى قريباً إن شاء الله تعالى .

وإن دعا المقبور نفسه فقد	أشرك بالله العظيم وجحد
لن يقبل الله تعالى منه	صرفاً ولا عدلا فيعفو عنه
إذ كل ذنب موشك الغفران	إلا اتخاذ الند للرحمن

(وإن دعا) الزائر (المقبور نفسه) من دون الله عز وجل وسأل منه مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل من جلب خير أو دفع ضر أو شفاء مريض أو رد غائب أو نحو ذلك من قضاء الحوائج (فقد أشرك) فى فعله ذلك (بالله العظيم) المتعالى عن الأضداد والأنداد والكفؤ والولى والشفيع بدون إذنه (وجحد) حق الله عز وجل على عباده وهو إفراده بالتوحيد وعبادته وحده لا شريك له ونفى ضد ذلك عنه ، قال الله تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) وقال تعالى (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) وقال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) الآيات . وقال تعالى (يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره) الآيات وقال تعالى (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبؤك مثل خبير) وقال تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمتك ويخافون عذابه) الآيات وغيرها مالايحصى يخبر الله تعالى أن من دعا مع الله إلهاً آخر ولو لحظة فقد كفر وإن مات على ذلك فلا فلاح له أبدا ، ولو فعل ذلك نبيه لكان من الظالمين ، وأنه لا كاشف للضر غيره ولا جالب للخير سواه ، وأنه لا أضل ممن يدعو من دونه سواه ، وأن من عبد من دون الله يكون عدواً لعابده يوم القيامة وكافراً بعبادته إياه من دون الله تعالى . وأنهم كلهم عباد مثل عابديهم مخلوقون مربوبون مملوكون تحت تصرف الله وقهره لا يستجيبون لمن دعاهم ولا يقدرون على خلق ذباب فما فوقه ولو اجتمعوا بأسرهم على ذلك ولايقدرون على استنقاذ مااستلبه الذباب فكيف يقدرون على قضاء شيء من حوائج عابديهم ؟ بل قد أخبرنا عز وجل أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ، ولو سمعوا دعاءه مااستجابوا له ، وأخبرنا أن من عبدوهم من الصالحين كالملائكة وعيسى وعزير وغيرهم أنهم لا يملكون كشف ضر من دعاهم ولا تحويله من حال إلى حال ، بل

هم يبتغون الوسيلة إلى ربهم والقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، فينبغى للعباد الاقتداء بهم فى ذلك الابتغاء والرجاء والخوف من الله عز وجل ، لا دعاؤهم دونه ، تعالى الله عما يشركون .

(لا يقبل الله تعالى منه) أى من ذلك الداعى مع الله غيره المتخذ من دونه أولياء (صرفا) أى نافلة (ولا عدلا) أى ولا فريضة (فيعفو عنه) فى ذلك لأن الكافر عمله كلا شىء ، قال الله تعالى (ولانقيم لهم يوم القيامة وزناً) وقال تعالى (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (ومثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء) ، وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) الآيات ، وقال تعالى لصفوة خلقه وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) وقال لسيدهم وخاتمهم وأكرمهم على ربه تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

(إذ) حرف تعليل (كل ذنب) لقى العبد ربه به (موشك الغفران) أى يرجى ويؤمل أن يغفر ويعفى عنه (إلا اتخاذ الند للرحمن) فإن ذلك لا يغفر ولا يخرج صاحبه من النار ولا يجد ريح الجنة ، قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) وقال تعالى (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) وقال تعالى (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من أنصار) وقال تعالى (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) ، وقد قدمنا فى ذلك من الآيات والأحاديث مافيه كفاية فى الدلالة على ماوراءه ولله الحمد والمنة .

فصل

فى بيان ماوقع فيه العامة اليوم مما يفعلونه عند القبور وما يرتكبونه من الشرك الصريح والغلو المفرط فى الأموات

هذا الفصل هو المقصود بالذات من ذكر ماقبله من تقسيم الزيارة إلى ثلاثة أقسام، وهى تمهيدا له، فإنما المقصود من ذكر ضلال الأمم الأولى هو تحذير الأحياء الموجودين لئلا يقعوا فيما وقعوا فيه، وزجر من وقع منهم عما وقع فيه لئلا يحل بهم ماحل بهم من النكال، كما أن الله سبحانه وتعالى ماقص علينا من أخبار الأمم إلا لنتعظ بهم ونعتبر بمصارعهم ولنعلم أسباب هلاكهم فنتقيه ونعلم سبل النجاة التى سلكها رسل الله وأولياؤه ففازوا بخيرى الدنيا والآخرة فنسلكها ونقفو أثرهم. ولهذا قال تعالى (أفلم يهد الذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم) الآية، وقال تعالى (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم). وقال تعالى (أو لم يهدهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون)، وقال تعالى بعد أن قص علينا ماقص فى سورة هود (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد، وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء، لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب. وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) الآيات، وقد قال رسول الله ﷺ « لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ماأصابهم » وهو فى الصحيح، فإذا كان هذا الخطر على من دخل ديارهم فما ظنك ممن عمل مثل عملهم وزيادة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن على القبر سراجاً أوقدا أو ابتنى على الضريح مسجدا
فإنه مجدد جهارا لسنن اليهود والنصارى

(ومن على القبر) متعلق بأوقد (سراجاً) مفعول (أو قدا) بألف الإطلاق والمعنى ومن أوقد سراجاً على القبر (أو ابتنى) بمعنى بنا وزيدت التاء فيه لمعنى الاتخاذ (على الضريح) أى على القبر [illegible] اقه من الضرح الذى هو الشق (مسجدا) أو اتخذ القبر

نفسه مسجداً ولو لم يبن عليه (فإنه) أى فاعل ذلك (مجدد) بفعله ذلك (جهارا) أى تجديداً واضحاً مجاهراً به الله ورسوله وأولياءه (لسنن) أى لطرائق (اليهود والنصارى) فى اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد ويعكفون عليها ، وأعياد لهم يتنابونها ، ويترددون إليها ، كيف وقد قال الرسول ﷺ للذين طلبوا منه ذات أنواط « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون) لتتبعن سنن من كان قبلكم » وقال ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قلنا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ » أخرجاه من حديث أبى سعيد رضى الله عنه ، وقد وقع الأمر والله كما أخبر ﷺ به ، فالله المستعان .

كم حذر المختار عن ذا ولعن ... فاعله كما روى أهل السنن
بل قد نهى عن ارتفاع القبر ... وأم يزاد فيه فوق الشبر
وكل قبر مشرف فقد أمر ... بأن يسوى هكذا صح الخبر

(كم) خبريه للتكثير (حذر المختار) نبينا محمد ﷺ (عن ذا) الفعل من اتخاذ القبور مساجد وأعياداً والبناء عليها وإيقاد السروج عليها ، كما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها ماريه فذكرت له مارأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ــ أو الرجل الصالح ــ بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وفيه عنها هى وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصضة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ماصنعوا . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وعن أبى مرثد الغنوى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها » رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » رواه الجماعة إلا بن ماجه . وعن جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم

وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، إنى أنهاكم عن ذلك » رواه مسلم .
وعن جابر رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه ، رواه أحمد ومسلم والثلاثة وصححه الترمذى ولفظه : نهى أن تجصص القبور ، وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ ، وفى لفظ النسائى : نهى أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص أو يكتب عليه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، رواه أهل السنن .
وللترمذى وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور . ولابن ماجه مثله من حديث حسان رضى الله عنه ، ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات . وعن على بن الحسين رضى الله عنهما أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة عند قبر النبى ﷺ فيدخل فيدعو فيها ، فقال ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبى عن جدى عن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » رواه فى المختارة ، وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبر سهيل بن أبى صالح قال : رآنى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه عند القبر فنادانى وهو فى بيت فاطمة رضى الله عنها يتعشى فقال : هلم إلى العشاء ، فقلت لا أريده ، فقال : مالى رأيتك عند القبر ؟ فقلت سلمت على النبى ﷺ ، فقال : إذا دخلت المسجد فسلم . ثم قال : إن رسول الله ﷺ قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم . لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ماأنتم ومن بالأندلس إلا سواه . وروى مالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ قال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وفى الباب أحاديث غير ماذكرنا .

(وقد نهى) النبى ﷺ (عن ارتفاع القبر) بالبناء أو نحوه ، كما تقدم من النهى عن تجصيصها والبناء عليها ، وكما سيأتى من الأمر بتسويتها (وأن يزاد فيه فوق شبر) كما فى

السنن عن جابر رضى الله عنه قال : نهى النبى ﷺ أن يبنى على القبر أو يزاد عليه أو يجصص .

(وكل قبر مشرف) يعنى مرتفع (فقد أمر) النبى ﷺ (بأن يسوىٰ) بالأرض أو بما عداه من القبور التى لم تجاوز الشرع فى ارتفاعها ، (هكذا صح الخبر) ، وهو مارواه مسلم عن ثمامة بن شفى قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفى صاحب لنا . فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها . وله عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب : ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ « ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » .

وحـــذر الأمـــة عن إطرائـــه   فغرهم إبلـــيس باستجرائـــه

فخالفـوه جهـــرة وارتكبـــوا   ماقـد نهى عنــه ولم يجتنبـــوا

(وحذر) النبى ﷺ (الأمة عن إطرائه) أى الغلو فيه ، كما فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إياكم والغلو فى الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين » . وعن أنس رضى الله عنه أن ناساً قالوا : يارسول الله ياخيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا ، فقال « ياأيها الناس قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ماأحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل » رواه النسائى بسند جيد . وعن عبد الله بن الشخير قال : انطلقت فى وفد بنى عامر إلى النبى ﷺ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال « السيد الله تعالى » قلنا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا ، فقال « قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجيرنكم الشيطان » . وهذا كله من حماية النبى ﷺ جناب التوحيد . وكما قال لمن قال : تعالوا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . قال « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » والله سبحانه وتعالى قد بين مايجب اعتقاده فى حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنه هو تصديق خبرهم وامتثال أمرهم واجتناب نهيهم واتباعهم على شريعتهم ومحبتهم هم وأتباعهم وتوابع ذلك . وهذا هو الذى دعوا إليه لم يدع أحد منهم الربوبية ولا دعوا إلى عبادة أنفسهم ولا ينبغى لهم ذلك كما قال تعالى (ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس

كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وقال تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) الآيات ، وقال (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسول وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) الآية ، وقال تعالى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء وهو على كل شيء قدير) ، وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون إلا لمن أرتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دون فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين) وقال تعالى عن نوح عليه السلام (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك) وقال لصفوة خلقه وخاتم رسله وسيد ولد آدم أجمعين محمد ﷺ (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير) وقال تعالى له (ليس لك من الأمر شيء) وقال تعالى (قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا ، قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا ، قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته) الآيات ، وقال تعالى (قل ماكنت بدعاً من الرسل وماأدرى مايفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا مايوحى إلى ، وماأنا إلا نذير مبين) وقال تعالى (ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) الآيات ، وقد تلاها أبو بكر رضى الله عنه يوم مات النبى ﷺ وقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ﷺ ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، إلى آخر خطبته رضى الله عنه . وهذا باب واسع كثيرة النصوص فيه ، بل ليست النصوص إلا فيه وفى متعلقاته ومكملاته .

(فغراهم) أى أكثر الأمة بعدما سمعوا الزواجر والنواهى (إبليس) لعنه الله وأعاذنا منه (باستجرائه) أى باستهوائه واستدراجه لهم وإدخالهم فى الهلكات شيئاً فشيئاً كما فعل

بالأمم السالفة قوم نوح فمن بعدهم ، وأتاهم على مايهوون إما بغلو وإما جفاء لا يبالى مأأهلك العبد به سواء قصره على الصراط المستقيم وهون عليه أمره حتى لا يدخله ولا يسلكه أو جاوزه به حتى يتبع سبيل الضلال فتفرق به عن سبيله ، فالذين أبغضوا الرسل من الكفار وعادوهم ونابذوهم بالمحاربة من أول مرة زين لهم ذلك وضرب لهم الأمثلة والمقاييس وأنهم مثلهم بشر يأكلون ويشربون ، وأنهم يريدون أن يصدوهم عما كان يعبد آباؤهم وينتقصوا شيوخهم بذلك وتكون لهم الكبرياء فى الأرض وغير ذلك . والذين صدقوا الرسل واتبعوهم أتى الكثير من خلوفهم ورين لهم الغلو فيهم بالكذب والقول عليهم بالبهتان ورفعهم فوق منزلتهم التى أنزلهم الله عز وجل ، وأتاهم بذلك فى صورة محبتهم وموالاتهم حتى جعلوا مثله فى البعد عن الله ورسله لم يسلم من ذلك إلا عباد الله المخلصون الذين هداهم الله صراطه المستقيم ، فلم يقصروا عنه ولم يستبدلوا به غيره ، بل استمسكوا به وأعتصموا (ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) . (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعمت الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

(فخالفوه) أى الذين استهواهم الشيطان خالفوا النص من الكتاب والسنة (جهرة وارتكبوا ، ماقد نهى عنه) من الغلو والاطراء ومالم يأذن به الله (ولم يجتنبوا) دللك ولا شيئاً : فنهى عن الحلف بغير الله عز وجل وهؤلاء لا يحلفون إلا بغيره ، وقد يحلفون بالله على الكذب ولا يحلفون بالند فيكذبون ، ونهى أن تقرن مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى ، وهؤلاء يثبتون له ذلك على سبيل الاستقلال ويهتفون باسمه فى الغدوّ والآصال ، ويسألون منهم قضاء الحوائج دون ذى الجلال ، بل يعتقد فيهم الغلاة منهم أن بعض الأولياء هو المتصرف فى الكون والمدبر له فى كل حال . ودعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده ودعائه وحده لا شريك له ، فدعوا مع الله غيره ، حتى دعوا الرسول الآتى بذلك نفسه مع الله عز وجل ، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد وهؤلاء يعكفون عليها ، ويصلون عليها وإليها بل ولها من دون الله عز وجل ، وكثير منهم يفضلون الصلاة فيها على مساجد الله عز وجل التى بنيت لذلك . ونهى أن تجصص القبور أو يبنى عليها ، وهؤلاء قد ضربوا عليها القباب وزخرفها ، وحبسوا عليها العقارات وغيرها وأوقفوها ، وجعلوا لها النذور والقربات ، وكم عبادة إليها دون الله صرفوها . ونهى عن بناء المساجد عليها ولعن من فعل ذلك ودعا عليه بالغضب وهؤلاء قد بنوا عليها ورأوها من أكبر

حسناتهم ، ومابينهم وبين بنائهم عليها إلا موت أهلها أو حلم يتمثل لهم الشيطان فيه أو خيال أو سماع صوت فيسارعون إلى ذلك أسرع من مسارعة أهل الدين إلى الكتاب والسنة ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على تسريجها ، ويجعلون عليها من الشموع والقناديل مالم يجعلوه فى مساجد الله ، وكأنما ندبهم الرسول ﷺ إلى ذلك بتلك اللعنة التى عنى بها من فعل ذلك . وقال ﷺ « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث وهؤلاء يضربون أكباد الابل إلى قبور الصالحين أو من يظنونهم صالحين مسافة الأيام والأسابيع والشهور ويرون ارتكاب ذلك المنهى من أعظم القربات ، ونهى ﷺ عن اتخاذها أعياداً ، وهؤلاء قد أتخذوها أعياداً ومعابد لا بل معبودات من دون الله عز وجل ، ووقتوا لها المواقيت زماناً ومكاناً ، وصنفوا فيها مناسك حج المشاهد وحجوا إليها أكثر مما يحج إلى بيت الله الحرام ، بل رأواها أولى بالحج منه ورأوا من أخل بشيء من مناسكها أعظم جرماً ممن أخل بشيء من مناسك الحج ، حتى أن من كان منهم قد حج عشرات مرات أو أكثر يبايع من شهد أحد المشاهد أن يعاوضه بجميع حججه بتلك الزيارة فيمتنع أشد الامتناع ، ويخشعون عندها أكثر مما يخشع عند شعائر الله ، وقال ﷺ « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم » وهؤلاء قد أطروا من هو دونه من أمته بكثير بل قد أطروا من لم يؤمن به ﷺ ساعة من الدهر أعظم من إطراء النصارى ابن مريم ، بل جعلوه هو الرب على سبيل الاستقلال ، وقال ﷺ « إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله » ، وهؤلاء قد استغاثوا بغير الله سراً وجهراً وهتفوا باسم غير الله فى السر والضراء والشدة والرخاء وأخلصوا لهم الدعاء من دون الله عز وجل وصرفوا إليهم جل العبادات من الصلاة والنذر والنسك والطواف وغير ذلك . وقد أنكر ﷺ على من قال لو لا الله وفلان فكيف بمن يقول يافلان مالى سواك ، ويقول قد استغثت الله فلم يغثنى حتى استغثت فلاناً فأغاثنى ، وإنه ليعصى الله فى المسجد الحرام ، ولا يقدر على مخالفة شيء مما ينسبونه إلى وليه من الأكاذيب المختلفة والحكايات الملفقه ، وترى أكثر مساجد الله المبنية للصلوات معطلة حسا ومعنى ، وفيها من الأزبال والكناسات والأوساخ مالا يعد ولا يحصى ، فاذا أتيت قباب المقابر والمساجد المبنية عليها رأيت بها من الزينة والزخارف والأعطار والزبرقة والستور المنقشة المعلمة المرصعة والأبواب المفصصة المحكمة ، ولها من السدنة والخدام مالم تجدوه فى بيت الله الحرام ، والداخل إليها والخارج منها من الزوار مالا تحصيهم الأقلام ، وعليها

من الأكسية والرايات والأعلام مالو قسم لاستغنى به كثير من الفقراء والأرامل والأيتام ، فما ظنك بالوقوف المحبسة عليها . والأموال المجبية إليها من الثمار والنقود والأنعام ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فأى فاقره على الدين أصعب من هذه الأفعال ، وهل جنى الأخابث على الدين أعظم من هذا الضلال ، وهل استطاع الأعداء من هدم قواعد الدين ماهدمه هؤلاء الضلال ، وهل تلاعب الشيطان بأحد ماتلاعب بهؤلاء الجهال . فأى مناف للتوحيد وأى مناقش له أقبح من هذا الشرك والتنديد . تالله ماقوم نوح ولا عاد ولا ثمود ولا أصحاب الأيكة بأعظم شركا ولا أشد كفراً من هؤلاء الملاحيد وليس أولئك بأحق منهم بالعذاب الشديد ، وليس هؤلاء المشركون خيراً من أولئك ولا براءة لهم من ذلك الوعيد ، ولكن الله يمهل ولا يهمل ومابطشه من الظالمين ببعيد . (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

فانظر إليهم قد غلوا وزادوا ورفعوا بناءها وشادوا
بالشيد والآجر والأحجار لا سيما فى هذه الأعصار

(فانظر) أيها المؤمن (إليهم) وإلى أعمالهم (قد غلوا) فى أهل القبور الغلو المفرط الذى نهاهم الله تعالى ورسوله ﷺ عنه (وزادوا) عما حذرهم عنه الرسل (ورفعوا بناءها) أى بناء القبور المنهى عن مجرده قليله وكثيره (وشادوا) أى ضربوه (بالشيد) وهو الجص (والآجر) اللبن المحرق (والأحجار) المنقشة المزخرفة (لاسيما) بزيادة (فى هذه الأعصار) القريبة بعد ظهور دولة العبيدين الذين قال فيهم أهل العلم : ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض . فاعتنوا ببناء القباب على القبور وزخرفتها وتشييدها وجعلها مشاهد ، وندبوا الناس إلى زيارتها وأتوا بذلك باسم محبة أهل البيت وكل من جاء بعدهم من الدول المبتدعة زاد فيها وأحدث أكثر مما أحدث من قبله حتى اتخذوها مساجد ومعابد ، إلى أن عبدت من دون الله . وسألوا منها مالا يقدر عليه إلا الله وفعلوا بها مايفعل أهل الأوثان بأوثانهم وزادوا كثيراً فضلوا عن سوء السبيل . وأضلوا من قدروا على اضلاله جيلا بعد جيل ، ولم يبق من الدين عندهم إلا اسمه ، ولا من الكتاب والسنة لديهم إلا لفظه ورسمه ، ولكن الأرض لا تخلو من مجدد لمعالم الشريعة الحنيفية . ومنبه على مايخل بها أو يناقضها من البدع الشيطانية ، ولا تزال طائفة من هذه الأمة أمة محمد ﷺ على الحق ظاهرة لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى والله سبحانه يقول (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وللقناديل عليها أوقدوا ... وكم لواء فوقها قد عقدوا
ونصبوا الأعلام والرايات ... وافتتنوا بالأعظم الرفات
بل نحروا فى سوحها النحائر ... فعل أولى التسييب والبحائر
والتمسوا الحاجات من موتاهم ... واتخذوا إلههم هواهم

(وللقناديل) من الشموع وغيرها (عليها) أى على القبور وفى قبابها (أوقدوا) تعرضاً للعنة من رسول الله ﷺ لمن فعل ذلك إذ يقول « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » فأوقفوا لتسريجها الوقوف الكثيرة وجعلوا عليها سدنة وخداماً معدين لا يقادها ، وويل للسادون إن طفىء مصباح قبر الشيخ (وكم لواء فوقها قد عقدوا) تعظيماً لها وتألها ورغبة ورهبة . (ونصبوا) عليها (الأعلام والرايات) لاسيما يوم عيدها لأنهم قد اتخذوا لكل قبر عيداً أى يوماً معتاداً يجتمعون فيه من أقاصى البلاد وأدناها كما أن الحج يوم عرفة ، مخالفة منهم ومشاقة لله ورسوله إذ يقول ﷺ « ولاتتخذوا قبرى عيداً » فقد اتخذوا قبور من هو دونه أعياداً ، ومن فاته يوم ذلك العيد المعتاد فقد فاته المشهد وفاته خير كثير ، وفى ذلك العيد تنصب الزينة الباهرة وتدق الطبول والأعواد ، ويجتمع الرجال والنساء فى ميدان واحد لابسين زينتهم قد تعطر كل من الجنسين بأطيب مايجد ولبس أطيب مايجد ، وتجبى الأموال من الأوقاف والنذور وغيرها على اختلاف أجناسها من نقود وثمار وأنعام وخراجات وغيرها مما علم الله تعالى بها أنها لا يبتغى بها وجه ولم تتفق فى مرضاته بل فى مساخطه (وافتتنوا) فى دينهم (بالأعظم الرفات) النخرة فعبدوها من دون الله عز وجل دعاء وتوكلا وخوفاً ورجاء ونذراً ونسكا وغير ذلك ، (بل نحروا فى سوحها) أى فى أفنية القبور (النحائر) من الإبل والبقر والغنم إذا نابهم أمر أو طلبوا حاجة من شفاء مريض أو رد غائب أو نحو ذلك ، وأكثرهم يسمها للقبر من حين تولد ويربيها له إلى أن تصلح للقرية فى عرفهم ولا يجوز عندهم تغييرها ولا تبديلها ولا خصيها ولا وجاؤها لايذهب شىء من دمها إذ ذلك عندهم نقص فيها وبخس (فعل أولى التسييب والبحائر) أى كفعل مشركى الجاهلية من العرب وغيرهم فى تسييبهم السوائب وتبحير البحائر وجعل الحام كما قدمنا عنهم ذلك مبسوطاً فى موضعه ، غير أن أولئك سموهم آلهة وشفعاء وسموا مثل هذا الفعل بهم عبادة ، وهؤلاء سموهم سادة وأولياء وسموا دعاءهم إياهم تبركا وتوسلا وكلاهما مشرك فى فعله بالله عز وجل ، وهؤلاء أعظم شركا وأشد لأنهم يشركون فى

الرخاء وفى الشدة بل هم فى الشدة أكثر شركاً وأشد تعلقاً بهم من حالة الرخاء ، وأما مشركو الجاهلية الأولى فيشركون فى الرخاء ويخلصون لله فى الشدة كما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وغيرها من الآيات . (والتمسوا الحاجات) التى لا يقدر عليها إلا الله عز وجل (من موتاهم) من جلب الخير ودفع الشر (واتخذوا إلهم هواهم) وهذا هو السبب فى عبادة غير الله بل فى جميع معاصى الله ، وهو الذى كلما هوى أمراً أتاه ، ولم يأتهم الشيطان من غير باب الهوى ولم يصطد أحداً بغير شبكته ، لأن الهوى يعمى عن الحق . ويضل عن السبيل أتباعه ، وهو سبب الشقاوة كما أن التزام الشريعة باطناً وظاهراً سبب السعادة ، فهما ضدان لا يجتمعان ولا يكون الحكم إلا لواحد منهما ، لأن الشريعة تدل على مرضاة الله وتأمر بها ، وتحذر من مساخط الله وتنهى عنها ، والهوى بضد ذلك ، ولهذا قال ﷺ « حفت الجنة بالمكاره » يعنى لمخالفة أسبابها من الأعمال الصالحة للهوى ، « وحفت النار بالشهوات » لموافقة أسبابها من المعاصى للهوى . فطوبى لمن كان هواه تبعاً لما جاء به رسول الله محمد ﷺ ، وويل لمن قدم هواه على ذلك لقد هلك .

قد صادهــم أبليس فى فخاخــه	بل بعضهم قد صار من أفراخه
يدعـــو إلى عبـــادة الأوثـــان	بالمال والنـــفس وبالـــلسان

(قد صادهم) من الاصطياد بل من مطاوع اصطاد لأن التاء التى قلبت طاء هى لمعنى الطلب وأما حذفها فيدل على وصول الطلب إلى مطلوبه ، (إبليس فى فخاخه) التى نصبها لهم كما نصبها لمن قبلهم من تزيين المعاصى وتصويرها فى صورة الطاعات ، فأول مازين لقوم نوح العكوف على صور صالحيهم ليتذكروا عبادتهم الله تعالى فيقتفوا أثرهم فيها ، ولم يزل بهم حتى عبدوها كما قدمنا ، وكذلك فعل بسفهاء هذه الأمة أول ماأشار عليهم ببناء القباب على القبور باسم محبة الأولياء ثم بالعكوف عليها وعبادة الله عز وجل عندها تبركاً وتيمناً بتلك البقاع التى فضلت بهم إذ دفنوها فيها ثم بعبادتهم أنفسهم دون الله عز وجل ، ثم استرسلوا فى تلك العبادة شيئاً فشيئاً إلى أن أثبتوا للمخلوق صفات الربوبية من التصرف فيما لا يقدر عليه إلا عز وجل ، فصار الأمر كما ترى فى جميع الأقطار ، وفى كل القرى والأمصار ، وفى كل أثبتوا للمخلوق صفة الربوبية من التصرف فيما لا يقدر عليه إلا عز وجل فصار الأمر كما ترى فى جميع الأقطار ، وفى كل

القرى والأمصار ، وفى كل زمن تشيع وتزيد وفى كل عصر من الأعصار ، (بل بعضهم قد صار من أفراخه) المساعدين له الداعين إلى مادعا إليه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (يدعون إلى عبادة الأوثان) من القبور وغيرها (بالمال والنفس وباللسان) ، فمن دعايتهم إلى ذلك أنهم يجمعون أنواعاً من المطالب ويدخلونها القبر إلى القبة المبنية عليه فى سراديب معدة تحتها فإذا أتى إليهم الجاهل المفتون ووقف على الحاجب فان لم يكن له مطلوب معين قال له أدخل يدك فما خرج فيها فهو الباب الذى ترزق منه لا تعدوه إلى غيره ، فان خرج فى يده تراب فحارث ، وإن خرج قطن فحائك ، وإن خرج فحم أو نحوه فحداد أو صائغ ، وإن خرج آلة حجامة فحجام ، وإن خرج كذا فهو كذا . على قواعدهم يعرفونها ، ومخرقة لهم يألفونها ، وإن كان له مطلوب معين قال له ماتريد من الشيخ ؟ قال أريد كذا ، فان كان ذلك يوجد فيها أدخل القبر ، وإلا قال ارجع الآن وموعدك الوقت الفلانى فان الشيخ الآن مشغول أو نحو ذلك من الأعذار مع مافى قلبه من تعظيم للشيخ ، فلا يكرر الطلب أدباً معه ، فلا يأتى فى المرة الثانية إلا وقد استعد له بمطلوبه ، فإذا جاءه وأدخل يده خرج فيها ذلك المطلوب فحينئذ خرج ينادى : شيء لله ياشيخ فلان ، وكلما وجد أحداً أراه ذلك وقال : هذا من كرامات الشيخ فلان وعطاياه ، فيجمعون من أموال الناس بهذه الحيل والشعوذة مالا يحصى ، ولكنهم لم يحتالوا لأخذ أموال الناس فحسب ، بل احتالوا لسلب دينهم وأخرجوهم من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر ، وليس هذا خاصاً بقبور الصالحين الذين عرفوا فيالدنيا بالأمانة والديانة ، بل أى قبر تمثل فيه الشيطان أو حكيت له حكاية أو رؤيت له رؤيا صدقاً كانت أو كذباً فقد استحق عندهم أن يبنى عليه القباب ويعكف عنده وينذر لها ويذبح عليه ويستشفى به المرضى ويستنزل به الغيث ويستغاث به فى الشدائد ويسأل منه قضاء الحوائج ويخاف ويرجى ويتخذ ندا من دون الله عز وجل وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علواً كبيراً .

الله أكبر لو رأيت على القبــو	ر عكوفهـم صبحـاً وبـالامساء
والله أكبر لو ترى أعيادهــــم	جمع الرجـال معـا وجمع نساء
والله أكبر لو رأيت مساجـــدا	بنــيت على الموتى بأى بنـــاء
قد زخـرفت بحجـارة منقـوشة	بالشيد قد ضربت مع الاعـلاء
ورءوسهـا قد زيـــنت بأهلــة	من نأفس المنقـــوش دون مراء

قد أسرجت ولكم على تسريجها ... وقفوا الشمـوع لها بأى أداء
كم سادن قد وكلـوه بشأنها ... طيباً وتنظيفـاً وشأن ضيـاء
ويل له لو قد أخل ببعض ذا ... ماذا يقاسى من ضروب وبلاء
ولكم عليها رايـة قد نشرت ... ألوانها سلبت لقلب الـرائى
وكرائم الأنعام تنحز سوخها ... منـذورة يؤتى بها لوفـاء
لم يفردوا رب السماء بدعوة ... بل للقبـور تجاوبـوا بنـداء
يدعونهم فى كشف كل ملمة ... فى الجهر قد هتفوا وفى الاخفاء
ويعظمونهمو بكـل عبـادة ... ياصاح فى السراء والضراء
وتراه بالرحمن يحلف كاذبـاً ... وصفاتـه العليـا وبـالأسماء
لكنه لايستطيع الحلف بالمقبو ... ر ذا إن لم يكـن ببـراء
زادوا على شرك الذين إليهمو ... بعث الرسول بأصدق الأنباء
إذ يخلصون لدى الكروب وهـؤ ... لاء فشركهم فى شدة ورخاء
بل فى الشدائد شركهم أضعاف ... ماقد أشركوا فى حالة السراء
فتراه ينذر فى الرخاء ببدنـة ... وببدنـتين لدى اشتـداد بلاء
وجميـع مايأتيـه فى سرائـه ... فلـه به الأضعـاف فى الضراء
تالله ماظفر اللـعين بمثلهـا ... من بعض أهل الشرعة الغراء
حتى إذا ماهيـأوا لعدوهـم ... سبب الدخول وسلم الإغواء
طمع العدو بهم لنيـل مراده ... منهم فغر القـوم باستجـداء
لما أساءوا الظن بالوحيين لكـن ... أحسنوه بزخـرف الأعـداء
لم يهتدوا بالنـص قط بل اقتفـوا ... آراء من قد كان عنها نائى
نبذوا الكتاب فلم يقيموا نصه ... إذ كان ميلهمو إلى الأهـواء
وعبادة الأوثان قد صارت لهم ... دينا تعـالى الله عن شركائـه
وطرائق البدع المضلة صيروا ... سبلا مكان الملة السمحـاء
يارب ثبتنـا على ديـن الهدى ... وعلى سلوك طريقة البـيضاء
واردد بتوفيـق إليها من نأى ... ممن قد استهوى أولو الاغواء
ياربنا فاكشف غطاء قلوبنـا ... بالنور أخرجنا من الظلمات
وأسلك بنا نهج النجاة ونجنا ... من حيرة وضلالـة عميـاء

وأجعل كتابك ياكريم إمامنا	ورسولك المقدام للخنفاء
وانصر على الأعداء حزبك إنهم	خبطتهمو فتن من الأعداء
راموا بنا السوأى بسوء مكايد	فاقصمهمو يارب للاسواء
وأردد إلهى كيدهم فى بيدهم	وأبدهمو بيدا عن البيداء
أظهر على الأديان دينك جهرة	وشعاره فارفع بدون خفاء
وأجعل لوجهك خلصاً أعمالنا	بعبادة وولاية وبراء

فصل

أذكر فى بيان حقيقة السحر وحكم الساحر

أى ماعليه من العقوبة شرعاً ، وأن منه أى من السحر علم التنجيم وهو النظر فى النجوم الآتى بيانه ، وذكر عقوبة من صدق كاهناً بقلبه ، ويعنى عقوبته الوعيدية . والبحث فى هذا الفصل فى أمور : (الأول) هل السحر حقيقة وقوعه ووجوده أم لا ، (الثانى) أنواعه ، (الثالث) حكم متعلمه إن عمل به أو لم يعمل ، (الرابع) عقوبته شرعاً ووعيداً .

والسحر حق وله تأثير	لكن بما قدره القدير
أعنى بذا التقدير ماقد قدره	فى الكون لا فى الشرعة المطهره

هذا هو البحث الأول فى حقيقته وتأثيره . (والسحر حق) يعنى متحقق وقوعه ووجوده ، ولو لم موجوداً حقيقة لم ترد النواحى عنه فى الشرع والوعيد على فاعله والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه والاستعاذة منه أمراً وخبرا . وقد أخبر الله تعالى أنه كان موجوداً فى زمن فرعون وأنه أراد أن يعارض به معجزات نبى الله موسى عليه السلام فى العصا بعد أن رماه هو وقومه به بقولهم (إن هذا لساحر عليم إلى قوله — قال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) وقال تعالى عن السحرة (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوها واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال تعالى فيهم (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى . قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى . وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر من حيث أتى) يقال إنهم كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا

فأخذوا بأبصار الناس بسحرهم وألقوا تلك الحبال والعصى فرآها الناس حيات عظاماً ضخاماً وذلك قوله تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقوله : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) قال الله تعالى (فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق مافى يمينك) يعنى العصا (تلقف) تبتلع (ماصنعوا) أى السحرة أى مااختلفوا وائتفكوا من الزور والتخييل . ولهذا قال تعالى فى الآية (فإذا هى تلقف مايأفكون) وهون الله أمرهم على نبيه موسى عليه السلام بقوله سبحانه (إنما صنعوا كيد ساحر) مكروه وخداعه (ولا يفلح الساحر حيث أتى) ، (فوق الحق وبطل ماكانوا يعملون ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين) إلى آخر الآيات ، وقد أخبر الله تعالى عن قوم صالح وكانوا قبل إبراهيم عليه السلام أنهم قالوا لنبيهم عليه السلام (إنما أنت من المسحرين) وكذا قال قوم شعيب له عليه السلام (إنما أنت من المسحرين) وقالت قريش لنبينا محمد ﷺ كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم فى غير موضع بل ذكر الله عز وجل أن ذلك القول تداوله كل الكفار لرسلهم فقال تعالى (كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به) الآية ، وقال سبحانه فى ذم اليهود (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) والنفاثات هن السواحر يعقدن وينفثن . والمقصود أنه قد ثبت بهذه النصوص وغيرها مما سنذكر ومما لا نذكر أن السحر حقيقة وجوده .

(وله تأثير) فمنه مايمرض ومنه مايقتل ومنه مايأخذ بالعقول ومنه مايأخذ بالأبصار ومنه مايفرق بين المرء وزوجه ، (لكن) تأثيره ذلك إنما هو (بما قدره والقدير) سبحانه وتعالى ، أى بما قضاه وقدره وخلقه عندما يلقى الساحر ماألقى ، ولذا قلنا (أعنى التقدير) فى قوله بما قدره القدير (ماقد قدره فى الكون) وشاءه (لا) أنه أمر

به (فى الشرعة) التى أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه (المطهرة) ، من ذلك وغيره كما تقدم أن القضاء والأمر والحكم والارادة كل منها ينقسم على كونى وشرعى ، فالكونى يشمل مايرضاه الله ويحبه شرعاً ، ومالايرضاه فى الشرع ولايحبه ، والشرعى يختص بمرضاته سبحانه وتعالى ومحابه ، ولهذا قال تعالى فى الشرعى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال عز وجل (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) فأخبر تعالى أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر وأنه يرضى لهم الشكر ولا يرضى لهم الكفر ، مع كون كل من العسر واليسر والشكر والكفر واقع بقضاء الله وقدره وخلقه وتكوينه ومشيئته . قال الله تعالى (الله خلق كل شىء وهو على كل شىء وكيل) وقال تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر) والمقصود أن السحر ليس بمؤثر لذاته نفعاً ولا ضراً وإنما يؤثر بقضاء الله تعالى وقدره ، وخلقه وتكوينه ، لأنه تعالى خالق الخير والشر ، والسحر من الشر ، ولهذا قال تعالى (فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله) وهو القضاء الكونى القدرى ، فإن الله تعالى لم يأذن بذلك شرعاً ، وقد ثبت فى الصحيحين من طرق عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشىء ومافعله ، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندى دعا الله عز وجل ودعاه ثم قال « أشعرت ياعائشة ، إن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه » قلت : وماذاك يارسول الله ؟ قال « جاءنى رجلان فجلس أحداهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : ماوجع الرجل؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن العاص اليهودى من بنى زريق . قال : فبماذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر . قال : فأين ؟ قال : فى بئر ذى أروان . قال فذهب النبى ﷺ فى أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال « والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رءوس الشياطين » . قلت يارسول الله أفأخرجته ؟ قال « لا ، أما أنا فقد عافنى الله عز وجل وشفانى وخشيت ان اثور على الناس منه شراً » وأمر بها فدفنت . وفى رواية قال : ومن طبة ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من زريق حليف ليهود كان منافقاً . قال وفيم ؟ قال فى مشط ومشاقة . قال : وأين ؟ قال فى جف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذروان — وذكره — هذا لفظ البخارى المشاطة مايخرج من الشعر ، والمشط أسنان مايمشط به ، والمشاقة من مشاقة الكتان ، وجف طلعة غشاؤها وهو الوعاء الذى يكون فيه الطلع ،

تحت راعوفة هو حجر يترك فى البئر عند الحفر ثابت لا يستطاع قلعه يقوم عليه المستقى ، وقيل حجر على رأس البئر يستقى عليه المستقى ، وقيل حجر بارز من طيها يقف عليه المستقى والناظر فيها ، وقيل فى أسفل البئر يجلس عليه الذى ينظفها لايمكن قلعه لصلابته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الإمام النووى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم : قال المازرى رحمه الله تعالى : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ونفى حقيقته وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله تعالى فى كتابه وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر مافيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح باثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت ، وهذا كله يبطل ماقالوه فاحالة كونه من الحقائق محال ، ولا يستنكر فى العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لايعرفه إلا الساحر . وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ومنها مسقمة كالأدوية الحادة ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوى قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة . قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذى ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقة وصحته ، وعصمته ﷺ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ماقام الدليل بخلافه باطل . فأما مايتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث بسببها ولا كان مفضلا من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا مالا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطىء » ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا فى المنام فلا يبعد تخيله فى اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله ومافعله ، ولكن لا يعتقد صحة مايتخيله فتكون اعتقاداته على السداد . قال القاضى عياض رحمه الله تعالى : وقد جاءت روايات هذات الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله فى الحديث حتى يظن أنه يأتى أهله ولا يأتيهن ، ويروى يخيل إليه أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن فإذا دنا منهن أخذته السحر فلم يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما

يعترى المسحور ، وكل ماجاء فى الروايات من أنه يخيل إليه فعل شىء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا كالخلل تطرق إلى العقل وليس فى ذلك مايدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة والله أعلم أ . هـ قلت : قول المازرى خلافاً لمن أنكر ذلك ، قال ابن هبيرة رحمه الله تعالى : أجمعوا على أن السحر له حقيقة ، إلا أبا حنيفة فانه قال : لا حقيقة له عنده . ثم ذكر الاختلاف فى حكم الساحر ، وقال القرطبى رحمه الله تعالى وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده مايشاء خلافاً للمعتزلة وأبى إسحاق الاسفراينى حيث قالوا إنه تمويه وتخييل أ هـ .

قلت : قد ثبت وتقرر من هذا وغيره تحقق السحر وتأثيره بإذن الله بظواهر الآيات والأحاديث وأقوال عامة الصحابة ، وجماهير العلماء بعدهم رواية ودراية ، فأما القتل به والأمراض والتفرقة بين المرء وزوجه وأخذه بالأبصار فحقيقة لا مكابرة فيها ، وأما قلب الأعيان كقلب الجماد حيواناً وقلب الحيوان من شكل إلى آخر فليس بمحال فى قدرة الله عز وجل ولا غير ممكن ، فانه هو الفاعل فى الحقيقة وهو الفعال لما يريد ، فلا مانع من أن يحول الله ذلك عندما يلقى الساحر ماألقى إمتحاناً وابتلاء وفتنة لعباده ، ولكن الذى أخبرنا الله تعالى به فى الواقع من سحرة فرعون فى قصتهم مع موسى إنما هو التخيل والأخذ بالأبصار حتى رأوا الحبال والعصى حيات . فنؤمن بالخبر ونصدقه ولا نتعداه ولا نبدل قولا غير الذى قيل لنا ولا نقول على الله مالا نعلم وبالله التوفيق .

واحكم على الساحر بالتكفير — وحده القتل بلا نكير
كما أتى فى السنة المصرحة — مما رواه الترمذى وصححه
عن جندب وهكذا فى أثر — أمر بقتلهم روى عن عمر
وصح عن حفصة عند مالك — مافيه أقوى مرشد للممالك

هذا هو الحكم الثانى وهو حكم الساحر (واحكم على الساحر) تعلمه أو علمه عمل به أو لم يعمل (بالتكفير) أى بأنه كفر بهذا الذنب الذى هو السحر ، وذلك واضح صريح فى آية البقرة بأمور : منها سبب عدول اليهود إليه وهو نبذهم الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) سواء أريد بالكتاب التوراة التى بأيديهم أو القرآن الذى جاء به محمد ﷺ ، كل ذلك نبذه كفر ، وقد علم أن السحر لا يعمل إلا مع من كفر بالله ، وهذا معلوم من سبب نزول الآية كما قال

الربيع بن أنس وغيره : إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ماسألوه عنه فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا ، وأنهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الآيات .

ومنها قوله (واتبعوا ماتتلو الشياطين) تتقوله وتزوره (على ملك سليمان) أى فى ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ماتتلوه الشياطين وتتقوله والانقياد له والعمل به عوضاً عما أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ هذا من أعظم الكفر ، وهو من عبادة الطاغوت التى هى أصل الكفر ، وقد سمى الله تعالى طاعة العلماء والأمراء فى تحليل ماحرم الله أو تحريم ماأحله ، سمى ذلك عبادة وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فقال تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) الآية ، قال عدى بن حاتم رضى الله عنه حين سمع رسول الله ﷺ يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال « أليس يحلون ماحرم الله فتحلونه ، ويحرمون ماأحل الله فتحرمونه ؟ » قال بلى . قال « فتلك عبادتكم إياهم » ، ولهذا قال تعالى بعدها (وماأمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فإذا كان هذا فى طاعة الأحبار والرهبان فكيف فى طاعة الشيطان فيما ينافى الوحى ، فهل فوق هذا الشرك من كفر ؟ (سبحان الله عما يشركون) وعبادة الشيطان هى اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه ، كما قال عز وجل فيه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، وكما يقول للمجرمين يوم القيامة (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدون هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جيلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) ..

ومنها قوله تعالى (وماكفر سليمان) ، برأ الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام من الكفر ، وهذا الكفر الذى برأه تعالى منه هو علم الساحر وعمله ، وإن كان بريئاً من الكفر كله معصوماً مما هو دونه ، لكن سياق الآية فى خصوص السحر وأنه برىء منه ، ولو فرض وجود عمله به لكفر لأنه شرك والشرك أقبح الذنوب وأعظم المحبطات للأعمال كما قال تعالى فى جميع رسله سليمان وغيره عليهم السلام بعد أن ذكرهم : (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) ، وهذا

معلوم من أصل القصة فان اليهود قاتلهم الله تلقوا السحر عن الشياطين ونسبوه إلى سليمان عليه السلام . فبرأه الله تعالى من إفكهم بهذه الآية ، كما قال مجاهد رحمه الله تعالى في هذه الآية (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) قال : كانت الشياطين تستمع الوحى فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها ، فأرسل سليما عليه السلام إلى ماكتبوا من ذلك ، فلما توفى سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر ، وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى : كان سليمان عليه السلام يتبع مافى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه ، فدنت إلى الإنس فقالوا لهم : أتدرون ما العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا نعم . قالوا فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه ، فاستثار به الإنس واستخرجوا وعملوا به ، فقال أهل الحجاز ـــ يعنى اليهود من أهل الحجاز ـــ كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر ، فأنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال محمد ابن إسحاق بن يسار : عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليهما السلام فكتبوا أصناف السحر ، من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا ، حتى إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هذا ماكتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ماأحدثوا ، فلما عثروا عليه قالوا والله ماكان ملك سليمان إلا بهذا ، فأفشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه : فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله ، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود : تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً . والله ماكان إلا ساحراً . وأنزل الله تعالى فى ذلك (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ، وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الآية وروى بن أبى حاتم عن بن عباس رضى الله عنهما قال : كان آصف كاتب سليمان ، وكان يعلم الأسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا : هذا الذى كان سليمان يعمل به : قال فأكفره جهال

الناس وسبوه ووقف علماء النفس ، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وتفاسير السلف وآثارهم فى هذه الآية كثيرة جداً ، وماكان منها إسرائيلياً فهو من القسم المقبول لموافقته ظاهر الآية فى أن اليهود تعلموا السحر من الشياطين ورموا به نبى الله سليمان وأكفروه به وسبوه ، وخاصموه به محمداً رسول الله ﷺ ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فبين الله تعالى مالبسوه وهدم ماأسسوه وبرأ نبيه سليمان عليه السلام مما ائتفكوه وأقام الحجة عليهم فى بطلان ماانتحلوه فلله الحمد والمنة

ومنها قوله تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) أكذب الله تعالى اليهود فيما نسبوه إلى نبيه سليمان عليه السلام بقوله (وماكفر سليمان) وهم إنما نسبوا السحر إليه ، ولازم مانسبوه إليه هو الكفر لأن السحر كفر ، ولهذا أثبت كفر الشياطين بتعليمهم الناس السحر فقال تعالى (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وكذلك كل من تعلم السحر أو علمه أو عمل به يكفر ككفر الشياطين الذين علموه الناس ، إذ لا فرق بينه وبينهم ، بل هو تلميذ الشيطان وخريجه ، عنه روى وبه تخرج وإياه اتبع ، ولهذا قال تعالى فى الملكين (ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) فبين تعالى أنه بمجرد تعلمه يكفر سواء عمل به وعلمه أو لا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فإذا أتاهما الآتى مريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر ، قال فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا فإذا أتى عاين الشيطان فعلمه ، فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً فى السماء فيقول : ياحسرتاه ياويله ماذا صنع . وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله تعالى أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وقال قتادة كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا (إنما نحن فتنة) أى بلاء ابتلينا به (فلا تكفر) ، وقال السدى إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : لا تكفر إنما نحن فتنة ، فإذا أبى قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان ، وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه

وكل شىء وذلك غضب الله ، فإذا أخبرهما بذلك علماء السحر فذلك قول الله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) الآية . وعن ابن جريج فى هذه الآية : لا يجترىء على السحر إلا كافر ، والفتنة هى المحنة والاختبار .

ومنها قوله تعالى (ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) يعنى من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للايمان معه ، فإنه مامن مؤمن إلا ويدخل الجنة ، وكفى بدخول الجنة خلاقاً ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة . ثم قال تعالى (ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .

ومنها قوله تعالى (ولو أنهم آمنوا) يعنى بمحمد ﷺ والقرآن (واتقوا) السحر وسائر الذنوب (لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) وهذا من أصرح الأدلة على كفر الساحر ونفى الإيمان عنه بالكلية ، فإنه لا يقال للمؤمن المتقى : ولو أنه آمن واتقى ، وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر وعمل بالسحر واتبعه وخاصم به رسوله ورمى به نبيه ونبذ الكتاب وراء ظهره ، وهذا ظاهر لا غبار عليه والله أعلم ، وقد صرح بذلك أئمة السلف من الصحابة والتابعين ، وإنما اختلفوا فى القدر الذى يصير به كافراً ، والصحيح أن السحر المتعلم من الشياطين كله كفر قليله وكثيره كما هو ظاهر القرآن .

(وحده) أى حد الساحر (القتل) ضربه بالسيف (بلا نكير) بل هو ثابت بالكتاب من عموم النص فى الكفار المرتدين وغيرهم (كما أتى) ثابتاً (فى السنة المصرحة) الثابتة عن النبى ﷺ (مما رواه الترمذى) محمد بن عيسى بن سورة بمهملتين بن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى الترمذى الحافظ الضرير أحد الأعلام وصاحب الجامع والتفسير عن خلق مذكورين فى تراجمهم من جامعه وغيره ، وعنه محمد بن إسماعيل السمرقندى وحماد ابن شاكر وأبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى راوى الجامع والهيثم بن كليب وخلق من أهل سمرقند ونسف وتلك الديار ، وقال بن حيان كان ممن جمع وصنف ، قال أبو العباس المستغفرى مات سنة تسع وسبعين ومائتين ، مرفوعاً (وصححه) موقوفا (عن جندب ، هو ابن عبد الله بن سفيان البجلى العلقمى أو العلقى له ثلاثة وأربعون حديثا اتفقا على سبعة وانفرد مسلم بخمسة . روى عنه الحسن

.وابن سيرين وأبو مجلز ، مات بعد الستين ، قال رحمه الله تعالى « باب ماجاء فى حد الساحر حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ حد الساحر ضربه بالسيف » هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث من قبل حفظه وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع وهو ثقة ويروى عن الحسن أيضاً والصحيح عن جندب موقوفاً والعمل على هذا الحديث عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم وهو قول مالك بن أنس ، وقال الشافعى : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره مايبلغ الكفر فإذا عمل عملا دون الكفر فلم ير عليه قتلا . ويعنى بقوله : مايبلغ الكفر أى ماكان فيه اعتقاد التصرف لغير الله وصرف العبادة له كما يفعله عباد هياكل النجوم من أهل بابل وغيرهم والله أعلم (وهكذا فى أثر . أمر بقتلهم) يعنى السحرة (روى عن عمر) ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى العدوى أبى حفص المدنى أحد فقهاء الصحابة ثانى الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأول من سمى أمير المؤمنين ، له خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثاً اتفقا على عشرة وانفرد البخارى بتسعة ومسلم بخمسة عشر ، وعنه أبناؤه عبد الله وعاصم وعبيد الله وعلقمة ابن أبى وقاص وغيرهم ، شهد بدراً والمشاهد والمواقف ، وولى أمر الأمة بعد أبى بكر رضى الله عنهما وفتح فى أيامه عدة أمصار ، أسلم بعد أربعين رجلا ، عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » ولما دفن قال ابن مسعود رضى الله عنه : ذهب اليوم بتسعة أعشار العلم . استشهد فى آخر سنة ثلاث وعشرين ودفن فى أول سنة أربع وعشرين فى الحجرة النبوية وهو ابن ثلاث وستين وصلى عليه صهيب ، ومناقبه جمة قد أفردت فى مجلدات . وهذا الأثر المشار إليه فى الباب هو مارواه الإمامان الجليلان أحمد بن حنبل الشيبانى ومحمد بن إدريس الشافعى رحمهما الله تعالى قالا : أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر .

(وصح) نقلا (عن حفصة) بنت عمر بن الخطاب العدوية أم المؤمنين رضى الله عنها (عند مالك) بن أنس بن مالك بن أبى عمر وابن الحارث الأصبحى أبى عبد الله المدنى أحد الأعلام فى الإسلام وإمام دار الهجرة . ولد سنة ثلاث وتسعين وحمل به

ثلاث سنين ، وتوفى سنة تسع وسبعين ومائة ودفن بالبقيع رحمه الله تعالى ورضى عنه (ما) أى الذى (فيه أقوى) دليل (مرشد للسالك) وهو مارواه فى موطإه فى « باب ماجاء فى الغيلة والسحر من كتاب العقول : عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد ابن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبى ﷺ قتلت جارية لها سحرتها ، وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت ، قال مالك : الساحر الذى يعمل السحر ، ولم يعمل ذلك له غيره ، هو مثل الذى قال الله تعالى فى كتابه (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه » أ هـ قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه . فقال الناس : سبحان الله ، يحيى الموتى ! ورآه رجل من صالح المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترت الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال : إن كان صادقاً فليحيى نفسه ، وتلا قوله تعالى (أتأتون السحر وأنتم تبصرون) فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك فسجنه ثم أطلقه والله أعلم . وقال الإمام أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى أبى أخبرنا يحيى بن سعيد حدثنى أبو إسحاق عن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله ، قال أراه كان ساحراً . وحمل الشافعى رحمه الله تعالى قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً . والله أعلم .

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى : فصل ، وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمه الله تعالى فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبى حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليتجنبه فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر ، وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف مايوجب الكفر مثل مااعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل مايلتمس منها فهو كافر . وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا ، فأما إن قتل بسحره إنسان فإنه يقتل عند مالك

والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق . شخص معين ، وإذاً فإنه حدا عندهم ، إلا الشافعي فإنه قال والحالة هذه قصاصاً . قال وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنه : لا تقبل وقال الشافعي وأحمد فى الرواية : تقبل ، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة إنه يقتل كما يقتل الساحر إذا كان مسلماً ، وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل يعفى لقصة لبيد بن الأعصم . واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبي حنيفة إنها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبي عبد الله يعنى أحمد بن حنبل : عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهرى قال يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها ، وقد نقل القرطبى عن مالك رحمه الله تعالى أنه قال فى الذمى : يقتل إن قتل سحره ، وحكى بن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى إذا سحر إحدا : الأولى أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل ، والثانية أنه يقتل وإن أسلم . وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى (ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه) لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق ، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه ، فإن قتل ، قال الشافعي : فإن قال لم أتعمد القتل فهو مخطىء عليه الدية .

هذا ومـن أنواعـه وشعبـه ... علـم النجـوم فادر هذا وانتبه

هذا هو البحث الرابع وهو (بيان أنواعه) ، فمنها علم التنجيم وهو أنواع : أعظمها مايفعله عبدة النجوم ويعتقدونه فى السبعة السيارة وغيرها ، فقد بنوا بيوتاً لأجلها وصوروا فيها تماثيل سموها بأسماء النجوم ، وجعلوا لها مناسك وشرائع يعبدونها بكيفياتها ، ويلبسون لها لباساً خاصاً وحلية خاصة ، وينحرون لها من الأنعام أجناساً خاصة ، لكل نجم منها جنس زعموا أنه يناسبه ، وكل نجم جعلوا لعبادته أوقاتاً مخصوصة كأوقات الصلوات عند المسلمين ، واعتقدوا تصرفها فى الكون ، وهذا هو المعروف عن قوم إبراهيم ببابل وغيرها ، وإباهم خاطب فيما حكى الله عنهم متحدياً لهم مبيناً سخافة عقولهم وضلال قلوبهم ، قال الله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما

أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون) إلى آخر الآيات .

ومنها مايفعله من يكتب حروف أبى جاد ويجعل لكل حرف منها قدراً من العدد معلوماً ويجرى على ذلك أسماء الآدميين والأزمنة والأمكنة وغيرها ، ويجمع جمعاً معروفاً عنده ، ويطرح منه طرحاً خاصاً ، ويثبت إثباتاً خاصاً ، وينسبه إلى الأبراج الاثنى عشر المعروفة عند أهل الحساب ، ثم يحكى على تلك القواعد بالسعود والنحوس وغيرها مما يوحيه إليه الشيطان ، وكثير منهم بغير الاسم لأجل ذلك ويفرق بين المرء وزوجه بذلك ، ويعتقد أنهم إن جمعهم بيت لا يعيش أحدهم . وقد يتحكم بذلك فى الغيب فيدعى أن هذا يولد له وهذا لا ، وهذا الذكر وهذا الانثى ، وهذا يكون غنياً وهذا يكون فقيراً ، وهذا يكون شريفاً وهذا وضيعاً ، وهذا محبباً وهذا مبغضاً ، كأنه هو الكاتب ذلك للجنين فى بطن أمه ، لا والله لا يدريه الملك الذى يكتب ذلك حتى يسأل ربه أذكر أم أنثى شقى أم سعيد ماالرزق وماالاجل ، فيقول له فيكتب وهذا الكاذب المفترى يدعى علم ما استاثر الله بعلمه ، ويدعى أنه يدركه بصناعة اخترقها ، وأكاذيب اختلقها ، وهذا من أعظم الشرك فى الربوبية ، ومن صدقه به واعتقده فيه كفر والعياذ بالله .

ومنها النظر فى حركات الأفلاك ودورانها وطلوعها وغروبها واقترانها وافتراقها معتقدين أن لكل نجم منها تأثيرات فى كل حركاته منفرداً ، وله تأثيرات أخر عند اقترانه بغيره فى غلاء الأسعار ورخصها وهبوب الرياح وسكونها ووقوع الكوائن والحوادث ، وقد ينسبون ذلك إليها مطلقاً ، ومن هذا القسم الاستسقاء بالأنواء وسيأتى الحديث فيه عن ذكره فى المت إن شاء الله وبه الثقة .

ومنها النظر فى منازل القمر الثمانية والعشرون مع اعتقاد التأثيرات فى اقتران القمر بكل منها ومفارقته ، وأن فى تلك سعوداً أو نحوساً وتأليفاً وتفريقاً وغير ذلك ، وكل هذه الأنواع اعتقاد صدقها محادة لله ورسوله ، وتكذيب بشرعه وتنزيله ، واتباع لزخارف الشيطان ما أنزل الله بذلك من سلطان ، والنجم مخلوق من المخلوقات مربوب مسخر مدبر كائن بعد أن لم يكن ، مسبوق بالعدم المحض متعقب به ليس له تأثير فى

حركة فى الكون ولا سكون لا فى نفسه ولا فى غيره ، قال الله تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر) وقال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وقال تبارك وتعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، وقد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وقال سبحانه (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وقال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق) . وغير ذلك من الآيات . وقال تعالى فى ذهابها وفنائها وعودها إلى العدم كما أوجدت بعد العدم : (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت) وقال تعالى (وإذا الكواكب انتثرت) وقال سبحانه (وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر) وروى ابن أبى حاتم رحمه الله تعالى عن قتادة الإمام فى التفسير وغيره قال رحمه الله تعالى : إنما جعل الله سبحانه هذه النجوم لثلاث خصال ، جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به ، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، من سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا . ولعمرى مامن نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم ، وماعلم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه (لا يعلم من فى السموات والأرض

الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون) . وهذا كلام جليل متين صحيح ، وأصله فى صحيح البخارى تعليقاً . وقال أبو داود رحمه الله تعالى فى كتاب الطب من سننه : « باب فى النجوم » حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ومسدد المعنى ، قالا حدثنا يحيى بن عبيد الله بن الأخنس بن أبى شيبة ومسدد المعنى ، قالا حدثنا يحيى بن عبيد الله بن الأخنس عن الوليد ابن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد مازاد » وذكر حديث النوء ، وروى عبد بن حميد عن رجاء بن حيوة أن النبى ﷺ قال « إنما أخاف على أمتى التصديق بالنجوم ، والتكذيب بالقدر ، وحيف الأئمة » . وروى ابن عساكر وحسنه عن أبى محجن مرفوعاً « أخاف على أمتى ثلاثاً : حيف الأئمة ، وإيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر » . وروى أبو يعلى وابن عدى عن أنس رضى الله عنه مرفوعاً « أخاف على أمتى بعدى خصلتين : تكذيباً بالقدر ، وإيمانا بالنجوم » وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً « رب معلم حروف أبى جاد دارس فى النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » ورواه حميد بن زنجويه عنه بلفظ « يارب ناظر فى النجوم ومتعلم حروف أبى جاد ليس له عند الله خلاق » .

ومن أنواع السحر زجر الطير والخط بالأرض ، قال أبو داود : حدثنا مسدد حدثنا يحيى حدثنا عوف حدثنا حيان — قال غير مسدد : حيان بن العلاء — حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « العيافة والطيرة والطرق من الجبت » ورواه أحمد فى مسنده . والجبت هو السحر قاله عمر رضى الله عنه وكذلك قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم . وعن ابن عباس وغيره أيضاً الجبت الشيطان ، ولا ينافى الأول لأن السحر من عمل الشيطان ، وعنه أيضاً الجبت الشرك ، وعنه الجبت الأصنام ، وعنه الجبت حيى بن أحطب ، وعن الشعبى الجبت كاهن . وعن مجاهد الجبت كعب بن الأشرف ، ولا منافاة أيضاً فان السحر من الشرك الذى يشمله عبادة غير الله ، وحيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ممن خاصم رسول الله ﷺ بالسحر ، والكاهن عامل بالسحر ، وقال فى القاموس : الجبت بالكسر الصنم والكاهن والساحر والسحر والذى لا خير فيه وكل ماعبد من دون الله عز وجل .

ومن أنواعه العقدة والنفث فيه قال الله تعالى (ومن شر النفاثات فى العقد) وقد

تقدم حديث عائشة فى قصة لبيد بن الأعصم ، وقد ثبت فى حديث نزول المعوذتين ورقية جبريل النبى ﷺ بهما أنه كان كلما قرأ آية انحلت عقدة . وقال النسائى رحمه الله تعالى فى كتاب تحريم الدم من سننه : « الحكم فى السحرة » أخبرنا عمرو بن على قال حدثنا أبو داود قال حدثنا عبادة بن ميسرة المنقرى عن الحسن عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئا وكل إليه » وقد أطلق السحر على مافيه التخييل فى قلب الأعيان وإن لم يكن السحر الحقيقى كما فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله قال « إن من البيان لسحرا » يعنى لتضمنه التخييل فيخيل الباطل فى صورة الحق ، وإنما عنى به البيان فى المفاخرة والخصومات بالباطل ونحوها كما يدل عليه أصل القصة فى التميميين اللذين تفاخرا عنده بأحسابهما وطعن أحدهما فى حسب الآخر ونسبه ، وكذلك قال ﷺ « إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحكم له على نحو ماأسمع ، فمن حكمت له من حق أخيه بشىء فإنما هو قطعة من النار » أو كما قال ، وهو فى الصحيح ، وأما البيان بالحق لنصرة الحق فهو فريضة على كل مسلم مااستطاع إلى ذلك سبيلا ، وهو من الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وقد سمى ﷺ مايعمل عمل السحر سحراً وإن لم يكن سحراً كقوله ﷺ « ألا أنبئكم ماالعضه ، هى النميمة ، القالة بين الناس » رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه ، والعضه فى لغة قريش السحر ، ويقولون للساحر عاضه ، فسمى النميمة سحراً لأنها تعمل عمل السحر فى التفرقة بين المرء وزوجه وغيرهما من المتحابين بل هى أعظم فى الوشاية لأنها تثير العداوة بين الأخوين . وتسعر الحرب بين المتسالمين كما هو معروف مشاهد لا ينكر . وقد جاء الوعيد للقتات فى الآيات والأحاديث كثيراً جداً ، ومع هذا فالخداع للكفار للفتك بهم وإظهار المسلمين عليهم وكسر شوكتهم وتفريق كلمتهم من أعظم الجهاد وأنفعه وأشده نكاية فيهم كما يفعله نعيم بن مسعود الغطفانى رضى الله عنه فى تفريق كلمة الأحزاب بأذن رسول الله ﷺ حتى فرق بين قريش وبين يهود بنى قريظة ونقض الله بذلك ماأبرموه ولله الحمد والمنة .

وحلـه بالوحـى نصاً يشرع أمـا بسحـر مثلـه فيمنـع

(وحله) يعنى حل السحر عن المسحور (بـ) الرقى والتعاويذ والأدعية من

(الوحى) الكتاب والسنة (نصاً) أى بالنص (يشرع) كما رقى جبريل النبى ﷺ بالمعوذتين ، وكما يشمل ذلك أحاديث الرقى المتقدمة فى بابها التى أمر بها الشارع ﷺ وندب إليها ، ومن أعظمها فاتحة الكتاب وآية الكرسى والمعوذتين وآخر سورة الحشر ، فإن ضم إلى ذلك الآيات التى فيها التعوذ من الشياطين مطلقاً والآيات التى يتضمن لفظها إبطال السحر كقوله تعالى (فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون ـــ فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين) وقوله عز وجل (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وقوله تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) ونحوها كان ذلك حسنا . ومثل ذلك الأدعية والتعاويذ المأثورة عن النبى ﷺ الواردة فى الأحاديث الصحيحة كما تقدم كثير منها فى باب الرقى . وكحديث « ربنا الله الذى فى السماء ، تبارك اسمك ، أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ » رواه أبو داود ، وكحديث عثمان بن أبى العاص أنه قال : أتانى رسول الله ﷺ وبى وجع قد كاد يهلكنى ، فقال رسول الله ﷺ « امسح بيمينك سبع مرات وقل : أعوذ بعزة الله وقدرته وسلطانه من شر ماأجد » قال ففعلت فأذهب الله ماكان بى فلم أزل آمر به أهلى وغيرهم ، قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وكتب السنة من الأمهات وغيرها مشحونات بالأدعية والتعوذات الكافية الشافية باذن الله عز وجل ، فمن ابتغى ذلك ماوجده ، والله الموفق .

(أما) حل السحر عن المسحور (بسحر مثله فيحرم) ، فانه معاونه للساحر وإقرار له على عمله ، وتقرب إلى الشيطان بأنواع القرب ليبطل عمله عن المسحور ، ولهذا قال الحسن : لا يحل السحر إلا ساحر ، ولما قيل للنبى ﷺ لو تنشرت ، فقال « أما أنا فقد شفانى الله وعافنى ، وخشيت أن أثير على الناس شراً » وقال أبو داود فى كتاب الطب من سننه « باب فى النشرة » حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يحدث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سئل رسول الله ﷺ عن النشرة فقال « هو من عمل الشيطان » . ولهذا ترى كثيراً من السحر فقال « هو من عمل الشيطان » . ولهذا ترى كثيراً من السحرة الفجرة فى الأزمان التى لا سيف فيها يردعهم يتعمد سحر الناس ممن يحبه أو يبغضه ليضطره بذلك إلى سؤاله حله ليتوصل بذلك إلى أموال الناس بالباطل فيستحوذ على أموالهم ودينهم نسأل الله تعالى العافية .

ومن يصدق كاهنا فقد كفر بما أتى به الرسول المعتبر

(ومن يصدق كاهنا) يعتقد بقلبه صدقه فى ماادعاه من علم المغيبات التى استأثر الله تعالى بعلمها (فقد كفر) أى بلغ دركة الكفر بتصديق الكاهن (بما أتى به الرسول) محمد ﷺ عن الله عز وجل من الكتاب والسنة وبما أتى به غيره ﷺ من الرسل عليهم السلام . ولنسق الكلام أولا فى تعريف الكاهن من هو ثم فى بيان كذبه وكفره ثم فى كفر من صدقه بما قال والله المستعان ، فنقول : الكاهن فى الأصل هو من يأتيه الرئى من الشياطين المسترقة السمع تتنزل عليهم كما قال الله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) (وهذه الآيات متعلقة بما قبلها وهى قوله عز وجل لما قال المشركون فى رسوله محمد ﷺ إنه كاهن وقالوا فى القرآن كهانة وأنه مما يلقيه الشيطان ، فنفى الله تعالى دلك وبرأ رسوله وكتابه مما أفكوه وافتروه (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) إلى أن قال تعالى (وماتنزلت به الشياطين وماينبغى لهم ومايستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) فأثبت تعالى أن القرآن كلامه وتنزيله ، وأن جبريل عليه السلام رسول منه مبلغ كلامه إلى الرسول البشرى محمد ﷺ ، وهو مبلغ له إلى الناس ، ثم نفىماافتراه المشركون عليه فقال « وما رلت به الشياطين » وقرر انتفاء ذلك بثلاثة أمور : الأول بعد الشياطين وأعمالهم عن القرآن ، وبعده وبعد مقاصده منهم ، فقال تعالى (وماينبغى لهم) لأن الشياطين مقاصدها الفساد والكفر والمعاصى والبغى والعتو والتمرد وغير ذلك من القبائح ، والقرآن أت بصلاح الدنيا والآخرة ، آمر بأصول الإيمان وشرائعه مقرر لها مرغب فيها زاجر عن الكفر والمعاصى ذام لها متوعد عليها آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، مامن خير آجل ولا عاجل إلا وفيه الدلالة عليه والدعوة إليه والبيان له ، ومامن شر عاجل ولا آجل إلا وفيه النهى عنه والتحذير منه ، فأين هذا من مقاصد الشياطين ؟ الثانى عجزهم عنه فقال تعالى (ومايستطيعون) ، أى لو انبغى لهم مااستطاعوه ، لأنه كلام رب العالمين ليس يشبه كلام شيء من المخلوقين ، وليس فى وسعهم الإتيان به ولا بسورة من مثله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) . الثالث عزلهم عن السمع وطردهم عن مقاعده التى كانوا يعقدون من السماء قبل نزول القرآن فقال تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) فبين تعالى — مع

كونه لا ينبغي لهم ــ أنه لو انبغى مااستطاعوا الإتيان به أو بمثله لا من عند أنفسهم ولا نقلا عن غيرهم من الملائكة ، نفى عنهم الأول بعدم الاستطاعة ، والثانى بعزلهم عن السمع وطردهم منه ، قال الله عز وجل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) إلى قوله (ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وقال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) وقال تعالى عن مؤمنى الجن رضى الله عنهم (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ماذاك إلا من شىء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما الذى حال بيننا وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو ﷺ بنخل عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذه الذى حال بيننا وبين خبر السماء . فرجعوا إلى قومهم فقالوا (ياقومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً) فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ (قل أوحى إلى أنه استمع إلى نفر من الجن) وهذا الحديث بطوله وطرقه فى الصحيحين وغيرهما ، ثم قال تعالى فى جواب الكفار مبيناً لهم أولياء الشياطين الذين تنزل عليهم فقال تعالى (هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين) الآيات . وفى صحيح البخارى قالت عائشة رضى الله عنها : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال « إنهم ليسوا بشىء » قالوا يارسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقاً ، فقال النبى ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » . وله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة

بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض ــ وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ــ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أو ليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » ولمسلم عن ابن عباس نحوه ، وللبخارى عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تحدث فى العنان ــ والعنان الغمام ــ بالأمر فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » . وقد بين الله تعالى كذب الكاهن بقوله (أفاك أثيم) فسماه أفاكا وذلك مبالغة فى وصفه بالكذب . وسماه أثيما وذلك مبالغة فى وصفه بالفجور . وقوله (وأكثرهم كاذبون) أى أكثر مايقولونه الكذب فلا يفهم منه أن فيهم صادقاً ، يفسره قول النبى ﷺ « فيكذب معها مائة كذبة » فلا يكون صدقاً إلا الكلمة التى سمعت من السماء .

وأما كفر الكاهن فمن وجوه : منها كونه ولياً للشيطان فلم يوح إليه الشيطان إلا بعد أن تولاه ، قال الله تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) والشيطان لا يتولى إلا الكفار ويتولونه ، قال الله تعالى : (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النار إلى الظلمات) وهذا وجه ثان . والثالث قوله تعالى (يخرجونهم من النار) أى نور الإيمان والهدى (إلى الظلمات) أى ظلمات الكفر والضلالة . وقال تعالى (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) وهذا وجه رابع . والخامس تسميته طاغوتاً فى قوله عز وجل (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً) نزلت فى المتحاكمين إلى كاهن جهينة . وقوله (وقد أمروا أن يكفروا به) أى الطاغوت . وهذا وجه سادس . والسابع أن من هداه الله للايمان من الكهان كسواد بن قارب رضى الله عنه لم يأته رئيه بعد أن دخل فى الإسلام ، فدل أنه لم يتنزل عليه فى الجاهلية إلا لكفره وتوليه إياه ، حتى إنه رضى الله عنه كان يغضب إذا سئل عنه حتى قال له عمر رضى الله عنه : ماكنا فيه من عبادة الأوثان أعظم . الثامن وهو أعظمها تشبهه بالله عز وجل فى صفاته

ومنازعاته له تعالى فى ربوبيته ، فإن علم الغيب من صفات الربوبية التى استأثر الله تعالى بها دون من سواه فلا سمى له ولا مضاهى ولا مشارك (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ــ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون ــ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين ايديه ومن خلفه رصدا ــ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ــ أم عنده علم الغيب فهو يرى) ولسان حال الكاهن وقاله يقوله نعم . التاسع أن دعواه تلك تتضمن التكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله . العاشر النصوص فى كفر من سأله عن شىء فصدقه مما يقول فكيف به نفسه فيما ادعاه ، فقد روى الأربعة والحاكم وقال صحيح على شرطهما عن أبى هريرة رضى الله عنه « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » . وعن عمران بن حصين رضى الله عنه « ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، ومن أتى كاهناً فصدقة بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » . ولمسلم عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال « منّ أتى عرافاً فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » . فهذا حكم من سأله مطلقاً . والأول حكم من سأله وصدقه بما قال .

اعلم أن الكاهن وإن كان أصله ماذكرنا فهو عام فى كل من ادعى معرفة المغيبات ولو بغيره كالرمال الذى يخط بالأرض أو غيرها ، والمنجم الذى قدمنا ذكره أو الطارق بالحصى وغيرهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور الغائبة كالدلالة على المسروق ومكان الضالة ونحوها أو المستقبلة كمجىء المطر أو رجوع الغائب أو هبوب الرياح ونحو ذلك مما استأثر الله عز وجل بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا من طريق الوحى كما قال تعالى (فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) ملائكة يحفظونه من مسترق السمع وغيرهم (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا) فمن ذا الذى يدعى علم ما استأثر الله بعلمه عن رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى عن نوح عليه السلام (ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) الآية ، وقال تعالى عن هود عليه السلام (قل إنما العلم عند الله وأبلغكم ماأرسلت به) ، وقال لنبيه محمد ﷺ (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله . ولا أعلم الغيب) الآية . وقال تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير

ومامسنى السوء) وقال تعالى (قل ما كنت بدعاً من الرسل ومأأدرى مايفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا مايوحى إلى) الآية ، وقال تعالى عن الملائكة (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) الآيات ولم يعلم الرسول ﷺ مكان راحلته حتى أعلمه الله بذلك ، وقال فى سؤال الحبر إياه فأجابه ﷺ وصدقه الحبر ثم انصرف فذهب فقال رسول الله ﷺ « لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشىء منه حتى أتانى الله عز وجل به » وهى فى مسلم . وفيه قول عائشة رضى الله عنها لمسروق رحمه الله تعالى : ومن زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الفرية ، والله تعالى يقول « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) . ولم يكن ﷺ يعلم شيئاً من الرسالة حتى أتاه الله عز وجل به كما قال تعالى (ووجدك ضالا فهدى) ، وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) ، وقال تعالى (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) . نسأل الله العظيم من فضله العظيم .

تم الجزء الأول ــ ولله الحمد والمنة

المحتويات

الموضوع | رقم الصفحة

ـ رقم الايداع ٣٩٠٧/٥٧٠٩٨

مَعَارِجُ القَبُولِ

بِشَرحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إلى عِلمِ الأُصُولِ فِي التَّوحِيدِ

تأليف

الشيخ حَافِظ بن أحمد حكمي

الجُزءُ الثَّانِي



٢٦ ش النبي دانيال - اسكندرية
تليفون ٤٩٠١٤١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والإيمان والإحسان

هذا فصل يجمع معنى حديث جبريل فى تعليمنا الدين وأنه ينقسم إلى ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وبيان كل منها .

اعلم أن هذا الفصل مهم جداً جامع لأصول الدين وشرائعه ومراتبه وشعبه القولية والعملية ، وهو معنى حديث جبريل فى سؤاله النبى ﷺ وجوابه إياه ، وهو حديث عظيم الشأن جليل كبير جامع نافع ، سمى النبى ﷺ ماحتوى عليه « الدين » فقال « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . وهو حديث مشهور فى كتب السنة عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو ذر وعبد الله بن عباس وأبو عامر الأشعرى وغيرهم رضى الله عنهم . وهانحن نذكر أحاديثهم بألفاظها مع بيان مخرجيها من أئمة الحديث ، ثم نتكلم على الخصال التى فيها عند مواضعها من هذا المتن إن شاء الله تعالى ، وهو المستعان وبه الثقة وعليه التكلان ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

حديث جبريل ــ الحديث به عن عمر

فأما حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخرجه مسلم فى أول جامعه : حدثنى أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا وكيع عن كهمس عن عبد الله ابن بريدة عن يحيى بن يعمر . ح . وحدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى وهذا حديثه : حدثنا أبى حدثنا كهمس عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد ابن عبد الرحمن الحميرى حاجين ــ أو معتمرين ــ فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما داخلا المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن أنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم . وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لاقدر وأن الأمر أنف . قال :

فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه فى سبيل الله ماقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت ، فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى : ياعمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

حدثنى محمد بن عبيد الغبرى وأبو كامل الجحدرى وأحمد بن عبده قالوا : حدثنا حماد بن زيد عن مطر الوراق عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر قال : لما تكلم معبد بما تكلم به فى شأن القدر أنكرنا ذلك ، قال : فحججت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حجة . وساقوا الحديث بمعنى حديث كهمس وإسناده . وفيه بعض زيادة ونقصان أحرف .

وحدثنى محمد بن حاتم حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا عثمان بن غياث حدثنا عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن قالا : لقينا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فذكرنا القدر ومايقولون فيه ، فاقتص الحديث كنحو حديثهم عن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، وفيه شىء من زيادة وقد نقص منه شيئاً .

وحدثنى حجاج بن الشاعر حدثنا يونس بن محمد حدثنا المعتمر عن أبيه عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر عن النبى ﷺ بنحو حديثهم .

هذه طرقه فى مسلم بكمالها ، ولم يخرجه البخارى رحمه ﷺ تعالى :

ورواه داود من حديث كهمس فقال فى كتاب السنة من سننه : حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا كهمس عن ابن بريدة فذكره : وفيه : لايرى عليه أثر السفر ولانعرفه . وفيه : فلبثت ثلاثاً .

ومن حديث عثمان بن غيث فقال : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن عثمان ابن غياث قال حدثنى عبد الله بن بريدة . وفيه . فذكر نحوه ، وزاد : قال وسأله رجل من مزينة أو جهينة فقال : يارسول الله فيم نعمل ، أفى شيء قد خلا أو مضى أو شيء يستأنف الآن ؟ قال فى شيء قد خلا ومضى . فقال الرجل أو بعض القوم : ففيم العمل ؟ قال : إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة ، وإن أهل النار ييسرون لعمل أهل النار .

ومن حديث سليمان بن بريدة عن ابن يعمر بهذا الحديث يزيد وينقص : قال فما الإسلام ؟ قال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان والاغتسال من الجنابة .

ورواه النسائى فى كتاب الإيمان وشرائعه من مجتبى سننه فقال : باب نعت الإيمان ، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا النضر بن شميل . قال أنبأنا ، كهمس ابن الحسن — فذكر حديث عمر بن الخطاب كلفظ مسلم — ولم يذكر حميدا ولم يذكر كلام يحيى بن يعمر ولا كلام ابن عمر قبله .

ورواه الترمذى فى أبواب الإيمان فقال : باب ماوصف جبريل للنبى ﷺ الإيمان والإسلام : حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث الخزاعى أخبرنا وكيع عن كهمس بن الحسن ، فذكر بمعنى لفظ مسلم غير أنه قال : فألزق ركبتيه بركبتيه ثم قال : يامحمد ماالإيمان ؟ ثم قال : فما الإسلام ؟ ثم قال : فما الإحسان ؟ وفيه كل ذلك يقول له : صدقت . قال : فتعجبنا منه يسأله ويصدقه . قال فمتى الساعة ؟ وقال فما أماراتها . وفى آخره فلقينى النبى ﷺ بعد ذلك بثلاث فقال : ياعمر هل تدرى من السائل ؟ ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم . وفى نسخة : معالم دينكم .

حدثنا أحمد بن محمد أخبرنا ابن المبارك أخبرنا كهمس بن الحسن بهذا الاسناد نحوه بمعناه .

حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا معاذ بن هشام عن كهمس بهذا الإسناد نحوه بمعناه .

وفى الباب عن طلحة بن عبيد الله وأنس بن مالك وأبى هريرة هذا حديث حسن صحيح قد روى من غير وجه نحو هذا . وقد روى هذا الحديث عن ابن عمر عن النبى ﷺ والصحيح هو عن ابن عمر عن النبى ﷺ

ورواه ابن ماجه فى باب الإيمان : حدثنا على بن محمد حدثنا وكيع عن كهمس بن الحسن فذكره كلفظ الترمذى ، غير أنه لم يذكر حميدا ولانفس القصة ولا كلام ابن عمر قبل الحديث . وفيه : قال وكيع فى قوله « أن تلد الأمة ربتها » يعنى تلد العجم العرب .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد : حدثنى أبى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا كهمس عن ابن بريدة . ويزيد بن هرون حدثنا كهمس عن ابن بريدة عن يحيى ابن يعمر سمع ابن عمر قال : حدثنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن . الحديث .

والحاصل أن راويه عن عمر ابنه عبد الله وعنه يحيى بن يعمر وحميد الحميرى وعن يحيى بن يعمر عبد الله بن بريدة وسليمان بن بريدة وسليمان بن طرخان . وعن عبد الله بن بريدة كهمس ومطر الوراق وعثمان بن غياث ، وعن كهمس وكيع ومعاذ العنبرى والنضر بن شميل ومحمد بن جعفر ويزيد بن هارون ثم اشتهر عن كل من هؤلاء والله أعلم .

الحديث به عن ابن عمر

وأما حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فهو الذى أشار إليه الترمذى وقد رواه الإمام أحمد من طرق عن يحيى بن يعمر قال : قلت لابن عمر رضى الله عنهما إنا نسافر فى الآفاق فنلقى قوماً يقولون لاقدر ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : إذ لقيتموهم فأخبروهم أن عبد الله بن عمر منهم برىء وأنهم منه براء (ثلاثا) ثم إنه أنشأ يحدث : بينما نحن عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فذكر من هيئته ، فقال رسول الله ﷺ ادنه فدنا ، فقال ادنه فدنا ، فقال ادنه فدنا حتى كاد ركبتاه تمسان ركبتيه ، فقال : يارسول الله أخبرنى ماالإيمان أو عن الإيمان ، قال : تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر . قال سفيان : أراه قال : خيره وشره . قال : فما الإسلام ؟ قال إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وغسل من الجنابة ، كل ذلك : قال : صدقت صدقت . قال القوم : مارأيت رجلا أشد توقيرا لرسول الله ﷺ من هذا كأنه يعلم رسول الله . ثم قال : يارسول الله أخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإلا تراه فإنه يراك .

كل ذلك نقول مارأينا رجلا أشد توقيرا لرسول الله ﷺ من هذا ، فيقول : صدقت صدقت . قال : أخبرنى عن الساعة . قال : ماالمسئول عنها بأعلم بها من السائل . قال فقال : صدقت قال ذلك مراراً ، مارأينا رجلا أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا . ثم ولى : قال سفيان فبلغنى أن رسول الله ﷺ قال : التمسوه ، فلم يجدوه . قال : هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم . ماأتانا فى صورة إلا عرفته غير هذه الصورة . وإسناده : حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان بن عقلمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن يحيى بن يعمر ... إلخ .

وفى رواية قال : قلت لابن عمر إن عندنا رجالا يزعمون أن الأمر بأيديهم فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا . فقال : أخبرهم أنى منهم برىء وأنهم منا برآء . ثم قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد ماالإسلام . فقال : تعبد الله لاتشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ! قال نعم . قال صدقت . قال فما الإحسان قال : تخشى الله كأنك تراه فان لاتك تراه فإنه يراك . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا محسن ؟ قال نعم . قال صدقت . قال : فما الإيمان ؟ قال تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله . قال فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال نعم . قال صدقت .

زاد فى رواية : وكان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية . وسند هذه الرواية : حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا على بن زيد عن يحيى بن يعمر قلت لابن عمر إلخ .

وفى أخرى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن جبريل قال للنبى ﷺ : ماالإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . فقال له جبريل عليه السلام صدّقت . قال فتعجبنا منه يسأله ويصدقه . قال فقال النبى ﷺ : ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم . وسند هذه الرواية حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا وكيع حدثنا كهمس عن ابن بريدة عن يحيى بن يعمر .

ورواية عن يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميرى قال : لقينا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فذكرنا القدر ومايقولون فيه فقال لنا : إذا رجعتم إليهم فقولوا لهم إن ابن عمر منكم برىء وأنتم منه برآء (ثلاث مرار) ثم قال : أخبرنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

أنهم بينما هم جلوس أو قعود عند النبى ﷺ جاءه رجل يمشى حسن الوجه حسن الشعر عليه ثياب بيض فنظر القوم بعضهم إلى بعض مانعرف هذا وماهذا بصاحب سفر . ثم قال : يارسول الله آتيك ؟ قال نعم . فجاء فوضع ركبتيه ويديه على فخذيه وساق الحديث بنحو ماتقدم فى الصحيح والسنن ، وزاد فى آخره سؤال الرجل من جهينة أو مزينة كما تقدم فى رواية أبى داود .

الحديث به عن أبى هريرة

وأما حديث أبى هريرة رضى الله عنه فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد قال حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال أخبرنا أبو حيان التيمى عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ماالإيمان ؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ماالإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ماالإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال متى الساعة ؟ قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لايعلمهن إلا الله تعالى . ثم تلا النبى ﷺ (إن الله عنده علم الساعة) ثم أدبر فقال : ردوه فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . قال أبو عبد الله : جعل ذلك كله من الإيمان ، وترجم عليه : باب سؤال جبريل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبى ﷺ له ، ثم قال : جاء جبريل يعلمكم دينكم ، فجعل ذلك كله دينا .

وأخرجه فى تفسير سورة لقمان فقال : باب قول الله تعالى (إن الله عنده علم الساعة) حدثنى إسحاق عن جرير عن أبى حيان الحديث . وفيه : إذ أتاه رجل يمشى فقال : يارسول الله ماالإيمان ؟ وفيه : قال يارسول الله متى الساعة ؟ قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل . ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها ، فى خمس لايعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام) ثم انصرف الرجل فقال ردوا على ، فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئاً ، فقال هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم .

ورواه مسلم فقال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وزهير بن حرب جميعاً عن ابن علية

قال زهير : حدثنا إسماعيل بن ابراهيم عن أبى حيان الحديث وزاد : وإذا تطاول رعاة البهم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمسن لايعلمهن إلا الله . ثم تلا رسول الله ﷺ « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) قال ثم أدبر إلخ .

وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا محمد بن بشر حدثنا أبو حيان التيمى بهذا الإسناد مثله ، غير أن فى روايته « إذا ولدت الأمة بعلها » يعنى السرارى .

وقال حدثنى زهير بن حرب حدثنا جرير عن عمارة وهو ابن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : سلونى . فهابوه أن يسألوه . فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال : يارسول الله ماالإسلام ؟ قال لاتشرك بالله شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان . قال صدقت . قال يارسول الله ماالإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله . قال صدقت قال : يارسول الله ماالإحسان ؟ قال أن تخشى الله كأنك تراه ، فانك إلا تكن تراه فإنه يراك . قال صدقت . قال : يارسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ماالمسئول عنها بأعلم من السائل . وسأحدثك عن أشراطها : إذا رأيت الأمة تلد ربها فذاك من أشراطها ، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها . وإذا رأيت رعاء البهم يتطاولون فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس من الغيب لايعلمهن إلا الله ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) قال ثم قام الرجل فقال رسول الله ﷺ ردوه على ، فالتمس فلم يجدوه ، فقال رسول الله ﷺ : هذا جبريل أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا .

وأشار إليه الترمذى فى باب حديث ابن عمر عن عمر . ورواه ابن ماجه باسناد مسلم ولفظه إلى آخر الآية . ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل حدثنا أبو حيان عن أبى زرعة بن عمر بن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه إلخ وفيه « وإذا كانت العراة الحفاة الجفاة » .

الحديث به عنه وعن أبى ذر

وأما حديثه مع أبى ذر رضى الله عنهما فقال النسائى فى كتاب الإيمان من مجتبى سننه : صفة الإيمان والإسلام . أخبرنا محمد بن قدامة عن جرير عن أبى فروة عن أبى زرعة عن أبى

هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما قالا كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهرانى أصحابه فيجىء الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل ، فطلبنا إلى رسول الله ﷺ أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبنينا له دكانا من طين كان يجلس عليه ، وإنا لجلوس ورسول الله ﷺ فى مجلسه إذا أقبل رجل أحسن الناس وجهاً وأطيب الناس ريحاً كأن ثيابه لم يمسها دنس حتى سلم فى طرف البساط فقال : السلام عليك يامحمد ، فرد عليه السلام : أدنو يامحمد ؟ قال أدنه . فما زال يقول أدنو مراراً ويقول له أدن حتى وضع يده على ركبتى رسول الله ﷺ قال : يامحمد أخبرنى ماالإسلام.. قال الإسلام أن تعبد الله ولاتشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان قال إذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال نعم . قال صدقت فلما سمعنا قول الرجل « صدقت » أنكرنا . قال : يامحمد أخبرنى ماالإيمان . قال الإيمان بالله وملائكته والكتاب والنبيين وتؤمن بالقدر . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال رسول الله ﷺ نعم . قال صدقت . قال : يامحمد أخبرنى ماالإحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال صدقت . قال يامحمد أخبرنى متى الساعة . قال فنكس فلم يجبه شيئاً ، ثم أعاد فلم يجبه شيئاً ، ثم أعاد فلم يجبه شيئاً . ورفع رأسه فقال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن لها علامات تعرف بها : إذا رأيت الرعاء البهم يتطاولون فى البنيان ، ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض ، ورأيت الأمة تلد ربها فى خمس لايعلمها إلا الله (إن الله عنده علم الساعة — إلى قوله — إن الله عليم خبير) ثم قال : لا و الذى بعث محمداً بالحق هادياً وبشيراً ماكنت بأعلم به من رجل منكم . وإنه لجبريل نزل فى صورة دحية الكلبى رضى الله عنه .

وقال أبو داود فى باب القدر من كتاب السنة من سننه : حدثنا عثمان ابن أبى شيبة حدثنا جرير عن فروة عن أبى زرعة بن عمر بن جرير عن أبى ذر وأبى هريرة قالا كان رسول الله ﷺ الحديث . وفيه : فبنينا له دكانا من طين فجلس عليه . وكنا نجلس بجنبتيه . وذكر نحو هذا الخبر فأقبل رجل فذكر هيئته حتى سلم من طرف السماط فقال : السلام عليك يامحمد ، قال فرد عليه النبى ﷺ :

فحاصل طرق حديث أبى هريرة وحده ومع أبى ذر رضى الله عنهما أبو زرعة عن أبى هريرة وعنه أبو حيان وأبو فروة وعمارة بن القعقاع ، وعن أبى حيان إسماعيل بن إبراهيم بن علية

وجرير ومحمد بن بشر ، وعن إسماعيل مسدد وأبو بكر بن أبى شيبة وزهير بن حرب وأحمد بن حنبل ، وعن جرير إسحاق وزهير بن حرب ومحمد بن قدامة وعثمان بن أبى شيبة ، وعن محمد بن بشر محمد بن نمير ، وعن كل من عمارة وأبى فروة جرير . والله أعلم .

الحديث به عن ابن عباس

وأما حديث إبن عباس : فقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثنى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : جلس رسول الله ﷺ مجلساً فجاء جبريل عليه السلام فجلس بين يدى رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله حدثنى ماالإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تسلم وجهك لله وتشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله . قال : إذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد أسلمت . قال : يارسول الله فحدثنى ماالإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان وتؤمن بالقدر كله خيره وشره . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : إذا فعلت ذلك فقد آمنت . قال : يارسول الله حدثنى ماالإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه ، فانك إن لم تره فإنه يراكَ . قال : يارسول الله فحدثنى متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : سبحان الله فى خمس من الغيب لايعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الإرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ، قال أجل يارسول الله فحدثنى . قال رسول الله ﷺ : إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها . ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رءوس الناس فذاك من معالم الساعة وأشراطها قال : يارسول الله ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال العرب . وحسنه الحافظ العسقلانى .

الحديث به عن أبى عامر

وأما حديث أبى عامر فقال الإمام احمد أيضاً : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب قال : حدثنا عبد الله بن أبى حسين حدثنا شهر بن حوشب عن عامر أو أبى عامر أو أبى مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ بينما هو جالس فى مجلس فيه أصحابه جاءهجبريل عليه السلام

فى غير صورته يحسبه رجلا من المسلمين فسلم عليه فرد عليه السلام ، ثم وضع جبريل يده على ركبتى النبى ﷺ فذكر الحديث بنحو حديث عمر بن الخطاب . وفيه : فلما ولى أى السائل فلما نر طريقه بعد قال ، أى النبى ﷺ : سبحان الله ثلاثاً ، هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم . وحسنه الحافظ أيضاً وهو من مفردات أحمد رحمه الله تعالى . وأما الأحاديث التى قبله فقد خرجها غير من ذكرنا ، وإنما اقتصرنا على روايات الأمهات لشهرتها وفى الباب عن جماعة من الصحابة غير من ذكر ، منهم طلحة بن عبيد الله وأنس بن مالك وجرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنهم ، وسنذكر إن شاء الله تعالى ماتيسر من النصوص فى كل مسألة من مسائله عند ذكرها فى المتن ، فنقول وبالله التوفيق :

الإيمان قول وعمل

اعلم بأن الدين قول وعمل   فاحفظه وافهم ماعليه إذا اشتمل

(اعلم) ياأخى وفقنى الله وإياك والمسلمين (بأن الدين) الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، ورضيه لأهل سمواته وأرضه ، وأمر أن لايعبد إلا به ، ولايقبل من أحد سواه ، ولايرغب عنه إلا من سفه نفسه ، ولاأحسن دينا ممن التزمه واتبعه هو (قول) أى بالقلب واللسان (وعمل) أى بالقلب واللسان والجوارح ، فهذه أربعة أشياء جامعة لأمور دين الإسلام .

الأول : قول القلب وهو تصديقه وإيقانه . قال الله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) وقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وقال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) صدقوا ثم لم يشكوا . وفى حديث الدرجات العلى « بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . وقال تعالى (والذين يؤمنون بالغيب) . وقال تعالى (قالوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم) الآيات . وقال تعالى « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » وغير ذلك من الآيات . وفى حديث الشفاعة « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه من الخير مايزن شعيرة » الحديث . وفى

الحديث الآخر « فيقال انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان » ، ثم من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ثم من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان » ، وقال تعالى فى المكذبين « أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، وقال تعالى في المرتابين الشاكين « يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » ، وقال فيهم « يأأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » وقال تعالى فيهم « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، أى فى قولهم نشهد ، أى كذبوا ، إنهم لا يشهدون بذلك بقلوبهم ، إنما هو بألسنتهم تقية ونفاقا ومخادعة .

الثانى : قول اللسان وهو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والإقرار بلوازمها . قال الله « وقولوا آمنا » ، « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق » ، « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » ، وقال تعالى « إلا من شهد بالحق » ، « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، وقال ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » ، ومافى معناه مما سنذكر ومما لا نذكر .

الثالث : عمل القلب ، وهو النية والاخلاص والمحبة والانقياد والاقبال على الله عز وجل والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه ، قال الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » ، « وما لاحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربك الأعلى » ، (إنما نطعمكم لوجه الله » ، « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » ، « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم خاشعون » ، « الله أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، وقال تعالى « ألا لله الدين الخالص — وما أمرونا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين — قل الله أعبد مخلصا له دينى » ، وقال تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله — يحبهم ويحبونه — قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله — ولكن الله حبَّب إليكم الايمان وزيَّنه فى قلوبكم وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) ، وقال تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ، « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك

بالعروة الوثقى) ، (فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين) ، (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) ، وقال النبى ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » وقال ﷺ « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » . وقد تقدم جمله من نصوص الإخلاص فى الكلام على لاإله إلا الله ، وتقدم هناك بيانه وماينافيه من الشرك الأكبر ومايناق كماله من الشرك الأصغر ، وقال ﷺ « أحبوا الله من كل قلوبكم » وقال ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » الحديث ، وقال ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحبَ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . وكان ﷺ يقول « اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنى إلى حبك » . وقال ﷺ « اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين » . وقال ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » وهذا غاية الانقياد إذا لم يكن له هوى غير ماجاء به الرسول ﷺ . وقد تقدمت النصوص فى التوكل والخوف والرجاء والخشية والخضوع وغير ذلك من أعمال القلوب .

الرابع : عمل اللسان والجوارح ، فعمل اللسان مالايؤدى إلا به كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار وغير ذلك ، وعمل الجوارح مالايؤدى إلا بها مثل القيام والركوع والسجود والمشى فى مرضاة الله كنقل الخطا إلى المساجد وإلى الحج والجهاد فى سبيل الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك مما يشمله حديث شعب الإيمان . قال الله تعالى (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) الآيات ، وقال تعالى (واتل ماأوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته) ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا) ، وقال تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين) الآيات وقال تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) وقال تعالى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا) وهى « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم » .

وقال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) الآيات ، وقال تعالى (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) ، وقال تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) الآيات وقال تعالى (وقوموا لله قانتين) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا فى الله حق جهاده) الآيات . وقال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما) الآيات . وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وإنما المقصود تقرير هذه الأمور من أصول الدين ، فإذا حققت هذه الأمور الأربعة تحقيقاً بالغاً وعرفت مايراد بها معرفة تامة وفهمت فهماً واضحاً ثم أمعنت النظر فى أضدادها ونواقضها تبين لك أن أنواع الكفر لاتخرج عن أربعة كفر جهل وتكذيب وكفر جحود وكفر عناد واستكبار ، وكفر نفاق . فأحدها يخرج عن الملة بالكلية ، وإن اجتمعت فى شخص فظلمات بعضها فوق بعض والعياذ بالله من ذلك ، لأنها إما أن تنتفى هذه الأمور كلها — قول القلب وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح — أو ينتفى بعضها ، فإن انتفت كلها اجتمع أنواع الكفر غير النفاق ، قال الله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) . وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفر الجهل والتكذيب ، قال الله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله) وقال تعالى (أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون) . وإن كتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجحود والكتمان ، قال الله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وقال تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) . وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة فكفر نفاق سواء وجد التصديق

المطلق أو انتفى وسواء انتفى بتكذيب أو شك ، قال الله تعالَى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ـــ إلى قوله ـــ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) . وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار ، ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه أمثال حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وغيرهم ، وكفر من ترك الصلاة عناداً واستكباراً ، ومحال أن ينتفى انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب ، قال النبى ﷺ « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » ، ومن هنا يتبين لك أن من قال من أهل السنة فى الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة أنهم إنما عنوا التصديق الإذعانى المستلزم للانقياد ظاهراً وباطناً بلاشك ، لم يعنوا مجرد التصديق ، فإن إبليس لم يكذب فى أمر الله تعالى له بالسجود وإنما أبى عن الانقياد كفراً واستكباراً ، واليهود كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ ولم يتبعوه ، وفرعون كان يعتقد صدق موسى ولم ينقذ بل جحد بآيات الله ظلماً وعلواً ، فأين هذا من تصديق من قال الله تعالى فيه (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) الآيات . وأين تصديق من قال الله تعالى فيهم (وقالوا سمعنا وعصينا ـــ وقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) من تصديق من قالوا (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) والله الموفق .

كفاك ماقد قاله الرسول	إذ جاءه يسأله جبريل
على مراتب ثلاث فصله	جاءت على جميعه مشتمله
الإسلام والإيمان والإحسان	والكل مبنى على أركان

(كفاك) أيها الطالب الحق (ماقد قاله الرسول) محمد ﷺ (إذ) حين (جاءه يسأله) عن مراتب الدين وشرائعه (جبريل) عليه السلام كما فى الأحاديث السابقة عن جماعة من الصحابة (على مراتب ثلاث فصله) فى تلك الأجوبة الصريحة (جاءت) أى الثلاث المراتب (على جميعه) أى على جميع الدين (مشتمله) ولهذا سمى النبى ﷺ تلك الأمور « الدين » فقال « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

(الإسلام) بالخفض بدل مفصل من مجمل مراتب ، ويقال له بدل بعض من كل ، ومابعده معطوفان عليه . هذه هى المرتبة الأولى فى حديث عمر وماوافق لفظه . والإسلام

لغة : الانقياد والإذعان ، وأما فى الشريعة فلاطلاقه حالتان : (الحالة الأُولى) أن يطلق على الأفراد غير مقترن بذكر الإيمان ، فهو حينئذ يراد به الدين كله أصوله وفروعه من اعتقاداته وأقواله وأفعاله ، كقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وقوله تعالى (ورضيت لكم الإسلام دينا) وقوله (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) وقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) أى فى كافة شرائعه ، ونحو ذلك من الآيات . وكقوله ﷺ لما سأله معاوية بن حيدة : ماالإسلام ؟ قال « أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت » الحديث ، وفى حديث عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله ماالإسلام ؟ قال « أن يسلم قلبك لله عز وجل ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال « الإيمان » قال : وماالإيمان ؟ قال : « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت » فجعل ﷺ الإيمان من الإسلام وهو أفضله ، وقوله ﷺ « إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله له كل حسنة كان أزلفها ، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها » الحديث . فإن الانقياد ظاهراً بدون إيمان لايكون حسن إسلام بل هو النفاق ، فكيف تكتب له حسنات أو تمحى عنه سيئات ؟ ونحو ذلك من الأحاديث . (الحالة الثانية) أن يطلق مقترناً بالاعتقاد ، فهو حينئذ يراد به الأعمال والأقوال الظاهرة كقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) الآية ، وكقوله ﷺ لما قال له سعيد رضى الله عنه : مالك عن فلان ، فو الله إنى لأراه مؤمنا : فقال ﷺ « أومسلم » يعنى أنك لم تطلع على إيمانه ، وإنما اطلعت على إسلامه من الأعمال الظاهرة . وفى رواية النسائى « لاتقل مؤمن وقل مسلم » ، وكحديث عمر هذا ، وغير ذلك من الآيات والأحاديث .

(والإيمان) هذه المرتبة الثانية فى الحديث المذكور ، والإيمان لغة التصديق قال إخوة يوسف لأبيهم (وماأنت بمؤمن لنا) يقول بمصدق ، وأما فى الشريعة فلاطلاقه حالتان : (الحالة الأولى) أن يطلق على الإفراد غير مقترن بذكر الإسلام فحينئذ يراد به الدين كله ، كقوله عز وجل (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وقوله (والله ولى المؤمنين) وقوله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) وقوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) وقوله ﷺ « لاتدخل الجنة إلا نفس مؤمنة » . ولهذا حصر الله الإيمان فيمن التزم الدين كله باطناً وظاهراً فى قوله عز وجل (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وعلى

ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وقوله عز وجل (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) وقوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون . تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وفسرهم بمن اتصف بذلك كله فى قوله عز وجل (الم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وفى قوله عز وجل (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) وفى قوله عز وجل (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنايؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) وفى قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وفى قوله عز وجل (طس . تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرىللمؤمنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبالآخرة هم يوقنون) وغيرها من الآيات . وقد فسر الله تعالى « الإيمان » بذلك كله فى قوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا

عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) . وروى ابن أبى حاتم أن أبا ذر سأل النبى ﷺ : ماالإيمان ؟ فتلا عليه رسول الله ﷺ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) إلى آخر الآية . ثم سأله أيضاً ، فتلاها عليه ، ثم سأله فقال « إذا عملت حسنة أحبها قلبك ، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك » رواه المسعودى بنحوه ، وفسره النبى ﷺ بذلك كله فى حديث وفد عبد القيس فى الصحيحين وغيرهما فقال « آمركم بالإيمان بالله وحده » قال « أتدرون ماالإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تؤدوا من المغنم الخمس » وقد جعل ﷺ قيام رمضان إيماناً واحتساباً من الإيمان ، وكذا قيام ليلة القدر ، وكذا أداء الأمانة ، وكذا الجهاد والحج واتباع الجنائز . وغير ذلك . وفى الصحيحين « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول لاإله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ، وهذه الشعب المذكورة قد جاءت فى القرآن والسنة فى مواضع متفرقة ، منها ماهو من قول القلب وعمله ، ومنها ماهو من قول اللسان ، ومنها ماهو من عمل الجوارح . ولما كانت الصلاة جامعة لقول القلب وعمله وقول اللسان وعمله وعمل الجوارح سماها الله تعالى إيماناً فى قول الله عز وجل (وماكان الله ليضيع إيمانكم) يعنى صلاتكم كما يعلم من سبب نزول الآية ، وروى سعيد بن منصور عن عبد الرحمن ابن يزيد : كنا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد ﷺ وماسبقونا به ، فقال عبد الله : إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه ، والذى لا إله غيره ماآمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بالغيب ، ثم قرأ (ألم . ذلك الكتاب — إلى قوله — المفلحون) والآيات والأحاديث فى هذا الباب يطول ذكرها . وإنما أشرنا إلى طرف منها يدل على ماوراءه وبالله التوفيق . وهذا المعنى هو الذى قصده السلف الصالح بقولهم رحمهم الله تعالى : إن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، وإن الأعمال كلها داخلة فى مسمى الإيمان . وحكى الشافعى على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم . وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الايمان إنكاراً شديداً ، وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولا محدثاً ممن سمى لنا سعيد ابن جبير ، وميمون بن مهران ، وقتادة ، وأيوب السختيانى ، والنخعى، والزهرى ، وإبراهيم ، ويحيى بن أبى كثير ، والثورى ، والأوزاعى ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم . قال الثورى : هو رأى محدث ، أدركنا الناس على غيره . وقال الأوزاعى : كان من مضى من السلف لايفرقون بين العمل والإيمان . وكتب عمر بن

عبد العزيز إلى الأمصار : أما بعد فان الإيمان فرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان . وهذا المعنى هو الذى أراد البخارى إثباته فى كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها فقال : « باب أمور الإيمان » و « باب الصلاة من الإيمان » و « باب الزكاة من الإيمان » و « باب الجهاد من الإيمان » و « باب حب الرسول ﷺ من الإيمان » و « باب الحياء من الإيمان » و « باب قيام ليلة القدر من الإيمان » و « باب قيام رمضان من الإيمان » و « باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان » و « باب اتباع الجنائز من الإيمان » و « باب أداء الخمس من الإيمان » وسائر أبوابه ، وكذلك صنع النسائى فى المجتبى ، وبوب الترمذى على حديث وفد عبد القيس « باب ماجاء فى إضافة الفرائض إلى الإيمان » وكلام أئمة الحديث وتراجمهم فى كتبهم يطول ذكره وهو معلوم مشهور ، ومما قصدوه بذلك الرد على أهل البدع ممن قال هو مجرد التصديق فقط كابن الراوندى ومن وافقه من المعتزلة وغيرهم ، إذ على هذا القول يكون اليهود الذين أقروا برسالة محمد ﷺ واستيقنوها ولم يتبعوه مؤمنين بذلك ، وقد نفى الله الإيمان عنهم ، وقال جهم بن صفوان وأتباعه : هو المعرفة بالله فقط . وعلى هذا القول ليس على وجه الأرض كافر بالكلية ، إذ لايجهل الخالق سبحانه أحد . وماأحسن ماقاله العلامة ابن القيم رحمه الله فى نونيته الكافية الشافية :

قالــوا وإقــرار العبــاد بأنــه	خلاقهــــم هو منتهى الإيمان
والنـاس فى الإيمان شيء واحــد	كالمشط عند تماثــل الأسنان
فاسأل أبـا جهـل وشيعتـه ومـن	والاهمو من عابــدى الأوثـــان
وسل اليهود وكل أقلــف مشرك	عبـد المسيح مقبـل الصلبــان
وأسأل ثمود وعاد بل سل قبلهـم	أعــداء نوح أمــة الطوفـــان
واسأل أبـا الجن اللعين أتعرف	الخلاق أم أصبحت ذا نكـران
واسأل شرار الخلـق أقبـح أمــة	لوطيـة هم ناكحــو الذكــران
واسأل كذاك إمـام كل معطـل	فرعــون مع قارون مع هامـــان
هل كان فيهم منكـر للخالـــق	الرب العـظيم مكـون الأكـوان
فليبشروا مافيهمــو من كافــر	هم عنـد جهـم كاملـو الإيمان

وقالت المرجئة والكرامية : الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب ، فيكون المنافقون

على هذا مؤمنين ، وقد قال تعالى فيهم (ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ــ إلى قوله ــ وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وغير ذلك من الآيات ، وهم قد نطقوا بالشهادتين بألسنتهم فقط وكذبهم الله عز وجل فى دعواهم فى غير موضع من القرآن : وقال آخرون : التصديق بالجنان والاقرار باللسان . وهذا القول مخرج لأركان الإسلام الظاهرة المذكورة فى حديث جبريل ، وهو ظاهر البطلان . وذهب الخوارج والعلاف ومن وافقهم إلى أنه الطاعة بأسرها فرضاً كانت أو نقلا ، وهذا القول مصادم لتعليم النبى ﷺ لوفود العرب السائلين عن الإسلام والإيمان . وكل مايقول له السائل فى فريضة : هل على غيرها ؟ قال « لا ، إلا أن تطوع شيئاً » . وذهب الجبائى وأكثر المعتزلة البصرية إلى أنه الطاعات المفروضة من الأفعال والتروك دون النوافل . وهذا أيضاً يدخل المنافقين فى الإيمان وقد نفاه الله عنهم . وقال الباقون منهم : العمل والنطق والاعتقاد . والفرق بين هذا وبين قول السلف الصالح أن السلف لم يجعلوا كل الأعمال شرطا فى الصحة ، بل جعلوا كثيراً منها شرطاً فى الكمال كما قال عمر بن عبد العزيز فيها : من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، والمعتزلة جعلوها كلها شرطاً فى الصحة . والله أعلم .

و (الحالة الثانية) أن يطلق الإيمان مقروناً بالإسلام ، وحينئذ يفسر بالاعتقادات الباطنة كما فى حديث جبريل هذا ومافى معناه ، وكما فى قول الله عز وجل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فى غير ما موضع من كتابه ، وكما فى قول النبى ﷺ فى دعاء الجنازة « اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان » وذلك أن الأعمال بالجوارح وإنما يتمكن منها فى الحياة فأما عند الموت فلا يبقى غير قول القلب وعمله . وكحديث أنس عند أحمد عن النبى ﷺ قال « الإسلام علانية ، والإيمان فى القلب » . والحاصل أنه إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ ، بل كل منهما على انفراده يشمل الدين كله ، وإن فرق بين الاسمين كان الفرق بينهما بما فى هذا الحديث الجليل ، والمجموع مع الإحسان هو الدين كما سمى النبى ﷺ ذلك كله دينا ، وبهذا يحصل الجمع بين هذا الحديث وبين الأحاديث التى فيها تفسير الإيمان بالإسلام والإسلام بالإيمان ، وبذلك جمع بينه وبينها أهل العلم . قال ابن رجب رحمه الله : وأما وجه الجمع بين هذا النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان

وتفريق النبى ﷺ بينهما وإدخاله الأعمال فى مسمى الإسلام دون الإيمان فأنه يتضح بتقرير أصل ، وهو أن من الأسماء مايكون شاملا لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالا على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دالا على باقيها وهذا كاسم الفقير والمسكين فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج ، فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الأسمين على بعض أنواع ذوى الحاجات والآخر على باقيها ، فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ودل بانفراده على مايدل عليه الآخر بانفراده ، فإذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض مايدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقى . قال : وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة . قال أبو بكر الاسماعيلى فى رسالته إلى أهل الجبل : قال كثير من أهل السنة والجماعة إن الإيمان قول وعمل ، والإسلام فعل مافرض الله تعالى على الإنسان أن يفعله إذا ذكر كل اسم على حدته مضموماً إلى الآخر ، فقيل المؤمنون والمسلمون جميعاً مفردين أريد بأحدهما معنى لم يرد به الآخر ، وإذ ذكر أحد الاسمين شمل الكل وعمهم . وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الخطابى فى كتابه معالم السنن وتبعه عليه جماعة من العلماء من بعده . قلت : كلام الخطابى الذى أشار إليه ابن رجب ذكره النووى فى شرح مسلم قال : قال الإمام أبو سليمان أحمد ابن محمد بن إبراهيم الخطابى البستى الفقيه الأديب الشافعى المحقق رحمه الله تعالى فى كتابه معالم السنن : ماأكثر مايغلط الناس فى هذه المسألة ، فأما الزهرى فقال : الإسلام الكلمة ، والإيمان العمل . واحتج بالآية يعنى قوله عز وجل (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شىء واحد واحتج بقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) قال الخطابى : وقد تكلم فى هذا الباب رجلان من كبراء أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى قول من هذين ، ورد الآخر منهما على المتقدم وصنف كتاباً يبلغ عدد أوراقه المئين . قال الخطابى : والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام فى هذا ولايطلق ، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمناً فى بعض الأحوال ولايكون مؤمنا فى بعضها ، والمؤمن مسلم فى جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . وإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شىء منها . وأصل الإيمان التصديق ، وأصل الإسلام الإستسلام والانقياد ، فقد يكون المرء مستسلماً فى الظاهر غير منقاد فى الباطن وقد يكون مصدقاً فى الباطن غير منقاد فى الظاهر . قلت مارواه الخطابى عن الزهرى أنه قال :

الإسلام الكلمة ، والإيمان العمل ، هذا عندى فيه نظر ، فإنه غير قيم المبنى ولاواضح المعنى ، والزهرى إمام عظيم من كبار حملة الشريعة لايجهل مثل هذا وليس هذه العبارة محفوظة عنه من وجه يصح بهذه الحروف ، فإن صح النقل عنه ففى الكلام تصحيف واسقاط لعل الصواب فيه هكذا : الإسلام الكلمة والإيمان والعمل ، فسقطت الواو العاطفة للعمل على الإيمان ، وهذا متعين لموافقته قول أهل السنة قاطبة أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل . والزهرى من أكبر أئمتهم وقد تقدم قوله معهم فيما روى الشافعى عنهم رحمهم الله تعالى ، ويكون عنى بالإسلام الدين كله كما عنى غيره بالإيمان الدين كله ، ومما يدل على ذلك استدلاله بالآية المذكورة فإنه لايستقيم إلا على هذا ولايستقيم على معنى الأول لأهمال الاعتقاد فيه الموجود فى قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) الآية . وأما قوله : وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شىء واحد . فهذا إذا أراد بذلك الغير من أهل السنة فهم لم يجعلوهما شيئاً واحداً إلا عند الانفراد وعدم الاقتران لشمول أحدهما معنى الآخر منه كما قدمنا ، وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ففرقوا بينهما بما فرق به الرسول ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام . وإن أراد من أهل البدع فاطلاق التسوية بينهما والاتحاد فى كل حال من الأحوال هو رأى المعتزلة ، وهم المحتجون على ذلك بأيتى الذاريات وهو احتجاج ضعيف جداً ، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين وعند أهل السنة أن كل مؤمن مسلم ولاينعكس فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولايلزم ذلك فى كل حال والله أعلم . وقال الخطابى رحمه الله أيضاً فى قول النبى ﷺ « الإيمان بضع وسبعون شعبة » : فى هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعى اسم لمعنى ذى شعب وأجزاء ، لها أعلى وأدنى ، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها ، والحقيقة تقتضى لجميع شعبه وتستوفى جملة أجزائه ، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء والاسم يتعلق ببعضها ، والحقيقة تقتضى جميع أجزائها وتستوفيها ، ويدل عليه قوله ﷺ « الحياء شعبة من الإيمان » وفيه اثبات التفاضل فى الإيمان وتباين المؤمنين فى درجاته . انتهى . وماأحسن ماقال الإمام أبو محمد الحسين ابن مسعود البغوى الشافعى رحمه الله تعالى فى تفسير سورة البقرة لما ذكر هذا الحديث عند قوله عز وجل (الذين يؤمنون بالغيب) الآيات ، قال : فالنبى ﷺ جعل الإسلام فى هذا الحديث اسماً لما ظهر من الأعمال ، والإيمان اسماً لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام ، بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شىء واحد وجماعها الدين ، ولذلك قال « ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » انتهى وقال

الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالى : قوله ﷺ « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : هذا بيان لأصل الإيمان ، وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، وحكم الإسلام فى الظاهر يثبت بالشهادتين ، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والصوم والحج لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيامها به يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله . ثم إن اسم الإيمان يتناول مافسر به الإسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذى هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات ولهذا فسر ﷺ الإيمان فى حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم ، ولهذا لايقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة لأن اسم الشيء مطلقاً يقع على الكل منه ، ولايستعمل فى الناقص ظاهراً إلا بقيد ، ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه فى قوله ﷺ « لايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » واسم الإسلام يتناول أيضاً ماهو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ، ويتناول أصل الطاعات ، فإن ذلك كله استسلام ، قال : فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان ، وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً . قال : وهذا تحقيق واف بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة فى الإيمان والإسلام التى طال ماغلط فيها الخائضون ، وما حققناه من ذلك موافق لمذهب جماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم . انتهى . وقال ابن رجب الحنبلى رحمه الله تعالى فى الكلام على هذا الحديث : قد تقدم أن الأعمال تدخل فى مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضاً ، وذكرنا مايدخل فى ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة ، ويدخل فى مسماها أيضاً أعمال الجوارح الباطنة فيدخل فى أعمال الإسلام إخلاص الدين لله تعالى والنصح له ولعباده وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد وتوابع ذلك من أنواع الأذى ، ويدخل فى مسمى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله عز وجل ، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه ، وزيادة الإيمان بذلك وتحقيق التوكل على الله عز وجل وخوف الله سراً وعلانية ، والرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولا ، واختيار تلف النفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر ، واستشعار قرب الله من العبد ودوام استحضاره ، وإيثار محبة الله ورسوله على محبة ماسواهما ، والحب فى الله والبغض فيه والعطاء له والمنع له ، وأن يكون

جميع الحركات والسكنات ، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدنية ، والاستبشار بعمل الحسنات والفرح بها والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها ، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم ، وكثرة الحياء وحسن الخلق ، ومحبة مايحبه لنفسه لإخوانه المؤمنين ، ومواساة المؤمنين خصوصاً الجيران ومعاضدة المؤمنين ومناصرتهم والحزن بما يحزنهم . ثم ساق من النصوص فى ذلك جملة وافية . قال : والرضا بربوبية الله تعالى تتضمن الرضا بعبادته وحده لاشريك له ، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له ، والرضا بالإسلام ديناً يتضمن اختياره على سائر الأديان ، والرضا بمحمد ﷺ رسولا يتضمن الرضا بجميع ماجاء به من عند الله وقبول ذلك بالتسليم والانشراح ، كما قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) انتهى . ونصوص الكتاب والسنة وأقوال أئمة الدين — سلفاً وخلفاً — فى هذا الباب يطول ذكرها .

ثم أعلم يأخى أرشدنا الله وإياك أن التزام الدين الذى يكون به النجاة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وبه يفوز العبد بالجنة ويزحزح عن النار إنما هو ماكان على الحقيقة فى كل ماذكر فى حديث جبريل ومافى معناه من الآيات والأحاديث . ومالم يكن منه على الحقيقة ولم يظهر منه مايناقضه أجريت عليه أحكام المسلمين فى الدنيا ووكلت سريرته إلى الله تعالى . قال الله عز وجل (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وفى الآية الأخرى (فاخوانكم فى الدين) وغيرها من الآيات ، وقال رسول الله ﷺ لأسامة فى قتله الجهنى بعد أن قال لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ « أقال لاإله إلا الله وقتلته » قال قلت : يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح . قال « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا » ، الحديث بطوله فى الصحيحين من طرق بألفاظ . وفى بعضها : فقال يارسول الله استغفر لى ، قال « وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة » . ولما أن استأذنه عمر رضى الله عنه فى قتل الرجل الذى انتقد عليه حكمه ﷺ فى قسمه الذهبية قال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » ، وقال له خالد بن الوليد رضى الله عنه فيه : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال « لعله أن يكون يصلى » قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ماليس فى قلبه . فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولاأشق بطونهم » الحديث فى الصحيحين أيضاً من طرق بالفاظ . وفى صحيح البخارى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم عند الله عز وجل » وفى رواية عن أنس نفسه وله حكم المرفوع — بل قد رفعه النسائى كما سيأتى — « من شهد أن لاإله إلا الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم ، له ماللمسلم وعليه ماعلى المسلم » ، ورواه أبو داود فى الجهاد بلفظ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن يستقبلوا قبلتنا وأن يأكلوا ذبيحتنا وأن يصلوا صلاتنا ، فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين » وفى رواية « أمرت أن أقاتل المشركين » بمعناه . ورواه النسائى فى تحريم الدم ولفظه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم » . وفيه قول ميمون بن سياه لأنس بن مالك . ياأبا حمزة مايحرم دم المسلم وماله ؟ فقال : من شهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فهو مسلم له ماللمسلمين وعليه ماعلى المسلمين . ورفعه فى كتاب الإيمان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم » ورواه الترمذى أيضاً . وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل » وفى موطأ مالك ومسند أحمد بسند جيد : عن عبيد الله بن عدى بن الخيار « أن رجلا من الأنصار حدثه أنه أتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلس فساره يستأذنه فى قتل رجل من المنافقين ، فجهر رسول الله ﷺ فقال : أليس يشهد أن لاإله إلا الله ؟ فقال الأنصارى : بلى يارسول الله ، ولاشهادة له . قال رسول الله ﷺ : أليس يشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : بلى يارسول الله . قال : أليس يصلى ؟ قال : بلى يارسول الله ولاصلاة له . فقال رسول الله ﷺ : أولئك الذين نهانى الله عن قتلهم » . وفى الباب عن جماعة من الصحابة أحاديث من الصحاح والحسان وفيما ذكرنا كفاية . وأمر الله رسوله ﷺ فى القرآن بالإعراض عن المنافقين فى غير ماموضع مع إخباره بصفاتهم وتعريفه بسيماهم وعلاماتهم ، ولم يقتل النبى ﷺ أحدا

منهم ، وأجرى عليهم فى الدنيا أحكام المسلمين الظاهرة ، وكانوا يخرجون معه للحج والجهاد والصلاة وغير ذلك ويقيم الحدود عليهم ، غير أنه نهى عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم ، والله أعلم .

(والاحسان) هذه المرتبة الثالثة من مراتب الدين فى هذا الحديث . والاحسان لغة إجادة العمل وإتقانه وإخلاصه . وفى الشريعة هو مافسره النبى ﷺ بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تك تراه فإنه يراك » وسيأتى إن شاء الله تعالى بحثه والنصوص فيه عند ذكره فى آخر هذا الفصل ، والمقصود أنه ﷺ فسر الإسلام هنا بالأقوال والأعمال الظاهرة ، وفسر الإيمان بالأقوال والأعمال الباطنة ، والاحسان هو تحسين الظاهر والباطن ، ومجموع ذلك هو الدين ، والكل من هذه المراتب (مبنى على أركان) لاقوام له إلا بقيامها ، وسنتكلم على كل منها إجمالا وتفصيلا ، ونحيل ماقدم بيانه منها على موضعه إن شاء الله .

فقد أتى الإسلام مبنياً على	خمس فحقق وادر ماقد نقلا
أولها الركن الأساس الأعظم	وهو الصراط المستقيم الاقوم
ركن الشهادتين فاثبت واعتصم	بالعروة الوثقى التى لاتنفصم
وثانيا إقامة الصلاة	وثالثا تأدية الزكاة
والرابع الصيام فاسمع واتبع	والخامس الحج على من يستطع

وهذه أركان المرتبة الأولى مرتبة الإسلام ، وهى على قسمين : قولية ، وعملية . فالقولية الشهادتان ، والعملية الباقى . وهى ثلاثة أقسام : بدنية وهى الصلاة والصوم ، ومالية وهى الزكاة ، وبدنية مالية وهو الحج . وقول القلب وعمله شرط فى ذلك كله كما تقدم . والنصوص فى هذه الأمور الخمسة كثيرة جداً ، وهى على نوعين : قسم شامل لجميعها ، وقسم يخص كل خصلة منها . فلنبدأ بالقسم الأول ماتيسر منه على حدته . والقسم الثانى مع حل ألفاظ المتن إن شاء الله تعالى ، فمن ذلك حديث جبريل السابق ذكره عن الجم الغفير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، ومنها حديث وفد عبد القيس وقد تقدم أيضاً ، ومنها حديث ابن عمر رضى الله عنهما فى الصحيحين وغيرهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » فقال له رجل : والجهاد فى

سبيل الله ؟ فقال ابن عمر : الجهاد حسن هكذا حدثنا رسول الله ﷺ ، ومنها حديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه عند أحمد وغيره قال : قال رسول الله ﷺ « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » وإسناده صحيح . ومن ذلك حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال « كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يامحمد ، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك . قال ﷺ : صدق . قال فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال فمن خلق الأرض ؟ قال : الله . قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ماجعل ؟ قال : الله . قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال ﷺ : نعم . قال : فزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال ﷺ : صدق . قال : فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قال وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا. قال ﷺ نعم صدق . قال فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال ﷺ نعم . قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال ﷺ صدق . قال ثم ولى فقال : والذى بعثك بالحق نبياً لاأزيد عليهن شيئاً ولاأنقص منهن شيئاً . فقال النبى ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة » رواه الجماعة وهذا لفظ أحمد . وفى رواية قال « أمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائى من قومى » قال « وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » . وفى الصحيحين وغيرهما عن طلحة بن عبيد الله « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال : يارسول الله أخبرنى ماذا فرض الله على من الصلاة ؟ فقال : الصلوات الخمس ، إلا أن تطوع شيئاً . فقال أخبرنى مافرض الله على من الصيام . فقال : شهر رمضان ، إلا أن تطوع شيئاً . فقال أخبرنى بما فرض الله على من الزكاة . قال فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام . قال : والذى أكرمك لاأتطوع شيئاً ولاأنقص مما فرض الله على شيئاً . فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق . أو دخل الجنة إن صدق » هذا لفظ البخارى فى كتاب الصوم ، وله عن أبى أيوب رضى الله عنه « إن رجلا قال للنبى ﷺ أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال ماله ماله » . وقال النبى ﷺ « أرب ماله ، تعبد الله ولاتشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم » ورواه مسلم وغيره . ولهما عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ، قال : تعبد

الله لاتشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال والذى نفسى بيده لاأزيد على هذا . فلما ولى قال النبى ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » . وفى حديث ابن المنتفق رضى الله عنه فى وفادته على رسول الله ﷺ قال « قلت ثنتان أسالك عنهما : ماينجنى من النار ومايدخلنى الجنة ؟ قال فنظر رسول الله ﷺ إلى السماء ثم نكس رأسه ثم أقبل على بوجهه قال : لئن كنت أوجزت فى المسألة لقد أعظمت وأطولت فاعقل عنى إذا ، اعبد الله لاتشرك به شيئاً وأقم الصلاة المكتوبة وأد الزكاة المفروضة وصم رمضان ، وماتحب أن يفعله بك الناس فافعل بهم وماتكره أن يأتى إليك الناس فذر الناس منه » رواه أحمد . وفى رواية « لئن كنت قصرت فى الخطبة لقد أبلغت فى المسألة ، اتق الله لاتشرك بالله شيئاً وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان » ولعل ابن المنتفق هذا هو الرجل المبهم فى رواية أبى أيوب المتقدمة فى الصحيح فإن فى مسلم أن ذلك الرجل أخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ أو بزمامها ، وفى آخرها قول النبى ﷺ دع الناقة بعد أن علمه . وابن المنتفق قال فأخذت بخطام راحلة رسول الله ﷺ أو قال زمامها ، وفى آخره قال ﷺ « خل سبيل الراحلة » . وفى الرواية الأخرى « خل طريق الركاب » فيشبه أن يكون هو صاحب القصة وقد حفظ الصوم والحج زيادة على مافى حديث أبى أيوب ورجاله رجال الصحيح ، وهو السائل ، أعلم بجواب النبى ﷺ وأوعى له وأحفظ له وأضبط من غيره . والله أعلم .

وعن ربعى بن حراش عن رجل من بنى عامر رضى الله عنه أنه أستأذن على النبى ﷺ فقال : ألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه « اخرجى إليه فإنه لايحسن الاستئذان فقولى له فليقل السلام عليكم ، أأدخل » قال فسمعته يقول ذلك فقلت : السلام عليكم أأدخل ؟ قال فأذن لى ، أو قال فدخلت فقلت : بم أتيتنا به ، قال لم آتكم إلا بخير . أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لاشريك له . قال شعبة : وأحسبه قال وحده لاشريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم . قال فقال : فهل بقى من العلم شىء لاتعلمته ؟ قال قد علمنى الله عز وجل خيراً وإن من العلم مالايعلمه إلا الله عز وجل (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) رواه أحمد ورجاله ثقات أئمة . وروى أبو داود طرفاً منه .

وعن السدوسى بن الخصاصية رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ لأبايعه ، فاشترط على شهادة أن لاإله الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدى الزكاة ، وأن أحج حجة الإسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد فى سبيل الله . فقلت : يارسول الله أما اثنتان فو الله ماأطيقهما : الجهاد والصدقة ، فإنهم زعموا أن من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله ، فأخاف إن حضرت تلك جشعت نفسى وكرهت الموت ، والصدقة فو الله مالى إلا غنيمة وعشر ذودهن رسل أهلى وحمولتهم . قال فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال : فلا جهاد ولا صدقة ، فلم تدخل الجنة إذاً ؟ قال قلت : يارسول الله أنا أبايعك ؟ قال فبايعت عليهن كلهن » .

وعن زياد بن نعيم الحضرمى قال : قال رسول الله ﷺ « أربع فرضهن الله فى الإسلام ، فمن جاء بثلاث لم يغنين عنه شيئاً حتى يأتى بهن جميعاً : الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان وحج البيت » . رواه أحمد مرسلا فى الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة لايخفى .

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا ، فقال رسول الله ﷺ « كأن هذا الراكب إياكم يريد » قال فانتهى الرجل إلينا فسلم فرددنا عليه ، فقال له النبى ﷺ « من أين أقبلت ؟ فقال : من أهلى وولدى وعشيرتى ، قال « فأين تريد ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ . قال « فقد أصبته » قال : يارسول الله علمنى ماالإيمان ؟ قال « تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : قد أقررت . قال ثم إن بعيره دخلت يده فى شبكة جرذان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ « على بالرجل » فوثب إليه عمار ابن ياسر وحذيفة فأقعداه فقالا : يارسول الله قبض الرجل . قال فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ « أما رأيتما إعراضى عن الرجل ، فإنى رأيت ملكين يدسان فى فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أنه مات جائعاً » ثم قال رسول الله ﷺ « هذا والله من الذين قال الله تعالى فيهم (الذين آمنوا ولم يلبسوا أيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ثم قال ﷺ : دونكم أخاكم » قال فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ ، الحديث ، رواه أحمد ، وفى إسناده أبو جناب مختلف عليه ، والمتن صحيح . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة يطول استقصاؤها وفيما ذكرنا كفاية .

الشهادتان

(أولهما) أو أول هذه الأركان (الركن الأساس الأعظم) . الركن فى اللغة الجانب الأقوى وهو بحسب مايطلق فيه كركن البناء وركن القوم ونحو ذلك ، فمن الأركان مالايتم البناء إلا به ، ومنها مالايقوم بالكلية إلا به ، وإنما قيل لهذه الخمسة الأمور أركان ودعائم لقوله ﷺ « بنى الإسلام على خمس » فشبهه بالبنيان المركب على خمس دعائم ، وهذا الركن هو أصل الأركان الباقية ولهذا قلنا (الأساس) الذى لايقوم البناء إلا عليه ولايمكن إلا به ولايحصل بدونه . (الأعظم) هذه الصيغة مشعرة بتعظيم بقية الأركان وإنما هذا أعظمها ، فإنها كلها تابعة له ، ولايدخل العبد . فى شيء من الشريعة إلا به . (وهو الصراط) الطريق الواضح (المستقيم) الذي لااعوجاج فيه ولاغبار عليه بل هو معتدل جلى نير . (الأقوم) أى الأعدل ، من سلكه أوصله إلى جنات النعيم ، ومن انحرف عنه هوى فى قعر الجحيم . فإن مات من لم يثبت عليه فى الدنيا لم يثبت على جسر جهنم يوم القيامة ، وذلك الركن المشار إليه هو (ركن الشهادتين) هذا من إضافة الشيء إلى نفسه أى الركن الذى هو الشهادتين ، وهما شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، فلا يدخل العبد فى الإسلام إلا بهما ، ولايخرج منه إلا بمناقضتهما إما بجحود لما دلتا عليه أو باستكبار عما استلزمتاه ، ولهذا لم يدع الرسول ﷺ إلى شيء قبلهما ، ولم يقبل الله تعالى ولارسول الله ﷺ من أحد شيئاً دونهما ، فبالشهادة الأولى يعرف المعبود ومايجب له ، وبالثانية يعرف كيف يعبده وبأى طريق يصل إليه ، وكيف يؤمن بالعبادة أحد قبل تعريفه بالمعبود ، وكيف يؤديها من لم يعرف كيف أمر الله أن يعبد ؟ ففى الشهادة الأولى توحيد المعبود الذى ماخلق الخلق إلا ليعبدوه وحده لاشريك له ، وفى الشهادة الثانية توحيد الطريق الذى لايوصل إلى الله تعالى إلا منه ، ولايقبل ديناً ممن ابتغى غيره ورغب عنه ، فإن عبادة الله تعالى التى خلق الخلق لها وقضى عليهم إفراده تعالى بها هى أمر جامع لكل مايحبه تعالى ويرضاه اعتقاداً وقولا وعملا ، ومعرفة محابه تعالى ومرضاته لاتحصل إلا من طريق الشرع الذى أرسل به رسوله وأنزله به كتابه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) . وقد قدمنا فى النوع الثانى من أنواع التوحيد تحقيق الشهادتين وبيان تلازمهما وتوضيح نواقضهما ، وبسطنا الكلام هناك وحررنا من الأدلة مايغنى عن الإعادة هنا . (فاثبت) أيها العبد المريد نجاة نفسه من النار والفوز بالجنة على هذا الصراط المستقيم النير

الواضح الجلى ، ولاتستوحش من قلة السالكين ، وإياك أن تنحرف عنه فتهلك مع الهالكين ، فإن الله عز وجل ينادى يوم القيامة : ياآدم . فيقول : لبيك وسعديك . فيقول : أخرج بعث النار . فيقول : من كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فالناجى حينئذ واحد من ألف فاغتنم أن تكون من تلك الآحاد ، واحذر أن تغتر بجموع الضلالة فتكون من حطب جهنم وبئس المهاد . (واعتصم) أى استمسك (بالعروة) أى بالعقد الأوثق فى الدين ، والسبب الموصل إلى رب العالمين (الوثقى) تأنيث الأوثق (التى لاتنفصم) أى لاتنقطع ، وقد تقدم فى الكلام على لاإله إلا الله أنها هى العروة الوثقى ، وذلك واضح فى قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم) وتقدم أن شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ والإيمان به هو شرط فى الإيمان بالله ، وماكان من شرط فى الشهادة الأولى فهو شرط فى الثانية .

(وثانياً) من الأركان الخمسة (إقامة الصلاة) بجميع حقوقها ولوازمها . (وثالثاً تأدية الزكاة) إعطاؤها على الوجه المشروع ، وقد تقرر اقتران هذين الركنين بالتوحيد وتقديمهما بعده على غيرهما فى غير موضع من القرآن أمراً وخبراً قال الله تعالى (هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وقال تعالى (وأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) وقال تعالى (وماأمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيمون الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ، وفى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثه النبى ﷺ إلى اليمن قال له « إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم . فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ، وفى رواية « فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله عز وجل . فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم » . ولنذكر طرفاً من النصوص المتعلقة بالصلاة على انفرادها ، ثم نذكر ماتيسر من نصوص الزكاة والله المستعان .

أعلم هدانا الله وإياك أن الصلاة قد اشتملت على جل أنواع العبادة من الاعتقاد بالقلب والانقياد والإخلاص والمحبة والخشوع والخضوع والمشاهدة والمراقبة والإقبال على الله عز وجل وإسلام الوجه له والصمود إليه والأطراح بين يديه . وعلى أقوال اللسان وأعماله من الشهادتين وتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتقديس والتمجيد والتهليل والتكبير والأدعية والتعوذ والاستغفار والاستغاثة والاستعانة والافتقار إلى الله تعالى والثناء عليه والاعتذار من الذنب إليه والإقرار بالنعم له وسائر أنواع الذكر . وعلى عمل الجوارح من الركوع والسجود والقيام والاعتدال والخفض والرفع وغير ذلك . هذا مع ماتضمنته من الشرائط والفضائل — منها الطهارة الحسية من الأحداث والأنجاس الحسية ، والمعنوية من الإشراك والفحشاء والمنكر وسائر الأرجاس — وإسباغ الوضوء على المكاره ونقل الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة وغير ذلك مما لم يجتمع فى غيرها من العبادات . ولهذا قال النبى ﷺ « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ولاشتمالها على معانى الإيمان سماها الله إيماناً فى قوله عز وجل (وما كان الله ليضيع إيمانكم) . وهى ثانية أركان الإسلام فى الفرضية ، فإنها فرضت فى ليلة المعراج بعد عشر من البعثة لم يدع الرسول ﷺ قبلها إلى شىء غير التوحيد الذى هو الركن الأول ، ففرضت خمسين ، ثم خففها الله عز وجل إلى خمس كما تواترت النصوص بذلك فى الصحيحين وغيرهما . وهى ثانية فى الذكر ، فما ذكرت شرائع الإسلام فى آية من الآيات أو حديث من السنة إلا وبدىء بهما بعد التوحيد قبل غيرها كما فى الآيات السابقة وكما فى حديث جبريل وحديث « بنى الإسلام » وحديث وفد عبد القيس وحديث معاذ بن جبل وحديث « أمرت أن أقاتل الناس » وغيرها مما لايحصى . وهى ثانية فى آيات الأمر بالجهاد وفى آيات وعيد الكفار كما فى قوله تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) الآية ، وقوله (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ، ويل يومئذ للمكذبين . وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون ، ويل يومئذ للمكذبين) . وهى ثانية فى مدح المؤمنين كما فى قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وفى ذم الكفار بتركها كما فى قوله عز وجل (فما لهم لايؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون) ، وقوله (فلا صدق ولاصلى ، ولكن كذب وتولى) وكذا فى ذم المنافقين بعدم اهتمامهم لها كما فى قوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا) ، وهى ثانية فى حساب العبد يوم القيامة كما فى قوله ﷺ « أول مايسأل عنه العبد يوم القيامة صلاته ، فإن تقبلت منه تقبل منه سائر عمله ، وإن ردت عليه رد عليه

سائر عمله » . ومعنى قوله « أول مايسأل عنه العبد » أى بعد التوحيد . وهى ثانية فيما يذكر المجرمون أنهم عوقبوا به كما فى قوله تعالى (فى جنات يتساءلون عن المجرمين ماسلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين) الآيات . والنصوص فى شأنها كثيرة لاتحصى وهى متنوعة ، فمنها مافيه الأمر بها كقوله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ، وقوله (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) وقوله (وأقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) وماق معناها . ومنها مافيه بيان محلها من الدين كالنصوص السابقة وكقوله ﷺ لمعاذ « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله» . ومنها فى ثواب أهلها كقوله عز وجل (والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) ومنها مافيه ذكر نجاتهم من النار كقوله ﷺ فى عصاة الموحدين « فيعرفونهم بآثار السجود ، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود » ، ومنها مافيه عقاب تاركها كقوله عز وجل (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب ، الآية ، وقوله تعالى (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون تعالى (فسوف يلقون غياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً) فإنه لو كان مضيع الصلاة مؤمناً لم يشترط فى توبته الإيمان ، وقوله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى مؤمناً لم يشترط فى توبته الإيمان ، وقوله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) فعلق أخوتهم للمؤمنين بفعل الصلاة فإذا لم يفعلوا لم يكونوا إخوة للمؤمنين فلا يكونون مؤمنين ، وقال تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) وقوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله — وفى رواية : ياويلى — أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار » . وفيه عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » ، ورواه الترمذى وقال حسن صحيح ، وله عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » ،

. قال وفى الباب عن أنس رضى الله عنه وابن عباس هذا حديث حسن صحيح غريب وروى الإمام أحمد والنسائى عن محجن بن الأدرع الأسلمى « أنه كان فى مجلس مع النبى ﷺ فأذن بالصلاة فقام النبى ﷺ ثم رجع ومحجن فى مجلسه . فقال له : مامنعك أن تصلى ، ألست برجل مسلم ؟ قال : بلى ، ولكن صليت فى أهلى . فقال له : إذا جئت فصل مع الناس وإن كنت قد صليت فجعل الفارق بين المسلم والكافر الصلاة . ولفظ الحديث يتضمن أنك لو كنت مسلماً لصليت . وفى المسند والأربع السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال له « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولابرهان ولانجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف » ، ورجال أحمد ثقات . وتقدم الحديث الذى فى البخارى فى صفة المسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبل قبلتنا وصلى صلاتنا » الحديث ، وقال الترمذى رحمه الله : حدثنا قتيبة أخبرنا بشر بن المفضل عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق العقيلى قال : كان أصحاب محمد ﷺ لايرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ، ومنها مافيه التصريح بوجوب قتله ، كقوله عز وجل (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) الآية ، وقوله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث وغير ذلك من الآيات والأحاديث . وأما الآثار فى شأنها عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم فأكثر من أن تحصر ، وقد أجمعوا على قتله كفراً إذا كان تركه الصلاة عن جحود لفرضيتها أو استكبار عنها وإن قال لا إله إلا الله ، لما تقدم من الآيات والأحاديث السابقة ، ولدخوله فى النار التارك لدينه المفارق للجماعة وفى قوله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » فإنه بذلك يكون مرتداً مبدلا لدينه . وأما إن كان تركه لها لاالجحود ولا لاستكبار بل لنوع تكاسل وتهاون كما هو حال كثير من الناس فقال النووى رحمه الله تعالى فى شرح مسلم : قد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعى رحمهما الله تعالى والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لايكفر بل يفسق ويستتاب ، فإن تاب وإلا قتلناه حداً كالزانى المحصن ، ولكنه يقتل بالسيف . وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر وهو مروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهى إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل رحمه الله وبه قال عبد الله بن المبارك وإسحاق بن راهويه وهو وجه لبعض أصحاب الشافعى رضوان الله عليه ، وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزنى صاحب الشافعى رحمهم الله تعالى

إلى أنه لايكفر ولايقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلى . قال رحمه الله : واحتج من قال بكفره بظاهر حديث جابر « ان بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » وبالقياس على كلمة التوحيد . واحتج من قال لايقتل بحديث « لايحل دم امرىء مسلم إلا بأحدى ثلاث » وليس فيه الصلاة . واحتج الجمهور على أنه لايكفر بقوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ، وبقوله ﷺ « من قال لاإله إلا الله دخل الجنة ، ومن مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة ، ولايلقى الله عبد بهما غير شاك فيحجب عن الجنة ، وحرم الله على النار من قال لا إله إلا الله » وغير ذلك ، واحتجوا على قتله بقوله تعالى « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » ، وقوله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم » وتأولوا قوله ﷺ « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » على معنى أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر وهى القتل ، أو أنه محمول على المستحل ، أو على أنه قد يؤل به إلى الكفر ، أو أن فعله فعل الكفار والله أعلم ، انتهى كلامه ، وقد قدمنا فى شروط لا إله إلا الله وفى بيان مراتب الدين وفى بيان أنواع الكفر مافيه غنية ، وذكرنا هنا ماتيسر من النصوص فى شأنها . وقد بسط الحافظ ابن القيم فى كتابه الصلاة الكلام على هذه المسألة بسطاً حسناً فليراجع .

وأما الزكاة فقد تقدم ذكرها فى نصوص الصلاة وغيرها ، ومما يتعلق بها على انفرادها قوله عز وجل (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم أن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) وقوله فى صفات عباده المؤمنين (والذين هم للزكاة فاعلون) وقوله تعالى فى ذم الكفار ووعيدهم (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) وإن كانت هذه الآية فى زكاة النفوس فهى عامة لزكاة الأموال أيضاً وقد فسرت بها ، وقوله تعالى فى وعيد مانعيها مطلقاً (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون) يوضح ذلك الحديث الذى فيه « ماأديت زكاته فليس بكنز » وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن صاحب ذهب ولافضة لايؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل :

يارسول الله فالأبل ؟ قال : ولاصاحب إبل لايؤدى منها حقها ، ومن حقها حلبها يوم وردها . إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ماكانت لايفقد منها فصيلا واحداً تطأه بأخفافها وتعضه بأفواهها ، كلما مر عليه أولاها أعيد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العياد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قيل : يارسول الله فالبقر والغنم ؟ قال : ولاصاحب بقر ولاغنم لايؤدى منها حقها . إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لايفقد منها شيئاً ليس فيها عفصاء ولاجلحاء ولاعضباء تنطحه بقرونها وتطأه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » الحديث بطوله . وفيه عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مامن صاحب إبل ولابقر ولاغنم لايؤدى حقها إلا أقعد لها يوم القيامة بقاع قرقر تطأه ذات الظلف بظلفها وتنطحه ذات القرن بقرنها ، ليس فيها يومئذ جماد ولامكسورة القرن » الحديث . وفيه « ولامن صاحب مال لايؤدى زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه ويقال هذا مالك الذى كنت تبخل به . فاذا رأى أنه لابد منه أدخل يده فى فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل » ، وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « ولايأتى أحدكم يوم القيامة بشأة يحملها على رقبته لها يعار ، فيقول : يامحمد ، فأقول : لاأملك لك شيئاً ، قد بلغت ، ولايأتى أحدكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول : يامحمد ، فأقول : لاأملك لك شيئاً قد بلغت[1] » وفيه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه — يعنى شدقيه — ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا (ولايحسبن الذين يبخلون) الآية . وفيه عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فقال أعرابى : أخبرنى عن قول الله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله تعالى طهرة للاموال . وقد ثبتت البيعة عليها بعد الصلاة كما قال البخارى رحمه الله تعالى « باب البيعة على إيتاء الزكاء » (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين) حدثنا ابن نمير قال

(١) وهذا وإن كان وارداً فى الغلول وعقوبته فهو فى الزكاة كذلك إذ الجزاء من جنس العمل والله تعالى أعلم . هـ مؤلفه .

حدثنى أبى قال حدثنا اسماعيل عن قيس قال : قال جرير بن عبد الله رضى الله عنه : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » والنصوص فيها كثيرة وفى ماتقدم كفاية . وأما حكم تاركها فإن كان منعه إنكاراً لوجوبها فكافر بالإجماع بعد نصوص الكتاب والسنة ، وإن كان مقراً بوجوبها وكانوا جماعة ولهم شوكة قاتلهم الإمام لما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضى الله عنه وكفر من كفر من العرب فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل » فقال : والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، ولو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضى الله عنه : فو الله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق — وفى رواية — فو الله ماهو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعلمت أنه الحق . وهذا الذى استنبطه أبو بكر رضى الله عنه مصرح به فى منطوق الأحاديث الصحيحة المرفوعة كحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ، وغيره من الأحاديث . وقد جهز النبى ﷺ خالد بن الوليد لغزو بنى المصطلق حين بلغه أنهم منعوا الزكاة ولم يكن مابلغه عنهم حقاً ، فروى الإمام أحمد قال : حدثنا محمد بن سابق حدثنا عيسى بن دينار حدثنى أبى أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعى رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ فدعانى إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فاقررت بها وقلت : يارسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لى جمعت زكاته ، وترسل إلى يارسول الله رسولا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسول الله ﷺ فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لى وقتاً يرسل إلى رسوله ليقبض ماكان عندى من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولاأرى حبس رسوله إلا من سخطه ، فانطلقوا نأتى رسول الله ﷺ وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ماكان عنده مما جمع من

الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق ـــ أى خاف ـــ فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضى الله عنه وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك . قال ولم ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال رضى الله عنه : لا والذى بعث محمداً ﷺ بالحق مارأيته بتة ولاأتانى . فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ، قال رضى الله عنه : لا والذى بعثك بالحق مارأيته ولاأتانى ولاأقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ ، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله ﷺ قال فنزلت الحجرات (يأأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ـــ إلى قوله ـــ حكيم) ، ورواه بن أبى حاتم عن المنذر بن شاذان التمار عن محمد بن سابق به ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق به . وقال ابن جرير رحمه الله تعالى حدثنا أبو كريب حدثنا جعفر بن عون عن موسى بن عبيدة عن ثابت مولى أم سلمة رضى الله عنها قالت بعث رسول الله ﷺ رجلا فى صدقات بنى المصطلق بعد الوقيعة فسمع بذلك القوم فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ قالت فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله قالت فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال إن بنى المصطلق قد منعونى صدقاتهم . فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون ، قالت : فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، بعثت إلينا رجلا مصدقا فسررنا بذلك وقررت به أعيننا ، ثم أنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ . فلما يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ، قالت ونزلت (يأأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) .

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وأنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقونه رجع الوليد إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة ، فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضباً شديداً ، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذا أتاه الوفد فقالوا : يارسول الله إنا حدثنا إن رسولك رجع من

نصف الطريق وإنا خشينا أنما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، وإن النبى ﷺ استغشهم وهم بهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى عذرهم فى الكتاب فقال (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) إلى آخر الآية .
وقال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق ليصدقهم فتلقوه بالصدقة فرجع فقال : إن بنى المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ــ زاد قتادة : وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام ــ فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه إليهم وأمره أن يتثبت ولايعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه فرأى الذى يعجبه فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ا هـ . من تفسير الحجرات لابن كثير رحمه الله تعالى . وذكر البغوى رحمه الله تعالى نحو حديث ابن عباس وفيه : فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا يارسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدى إليه ماقبلناه من حق الله تعالى فبداله فى الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد ابن الوليد إليهم خفية فى عسكر وأمره أن يخفى عليهم قدومه قومه وقال له انظر فإن رأيت منهم مايدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم مايستعمل فى الكفار . ففعل ذلك خالد ، ووافاهم فسمع منهم إذان صلاتى المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير . فانصرف إلى رسول الله ﷺ وإخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) الآية وأما إن كان الممتنع عن أداء الزكاة فرداً من الأفراد فأجمعوا على أنها تؤخذ منه قهراً ، واختلفوا من ذلك فى مسائل : إحداها هل يكفر أم لا ؟ فقال عبد الله بن شقيق : كان أصحاب رسول الله ﷺ لايرون من الأعمال شيئاً تركه كفر إلا الصلاة ، وقال أبو أيوب السختيانى : ترك الصلاة كفر لايختلف فيه ، وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف وهو قول ابن المبارك وأحمد وإسحاق وحكى إسحاق عليها إجماع أهل العلم ، وقال محمد بن نصر المروزى : هو قول جمهور أهل الحديث ، وذهب طائفة منهم إلى أن من ترك شيئاً من أركان الإسلام الخمس عمداً أنه كافر . وروى ذلك عن سعيد بن جبير ونافع والحكم وهو رواية عن الإمام أحمد اختارها طائفة من أصحابه وهو قول ابن حبيب من

المالكية ، وخرج الدار قطنى وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « قيل : يارسول الله الحج فى كل عام ؟ قال : لو قلت نعم لوجب عليكم ولو وجب عليكم ماأطقتموه ولو تركتموه لكفرتم » وعن ابن مسعود أن تارك الزكاة ليس بمسلم ، وعن أحمد رواية أن ترك الصلاة والزكاة كفر دون الصيام والحج . وقال ابن عيينة : المرجئة سموا ترك الفرائض ذنباً بمنزلة ركوب المحارم ، وليس سواء ، لأن ركوب المحارم متعمداً من غير استحلال معصية ، وترك الفرائض من غير جهل ولاعذر كفر . وبيان ذلك فى أمر إبليس ، وعلماء اليهود الذين أقروا ببعث النبى ﷺ بلسانهم ولم يعملوا بشرائعه ، المسألة الثانية هل يقتل أم لا ؟ الأول هو المشهور عن أحمد رحمه الله تعالى ، ويستدل له بحديث ابن عمر رضى الله عنهما « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله » الحديث . والثانى لايقتل ، وهو قول مالك والشافعى ورواية عن أحمد رحمهم الله تعالى . وروى اللالكائى من طريق مؤمل قال : حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن مالك البكرى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس ولاأحسبه إلا رفعه قال : عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاث عليهن أسس الإسلام ، شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة ، وصوم رمضان . من ترك منهن واحدة فهو بها كافر ويحل دمه ، وتجده كثير المال لم يحج فلا يزال بذلك كافراً ولايحل بذلك دمه ، وتجده كثير المال ولايزكى فلا يزال بذلك كافراً ولايحل دمه ، ورواه قتيبة بن سعيد عن حماد بن زيد مرفوعاً مختصراً ، ورواه سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد عن عمرو بن مالك بهذا الإسناد مرفوعاً ، وقال : من ترك منهن واحدة — يعنى الثلاث الأول — فهو بالله كافر ولايقبل منه صرف ولاعدل وقد حل دمه وماله . ولم يذكر مابعده . المسألة الثالثة لمن لم ير قتله هل ينكل بأخذ شىء من ماله مع الزكاة ؟ وقد روى فى خصوص المسألة حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فى كل سائمة إبل فى أربعين بنت لبون ، لاتفرق إبل عن حسابها ، من أعطاها مؤتجراً بها فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمه من عزمات ربنا ، لايحل لآل محمد منها شىء » رواه أحمد وأبو داود والنسائى وصححه الحاكم ، وعلق الشافعى القول به على ثبوته فانه قال : لايثبته أهل العلم بالحديث ، ولو ثبت لقلنا به .

والرابع الصيام فاسمع واتبع والخامس الحج على من يستطع

الركن الرابع من أركان الإسلام الصيام ، وهو فى اللغة الإمساك ، وفى الشرع إمساك

مخصوص فى زمن مخصوص بشرائطه مخصوصة . وكان فرض صوم شهر رمضان فى السنة الثانية من الهجرة هو والزكاة قبل بدر ، قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه) إلى آخر الآيات ، وقد تقدمت الأحاديث فيه ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع كفر من جحد فرضيته ، وتقدم القول بقتل تاركه مع الإقرار والاعتراف بوجوبه ، وقوله فاسمع واتبع مأخوذ من قول الله عز وجل (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

الركن الخامس الحج ، وهو (على من يستطيع) أى من استطاع إليه سبيلا ، قال الله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) وقد ذكر الله تعالى تفصيله فى سورة البقرة من قوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله — إلى قوله — إليه تحشرون) واشتراط الاستطاعة فيه مصرح بمه فى الآية وفى حديث جبريل وفى حديث معاذ وغيرها ، وفسره النبى ﷺ بالزاد والراحلة ، ولاخلاف فى كفر من جحد فرضيته ، وتقدم الخلاف فى كفر تاركه مع الإقرار بفرضيته . وروى الإمام أحمدُ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « تعجلوا الحج — يعنى الفريضة — فإن أحدكم لايدرى مايعرض له » . ورواه أبو داود بلفظ « من أراد الحج فليتعجل » . وروى الاسماعيلى بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً . وروى سعيد ابن منصور فى سننه عن الحسن البصرى قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ، ماهم بمسلمين . وروى البغوى عن أبى أمامه رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانيا » وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال « أيها الناس ، قد فرض عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت . حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله « لوقلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم » ثم قال

« ذرونى ماتركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتم بشيء فأتوا منه مااستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » . ورواه مسلم بنحو هذا والله أعلم . وروى أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال « ياأيها الناس ، إن الله تعالى كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : يارسول الله أفى كل عام ؟ فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم يعملوا بها ، ولن تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » .

ذكر أمور تدخل فى مسمى الإيمان والإسلام من الأوامر والمناهى والأخبار

قال الله عز وجل (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) الآيات . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين) وقال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً . والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون

فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً) وقال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) وقال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنة مكرمون) وقال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم — إلى قوله — الوارثون) الآيات . وقال تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لايشركون . والذين يؤتون مآآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ، ولانكلف نفساً إلا وسعها) وقال تعالى (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين مآآتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل مايهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) وقال تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وقال تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما) وقال تعالى (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — إلى قوله — ولله عاقبة الأمور) وقال تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى

صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) الآيات ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) إلى آخر السورة . وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) إلى آخر السورة ، وقال تعالى (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم ، إن الله لايحب من كان مختالا فخورا) وقال تعالى وذروا ظاهر الأثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) . وقال تعالى (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم : أن لاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . وقال تعالى (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما وقل لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين ، فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ، ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطءا كبيراً ، ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولاتقف

ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولاتمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئهُ عند ربك مكروهاً . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولاتجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً) وقال تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) وقال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ماتفعلون) الآيات . وقال تعالى (وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) . وقال تعالى (اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء) وقال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) الآيتين . وقال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا) الآيات ، وقال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا) . وآيات القرآن فى هذا الباب كثيرة وشهيرة لاتخفى ، بل القرآن كله فى تقرير الدين من فاتحته إلى خاتمته : دعوة وبشارة ونذارة ، وأمراً ونهياً وخبراً ، كله لايخرج عن شأن الدين : إما دعوة إليه ، أو بشارة لمن اتبعه برضاء الله والجنة ، أو نذارة لمن أبى عنه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة أو أمراً بشرائعه أصولها وفروعها وآدابها وأحكام كل منها ، أو نهياً عن نواقضه جميعه أو نواقض شىء منها أو مايوجب أدنى خلل فيه أو فى شىء من شرائعه ، أو خبراً عن نصر من جاء به وصدق به وحفظه وتأييده فى الدنيا ، أو خبراً عما أعد الله لهم فى الآخرة من الفوز والنعيم . والنجاة من عذاب الجحيم ، أو خبراً عن إهلاك من أستكبر عنه فى الدنيا وماأحله الله بهم من غضبه عاجلا من الخسف والمسخ والقذف وغير ذلك ، وماأعده لهم فى الآخرة من العذاب والعقاب ، ومافاتهم وحرموه من الثواب وغير ذلك .

وأما الأحاديث فمنها قوله ﷺ « الإيمان بضع وسبعون شعبة : فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان » وقوله ﷺ « بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم من إملاق ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً

فستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه » قال عبادة بن الصامت : فبايعناه على ذلك . وقوله ﷺ « من يبايعنى على هذه الثلاث الآيات (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئا) الآيات) وقوله ﷺ لمعاوية بن حيدة لما قال له « ماالذى بعثك الله به ؟ قال : الإسلام . قلت : وماالإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله تعالى ، وأن توجه وجهك لله ، وأن تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة » . وفى رواية قال « وما آية الإسلام ؟ قال : أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت ، وتقم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وكل المسلم على المسلم حرام » . وقوله ﷺ ثلاث يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » وقوله ﷺ فى جواب أى المسلمين أفضل ؟ قال « من سلم المسلمون من لسانه ويده » . وقوله ﷺ « لاتحاسدوا ، ولاتباغضوا ، ولاتدابروا ، ولايبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم : لايظلمه ، ولايخذله ، ولايحقره . التقوى ههنا — وأشار إلى صدره ثلاثاً — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » . وقوله ﷺ « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » وقوله ﷺ فى جواب من قال أى الإسلام خير ؟ قال « أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وقوله ﷺ « من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه » ، وقوله ﷺ فى جواب من سأله : قل لى فى الإسلام قولا لاأسأل عنه أحداً غيرك ، قال « قل آمنت بالله ثم استقم » . وقوله ﷺ « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً رسولا » وقوله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » ، وقوله ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ، وفى رواية « من أهله وماله » وفى حديث أبى رزين قال : قلت يارسول الله ماالإيمان ؟ قال « أن تشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وأن تحترق فى النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئاً . وأن تحب غير ذى نسب لاتحبه إلا لله . فإذا كنت كذلك فقد دخل حب الإيمان قلبك كما دخل حب الماء للظمآن فى اليوم القائظ » قلت : يارسول الله كيف لى بأن أعلم أنى مؤمن ؟ قال « مامن أمتى — أو قال هذه الأمة — عبد يعمل حسنة فيعلم أنها حسنة وأن الله مجازيه بها خيراً ، ولايعمل سيئة

فيعلم أنها سيئة ويستغفر الله منها ويعلم أنه لايغفرها إلا الله وهو مؤمن » ، وقوله ﷺ « من سرته حسناته وساءته سيئاته فهو مؤمن » . وقوله ﷺ « صريح الإيمان إذا أسأت أو ظلمت عبدك أو أمتك أو أحداً من الناس صمت أو تصدقت ، وإذا أحسنت استبشرت » ، وقوله ﷺ « المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، ثم الذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » ، وفى حديث عمرو بن عبسة « قلت : يارسول الله ماالإسلام ؟ قال : طيب الكلام ، وإطعام الطعام . فقلت : ماالإيمان ؟ قال الصبر والسماحة . قلت : أى الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده . قلت : أى الإيمان أفضل ؟ قال : خلق حسن » ، وقوله ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » وقوله ﷺ « ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده بأنه لا إله إلا هو ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه فى كل عام » الحديث . وفى آخره « فقال رجل : فما تزكية المرء نفسه يارسول الله ؟ قال : أن يعلم أن الله معه حيثما كان » وقوله ﷺ « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وفى رواية « المؤمنون كرجل واحد — وفى أخرى — كرجل واحد ، إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله » . وقوله ﷺ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً — وشبك بين أصبعه » ، وقوله ﷺ « المؤمن فى أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما فى الرأس » ، وقوله ﷺ « المؤمن مرآة المؤمن ، أخو المؤمن ، يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه » ، وقوله ﷺ « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وقوله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » . وقوله ﷺ « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن . قالوا : من ذلك يارسول الله ؟ قال : من لايأمن جاره بوائقه » ، وقوله ﷺ « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع » ، وقوله ﷺ « من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، فقد استكمل إيمانه » ، وسئل ﷺ عن أفضل الإيمان فقال « أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك فى ذكر الله » فقال : وماذا يارسول الله ؟ قال « أن تحب للناس ماتحب لنفسك ، وتكره لهم ماتكره لنفسك » ، وفى رواية « وأن تقول خيراً أو تصمت » ، وقوله

ﷺ « لايستحق العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله ، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله تعالى » ، وقوله ﷺ « أوثق عرى الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله » ، وقوله ﷺ لمعاذ بعدما أخبره بأركان الإسلام قال « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون) ثم قال « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » ، ثم قال « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال « كف عليك هذا » .

ويناسب هنا أن ننقل شرح حديث شعب الإيمان وكلام العلماء فى إحصائها من فتح البارى .

فتــــلك خمسة ولــلإيمان	ستـــة أركان بلا نكـــران
إيماننـــــا بالله ذى الجلال	ومالـه من صفـة الكمـال
وبالملائكـة الكـــرام البررة	وكتبـه المنزلـة المطهـــرة
ورسلـــــه الهداة للأنـــــام	من غير تفريــــق ولاإيهام

(فتلك) الأركان المتقدمة التى هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا (خمسة) فسر النبى ﷺ بهذا الإسلام فاعلمها واحتفظ بها واعملها وعلمها ، فسوف تسأل عنها وتحاسب عليها ، فأعدد للسؤال جواباً ، وإياك أن تخل بشىء منها فتكون من الظالمين . (وللايمان ستة أركان) فسره بها النبى ﷺ فى حديث جبريل وغيره (بلا نكران) للنقل ولاتكذيب للخبر ولاشك فى الاعتقاد ولااستكبار عن الانقياد . الأول منها (إيماننا بالله) بإلهيته وربوبيته لاشريك له فى الملك ولامنازع له فيه ولا إله غيره ولارب سواه ، واحد أحد فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولايشرك فى حكمه أحداً ، ولاضد له ولاند ولم يكن له كفواً أحد (ذى الجلال) ذى العظمة والكبرياء الذى هو أهل أن يجل فلا يعصى ويذكر فلاينسى ويشكر فلا يكفر ويوحد فلايشرك معه غيره ولا يوالى إلا هو (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء — قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض — أفغير بالله أبتغى حكماً — أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ، ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه

وهو على كل شيء وكيل ، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .
(و) الإيمان ب (ماله) تعالى (من صفة الكمال) مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العلى وإمرارها كما جاءت بلا تكييف ولاتمثيل ولاتحريف ولا تعطيل وأن كل ماسمى الله تعالى ووصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ الكل حق على حقيقته على ماأراد الله وأراد رسوله وعلى مايليق بجلال الله وعظمته(آمنا به كل من عند ربنا) وقد تقدم مايسره الله تعالى من تقرير الكلام فى توحيد الإلهية والربوبية والأسماء والصفات وأنواع الشرك المضادة له فليراجع وبالله التوفيق . (و) الثانى الإيمان (بالملائكة) الذين هم عباد الله المكرمون والسفرة بينه تعالى وبين رسله عليهم الصلاة والسلام (الكرام) خلقاً وخلقاً والكرام على الله تعالى (البررة) الطاهرين ذاتاً وصفة وأفعالا المطيعين لله عز وجل وهم عباد الله عز وجل خلقهم الله تعالى من النور لعبادته ليسوا بناتاً لله عز وجل ولا أولاداً ، ولاشركاء معه ولا أنداداً تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون والملحدون علواً كبيراً ، قال الله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) وقال تعالى (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون . اصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون . أفلا تذكرون — إلى قوله — ومامنا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين — إلى قوله — وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسألون) الآيات . وقال تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وقال تعالى (فإن استكبروا فالذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون) ، وقال تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شيء قدير) ، وقال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن) وقال تعالى (يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين . ويقولون حجراً محجوراً) وقال تعالى (إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) ، وقال تعالى (وماتتنزل إلا بأمر ربك له

مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك وماكان ربك نسياً) وقال تعالى (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ، وقال تعالى (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) ، والآيات فى ذكر الملائكة فى القرآن كثيرة .

ثم هم بالنسبة إلى ماهيأهم الله تعالى له ووكلهم به على أقسام :

فمنهم الموكل بالوحى من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام ، قال الله تعالى (من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) ، وقال تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) ، وقال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) ، وقال تعالى (إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى) وهذا فى رؤية النبى ﷺ له فى الأبطح حين تجلى له على صورته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق ، ثم رآه ليلة المعراج أيضاً فى السماء كما قال تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) ولم يره ﷺ فى صورته إلا هاتين المرتين ، وبقية الأوقات فى صورة رجل ، وغالباً فى صورة دحية الكلبى رضى الله عنه . وقال تعالى فيه (إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وماصاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين) الآيات . وقال تعالى (حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ، قالوا الحق وهو العلى الكبير) تقدم الحديث فى معنى الآية . وفيه : قال النبى ﷺ « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل بأهل السموات ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا ياجبريل ؟ فيقول جبريل عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير » فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل . ثم ينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل وهو فى الصحيحين ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر بعض الأحاديث فى بدء الوحى من الفصل الآتى .

ومنهم الموكل بالقطر وتصاريفه إلى حيث أمره الله عز وجل ، وهو ميكائيل عليه السلام ، وهو ذو مكانة علية ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عز وجل ، وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربه ، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله عز وجل . وقد جاء فى بعض الآثار :

مامن قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى موضعها من الأرض ، وفى حديث ابن عباس عند الطبرانى أنه ﷺ قال لجبريل « على أى شيء ميكائيل ؟ قال : على النبات والقَطر » ولأحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام « مالى لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ فقال عليه السلام : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار » عياذاً بالله منها .

ومنهم الموكل بالصور ، وهو إسرافيل عليه السلام ، ينفخ فيه ثلاث نفخات بأمر ربه عز وجل : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى بسطه فى موضعه ، ولأحمد والترمذى من حديث عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له . قالوا كيف نقول يارسول الله ؟ قال قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . على الله توكلنا » ، وهؤلاء الثلاثة من الملائكة هم الذين ذكرهم النبى ﷺ فى دعائه من صلاة الليل « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت وأعوانه ، وقد جاء فى بعض الآثار تسميته عزرائيل ، قال الله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) ، وقال تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) ، وقال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) ، وقال تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم — إلى قوله تعالى — إن الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وغيرها من الآيات . وقد جاء فى الأحاديث أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله ، إن كان محسناً ففى أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة ، وإن كان مسيئاً ففى أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد ، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها فى يده بل يضعونها فى أكفان وحنوط يليق بها كما قال تعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم يومئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ، ترجعونها إن كنتم صادقين . فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب

اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم وتصلية جحيم ، إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم) سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم نستغفر الله .

ومنهم الموكل بحفظ العبد فى حله وارتحاله وفى نومه ويقظته وفى كل حالاته ، وهم المعقبات ، قال الله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) ، وقال تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) ، وقال تعالى (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية الأولى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) : والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله تعالى خلوا عنه . وقال مجاهد : مامن عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما منها شىء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه ، وقال تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) قال ابن كثير : أى بدل الرحمن ، يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبيده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام . أ ه .

ومنهم الموكل بحفظ عمل العبد من خير وشر ، وهم الكرام الكاتبون ، وهؤلاء يشملهم مع ماقبلهم قوله عز وجل (ويرسل عليكم حفظة) وقال تعالى فيهم (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ، بل ورسلنا لديهم يكتبون) وقال تعالى (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) فالذى عن يمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات . وقال تعالى (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ماتفعلون) ، عن علقمة عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » . فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ، رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح . وروى البغوى عن أبى أمامه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كاتب الحسنات على يمين

الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإن عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » ، وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى تجاوز لى عن أمتى ماحدثت به أنفسها مالم يتكلموا أو يعملوا به » وفى رواية « مالم تعمل أو تكلم به » وفيه عنه رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة . وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً » وفى رواية « قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بحسنة لم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف . و إذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » . وفى أخرى « قال الله عز وجل : إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة مالم يعمل ، فإذا عملها فأنا اكتبها بعشر أمثالها . وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها » . وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة — وهو تعالى أبصر به — فقال ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جراى » ، وقال رسول الله ﷺ « إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » ، وفيه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال « إن تبارك وتعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة — زاد فى رواية — أو محاها الله . ولايهلك على الله إلا هالك » ، وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى وتلا هذه الآية (عن اليمين وعن الشمال قعيد) : ياابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه

منشوراً ، اقرأ كُتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ، ثم يقول : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك ا ه . ويناسب ذكر المعقبات والحفظة ماروى البخارى رحمه الله تعالى فى « باب قول الله عز وجل تعرج الملائكة والروح إليه » قال : حدثنا إسماعيل حدثنى مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » . ورواه مسلم أيضاً وفيهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال « قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : إن الله لاينام ولاينبغى له أن ينام ، يخفظ القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل » الحديث تقدم فى العلو . والأحاديث فى ذكر الحفظة كثيرة .

ومنهم الموكلون بفتنة القبر وهم منكر ونكير ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر النصوص فى ذلك قريباً ، نسأل الله تعالى الثبات والتوفيق .

ومنهم خزنة الجنة ومقدمهم رضوان عليهم السلام ، قال الله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) وقال تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعمى عقبى الدار) .

ومنهم المبشرون للمؤمنين عند وفياتهم ، وفى يوم القيامة ، كما قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون . نزلا من غفور رحيم) ، وقال تعالى فيهم (لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) .

ومنهم خزنة جهنم عياذاً بالله منها ، وهم الزبانية ، ورؤساؤهم تسعة عشر ، ومقدمهم مالك عليهم السلام ، قال الله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً . حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) الآيات . وقال تعالى (وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا

ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات . قالوا : بلى . قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) وقال تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون) وقال تعالى (وما أدراك ماسقر ، لاتبقى ولاتذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر . وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وماجعلنا عدتهم إلافتنةللذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً) ، وقال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون) ، وفى صحيح مسلم « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام ، كل زمام فى يد سبعين ألف ملك يجرونها » .

ومنهم الموكلون بالنطفة فى الرحم كما فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال « حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمة أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » الحديث . وفى بابه من الأحاديث كثير ، وفيها « أن الملك يقول يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ واحد أو توام ؟ ذكر أم انثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ماالرزق وماالأجل ؟ فيقضى الله تعالى مايشاء . فيكتب الملك كما أمره الله عز وجل فلا يغير ولايبدل » .

ومنهم حملة العرش والكروبيون وهم الذين قال الله تعالى فيهم (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) الآيات ، وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ومفهوم هذه الآية من قوله تعالى (يومئذ) أن حملة العرش ليسوا اليوم ثمانية ، ويؤيد ذلك ماروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ « صدق أمية بن الصلت فى شىء من شعره . فقال :

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للاخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ صدق فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها بتورد
تأبى فما تطلع لنا فى رسلها ... إلا معذبة وإلا تجلد

فقال رسول الله ﷺ صدق » وهذا إسناده جيد . لكن قد ورد مايدل على أنهم فى الدنيا أيضاً ثمانية ، وهو حديث العنان الذى رواه أبو داود وغيره وقد تقدم فى العلو وفيه « ثم فوق السماء السابعة بحر بين أسفله واعلاه مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك ، وله عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « إن رسول الله ﷺ أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن مابين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبى وعكرمة والضحاك وابن جريج : ثمانية صفوف من الملائكة . وقال الضحاك عن ابن عباس . الكربيون ثمانية أجزاء ، كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة . وفى حديث الصور الطويل قال رسول الله ﷺ « فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حساً شديداً فهالنا ، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت . ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة وبمثلى من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، وهو آت . ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل فى تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لايموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولايموت سبوح قدوس قدوس قدوس . سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح . سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولايموت » . الحديث رواه ابن جرير والطبرانى وغيرهما .

ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم : مايقول عبادى ؟ قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك » الحديث تقدم فى العلو وقال ﷺ « ومااجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله

ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فى من عنده » الحديث بطوله فى الصحيح عن أبى هريرة .

ومنهم الموكل بالجبال ، وقد ثبت ذكره فى حديث خروج النبى ﷺ إلى بنى عبد ياليل وعوده منهم ، وفيه قول جبريل له ﷺ « إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوه عليك . وفيه قول ملك الجبال « إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » فقال ﷺ « بل استأن بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئاً » .

ومن زوار البيت المعمور الذى أقسم الله تعالى به فى كتابه ، ثبت ذلك فى حديث المعراج ، وهو بيت فى السماء السابعة بحيال الكعبة فى الأرض لو سقط لـوقع عليها ، حرمته فى السماء كحرمة الكعبة فى الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون إليه آخر ماعليهم » ، يعنى لاتحول نوبتهم لكثرتهم ، والحديث بألفاظه فى الصحيحين .

ومنهم ملائكة صفوف لايفترون ، وقيام لايركعون ، وركع وسجد لايرفعون ، ومنهم غير ذلك (ومايعلم جنود ربك إلا هو ، وماهى إلا ذكرى للبشر) ، روى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى أرى مالاترون ، وأسمع مالاتسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، مافيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » فقال أبو ذر : والله لو ددت أنى شجرة تعضد . وقال الترمذى غريب . ويروى عن أبى ذر موقوفاً . قلت : وله حكم الرفع ، ومن أين لأبى ذر رضى الله عنه مثل إلا عن توقيف والله أعلم . وعن حكيم بن حزام قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذا قال لهم « هل تسمعون ماأسمع ؟ قالوا : مانسمع من شيء . فقال رسول الله ﷺ : أسمع أطيط السماء وماتلام أن تئط ، مافيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « مافى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ومامنا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » ، وعن العلاء ابن سعد وقد شهد الفتح ومابعده أن النبى ﷺ قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ماأسمع ؟ قالوا : وماتسمع يارسول الله ؟ قال : أطت السماء وحق لها أن تئط ، إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد . وقالت الملائكة : وأنا لنحن الصافون وإنا

لنحن المسبحون » ، وعن رجل صحب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، مامنهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولايرفعونها إلى يوم القيامة ، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولايرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل فقالوا : سبحانك ماعبدناك حق عبادتك » واسنادة لابأس به ، وهو والذى قبله أخرجهما محمد بن نصر المروزى . وفى الصحيح عن جابر بن سمره رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا : يارسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف » . وفيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

فقال رسول الله ﷺ : أسمع أطيط السماء وماتلام أن تئط ، مافيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « مافى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : ومامنا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » ، وعن العلاء ابن سعد وقد شهد الفتح ومابعده أن النبى ﷺ قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ماأسمع ؟ قالوا : وماتسمع يارسول الله ؟ قال : أطت السماء وحق لها أن تئط ، إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد . وقالت الملائكة : وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون » ، وعن رجل صحب رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ، مامنهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولايرفعونها إلى يوم القيامة ، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولايرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل فقالوا : سبحانك ماعبدناك حق عبادتك » واسناده لابأس به ، وهو والذى قبله أخرجهما محمد بن نصر المروزى . وفى الصحيح عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا : يارسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف » . وفيه عن عائشة رضى الله عنها

قالت : قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور العرش ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

(و) الثالث الإيمان (بكتبه المنزلة) على رسله (المطهرة) من الكذب والزور ومن كل باطل ومن كل مالا يليق بها ، قال الله تعالى (قولوا آمنا بالله ومإانزل إلينا ومأأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ومأأوتى موسى وعيسى ومأأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) ، وقال تعالى (قل آمنا بالله ومأأنزل علينا ومأأنزل على إبراهيم وإسماعيل) إلى آخر الآية ، وقال تعالى (يأ أيها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) وقال تعالى (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) وقال تعالى (والذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون) الآيات ، وقال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) ومعنى الإيمان بالكتب التصديق الجازم بأن كلها منزل من عند الله عز وجل على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين ، وأنها كلام الله عز وجل لاكلام غيره ، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذى أراد فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة ، ومنها مايسمعه الرسول الملكى ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشرى كما قال تعالى (وماكان لبشر أن يكلمه الله وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء ، إنه علیم حكيم) وقال تعالى (وكلم الله موسى تكليماً) ، (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) ، (ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) ، (فأوحى إلى عبده مأأوحى) ، (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ، (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ، (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ومنها ماخطه بيده عز وجل كما قال تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

والإيمان بكل مافيها من الشرائع وأنه كان واجباً على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى الانقياد لها والحكم بما فيها كما قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها [illegible] والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه

شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ــ إلى قوله ــ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك) وأن جميعها يصدق بعضها بعضاً لايكذبه كما قال تعالى فى الإنجيل (مصدقاً لما بين يديه من التوراة) وقال فى القرآن (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) وإن كل من كذب بشىء منها أوأبى عن الانقياد لها مع تعلق خطابه به يكفر بذلك كما قال تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

(وأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل قال الله تعالى فى عيسى عليه السلام (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائل إنى قد جئتكم ببينة من ربكم ــ إلى قوله ــ ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون) وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل والقرآن كما قال تعالى (عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فأسكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) الآية . وأن نسخ القرآن بعض اياته ببعض حقا كما قال تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) وقال تعالى (إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون) الآيات ، وكما قال تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله) بعد قوله (ياأيها النبى

حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا) والناسخ والمنسوخ آيات مشهورة مذكورات فى مواضعها من كتب التفسير وغيرها ، وإنه لايأتى كتاب بعده ولامغير ولامبدل لشىء من شرائعه بعده ، وأنه ليس لأحد الخروج عن شىء من أحكامه ، وأن من كذب بشىء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه ، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به ، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل ، قال تعالى (آلمص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) .

ثم الإيمان بكتب الله عز وجل يجب إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل ، فقد سمى الله تعالى من كتبه التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود فى قوله تعالى (وآتينا داود زبوراً) والقرآن على محمد ﷺ ، وذكر صحف إبراهيم وموسى ، وقد أخبر تعالى عن التنزيل على رسله مجملا فى قوله (والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) وقال تعالى (قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا ـــ وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم) وقال (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) فنقول كما أمرنا ربنا عز وجل : آمنا بما أنزل الله من كتاب وماأرسل من رسول . وقال تعالى فى القرآن والسنة (وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ، (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فلا بد فى الإيمان به من امتثال أوامره واجتناب مناهيه وتحليل حلاله وتحريم حرامه والاعتبار بأمثاله والاتعاظ بقصصه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والوقوف عند حدوده وتلاوته آناء الليل والنهار والذب عنه لتحريف الغالين وانتحال المبطلين والنصيحة له ظاهرا وباطناً بجميع معانيها ، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا كل ذلك ويوفقنا له ويعيننا عليه ويثبتنا به وجميع إخواننا المسلمين إنه ولى التوفيق .

(و) الرابع الإيمان (برسله) وهم كل من أوحى إليه وأمر بالتبليغ ، أما من أوحى إليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبى فقط وليس برسول ، فكل رسول نبى ولا كل نبى رسول . (الهداة) جمع هاد والمراد به هداية الدعوة والدلالة والارشاد إلى سبيل الهدى كما قال تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وقال تعالى (إنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله) وأما هداية التوفيق والتسديد والتثبيت فليست إلا بيد الله عز وجل هو مقلب القلوب ومصرف الأمور ليس لملك مقرب ولا لنبى مرسل تصريف فى شىء منهما فضلا عمن

دونهما ، ولذا قال تعالى لنبيه ﷺ (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال تعالى (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) والإيمان برسل الله عز وجل متلازم من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى وبجميع الرسل عليهم السلام كما قال تعالى (آمن الرسول بماأنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) . وقال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً أليما . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً) ، وقال تعالى (ومن لم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) ، وقال تعالى (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل إلينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين) ، وقال الله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم عن ذلكم إصرى قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ، ومعنى الإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث فى كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له والكفر بما يعبد من دونه ، وأن جميعهم صادقون مصدقون بارون راشدون كرام بررة أتقياء أمناء هداة مهتدون ، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون . وأنهم بلغوا جميع ماأرسلهم الله به ، لم يكتموا منه حرفاً ولم يغيروه ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، وأنهم كلهم كانوا على الحق المبين ، والهدى المستبين ، وأن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلا ، واتخذ محمداً ﷺ خليلا ، وكلم موسى تكليماً ، ورفع إدريس مكاناً علياً ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الله تعالى فضل بعضهم على بعض ورفع بعضهم على بعض درجات . وقد اتفقت دعوتهم من أولهم إلى آخرهم فى أصل الدين وهو توحيد الله عز وجل بإليهته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، ونفى

مايضاد ذلك أو ينافى كماله كما تقدم ذلك فى تقرير توحيد الطلب والقصد . وأما فروع الشرائع من الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف فيفرض على هؤلاء مالايفرض على هؤلاء ويخفف على هؤلاء ماشدد على أولئك ويحرم على أمة مايحل للأخرى وبالعكس لحكمة بالغة وغاية محمودة قضاها ربنا عز وجل ليبلوكم فيما آتاكم ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا . وقد ذكر الله تعالى فى كتابه منهم آدم ونوحاً وإدريس وهوداً وصالحاً وإبراهيم وإسماعيل اسحاق ويعقوب ويوسف ولوطا وشعيبا ويونس وموسى وهرون والياس وزكريا ويحيى واليسع وذا الكفل وداود وسليمان وأيوب، وذكر الأسباط جملة ، وعيسى ومحمد ﷺ ، وقص علينا من أنبائهم ونبأنا من أخبارهم مافيه كفاية وعبرة وموعظة إجمالا وتفصيلا ثم قال (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما) وقال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك) فنؤمن بجميعهم تفصيلا فيما فصل وإجمالا فيما أجمل .

أولهم نوح بلا شك كما   أن محمداً لهم قد ختما

(أولهم) يعنى أول الرسل عليهم السلام (نوح بلا شك) وهو نوح ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قاين بن أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام . والمعنى أن نوحاً أول الرسل والنبيين بعد الاختلاف ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) لأن أمته أول من اختلف وغير وبدل وكذب كما قال تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) وإلا فآدم قبله كان نبياً رسولا ، وكان الناس أمة واحدة على دينه ودين وصيه شيث عليه السلام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وابن مسعود وأبى بن كعب وقتادة ومجاهد وغيرهم رضى الله عنهم فى قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة) الآية قالوا : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين (كما أن محمداً) ﷺ (لهم) أى للرسل (قد ختما) فلا نبى بعده كما قال تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وسيأتى إن شاء الله تعالى تقرير ذلك فى موضعه من هذا المتن

وخمسة منهم أولو العزم الأولى   فى سورة الأحزاب والشورى تلا

وخمسة منهم (أى من الرسل (أولو) أى أصحاب (العزم) يعنى الحزم والجد والصبر

وكمال العقل ، ولم يرسل الله تعالى من رسول إلا وهذه الصفات فيه مجتمعة ، غير أن هؤلاء الخمسة أصحاب الشرائع المشهورة كانت هذه الصفات فيهم أكمل وأعظم من غيرهم ، ولذا خصوا بالذكر (فى سورة الأحزاب) يعنى قوله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) فذكر تعالى أخذه الميثاق على جميع النبيين جملة ونص منهم على هؤلاء الخمسة محمد ﷺ وهو خاتمهم ونوح وهو فاتحهم وإبراهيم وموسى وعيسى وهم بينهما (و) كذا ذكرهم على وجه التخصيص فى سورة (الشورى) إذ يقول تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) وهؤلاء الخمسة هم الذين يتراجعون الشفاعة بعد أبيهم آدم عليه السلام حتى تنتهى إلى نبينا محمد ﷺ فيقول « أنا لها » كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية قال النبى ﷺ كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث فبدأ بى قبلهم » وفيه ضعف ويروى مرسلا وموقوفاً على قتادة ، وللبزار عنه رضى الله موقوفاً عليه قال « خيار ولد آدم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ . والقول بأن أولى العزم هم هؤلاء الخمسة هو قول ابن عباس وقتادة ومن وافقهما وهو الأشهر ، وقال الكلبى هم الذين أمروا بالجهاد وأظهروا المكاشفة مع أعداء الدين ، وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وهم المذكورن على النسق فى سورة الأعراف وهود والشعراء ، وقال مقاتل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه وإبراهيم صبر على النار وإسحاق صبر على الذبح ويعقوب صبر على فقد ولده وذهاب بصره ويوسف صبر على البئر والسجن وأيوب صبر على الضر . قلت وقول إسحاق صبر على الذبح هو قول مرجوح أو مردود وإنما كان الذبيح إسماعيل عليه السلام كما فى سورة الصافات وهود ، وقال ابن يزيد : كل الرسل كانوا أولى عزم ، لم يبعث الله نبياً إلا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال عقل ، وإنما أدخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز ، وقال قوم هم نجباء الرسل المذكورون فى سورة الأنعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم (أولئك الذين هدي الله فبهداهم اقتده) وروى ابن أبى حاتم بسنده عن مسروق قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه ثم ظل صائما ثم طواه ثم ظل صائما ثم قال « ياعائشة ، إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد . ياعائشة ، إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا

بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ماكلفهم فقال (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولاقوة إلا بالله » .

وبالمعـــاد أيقـــن بلا تردد | ولا ادعا علـم بوقت الموعـد
لكننـا نؤمـن من غير امتـرا | بكـل ماقـد يصح عن خير الـورى
من ذكـر آيات تكـون قبلهـا | وهى علامـات وأشراط لها

(وبالمعاد) وهو المرد إن الله عز وجب والإياب إليه (أيقن) استيقن بذلك يقيناً جازماً (بلا تردد) ، هذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان ، وهو الإيمان باليوم الآخر ومايدخل فيه ، قال الله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) ، وقال تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون) ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رياء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين) وقال تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون) وقال تعالى (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد) وقال تعالى (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون) وقال تعالى (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) الآيات وقال تعالى (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه . ومن أصدق من الله حديثاً) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) الآية وقال تعالى (إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) وقال تعالى (وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل) وقال تعالى (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى) وقال تعالى (إن الساعة آتية

لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور) وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) وقال تعالى فى الآية الأخرى (قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون) (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون . فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) وقال تعالى (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ، ومانؤخرهم إلا لأجل معدود) وقال تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزى فيه والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) وقال تعالى (ياإيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) وقال تعالى (إن ماتوعدون لآت وماأنتم بمعجزين) وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال تعالى (إن الساعة آتية لاريب فيها ولكن أكثر الناس لايؤمنون) وقال تعالى (فاصبر صبراً جميلا إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) الآيات ، وقال تعالى (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) الآيات ، وقال (إذا وقعت الواقعة) الخ السورة ، وقال تعالى (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) إلى آخر السورة ، وقال تعالى (والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع) وقال تعالى (إنما توعدون لواقع ، فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت ، لأى يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وماأدراك مايوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) إلى آخر السورة والتى تليها والتى تليها والتى تليها والتى تليها والتى تليها والتى تليها وغيرها من الآيات بل وغيرها من السور ، وسيأتى إن شاء الله مزيد نصوص فى اللقاء والبعث والنشور . (و) ب (لاادعا) بالقصر للوزن وهو مصدر ادعى يدعى إدعاء (علم) بوقت الموعد متى هو ، فإن ذلك هو من مفاتيح الغيب التى لايعلمها إلا الله عز وجل ، قال الله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو) الآية وقال تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون) والتى بعدها ، وقال تعالى (بل تأتيهم بغته فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينصرون) وقال تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل

الغيث ويعلم مافى الأرحام) الآية . وقال تعالى (إليه يرد علم الساعة وماتخرج من أكمامها وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) الآيات ، وقال تعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) وقال تعالى (ومايدريك لعل الساعة تكون قريباً) وقال (ومايدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يماورن فى الساعة لفى ضلال بعيد) وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) وقال تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوما يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وغيرها من الآيات . وتقدم حديث جبريل المشهور قوله عليه السلام للنبى ﷺ « أخبرنى عن الساعة . قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل » الحديث . وروى الإمام أحمد فى مسنده عن بريدة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خمس لايعلمها إلا الله عز وجل : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتح الغيب خمس ، ثم قرأ : إن الله عنده علم الساعة » وفى الصحيحين أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فناداه بصوت جهورى فقال : يامحمد ، قال له رسول الله ﷺ : هاؤم ــ على نحو من صوته ــ قال : يامحمد ، متى الساعة ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها ؟ قال : ماأعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله : المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث ، ففيه أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا سئل عن الذى لايحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ماهو الأهم فى حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته . ولمسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة ، فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » ، يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة ، وله عن أنس رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول

الله ﷺ « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لايدركه الهرم حتى تقوم الساعة » وفى رواية أن رجلا سأل النبى ﷺ قال : متى الساعة ؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة ، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال « إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » قال أنس ذلك الغلام من أترابى . وفى رواية عن أنس قال : مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابى ، فقال النبى ﷺ « إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » . وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رجلا من أهل البادية أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله متى الساعة قائمة ؟ قال « ويلك وماأعددت لها ؟ قال ماأعددت لها إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : إنك مع من أحببت . فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : نعم . ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً . فمر غلام للمغيرة وكان من أقرانى فقال : إن أخر هذا فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم فى حديث عائشة رضى الله عنها . وقال ابن جرير : أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر « تسألون عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ماعلى وجه ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتى عليها مائة سنة » رواه مسلم . وفى الصحيحين عن ابن عمر مثله ، قال ابن عمر : وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن . وروى أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة ، قال فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام ، فقال لاعلم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال لاعلم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى : أما وجبتها فلم يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج ، قال ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال فيهلكه الله عز وجل . ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لايأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولايمرون على ماء إلا شربوه . قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم ، فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم . أى تنتن قال فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر » قال الإمام أحمد قال يزيد بن هارون « ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم » ثم رجع إلى حديث هشيم قال « ففيم عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فان الساعة كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهاراً » . ورواه ابن ماجه بنحوه .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : هؤلاء أكابر أولى العزم من الرسل ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين ، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ، ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به ، وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال « علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو . ولكن سأخبركم بمشاريطها ومايكون بين يديها ، إن بين يديها فتنة وهرجاً . قالوا : يارسول الله الفتنة قد عرفناها فما هو الهرج ؟ قال بلسان الحبشة القتل . قال ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحدهم يعرف أحداً » وروى النسائى عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ لايزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) الآية » وإسناده جيد قوى ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى : فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه نبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة والعاقب والمقفى والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما يثبت عنه فى الصحيح ومن حديث أنس وسهيل بن سعد رضى الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين . وقرن بين إصبعيه السبابة والتى تليها » ومع هذا كله قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال (قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو . ولكن أكثر الناس لايعلمون) اهـ .

(لكننا نؤمن) ونصدق (من غير امترا) من غير شك (بكل ماقد صح) سنده وصرح لفظه (عن خير الورى) نبينا محمد ﷺ الذى لاينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى (من ذكريات) أمارات (تكون) تقع (قبلها) قبل الساعة (وهى) أى تلك الأمارات (علامات) لمجىء الساعة وقربها ودنوها (وأشراط لها) أى لأقترابها . وقد أشار القرآن إلى قربها ودنوها وكثير من علاماتها قال الله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) الآيات . وقد ذكر الله تعالى أن بعثة نبينا ﷺ من أشراطها كما قال عز وجل (هذا نذير من النذر الأولى ـــ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة) وقال تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) وقال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) الآيات . وانشقاق القمر من معجزات نبينا بمكة من قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وذكر تعالى من كبار أشراطها الدخان ونزول عيسى لقتل الدجال وخروج يأجوج ومأجوح وطلوع

الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض وغيرها كما قال تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) الآيات ، وقال تعالى فى شأن عيسى (بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) وقال تعالى فى شأن يأجوج ومأجوج (ثم أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لايكادون يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ، قال مامكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهروه وماستطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاً وكان وعد ربى حقاً . وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً) وقال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق) الآيات ، وقال تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون) ، وقال تعالى (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) وقال تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) وأما الأحاديث فى أشراط الساعة فكثيرة متواترة وقد تقرر فى حديث جبريل على أختلاف ألفاظه وتباين طرقه ذكره ﷺ من أماراتها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان وقد تقدم قوله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى وفى صحيح مسلم وغيره عن حذيفة رضى الله عنه قال « قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ماترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه » ، وفيه عن أبى زيد عمرو بن أخطب الأنصارى رضى الله عنه قال « صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا » . وفيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لاتقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس

عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ويقول كل رجل منهم لعلى أكون أنا الذى أنجو ـــ وفى رواية : فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً » ، وفى رواية عنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لاتقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ـــ أو بدابق ـــ فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا قالت الروم : خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا والله لانخلى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لايتوب الله عليهم أبداً ، ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث لايفتتنون أبداً فيفتتحون قسطنطينية ، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان إن المسيح قد خلفكم فى أهليكم ، فيخرجون ، وذلك باطل فإذا جاءوا الشام خرج ، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيأمهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه فى حربته » ، والأعماق قال فى القاموس : بلد بين حلب وانطاكيه مصب مياه كثيرة لاتجف إلا صيفاً وهو العمق جمع بأجزائه أهـ وقال أيضا : دابق كصاحب وهاجر قرية بحلب ، وفى الأصل اسم نهر ، ودويبق قرية بقربها ، وفيه عن يسير بن جابر قال : هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى إلا « ياعبد الله ابن مسعود جاءت الساعة » قال فقعد وكان متكئاً فقال : إن الساعة لاتقوم حتى لايقسم ميراث ولايفرح بغنيمه ، ثم قال بيده هكذا ونحاها نحو الشام فقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام . قلت : الروم تعنى ؟ قال : نعم ، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة فيشترط المسلمون شرطة للموت لاترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لاترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل ، فيفىء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لاترجع إلا غالبة ، فيقتتلون حتى يمسوا فيفىء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتفنى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدبرة عليهم فيقتلون مقتلة ، إما قال لايرى مثلها ، وإما قال لم ير مثلها ، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتا ، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقى منهم إلا الرجل الواحد ، فبأى غنيمة يفرح أو أى ميراث يقاسم ، فبينما هم كذلك إذا سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم فى ذراريهم ، فيرفضون مافى أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة

فوارس طليعة ، قال رسول الله ﷺ : إنى لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ » وفيه عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال « طلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ماتذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات . فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب . وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » وفى رواية « ونار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس » زاد فى أخرى « تنزل معهم إذا نزلوا وتقيل معهم حيث قالوا » . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة . وفى رواية : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم » ، وقال البخارى رحمه الله تعالى « باب لاينفع نفساً إيمانها » حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عمارة حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذاك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » وقال أيضاً رحمه الله تعالى فى كتاب الفتن « حدثنا أبو اليمانى أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج — وهو القتل — وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه : لا أرب لى به ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولايطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . وفى الصحيحين عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبى

ذر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس « أتدرى أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعى من حيث جئت فتطلع من مغربها ، فذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) . وفى صحيح مسلم عن أبى زرعة عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ماكانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبة » . وفيه عن فاطمة بنت قيس . وكانت من المهاجرات الأولى رضى الله عنها — قالت : سمعت نداء المنادى منادى رسول الله ﷺ ينادى : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : ليلزم كل إنسان مصلاه ، ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنى والله ماجمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الدارى كان رجلاً نصرانيا فجاء فبايع وأسلم ، وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال ، حدثنى أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ثم أرفأوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لايدرون ماقبله من دبره من كثرة الشعر ، فقالوا : ويلك ماأنت ؟ فقالت : أنا الجساسة . قالوا : وماالجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق . قال لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنساناً رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه إلى عنقه مابين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد . قلنا : ويلك ماأنت ؟ قال : قد قدرتم على خبرى ، فأخبرونى ماأنتم ؟ قالوا نحن أناس من العرب ركبنا فى سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا فى أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعرة لايدرى ماقبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا ويلك ماأنت ؟ فقالت أنا الجساسة . قلنا وماالجساسة.؟ قالت اعمدوا إلى هذا الرجل فى الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق . فاقبلنا إليك سراعاً . وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة . فقال : أخبرونى عن نخل بيسان . قلنا : عن أى شأنها

تستخبر ؟ قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا له : نعم . قال : أما أنه يوشك أن لايثمر . قال : أخبرونى عن بحيرة طبرية . قالوا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فيها ماء ؟ قالوا هى كثيرة الماء . قال أما إن ماءها يوشك أن يذهب . قال : أخبرونى عن عين زغر . قالوا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فيها ماء ، وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها . قال : أخبرونى عن نبى الأميين مافعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب . قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم . قال كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه . قال لهم : قد كان ذلك ؟ قالنا نعم . قال : أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه . وإنى مخبركم عنى ، إنى أنا المسيح ، وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاهما ، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتا يصدنى عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها . قالت قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته فى المنبر : هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة . يعنى المدينة . ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس نعم . قال : فإنه أعجبنى حديث تميم أنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا إنه فى بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ماهو من قبل المشرق ماهو من قبل المشرق ماهو ، وأومأ بيده إلى المشرق . قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ » . قال النووى رحمه الله تعالى الأهلب الغليظ الشعر كثيره ، وسميت الجساسة لتجسسها الأخبار للدجال . وجاء عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنها دابة الأرض المذكورة فى القرآن والله أعلم . وفيه عن ابن شهاب أخبرنى عروة بن الزبير أن زينب بنت أبى سلمة أخبرته أن أم حبيبة بنت أبى سفيان أخبرتها أن زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ قالت « خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً محمرا وجهه يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه — وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها — قالت فقلت : يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » ، وفيه عن النواس بن سمعان قال « ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : ماشأنكم ؟ قلنا : يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست

فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم ، إنه شاب قطط عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالا ، ياعباد الله فاثبتوا . قلنا : يارسول الله ومالبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، أقدروا له قدره . قلنا : يارسول الله ومإسراعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ماكانت دراً وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم . ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل . ثم يدعو رجلا ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك . فبينما هو كذلك إذا بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق . بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كجمان اللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ، ثم يأتى عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إنى قد أخرجت عباداً لى لايدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور . ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ، ويمر آخرهم فيقول : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويحضر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة . ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله تعالى طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لايكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ، ثم يقال للأرض أنبتى ثمرك وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك فى الرسّل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم

لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت اباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة » . زاد فى رواية بعد قوله « لقد كان بهذه مرة ماء » : ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض ، هلم فلنقتل من فى السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً ، وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرانى الناس فقال : إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » .
وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر » ، وفى رواية قال رسول الله ﷺ « الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر — ثم تهجاها ك ف ر — يقرأه كل مسلم » ، وفيه عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأى العين ماء أبيض ، والآخر رأى العين نار تأجج ، فإما أدركهما أحد فليأت النهر الذى ناراً وليغمض ثم ليطاطىء رأسه فيشرب منه ، فانه ماء بارد . وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه « كافر » يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب » قال النووى : ظفرة بفتح الظاء المعجمة والفاء وهى جلدة تغشى البصر ، وقال الأصمعى : لحمة تنبت عند المآق .
وفيه عن أبى سعيد الخدرى قال « حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلا عن الدجال ، فكان فيما حدثنا قال : يأتى وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة ، فينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل وهو خير الناس — أو من خير الناس — فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله ﷺ ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون فى الأمر ؟ فيقولون : لا ، قال فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه : والله ماكنت فيك قط أشد بصيرة منى الآن . قال فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه » . ورواية قال : قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين ، فتلقاه المسائح مسائح الدجال فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذى خرج ، قال فيقولون له : أو ماتؤمن بربنا ؟ فيقول : مابربنا خفاء . فيقولون اقتلوه . غيقول بعضهم لبعض أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه . قال فينطلقون به إلى الدجال فإذا رآه المؤمن قال : ياأيها الناس هذا الدجال الذى ذكره رسول الله ﷺ . قال

فيأمر الدجال به فيشج فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً ، قال فيقول : أو ماتؤمن بى ، قال فيقول : أنت المسيح الكذاب . قال فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه ، قال ثم يمشى بين القطعتين ثم يقول قم ، فيستوى قائماً ، قال ثم يقول له : أتؤمن بى ؟ فيقول : ماازددت فيك إلا بصيرة . قال ثم يقول : ياأيها الناس إنه لايفعل بعدى بأحد من الناس . قال فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل مابين رقبته إلى ترقوته نحاسا فلا يستطيع إليه سبيلا . قال فيؤخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقى فى الجنة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين » . وفيه عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب ابن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى يقول : سمعت عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال : ماهذا الحديث الذى تحدث به تقول إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ـــ أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوها ـــ لقد هممت أن لاأحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيما ، يحرق البيت ويكون ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ يخرج الد جال فى أمتى فيمكث أربعين ـــ لاأدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً ـــ فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبعين سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير ـــ أو إيمان ـــ إلا قبضت حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » قال سمعتها من رسول الله ﷺ . قال « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لايعرفون معروفاً ولاينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع ليتا . قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله ـــ أو قال ينزل الله ـــ عز وجل مطراً كأنه الطل أو الظل (نعمان الشاك) فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقول : ياأيها الناس هلم إلى ربك ، وقفوهم إنهم مسئولون ، قال : ثم يقال أخرجوا بعث النار ، فيقال من كم ؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعين وتسعين ، قال فذاك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق » . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .

« ليس من بلد إلا سيطأه الدجال ذو مناف الدجال ، إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها ، فينزل بالسبخة ، فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليها منها كل كافر ومنافق » وفى رواية « فيأتى سبخة الجرف فيضرب رواقه وقال فيخرج إليه كل منافق ومنافقة » قال النووى : فيضرب رواقه أى ينزل هناك ويضع ثقله . والجرف قال فى القاموس : موضع بقرب المدينة وموضع قرب مكة وموضع باليمن وموضع باليمامة والمقصود فى الحديث هو الأول . وفيه عنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة » . وفيه عن أم شريك أنها سمعت النبى ﷺ يقول « ليفرن الناس من الدجال فى الجبال . قالت أم شريك : يارسول الله فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل » ، وفيه عن عمران بن حصين قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « مابين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال » ، والأحاديث فى ذكر الدجال وصفته والإنذار منه والتحذير عنه أكثر من أن تحصى ، وأعظم من أن تستقصى . وكذا الأحاديث فى الفتن والملاحم بين يدى القيامة وغيرها من أشراط الساعة . وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالاستعاذة من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال فى كل صلاة فريضة أو نافلة ، وفى الترمذى عن محرز بن هارون عن عبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلا إلى فقر منسى ، أو غنى مطغى ، أو هرم مفند ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » ثم قال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث الأعرج عن أبى هريرة إلا من حديث محرز ابن هارون . وروى معمر هذا الحديث عمن سمع سعيدا المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ نحو هذا .

ويدخل الإيمان بالموت وما من بعده على العباد حتما

(ويدخل) فى الإيمان باليوم الآخر (الإيمان بالموت) الذى هو المفضى بالعبد إلى منازل الآخرة ، وهو ساعة كل إنسان بخصوصه ، ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث المتقدم « أن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم »

والإيمان بالموت يتناول أموراً :

منها تحتمه على من كان فى الدنيا من أهل السموات والأرض من الإنس والجن والملائكة

وغيرهم من المخلوقات ، قال الله تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون) وقال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، ومالحياة الدنيا إلا متاع الغرور) وقال تعالى لنبيه ﷺ (إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) وقال تعالى (وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) ، وقال تعالى (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون . كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) وقال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما إن النبى ﷺ كان يقول « أعوذ بعزتك الذى لااله إلا أنت الذى لايموت ، والجن والإنس يموتون » .

ومنها إن كلا له أجل محدود وأمد ممدود ينتهى إليه لاتجاوزه ولايقصر عنه ، وقد علم الله تعالى جميع ذلك بعلمه الذى هو صفته ، وجرى به القلم بأمره يوم خلقه ، ثم كتبه الملك على كل أحد فى بطن أمه بأمر ربه عز وجل عند تخليق النطفة فى عينه فى أى مكان يكون وفى أى زمان فلا يزاد فيه ولاينقص منه ولايغير ولايبدل عما سبق به علم الله تعالى وجرى به قضاؤه وقدره وأن كل إنسان مات أو قتل أو حرق أو غرق أو بأى حتف هلك بأجله لم يستأخر عنه ولم يستقدم طرفة عين ، وأن ذلك السبب الذى كان فيه حتفه هو الذى قدره الله تعالى عليه وقضاه عليه وأمضاه فيه ولم يكن له بد منه ولا محيص عنه ولا مفر له ولا مهرب ولافكاك ولا خلاص ، وأنى وكيف وإلى أين ولات حين مناص ، قال الله تعالى (ماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) الآية وقال تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) الآيات وقال تعالى (أين ماتكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وقال تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) وقال تعالى (ولكل أمة أجل ، فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فى مواضع من القرآن — وقال تعالى (كل يجرى إلى أجل مسمى) وقال تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) وقال تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) وقال تعالى (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون) وقال

تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وقال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبؤكم بما كنتم تعملون) وغيرها من الآيات . وروى مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى فى صحيحه عن المعرور بن سويد عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة رضى الله عنها « اللهم متعنى بزوجى رسول الله ﷺ . وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية » فقال لها رسول الله ﷺ « إنك سألت الله تعالى لآجال مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة لايعجل شىء منها قبل حله ولايؤخر منها يوماً بعد حله ، ولو سألت الله تعالى أن يعافيك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر لكان خيراً لك » ، وفى رواية « قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئاً قبل حله أو يؤخر شيئاً عن حله ، ولو كنت سألت الله تعالى أن يعيذك من عذاب فى النار أو عذاب فى القبر كان خيراً وأفضل » ، وفى أخرى « وآثار مبلوغة » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ماقدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله تعالى (ولاينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول كل ذلك فى كتاب عنده . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وأما حديث أنس فى الصحيحين وغيرهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » فإنه مفسر بحديث أبى الدرداء رضى الله عنه عند ابن أبى حاتم رحمه الله تعالى قال : ذكرنا رسول الله ﷺ الزيادة فى العمر فقال « إن الله تعالى لايؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر » .

ومنها الإيمان بأن ذلك الأجل المحتوم والحد المرسوم لانتهاء كل عمر إليه لااطلاع لنا عليه ولاعلم لنا به ، وأن ذلك من مفاتح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها عن جميع خلقه فلا يعلمها إلا هو كما قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) الآية . وقال تعالى (وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً وماتدرى نفس بأى أرض تموت) الآية . وتقدمت الأحاديث فى معناها . وفى الحديث المشهور عند أحمد والترمذى وغيرهما عن جماعة من

الصحابة قال رسول الله ﷺ « إذا إراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ــ أو قال بها ــ حاجة » .

ومنها ذكر العبد الموت وجعله على باله كما هو الردم بينه وبين آماله وهو المفضى به إلى أعماله وإلى الحسن والقبيح من أقواله وأفعاله وإلى الجزاء الأوفى من الحكم العدل فى شرعه وقدره وقضائه ووعده ووعيده فلا يعاقب أحداً بذنب غيره ولايهضمه ذرة من حسن أعماله ، وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن الترمذى والنسائى وابن حبان وصححه قال : قال رسول الله ﷺ « أكثروا ذكر هاذم اللذات » الموت ، وقال البخارى رحمه الله تعالى فى كتاب الرقاق من صحيحه : باب قول النبى ﷺ « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » حدثنا على بن عبد الله حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو المنذر الطفاوى عن سليمان الأعمش قال حدثنى مجاهد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » ثم قال : باب فى الأمل وطوله وقول الله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور) بمزحزحه بمباعده . وقوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقال على رضى الله عنه : ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون . فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . حدثنا صدقة ابن الفضل أخبرنا يحيى بن سعيد عن سفيان قال حدثنا أبى عن منذر عن ربيع ابن خيثم عن عبد الله رضى الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً فى الوسط خارجاً منه وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط وقال « هذا الإنسان ، وهذا إجله محيط به أو قد أحاط به . وهذا الذى هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأغراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا » ، حدثنا مسلم حدثنا همام عن إسحاق ابن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس رضى الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطوطاً فقال « هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب » .

ومنها ــ وهو المقصود الأعظم التأهب له قبل نزوله ، والاستعداد لما بعده قبل حصوله ،

والمبادرة بالعمل الصالح والسعى النافع قبل دهوم البلاء وحلوله ، إذ هو الفيصل بين هذه الدار وبين دار القرار وهو الفصل بين ساعة العمل والجزاء عليه ، والحد الفارق بين أوان تقديم الزاد والقدوم عليه ، إذ ليس بعده لأحد مستعتب ولا اعتذار ، ولا زيادة فى الحسنات ولا نقص من السيئات ، ولاحيلة ولا افتداء ولا درهم ولا دينار ولا مقعد ولا منزل إلا القبر وهو إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار إلى يوم البعث والجزاء وجمع الأولين والآخرين وأهل السموات والأرضين والموقف الطويل بين يدى القوى المتين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين الحكيم العليم المقسط العدل الحكيم الذى لايحيف ولايجور ولايظلم مثقال ذرة إن ربى على صراط مستقيم ، ثم إما نعيم مقيم فى جنات النعيم وإما عذاب أليم فى نار الجحيم ، وإن لكل ظاعن مقراً ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ، قال الله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) الآيات ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد) الآيات ، وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء إجلها ، والله خبير بما تعملون . وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل) وهذا سؤالهم الرجعة عند الاحتضار ، وكذلك يسألون الرجعة عند معاينة العذاب يوم القيامة كما قال تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) الآيات . وكذلك يسألون الرجعة إذا وقفوا على النار ورأوا مافيها من عظيم الأهوال وشديد الإنكال والمقامع والأغلال والسلاسل الطوال ومالايصفه عقل ولايعبر عنه مقال ولايغنى بالخبر عنه ضرب الأمثال كما قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) الآيات ، وكذلك يسألون الرجعة إذا وقفوا على ربهم وعرضوا عليه وهم ناكسوا رءوسهم بين يديه كما قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) الآيات ، وكذلك يسألون الرجعة وهم فى غمرات الجحيم وعذابها الأليم كما قال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم

النذير) الآيات وقال تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) وغيرها من الآيات ويجمع كل ذلك قوله تعالى (هل ينتظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون) وغيرها من الآيات . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن أحد يموت إلا ندم » قالوا : وماندامته يارسول الله ؟ قال (إن كان محسناً ندم أن لايكون ازداد ، وإن كان مسيئاً ندم أن لايكون نزع » رواه الترمذى وغيره ، وله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل : ياابن عباس اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليك بذلك قرآنا (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعدا ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير . وقال قتادة فى قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت) قال كان العلاء بن زياد يقول : لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة ربه تعالى ، وقال قتادة : والله ماتمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا حول ولا قوة إلا بالله . وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا وضع — يعنى الكافر — فى قبره فيرى مقعده من النار قال فيقول رب أرجعون أتوب وأعمل صالحاً ، قال فيقال قد عمرت ماكنت معمراً ، قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام أو يفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها ، وروى الإمام أحمد والنسائى من حديث أبى بكر ابن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هدانى ، فتكون عليه حسرة . قال وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هدانى قال فيكون لهم الشكر » وقد تقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه عند مسلم « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها » الحديث ، وحديثه عند الترمذى « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا إلى فقر منس » الحديث . وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ » وللحاكم عنه

رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » يعنى أن هذه الخمس أيام الشباب والصحة والغنى والفراغ والحياة هى أيام العمل والتأهب والاستعداد والإستكثار من الزاد ، فمن فاته العمل فيها لم يدركه عند مجىء أضدادها ، ولاينفعه التمنى للأعمال ، بعد التفريط منه والاهمال ، فى زمن الفرصة والامهال ، فان بعد كل شباب هرماً ، وبعد كل صحة سقماً ، وبعد كل غنى فقراً ، وبعد كل فراغ شغلا ، وبعد كل حياة موتاً ، فمن فرط فى العمل أيام الشباب لم يدركه فى أيام الهرم ، ومن فرط فيه فى أوقات الصحة لم يدركه فى أوقات السقم . ومن فرط فيه فى حالة الغنى فلم ينل القرب التى لم تنل إلا بالغنى لم يدركه فى حالة الفقر ، ومن فرط فيه فى ساعة الفراغ لم يدركه عند مجىء الشواغل . ومن فرط فى العمل فى زمن الحياة لم يدركه بعد حيلولة الممات ، فعند ذلك يتمنى الرجوع وقد فات ، ويطلب الكرة وهيهات وحيل بينه وبين ذلك وعظمت حسرته حين لامدفع للحسرات ، ولقد حثنا الله عز وجل أعظم الحث وحضنا أشد التحضيض ودعانا إلى أغتنام الفرص فى زمن المهلة وأخبرنا أن من فرط فى ذلك تمناه وقد حيل بينه وبينه إذ يقول تعالى فى محكم كتابه داعياً عباده إلى بابه يامن يسمع صريح خطابه ويتأمل لطيف عتابه (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون . واتبعوا أحسن ماأنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون . أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ، بل قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) الآيات . وقال تعالى (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) وقال تعالى (وأنيبوا إلى ربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) الآيات وغيرها .

ومنها الإيمان ب (ما) الذى (من بعده) أى من بعد الموت (على العباد حتما) من أحوال الاحتضار إلى البعث والنشور إلى أن يقضى الله بين عباده ويستقر كل من الفريقين فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ونذكر ماتيسر من التقدير على كل أمر منها فى محله من هذه الأبيات الآتية إن شاء الله تعالى ، وهذا أولها

وإن كل مقعـــد مسئـــــول | ماالرب ماالديـــن ومماالــــرسول
وعنـــد ذا يثـــبت المهيمـــــن | بثابت القـول الذيـــن آمنـــوا
ويوقـــن المرتـــاب عنـــد ذلك | بانما مورده المهـــــــــالك

فى هذه الأبيات إثبات المسألة العظيمة ، وهى إثبات سؤال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه ، وقد تظاهرت بذلك نصوص الشريعة كتاباً وسنة وأجمع على ذلك أئمة السنة من الصحابة والتابعين فمن بعـدهم من أهل السنة والجماعة ، وإن أنكر ذلك بشر المريسى وأضرابه وأتباعهم من المعتزلة وحملوا على فاسد فهمهم قول الله عز وجل (لايذوقون فيها الموت إلا الموته الأولى) وقوله (ومماأنت بمسمع من فى القبور) قالوا فى الآية الأولى : لو صاروا أحياء فى القبور لذاقوا الموت مرتين لاموته واحدة . وقالوا فى الآية الثانية : إن الغرض من سياقها تشبيه الكفرة بأهل القبور فى عدم الاسماع ، ولو كان الميت حيا فى قبره أو حاساً لم يستقم التشبيه . قالوا : وأما من جهة العقل فإنا نرى شخصاً يصلب ويبقى مصلوباً إلى أن تذهب أجزاؤه ولا نشاهد فيه إحياء ومسألة ، والقول لهم بهما مع المشاهدة سفسطة ظاهرة ، وأبلغ منه من أكلته السباع والطيور وتفرقت أجزاؤه فى بطونها وحواصلها ، وأبلغ منه من أحرق حتى يفتت وذرى أجزاؤه المتفتته فى الرياح العاصفة شمالا وجنوباً وقبولا ودبوراً فإنا نعلم عدم احيائه ومسألته وعذابه ضرورة . هذه خلاصته شبههم الداحضة ، ومحصل آرائهم الكاسدة ، وأفهامهم الفاسدة ، وأذهانهم البائدة ، ولا عجب ولا استغراب ممن ألحد فى أسماء الله وصفاته ، وجحد ماصرح به تعالى فى محكم آياته ، ورد ماصح عن الرسول ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته ، وحكم العقل فى الشرع ، وعارض الوحى الرحمانى بالحدس الشيطانى ، وقدم الآراء السقيمه ، عن السنن المستقيمة ، وآثر الأهواء الذميمة على المحجة القويمة . فليس بعجيب ولا غريب ممن هذا شأنه أن ينكر عذاب القبر وغيره من أنباء الغيب التى لايشاهدها ، وماله لاينكر ذلك وهو لايعرف الإنسان إلا هذا الجسم الذى هو الجلد واللحم والعظم والعروق والأعصاب والشرايين ونحوها مما يمتلىء بكثرة الطعام والشراب فيه ويخلو بقلتهما عليه ، وماله لاينكر ذلك وهو لايقر بموجود إلا مسموعاً متكلماً به مبصراً مشموماً ملموساً ، وماله لاينكر ذلك وطريقته فى النصوص أبداً تأويل الصريح وتضعيف الصحيح ، وأنها آحاد ظنية لاتفيد اليقين وليست بأصل بزعمه عند المحققين . ولا ذنب للنصوص ومايقم منها إلا أنها خالفت هواه ، وصرحت بنقض دعواه ، وسدت

عليه باب مغزاه وأوجبت عليه نبذ أقوال شيوخه وهدمت عليه ماقد بناه ، وألزمته باطراح كل قول غير ماقاله الله أو رسوله ﷺ ، ونادت عليه بأبلغ صوت (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) ، والجواب عن الشبهة الأولى أن الآية لاتدل على مدعاهم بوجه ، فانها فى صفة أهل الجنة ومالهم فيها من كمال النعيم والخلد المقيم ، وأنهم لايذوقون فيها الموت بل ينعمون ولاييأسون ويخلدون فلا يموتون ، وأين هذا من نفى عذاب القبر الذى ادعوه . وقوله (إلا الموتة الأولى) تأكيد لنفى الموت عنهم فى الجنة ، ومالمانع من كون الروح تتصل بالجسد فى البرزخ اتصالا خاصاً ليتألم الجسد بما يتألم به من دون أن تكون حياته كالحياة الدنيوية ، بل ماالمانع من كونها حياة مستقرة لاتشبه الحياة الدنيا وهى أعظم منها فحجب الله تعالى رؤية ذلك عن عباده رحمة منه بهم كما يدل عليه ماأخبر به ﷺ فى الأحاديث الآتية من الإقعاد والمخاطبة والسؤال والجواب كفاحاً كما يشاء الله عز وجل والفتح لباب الجنة للمؤمن وفرشه منها وفتح باب النار للمرتاب وقمعه بالمطارق والمرازب وغير ذلك مما سيأتى إن شاء الله تعالى بسطه . وأيضاً فأهل الجنة المشار إليهم بقوله (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) قد وردت فيها الأحاديث الصحيحة أن أرواحهم تسرح فى الجنة فى حواصل طيور خضر كما روى الإمام أحمد محمد بن ادريس الشافعى عن الإمام مالك بن أنس عن الإمام محمد بن شهاب الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى إلى جسده يوم يبعثه » . وفيهم الشهداء الذين قال الله تعالى فيهم (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون) يقول الله تعالى لنبيه ﷺ وأصحابه (ولكن لاتشعرون) فهل شعرتم بذلك يامعاشر الزنادقة دونهم ؟ ويقول تعالى فيهم (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات ، وذلك بخلاف الذين كفروا فانهم كما قال الله تعالى فيهم (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) والموتة الثانية على أحد التفسيرين هى موتتهم بعد فتنة القبر . وتفسير الجمهور لاينافى ذلك فانهم حملوا الموتة الأولى على العدم الذى قبل وجودهم والثانية على الخروج من الدنيا ولم يعدوا نومتهم بعد الفتنة فى القبر موتة مستقلة لأن حال البرزخ من الموتة الثانية وليس هو من دار الدنيا ولا دار الآخرة بل هو حاجز بينهما ، والتفسير الأول محمول على موتتين بعد الوجود خلا حالة العدم المحض قبل إيجادهم . وروى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة قال : إذا وضع — يعنى الكافر — فى قبره فيرى مقعده من النار ، قال فيقول : رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً ، قال فيقال قد عمرت ماكنت

معمراً . قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وعن الشبهة الثانية الجواب من وجهين : الأول أن قوله (ومأأنت بمسمع من فى القبور) نفى لاستطاعة الرسول ﷺ أن يسمعهم ، وليس ذلك بمحال فى قدرة الله أن يسمعهم كما أسمع أهل القليب تبكيته ﷺ بقوله ﷺ « هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » الحديث سيأتى إن شاء الله ، وهذا إذا حمل على نفى مطلق السماع بالكلية ، الوجه الثانى أنه لم ينف مطلق السماع ، وإنما نفى سماع الاستجابة كما يدل عليه قوله ﷺ فى حديث القليب « ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لايجيبون » وبهذا يتضح تشبيه الكفار بهم فان الكفار كانوا يسمعون كلام النبى ﷺ ويسمعون منه كلام الله تعالى وهو يتلوه عليهم ولكن ليس ذلك بسماع استجابة ، ولهذا أثبت تعالى هذا السماع الظاهر لهم فى قوله تعالى (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها) ولو كان الكفار لم يسمعوا مطلقاً لاسماع استجابة ولا مطلقاً لم يكن القرآن حجة عليهم ولم يكن الرسول بلغهم لأنهم ماسمعوه منه ، ولا أفسد من قول هذا لازمه .

وأما شبهتهم العقلية فهى لاتليق إلا بعقولهم السخيفة ، فان الروح التى عليها العذاب أو النعيم المتصل بالجسم ألمه ليس بمدرك فى الدنيا ولا يعلمه إلا الله ، فمن كان لايدرك روح من يمشى معه ويكلمه ويأتمنه ويعامله فكيف يدركه إذا صار من عالم الآخرة ليس من عالم الدنيا ؟ وأيضاً فاحتجاب ذلك عن أهل الدنيا من حكمة الله تعالى البالغة ورحمته بهم وقد قال النبى ﷺ « لولا أن لاتدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع » وأيضا فاكثر أمور الإيمان اعتقادات باطنة منا لأمور غائبة عنا وهى أعلى صفات أهل الإيمان (الذين يؤمنون بالغيب) وذلك غائب عنا فى الحياة الدنيا ونحن نعلمه عن الله علم اليقين ، فإذا خرجنا من هذه الدار صار الغيب شهادة ورأينا ذلك عين اليقين (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) والذى احرقت أعضاؤه وتفرقت أجزاؤه يجمعه الذى أبدأه من لاأجزاء ولا أعضاء ، وسيأتى الحديث فيه إن شاء الله . ولافرق بين من كذب بجمع هذا وبين من كذب بجمع الناس ليوم لاريب فيه (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا

نعمل) الآية . فيا أيها الطالب الحق المتحرى الانصاف . إليك نصوص الآيات المحكمة ، والسنن القائمة ، فألق لها سمعك وأحضر قلبك ، وانظر بماذا عارضها الذين فى قلوبهم زيغ وكيف تتبعوا ماتشابه ، وأعرضوا عن المحكم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما أخبر الله تعالى عنهم ، فردوا المحكم بالمتشابه ولم يردوا علم ماغرب عنهم علمه إلى عالمه ، وأحمد الله تعالى إذا هداك لما اختلفوا فيه ووفقك لما انحرفوا عنه من الحق المبين ، وقل كما قال الراسخون فى العلم (آمنا به كل من عند ربنا ـ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

قال الله تبارك وتعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية . قال أئمة التفسير (والملائكة باسطو أيديهم) أى إليهم بالضرب والنكال وأنواع العذاب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم (أخرجوا انفسكم) وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم وغضب الرحمن الرحيم ، فتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) أى اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والإنقياد لرسله ، وسيأتى فى الأحاديث كيفية احتضار المؤمن والكافر قريباً إن شاء الله . ووجه الدلالة من هذه الآية أنه إذا كان يفعل به هذا وهو محتضر بين ظهرانى أهله صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وهم لايرون شيئاً من ذلك ولايسمعون شيئاً من ذلك التقريع والتوبيخ ولايدرون بشىء من ذلك الضرب ، غير أنهم يرون مجرد احتضاره وسياق نفسه لايعلمون بشىء مما يقاسون الشدائد فلان يفعل به فى قبره وأعظم منه ولايعلمه من كشف عنه أولى وأظهر ، لأنهم لم يطلعوا على مايناله بين أظهرهم فكيف وقد انتقل إلى عالم غير عالمهم ودار غير دارهم ، فلا بد للمخالف من أحد أمرين إما أن يقر بما أخبر الله تعالى به فى المحتضر فيلزمهم ماورد فى عذاب القبر ، أو يجحد هذا وهذا فيكفر بتكذيبه الله ورسوله فبشره بتأويل هذه الآية إذا صار إلى ماصار إليه المكذبون .

وقال (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) وهذه الآية نصها فى عذاب القبر بصريح الأحاديث الآتية

وباتفاق أئمة التفسير من الصحابة فالتابعين فمن بعدهم وأن المراد بالتثبيت هو عند السؤال فى القبر حقيقة ، وإن من أنكر ذلك اعتماداً على كونه لايراه ولايسمعه فقد أنكر أن يكون الله يفعل مايشاء .

وقال تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) روى ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ، تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود ــ أودهم ــ حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه ، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) وتقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى ذلك قريباً وسيأتى الأحاديث فيه ، وقال تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ذكر العينى هذه الآية فى شرح هذا الباب من صحيح البخارى وقال : فإن الله تعالى ذكر الموته مرتين وهما لاتتحققان إلا أن يكون فى القبر حياة وموت حتى تكون إحدى الموتتين مايتحصل عقيب الحياة فى الدنيا ، والأخرى مايتحصل عقيب الحياة التى فى القبر أهـ . قلت وهذا هو تفسير السدى فى هذه الآية حيث قال : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا ثم أميتوا فأحيوا يوم القيامة أهـ . والآية تحتمله ، لكن المشهور عن ابن مسعود وابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم أن هذه الآية كقوله عز وجل (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وقد قدمنا الجمع بين هذين التفسيرين ولله الحمد والمنة .

وقال تعالى (سنعذبهم مرتين) قال ابن مسعود وأبو مالك وابن جريج والحسن البصرى وسعيد وقتادة وابن اسحاق ماحاصله : إن المراد بذلك عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم هو عذاب النار . وقال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر . وقال تعالى فى قوم نوح (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) وقال تعالى (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تسرح بهم فى الجنة حيث شاءوا ، وإن أرواح ولدان المؤمنين فى أجواف عصافير تسرح فى الجنة حيث شاءت فتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش

وإن أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها ، فذلك عرضها . وفى حديث الإسراء الطويل الذى أخرجه البيهقى وابن جرير وابن أبى حاتم من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال فيه « ثم انطلق بى إلى خلق الله عز وجل ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، وآل فرعون كالابل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولايعقلون » وفى حديث عائشة فى قصة اليهودية التى قالت لها وقاك الله من عذاب القبر ، فأنكرت عائشة رضى الله عنها ذلك ، فلما رأت النبى ﷺ قالت له ، فقال ﷺ (لا) قالت عائشة رضى الله عنها : ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك « وإنه أوحىَ إلى أنكم تفتنون فى قبوركم » وسيأتى إن شاء الله قريبا . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : فيقول ماالجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدوا وعشياً فى البرزخ ، وليس فيها دلالة — يعنى تامة — على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور ، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح ، فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضيه . وقد يقال : إن هذه الآية دلت على عذاب الكفار فى البرزخ ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنبه . وهذا الجواب هو الراجح عندى لما يدل عليه قوله ﷺ « إنما يفتن يهود » ، وذلك قبل أن يوحى إليه أن أمته تفتنَ . والجواب الأول مرجوح لأن الآيات أيضاً صريحة فى اتصال عذاب القبر بالروح والجسد ، وماليس صريحاً منها فمحتمل يحمل على الصريح إذ لم يجىء فى آية تخصيصه بالروح دون الجسد ونفيه عن الجسد ، وقال الله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء . بل إن الله عليم بما كنتم تعملون ، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فلبئس مثوى المتكبرين) قال ابن كثير رحمه الله تعالى وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم وخلدت فى نار جهنم ، (لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها) الآية . وكذلك قال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبينَ يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقال تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

(فصل) وأما نصوص السنة فى إثبات عذاب القبر فقد بلغت الأحاديث فى ذلك مبلغ التواتر ، إذ رواها أئمة السنة وحملة الحديث ونقاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ ، منهم أنس بن مالك وعبد الله بن عباس والبراء بن عازب وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت أبى بكر وأبو أيوب الأنصارى وأم خالد وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وسمرة بن جندب وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله وسعد ابن أبى وقاص وزيد بن أرقم وأبو بكرة وعبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبوه عمرو وأم مبشر وأبو قتادة وعبد الله ابن مسعود وأبو طلحة وأسماء أيضاً وعبد الرحمن بن حسنة وتميم الدارى وحذيفة وأبو موسى والنعمان بن بشير وعوف بن مالك .

فأما حديث أنس بن مالك رضى الله عنه فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عياش حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد . قال وقال لى خليفة حدثنا ابن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذهب أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ماكنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال النبى ﷺ : فيراهما جميعاً . وأما الكافر أو المنافق فيقول : لاأدرى . كنت أقول مايقول الناس ، فيقال : لادريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » ورواه مسلم عن طرق عن قتادة بنحو وزاد فيه « قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً — يعنى المؤمن — ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون » . ولهما عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ « وأعوذ بك من عذاب القبر » . ولمسلم عنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع » .

وأما حديث عبد الله بن عباس فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن مجاهد عن طاووس قال ابن عباس رضى الله عنهما « مر النبى ﷺ على قبرين فقال : إنهما ليعذبان ، ومايعذبان فى كبير » ثم قال « بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وإما الآخر فكان لايستتر من بوله » ثم قال « أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين ثم غرز كل واحد منهما على قبر ثم قال : لعله يخفف عنهما مالم ييبسا » رواه فى مواضع من صحيحه . ورواه مسلم أيضاً وغيره . ولهما وللنسائى عنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ

« كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلم السورة من القرآن قولوا : اللهم نعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

وأما حديث البراء بن عازب فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيدة عن البراء ابن عازب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا قعد المؤمن فى قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) رواه فى مواضع ووافقه عليه مسلم وغيره . وروى الإمام أحمد عنه رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فأنتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكث به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » — مرتين أو ثلاثاً — ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوهم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان — قال — فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الريح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول دينى الإسلام . فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وماعلمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت . فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة . فيأتيه من

روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد البصر ، قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح : فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير ، فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى — قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب . قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا تفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فيطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لاأدرى . فيقولان : مادينك ؟ فيقول : هاه هاه لاأدرى . فيقولان : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لاأدرى . فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى ، فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لاتقم الساعة » زاد فى رواية فى قصة المؤمن « حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء ، وفتحت له أبواب السماء ، وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم » وزاد فى قصة الكافر « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين — قال البراء — ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من النار » . ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه بنحوه .

وأما حديث عمر بن الخطاب فرواه مسلم من طرق عنه رضى الله عنه قال « إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى . قال فقال عمر . فو الذى بعثه بالحق ماأخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ . قال فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض ، وانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال : يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان ، هل وجدتم ماوعدكم الله ورسوله حقاً ؟فإنى وجدت ماوعدنى الله حقاً . قال عمر : يارسول الله كيف تكلم أجساداً لاأرواح فيها ؟ قال : ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ، غير أنهم لايستطيعون أن يردوا على شيئاً » . ولأبى داود والنسائى وابن ماجه عنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجبن والبخل وعذاب القبر وفتنة الصدر » .

وأما حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فقال البخارى رحمه الله تعالى « باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى . حدثنا إسماعيل قال : حدثنى مالك بن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إنَّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . وله عنه رضى الله عنه قال « اطلع النبى ﷺ على أهل القليب فقال : وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ؟ فقيل له : تدعو أمواتاً ؟ فقال : ماأنتم بأسمع منهم ولكن لايجيبون » .

وأما حديث عائشة أم المؤمنين فقال البخارى رحمه الله تعالى « باب التعوذ من عذاب القبر فى الكسوف . حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبى ﷺ أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ أيعذب الناس فى قبورهم ؟ فقال رسول الله ﷺ عائذاً بالله من ذلك — ثم ذكر حديث الكسوف بطوله وفيه آخره — ثم آمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر » ورواه مسلم بنحوه ، وقال البخارى أيضاً « حدثنا عبدان أخبرنى أبى سمعت الأشعث عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال : عذاب القبر حق — قالت عائشة : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر » ووافقه عليه مسلم وغيره . وقال مسلم أيضاً

« حدثنا هارون بن سعيد وحرملة ابن يحيى ، قال هارون حدثنا ـــ وقال حرملة أخبرنا ـــ ابن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب قال حدثنى عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على رسول الله ﷺ وعندى امرأة من اليهود وهى تقول : هل شعرت أنكم تفتنون فى القبور ؟ قالت فارتاع رسول الله ﷺ وقال : إنما تفتن يهود . قالت عائشة فلبثنا ليالى . ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور . قالت عائشة رضى الله عنها : فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر » وقال رحمه الله تعالى أيضاً « حدثنا زهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم كلاهما عن جرير ، قال زهير حدثنا جرير عن منصور عن أبى وائل عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت علىّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم . قالت : فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما ، فخرجتا ودخل على رسول الله ﷺ فقلت له : يارسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا على فزعمتا أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، فقال : صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم ، ثم قالت فما رأيته بعد فى صلاة إلا ينعوذ من عذاب القبر » ولهما عنها رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال . اللهم اغسل عنى خطاياى بماء الثلج والبرد ، ونق قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب » ولمسلم عنها من حديثها فى الكسوف ، وفيه قوله ﷺ فى خطبته « ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتمونى تأخرت ، ورأيت فيها ابن لحى وهو الذى سيب السوائب .

وأما حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما فقال البخارى رحمه الله تعالى « حدثنا يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب قال أخبرنى يونس عن ابن شهاب أخبرنى عروة بن الزبير أنه سمع أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما تقول : قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التى يفتن فيها المرء ، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة » . ولهما عنها رضى الله عنها حديث الكسوف بطوله ، وفيه : « فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال : مامن شىء كنت لم أره إلا قد رأيته فى مقامى هذا حتى الجنة والنار ، لقد أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور مثل ـــ أو قريباً منه ـــ فتنة الدجال . لاأدرى أيتهما قالت

أسماء . يؤتى أحدكم فيقال : ماعلمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن ـــ أو الموقن ، لاأدرى أى ذلك قالت أسماء ـــ فيقول : محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا وآمنا واتبعنا . فيقال له : نم صالحاً ، فقد علمناك كنت لموقناً وأما المنافق ـــ أو المرتاب ، لاأدرى أى ذلك قالت اسماء ـــ فيقول : لاأدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » قوله « لاأدرى أى ذلك الخ » التردد فيه من فاطمة بنت المنذر الرواية عن أسماء رضى الله عنهما .

وأما حديث أبى أيوب الأنصارى فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا ابن المثنى حدثنا يحيى حدثنا شعبة قال : حدثنى عون بن أبى جحيفة عن البراء ابن عازب عن أبى أيوب رضى الله عنهم قال « خرج النبى ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً ، فقال : يهود تعذب فى قبورها » رواه مسلم من طريق جماعة عن شعبة به .

وأما حديث أم خالد فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا معلى حدثنا وهيب عن موسى بن عقبة قال « حدثتنى ابنة خالد بن سعيد بن العاصى أنها سمعت النبى ﷺ وهو يتعوذ من عذاب القبر » . وقال فى كتاب الدعوات : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا موسى بن عقبة به إلخ .

وإما حديث أبى هريرة فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا حماد بن زيد حدثنا بديل عن عبد الله بن شقيق عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها » قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال « ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق به إلى ربه عز وجل . ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال : وإن الكافر إذا خرجت روخه » قال حماد وذكر من نتنها وذكر لعناً « ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة : فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا » ولهما عنه رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ يدعو : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » . وقال الترمذى رحمه الله تعالى : باب ماجاء فى عذاب القبر . حدثنا أبو سلمة يحيى بن خلف البصرى أخبرنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قبر الميت ـــ أو قال أحدكم ـــ أتاه ملكان أسودان

أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول ماكان يقول : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا . ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقولان نم كنومة العروس الذى لايوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون ، فقلت مثله ، لاأدرى . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك . فيقال للأرض التئمى عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، فلايزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو ابن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إن الميت يحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ، ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان . فيقولون مرحباً بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان — قال : فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السواء والعياذ بالله قالوا : أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، اخرجى ذميمة وأبشرى بجحيم وغساق وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها السماء فيستفتح لها فيقال هذا فلان فيقولون لامرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، ارجعى ذميمة فإنه لاتفتح لك أبواب السماء ، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر .

وقال ابن حيان فى صحيحه : حدثنا عمرو بن محمد الهمدانى حدثنا زيد ابن أخرم حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة عن قسام بن زهير عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجى إلى روح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقال : ماهذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل الأرض ؟ ولايأتون السماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم . فيقولون : مافعل فلان ؟ فيقولون دعوه حتى يستريح فإنه كان فى غم فيقول قد مات أما أتاكم ؟ فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية . وأما الكافر فيأتيه ملائكة

العذاب بمسح فيقولون أخرجي إلى غضب الله تعالى فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض » زاد فى رواية « وأما الكافر إذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض ماوجدنا ريحاً أنتن من هذه فيبلغ الأرض السفلى » . وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال « ذلك إذا قيل له فى القبر : من ربك ، ومادينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت . فيقال له : صدقت ، على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث » ، وقال ابن جرير رحمه الله تعالى : حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قال حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « والذى نفسى بيده ، إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين ، فان كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ماقبلى مدخل . فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة : ماقبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام : ماقبلى مدخل ، فيؤتى من رجليه فيقول فعل الخيرات : ماقبلى مدخل ، فيقال له : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال : أخبرنا عما نسئلك ، فيقول : دعنى حتى أصلى ، فيقال له : إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك ، فيقول : وعم تسألونى ؟ فيقال : أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه ، وماتشهد به عليه ؟ فيقول : أمحمد ؟ فيقال له : نعم فيقول : أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله تعالى . ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى ماأعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم تجعل نسمته فى النسيم الطيب ، وهى طير خضر يعلق بشجر الجنة . ويعاد الجسد إلى مابدأ من التراب ، وذلك قول الله عز وجل (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ورواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد بن عمرو ، وذكر جواب الكافر وعذابه ، وقال البزار رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى حدثنا الوليد بن القاسم حدثنا يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة أحسبه رفعه قال « إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين مايعاين فيود لو خرجت — يعنى نفسه — والله يحب لقاءه . وإن

المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض . فإذا قال تركت فلاناً فى الأرض أعجبهم ذلك ، وإذا قال إن فلاناً قد مات قالوا ماجىء به إلينا . وإن المؤمن يجلس فى قبره فيسأل من ربك ؟ فيقول ربى الله عز وجل . ويسأل من نبيك ؟ فيقول محمد ﷺ نبيى ، فيقال : ماذا دينك ؟ قال دينى الإسلام . فيفتح له باب فى قبره فيقول أو يقال : انظر إلى مجلسك . ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة . وإذا كان عدوا لله نزل به الموت وعاين ماعاين فإنه لايحب أن تخرج روحه أبداً والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس فى قبره أو أجلس فيقال له من ربك ؟ فيقول : لاأدرى ، فيقال لادريت ، فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ، ثم يقال له : نم كما ينام المنهوش » قلت لأبى هريرة : ماالمنهوش ؟ قال الذى تنهشه الدواب والحيات ، ثم يضيق عليه قبره . ثم قال : لانعلم رواه إلا الوليد بن مسلم ، وفى بعض النسخ ابن قاسم .

وأما حديث أبى سعيد وسلمان فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الله بن أبى الأسود حدثنا معتمر سمعت أبى حدثنا قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى ﷺ « أنه ذكر رجلا فيمن سلف وفى من كان قبلكم قال كلمة يعنى أعطاه الله مالا وولداً ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : أى أب كنت لكم ؟ قالوا خير أب . قال فانه لم يبتئر عند الله خيراً[1] وإن يقدر الله عليه يعذبه ، فانظر وإذا مت فأحرقونى حتى إذا صرت فحماً فاسحقونى — أو قال فاسحكونى — فإذا كان يوم عاصف فاذرونى فيها ، فقال نبى الله ﷺ فأخذ مواثيقهم على ذلك وربى . ففعلوا ثم أذروه فى يوم عاصف ، فقال الله عز وجل : كن ، فإذا هو رجل قائم ، قال الله : أى عبدى ماحملك على أن فعلت مافعلت ؟ قال : مخافتك ، أو فرق منك . قال فما تلافاه أن رحمه عندها » وقال مرة أخرى « فما تلافاه » فحدثت به أبا عثمان فقال سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه « اذرونى فى البحر » أو كما حدث — وفى رواية له عن أبى سعيد قال « ففعلوا فجمعه الله عز وجل فقال : ماحملك قال : مخافتك . فتلقاه برحمة » وقال رحمه الله تعالى « باب كلام الميت على الجنازة » حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن سعيد بن أبى سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول « قال رسول الله ﷺ : إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال

(١) أى لم يقدم لنفسه خبيئة خير .

على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت : قدموني قدموني ، وإن كانت غير صالحة قالت : ياويلهـــا ، أين يذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمعها الإنسان لصعق » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال « شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله ﷺ : ياأيها الناس ، إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك فى يده مطراق من حديد فأقعده فقال : ماتقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول له : صدقت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقول : كان هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت فهذا منزلك ، فيفتح له باباً إلى الجنة ، فيريد أن ينهض إليه فيقول له : اسكن أسكن ، ويفسح له فى قبره . وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له : ماتقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لاأدرى سمعت الناس يقولون شيئاً ، فيقول : لادريت ولا تليت ولا أهتديت . ثم يفتح له باباً إلى الجنة فيقول هذا منزلك لو كنت آمنت بربك ، فأما إذا كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا ، فيفتح له باباً إلى النار ، ثم يقمعه قمعة بالمطراق فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين . فقال بعض القوم : يارسول الله ماأحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق إلا هيل عند ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت » . ولابن مردوديه عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فى القبر » .

وإما حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا جرير بن حازم حدثنا أبو رجاء عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال « كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال فان رأى أحد قصها ، فيقول : ماشاء الله . فسألنا يوما فقال : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا لا . قال : لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى الأرض المقدسة ، فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده ــ قال بعض أصحابنا عن موسى ــ كلوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ، ويلتئم شدقه هذا ، فيعود فيضع مثله . قلت : ماهذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر ــ أو صخرة ــ فيشرخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه . وعاد رأسه كما هو فعـاد

إليه . قلت : من هذا ؟ قالا انطلق . فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً ، فإذا أقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا فإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة ، فقلت من هذا ؟ قالا انطلق ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم على وسط النهر ورجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان فقلت : ماهذا قالا انطلق . فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بى فى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها ، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان ، ثم أخرجانى منها فصعدا بى إلى الشجرة فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل فيها شيوخ وشبان . قلت : طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت . قالا : نعم ، أما الذى رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به مارأيت إلى يوم القيامة ، والذى رأيته يشترخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة . والذى رأيته فى الثقب فهم الزناة . والذى رأيته فى النهر آكلوا الربا . والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام . والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذى يوقد النار مالك خازن النار ، والدار الأولى التى دخلت دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء ، وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك ، فرفعت رأسى فإذا فوق مثل السحاب ، قال : ذاك منزلك ، قلت دعانى أدخل منزلى ، قالوا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله ، فلو استكملت أتيت منزلك .

وأما حديث عثمان رضى الله عنه فقال أبو داود : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بجير عن هانئ مولى عثمان عن عثمان رضى الله عنه قال « كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » قال ابن حجر : صححه الحاكم .

وأما حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن حاتم المؤدب أخبرنا على بن ثابت حدثنى قيس بن الربيع وكان من بنى أسد عن الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « أكثر مادعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة فى الموقف اللهم لك الحمد كالذى تقول وخيرا مما

نقول . اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، وإليك مآبى ولك رب تراثى . اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتأت الأمر ، اللهم إنى أعوذ بك من شر ماتجىء به الريح » .

وأما حديث زيد بن ثابت فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنى يحيى بن أيوب وأبو بكر بن أبى شيبة جميعاً عن ابن علية . قال ابن أيوب : حدثنا ابن عليه قال وأخبرنى سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى عن زيد بن ثابت قال أبو سعيد ولم أشهده من النبى لله فى حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ـــ قال كذا كان يقول الجريرى ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل أنا . قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قالوا : ماتوا فى الإشراك . فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورهـا ، فلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه . ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوَّذوا بالله من عذاب النار . قالوا نعوذ بالله من عذاب النار . فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر . قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر . قال : تعوذوا بالله من الفتن ماظهر منها ومابطن . قالوا : نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها ومابطن . قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال . قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال » .

وأما حديث جابر بن عبد الله فقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتانى القبر فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاء ملك شديد الانتهار فيقول له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : إنه رسول الله وعبده . فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذى نرى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة . فيراهما كليهما . فيقول المؤمن : دعونى أبشر أهلى ، فيقال له : اسكن . وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لاأدرى ، أقول كما يقول الناس . فيقال له : لادريت ، هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة أبدلك مكانه مقعدك من النار ، قال جابر : فسمعت النبى ﷺ يقول : يبعث كل عبد فى القبر على مامات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه » .

ولمسلم عنه من حديث الكسوف وفيه « وعرضت على النار ، فرأيت فيها امرأة من بنى إسرائيل تعذب فى هرة لها ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبه فى النار — وفى رواية — لقد جيء بالنار وذلكم حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها . وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه فى النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فان فطن له قال : إنما تعلق بمحجنى ، وإن غفل ذهب به . وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً » الحديث .

وإما حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فرواه البخارى من عدة طرق عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال « كان النبى ﷺ يعلمنا هؤلاء الكلمات كما تعلم الكتابة : اللهم إنى أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر » .

وأما حديث زيد بن أرقم فقال مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى فى صحيحه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة بن إبراهيم ومحمد بن نمير واللفظ لابن نمير ، قال إسحق أخبرنا — وقال الآخران حدثنا — أبو معاوية عن عاصم عن عبد الله ابن الحارث ، وعن أبى عثمان النهدى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « لاأقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول ، كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر . اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ، ومن قلب لايخشع ، ومن نفس لاتشبع ومن دعوة لايستجاب لها » رواه النسائى .

وأما حديث أبى بكرة فأخرجه النسائى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى أثر الصلاة إنى أعوذ بك من الكفر ، والفقر ، وعذاب القبر » .

وأما حديث عبد الرحمن بن سمرة فقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه (نوادر الأصول) : حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبى فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال « إنى رأيت البارحة عجيباً ، رأيت رجلا من أمتى جاء ملك الموت ليقبض روحه ، فجاء بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط

عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك . ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاء ذكر الله عز وجل فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم . ورأيت رجلا من أمتى يلتهب عطشاً ، كلما ورد حوضاً منع منه ، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة ، وهو متحير فيها ، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور . ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت : يامعشر المؤمنين كلموه ، فكلموه . ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته فصارت له ستراً على وجهه وظلا على رأسه . ورأيت رجلا من أمتى أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثياً على ركبتيه ، بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل . ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه . ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه ، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار ، فجاءته دموعه التى بكت من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار . ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط كما ترعد السعفة ، فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى . ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً ، فجاءته صلاته فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من أمتى أنتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وادخلته الجنة » . ورواه القرطبى رحمه الله فى تذكرته وقال : هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجى من أهوال خاصة .

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فرواه النسائى عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم ، وأعوذ بك من شر المسيح الدجال ، وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب النار .

وللحكيم الترمذى عنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر فتانى القبر ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أترد لنا عقولنا يارسول الله ؟ قال : نعم كهيئتكم اليوم . فقال عمر : فى فيه الحجر » وروى البغوى عنه رضى الله عنه موقوفاً عليه : إذا توفى العبد المؤمن أرسل الله عز وجل ملكين ، وأرسل إليه بتحفة من الجنة فيقال لها : اخرجى ياأيتها النفس المطمئنة ، اخرجى إلى روح وريحان ورب عنك راض ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد فى أنفه ، والملائكة على أرجاء السماء يقولون : قد جاء من الأرض روح طيبة — أو نسمة طيبة — فلا تمر بباب إلا فتح لها ، ولايملك إلا صلى عليها ، حتى يؤتى بها الرحمن عز وجل فتسجد ، ثم يقال لميكائيل : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين . ثم يؤمر فيوسع فى قبره ، سبعون ذراعاً عرضه ، وسبعون ذراعاً طوله ، وينبذ له الريحان ، وإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره ، وإن لم يكن جعل له نور مثل الشمس فى قبره ، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه . وإذا توفى الكافر أرسل الله إليه ملكين وأرسل قطعة من بجاد أنتن وأخشن من كل خشن فيقال : ياأيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى جهنم وعذاب أليم ، ورب عليك غضبان .

وأما حديث أبيه عمرو بن العاص فرواه مسلم فى قصة وفاته مطولا ، وفيه : « فإذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار ، فإذا دفنتمونى فشنوا على التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ماتنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى عز وجل » .

وأما حديث أم مبشر فأخرجه عنها ابن أبى شيبة فى مصنفه قالت : دخل على النبى ﷺ وأنا فى حائط من حوائط بنى النجار فيه قبور منهم قد ماتوا فى الجاهلية ، قالت : فخرج فسمعته يقول « استعيذوا بالله من عذاب القبر » قلت : يارسول الله وللقبر عذاب ؟ قال « إنهم ليعذبون عذاباً فى قبورهم تسمعه البهائم » .

وأما حديث أبى قتادة رضى الله عنه فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد ابن عثمان بن حكيم الأودى حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى إسحاق عن عامر بن سعد البجلى عن أبى قتادة الأنصارى رضى الله عنه فى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) الآية قال : إن المؤمن إذا مات

أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله عز وجل فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله ﷺ . فيقال له ذلك مرات ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك من النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : أنظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبت . وإذا مات الكافر أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ، من نبيك ؟ فيقول : لاأدرى . كنت أسمع الناس يقولون ، فيقال له : لادريت . ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال : انظر إلى مجلسك من الجنة لو ثبت . ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك إذا زغت . فذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

وأما حديث عبد الله بن مسعود فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا عثمان ابن أبى شيبة حدثنا جرير عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم بن سويد عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله رضى الله عنه قال : كان نبى الله ﷺ إذا أمسى قال « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله لا إله إلا الله وحده لاشريك له » قال أراه قال فيهن « له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسألك خير مافى هذه الليلة وخير مابعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر مابعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبور » ، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً « أصبحنا وأصبح الملك لله » حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حسين بن على عن زائدة عن الحسن بن عبيد الله الخ بنحوه ، وفيه « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر » وقال النسائى : أخبرنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا الفضل بن موسى عن زكريا عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ يتعوذ من خمس : من البخل ، والجبن ، وسوء العمر ، وفتنة الصدر ، وعذاب القبر » . وروى الطحاوى عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ « أمر بعبد من عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ عليه قبره ناراً » الحديث ذكره العينى فى شرح البخارى والله أعلم بصحته . وعزاه فى التبصرة إلى أبى القاسم الحريرى ، وتقدم عنه قريباً حديث أم حبيبة وفيه الاستعاذة من عذاب القبر .

وأما حديث أبى طلحة فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنى عبد الله ابن محمد سمع روح بن عبادة حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبى

طلحة « أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال . فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا : مانرى ينطلق إلا لبعض حاجة . حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يافلان بن فلان ، يافلان بن فلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ، فإنا قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ؟ قال فقال عمر : يارسول الله ماتكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ قال رسول الله ﷺ : والذى نفس محمد بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم » قال قتادة : أحياهم الله تعالى حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً .

وأما حديث أسماء الآخر فقام الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء — يعنى بنت الصديق رضى الله عنها — تحدث عن النبى ﷺ قالت : « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحف به عمله الصلاة والصيام ، قال فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده ، قال : فيناديه : اجلس ، فيجلس ، فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ يعنى النبى ﷺ قال : من ؟ قال : محمد . قال : أشهد أنه رسول الله . قال فيقول : على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث . وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شئ يرده فأجلسه فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ قال : أى رجل ؟ قال : محمد . قال يقول : والله ماأدرى ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . قال له الملك : على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث . قال ويسلط عليه دابة فى قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير تضربه ماشاء الله صماء لاتسمع صوته فترحمه » والأنسب لمكان هذا الحديث أن ينقل عند حديثى أسماء الأولين .

وأما حديث عبد الرحمن بن حسنة فقال أبو داود : حدثنا مسدد حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن ابن حسنة قال « انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبى ﷺ ، فخرج ومعه درقة ثم استتر بها ثم بال ، فقلنا انظروا إليه يبول كما تبول المرأة ، فسمع ذلك فقال : ألم تعلموا مالقى أصحاب بنى إسرائيل ، كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ماأصابه البول منهم فنهاهم فعذب فى قبره » ، ورواه النسائى وابن ماجه .

وأما حديثا تميم الدارى فرواه أبو يعلى الموصلى بسنده عنه مطولا بسياق عجيب ومتن غريب وغالب معناه فى الأحاديث الصحيحة فلا نطيل بسياقه استغناء عنه بغيره ولله الحمد والمنة .

وأما حديث حذيفة فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش قال : قال عقبة لحذيفة « ألا تحدثنا ماسمعت من النبى ﷺ ؟ قال : سمعته يقول : إن رجلا حضره الموت لما يئس من الحياة أوصى أهله إذا مات فأجمعوا لى حطباً كثيراً ثم أوروا ناراً حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فخذوها فاطحنوها فذرونى فى اليم فى يوم حار أو راح ، فجمعه الله فقال : لم فعلت؟ قال : خشيتك . فغفر له » . قال عقبة وأنا سمعته يقول : حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة حدثنا عبد الملك وقال « فى يوم راح » . وقد تقدمت هذه القصة من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد رواها البخارى رحمه الله تعالى أيضاً من حديث أبى هريرة فقال : حدثنى عبد الله بن محمد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « كان رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مت فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذرونى فى الريح ، فو الله لئن قدر على ربى ليعذبنى عذاباً ماعذبه أحداً . فلما مات فعل به ذلك . فأمر الله تعالى الأرض فقال : اجمعى مافيك منه ، ففعلت ، فإذا هو قائم ، فقال : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : يارب خشيتك حملتنى . فغفر له » وقال غيره « مخافتك يارب » ، ومحل هذا الحديث مع أحاديث أبى هريرة المتقدمة فلينقل إلى هناك .

وأما حديث أبى موسى فرواه أحمد والترمذى وحسنه الحاكم وصححه وهذا لفظ أحمد : عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « الميت يعذب ببكاء الحى ، إذا قالت النائحة : واعضداه ، واناصراه ، واكاسباه ، جبذ الميت وقيل : أنت عضدها ، أنت ناصرها ، أنت كاسبها ؟ » . ولفظ الترمذى « مامن ميت يموت فيقوم باكيه فيقول : واجبلاه واسنداه أو نحو ذلك إلا وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت ؟ » .

وأما حديث النعمان بن بشير فرواه الشيخان البخارى ومسلم عنه رضى الله عنه قال « أغمى على عبد الله بن رواحة ، فجعلت أخته عمرة تبكى : واجبلاه ، واكذا واكذا تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ماقلت شيئاً إلا قيل لى : أنت كذلك ؟ فلما مات لم تبك عليه رضى الله عنه » .

وأما حديث عوف بن مالك فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنى هرون ابن سعيد الأيلى . أخبرنى بن وهب أخبرنى معاوية بن صالح عن حبيب بن عبيد عن جبير بن نفير سمعه يقول سمعت عوف بن مالك يقول « صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره وأهلا خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه ، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار ». قال حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت . وفى رواية « وقه فتنة القبر وعذاب النار » .

وباللقـا والبـعث والـنشور ... وبقيامنـا من القبـور
غرلا حفـاة كجـراد منـتشر ... يقـول ذو الكفـران ذا يوم عسر

أى ويدخل فى الإيمان باليوم الآخر الإيمان بلقاء الله عز وجل الحاصل فيه ، قال الله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) وقال تعالى (والذين هم بلقاء ربهم يؤمنون) وقال تعالى (ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) وقال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً) وقال تعالى (إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها) وقال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله) وقال تعالى (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم) وقال تعالى (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) وقال تعالى (قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وقال تعالى (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) وقال تعالى (فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) وقال تعالى (إنهم كانوا لايرجون حساباً) وغيرها من الآيات .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقلت : يانبى الله أكراهية الموت ؟

فكلنا نكره الموت . فقال « ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه — وفى رواية — والموت قبل لقاء الله » . وفيه عن شريح بن هانىء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » قال فأتيت عائشة فقلت : ياأم المؤمنين ، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ إن كان كذلك فقد هلكنا . فقالت : إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ ، وماذاك ؟ قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وليس من أحد إلا وهو يكره الموت . فقالت : قد قاله رسول الله ﷺ ، وليس بالذى تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعر الجلد وتشأنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . وفيه عن عبادة بن الصامت وأبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ المرفوع منه دون شرحه .

وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « قالوا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس فى سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فو الذى نفسى بيده لاتضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد فيقول أى قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى قال فيقول : أفظننت أنك ملاق ؟ فيقول لا فيقول فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول أى قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك تراس وتربع ؟ فيقول بلى أى رب . فيقول : أفظننت أنك ملاق ؟ فيقول لا . فيقول فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير مااستطاع ، فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه من الذى يشهد على ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعلمه ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » . وفى حديث القراء أصحاب بئر معونة « بلغوا قومنا عنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » . وروى أنه كان قرآناً فنسخت تلاوته . والآيات والأحاديث فى إثبات لقاء الله عز وجل كثيرة جداً ، ومن كذب بذلك كفر .

(والبعث والنشور) أى ويدخل فى الإيمان باليوم الآخر . والإيمان بالبعث والنشور ، قال الله تبارك وتعالى لبنى إسرائيل (وإذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) . وقال تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون) وقال تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وقال تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لايهدى القوم الظالمين . أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير . وإذ قال إبراهيم أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم أجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم) وقال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) ، وقال تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . وقال تعالى (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كفروا بلقاء الله) الآيات ، وقال تعالى (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ، يوم تبدل الأرض والسموات) ، الآيات . وقال تعالى (وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) وقال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون) وقال تعالى (وقالوا أإذا كنا تراباً

وعظاماً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً . ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً . أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه) وقال تعالى (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) وقال تعالى (ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً) وقال تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم — إلى قوله — وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها) وقال تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) الآيات . وقال تعالى (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً) الآيات . وقال تعالى (ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً . فور ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) الآيات إلى آخر السورة . وقال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وقال تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً . ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً . فيذرها قاعاً صفصفاً لاترى فيها عوجاً ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) الآيات . وقال تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون) . وقال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وقال تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد .

كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير . يأأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى إجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء أهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلنا نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) وقال تعالى عن كفر عاد (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقا الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين) الآيات . وقال تعالى (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون بل وقالوا مثل ماقال الأولون قالوا أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين) وقال تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون . فتبارك الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقال تعالى (ألا إن لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ماأنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبؤهم بما عملوا ، والله بكل شىء عليم) وقال تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولايملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولانشوراً) وقال تعالى (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وماكانوا مهتدين) وقال تعالى (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) وقال تعالى (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـــ إلا قوله تعالى ـــ بل ادارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون . وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين .

إلى قوله ــ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ــ إلى قوله ــ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين) الآيات . وقال تعالى (ألم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شئ قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وماأنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولانصير) وقال تعالى (وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمىً وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ــ إلى قوله ــ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) الآيات ــ إلى قوله ــ (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ــ إلى قوله ــ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون) الآيات . وقال تعالى (والله خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ ، سبحانه وتعالى عما يشركون) . وقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شئ قدير) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب إلى يوم البعث ولكنم كنتم لاتعلمون) الآيات . وقال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير) . وقال تعالى (وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قال يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون) الآيات . وقال تعالى (ويسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ، ومايدريك لعل الساعة تكون قريباً) وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) الآيات . وقال تعالى (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) الآيات . وقال تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم

على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) . وقال تعالى (الله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) وقال تعالى (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) وقال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) الآيات . وقال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.. ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) الآيات . وقال تعالى (ألم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) وقال تعالى (أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ، إنا خلقناهم من طين لازب ، بل عجبت ويسخرون ، وإذا ذكروا لايذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فانما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله) الآيات ، وقال تعالى (قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين ، إلى يوم الوقت المعلوم) وقال تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) وقال تعالى (لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء) الآيات ، وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون (وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) الآيات ، وقال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير) وقال تعالى (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شىء محيط) وقال تعالى (وينذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وقال تعالى (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون) وقال تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى ومانحن

بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ، وماخلقنا السماوات والأرض ومابينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) الآيات ، وقال تعالى (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون) وقال تعالى (وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون) الآيات ، وقال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بل إنه على كل شيء قدير) وقال تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) إلى آخر السورة . وقال تعالى (والذاريات ذرواً إلى قوله إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) وقال تعالى (والطور وكتاب مسطور إلى قوله إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ، فويل يومئذ للمكذبين) الآيات ، وقال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) الآيات وقال تعالى (وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا) الآيات . وقال تعالى (فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) الآيات . وقوله تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وقال تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان) إلى آخر السورة ، وسورة الواقعة بتمامها ، وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآيات ، وقال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبؤهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد — إلى قوله — ثم ينبؤهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم) . وقال تعالى (ويوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون) وقال تعالى (يأأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) وقال تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) الآية ، وقال تعالى (يأأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم ، إنما تجزون ماكنتم تعملون . يأأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً

عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شئ قدير) ، وقال تعالى (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) وقال تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) الآيات ، وسورة الحاقة بكمالها ، وقال تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) الآيات ، وقال تعالى (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأحداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوايوعدون) وقال تعالى (فذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) الآيات . وقال تعالى (فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) وقال تعالى (لاأقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه) الآيات ، وقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وجاء جوابه فى الحديث « بلى إنه على كل شئ قدير » وقال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) الآيات بل السورة بتمامها ، وجميع السور التى بعدها . المرسلات والنبأ والنازعات وعبس والتكوير والانفطار والمطففين والانشقاق والطارق والغاشية والفجر والبلد وغيرها من السور ، بل القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل مافيه وتقرير ذلك بأصدق الأخبار وضرب الأمثال للاعتبار والارشاد إلى دليل ذلك لكل امرئ بأن يعتبر فى بدنه ويستدل به على إعادته ، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها فيحييها تعالى بالمطر فتصبح مخضرة تهتز بعد موتها بالقحط وهمودها وخمودها واسودادها ، فإذا أنزل عليها الماء أهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا يذكر إحياء الموتى بعد ذكر إحيائه الأرض ليستدل من له قلب شهيد على الآجل بالعاجل وعلى الغيب بالشهادة ، فيقول عز وجل (كذلك الخروج ، كذلك النشور ، كذلك تخرجون ، كذلك يحيى الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) .

وأما الأحاديث فى هذا الباب فكثيرة جداً ، وقد تقدم كثير منها فى مواضيع متفرقة ، وقال البخارى رحمه الله تعالى « حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك . فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون

على من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى فى مسنده « حدثنا أبو المغيرة حدثنا حريز حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشير بن جحاش قال : إن رسول الله ﷺ « بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ، قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى بنى آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراق قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة » . ورواه ابن ماجه عن أبى بكر ابن شيبة عن يزيد بن هرون عن حريز بن عثمان به . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان بن سعيد الزيات عن هشيم عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله هذا بعدما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال : ونزلت الآيات من آخر يس . وروى مسلم من طريق معمر عن همام بن منبه قال : هذا ماحدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، فذكر أحاديث ، منها : وقال رسول الله ﷺ « إن فى الإنسان عظماً لاتأكله الأرض أبداً فيه يركب يوم القيامة . قالوا : أى عظم هو يارسول الله ؟ قال : عجب الذنب » وفيه من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب ، منه خلق وفيه يركب » . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله « مابين النفختين أربعون — قالوا : ياأبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون شهراً ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال أبيت — ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال : وليس من الإنسان شىء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » . ورواه البخارى عن عمر ابن حفص عن أبيه عن الأعمش بمعناه ، دون قوله « ثم ينزل الله تعالى السماء ماء » ، وتقدم حديث عبد الله بن عمرو قريباً وفيه « ثم ينفخ فى الصور فلايسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطراً كأنه الطل — أو الظل ، نعمان الشاك — فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام

ينظرون . ثم يقال : ياأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون . قال ثم يقال : أخرجوا بعث الناس ، فيقول : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق » . وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش ، فلا أدرى كذلك كان أم بعد النفخة » وفى حديث الصور الآتى قريباً إن شاء الله (ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر ، فتمطر أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت ، فتنبت كنبات الطراثيث — أو كنبات البقل — حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله عز وجل : ليحى حملة العرش ، فيحيون . ويأمر الله عز وجل إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول : ليحى جبريل وميكائيل ، فيحييان . ثم يدعو الله بالأرواح ليؤتى بها ، تتوهج أرواح المسلمين نوراً وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت مابين السماء والأرض ، فيقول : وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد كما يمشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون » الحديث ، وروى الإمام عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه وفى كتاب السنة له قال : كتب إلى إبراهيم بن حمزة بن محمد بن حمزة بن مصعب بن الزبير الزبيرى : كتب إليك بهذا الحديث وقد عرضته وسمعته على ماكتبت به إليك ، فحدث بذلك عنى ، قال حدثنى عبد الرحمن بن المغيرة الحزامى قال حدثنا عبد الرحمن بن عياش الأنصارى عن دلهم بن الأسود بن عبد الله بن حاجب بن عامر بن المنتفق العقيلى عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر أنه خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ ومعه صاحب له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق ، قال لقيط : خرجت أنا وصاحبى حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة ، فقام فى الناس خطيباً فقال « أيها الناس ، ألا إنى قد خبأت لكم صوتى منذ أربعة أيام ، ألا لتسمعوا اليوم . ألا فهل امرىء بعثه قومه فقالوا له : اعلم لنا مايقول رسول الله ﷺ ؟ ألا ثم رجل لعله يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضال ، ألا إنى مسئول ، هل بلغت ؟ ألا اسمعوا تعيشوا ، ألا اجلسوا . فجلس الناس . وقمت أنا وصاحبى حتى إذا

فرغ لنا فؤاده ونظره قلت : يارسول الله ماعندك من علم الغيب ؟ فضحك فقال : ضن ربك بمفاتيح خمس من الغيب لايعلمها إلا الله عز وجل ، وأشار بيده ، فقلت : ماهن يارسول الله ؟ قال : علم المنية ، قد علم منية أحدكم ولاتعلمونه . وعلم المنى حين يكون فى الرحم ، قد علمه وماتعلمونه . وعلم مافى غد ، قد علم ماأنت صانع ولاتعلمه . وعلم يوم الغيث ، يشرف عليكم أزلين مشفقين ، فيظل يضحك قد علم أن غوثكم إلى قريب . قال لقيط : فقلت لن نعدم من رب يضحك خيراً يارسول الله . قال : وعلم يوم الساعة . قلنا يارسول الله علمنا مما تعلم الناس وتعلم ، فأنا من قبيل لايصدق تصديقنا أحد ، من مذحج التى تدنو علينا ، وخثعم التى توالينا ، وعشيرتنا التى نحن منها . قال : تلبثون فيها مالبثتم ، ثم يتوفى نبيكم ، ثم يبعث الصيحة ، فلعمر إلهك ماتدع على ظهرها شيئاً إلا مات ، والملائكة الذين مع ربك ، فأصبح ربك عز وجل يطوف فى الأرض وخلت البلاد ، فأرسل ربك السماء تهضب من عند العرش ، فلعمر إلهك ماتدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلفه من عند رأسه ، فيستوى جالساً ، فيقول ربك مهيم لما كان فيه ، يقول يارب أمس اليوم لعهده بالحياة يحسبه حديثاً بأهله . فقلت : يارسول الله فكيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلاء والسباع ؟ قال : أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله ، الأرض أشرف عليها وهى فى مدرة بالية ، فقلت لاتحيا أبداً ، ثم أرسل الله عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أياماً حتى أشرفت عليها وهى شربة واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض ، فتخرجون من الأصواء[1] ومن مصارعكم فتنظرون إليه وينظر إليكم . قال قلت : يارسول الله كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه ؟ قال : أنبئك بمثل هذا فى آلاء الله ، الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونها وتريانكم ساعة واحدة ولاتضامون فى رؤيتهما . قلت : فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟ قال : تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لاتخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من ماء فينضح بها قبلكم ، فلعمر إلهك مايخطىء وجه أحد منكم منها قطرة ، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء ، وأما الكافر فينضحه — أو قال فينطحه — بمثل الحميم الأسود ، ألا ثم ينصرف نبيكم ويتفرق على أثره الصالحون فيسلكون جسراً من النار يطأ أحدكم الجمرة يقول حس يقول ربك عز وجل أو إنه ، ألا فتطلعون على حوض نبيكم على أظمأ والله ناهلة قط مارأيتها ، فلعمر إلهك مابسط أحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى ، وتحبس

(١)الأصواء : القبور ، وأصلها من الصوى والأعلام .

الشمس والقمر فلا ترون منها واحداً . قال قلت : يارسول الله فيم نبصر ؟ قال : بمثل بصرك ساعتك هذه ، وذلك مع طلوع الشمس فى يوم أشرقت الأرض وواجهت به الجبار . قال قلت : يارسول الله فيما نجزى من حسناتنا وسيئاتنا ؟ قال ﷺ : الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أن يعفو . قال قلت : يارسول الله ماالجنة وماالنار ؟ قال لعمر إلهك إن النار لها سبعة أبواب مامنها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً . قلت : يارسول الله فعلام نطلع من الجنة ؟ قال على أنهار من عسل مصفى ، وأنهار من خمر مابها صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وماء غير آسن وفاكهة . ولعمر إلهك ماتعلمون وخير من مثله معه وأزواج مطهرة . قلت : يارسول الله أو لنا فيها أزواج ومنهن المصلحات ؟ قال : المصلحات للصالحين وفى لفظ الصالحات للصالحين تلذونهن ويلذونكم مثل لذاتكم فى الدنيا غير أن لاتوالد . قال لقيط : فقلت يارسول الله أقصى مانحن بالغون ومنتهون إليه ؟ فلم يجبه النبى ﷺ قال فقلت : يارسول الله علام أبايعك . فبسط النبى ﷺ يده وقال : على إقام الصلاة وأيتاء الزكاة وزيال المشرك وأن لاتشرك بالله إلهاً غيره . قال قلت : يارسول الله وإن لنا مابين المشرق والمغرب ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وظن أنى مشترط مالا يعطينيه . قال قلت : نحل منها حيث شئنا ولايجنى على امرىء إلا نفسه . فبسط يده وقال : لك ذلك تحل حيث شئت ولا يجنى عليك إلا نفسك . قال فانصرفنا عنه ثم قال : ها إن ذين ، هنا إن ذين (مرتين) ، من أتقى الناس فى الأولى والآخرة . فقال له كعب بن الخدارية أحد بنى بكر بن كلاب : من هم يارسول الله ؟ قال بنو المنتفق بنو المنتفق أهل ذلك منهم . قال فانصرفنا . وأقبلت عليه فقلت : يارسول الله هل لأحد ممن مضى من خير فى جاهليتهم ؟ فقال رجل لمن عرض قريش : والله إن أباك المنتفق لفى النار . قال فكأنه وقع حر بين جلد وجهى ولحمه مما قال لأبى على رءوس الناس ، فهممت أن أقول وأبوك يارسول الله ، ثم إذا الأخرى أجمل فقلت : يارسول الله وأهلك ؟ قال : وأهلى ، لعمر الله حييث ماأتيت على قبر (كافر) عامرى أو قرشى أو دوسى قل : أرسلنى إليك محمد ، فأبشر بما يسوؤك ، تجر على وجهك وبطنك فى النار . قال : قلت : يارسول الله ومافعل بهم ذلك وقد كانوا على عمل لايحسنون إلا إياه ، وكانوا يحسبون أنهم مصلحون ؟ قال ﷺ : ذلك بأن الله بعث فى آخر كل سبع أمم نبياً فمن عصى نبيه كان من الضالين ، ومن أضاع نبيه كان من المهتدين » . ورواه إمام الإئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة قال : حدثنا محمد بن منصور الجواز أبو عبد الله قال حدثنا يعقوب ابن عيسى الزهرى قال حدثنا عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن قال حدثنا عبد الرحمن بن عياش الأنصارى ثم

السمعي عن دلهم بن الأسود ابن عبد الله عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر أنه خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ ومعه نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق . قال فقدمنا المدينة لانسلاخ رجب فصلينا معه صلاة الغداة ، فقام رسول الله ﷺ فى الناس خطيباً وذكر الحديث بنحو ماتقدم مع مغايرة بعض الألفاظ ، وقال الحافظ بن القيم بعد أن ساقه فى الهدى عن زوائد المسند : هذا حديث كبير جليل تناديه جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة لايعرف إلا من حديث عبد الرحمن بن المغيرة بن عبد الرحمن المدنى رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيرى وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما فى الصحيح احتج بهما إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخارى ، ورواه أئمة السنة فى كتبهم وتلقوه بالقبول وقابلوه بالتسليم والانقياد ولم يطعن أحد منهم فيه ولا فى أحد من رواته ، فممن رواه الإمام ابن الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد أبن حنبل فى مسند أبيه وفى كتاب السنة وقال : كتب إلى إبراهيم بن حمزة ابن مصعب بن الزبير الزبيرى كتبت إليك بهذا الحديث وقد عرضته وسمعته على ماكتبت به إليك فحدث به عنى . ومنهم الحافظ الجليل أبو بكر أحمد ابن عمرو النبيل فى كتاب السنة له . ومنهم الحافظ أبو أحمد بن أحمد ابن إبراهيم بن سليمان العسال فى كتاب المعرفة . ومنهم حافظ زمانه ومحدث أوانه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى كثير من كتبه ، ومنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن حيان أبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب السنة ، ومنهم الحافظ ابن الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده حافظ أصبهان . ومنهم الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه ، ومنهم حافظ عصره أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الأصبهانى ، وجماعة من الحفاظ سواهم يطول ذكرهم . وقال بن منده : روى هذا الحديث محمد بن إسحاق الصنعانى ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهما . قد رواه بالعراق بمجمع العلماء وأهل الدين جماعة من الأئمة منهم أبو زرعة الرازى وأبو حاتم وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل ولم ينكره أحد ولم يتكلم فى إسناده بل رووه على سبيل القبول والتسليم ، ولاينكر هذا الحديث إلا جاهل أو متجاهل أو مخالف للكتاب والسنة . هذا كلام أبى عبد الله بن منده . قلت : وقال ابن كثير بعد إيراده فى الوفود : هذا حديث غريب جداً ، وألفاظه فى بعضها نكارة ، وقد أخرجه الحافظ البيهقى فى كتاب البعث والنشور ، وعبد الحق الأشبيلى فى العاقبة ، والقرطبى فى كتاب التذكرة فى أحوال الآخرة . انتهى .

قلت : وقد تكلم ابن القيم عن غريب بعض مفرداته فقال رحمه الله تعالى : قوله « تهضب » أى تمطر . و « الأصواء » القبور . « والشربة » بفتح الراء الحوض الذى يجمع

فيه الماء ، وبالسكون الحنطة ، يريد أن الماء قد كثر فمن حيث شئت تشرب . وعلى رواية السكون يكون شبه الأرض بخضرتها بالنبات بخضرة الحنطة واستوائها . وقوله « حس » كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه على غفلة مايحرقه أو يؤلمه ، قال الأصمعي : وهي مثل أوه . وقوله : يقول عز وجل « أوانه » ، قال ابن قتيبة : فيه قولان أحدهما أن يكون بمعنى نعم ، والآخر أن يكون الخبر محذوفاً كأنه قال أنتم كذلك ، أو أنه على مايقول . و « الطوف » الغائط ، وفى الحديث « لايصل أحدكم وهو يدافع الطوف والبول » . و « الجسر » الصراط . وقوله : فيقول ربك « مهيم » أى ماشأنك ومأمرك وفيم كنت ؟ وقوله « يشرف عليكم أزلين » الأزل بسكون الزاى الشدة والأزل على وزن الكتف هو الذى قد أصابه الأزل واشتد به حتى كاد يقنط . وقوله « فيظل يضحك » هو من صفات أفعاله سبحانه وتعالى التى لايشبهه فيها شئ من مخلوقاته كصفات ذاته . وقد وردت هذه القصة فى أحاديث كثيرة لاسبيل إلى ردها كما لاسبيل إلى تشبيهها وتحريفها ، وكذلك « فأصبح ربك يطوف فى الأرض » هو من صفات فعله كقوله (وجاء ربك والملك — هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) و « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا — ويدنو عشية عرفة فيباهى بأهل الموقف الملائكة » . والكلام فى الجميع صراط واحد مستقيم : إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تحريف ولاتعطيل . وقوله « والملائكة الذين عند ربك » لاأعلم موت الملائكة جاء فى حديث صريح إلا هذا وحديث إسماعيل بن رافع الطويل فى الصور ، وقد يستدل عليه بقوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) . وقوله « فلعمر إلهك » هو قسم بحياة الرب جل جلاله ، وفيه دليل على جواز الإقسام بصفاته وانعقاد اليمين بها وأنها قديمة وأنه يطلق عليه منها أسماء المصادر ويوصف بها . وذلك قدر زائد على مجرد الأسماء وأن الأسماء الحسنى مشتقة من هذه المصادر ، دالة عليها . وقوله « ثم تجئ الصائحة » هى صيحة البعث ونفخته . وقوله « حتى يخلف من عند رأسه » هو من أخلف الزرع إذا نبت بعد حصاده تشبيه النشئة الأخرى بعد الموت بخلاف الزرع بعد ماحصد ، وتلك الخلفة من عند رأسه كما ينبت الزرع . وقوله « فيستوى جالساً » هذا عند تمام خلقته وكمال حياته ، ثم يقوم بعد جلوسه قائماً ، ثم يساق إلى موقف القيامة إما راكباً وإما ماشياً . وقوله « يقول يارب أمس اليوم » استقلالا لمدة لبثه فى الأرض كأنه لبث فيها يوماً فقال أمس ، أو بعض يوم فقال اليوم ، يحسب أنه حديث عهد بأهله وأنه إنما فارقهم أمس أو اليوم . وقوله « كيف يجمعنا بعدما تمزقنا الرياح والبلاء والسباع » ؟ وإقرار

رسول الله ﷺ له على هذا السؤال رد على من زعم أن القوم لم يكونوا يخوضون فى دقائق المسائل ، ولم يكونوا يفهمون حقائق الإيمان ، بل كانوا مشغولين بالعمليات ، وأن أفراخ الصابئة والمجوس من الجهمية والمعتزلة والقدرية أعرف منهم بالعمليات . وفيه دليل أنهم كانوا يوردون على رسول الله ﷺ مايشكل عليهم من الأسئلة والشبهات ، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم . وقد أورد عليه ﷺ الأسئلة أعداؤه وأصحابه ، أما أعداؤه فللتعنت والمغالبة ، وأما أصحابه فللفهم والبيان وزيادة الإيمان ، وهو يجيب كلا على سؤاله ، إلا مالا جوابَ عنه كسؤال عن وقت الساعة ، وفى هذا السؤال دليل على أنه سبحانه يجمع أجزاء العبد بعدما فرقها وينشئها نشأة أخرى أو يخلقه خلقاً جديداً كما سموا فى كتابه كذلك فى موضعين منه . وقوله « أنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله » آلاؤه نعمة وآياته التى تعرف بها إلى عباده ، وفيه إثباته القياس فى أدلة التوحيد والمعاد ، والقرآن مملوء منه ، وفيه أن حكم الشىء حكم نظيره وأنه سبحانه إذا كان قادراً على شىء فكيف تعجز قدرته عن نظيره ومثله ، فقد قرر الله سبحانه أدلة المعاد فى كتابه أحسن تقرير وأبينه وأبلغه وأوصله إلى العقول والفطر ، فأبى أعداؤه الجاحدون إلا تكذيباً له وتعجيزاً له وطعناً فى حكمه ، تعالى عما يقولون علواً كبيراً . وقوله فى الأرض « أشرفت عليها وهى مدرة بالية » كقوله تعالى (يحيى الأرض بعد موتها) ، وقوله (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) ونظائره فى القرآن كثيرة . وقوله « فتنظرون إليه وينظر إليكم » فيه إثبات صفة التجلى لله عز وجل وإثبات النظر له وأثبات رؤيته فى الآخرة ونظر المؤمنين له . وقوله « كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد » قد جاء هذا الحديث وفى قوله فى حديث آخر « لاشخص أغير من الله » والمخاطبون بهذا قوم عرب يعلمون المراد منه ولايقع فى قلوبهم تشبيهه سبحانه بالأشخاص ، بل هم أشرف عقولا وأصح أذهاناً وأسلم قلوباً من ذلك ، وحقق ﷺ وقوع الرؤية عياناً برؤية الشمس والقمر تحقيقاً لها ونفياً لتوهم المجاز الذى يظنه المعطلون ، وقوله « فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء فينضح بها قبلكم » فيه إثبات صفة اليد لله عز وجل بقوله وإثبات الفعل الذى هو النضح ، و « الريطة » الملاءة . و « الحمم » جمع حممة وهى الفحمة . وقوله « ثم ينصرف نبيكم » هذا انصراف من موضع القيامة إلى الجنة . وقوله « ويفرق على أثره الصالحون » أى يفزعون ويمضون على أثره . قوله « فتطلعون على حوض نبيكم » ظاهر هذا أن الحوض من وراء الجسر فكأنهم لايصلون إليه حتى يقطعوا الجسر . وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال « بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال لهم : هلم ، فقلت : إلى أين ؟ فقال إلى النار ، قلت : ماشأنهم : إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » قال فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون فى الموقف قبل الصراط إنما هو جسر ممدود على جهنم فمن جازه سلم من النار والله . قلت : وليس بين أحاديث رسول الله ﷺ تعارض ولا تناقض ولا اختلاف ، وحديثه كله يصدق بعضه بعضاً ، وأصحاب هذا القول أن أرادوا أن الحوض لايرى ولايوصل إليه إلا بعد قطع الصراط فحديث أبى هريرة هذا وغيره يرد قولهم ، وإن أرادوا أن المؤمنين إذا جازوا الصراط وقطعوه بدا لهم الحوض فشربوا منه فهذا يدل عليه حديث لقيط هذا وهو لايناقض كونه قبل الصراط ، فإن قوله « طوله شهر وعرضه شهر » فإذا كان بهذا الطول والسعة فما الذى يحيل امتداده إلى ماوراء الجسر فيرده المؤمنون قبل الصراط وبعده . فهذا فى حيز الإمكان ووقوعه موقوف على خبر الصادق والله أعلم وقوله « والله على أظمأ ناهلة قط » الناهلة العطاش الواردون الماء . أى يردونه أظمأ ماهم إليه ، وهذا يناسب أن يكون بعد الصراط فانه جسر النار وقد وردوها كلهم فلما قطعوه اشتد ظمأهم إلى الماء فوردوا حوضه ﷺ كما وردوه فى موقف القيامة . وقوله « تحبس الشمس والقمر » أى تختفيان فتحبسان ولايريان ، والاحتباس التوارى والاختفاء ، ومنه قول أبى هريرة « فانخبست » . وقوله « مابين البابين مسيرة سبعين عاماً » يحتمل أن يريد به مابين الباب والباب هذا المقدار ، ويحتمل أن يريد بالبابين المصراعين ، ولايناقض هذا ماجاء من تقديره بأربعين عاماً لوجهين : أحدهما أنه لم يصرح فيه راوية بالرفع بل قال : ولقد ذكر لنا أن مابين المصراعين مسيرة أربعين عاماً ، والثانى أن المسافة تختلف باختلاف سرعة السير فيها وبطئه والله أعلم . وقوله فى خمر الجنة « مابها صداع ولا ندامة » تعريض بخمر الدنيا ومايحلق بها من صداع الرأس والندامة على ذهاب العقل والمال وحصول الشر الذى يوجبه زوال العقل ، و « ماء غير آسن » هو الذى لم يتغير بطول مكثه ، وقوله فى نساء الجنة « غير أن لاتوالد » قد اختلف الناس هل تلد نساء أهل الجنة ؟ على قولين : قالت طائفة لايكون فيها حبل ولا ولادة ، واحتجت هذه الطائفة بهذا الحديث وبحديث آخر أظنه فى المسند وفيه « غير أن لامنى ولامنية » . وأثبتت طائفة من السلف الولادة فى الجنة واحتجت بما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن إذا اشتهى الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة كما يشتهى » قال

الترمذى حسن غريب ، ورواه ابن ماجه . قالت الطائفة الأولى : هذا لايدل على وقوع الولادة فى الجنة فإن علقه بالشرط فقال إذا اشتهى ، ولكنه لايشتهى ، وهذا تأويل إسحاق بن راهويه حكاه البخارى عنه ، قالوا والجنة دار جزاء على الأعمال وهؤلاء ليسوا من أهل الجزاء ، قالوا والجنة دار خلود ولاموت فيها فلو توالد فيها أهلها على الدوام والأوابد لما وسعتهم ، وإنما وسعتهم الدنيا بالموت . وأجابت الطائفة الأخرى عن ذلك كله وقالت « إذا » إنما تكون للمحقق وقوعه لا المشكوك فيه ، وقد صح أنه سبحانه ينشىء فى الجنة خلقاً ليسكنهم إياها بلا عمل ، قالوا وأطفال المسلمين أيضاً فيها بغير عمل ، وأما من حيث سعتها فلو رزق كل واحد منهم عشرة آلاف من الولد وسعتهم ، فإن أدناهم من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى عام ، وقوله « يارسول الله أقصى مانحن بالغون ومنتهون » لاجواب لهذه المسألة لأنه أراد أقصى مدة الدنيا وانتهائها فلا يعلمه إلا الله ، وإن أراد أقصى مانحن بالغون إليه بعد دخول الجنة والنار فلا تعلم نفس أقصى ماينتهى إليه من ذلك وإن كان الانتهاء إلى نعيم وجحيم ، ولهذا لم يجبه النبى ﷺ وقوله فى عقد البيعة « وزيال المشرك » أى مفارقته ومعاداته فلا تجاوره ولاتواليه ، كما جاء فى الحديث الذى فى السنن « لاترى ناراهما » يعنى المسلمين والمشركين ، وقوله « حيث مامررت بقبر كافر فقل أرسلنى إليك محمد » هذا إرسال تقريع وتوبيخ ، لاتبليغ أمر ونهى ، وفيه دليل على سماع أصحاب القبور كلام الأحياء وخطابهم لهم ، ودليل على أن من مات مشركاً فهو فى النار وإن مات قبل البعثة ، لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه وليس معهم حجة من الله به ، وقبحه والوعيد عليه بالنار لم يزل معلوماً من دين الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم ، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرناً بعد قرن ، فلله الحجة البالغة على المشركين فى كل وقت ، ولو لم يكن إلا مافطر عباده عليه من توحيد ربوبيته المستلزم لتوحيد إلهيته وأنه يستحيل فى كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر ، وإن كان سبحانه لايعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها ، فلم تزل دعوة الرسل إلى التوحيد فى الأرض معلومة لأهلها ، فالمشرك يستحق العذاب بمخالفته دعوة الرسل . والله أعلم .

فصل

ثم منكرو البعث على أربعة أصناف : صنف أنكروا المبدأ والمعاد ، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها وتعدم بأنفسها ، ليس لها رب يتصرف فيها ، إنما هى أرحام تدفع وأرض تبلع ، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية .

والصنف الثانى من الدهرية يقال لهم الدورية ، وهم منكرون للخالق أيضاً ، ويعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شئ إلى ماكان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لاتتناهى فكابروا فى المعقول وكذبوا المنقول ، قبحهم الله تعالى ، وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر) ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران : الأول معنى قولهم (نموت ونحيا) أى يموت الآباء ويحيى الأبناء هكذا أبداً ، وهو قول الطائفة الأولى ، والمعنى الثانى أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم ويتكرر ذلك منهم أبداً ولا حساب ولاجزاء بل ولا موجد ولامعدم ولامحاسب ولامجازى ، وهذا قول الدورية .

الصنف الثالث الدهرية من مشركى العرب ومن وافقهم ، وهم مقرون بالبداءة ، وإن الله تعالى ربهم وخالقهم (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ومع هذا قالوا (إن هى إلا موتتنا الأولى ومانحن بمنشرين) فاقروا بالبداءة والمبدئ ، وأنكروا البعث والمعاد ، وهم المذكورن فى حديث أبى هريرة الصحيح « وأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته » .

والصنف الرابع ملاحدة الجهمية ومن وافقهم ، وأقروا بمعاد ليس على مافى القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل ، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدماً محضاً ، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره ، فحينئذ تكون الأرض التى تحدث أخبارها وتخبر بما عمل عليها من خير وشر ليست هى هذه ، وتكون الأجساد التى تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصى ليست هى التى أعيدت بل هى غيرها ، والأبدان التى تنعم فى الجنة وتثاب ليست هى التى عملت الطاعة ولا أنها تحولت من حال إلى حال ، بل هى غيرها تبتدأ ابتداء محضاً ، فأنكروا معاد الأبدان وزعموا أن المعاد بداءة أخرى ! وما أحسن ماقاله ابن القيم رحمه الله فيهم فى كافيته :

وقضى بأن الله يجعل خلقه	عدماً ويقلبه وجوداً ثانى
العرش والكرسى والأرواح وال	أملاك والأفلاك والقمران
والأرض والبحر المحيط وسائر ال	أكوان من عرض ومن جثمان
كل سيفنيه الفناء المحض لا	يبقى له أثر كظل فان
ويعيد ذا المعدوم أيضاً ثانياً	محض الوجود إعادة بزمان

هذا المعـــاد وذلك المبـــدأ لدى جهــم وقـــد نسبـــوه للقـــرآن

هذا الـذى قاد ابـن سينـــا والألى قالـــوا مقالتـــه إلى الكفـــران

لم تقبـــل الأذهـــان ذا وتـــوهموا أن الـــــرسول عنـــاه بالإيمان

هذا كتـــــاب الله أنى قال ذا أو عبـــده المبعـــوث بالبرهـــان

أو صحبـــه من بعـــده أو تابـــع لهمـــــوا على الإيمان والإحسان

بل صرح الوحـــى المبين بأنـــه حقـــــاً مغير هذه الأكـــــوان

فيبـــدل الله السمـــوات الـــعلى والأرض أيضاً ذان تبديـــــلان

وهما كتبديـل الجلـــود لساكنـــى الـــنيران عنـــد الـــنضج من نيران

وكـــــذاك يقـــبض أرضه وسماء ه بيديـه ماالعدمـــان مقبـــوضان

وتحدث الأرض التـــى كنـــابها أخبارهـــــا فى الحشر للــــرحمن

وتظـل تشهـد وهـى عدل بالـذى من فوقهـا قد أحـــدث الثقـــلان

أفيشهـد العـدم الـــذى هو كاسمه لاشىء هذا ليس فى الإمكـــــان

لكـن تسوى ثم تبسط ثم تشهـــد ثم تبـــدل وهـــى ذات كيـــان

وتمد أيضاً مثـــــل مد أديمنـــــا من غير أوديـــــة ولا كثبـــان

وتقـىء يوم العـرض من أكبادهـــا كالاسطـــوان نفـــائس الأثمان

كل يراه بعينـــــه وعيانـــــه مالا مرىء بالأخـــذ منـــــه يدان

وكـذا الجبـال تفت فتـــاً محكمـــاً فتعـود مثـل الرمـل ذى الكثبـــان

وتكـون كالعهـن الـــذى لو أنـــه وصباغـــة من سائـــر الألـــوان

وتـــبس بساً مثـــل ذاك فتنثنـــى مثـــل الهبـــاء لناظـــر الإنسان

وكـــذا البحـــار فانها مسجـــورة قد فجرت تفجير ذى سلطـــان

وكـــذلك القمـــران يأذن ربنـــا لهمـــا فيجتمعـــان يلتقيـــان

هذى مكـــورة وهـــذا خاسف وكـــلاهما فى النـــار مطروحـــان

وكـــواكب الأفـــلاك تنثر كلهـــا كلآلىء نثرت على ميـــــدان

وكـذا السمـاء تشق شقاً ظاهـــراً وتمور أيضا أيما موران

وتصير بعـد الانشقـاق كمثـل هذا المهـــل أو تلك وردة كدهـــان

والعـــرش والكـــرسى لايفنيهمــا أيضاً إنهمـــا لمخلوقـــان

والحور لاتفنـــى كذلك جنـــة المأوى ومـــافيها من الولـــدان

ولأجـــل هذا قال جهـــم إنها عدم ولم تخلـــــق إلى ذا الآن
والأنبيـــــــاء فانهم تحت الثرى أجسادهم حفظت من الديدان
ماللـــبلى بلحومهـــم وجسومهـــم أبـــداً وهـــم تحت التـــراب يدان
وكـذاك عجب الظهـر لا بلى فيه منـــــه تركب خلقـــة الإنسان
وكـــــذلك الأرواح لاتـــــبلى كما تبلى الجسوم ولابلى اللحمـــــان
ولأجـل ذلك لم يقــر الجهـــم ما الأرواح خارجـــة عن الأبـــــدان
لكنها من بعض أعـــــراض بها قامت وذا فى غايـــة البطـــلان
فالشأن للارواح بعـــد فراقهـــا أبــــدانها والله أعظـــم شأن
إمـــــــا عذاب أو نعيم دائم قد نعـمت بالـــروح والـــريحان
وتصير طيراً سارحـــاً مع شكلهـــا تجنـــى الثمار بجنـــة الحيـــوان
وتظـــــــــل واردة لأنهار بها حتـــــى تعــــود لذلك الجثمان
لكـن أرواح الذيـــن استشهـــدوا فى جوف طير أخضر ريـــــــان
فلهـــم بذاك مزيـــة فى عيشهـــم ونعيمهـــم للـــروح والأبـــــدان
بذلـــوا الجسوم لربهم فأعاضهـــم أجسام تلك الـــطير بالإحسان
ولها القناديـــــــل إليهاتنتهى مأوى لها كمساكـــــن الإنسان
فالروح بعـد الموت أكمـل حالة منها بهذى الـــــدار فى جثمان
وعـــذاب أشقاهـــا من الـــذى قد عايـــــنت أبصار نابعيــــان
والقائلـــــون بأنها عرض أبـــــوا ذا كلـــه تبـــاً لذى نكـــــران
إذا أراد الله إخـــراج الـــــورى بعـد الممـات إلى المعـاد الثـــانى
ألقـى على الأرض التـــى هم تحتها والله مقتـــــدر وذو سلطــــــان
مطـــراً غليظـــاً أبـيضاً متتابعـــاً عشراً وعشراً بعدهـــــا عشران
فتظـل تنبت منـه أجسام الـــورى ولحومهـــم كمنـــابت الـــريحان
حتـــى إذا ماالأم حان ولادهـــــا وتمخضت فنفاسهـــا متـــــدان
أوحـى لها رب السمـا فتشقـــقت فبـــدا الجنين كأكمـــل الشبــان
وتخلت الأم الولـــود وأخـــرجت أثقـــالها أنثـــى ومـــن ذكـــران
والله ينشىء خلقـــــــه فى نشأة أخــرى كما قد قال فى القـــرآن
هذا الـذى جاء الكتــاب وسنـــة الهادى به فاحـــرص على الإيمان

ماقـــال إن الله يعـــدم خلقـــه طراً كقـــول الجاهـــل الحيران

قوله « هذا الميعاد وذلك المبتدأ لدى جهم » تقدم تقريره وتقدم ترجمة جهم وبيان مذهبه وعمن أخذه ومن أخذ عنه . وقوله « وهو الذى قاد بن سينا » هو أبو على بن سينا وأسمه الحسن بن عبد الله . وهو رئيس الفلاسفة ومهذب مذهبهم ، له كتاب الإشارات الذى هذب فيه مذهب أرسطو وقربه قليلا إلى الأديان ، وكان — فيما ذكر بن القيم — يقول بقدم العالم وإنكار المعاد ونفى علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم وبعثه من فى القبور ، وكان ابن سينا هذا تفقه مذهب الفلاسفة من كتب الفارابى أبى نصر التركى الفيلسوف وكان الفارابى هذا قبحه الله يقول بالمعاد الروحانى لا الجثمانى ، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة ، وله مذاهب فى ذلك يخالف المسلمين والفلاسفة من سلفه الأقدمين ، وتحمل ذلك عنه بن سينا ونصره ، وقد رد عليه الغزالى فى تهافت الفلاسفة فى عشرين مجلساً له كفره فى ثلاث منها وهى قوله بقدم العالم ، وعدم المعاد الجثمانى ، وقوله إن الله لايعلم الجزئيات ، وبدعه فى البواقى . قال ابن كثير ويقال إنه تاب عند الموت فالله أعلم . وقوله رحمه الله « والألى قالوا مقالته إلى الكفران » يعنى بذلك أتباع أبن سينا وأنصار زندقته ومن أكبرهم وأشهرهم النصير الطوسى واسمه محمد بن عبد الله ويقال له الخواجا نصير الدين ، فإنه انتدب لنصر مذهب ابن سينا والذب عنه وقام فى ذلك وقعد وشرح إشاراته وكان يسميها فيما يزعمون قرآن الخاصة ، ويسمى كتاب الله تعالى قرآن العامة ، ورد على الشهر ستانى فى مصارعته ابن سينا بكتاب سماه مصارعة المصارع ، قال ابن القيم : وقفنا على الكتابين ، نصر فيه أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وأنه لايعلم شيئاً ، وأنه لايفعل شيئاً بقدرته واختياره ، ولايبعث من فى القبور . وذكر عنه أنه تعلم السحر فى آخر الأمر فكان ساحراً يعبد الأصنام ، إلى أن قال : وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . قلت وكان الطوسى هذا فيما ذكر أهل التاريخ وزيراً لهولا كوخان[1] وهو الذى بنى الرصد بمراغة ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والأطباء وغيرهم ونقل إليها أوقاف المسلمين من النفقات والمكاتب وغيرها . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : إنه عمل الرصـد بمدينة مراغة سنة سبع وخمسين وستمائة .

(١) يراجع لحقيقة النصير الطوسى التعليق على (المنتقى من ميزان الاعتدال) صفحة ٢٠

فعمل دار حكمة ورتب فيها فلاسفة ورتب لكل واحد فى اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للطبيب فى اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه فى اليوم درهم ، ودار حديث لكل محدث نصف درهم فى اليوم . وقد أطال ابن القيم رحمه الله تعالى فى الكلام عليه فليراجع . وأما هولاكو خان ملك التتار الذى كان الطوسى وزيراً له فذكر ابن كثير هلاكه فى سنة أربع وستين وستمائة وقال : كان ملكاً جبار كفاراً لعنه الله تعالى ، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً مالا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء . كان لايتقيد بدين من الأديان ، وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق ، وكان أهلها من أفراخ الفلاسفة لهم عنده وجاهة ومكانة . وهو كان يترامى على محبة المعقولات ولايتصور منها شيئاً . وإنما كان همته فى تدبير الملك وتملك البلاد شيئاً فشيئاً حتى أباده الله فى هذه السنة وقيل فى سنة ثلاث وستين ودفن فى مدينة تلا . لا رحمه الله تبارك وتعالى .

وقوله ابن القيم رحمه الله :

بل صرح الوحى المبين بأنه حقاً مغير هذه الأكوان إلخ

يشير بذلك إلى قول الله عز وجل (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) الآيات ، وإلى مافى الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل ابن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد » ، وفى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته فى السفر نزلا لأهل الجنة » وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قالت قلت : أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال « على الصراط » وفيه من حديث اليهودى الذى سأل رسول الله ﷺ : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله ﷺ « هم فى الظلمة دون الجسر » الحديث ، ولابن جرير الطبرى رحمه الله تعالى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن حبراً من اليهود سأل النبى ﷺ فقال : ارأيت إذ يقول الله تعالى فى كتابه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال « أضياف الله ، فلن يعجزهم مالديه » ورواه ابن أبى حاتم أيضاً . وفى

حديث الصور الطويل عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى هذه المبدلة » . وهذا هو الذى أشار رحمه الله تعالى إليه بقوله : وتمد أيضاً مثل مد أديمنا إلخ البيت ، وقوله : وهما كتبديل الجلود لساكنى النيران إلخ يشير إلى قول الله تعالى (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) ووجه المشابهة بين التبديلين أن جلود الكفار كلما احترقت قيل لها عودى فعادت كما كانت ، ومعنى قوله « غيرها » أى صارت غيرها لعودها بعدما نضجت واحترقت ، وإلا فهى هى التى عملت المعاصى فى الدنيا وبها تجازى فى الآخرة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما يبدلون جلوداً بيضاً أمثال القراطيس ، يعنى تجدد لهم الجلود التى نضجت كذلك ليتجدد لهم العذاب أبداً والعياذ بالله ، وكذلك تبديل الأرض والسموات هو تغييرها من حال إلى حال وإلا فهى هى ، والله أعلم .

وقوله رحمه الله تعالى : وكذلك يقبض أرضه وسماءه بيديه الخ . يشير إلى قول الله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وقوله عز وجل (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على أصبع فيقول أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) الآية . وللإمام أحمد والترمذى رحمهما الله عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال : كيف تقول ياأبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء على ذه ؟ وأشار بالسبابه ، والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ، كل ذلك ويشير بأصابعه، قال فأنزل الله عز وجل (وماقدروا الله حق قدره) الآية ، وفى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » وفيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك » وفى لفظ

لمسلم « يأخذ الله تبارك وتعالى سماواته وأرضه بيده ويقول أنا الملك ـــ ويقبض أصابعه ويبسطها ـــ أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أنى أقول أساقط هو برسول الله ﷺ ، ولفظ أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال « إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الأية ذات يوم على المنبر (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطاويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر : يمجد الرب نفسه ، أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به » ولابن أبى حاتم عن أبن عباس رضى الله عنهما قال : يطوى الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوى ذلك بيمينه يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة .

وقوله رحمه الله تعالى « وتحدث الأرض التى كنا بها ، أخبارها ألخ » يشير إلى قوله تعالى (يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها) وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) قال « أتدرون ماأخبارها ؟ قالـــوا : الله ورسولـــه أعلـــم . قال : فان أخبارهـــا أن تشهـــد على كل عمـــل على ظهرهـــا ، أن تقـــول عمـــل كذا وكـــذا عبـــد أو أمـــة بما يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وفى معجم الطبرانى من حديث ابن لهيعة حدثنى الحارث بن يزيد سمع ربيعة الحدسى أن رسول الله ﷺ قال : تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وأنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهى مخبرة » وقال البخارى رحمه الله تعالى : أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها واحد . وكذا قال ابن عباس . وعنه رضى الله عنه قال : قال لها ربها قولى فقالت . وقال مجاهد : أوحى لها أى أمرها .

وقوله رحمه الله تعالى :

وتقىء يوم العرض من أكبادها ‏ ‏ ‏ ‏ كالأسطوان نفائس الأثمان

كل يراه بعينه الخ . يشير إلى قول الله عز وجل (وأخرجت الأرض أثقالها) وإلى مارواه مسلم رحمه الله تعالى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تلقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول فى

هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً .

وقوله « وكذا الجبال تفت فتاً محكماً الخ » يشير إلى قول الله عز وجل : (ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً) وقوله عز وجل (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) الآية ، وقوله عز وجل (وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً) وقوله عز وجل (وتكون الجبال كالعهن) وفى آية القارعة (كالعهن المنفوش) وقوله عز وجل (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا) وقوله عز وجل (وإذا الجبال نسفت) وقوله عز وجل (وإذا الجبال سيرت) وقوله عز وجل (وسيرت الجبال فكانت سراباً) وقوله عز وجل (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) وقوله عز وجل (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) ومافى معانيها من الآيات . قال ابن عباس رضى الله عنهما : سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ : كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية (ويسألونك عن الجبال) أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول (فقل ينسفها ربى نسفاً) أى يذهبها عن أماكنها ويسيرها تسييرا فيذرها أى الأرض قاعاً صفصفاً أى بسطاً واحداً ، والقطاع هو المنبسط المستوى من الأرض والصفصف الأملس (لاترى فيها عوجاً ولا أمتا) أى لاترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا صدعاً ولا أكمة ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً . كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف رحمهم الله تعالى ، وقوله تعالى (تحسبها جامدة) أى قائمة واقفة (وهى تمر مر السحاب) أى تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض ، قال البغوى رحمه الله تعالى : وذلك أن كل شىء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبعد مابين أطرافه فى حسبان النظر واقف وهو سائر ، كذلك سير الجبال لايرى يوم القيامة لعظمها ، كما أن سير السحاب لايرى لعظمه وهو سائر . وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم فى قوله تعالى (وبست الجبال بسا) : أى فتتت فتا . وقال عطاء ومجاهد ومقاتل : فصارت كالدقيق المبسوس ، وهو المبلول . قال سعيد بن المسيب والسدى : كسرت كسراً . وقال الكلبى : سيرت على وجه الأرض تسييراً . وقال الحسن : قامت من أصلها فذهبت . ونظيرها (فقل ينفسها ربى نسفاً) وقال ابن كيسان : جعلت كثيبا مهيلا بعد أن كانت شامخة طويلة ، (فكانت هباء منبثاً) : غباراً متفرقا كالذى يرى فى شعاع الشمس إذا دخل الكوة وهو الهباء . وقال أبو اسحاق عن

الحارث عن على رضى الله عنه (هباء منبثاً) : كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شىء . وقال العوفى عن ابن عباس : الهباء يطير من النار إذا اضطرمت ، يطير منه الشرر ، فإذا وقع لم يكن شيئاً . وقال عكرمة : المنبث الذى قد ذرته الريح وبثته . وقال قتادة : هباء منبثاً ، كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح وقال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والضحاك والسدى : العهن الصوف . وقال البغوى : كالصوف المصبوغ ، ولا يقال عهن إلا للمصبوغ ، وقال الحسن : كالصوف الأحمر وهو أضعف الصوف . وقال : المنفوش المندوف . وقال ابن كثير المنفوش الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق . وقال فى قوله (كثيباً مهيلا) : أى تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماء . وقال البغوى : رملا سائلا . قال الكلبى : هو الرمل الذى إذا أخذت منه شيئاً تبعك مابعده ، يقال أهلت الرمل أهياء هيلا إذا حركت أسفله حتى انهال من أعلاه . وقال (نسفت) قلعت من أماكنها . وقال ابن كثير : ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر . وقال فى (فكانت سرابا) أى يخيل إلى الناظر أنها شىء ، وليست بشىء ، وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر . وقال فى (وتسير الجبال) : تذهب عن أماكنها وتزول ، (وترى الأرض بارزة) أى بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يوارى أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لاتخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة (وترى الأرض بارزة) : لاحجر فيها ولا غيابة . وقال قتادة أيضاً : لابناء ولاشجر . وقال البغوى : (فدكتا) كسرتا (دكة) كسرة (واحدة) قال : وأول ماتتغير الجبال تصير رملا مهيلا ، ثم عهناً منفوشاً ، ثم تصير هباء منثوراً .

وقوله رحمه الله تعالى : وكذا البحار فإنها مسجورة ، قد فجرت إلخ يشير إلى قوله تعالى (وإذا البحار سجرت) وقوله عز وجل (وإذا البحار فجرت) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : فجر الله تعالى بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله تعالى بعضها فى بعض فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط عذبها بمالحها . وقال الكلبى : ملئت . وقوله تعالى (سجرت) قال ابن عباس : أوقدت فصارت ناراً تضطرم . وقال مجاهد ومقاتل : يعنى فجر بعضها فى بعض ، العذب والملح ، فصارت كلها بحراً واحداً ، وقال الكلبى : ملئت ، وقيل : صارت مياهها بحراً واحداً من الحميم لأهل النار . وقال الحسن : يبست وهو قول قتادة ، قال : ذهب ماؤها فلم يبق قطرة ، والمعنى المتحصل من أقوالهم رحمهم الله

أنها يفجر بعضها فى بعض فتمتلىء ، ثم تسجر ناراً فيذهب ماؤها ، ولهذا جمع ابن القيم رحمه الله تعالى بينهما فقال « مسجورة قد فجرت » والله تعالى أعلم .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذلك القمران يأذن ربنا لهما فيجتمعان .. إلخ يشير إلى قول الله عز وجل (وخسف القمر ــ وجمع الشمس والقمر) وقوله (إذا الشمس كورت) خسف : أظلم وذهب نوره وضوؤه . (وجمع الشمس والقمر) أى صار أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) : أظلمت . وقال العوفى عنه : ذهبت . وقال مجاهد : اضمحلت وذهبت . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير : كورت غورت ، وقال ربيع بن خيثم : رمى بها . وقال أبو صالح : القيت . وعنه أيضاً : نكست ، وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض . وقال ابن جرير : والصواب عندنا من القول فى ذلك أن التكوير جمع الشىء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامه ، وجمع الثياب بعضها على بعض ، فمعنى قوله تعالى (كورت) جمع بعضها إلى بعض ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . ولابن أبى حاتم عن ابن عباس (إذا الشمس كورت) قال : يكور الله تعالى الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله تعالى ريحاً دبوراً فيضرمها ناراً . وكذا قال عامر الشعبى . ولابن أبى حاتم عن ابن يزيد بن أبى مريم عن أبيه أن رسول الله قال فى قول الله تعالى (إذا الشمس كورت) قال « كورت فى جهنم » وللبخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « الشمس والقمر يكوران يوم القيامة » . وللبزار عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الشمس والقمر ثوران فى النار عقيران يوم القيامة » .

وقوله رحمه الله تعالى « وكواكب الأفلاك تنثر كلها إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (وإذا النجوم انكدرت) وقوله تعالى (وإذا الكواكب انتثرت) وقوله تعالى (فإذا النجوم طمست) أى محى نورها وذهب ضوؤها . وانكدرت : تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض . يقال انكدر الطائر إذا سقط عن عشه . قال الكلبى وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم إلا وقع .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذا الشمس تشق شقاً ظاهراً وتمور » إلخ يشير إلى قوله تعالى (إذا السماء انشقت) وقوله تعالى (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) وقوله (يوم تشقق السماء بالغمام) وقوله عز وجل (السماء منفطر به) وقوله تعالى (إذا السماء

انفطرت) وقوله تعالى (وإذا السماء كشطت) وقوله عز وجل (إذا السماء فرجت) وقوله تعالى (وفتحت السماء فكانت أبواباً) وقوله تعالى (يوم تمور السماء موراً) وقوله عز وجل (يوم تكون السماء كالمهل) وقوله (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) قوله (انشقت) : أى صارت أبواباً لنزول الملائكة (فكانت وردة) عن ابن عباس : تغير لونها ، وعنه قال كالفرس الورد ، وقال أبو صالح : كالبر ذون الورد . وحكى البغوى وغيره أن الفرس الورد تكون فى الربيع صفراء وفى الشتاء حمراء فإذا اشتد البرد اغبر لونها ، فشبه السماء فى تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس فى تلونه . (كالدهان) قال الضحاك ومجاهد وقتادة والربيع : هو جمع دهن ، شبه السماء فى تلونها بلون الورد من الخيل ، وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ، وقال عطاء بن أبى رباح : كالدهان كعصير الزيت يتلون فى الساعة ألواناً ، وقال مقاتل : كدهن الورد الصافى ، وقال ابن جريج : تصير السماء كالدهن الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم . وقال ابن عباس والكلبى : كالدهان أى كالأديم الأحمر وجمعه دهنة ودهن . وقال عطاء الخراسانى : كلون الدهن فى الصفرة ، وقال قتادة : هى اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذو ألوان ، وقال ابن كثير رحمه الله : تذوب كما يذوب الدردى والفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول القيامة العظيم . وللإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم » قال الجوهرى : الطش المطر الضعيف . وقوله تعالى (يوم تمور السماء مورا) قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكاً ، وعنه : هو تشققها وقال مجاهد : تدور دوراً ، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها فى بعض ، وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة . وقال عطاء الخراسانى : تختلف أجزاؤها بعضها فى بعض ، وقيل تضطرب ، وقال البغوى : تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة ، قال : والمور يجمع هذه المعانى كلها : فهو فى اللغة الذهاب والمجىء ، والتردد والدوران والاضطراب . وقال تعالى (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها) عن على قال : تنشق السماء من المجرة رواه ابن أبى حاتم ، والملك اسم جنس — أى الملائكة — على أرجاء السماء ، قال ابن عباس على مالم ير منها أى حافاتها . وكذلك قال سعيد بن جبير والأوزاعى ، وقال الضحاك : أى أطرافها ، وقال الحسن البصرى : أبوابها ، وقال الربيع بن أنس : على مااسترق من السماء ينظرون إلى أهل

الأرض . وقوله تعالى (السماء منفطر به) : متشقق . قال الحسن وقتادة أى بسببه من شدته وهوله ، و (فرجت) قال ابن كثير : أى انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ووهت أطرافها .

وقوله رحمه الله « والعرش والكرسى لايفنيهما إلخ » وكذا قوله « والحور لاتفنى كذلك جنة المأوى إلخ » يعنى أن هذه الأشياء مخلوقة للبقاء لا للفناء ، والمخلوق للبقاء باق لا بنفسه بل بإبقاء الله إياه ، وقد ذكر الله تعالى الجنة ونعيمها ودوامها وخلود أهلها فيها وذكر النار وجحيمها ودوام عذابها وخلود أهلها فيها فى مواضع كثيرة من كتابه ، وسيأتى ذكر ماتيسر منها . وقد جاء فى تفسير قوله (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) : إن المراد بذلك الشهداء والحور العين ورضوان وزبانية العذاب ، وقد قال الإمام أحمد فى ذلك : إنه هو اعتقاد السلف الصالح قال فإن احتج مبتدع بقوله عز وجل (كل شىء هالك إلا وجهه) و (كل من عليها فان) قيل إن المراد كل شىء عليه الهلاك والفناء هالك فان . ويؤيد ذلك الاستثناء المذكور فى سورة الزمر ، وأيضاً فإن الجنة دار مقام وسرور وسلامة والموت ضد ذلك فكيف يكتب على من فيها موت . وكذا جاء فى العرش أن الله يأمره أن يأخذ الصور من إسرافيل عليه السلام عند موته كما فى حديث الصور الطويل . وقوله « ولأجل هذا قال جهم إنها عدم إلخ » يعنى أن لجهم إلحاداً فى آيات الله جميعها،فكماألحد فى آيات الأسماء والصفات ألحد أيضاً فى آيات الوعيد والوعيد ، وجحد وجود الجنة والنار الآن ، وكذلك الآيات والأحاديث الواردة فيهما وقضى أيضاً بفنائهما وأنهما يفنيان ومن فيهما ، وذلك بخلاف النصوص القويمة والفطر المستقيمة كما سيأتى إن شاء الله . وقوله رحمه الله :

والأنبياء فانهم تحت الثرى أجسادهم حفظت من الديدان إلخ

يشير إلى مافى السنن وغيرها وصححه ابن حيان من حديث أوس بن أوس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة . فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على . قالوا : يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ قال يقولون : بليت . قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » وقال ابن وهب : أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسى عن أبى الدرداء

قال : قال رسول الله ﷺ « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحداً لايصلى على إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ . قال : قلت وبعد الموت ؟ قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ، ورواه ابن ماجه بإسناد جيد ، وفى رواية للطبرانى « ليس من عبد يصلى على إلا بلغنى صلاته . قلنا : وبعد وفاتك ؟ قال : وبعد وفاتى ، إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » والأحاديث فى بلوغ صلاتنا إليه ، وعرض أعمالنا عليه كثيرة جداً ، وبعضها فى الصحيحين لكن بدون ذكر الأجساد .

وقد ثبت أيضاً فى أجساد الشهداء أنها لاتبالى فكيف بأجساد الأنبياء ، كما قال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا حسين المعلم عن عطاء بن جابر قال « لما حضر أحد دعانى أبى من الليل فقال لى : ماأرانى إلا مقتولاً فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لاأترك بعدى أعز علىّ منك غير نفس رسول الله ﷺ ، وإن على ديناً فاقض واستوص باخواتك خيراً ، فأصبحنا وكان أول قتيل ، فدفنت معه آخر فى قبره ، ثم لم تطب نفسى أن أتركه مع آخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هيئته غير أذنه » . ولأصحاب السنن عنه رضى الله عنه من حديث طويل ، وفيه فبينا أنا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان إذ جاءنى رجل فقال : ياجابر بن عبد الله ، والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه . فأتيته فوجدته على النحو الذى دفنته ، لم يتغير إلا مالم يدع القتل أو القتيل » . وللبيهقى عنه رضى الله عنه قال : لما أجرى معاوية العين عند قتلى أحد بعد أربعين سنة استصرخناهم إليهم فأتيناهم فأخرجناهم ، فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دماً » . وفى رواية ابن إسحاق عنه قال « فأخرجناهم كأنما دفنوا بالأمس » ، وذكر الواقدى أن معاوية لما أراد أن يجرى العين نادى مناديه : من كان له قتيل بأحد فليشهد ، قال جابر : فحفرنا عنهم فوجدت أبى فى قبره كأنما هو نائم على هيئته ، ووجدنا جاره فى قبره — عمرو بن الجموح — ويده على جرحه — فأزيلت عنه فانبعث جرحه دماً . ويقال أنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك ، رضى الله عنهم أجمعين ، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا ، وفى ذلك آثار كثيرة .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذاك عجب الظهر لايبلى الخ » . يشير إلى حديث أبى هريرة المتقدم قريباً وفيه « وليس من الإنسان شئ إلا سيبلى ، إلا عظماً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » .

وقوله رحمه الله تعالى « وكذلك الأرواح لاتبلى إلخ » يشير إلى ماتقدم ذكر بعضه قريباً من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة من أن الأرواح ليست هى مطلق حياة الجسم العارضة ، بل هى حقيقة أخرى مستقلة يعمر الجسد بحلولها فيه ويفسد بخروجها منه ، وهى النسمة التى يموت الإنسان بخروجها من جسده ، وأنها لها حقيقة ، وأنها تنفخ وتقبض وتصعد وتهبط ، وأنها بعد مفارقتها الجسد إما أن تنعم أو تعذب ، وإما أن تفتح لها أبواب السماء حتى ينتهى بها إلى الله ، أو تغلق دونها فيذهب بها إلى سجين والعياذ بالله كما قدمنا ذلك ولله الحمد ، وأنها تجمع فى الصور وتطير بنفخ إسرافيل إذا أمره الله ، فتطير كل روح إلى جسدها الذى كانت تعمره فى الدنيا حتى تدخله وتدب فيه دبيب السم فى اللديغ حتى يقوم بشراً سوياً ، وأنها بعد خروجها من الجسد تكلم وتتكلم وتسأل وتجيب وتخبر كما ثبت بنصوص الكتاب والسنة ، وأما عن كيفية الروح وكنهها فليس لبشر العلم به ولا الاطلاع عليه ، ولهذا لما سألت اليهود النبى ﷺ عنه أنزل الله تعالى جوابهم (قل الروح من أمر ربى ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلا) . وقوله رحمه الله تعالى :

ولأجل ذلك لم يقر الجهم ماالأرواح خارجة من الأبدان .

لكنها من أعراض بها إلخ » .

يعنى أن مذهب الجهم فى الروح/هو مذهب الفلاسفة الحائرين أن الروح ليس شيئاً يقوم بنفسه بل عرض والعرض فى اصطلاحهم هو مالايستقل ولا يستقر ، فمنزلة الروح عندهم من الجسد كمنزلة السمع من السامع والبصر من المبصر ، يذهب بذهابه ، بل قد يذهب البصر والسمع والذات التى يقوم بها موجودة ، فجحدوا أن لكون النفس التى هى الروح شيئاً قائماً بنفسه ، وأنه ينفخ فى الجنين فى بطن أمه بعد الأربعين الثالثة ، وأن (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ، وجحدوا كونها شيئاً يساق وينزع عند الموت ويعرج بها إلى الله عز وجل فيفتح لها أبواب السماء إن كانت محسنة أو تغلق دونها إن كانت مسيئة . ولا أن روح الأنبياء والمؤمنين فى الرفيق الأعلى وأرواح الكفار فى سجين ، فكذبوا بالكتاب ، وبما أرسل الله به رسله ، فضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله رحمه الله تعالى :

فالشأن للأرواح عند فراقها   أبدانها والله أعظم شأن

يعنى أن أعظم شأناً من الحياة الدنيا ، وذلك انه يكون إذ ذاك الخبر عياناً ، والغيب شهادة والمستور مكشوفاً ، والمخبأ ظاهراً ، فليس الخبر كالمعاينة ولا علم اليقين كعين اليقين ، فالمصدق يرى ويجد مصداق ماجاء به النص كما علمه وتيقنه فيزداد بشرى وفرحاً وسروراً ، والمكذب يرى ويجد حور تكذيبه بذلك ، وغب ماجناه على نفسه ويذوق وبال أمره ، وكل يفضى إلى ماقدم .

وقوله « إما نعيم أو عذاب إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة ونعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم) سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، وغير ذلك مما فى معناه من الآيات ، وقدمنا منها جملة وقدمنا من الأحاديث فى أحوال الأحتضار والبرزخ ومايتعلق بذلك مايبلغ حد التواتر ، فليرجع إليه ، ولله الحمد والمنة .

وقوله رحمه الله « وتصير طيراً سارحاً مع شكلها إلخ » يشير إلى حديث كعب بن مالك المسلسل بالأئمة « نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » وقوله رحمه الله تعالى « لكن أرواح الذين استشهدوا فى جوف طير أحضر إلخ » . يشير إلى قول الله عز وجل ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات ومافى معناها . وفى الصحيح من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية . (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى القناديل ، فاطلع إليهم ربهم عز وجل اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات . فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » وغير ذلك من الأحاديث :

وإذا أراد الله إخراج الورى بعد الممات إلى معاد ثان
ألقى على الأرض التى هم تحتها مطراً غليظاً أبيضاً متتابعاً إلخ

يشير إلى حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما بطوله وفيه « ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — تعالى مطراً كأنه الطل أو الظل ، فتنبت منه أجساد الناس » الحديث ، وفى حديث الصور الطويل « ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذرعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث أو كنبات البقل » وهو الذى عناه بقوله « عشراً وعشراً بعدها عشران » .

وقوله « أوحى لها رب السماء فتشققت إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (وإذا القبور بعثرت) ، وقوله (أفلا يعلم إذا بعثر مافى القبور) قال ابن عباس : بحثت ، وقال السدى : تبعثر تحرك فيخرج من فيها ، وقال البغوى : بحثت وقلب ترابها وبعث من فيها من المو تى أحياء ، يقال بعثرت الحوض وبحثرته إذا قلبته فجعلت أسفله أعلاه ، وقال فى الآية الأخرى (إذا بعثر) : أثير وأخرج (مافى القبور) أى من الأموات .

وقوله « وتخلت الأم الولود إلخ » يشير إلى قوله تعالى (وألقت مافيها وتخلت) وقال مجاهد وسعيد وقتادة : ألقت مافى بطنها من الأموات وتخلت منهم . أهـ .

وقوله « وأخرجت أثقالها إلخ » يشير إلى قوله عز وجل (وأخرجت الأرض أثقالها — إلى قوله — بأن ربك أوحى لها) قال ابن كثير رحمه الله : يعنى ألقت مافيها من الموتى ، قاله غير واحد من السلف : وقد تقدم تفسيرها بإلقائها أفلاذ كبدها أمثال الاسطوان . وقال البغوى رحمه الله : أثقالها موتاها وكنوزها فتلقيها على ظهرها . وقوله رحمه الله « والله ينشىء خلقه » أى هم أنفسهم لاغيرهم بعد موتهم » فى نشأة أخرى إلخ » يشير إلى قول الله عز وجل (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى) فهذه هى النشأة الأولى قال تعالى (وأن عليه النشأة الأخرى) وهو البعث بعد الموت قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) ومافى معنى ذلك من الآيات والأحاديث ، والمقصود أن الله سبحانه وتعالى يعبث الموتى أنفسهم ويجمعهم بعدما فرقهم وينشرهم بعدما مزقهم ، ويعيدهم كما خلقهم ، قد علم الله ماتنقص الأرض منهم (وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً) .

وقوله « ماقال إن الله يعدم خلقه إلخ » أى لم يقل الله تعالى ولارسوله ﷺ إنه يعدمهم العدم المحض ويأتى بغيرهم ، ولا إن المثاب غير من عمل الطاعات فى الدنيا ، ولا إن المعذب غير من مرد على المعاصى (إن الله لايظلم مثقال ذرة ـــ ومابك بظلام للعبيد ـــ ومالله يريد ظلماً للعباد) ، بل قال تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ، فالذين خلقهم من الأرض هم الذين أعادهم فيها ، وهم الذين يخرجهم منها ، ليسوا غيرهم كما يقوله الزنادقة قبحهم الله تعالى . وقال رسول الله ﷺ « فتخرجون من الأصواء ومن مصارعكم » ولم يقل أنه غيركم الذى يخرج . والكلام فى هذا الباب يطول جداً ، والنصوص فيها لاتحصى كثرة ، وإنما أشرنا إلى بعض من كل ودق من جل وقطرة من بحر والله المستعان . إلى آخر ماذكرنا من التعليق على الأبيات التى سقنا من نونية ابن القيم رحمه الله تعالى مع غاية الاختصار والإيجاز ولله الحمد والمنة . ولنرجع إلى شرح أبيات المتن المذكور :

(وبقيامنا بنفخ الصور) أى وكما يدخل فى الإيمان باليوم الآخر الموت ومابعده من فتنة القبر ونعيمه وعذابه وباللقاء والبعث والنشور والقيام من القبور كذلك يدخل فى ذلك الإيمان بالصور والنفخ الذى جعله الله سبب الفزع والصعق والقيام من القبور ، وهو القرن الذى وكل الله تعالى به إسرافيل كما تقدم فى ذكر الملائكة . وقد ذكر الله عز وجل النفخ فيه فى مواضع من كتابه ، كقوله عز وجل (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ، ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الآيات . وقال تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) الآيات ، وقال تعالى (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) . ولنسق ههنا حديث الصور بطوله لما فيه من المناسبة لهذه الآيات ولما اجتمع فيه مما تفرق فى غيره من الأحاديث وبالله التوفيق . قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية الآخرى : وقد روينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى فى كتابه المطولات قال : حدثنا أحمد بن الحسن المصرى الأيلى حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو فى طائفة من أصحابه فقال : « إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً بصره فى العرش ينتظر متى يؤمر » قلت : يارسول الله وماالصور ؟ قال « القرن »

قلت : كيف هو ؟ قال « عظيم ، والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ ، فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيطليها ويديمها ولايفتر وهى كقول الله تعالى (ومايناظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً ، ثم ترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة المرمية فى البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق فى العرش ترجرجه الرياح ، وهو الذى يقول (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة) فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الأقطار ، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، ويولى الناس مدبرين مالهم من أمر الله من عاصم ، ينادى بعضهم بعضاً ، وهو الذى يقول الله تعالى (يوم التناد) فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ماالله به عليم ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم انشقت السماء فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها ، قال رسول الله ﷺ : « الأموات لايعلمون بشىء من ذلك » قال أبو هريرة : يارسول الله : يارسول الله من استثنى الله عز وجل حين يقول (ففزع من فى السموات والأرض ومن فى الأرض إلا من شاء الله) قال « أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه » قال « وهو الذى يقول الله عز وجل (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فيقومون فى ذلك العذاب ماشاء الله تعالى إلا أنه يطول ، ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق ، فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا وجاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحى الذى لاتموت وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله تعالى العرش فيقول : يارب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى ، فيموتان .

ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله عز وجل وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لاتموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا . فيقول الله تعالى : لتمت حملة العرش . فتموت ، ويأمر الله تعالى العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك . فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لاتموت وبقيت أنا . فيقول الله تعالى : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت . فإذا لم يبق إلا الله القهار الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولا ، طوى السماء والأرض طى السجل للكتب ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات ثم يقول : أنا الجبار أنا الجبار (ثلاثاً) ثم هتف بصوته : لمن الملك اليوم (ثلاث مرات) فلا يجيبه أحد . ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار . يقول الله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فيبسطهما ويسطحهما ثم يمدهما مد الأديم العكاظى لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً . ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم فى هذه الأرض المبدلة مثل ماكانوا فيها من الأولى : من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها . ثم ينزل الله تعالى عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر ، فتمطر أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقهم إثنى عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث أو كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت ، قال الله عز وجل : ليحى حملة عرشى ، فيحيون ، ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول : ليحى جبريل وميكائيل ، فيحييان ، ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت مابين السماء والأرض فيقول : وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد كما يمشى السم فى اللديغ ، ثم تنشق الأرض عنهم ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) حفاة عراة غرلا ، فتقفون موقفاً واحداً مقداره سبعون عاماً لاينظر إليكم ولايقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دماً وتعرقون حتى يلجمكم العرق أو يبلغ الأذقان ، وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا ؟ فتقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه

وكلمه قبلا ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه فيأبى ويقول : ماآنا بصاحب ذلك ، فيستقرئون الأنبياء نبياً نبياً كلما جاءوا نبياً أبى عليهم ، قال رسول الله ﷺ حتى يأتونى فأنطلق إلى الفحص فأخر ساجداً » . قال أبو هريرة : يارسول الله وماالفحص ؟ قال « قدام العرش ، حتى يبعث الله إلى ملكاً فيأخذ بعضدى ويرفعنى فيقول لى : يامحمد . فأقول : نعم يارب ، فيقول عز وجل : ماشأنك ؟ وهو أعلم ، فأقول : يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بنيهم ، قال الله : قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم . قال رسول الله ﷺ : فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذا سمعنا من السماء حساً شديداً فهالنا ، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت . ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة وبمثلى من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة فيحمل عرشه يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم ، لهم زجل فى تسبيحهم يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لايموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولايموت ، سبوح قدوس قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولايموت . فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته فيقول : يامعشر الجن والإنس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم ، فأنصتوا إلى ، فانما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول (ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون) أو (بها تكذبون) شك أبو عاصم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فيميز الله الناس وتجثو الأمم ، يقول الله تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون) فيقضى الله عز وجل بين خلقه إلا الثقلين الجن والإنس فيقضى بين الوحوش والبهائم حتى إنه ليقضى للجماء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبعة

عند واحدة للاخرى قال الله لها : كونى تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : ياليتنى كنت تراباً ، ثم يقضى الله تعالى بين العباد ، فكان أول مايقضى فيه الدماء ، ويأتى كل قتيل فى سبيل الله ، ويأمر الله عز وجل كل من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول : يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول — وهو أعلم — فيم قتلتهم ؟ فيقول : قتلتهم لتكون العزة لك ، فيقول الله له : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه فيقول : يارب قتلنى هذا ؟ فيقول تعالى وهو أعلم : لم قتلتهم ؟ فيقول يارب قتلتهم لتكون العزة لى ، فيقول : تعست ، ثم لاتبقى نفس قتلها إلا قتل بها ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها وكان فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه . ثم يقضى الله تعالى بين من بقى فى خلقه حتى لاتبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء . فإذا فرغ الله تعالى من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وماكانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذى يقول (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون جاءهم الله فيما شاء من هيئته فقال : يأيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وماكنتم تعبدون ، فيقولون والله والله مالنا إله إلا الله ، وماكنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته مايعرفون أنه ربهم ، فيخرون للأذقان سجداً على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله عز وجل أصلابهم كصياصى البقر . ثم يأذن الله لهم فيرفعون ويضرب الله الصراط بين ظهرانى جهنم كحد الشفرة أو كحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان دونه جسر دحض مزلة ، فيمرون كطرف العين أو كلمح البرق ، أو كمر الريح أو كجياد الخيل أو كجياد الركاب أو كجياد الرجال ، فناج سالم ، وناج مخدوش ، ومكدوس على وجهه فى جهنم . فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام ؟ خلقه الله ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا . فيأتون آدم فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنباً ويقول : ماأنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فإنه أول رسل الله ، فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنباً ويقول : ماأنا بصاحب ذلك ، ويقول عليكم بابراهيم فإن

الله تخيره خليلا ، فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنباً ويقول : ماأنا بصاحب ذلك ويقول عليكم بموسى فإن الله قربه نجياً وكلمه وأنزل عليه التوراة ، فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه . فيذكر ذنباً ويقول لست بصاحب ذلك ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم . فيؤتى عيسى بن مريم فيطلب ذلك إليه فيقول : ماأنا بصاحبكم ولكن عليكم بمحمد . قال رسول الله ﷺ فيأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن ، فأنطلق فآتى الجنة فآخذ بحلقة الباب فأستفتح فيفتح لى فأحيا ويرحب بى ، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خررت له ساجداً فيأذن الله لى من تحميده وتمجيده بشىء ماأذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول : أرفع رأسك يامحمد واشفع تشفع وسل تعط ، فإذا رفعت رأسى يقول الله تعالى — وهو أعلم — ماشأنك ؟ فأقول يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة فيدخلون الجنة ، فيقول الله : قد شفعتك ، وقد أذنت لهم فى دخول الجنة » وكان رسول الله ﷺ يقول « والذى نفسى بيده ماأنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم » فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشىء الله عز وجل وثنتين آدميتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما الله تعالى فى الدنيا ، فيدخل على الأولى فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق ، ثم إنه يضع يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كبدها له مرآة وكبده لها مرآة ، فبينا هو عندها لايملها ولا تمله مايأتيها من مرة إلا وجدها عذراء مايفتر ذكره وماتشتكى قبلها ، فبينا هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لاتمل ولاتمل ، إلا أنه لامنى ولامنية ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما أتى واحدة قالت له : والله ماأرى فى الجنة شيئاً أحسن منك ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك ، وإذا وقع أهل النار فى النار وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ النار قدميه ولاتجاوز ذلك ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه حرم الله صورته عليها ، قال رسول الله ﷺ « فأقول يارب شفعنى فيمن وقع فى النار من أمتى ، فيقول أخرجوا من عرفتم من فيخرج أولئك حتى لايبقى منهم أحد . ثم يأذن الله تعالى فى الشفاعة فلا يبقى نبى ولاشهيد إلا شفع ، فيقول الله تعالى : أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار إيماناً ، فيخرج أولئك حتى لايبقى منهم أحد ، ثم يشفع الله تعالى فيقول أخرجوا

من وجدتم فى قلبه إيماناً ثلثى دينار ، ثم يقول ثلث دينار ، ثم يقول ربع دينار ، ثم يقول قيراط ، ثم يقول حبة من خردل ، فيخرج أولئك حتى لايبقى منهم أحد وحتى لايبقى فى النار من عمل لله خيراً ولايبقى أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى إن إبليس يتطاول مما يرى من رحمة الله تعالى رجاء أن يشفع له ، ثم يقول : بقيت وأنا أرحم الراحمين فيدخل يده فى جهنم فيخرج منها مالايحصيه غيره كأنهم حمم فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، فما يلى الشمس منها أخيضر ومايلى الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث حتى يكونوا أمثال الذر ، مكتوب فى رقابهم : الجهنميون عتقاء الرحمن ، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ماعملوا خيراً لله قط : فيمكثون فى الجنة ماشاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم ، ثم يقولون : ربنا امح عنا هذا الكتاب ، فيمحوه الله عز وجل عنهم » .

قال ابن كثير ثم ذكره بطوله ثم قال : هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة ، وفى بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضى أهل المدينة ، وقد اختلف فيه : فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى وعمرو بن على الفلاس ، ومنهم من قال فيه هو متروك ، وقال ابن عدى أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء . قال رحمه الله تعالى قلت وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها فى جزء على حدة ، وأما سياقه فغريب جداً ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال ماالصور ؟ فقال قرن ينفخ فيه » وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر ، فقالوا : يارسول الله وماتأمرنا ؟ قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(غرلا حفاة) الأغرل الأقلف ، حفاة غير منتعلين (كجراد منتشر) شبهوا بالجراد المنتشر لكثرته ولكونه ليس له وجهة يقصدها بل يختلف ويموج بعضه فى بعض وهم

كذلك ، قال الله تعالى (فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) وقال تعالى (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير، على الكافرين غير يسير) وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين راهبين واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا » . وفيهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله ﷺ يخطب فقال « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده) الآية ، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصيحابي ، فيقول الله عز وجل : إنك لاتدري ماأحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) قال فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم » . وفي رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشاة غرلا » وفي أخرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر . وفيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « تحشرون حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة فقلت : يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » . وفي رواية النسائي « فقالت عائشة : يارسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » وروى هو وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا . قال فقالت زوجته : يارسول الله ينظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » أو قال « ماأشغلهم عن النظر » رواه الترمذي بنحوه وقال حسن صحيح . وروى ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه قال « سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله بأبي أنت وأمي إني سائلتك عن حديث فتخبرني أنت به . قال : إن كان عندي منه علم . قالت : يانبي الله كيف يحشر الرجال ؟ قال حفاة عراة . قالت : واسوأتاه من يوم القيامة . قال : وعن أي ذلك تسألين ؟ إنه قد نزل على آية لايضرك كان عليك ثياب أو لايكون . قالت أية آية يانبي الله ؟ قال : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن

سودة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . فقلت : يارسول الله واسوأتاه ، ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال قد شغل الناس ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » وفى الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا قال يانبى الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ قال قتادة بلى وعزة ربنا ، قلت : وذلك قول الله عز وجل (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) الآيات . فشتان مابين الفريقين ، وفرقان مابين الطريقين . أولئك يفدون ركباً إلى جنات النعيم ، ورحمة الرحمن الرحيم ، وزيارة الرب العظيم ، وهؤلاء يسحبون سحباً إلى نار الجحيم ، ونكالها الأليم ، وعذابها المقيم ، (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) قال ابن عباس : وفداً ركباناً . وقال أبو هريرة : على الأبل . وقال ابن جريج : على النجائب . وقال الثورى : على الإبل النوق . قال قتادة : إلى الجنة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : مايحشرون والله على أرجلهم ، ولكن على نوق رحالها الذهب ونجائب سرجها يواقيت ، إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت ، وروى عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن النعمان بن سويد قال : كنا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال : لا والله ماعلى أرجلهم يحشرون ولايحشر الوفد على أرجلهم ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة . ورواه ابن أبى حاتم وزاد : عليها رحائل الذهب وأزمتها الزبرجد . ولابن أبى حاتم عنه رضى الله عنه كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) فقال : مأظن الوفد إلا الركب يارسول الله ، فقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون — أو يؤتون — بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداهما فتغسل مافى بطونهم من دنس ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً ، وتجرى عليهم نضرة النعيم فينتهون — أو فيأتون — باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين » وذكر الحديث مطولا والصحيح وقفه . (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) أى عطاشاً قد تقطعت أعناقهم من العطش ، والورد الجماعة يردون الماء ولايرد أحد الماء إلا بعد

عطش . قلت : ولكنهم وردوا لا إلى ماء بل إلى جهنم وجحيمها ، ومهلها وحميمها . وفى حديث الشفاعة الطويل « فيقال لهم ماذا تشتهون ؟ فيقولون عطشنا . فيشار لهم إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضها فيقال لهم : ألا تردون » الحديث . فسبحان الله وبحمده الله أكبر . كانوا فى الدنيا على السواء يرزقون ويسيرون ويذهبون ويجيئون ، يؤتاها من يحبه الله ومن لايحب ، فلما جاءهم الموت عرف كل منهم سبيله ، واتضح له مقيله . فلما كانوا فى البرزخ خلا كل منهم بعمله وأفضى إلى ماقدم قبل أجله، فبينما هو كذلك إذ صرخ بهم الصارخ وصاح بهم الصائح ، فخرجوا من الأجداث مسرعين ، وإلى الداعى مهطعين . هذا على النجائب ، وهذا على الركائب ، وهذا على قدميه ، وهذا على وجهه ، هؤلاء فى النور ينظرون ، وأولئك فى ظلمات لايبصرون . هؤلاء إلى الرحمن يفدون ، وأولئك إلى النار يردون . هؤلاء حلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . وأولئك غلوا بالسلاسل وعلتهم الزبانية بالمقامع يضربون بطوناً منهم وظهوراً . هؤلاء وقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً، متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، وأولئك أعتد الله لهم سعيراً ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لاتدعون اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ، هؤلاء عليهم حلل السندس والاستبرق وسائر الألوان ، وأولئك مقرنون فى الأصفاد سرابيلهم من قطران . هؤلاء إلى زيارة ربهم يركبون ، وأولئك إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون هؤلاء ينظرون إلى ربهم بكرة وعشياً ، وأولئك تركوا فى جهنم جثياً . هؤلاء يقول لهم ربهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وأولئك يقول لهم أخساوا فيها ولاتكلمون وماهم بخارجين من النار . هؤلاء يقررون بذنوبهم فيغفرها لهم رب العالمين ، وأولئك ينادى بهم على رؤس الاشهاد ، هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين فحينئذ ظهر الفرقان وافترق الطريقان ، وامتاز الفريقان ، وصار الغيب شهادة والسر علانية ، والمستور مكشوفاً ، والمخبأ ظاهراً (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) كم كاس فى الدنيا طال يومئذ عريه ، كم طاعم فى الدنيا عظم يومئذ جوعه ، كم ريان فى الدنيا أشتد يومئذ عطشه ، كم ناعم فى الدنيا حق به يومئذ بؤسه (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين

عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون) .

ويجمع الخلق ليوم الفصل جميعهم علويهم والسفلى
فى موقف يجل فيه الخطب ويعظم الهول به والكرب

(ويجمع الخلق) أولهم وآخرهم (ليوم الفصل) يوم يفصل الرحمن بين الخلائق ، سماه الله تعالى يوم الفصل لذلك وسماه يوم التغابن لكثرة المغبونين يومئذ ، وسماه يوم الجمع لأنه يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، وسماه يوم التلاق لأنه يلقئ فيه العبد ربه ويلقى فيه العامل عمله ويلتقى فيه الأولون بالآخرين ، ويلتقى فيه أهل السموات والأرضين ، وسماه يوم القيامة لأن فيه قيام الخلائق من القبور ، وسماه يوم التناد ، لتنادى العباد بعضهم بعضاً ، ولمناداة الله عز وجل عباد فيه ، وبندائهم ليتبع كل قوم ماكانوا يعبدون ولتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار ، ولمناداة أصحاب الأعراف كلا من الفريقين ، وللمناداة على كل عامل بعمله وغير ذلك قال الله عز وجل (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) وقال تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) وقال تعالى (يوم يجمع إليه الرسل فيقول ماذا أجبتم) وقال تعالى (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً) وقال تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) وقال تعالى (لأى يوم أجلت ليوم الفصل وماأدرك مايوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) وقال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شئ) وقال تعالى (فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) وقال تعالى (يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالى (يوم تقوم الروح والملائكة صفاً ــ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) وقبل ذلك (يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين) وقال فى السعداء (لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة) وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون (وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ــ إلى قوله ــ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقال تعالى فى مناداة المنافقين المؤمنين (ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) الآيات ، وقال تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون ، ونادى

أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ـــ إلى قوله فى أصحاب الأعراف ـــ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ـــ إلى قوله ـــ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ـــ إلى قوله ـــ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ، وقال تعالى (ومن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) وغيرها من الآيات .

(وجميعهم علويهم) وهم عوالم السموات (والسفلى) وهم عوالم الأرضين . وقد تقدم فى حديث الصور كيفية صفوفهم وتضعيفهم وإحاطة بعضها ببعض .(فى موقف) عظيم (يجل) يشتد (فيه الخطب) الشأن والأمر (ويعظم الهول) الأمر الفظيع الهائل (به) أى فيه (والكرب) الحزن الآخذ بالنفس والهم والغم ، وقد وصف تعالى موقف القيامة بشدة ذلك كله كما قال (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقال تعالى (فلا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) ، وقال تعالى (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) وقال تعالى (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ـــ إلى قوله ـــ ولايسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه) وقال تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) ، وقال تعالى (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ـــ إلى قوله ـــ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم) وقال تعالى (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال « يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى إنصاف أذنيه » ، ورواه أحمد بلفظ «يوم يقوم الناس لرب العالمين لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى إنصاف آذانهم ، وله عن المقداد ابن الأسود الكندى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، قال فتصرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم . ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه . ومنهم

من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً » رواه مسلم ، والترمذى ، وروى أحمد أيضاً عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزداد فى حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم : منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » ، وفيه عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس : فمن الناس من يبلغ عرقه كعبيه . ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق . ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ الحجر ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه . ومنهم من يبلغ وسط فيه — وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير بيديه هكذا — ومنهم من يغطيه عرقه — وضرب بيده إشارة » . وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم » . ولابن أبى حاتم عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لبشير الغفارى « كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه ثلثمائة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا لايأتيهم فيه خبر من السماء ولايؤمر فيهم أمر » ، قال بشير : المستعان الله ، قال : فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب » ، وفى السنن عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة .

وقوله تعالى (مهطعين) قال قتادة : مسرعين ، وقال مجاهد : مديمى النظر ومعنى الاهطاع أنهم لايلتفتون يميناً ولاشمالا ولايعرفون مواطن أقدامهم . (مقنعى رءوسهم) قال القتيبى : المقنع الذى يرفع رأسه ، ويقبل ببصره على مابين يديه ، وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لاينظر أحد إلى إحد . (لايرتد إليهم طرفهم) لاترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر وهى شاخصة قد شغلهم مابين أيديهم . (وأفئدتهم هواء) أى هى خالية . قال قتادة : خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم لاتخرج من أفواههم ولاتعود إلى أماكنها ، فأفئدتهم هواء لاشىء فيها ، ومنه سمى مابين السماء والأرض هواء لخلوه ، وقيل : خالية لاتعنى شيئاً ولاتعقل من الخوف . وقال سعيد بن جبير : مترددة تمور فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه . قال البغوى رحمه الله تعالى : وحقيقة المعنى أن القلوب زائلة عن أماكنها ، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم أهـ . وهذا معنى قوله عز

وجل (إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين) قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف فلا تخرج ولاتعود إلى أماكنها . وكذا قال عكرمة والسدى وغير واحد . ومعنى كاظمين أى ساكتين لايتكلم إحد إلا بإذنه . (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال ابن جريج : باكين ، وقال البغوى : مكروبين ممتلئين خوفاً وجزعاً ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن فى القلب حتى يضيق به . (كان مقداره خمسين ألف سنة) فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الزكاة وفيه « من كانت له إبل لايعطى فيها حقها فى نجدتها ورسلها . قلنا : يارسول الله ، مانجدتها ورسلها ؟ قال : فى عسرها ويسرها . فإنها تأتى يوم القيامة كأغذ ماكانت وأكثره وأسمنه وآشره حتى يبطح لها بقاع قرقر فتطأه بأخفافها فإذا جاوزت أخراها أعيدت عليه أولاها (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله : إما ألى الجنة ، وإما إلى النار » الحديث . (ولايسأل حميم حميما يبصرونهم) لايسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه فى أسو الأحوال فتشغله نفسه عن غيره ، قال العوفى عن ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك يقول الله تعالى (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يعنيه) ، وهذه الآية كقوله تعالى (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إن وعد الله حق) وقوله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) قال عكرمة : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا لم كان يغلق بابه دونى ؟ وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول : يامؤمن إن لى عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا وقد إحتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزله وهو النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يابنى أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيراً ، فيقول : يابنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول ولده : ياأبت ماأيسر ماطلبت ، ولكنى أتخوف مثل ماتتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . ثم يتعلق بزوجته فيقول : يافلانة أو ياهذه أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيراً ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها إلى لعلى أنجو بها مما ترين . قال فتقول : ماأيسر ماطلبت ، ولكنى لاأطيق أن أعطيك شيئاً . إنى أتخوف مثل الذى تتخوف . يقول الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية ، ويقول تبارك وتعالى (لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) ويقول تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

(فإذا نقر) نفخ ، (فى الناقور) الصور . روى أبن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ . فقال أصحاب رسول الله ﷺ فما تأمرنا يارسول الله قال قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » رواه الإمام أحمد وابن جرير . (فذلك يومئذ يوم عسير) شديد . (على الكافرين غير يسير) عليهم وروى عن زرارة بن أوفى قاضى البصرة رحمه الله تعالى أنه قرأ فى صلاة الصبح بالمدثر فلما بلغ هذه الآية (فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) شهق شهقة فمات ، أولئك قوم قرأوا القرآن بقلوب حاضرة وآذان وعيه ، وبصائر نافذة ، وأفهام جليلة ونفوس علية ، مستحضرين تأويل معانيه حين وقوعها وأوان وعيدها ، شاهدين ببصائرهم من تكلم به فأنزله فأثمر فى قلوبهم خشية الله عز وجل فذابوا خوفاً وحياء من ربهم وشوقاً إليه (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال تعالى فيهم (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) قال ابن عباس فاشياً . وقال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال مقاتل : كان شره فاشياً فى السموات ، فانشقت وتناثرت الكواكب وكورت الشمس والقمر وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نسفت الجبال وغارت المياه وتكسر كل شئ على الأرض من جبل وبناء ، قال ابن جرير : ومنه قولهم استطار الصدع فى الزجاجة واستطال ومنه قول الأعشى :

فبانت وقد أثارت فى الفؤا ... د صدعاً على نأيها مستطيراً

يعني ممتداً فاشياً ، وقوله (عبوساً قمطريراً) قال ابن عباس : ضيقاً طويلا وعنه قال : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطراه . وقال مجاهد (عبوساً) العابس الشفتين (قمطريراً) تقبض الوجه بالسيور . وقال سعيد بن جبير وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول (قمطريراً) تقليص الجبين ومابين العينين من الهول . وقال انب زيد : العبوس الشر والقمطرير الشديد . وقال ابن جرير : والقمطرير هو الشديد يقال هو يوم قمطرير ويوم قماطر ويوم عصيب وعصبصب . وقد اقمطر اليوم يقمطر اقمطراراً وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة . ومنه قول بعضهم :

بنـى عمنـا هل تذكرونـا بلاءنـا ... عليكـم إذا ماكان يوم قماطـــر
وأحضروا للعـــــرض والحساب ... وانقطــعت علائـــق الأنساب

وأرتكمت سحائب الأهـــوال   وانعجـــم البليـــغ فى المقـــال

(واحضروا للعرض) العرض له معنيان معنى عام وهو عرض الخلائق كلهم على ربهم عز وجل بادية له صفحاتهم لاتخفى عليه منهم خافية . وهذا يدخل فيه من يناقش الحساب ومن لايحاسب . والمعنى الثانى هو عرض معاصى المؤمنين عليهم وتقريرهم بها وسترها عليهم ومغفرتها لهم ، والحساب المناقشة وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه العزيز فى غير ماموضوع إجمالا وتفصيلا كما قال (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) الآيات ، وقال تعالى (واعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) الآياة ، وقال تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً مما يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون . ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لاينطقون) . وقال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالى (فوربكُ لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (وقفوهم إنهم مسئولون) وقال تعالى (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) وغير ذلك من الآيات .

وروى ابن أبى الدنيا عن عمر رضى الله عنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) ، وروى أحمد وابن ماجه عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله » وللترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه نحوه . وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود نحوه موقوفاً ، وفى الصحيحين : سئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال « ماأنزل الله فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمال مثقال ذرة شراً يره) وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه آتى النبى ﷺ فقرأ عليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) قال : حسبى ، لاأبالى أن لاأسمع غيرها . وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس قال : كان أبو بكر يأكل مع النبى ﷺ فنزلت هذه الآية (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله

أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : ياأبا بكر مارأيت فى الدنيا مما تكره فبمثا قيل ذر الشر ، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة » وعن أبى العاليه فى قوله(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ، عما كانوا يعبدون وعماذا أجابوا المرسلين » وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : والذى لا إله غيره ، مامنكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، فيقول : ياابن آدم ماذا غرك منى بى ، ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ، ابن آدم ماذا أجبت المرسلين » ولابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « يامعاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه ، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » ، وعن ابن عباس (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) قال : لايسألهم هل عملتم كذا لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا ؟ وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت يارسول الله أليس قد قال الله تعالى (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟) فقال رسول الله ﷺ « إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ كان يقول « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدى به ؟ فيقول نعم . فيقال له قد كنت سئلت ماهو أيسر من ذلك » . وفيه عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بين الله وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ماقدم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدم ، وينظر بين يديه فلايرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » . وفيه عن صفوان بن محرز قال : بينما ابن عوف يطوف إذا عرض رجل فقال : يأبا عبد الرحمن — أو قال ياابن عمر — هل سمعت النبى ﷺ فى النجوى ؟ فقال : سمعت النبى ﷺ يقول « يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كتفه فيقرره بذنوبه : تعرف ذنب كذا ؟ يقول أعرف ، يقول رب أعرف ، مرتين فيقول أنا سترتها فى الدنيا وأغفرها لك اليوم ، ثم تطوى صحيفة حسناته ، وأما الآخرون أو الكفار فينادى على رؤس الاشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » وفى الترمذى عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ

« لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين أكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » وقال حسن صحيح .

(وانقطعت علائق الأنساب) كما قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) ، وقال تعالى (ولايسأل حميم حميماً) الآيات ، وقال تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) الآيات ، وقال تعالى عن الكافرين (فمالنا من شافعين ولا صديق حميم) ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه ، قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً ، ومصداق ذلك فى كتاب الله (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) رواه ابن أبى حاتم . وروى البغوى بإسناد الثعلبى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الرجل ليقول فى الجنة : مافعل بصديقى فلان ؟ وصديقه فى الجحيم ، فيقول الله تعالى : أخرجوا له صديقه إلى الجنة ، فيقول من بقى : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، قال الحسن رحمه الله تعالى استكثروا من الأصدقاء المؤمنين ، فإن لهم شفاعة يوم القيامة . وعن قتادة فى قول الله عز وجل (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) قال : يفر هابيل من قابيل . ويفر النبى ﷺ من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ولوط عليه السلام من صاحبته ، ونوح عليه السلام من ابنه (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) يشغله عن شأن غيره . وفى الحديث الصحيح فى أمر الشفاعة « إنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق يقول : نفسى نفسى لاأسالك إلا نفسى ، حتى إن عيسى بن مريم يقول : لاأسأله اليوم إلا نفسى ، لاأسأله مريم التى ولدتنى » .

وارتكمت سحائب الأهوال وانعجم البليغ فى المقال
وعنت الوجوه للقيوم واقتص من ذى الظلم للمظلوم

(وارتكمت) اجتمعت (سحائب الأهوال) جمع هول وهو الأمر الشديد الهائل المفظع (وانعجم) أسكت فلم يتكلم . (البليغ) الذى كان فى الدنيا مقتدراً على البلاغة والفصاحة (فى المقال) قال الله تعالى (يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه) وقال تعالى (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمعن إلا همساً) وقال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) قال ابن عباس (وخشعت الأصوات

للرحمن) : سكنت (فلا تسمع إلا همساً) قال : تحريك الشفاه من غير منطق ، وعنه : الهمس الصوت الخفى ، وعنه وهووعكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم : الهمس نقل الأقدام إلى المحشر كأخفاف الإبل ، وقال سعيد بن جبير : همساً سر الحديث ووطء الأقدام فجمع بين القولين ، وفى حديث الشفاعة « ولايتكلم يومئذ إلا الرسل » الحديث . ((وعنت الوجوه) ذلت وخضعت ، ومنه قيل للأسير عان .
(القيوم) تضمين لمعنى قوله عز وجل (وعنت الوجوه للحى القيوم) قال ابن عباس وغير واحد : خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت القيوم الذى لاينام وهم قيم على كل شيء يديره ويحفظه فهو الكامل فى نفسه الذى كل شيء فقير إليه لاقوام له إلا به (وقد خاب من حمل ظلماً) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله ، والظلم هو الشرك . وقيل المراد بالظلم هنا العموم فيتناوله الشرك وغيره من ظلم العباد نفسه وظلم العباد بعضهم بعضاً ، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء . وفى بعض الأحاديث « يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لايجاوزنى اليوم ظلم ظالم » . وفى الصحيحين « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » فعلى هذا المعنى ظلم دون ظلم وخيبة دون خيبة ، والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله وهو به مشرك ، فإن الله تعالى يقول (إن الشرك لظلم عظيم) وقد تقدم حديث عائشة عند أحمد « الدواوين ثلاثة : ديوان لايغفره الله ، وديوان لايعبأ الله به ، وديوان لايترك الله منه شيئاً » الحديث (واقتص من ذى الظلم) أى اقتضى من الظالم (للمظلوم) ، قال الله تعالى (إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها) وقال الله تعالى (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ، إلى قوله — والله يقضى بالحق) وقال تعالى (وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون — وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) وقال تعالى (ووفيت كل نفس ماعملت ، وهو أعلم بما يفعلون) وغيرها من الآيات . وقال البخارى رحمه الله تعالى : « باب القصاص يوم القيامة ، وهى الحاقة لأن فيها الثواب وحواق الأمور الحقة والحاقة واحد ، والقارعة والغاشية والصارخة والتغابن غبن أهل الجنة أهل النار » ثم ساق بسنده حديث ابن مسعود قال النبى ﷺ « أول مايقضى بين الناس بالدماء » وحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولادرهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه » . وحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال

رسول الله ﷺ « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا . حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا » . وللترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يارسول الله من لادرهم له ولامتاع . قال رسول الله ﷺ : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيقعد فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ماعليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح فى النار » هذا حديث حسن صحيح ، وله عنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى تقاد الشاة الجلحاء من الشاة القرناء » قال وفى الباب عن أبى داود وعبد الله بن أنيس حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح ، وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : بلغنى حديث عن رجل سمعه من النبى ﷺ ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلا فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبد الله ؟ قلت نعم . فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنى واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى القصاص فخشيت أن تموت وأموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله يقول « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة — أو قال العباد — عراة غرلا بهما . قلت : ومابهما ؟ قال : ليس معهم شىء . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لاينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حتى أقضيه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه ، حتى اللطمة . قال قلنا كيف وإنما نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات » وقد أشار البخارى إلى هذا الحديث فى مواضع من صحيحه تعليقاً ووصله فى كتاب أفعال العباد ، وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » وروى رحمه الله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال : أتدرى ماينتطحان ياأبا هريرة ؟ قلت لا . قال : لكن الله يدرى وسيحكم بينهما » .

وساوت الملـــــوك للأجنـــــاد وجىء بالكتـــاب والأشهـــاد
وشهـــــــد الأعضاء والجوارح وبـــدت السوآت والفضائـــح
وابتلـــيت هنـــالك السرائـــر وانكشف المخفى فى الضمائر

(وساوت الملوك) العظماء الرؤساء الكبراء (للأجناد) الرعايا ، أى صاروا سواء فى ذلك الموقف مشتركين فى هوله الفظيع وكربه الشديد إلا من رحم الله ، وليس لأحد منهم مقال ، ولايملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولاضراً ، كل امرىء بما كسب رهين ، قال الله تعالى (مالك يوم الدين) ، وقال تعالى (الملك يومئذ لله يحكم بينهم) ، وقال تعالى (يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) ، وقال تعالى (يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) وغير ذلك من الآيات ، قال ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين (مالك يوم الدين) يقول لايملك أحد معه فى ذلك اليوم حكماً كملكهم فى الدنيا . قال ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر ، إلا من عفا عنه وقال البغوى فى قوله عز وجل (الملك يومئذ الحق للرحمن) : أى الملك الذى هو الملك الحق ملك الرحمن يوم القيامة . وقال ابن عباس رضى الله عنه يريد أن يوم القيامة لاملك يقضى غيره ، وفى الحديث الصحيح المتقدم « يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » وفى لفظ « إين الجبارون أين المتكبرون » وقال قتادة (يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) : والأمر والله اليوم لله ، ولكنه لاينازعه فيه يومئذ أحد ، وقال البغوى : يوم لايملك الله فى ذلك اليوم أحداً من خلقه شيئاً كما ملكهم فى الدنيا . (وجىء بالكتاب والاشهاد) قال الله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً) ، وقال تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء) ، وقال تعالى (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وقال تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) ، وقال تعالى (ويوم تبعث من كل أمة شهيداً ثم لايؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) إلى قوله (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء) ، وقال تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ، ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا

هاتوا برهانكم) الآية ، وقال تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) وغير ذلك من الآيات . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا يوسف بن راشد حدثنا جرير وأبو أسامة — واللفظ لجرير — عن الأعمش عن أبى صالح . وقال أبو أسامة : حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ماأتانا من نذير . فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمته . فتشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . والوسط العدل . ورواه أحمد وأصحاب السنن ، ورواه الإمام أحمد أيضاً بلفظ « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولان لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم فيقال من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد ﷺ وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وماعلمكم ؟ فيقولون جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا . فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال عدلا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « قال رسول الله ﷺ : اقرأ على ، فقلت يارسول أقرا عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال : حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان » قال ابن كثير رحمه تعالى (ووضع الكتاب) أى كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير والفتيل والقمطير والصغير والكبير (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة (ويقولون ياويلتنا) أى ياحسرتنا وويلنا على مافرطنا فى أعمالنا ، (مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أى لايترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملا وإن صغر إلا أحصاها أى ضبطها وحفظها . وروى الطبرانى بإسناده عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شىء ، فقال النبى ﷺ « اجمعوا ، من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به » قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبى ﷺ « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه » .

وروى البغوى بإسناده عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم ومحقرات الذنوب . فإنما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزتهم ، وإن محقرات الذنوب لموبقات » وقوله (ووجدوا ماعملوا حاضراً) كقوله عز وجل (يوم تجد كل نفس ماعملت من خيراً محضراً وماعملت من سوء) ، وقوله عز وجل (علمت نفس ماأحضرت) ، وقوله تعالى (علمت نفس ماقدمت وأخرت) ، وقوله تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وآخر) وغيرها من الآيات . وقوله تعالى (ونزعنا من كل أمة شهيداً) قال البغوى : يعنى رسولهم الذى أرسل إليهم وهو قول مجاهد ، وروى ابن جرير عن عثمان بن عفان أنه خطب فقرأ هذه الآية (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) فقال : سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : السائق الملك والشهيد العمل وكذا قال الضحاك والسدى ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه . وقوله تعالى (وأشرقت الأرض) أضاءت (بنور ربها) بنور خالقها ، ذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه ، فما يتضارون فى نوره كما لايتضارون فى الشمس فى اليوم الصحو ، قاله البغوى ، والحديث « لايتضارون فى رؤيته » . (ووضع الكتاب) قال قتادة : كتاب الأعمال . (وجىء بالنبيين) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم . (والشهداء) أى من الملائكة الحفظة على أعمال العباد قال ذلك عطاء ، ويدل عليه قوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) قال ابن عباس : يعنى الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم أمة محمد ﷺ ، ويدل على ذلك قوله تعالى (وتكونوا شهداء على الناس) وقال مجاهد فى قوله تعالى (يوم يقوم الاشهاد) يعنى الملائكة ، قال البغوى : يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب .

(وشهدت) على كل جاحد (الأعضاء) أعضاؤه (والجوارح) عطف تفسير ، قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) الآيات ، وقال تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعلمون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون ، وذلك

ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) الآيات وغيرها وروى مسلم والنسائى وابن أبى حاتم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال رسول الله ﷺ : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لاأجيز على شاهداً من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكتاب شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً وسحقاً فعنكن كنت أناضل » وروى عبد الرازق أخبرنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال « إنكم تدعون مقدماً على أفواهكم بالفدام ، فأول مايسأل عن أحدكم فخذه وكتفه » ورواه النسائى عن محمد بن رافع عن عبد الرازق به ، وله هو ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى حديث القيامة الطويل قال فيه « ثم يلقى الثالث فيقول : ماأنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ، ويثنى بخير مااستطاع ، قال : فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ قال فيفكر فى نفسه من الذى يشهد عليه ؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه : انطقى ، قال فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه » وذلك الذى يسخط الله تعالى عليه » وهذا الحديث تقدم قريباً بطوله ولله الحمد . وهذا والله أعلم يتضمن بيان قول الله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) الآية ، وروى ابن جرير وابن أبى حاتم وأحمد رحمهم الله تعالى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه من الرجل اليسرى » وفى رواية أحمد « من الرجل الشمال » . وروى ابن جرير عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه « يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول نعم أى رب عملت عملت عملت قال فيغفر الله له ذنوبه ويستره منها قال فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته فود أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول : أى رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل ، فيقول له الملك أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول لا وعزتك أى رب ماعملته . فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فمه قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : فأنا أحسب أول ماينطق منه فخذه اليمنى » ثم

تلا (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) . وروى أبو يعلى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم ، فيقول هؤلاء جيرانك يشهدون عليك ، فيقول كذبوا ، فيقول أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقول احلفوا فيحلفون ، ثم يصمتهم الله تعالى وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار » . وروى بن أبى حاتم عن بن عباس رضى الله عنهما أنه قال لابن الأزرق إن يوم القيامة ليثقل[1] على الناس منه حين لاينطقون ولايعتذرون ولايتكلمون حتى يؤذن لهم ، ثم يؤذن لهم فيختصمون فيجحد الجاحد بشركه بالله تعالى فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختم على أفواههم ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح فتقول (أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) فتقر الألسنة بعد الجحود ، وروى أيضاً عن رافع أبى الحسن قال وصف رجلا جحد قال فيشير الله تعالى إلى لسانه فيربو فى فمه حتى يملأه فلا يستطيع أن ينطق بكلمة . ثم يقول لآرابه تكلمى واشهدى عليه فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده ، وفرجه ويداه ورجلاه : صنعنا عملنا فعلنا . وله أيضاً عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال « ألا تحدثوا بأعاجيب مارأيتم بأرض الحبشة » فقال فتية منهم : بلى يارسول الله ، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها ، فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت : سوف تعلم ياغدر إذا وضع الله الكرسى وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غداً . قال يقول رسول الله ﷺ « صدقت صدقت كيف يقدس الله تعالى قوماً لايؤخذ لضعيفهم من شديدهم » ، ورواه ابن أبى الدنيا . وقال البخارى رحمه الله تعالى حدثنا الصلت بن محمد حدثنا يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن منصور عن مجاهد عن أبى معمر عن ابن مسعود (وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم) الآية : كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش فى بيت ، فقال بعضهم لبعض : أترون أن الله يسمع حديثنا ؟ قال بعضهم يسمع بعضه وقال بعضهم لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله ، فأنزلت (وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) الحديث تقدم لفظه فى إثبات السمع والبصر ولله الحمد .·.

(١) ليست موجودة فى الأصل .

(وابتليت) أى أختبرت (هنالك) الإشارة إلى موقف القيامة العظيم ، وهوله الجسيم (السرائر) جمع سريرة وهى ضد العلانية (وانكشف المخفى) المستور (فى الضمائر) إشارة إلى قول الله عز وجل (يوم تبلى السرائر) قال البغوى رحمه الله تعالى : وذلك يوم القيامة تبلى السرائر تظهر الخفايا . قال قتادة ومقاتل تختبر ، قال عطاء بن أبى رباح : السرائر الأعمال كالصوم والصلاة والوضوء والأغتسال من الجنابة فانها سرائر بين الله تعالى وبين العبد . فلو شاء العبد لقال صمت ولم يصم وصليت ولم يصل واغتسلت ولم يغتسل ، فيختبر حتى يظهر من أداها ممن ضيعها ، قال ابن عمر رضى الله عنهما : يبدى الله عز وجل يوم القيامة كل سر ، فيكون زيناً فى وجوه وشيناً فى وجوه ، يعنى من أداها كان وجهه مشرقاً ومن ضيعها كان وجهه أغبر ، وفى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « يرفع لكل غادر لواء عنداسته يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان » عياذاً بالله من ذلك .

ونشرت صحائف الأعمال	تؤخذ باليمين والشمال
طوبى لمن يؤخذ باليمين	كتابه بشرى بحور عين
والويل للأخذ بالشمال	وراء ظهر للجحيم صالى

(ونشرت صحائف) كتب (الأعمال) من حسنات وسيئات قال الله تعالى (وإذا الصحف نشرت) . (تؤخذ باليمين) للمؤمن (والشمال) للكافر (طوبى) أطيب شئ واسم شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها (لمن يأخذ باليمين كتابه بشرى) أعظم بشارة (بحور) جمع حوراء صفة لهن من حور العين وهو شدة سواد العينين فى شدة بياضهما (عين) حسان الأعين (والويل) كلمة عذاب وواد فى جهنم (للآخذ بالشمال) كتابه (وراء ظهر للجحيم صال) اسم فاعل من صلى يصلى غمر فيها ، وقد ذكر الله تعالى تطاير الصحف ونشرها وتناولها فى غير موضع من كتابه مع بيان منازل أهلها كما قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقال تعالى (يوم يدعو كل أناس بامامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولايظلمون فتيلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ، وقال تعالى (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق

حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ، ولم أدر ماحسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ماأغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لايأكله إلا الخاطئون) وقال تعالى (ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان فى أهله مسروراً ، إنه ظن ألن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيراً) وقال تعالى (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون) قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) : طائره وهو ماطار عنه من عمله من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه ، (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا) قال معمر : وتلا الحسن البصرى (عن اليمين وعن الشمال قعيد) : ياابن آدم بسطت لك صحيفتك ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً (اقرأ كتابك) الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . وروى البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) قال يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم آتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له فى جسمه ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم لاتأتينا به ، فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا » حديث غريب حسنه الترمذى . وفى السنن عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله ﷺ : مايبكيك ؟ قالت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقول (هاؤم اقرؤا

كتابيه) حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم » وروى ابن حاتم عن أبن عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئاته تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات ، قال فعند ذلك يقول : هاؤم اقرؤا كتابيه » . وله عن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال « إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبدى — أى يظهر — سيئاته في ظهر صحيفته فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقول له : إنى لم أفضحك به ، وإنى قد غفرت لك ، فيقول عند ذلك (هاؤم اقرؤا كتابيه ، انى ظننت أنى ملاق حسابيه) حين نجا من فضيحته يوم القيامة » ، وقد تقدم حديث ابن عمر الصحيح في النجوى وفيه في المؤمن « ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » وعن ابن السائب في قوله تعالى (وأما من أوتى كتابه بشماله) قال ابن السائب : تلوى يده اليسرى خلف ظهره ، ثم يعطى كتابه . وقيل : تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره ثم يعطى كتابه . وقال مجاهد : تخلع يده اليسرى من وراء ظهره . وقال البغوى في قوله تعالى (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) قال : فتغل يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره .

فصل — فيما جاء في الميزان

والوزن بالقسط فلا ظلم ولا ... يؤخذ عبد بسوى ماعملا
فبين ناج راجح ميزانه ... ومقرف أوبقه عدوانه

(والوزن) لأعمال العباد (بالقسط) العدل (فلاظلم) على أحد يومئذ ، لأن الحاكم فيه هو العدل الحكيم الذى حرم الظلم على نفسه وجعله على عباده محرماً فلا يهضم أحد من حسناته . (ولايؤخذ عبد بسوى ماعملا) الألف للأطلاق . قال الله تعالى (اليوم تجزى كل نفس ماكسبت لاظلم اليوم) وقال تعالى (فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولاتجزون إلا ماكنتم تعملون) ، وقال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) . وقال تعالى عن لقمان (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) ، وقال تعالى (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة

يضاعفها) . (فبين ناج راجح ميزانه) إلخ قال الله تعالى (والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا بظلمون) وقال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار فهم فيها كالحون) الآيات . وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وماأدراك ماهيه، نار حامية) وقال تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) . وفى الترمذى عن النضر بن أنس بن مالك عن أبيه قال : سألت النبى ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة . فقال : أنا فاعل — يعنى إن شاء الله — قلت : يارسول الله ﷺ فأين أطلبك ؟ قال : أطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط . قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبنى عند الميزان . قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فاطلبنى عند الحوض فإنى لاأخطىء هذه الثلاث المواطن » هذا حديث حسن غريب ، وفى سنن أبى داود وغيره حديث عائشة المتقدم وفيه « وعند الميزان حتى يثقل أو يخف » الحديث .

والقول فى الموزون على ثلاثة أوجه : الأول أنه الأعمال نفسها هى التى توزن ، وأن أفعال العباد تجسم فتوضع فى الميزان . ويدل لذلك حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيح قال : قال رسول الله ﷺ « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » ، وفى الصحيح عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « أقرأوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فانهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيابتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركة حسرة ولاتستطيعها البطلة » قال معاوية : بلغنى أن البطلة السحرة . ومعاوية هو بن سلام . وفيه عن النواس بن سمعان الكلابى قال : سمعت النبى ﷺ يقول « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ». وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال « كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما » وقال الترمذى رحمه الله تعالى : معنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجىء

ثواب قراءته ، كذا فسر بعض أهل العلم هذا الحديث ومايشبه هذا من الأحاديث أنه يجىء ثواب قراءة القرآن . وفى حديث النواس ابن سمعان عن النبى ﷺ مايدل على مافسروا إذ قال النبى ﷺ « وأهله الذين يعملون به فى الدنيا » ففى هذا دلالة أنه يجىء ثواب العمل أهـ قلت : ولا مانع من كون الآتى هو العمل نفسه كما هو ظاهر الحديث : فأما أن يقال إن الآتى هو كلام الله نفسه فحاشا وكلا ومعاذ الله ، لأن كلامه تعالى صفته ليس بمخلوق ، والذى يوضع فى الميزان هو فعل العبد وعمله (والله خلقكم وماتعملون) .
وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ فسمعته يقول « تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة » قال : ثم سكت ساعة ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان ، يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما عمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف ، وأن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له : هل تعرفنى ؟ فيقول : ماأعرفك ، فيقول : أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت مقلتك وإن كل تاجر من وراء تجارتك ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج من الوقار ويكسى والداه حلتان لايقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بما كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولد كما القرآن ، ثم يقال : اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود ، مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلا » ، وإسناده حسن ، والقول بأن الأعمال هى ذاتها التى توزن ، ذكره البغوى عن ابن عباس رضى الله عنه . والقول الثانى أن صحائف الأعمال هى التى توزن ، ويدل لذلك ماروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال لا يارب ، قال أفلك عذر أو حسنة ؟ قال فبهت الرجل فيقول لا يارب ، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لاظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ فيقول أحضروه ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ، فيقول إنك لاتظلم ، قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة ، قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة . قال ولايثقل شىء مع بسم الله الرحمن الرحيم » ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب . والثالث أن الموزون ثواب العمل وهو اطراد مانقله الترمذى فى

معنى حديث النواس . الرابع أن الموزون هو العامل نفسه . ويدل لذلك ماروى أحمد عن علي رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه صعد شجرة يجتنى الكباث[1] ، فجعل الناس يعجبون من دقة ساقيه . فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده هما فى الميزان أثقل من أحد » وروى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة » وقال اقرأوا (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) . ولابن أبى حاتم عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها » قال وقرأ (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) رواه ابن جرير . وروى البزار عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ . فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له . فلما قام على النبى قال « يابريدة هذا ممن لايقيم الله له يوم القيامة وزناً » . قلت : والذى استظهر من النصوص ، والله أعلم . إن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن لأن الأحاديث التى فى بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولامنافاة بينها ، ويدل لذلك مارواه أحمد رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمرو فى قصة صاحب البطاقة بلفظ : قال : قال رسول الله ﷺ « توضع الموازين فى يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع فى كفة ويوضع ماأحصى عليه فيمايل به الميزان ، قال فيبعث به إلى النار . قال فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لاتعجلوا فإنه قد بقى له ، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل فى كفة حتى يميل به الميزان » فهذا الحديث يدل على أن العبد هو وحسناته وصحيفتها فى كفه وسيئاته مع صحيفتها فى الكفة الأخرى ، وهذا غاية الجمع بين ماتفرق ذكره فى سائر أحاديث الوزن ، ولله الحمد والمنة . وروى أحمد عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال : يارسول الله إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ « يحسب ماخانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك . وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى بقى قبلك » فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ « ماله لايقرأ كتاب الله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا

(١) النضيج من ثمر الأراك .

حاسبين) فقال الرجل : يارسول الله مأجد شيئاً خيراً من ... هؤلاء — يعنى عبيده — إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم » .

فصل — فيما جاء فى الصراط

وينصب الجسر بلا امتراء	كما أتى فى محكم الأنباء
يجوزه الناس على أحوال	بقدر كسبهم من الأعمال
فبين مجتاز إلى الجنان	ومسرف يكب فى النيران

(وينصب الجسر) وهو الصراط على متن جهنم (بلا امتراء) بلا شك (كما أتى فى محكم الأنباء) من الآيات والأحاديث (يجوزه) يمر عليه الناس (على أحوال) متفاوتة (بقدر كسبهم) فى الحياة الدنيا (من الأعمال) من أحسان أو إساءة أو تخليط (ف) هم (بين مجتاز) عليه (إلى الجنان) وهم المؤمنون على تفاوت درجاتهم ومراتبهم فى البطء والاسراع ، (ومسرف) على نفسه (يكب فى النيران) فلا ينجو ، ومنهم من تلفحه وتمسه النار بقدر ذنبه ثم يخرج منها قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً ، ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكهم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) وروى الإمام أحمد عن كثير بن زياد البرسانى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود ، فقال بعضنا لايدخلها مؤمن ، وقال بعضنا يدخلونها جميعاً ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا فى الورود ، فقال : يردونها جميعاً . وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعاً وأهوى باصبعيه إلى أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول « لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » . وروى الحسن بن عرفة عن خالد بن معدان قال : قال أهل الجنة بعدما دخلوا الجنة : ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟

قال : قد مررتم عليها وهي خامدة . وروى عبد الرزاق عن قيس بن حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه فى حجر امرأته فبكى فبكت امرأته ، فقال مايبكيك ؟ قالت رأيتك تبكى فبكيت ، قال إنى ذكرت قول الله عز وجل (وإن منكم إلا واردها) فلا أدرى أأنجو منها أم لا . وله عن ابن عباس فى قصة مخاصمته نافع بن الأزرق ، فقال ابن عباس : الورود الدخول . فقال نافع لا . فقرأ ابن عباس .(إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وردوا أم لا ؟ وقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أوردوها أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ، وماأرى الله تعالى مخرجك منها بتكذيبك ، فضحك نافع . وروى ابن جرير عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق فقال له : ياابن عباس أرأيت قول الله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) قال : أما أنا وأنت ياأبا راشد فسنردها ، فانظر هل نصدر عنها أم لا . وعنه رضى الله عنه فى (وإن منكم إلا واردها) قال : البر والفاجر ، ألا تسمع إلى قول الله تعالى لفرعون (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) الآية (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا.) فسمى الورود على النار دخولا وليس بصادر ، وروى الإمام أحمد رحمه الله عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه .(وإن منكم إلا واردها) قال رسول الله ﷺ « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم » ورواه الترمذى هكذا مرفوعاً ، وقد رواه .بن أبى حاتم عنه موقوفاً قال « يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم : فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس » الحديث ، وروى ابن جرير عنه فى (وإن منكم إلا واردها) قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم ، وقال قتادة : قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) قال : هو الممر عليها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايموت لأحد

من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار ، إلا تحله القسم » قال الزهرى كأنه يريد هذه الآية (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضياً) قال ابن مسعود : قسما واجباً ، وفيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضاً مرفوعاً من حديثه الطويل فى الرؤية والشفاعة وفيه « ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها ، ولايتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، قال فانها مثل شوك السعدان ، غير أنه لايعلم ماقدر عظمها إلا الله عز وجل ، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله والموثق بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه » الحديث ، وفيهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه من حديثه الطويل فى ذلك مرفوعاً وفيه « ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا يارسول الله وماالجسر ؟ قال مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان ، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس فى نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً ، الحديث ولمسلم عن أنس عن ابن مسعود رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة — فإذا ماجاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله شيئاً ماأعطاه أحداً من الأولين والآخرين » الحديث . وفى رواية عن ابن مسعود « رجل يخرج من النار حبواً » وفيه عن أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنها فى حديث استفتاح الجنة عن النبى ﷺ مطولا ، وفيه « وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتى الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت بأبى أنت وأمى أى شئ كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفة عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وتشد الرجال تجرى بهم أعمالهم ، قال ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجئ الرجل فلا يستطيع السير إلا زحافاً . قال وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوس فى النار . والذى نفس أبى هريرة بيده إن قعر جهنم لسابعون خريفاً » . وفيه أيضاً فى بعض طرق حديث أبى سعيد المتقدم قال أبو سعيد : « بلغنى أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف » ، وفيه عن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يسأل عن الورود الحديث . وفيه رؤية الله تعالى « فيتجلى لهم يضحك ، قال فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه وعلى

جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذه من شاء الله تعالى . ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون فتنجون أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لايحاسبون » وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى (يسعى نورهم بين أيديهم) قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » ، وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فان الله تعالى يعطى كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب الله تعالى نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : أنظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » قلت وذلك من تأويل قول الله تعالى (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) وروى ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء وأبى ذر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم فقال له رجل : يانبى الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم مابين نوح إلى أمتك ؟ فقال أعرفهم محجلون من أثر الوضوء ، ولايكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم » وقال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفىء نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا : ربنا أتمم لنا نورنا . وقال الحسن رحمه الله (يسعى نورهم بين أيديهم) قال : على الصراط أهـ . وقد أنكر الصراط والمرور عليه أهل البدعة والهوى من الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، وتأولوا الورود برؤية النار لا أنه الدخول والمرور على ظهرها . وذلك لاعتقادهم أن من دخل النار لايخرج منها ولو بالاصرار على صغيرة ، فخالفوا الكتاب والسنة والجماعة وردوا الآيات والأحاديث الواردة فى الورود والمقام المحمود والشفاعة ، ولذا قال ابن عباس رضى الله عنهما فيما روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضى

الله عنهما فى الورود ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هو الدخول . وقال نافع : ليس الورود الدخول ، فتلا عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أدخلها هؤلاء أم لا ؟ ثم قال : يانافع أما والله أنت وأنا سنردها ، وأنا أرجوا أن يخرجنى الله منها ، وماأرى الله عز وجل أن يخرجك منها بتكذيبك .

فصل ــ فيما ورد فى الجنة والنار

والنار والجنة حق وهما موجودتان لافناء لهما

إى ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، والبحث فيه ينحصر فى ثلاثة أمور :

الأول : كونهما حقاً لاريب فيهما ولاشك ، وأن النار دار أعداء الله ، والجنة دار أوليائه . وهذا هو المشار إليه بقولنا حق ، قال الله تعالى (ياإيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ياأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنما تجزون ماكنتم تعملون ، ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآيات . وقال تعالى : (فاتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وقال تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله ورسوله لعلكم ترحمون ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) الآيات ، وقال تعالى (وكفى بجهنم سعيراً ، إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيما ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) وقال تعالى (إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم جنات تجرى من تحتها الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقال تعالى فى أولياء الشيطان (يعدهم ويمنّيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ، أولئك مأواهم جهنم ولايجدون عنها

محيصاً ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا) وقال تعالى لإبليس (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ، إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين) الآيات ، وغيرها كثيرة فى القرآن شهيرة ، كلما يذكر الجنة عطف عليها بذكر النار ، وكلما يذكر أهل النار عطف عليهم بذكر أهل الجنة ، فتارة يعد ويتوعد ، وتارة يرغب فى الجنة ويدعو إليها ويرهب من النار ويحذر منها ، وتارة يخبر عما أعد فى الجنة من النعيم المقيم لأوليائه ، ويخبر عما أرصد فى النار من العذاب الأليم لأعدائه وغير ذلك . فمن رام استقصاءه فليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته بتدبر وقلب شهيد والله الموفق . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد عن الأوزاعى قال حدثنى عمير بن هانىء قال حدثنى جنادة بن أبى أمية عن عبادة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الجنة على ماكان من العمل » زاد فى رواية « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » ووافقه على إخراجه مسلم وغيره . ولهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال « اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق والساعة حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت ومأأخرت ، ومأأسررت ومأأعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك » زاد فى رواية « ولاحول ولا قوة إلا بالله » هذل لفظ البخارى فى باب التهجد ، وقد روياه من طرق كثيرة بألفاظ متقاربة وفيه أن النبى ﷺ قرن الشهادة بحقية الجنة والنار مع الشهادة بحقية الله وحقية رسوله عليهم السلام وحقية وعده الصادق وهما أى الجنة والنار من وعده الصادق الذى أقسم على صدقه وحقيته ووقوعه فى غير ماموضع من كتابه . وفى حديث عبادة هذا أنه ﷺ علق دخول الجنة والنجاة من النار بالتصديق بهما والشهادة بذلك ، ولهذا يقول الله عز وجل يوم القيامة لأهل النار (هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أصلوها

اليوم بما كنتم تكفرون) وقال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا) الآيات وغيرها . وتقدم فى بعض ألفاظ حديث جبريل من رواية ابن عباس عند أحمد « قال فحدثنى ماالإيمان ؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان » الحديث ، وغير ذلك من الأحاديث .

البحث الثانى : اعتقاد وجودهما الآن ، قال الله تعالى فى الجنة (أعدت للمتقين ــ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ــ فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال تعالى (عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) وغيرها من الآيات يخبر تعالى أنها معدة قد أوجدت ، وأنها مخفية لأولياء الله تعالى مدخرة لهم ، وأنها فى السماء ، وأن النبى ﷺ أتاها ليلة المعراج ورآها . وقال تعالى فى النار (أعدت للكافرين) وقال (واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ، إن جهنم كانت للطاغين مآبا) فهى أيضاً معدة لأعداء الله تعالى مرصدة لهم . وقال البخارى فى صحيحه « باب ماجاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة » ثم ذكر فيه حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار » وحديث عمران بن حصين عن النبى ﷺ قال « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال : بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا : لعمر بن الخطاب ، فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : عليك أغار يارسول الله » ؟ وحديثه رضى الله عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاقرءوا إن شئتم ، فلا تعلم نفس ماأخفى لها من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ثم ساق الأحاديث فى صفتها ثم قال « باب صفة النار وأنها مخلوقة » ثم ذكر فيه حديث أبى ذر وأبى سعيد رضى الله عنهما قال النبى ﷺ « أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم » وحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضاً . فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف ، فأشد ماتجدون فى الحر وأشد ماتجدون فى الزمهرير » وحديث ابن عباس

ورافع بن خديج وعائشة وابن عمر رضى الله عنهم قال رسول الله ﷺ « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » وحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قيل يارسول الله إن كانت لكافية قال « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » وفيه من حديث أنس بن مالك فى المعراج « ثم انطلق بى حتى انتهى بى إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لاأدرى ماهى ، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » وفيه من حديث مالك بن صعصعة فى ذلك وفيه « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ماهذان ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظهران فالنيل والفرات » الحديث ، وفيهما من حديث صلاة الكسوف وخطبته ﷺ فيها وأنه عرضت عليه الجنة والنار ، وأنه ﷺ أراد أن يتناول من الجنة عنقوداً فقصرت يده عنه ، وأنه لو أخذ لأكلوا منه مابقيت الدنيا ، وأنه رأى النار ورأى فيها صاحب المحجن الذى كان يسرق الحاج ، ورأى فيها عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار ، ورأى المرأة التى تعذب هرة حبستها وقال ﷺ « لم أر منظراً كاليوم أفظع » ، وفى صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال : اذهب فانظر إليها وإلى ماأعددت لأهلها فيها . فذهب فنظر إليها وإلى ماأعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إليها وإلى ماأعدت لأهلها فيها ، قال فنظر اليها ثم رجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لايدخلها أحد ، قال ثم أرسله إلى النار قال : اذهب فانظر اليها وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، قال فنظر إليها فإذا هى يركب بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك لايدخلها أحد سمع بها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إلى ماأعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها فرجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلا دخلها » . وقد تقدم فى أحاديث عذاب القبر وأحوال البرزخ ذكر الجنة والنار ورؤية كل منزلة فيها ، وعرض مقعده عليه وفتح باب إحديهما إليه وأن أرواح المؤمنين فى عليين وأرواح الفجار فى سجين وغير ماذكرنا من الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة مالا يحصى وإلى هذه المسألة الإشارة بقولنا (موجودتان) .

(البحث الثالث) فى دوامهما وبقائهما بإبقاء الله لهما ، وأنهما لاتفنيان أبداً ولايفنى من

فيهما ، وإلى هذه المسألة الإشارة بقولنا (لافناء لهما) قال الله تعالى فى الجنة (خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى (لايمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين) وقال تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) وقال تعالى (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) وقال تعالى (إن المتقين فى مقام أمين ــ إلى قوله تعالى ــ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى (لامقطوعة ولاممنوعة) وغير ذلك من الآيات ، فأخبر تعالى بأبديتها بقوله (خالدين فيها أبداً ــ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) وأبدية حياة أهلها بقوله (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وعدم انقطاعها عنهم بقوله (لامقطوعة ولا ممنوعة ــ عطاء غير مجذوذ) وبعدم خروجهم بقوله (وماهم منها بمخرجين) . وكذلك النار قال الله تعالى (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها ابداً) وقال تعالى (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولانصيراً) وقال تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) وقال تعالى (إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً) وقال تعالى (ولهم عذاب مقيم) وقال تعالى (وماهم بخارجين من النار) وقال تعالى (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وماظلمناهم ولكن كانوا الظالمين . ونادوا يامالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون) الآيات . وقال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتون ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) وقال تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولاتكلمون) وقال تعالى (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) وقال تعالى (إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولايحيى) وقال تعالى (سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى) وقال تعالى (لابثين فيها أحقاباً إلى قوله ــ فلن نزيدكم إلا عذاباً) وغير ذلك فى القرآن كثير ، فأخبرنا تعالى فى هذه الآيات وأمثالها أن أهل النار الذين هم أهلها خلقت لهم وخلقوا لها وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لافكاك لهم منها ولاخلاص ، ولات حين مناص . فأخبر تعالى عن أبديتهم فيها بقوله (خالدين فيها أبداً) ونفى تعالى خروجهم منها بقوله تعالى (وماهم بخارجين من النار)

نفى تعالى انقطاعها عنهم بقوله عز وجل (ولا يخفف عنهم من عذابها) وقوله تعالى (لايفتر عنهم) ونفى فناءهم فيها بقوله عز وجل (ثم لايموت فيها ولايحيى) وقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) .

وقال البخارى رحمه الله تعالى فى قوله الله عز وجل (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادى مناديا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه ثم ينادى : ياأهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : ياأهل الجنة خلود فلا موت وياأهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة) وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا وهم لايؤمنون » ووافقه على إخراجه مسلم من حديث أبى سعيد هذا ، وأخرجاه أيضا من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادى مناد : يأهل الجنة لاموت . وياأهل النار لاموت . فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم » وفى رواية لمسلم عن عبد الله هو ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال « يدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : ياأهل الجنة لاموت وياأهل النار لاموت ، كل خالد فيما هو فيه » . ورواه البخارى دون قوله كل خالد إلخ ، وله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « يقول لأهل الجنة خلود لاموت ، ولأهل النار : ياأهل النار خلود لاموت » وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا بشر يعنى ابن المفضل عن أبى مسلمة عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لايموتون فيها ولايحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم إماته حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنها الجنة ثم قيل : ياأهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل . فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية » ، ورواه الإمام أحمد من طرق بالفاظ متقاربة نحو هذا اللفظ ، وفى الباب آيات وأحاديث كثيرة غير ماذكرنا ، وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق .

نعم جاءت الأحاديث الصريحة بأخراج عصاة الموحدين الذين تمسهم النار بقدر جناياتهم ، وأنهم يخرجون منها برحمة الله تعالى ثم بشفاعة الشافعين كما سيأتى إن شاء الله قريباً ، وأن هؤلاء العصاة يسكنون الطبقة العليا من النار على تفاوتهم فى مقدار ماتأخذ منهم . وجاء فيها آثار أن هذه الطبقة تفنى بعدهم إذا أخرجوا منها وأدخلوا الجنة ، وأنهم ليأتين عليها يوم وهى تصفق فى أبوابها ليس بها أحد ، وعلى ذلك حمل جمهور المفسرين الاستثناء فى قوله تعالى (إلا ماشاء ربك) الآية ، وعلى ذلك يحمل ماورد من آثار الصحابة ، وماأحسن ماقاله ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه (الوابل المصيب) قال رحمه الله تعالى : ولما كان الناس ثلاث طبقات : طيب لايشوبه خبث ، وخبيث لاطيب فيه ، وآخرون فيهم خبيث وطيب — كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحض ، ودار الخبيث المحض — وهاتان الداران لاتفنيان — ودار لمن معه خبيث وطيب وهى الدار التى تفنى وهى دار العصاة ، فإنه لايبقى فى جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ولايبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

(فصل) قالت اليهود قبحهم الله : إن النار يدخلها قوم من الكفار ويخرجون منها بعد أيام ثم يخلفهم آخرون كما قص الله تعالى ذلك عنهم فى سورة البقرة إذ يقول تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) ثم رد ذلك عليهم بقوله تعالى (قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالاتعلمون ، بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقال تعالى فى آل عمران (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرتهم فى دينهم ماكانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون) وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لى من كان ههنا من اليهود ، فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله ﷺ : إنى سائلكم عن شىء فهل أنتم صادقى عنه " فقالوا نعم ياأبا القاسم ، فقال لهم رسول الله ﷺ من أبوكم ؟ قالوا أبونا فلان . فقال رسول الله ﷺ : كذبتم ، بل أبوكم فلان فقالوا : صدقت وبررت . فقال ﷺ : هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا نعم ياأبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما

عرفته لأبينا . قال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها . فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا فيها ، والله لانخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم : فهل أنتم صادقى عن شئ إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم . فقال : هل جعلتم فى هذه الشاة سماً ؟ فقالوا نعم . فقال : ماحملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كذاباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك » . وقال ابن عربى إمام الاتحادية محيى الزندقة والإلحاد فى آيات الله تعالى : إن أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقته طبعهم./ وقال الجهم وشيعته : إن الجنة والنار تفنيان كلتاهما لأنهما حادثتان ، وماثبت حدوثه استحال بقاؤه . بناء على أصله الفاسد فى منع تسلسل الحوادث وبقائها بإبقاء الله تعالى لها وقال طائفة من المعتزلة والقدرية : لم يكونا الآن موجودتين بل ينشئهما الله تعالى يوم القيامة . وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذى وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغى أن يفعل كذا ولاينبغى له أن يفعل كذا ، قياساً لله تعالى على خلقه فى أفعالهم ، فهم مشبهة فى الأفعال ، ودخل التجسيم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة ، وقالوا خلق الجنة والنار قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة ، فردوا من نصوص الكتاب والسنة ماخالف هذه الشريعة الباطلة التى وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم قبحهم الله تعالى . وقال أبو الهذيل العلاف تفنى حركات أهل الجنة والنار ويصيرون جماداً لايحسون بنعيم ولا ألم . وكل هذه الأقوال مخالفة لصحيح المعقول وصريح المنقول ، ومحادة|ومشاقة لله تعالى وللرسول ﷺ ، وتقديم للعقول السخيفة وزبالة الأذهان البعيدة والقلوب الشقية الطريدة ، وزخارف فاسدى السيرة والسريرة والظاهر والباطن والعمل والعقيدة . وماأحسن ماقاله ابن القيم رحمه الله تعالى فى نونيته الكافية الشافية فى أثناء حكايته عقيدة جهم وشيعته دمرهم الله تعالى :

وقضى بأن الله كان معطـــــلا	والفعـــل ممتنـــع بلا إمكـــان
ثم استحـال وصار مقـــدوراً له	من غير أمـــر قام بالديــــان
بل حالـه سبحانـــه فى ذاتـــه	قبـل الحدوث وبعـــده سيـــان
وقضى بأن النـــار لم تخلـــق ولا	جنـات عدن بل هما عدمـــان
فإذا هما خلقـاً ليـــوم معادنـــا	فهمـــا على الأوقات فانيتـــان
وتلطـف العـلاف من أتباعـــه	فأتى بضحكـــة جاهـــل مجان
قال الفنـاء يكـــون فى الحركات	لافى الذات وأعجباً لذا الهذيـان

أيصير أهل الخلد فى جناتهم وجحيمهم كحجارة البنيان
ماحال من قد كان يغشى أهله عند انقضاء تحرك الحيوان
وكذلك ماحال الذى رفعت يدا ه أكلة من صحفة وخوان
فتناهت الحركات قبل وصولها للفم عند تفتح الأسنان
وكذاك ماحال الذى امتدت يد منه إلى قنو من القنوان
فتناهت الحركات قبل الأخذ هل يبقى كذلك سائر الأزمان
تباً لهاتيك العقول فإنها والله قد مسخت على الأبدان
تباً لمن أضحى يقدمها على ال آثار والأخبار والقرآن

فصل – فيما جاء فى الحوض والكوثر

وحوض خير الخلق حق وبه يشرب فى الأخرى جميع حزبه

(وحوض خير الخلق) نبينا محمد ﷺ وهو الكوثر الذى أعطاه ربه عز وجل (حق) لامرية فيه (وبه) بالحوض (يشرب) أى يروى ولذا عدِّى بالباء دون من لتضمن الشرب ههنا معنى الرى (فى الأخرى) أى فى الدار الآخرة (وجميع حزبه) وهم أمة الإجابة الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، قال الله تبارك وتعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر) وروى البخارى بسنده إلى أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه فى الجنة . فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه أهـ وقد ورد فى ذكر الحوض وتفسير الكوثر به وإثباته وصفته من طرق جماعة من الصحابة عن النبى ﷺ واشتهر واستفاض بل تواتر فى كتب السنة من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، فممن روى ذلك عنه من الصحابة : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وحارثة بن وهب ، وجندب بن عبد الله ، وسهل بن سعد ، وعائشة ، وعقبة بن عامر ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وأسماء بنت أبى بكر ، وثوبان ، وأبو ذر ، وأم سلمة ، وجابر ابن سمرة ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وحذيفة ، وأبو برزة الأسلمى ، والمستورد بن شداد ، وأبو سعيد الخدرى ، وعبد الله بن زيد ، وأسامة بن زيد .

فأما عن أنس بن مالك فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا آدم حدثنا شيبان حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه قال « لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ماهذا ياجبريل ؟ قال هذا الكوثر » . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أبو الوليد حدثنا همام عن قتادة عن أنس عن النبى ﷺ . وحدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال « بينما أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، فإذا طينه — أو طيبه — مسك أذفر » شك شعبة . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن عقير قال حدثنى ابن وهب عن يونس قال ابن شهاب : حدثنى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن قدر حوضى كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق بعدد نجوم السماء » ووافقه على إخراجه مسلم بهذا اللفظ ، وبلفظ « مابين ناحيتى حوضى كما بين صنعاء والمدينة » وبلفظ « ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء » وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا وهيب حدثنا عبد العزيز عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ليردن على ناس من أصحابى الحوض حتى عرفتهم اختلجوا دونى ، فاقول أصحابى ، فيقول لاتدرى ماأحدثوا بعدك » ورواه مسلم بلفظ « إن النبى ﷺ قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلىّ اختلجوا دونى ، فلأ قولن أى رب أصحابى ، فليقالنّ لى إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك » .

وأما عن ابن عمر فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أمامكم حوض كما بين جرباء وأذرح » ورواه مسلم بلفظ « مابين ناحيتيه كما بين جرباء وأذرح » وزاد فى رواية « فيه أباريق كنجوم السماء . من ورده فشرب منه لايظمأ بعدها أبداً » زاد فى أخرى : قال عبيد الله « فسألته فقال : قريتين بالشام بينهما مسيرة ثلاث ليال » .

وأما عن حارثة بن وهب فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا حرمى بن عمارة حدثنا شعبة عن معبد بن خالد أنه سمع حارثة بن وهب رضى الله عنه يقول « سمعت النبى ﷺ وذكر الحوض فقال : كما بين المدينة وصنعاء »/وزاد بن أبى عدى عن شعبة عن معبد بن خالد عن حارثة سمع النبى ﷺ قوله « حوضه مابين صنعاء والمدينة » فقال له المستورد « ألم تسمعه قال الأوانى ؟ قال لا . قال المستورد : ترى فيه الآنية مثل الكواكب » ورواه مسلم بهذا اللفظ .

وأما عن جندب بن عبد الله فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عبدان أخبرنى أبى عن شعبة عن عبد الملك قال : سمعت جندباً قال : سمعت النبى ﷺ يقول « أنا فرطكم على الحوض » رواه مسلم هكذا .

وأما عن سهل بن سعد فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا محمد بن مطرف حدثنى أبو حازم عن سهل بن سعد قال : قال النبى ﷺ « إنى فرطكم على الحوض ، من مر علىّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً . ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم » قال أبو حازم فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت نعم فقال : أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها « فأقول إنهم منى ، فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك ، فأقول سحقاً سحقاً لمن غير بعدى » ـــ ورواه مسلم وفيه « لمن بدل بعدى » .

وأما عن عائشة فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا خالد بن يزيد الكاهلى حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عائشة رضى الله عنها قال : سألتها عن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت « نهر أعطيكم نبيكم ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم » وقال مسلم رحمه الله تعالى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا يحيى بن سليم عن بن خيثم عن عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة أنه سمع عائشة رضى الله عنها تقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهرانى أصحابه « إنى على الحوض أنتظر من يرد على منكم ، فو الله ليقتطعن دونى رجال فلأ قولن أى رب منى ومن أمتى ، فيقول : إنك لاتدرى من عملوا بعدك مازالوا يرجعون على أعقابهم » .

وأما عن عقبة بن عامر فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عمرو بن خالد حدثنا الليث عن يزيد عن أبى الخير عن عقبة رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف على المنبر فقال « إنى فرط لكم وأنا شهيد

عليكم ، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض — أو مفاتيح الأرض — وإنى والله ماأخاف أن تشركوا بعدى ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » ورواه مسلم بهذا اللفظ ، وبلفظ « صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد ، ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فقال : إنى فرطكم على الحوض ، وإنَّ عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة ، إنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم » . قال عقبة : وكانت آخر مارأيت رسول الله ﷺ على المنبر .

وأما عن عبد الله بن مسعود فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن سليمان عن شقيق عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ « إنا فرطكم على الحوض » ، وحدثنى عمرو بن على حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن المغيرة قال سمعت أبا وائل عن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دونى فأقول يارب : أصحابى ، فيقال إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك » تابعه عاصم عن أبى وائل ، وقال حصين عن أبى وائل عن حذيفة عن النبى ﷺ وروى مسلم حديث ابن مسعود بلفظ قال : قال رسول الله ﷺ « أنا فرطكم على الحوض ولأناز عن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول : يارب أصحابى أصحابى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك » . وأشار إلى حديث حذيفة بنحو رواية الأعمش ومغيرة .

وأما عن أبى هريرة فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى حدثنا محمد بن فليح حدثنا أبى قال حدثنا هلال عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « بينا أنا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم ، فقلت إلى أين ؟ قال إلى النار والله ، قلت وماشأنهم ، قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى . ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم قال هلم . قلت إلى أين ؟ قال إلى النار والله ، قلت ماشأنهم ، قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم » ، وله عنه أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال « يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى فيحلأون عن الحوض فأقول يارب أصحابى ، فيقول إنك لاعلم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » وله عنه أن رسول الله ﷺ قال « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الرحمن بن سلام الجمحى حدثنا الربيع يعنى ابن مسلم

عن محمد بن زياد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لأذودن عن حوضى رجالا كما تذاد الغريبة من الإبل » وله عن أبى حاتم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن حوضى أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإنى لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا يارسول الله أتعرفنا يومئذ . قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد من الأمم ، تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وأما عن عبد الله بن عمرو بن العاص فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال : قال عبد الله بن عمرو قال النبى ﷺ « حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها فلا يظمأ أبداً » ، ورواه مسلم بلفظ : « حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء ، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً » .

وأما عن ابن عباس فهو ماتقدم فى أول الباب ، وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير عنه رضى الله عنه قال : الكوثر نهر فى الجنة حافتاه ذهب وفضة يجرى على الياقوت والدر ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل . وله عن عنطاء بن السائب قال قال لى محارب بن دثار : ماقال سعيد بن جبير فى الكوثر قلت : حدثنا عن ابن عباس : أنه الخير الكثير ، فقال صدق والله إنه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال : لما نزلت (إنا أعطيناك الكوثر) قال رسول الله ﷺ « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب يجرى على الدر والياقوت » .

وأما عن أسماء فقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا سعيد بن أبى مريم عن نافع بن عمر ، قال حدثنى ابن أبى مليكة عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ « إنى على الحوض حتى أنظر من يرد علىَّ منكم ، وسيؤخذ ناس دونى فأقول : يارب منى ومن أمتى ، فيقال : هل شعرت ماعملوا بعدك والله مابرحوا يرجعون على أعقابهم » وكان ابن أبى مليكة يقول « اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا » ورواه مسلم بسند حديث عبد الله بن عمرو متصلا بمتنه ولفظه كلفظ البخارى .

وأما عن ثوبان فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا أبو غسان المسمعى ومحمد بن المثنى

وابن بشار وألفاظهم متقاربة قالوا : حدثنا معاذ وهو ابن هشام حدثنى أبى عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة اليعمرى عن ثوبان رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال « إنى لبعقر حوضى أزود الناس لأهل اليمن أضرب بعضهم بعصاى حتى يرفض عليهم ، فسئل عن عرضه فقال : من مقامى إلى عمان . وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من وَرِق » . وقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا يحيى بن صالح أنبأنا محمد بن مهاجر عن العباس عن أبى سلام الحبشى قال : بعث إلى عمر بن عبد العزيز فحملت على البريد فلما دخل عليه قال : ياأمير المؤمنين لقد شق على مركبى البريد . فقال : ياأبا سلام ماأردت أن أشق عليك ، ولكن بلغنى عنك حديث تحدثه عن ثوبان عن النبى ﷺ فى الحوض فأحببت أن تشافهنى به ، قال أبو سلام : حدثنى ثوبان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « حوضى من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً ، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رءوساً الدنس ثياباً الذين لاينكحون المتنعمات ولاتفتح لهم السدد » قال عمر : لكنى نكحت المتنعمات وفتحت لى السدد ، نكحت فاطمة بنت عبد الملك ، لاجرم إنى لأغسل رأسى حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبى الذى يلى جسدى حتى يتسخ ، ورواه ابن ماجه بلفظ « إن حوضى مابين عدن إلى إيلة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، أكاويبه كعدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً » الحديث . وفيه قال : فبكى عمر حتى اخضلت لحيته وفيه « ولأدهن رأسى حتى يشعث » .

وأما عن أبى ذر فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأسحق بن إبراهيم واللفظ لابن أبى شيبة ، قال إسحق أخبرنا — وقال الآخران حدثنا — عبد العزيز بن عبد الصمد العمى عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر قال « قلت يارسول الله ماآنية الحوض ؟ قال : والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا فى الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ماعليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه مثل طوله مابين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » رواه الترمذى بهذا اللفظ وقال حسن صحيح غريب .

وأما عن أم سلمة رضي الله عنها فقال مسلم بن الحجاج : حدثني يونس ابن عبد الأعلى الصدفي أخبرني عبد الله بن وهب أخبرني عمرو وهو ابن الحارث أن بكيراً حدثه عن القاسم بن عباس الهاشمي عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت « كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمشطني فسمعت رسول الله ﷺ يقول : أيها الناس ، فقلت للجارية استأخرى عنى ، قالت : إنما دعا الرجال ولم يدع النساء . فقلت : إني من الناس . فقال رسول الله ﷺ : إني لكم فرط على الحوض ، فاياى لايأتين أحدكم فيذب عنى كما يذب البعير الضال ، فأقول فيم هذا ؟ فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك فأقول سحقاً » .

وأما عن جابر بن سمرة فقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثني الوليد بن شجاع ابن الوليد السكوني حدثني أبي رحمه الله تعالى حدثني زياد بن خيثمة عن سماك ابن حرب عن جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ قال « ألا إني فرط لكم على الحوض ، وإن بعد مابين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة . كأن الأباريق فيه النجوم » .

وأما عن زيد بن أرقم فقال أبو داود رحمه الله تعالى حدثنا حفص ابن عمر النمرى حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلا فقال : ماأنتم بجزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض . قال قلت : كم كنتم يومئذ ؟ قال : سبعمائة أو ثمانمائة » .

وأما عن سمرة بن جندب فقال الترمذي رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد ابن نيزك البغدادي أنبأنا محمد بكار الدمشقي أنبأنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ (إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة » هذا حديث حسن غريب . وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح . أهـ .

وأما عن حذيفة فتقدمت الإشارة إليه عند الشيخين بعد روايتهما حديث ابن مسعود . وقال ابن ماجه رحمه الله تعالى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا على بن مسهر عن أبي مالك سعد بن طارق عن ربعي عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ، والذى نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم ، ولهو أشد بياضاً من

اللبن وأحلى من العسل ، والذى نفسى بيده إنى لأزود عنه الرجال كما يزود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه قيل : يارسول الله أتعرفنا ؟ قال : نعم تردون على غراً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيركم » . ورواه مسلم فى الطهارة بهذا الفظ وبهذا السند .

وأما عن أبى برزة فقال أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عبد السلام بن أبى حازم أبو طالوت قال : شهدت أبا برزة دخل على عبيد الله بن زياد فحدثنى فلان سماه مسلم وكان فى السماط فلما رآه عبيد الله قال إن محمد يكم هذا لدحداح[1] ، ففهمها الشيخ فقال : ماكنت أحسب أنى أبقى فى قوم يعيرونى بصحبة محمد ﷺ ، فقال له عبيد الله : إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين ، ثم قال : إنما بعثت إليك لاسألك عن الحوض سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئاً ؟ فقال أبو برزة : نعم لا مرة ولااثنتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً ، فمن كذب به فلا سقاه الله منه ، ثم خرج مغضباً .

وأما عن المستورد فتقدم فى المتفق عليه من حديث حارثة بن وهب .

وأما حديث أبى سعيد الخدرى فقال ابن ماجه رحمه الله تعالى : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن بشر حدثنا زكريا حدثنا عطية عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال « إن لى حوضاً مابين الكعبة وبيت المقدس أبيض من اللبن آنيته عدد النجوم ، وإنى لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة » .

وأما عن عبد الله بن زيد فرواه البخارى ومسلم عنه مطولا فى قصة قسم غنائم حنين ، وفى آخره قوله ﷺ للانصار رضى الله عنهم « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » .

وأما عن أسامة بن زيد فقال ابن جرير رحمه الله تعالى : حدثنى البرنى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير أخبرنى حرام بن عثمان عن عبد الرحمن الأعرج عن أسامة بن زيد « أن رسول الله ﷺ أتى حمزة بن عبد المطلب فلم يجده فسأل عنه امرأته وكانت من بنى النجار فقالت : خرج يانبى الله عامداً نحوك ، فظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار . أو لاتدخل يارسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حيساً فأكل منه ، فقالت : يارسول الله هنيئاً لك ومريئاً ، لقد جئت وأنا أريد أن آتيك لأهنيك وأمريك ، أخبرنى أبو عمارة أنك أعطيت نهراً فى الجنة يدعى الكوثر . فقال : أجل وعرضه ـــ يعنى أرضه ـــ

(١) الدحداح : القصير السمين .

ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : حرام بن عثمان ضعيف ، ولكن هذا سياق حسن ، وقد صح أصل هذا بل قد تواتر من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث أهـ . قلت : وقد ذكر ماتيسر . وفى الباب عدة أحاديث غير ماذكرنا ، ولمن ذكرنا من الصحابة أحاديث أخرى لم نذكرها ، ولهم روايات فى الأصل التى عزونا إليها غير ماسقنا ، إنما أشرنا إشارة إلى بعضها لتعرف شهرة هذا الباب واستفاضته وتواتره مع الإيجاز والاختصار . ولله الحمد والمنة .

فصل — فى الأحاديث الواردة عن لواء الحمد

كذا له لواء حمد ينشر وتحته الرسل جميعاً تحشر

قال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا الحسين بن يزيد الكوفى حدثنا عبد السلام بن حرب عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم على ربى ولافخر » هذا حديث حسن غريب . وقال رحمه الله تعالى حدثنا محمد بن بشار أنبأنا أبو عامر العقدى أنبأنا زهير بن محمد عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك منها موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون بالبناء ويعجبون منه ويقومون : لو تم موضع تلك اللبنة ، وأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » ، وبهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » هذا حديث حسن صحيح غريب . حدثنا ابن أبى عمر أنبأنا سفيان عن ابن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » وفى الحديث قصة . هذا حديث حسن . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا على ابن نصر بن على الجهضمى أنبأنا عبيد الله بن عبد المجيد أنبانا زمعة بن صالح عن مسلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا ، وقال آخر : ماذا يعجب من كلام موسى كلمه تكليماً ، وقال آخر :

فعيسى كلمة الله وَروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إن إبراه. خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجى الله وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » . هذا حديث غريب . قلت : ومعناه ثابت فى الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة كما جاء وكما سيأتى وكما هو معلوم عند من له خبرة بالعلم .

فصل ــ فى آيات الشفاعة وأحاديثها والمقام المحمود

كذا له الشفاعة العظمى كما ... قد خصه الله بها تكرما

من بعد إذن الله كما لايرى ... كل قبورى على الله افترى

(كذا له) لنبينا ﷺ (الشفاعة العظمى) يوم القيامة ، وهو المقام المحمود الذى قال الله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ولذا قلنا (قد خصه الله بها) بالشفاعة (تكرماً) منه عز وجل عليه ﷺ وعلى أمته به كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » . وفيه عنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ « لكل نبى دعوة قد دعا بها فى أمته ، وخبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » ، وفيه عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال « لكل نبى دعوة دعاها لأمته ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة » . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإنى أختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لايشرك بالله شيئاً » . وفيه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وقال عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرفع يديه

وقال : اللهم أمتى ، وبكى ، فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد ــ وربك أعلم ــ فسله : مايبكيك . فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ــ وهو أعلم ــ فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك » . وفيه عنه رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله . وأرجوا أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة » . وفيه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » ، وتلك الشفاعة لاتكون إلا من بعد إذن الله عز وجل ، سواء فى ذلك شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة من دونه ، وذلك الإذن يتعلق بالشافع والمشفوع فيه وبوقت الشفاعة ، فليس يشفع إلا من أذن الله له فى الشفاعة ، وليس له أن يشفع إلا بعد أن يأذن الله له ، وليس له أن يشفع إلا فيمن أذن الله تعالى له أن يشفع فيه ، كما قال تعالى (من الذى الذى يشفع عنده إلا بأذنه ــ مامن شفيع إلا بإذنه ــ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ــ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ــ وقل لله الشفاعة جميعاً ــ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ــ لايملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، (لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ــ ويومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا-ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم فى خشيته مشفقون) وقال تعالى فى الكفار (فما تنفعهم شفاعة الشافعين ــ ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) ، وقال عنهم (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) ، وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) وسيأتى فى ذكر الأحاديث مراجعة الرسل الشفاعة بينهم حتى تنتهى إلى نبينا ﷺ وأنه يأتى فيستأذن ربه عز وجل ، ثم يسجد ويحمده بمحامد يعلمه تعالى إياها ولم يزل كذلك حتى يؤذن له ويقال : ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع ، وأنه يحد له حداً فيدخلهم الجنة ثم يرجع كذلك ، وفى كل مرة

يستأذن ويدعو حتى يؤذن له ويحد له حداً حتى ينجو جميع الموحدين ، وهكذا كل شافع بعده يسأل الشفاعة من مالكها حتى يؤذن له ، إلى أن يقول الشفعاء لم يبق إلا من حبسه القرآن وحق عليه الخلود . والمقصود أن الشفاعة ملك لله عز وجل ولاتسأل إلا منه ، كما لاتكون إلا بإذنه للشافع فى المشفوع حين يأذن فى الشفاعة .

(لا كما يرى كل قبورى) نسبة إلى القبور لعبادته أهلها (على الله افترى) فى ماينسبه إلى أهل القبور ويضيفه إليهم من التصرفات التى هى ملك لله عز وجل لايقدر عليها غيره تعالى ولاشريك له فيها ، ورتبوا على ذلك صرف العبادات إلى الأموات ودعاءهم إياهم والذبح والنذر لهم دون جبار الأرض والسموات ، وسؤالهم منهم قضاء الحاجات ودفع الملمات ، وكشف الكربات والمكروهات معتقدين فيها أنهم يسمعون دعاءهم ويستطيعون إجابتهم . وقد تقدم كشف عوارهم وهتك أستارهم بما يشفى ويكفى . لله الحمد والمنة .

يشفـــع أولا إلى الــــرحمن فى   فصل القضاء بين أهـل الموقـف
من بعـد أن يطـلبها النـاس إلى   كل أولى العـزم الهداة الـــفضلا

هذه الشفاعة الأولى لنبينا محمد ﷺ ، وهى أعظم الشفاعات ، وهى المقام المحمود الذى ذكر الله عز وجل له ووعده إياه وأمرنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله إياه له ﷺ بعد كل أذان ، وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) حدثنا إسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن على قال سمعت ابن عمر رضى الله عنهما يقول « إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً كل أمة تتبع نبيها يقولون : يافلان أشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » وقال مسلم رحمه الله تعالى حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير واتفقا فى سياق الحديث إلا مايزيد أحدهما من الحرف بعد الحرف ، قال حدثنا محمد بن بشر حدثنا أبو حيان عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالايطيقونه ومالايحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ماأنتم فيه ، ألا ترون ماقد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟) فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم فيأتون آدم فيقولون ياآدم أنت أبو البشر

خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، إشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى اذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يانوح أنت أول الرسل إلى الأرض وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت دعوة دعوت بها على قومى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم فيقولون أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى إلى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى . فيأتون موسى ﷺ فيقولون : ياموسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمت الناس فى المهد وكلمة منك ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، إلا ترى مانحن فيه ، ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنباً ، نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتون فيقولون : يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ، ألا ترى إلى ماقد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله على و يلهمنى من محامده و حسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى . ثم قال يامحمد ارفع رأسك سل تعطه أشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى ، فيقال : يامحمد أدخل الجنة من أمتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذى نفس محمد بيده إن مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى » قال وحدثنى زهير بن حرب حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة قال : « وضعت بين يدى رسول الله ﷺ قصعة من ثريد ولحم ، فتناول الذراع

وكانت أحب الشاة إليه ، فهنس نهسة فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، ثم نهس أخرى فقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، فلما رأى أصحابه لايسألونه قال : ألا تقولون كيف ؟ قالوا : كيف يارسول الله ؟ قال : يقوم الناس لرب العالمين » وساق الحديث بمعنى حديث أبي حيان عن أبي زرعة ، وزاد في قصة إبراهيم فقال : وذكر قوله في الكوكب : هذا ربي ، وقوله لآلهتهم : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله : إني سقيم ، قال : والذى نفس محمد بيده أن مابين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتى الباب لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة ، قال لاأدرى أى ذلك قال » وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لى فأقول ماشاء الله تعالى أن أقول ، فذلك المقام المحمود » وسيأتى إن شاء الله تعالى فى حديث أنس رضى الله عنه قوله ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك ـــ وفى لفظة فيلهمون لذلك ـــ فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال فيأتون آدم » الحديث وتقدم فى حديث الصور قوله ﷺ « فتقفون موقفاً واحداً مقداره سبعون عاماً لاينظر إليكم ولايقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع . ثم تدمعون دماً ، وتعرقون حتى يلجمكم العرق ويبلغ الأذقان ، وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا ؟ فتقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله تعالى بيده ، ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه ، فيأبى ويقول : ماأنا بصاحب ذلك . فيستقرئون الأنبياء نبياً نبياً كلما جاءوا نبياً أبى عليهم ، قال رسول الله ﷺ : حتى يأتونى فأنطلق إلى الفحص فأخر ساجداً . قال أبو هريرة : يارسول الله وماالفحص ؟ قال قدام العرش ، حتى يبعث الله إلى ملكاً فيأخذ بعضدى ويرفعنى فيقول لى : يامحمد ، فأقول : نعم يارب فيقول الله عز وجل : ماشأنك ؟ وهو أعلم . فأقول : يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بينهم . قال الله تعالى : قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم » الحديث . وروى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه قال : حدثنى نبى الله ﷺ قال « إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر على الصراط ، إذ جاءنى عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون ـــ أو قال يجتمعون إليك ـــ ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغم جاءهم فيه ، فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال : انتظر حتى أرجع إليك ، فذهب نبى الله ﷺ فقام تحت العرش فلقى مالم يلق ملك مصطفى ولا نبى مرسل ، فأوحى الله عز وجل

إلى جبريل أن « اذهب إلى محمد وقل له : ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع » الحديث . وعند مسلم وغيره من حديث نزول القرآن على سبعة أحرف « فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها . فقلت : اللهم اغفر لأمتى ، اللهم أغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ الخلق حتى إبراهيم ﷺ » .

فصل ــ اختصاصه ﷺ باستفتاح باب الجنة

وثانياً يشفع فى استفتاح ... دار النعيم لأولى الفلاح
هذا وهاتان الشفاعتان ... قد خصتا به بلا نكران

هذه الشفاعة الثانية فى استفتاح باب الجنة ، وقد جاء فى الأحاديث أنها أيضاً من المقام المحمود ، وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم . قال قتيبة حدثنا جرير عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول الناس يشفع فى الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً » وحدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة » . وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حسين بن على عن زائدة عن المختار بن فلفل قال : قال أنس بن مالك قال النبى ﷺ « أنا أول شفيع فى الجنة ، لم يُصَدقّ نبى من الأنبياء ماصدقت ، وإن من الأنبياء نبياً مايصدقه من أمته إلا رجل واحد» . وحدثنى عمرو الناقد وزهير بن حرب قالا حدثنا هشام بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت بن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أمرت لاأفتح لأحد قبلك » . قال حدثنا محمد بن طريف ابن خليفة البجلى حدثنا محمد بن فضيل حدثنا أبو مالك الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة ، وأبو مالك عن ربعى عن حذيفة رضى الله عنه قالا : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : ياأبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابنى إبراهيم خليل الله عز وجل . قال فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، وإنما كنت خليلا من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى الذى كلمه الله تعالى تكليما . فيأتون موسى ﷺ فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله

تعالى وروحه ، فيقول عيسى ﷺ : لست بصاحب ذلك . فيأتون محمداً فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط فيمر أولكم كالبرق » الحديث ـــ تقدم باقيه فى الصراط ، وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عبيد الله بن أبى جعفر قال : سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال سمعت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم ، وقال : أن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ » وزاد عبد الله حدثنى الليث قال حدثنى بن أبى جعفر « فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشى حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم » . ففى هذا الحديث الجمع بين ذكر الشفاعتين : الأولى فى فصل القضاء ، والثانية فى استفتاح باب الجنة ، وسمى ذلك كله المقام المحمود .

(هذا) أى ماذكر (وهاتان الشفاعتان) المذكورتان اللتان هما المقام المحمود (قد خصتا) أى جعلهما الله تعالى خاصتين (به) أى بنبينا محمد ﷺ وليستا لأحد غيره (بلا نكران) بين السنة والجماعة ، بل ولم ينكرهما المعتزلة الذين أنكروا الشفاعة الثالثة فى إخراج عصاة الموحدين من النار ، وهى المشار إليها بقولنا :

وثالثــا يشفــع فى أقــوام	ماتـوا على ديــن الهدى الإسلام
وأوبــــــقتهم كثرة الآثام	فأدخلــوا النــار بذا الاجــرام
أن يخرجـــوا منها إلى الجنان	بفضل رب العرش ذى الاحسان

فهذه الشفاعة حق يؤمن بها أهل السنة والجماعة كما آمن بها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ودرج على الإيمان بذلك التابعون لهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأنكرها فى آخر عصر الصحابة الخوارج ، وأنكرها فى عصر التابعين المعتزلة وقالوا بخلود من دخل النار من عصاة الموحدين الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ويشهدون أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت الحرام ويسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار فى كل صلاة ودعاء ، غير أنهم ماتوا مصرين على معصية عملية عالمين بتحريمها معتقدينه مؤمنين بما جاء فيه الوعيد الشديد فقضوا بتخليدهم فى جهنم مع فرعون وهامان وقارون ، فجحدوا قول الله عز وجل (أم نجعل الذين آمنوا

وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقوله عز وجل (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) وقوله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون) وغيرها من الآيات وسائر الأحاديث الواردة وقال البخارى رحمه الله تعالى : وقال حجاج بن منهال حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال فيقول : لست هناكم ، قال ويذكر خطيئته التى أصاب أكله من الشجرة وقد نهى عنها ، ولكن ائتوا نوحاً أول نبى بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب سؤاله ربه بغير علم ، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن . قال فيأتون إبراهيم فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن ، ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجياً . قال فيأتون موسى فيقول : إنى لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله تعالى وكلمته ، قال : فيأتون عيسى فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ عبداً غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتونى فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله تعالى أن يدعنى فيقول : أرفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط ، قال : فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرج فأدخلهم الجنة » قال قتادة : وسمعته أيضاً يقول « فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت له ساجداً فيدعنى ماشاء الله تعالى أن يدعنى ثم يقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط ، قال : فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال : ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرح فأدخلهم الجنة ، قال قتادة : وسمعته يقول « فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه ، قال فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ، قال ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرج فأدخلهم الجنة » . قال قتادة : وقد سمعته يقول « فأخرج فأخرجهم من النار

وأدخلهم الجنة حتى مايبقى فى النار إلا من حبسه القرآن » أى وجب عليه الخلود ، قال : ثم تلا هذه الآية (عسى ربك أن يبعثك مقاماً محموداً) قال : وهذا المقام المحمود الذى وعده نبيكم ﷺ . وقال أيضاً : حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا ـــ وذكره مختصراً وقال فى الثالثة أو الرابعة ـــ حتى مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن » وكان قتادة يقول عند هذا : أى وجب عليه الخلود ، ورواه مسلم من طرق بنحوه وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أبو الربيع العتكى حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزى . ح وحدثنا سعيد بن منصور ـــ واللفظ له ، حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزى قال : انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت فانتهينا إليه وهو يصلى الضحى ، فأستأذن لنا ثابت فدخلنا عليه وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال : ياأبا حمزة إن اخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة ، قال : حدثنا محمد ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض ، فيأتون آدم فيقول له : اشفع لذريتك . فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله ، فيؤتى موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته ، فيؤتى عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى فأقول : أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لى ، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله ، ثم أخر له ساجداً فيقال لى : يامحمد أرفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع . فأقول : يارب أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً له ، فيقال لى يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال لى انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود إلى ربى عز وجل فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً فيقال لى يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يارب أمتى فيقال لى انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى أرنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل » هذا حديث أنس الذى أنبأنا به ، فخرجنا من عنده ، فلما كنا بظهر الجبان : قلنا لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو

مستخف فى دار أبو خليفة . قال فدخلنا عليه فسلمنا عليه فقلنا : ياأبا سعيد جئنا من عند أخيك أبى حمزة فلم نسمع مثل حديث حدثناه فى الشفاعة . قال : هيه . فحدثناه الحديث . فقال هيه . قلنا مازادنا . قال : قد حدثتك به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع ، ولقد ترك شيئاً ماأدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا ، قلنا له : حدثنا . فضحك وقال : خلق الإنسان من عجل ماذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه « ثم أرجع إلى ربى فى الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً . فيقال لى : يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع . فأقول يارب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله ، قال : ليس ذلك لك — أو قال ليس ذاك إليك — ولكن وعزتى وكبريائى وعظمتى وجبريائى لأخرجن من قال لا إله إلا الله » قال : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه أراه قال : قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع . وقال أيضاً : حدثنا محمد بن منهال الضرير حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد بن أبى عروبة وهشام صاحب الدستواء عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ . ح وحدثنى أبو غسان المسمعى ومحمد بن المثنى قالا حدثنا معاذ وهو ابن هشام قال حدثنى أبى عن قتادة حدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة . ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة » زاد ابن منهال فى روايته : قال يزيد فلقيت شعبة فحدثته بالحديث فقال شعبة حدثنا بن قتادة عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ بالحديث ، إلا أن شعبة جعل مكان الذرة ذُرَةً ، قال يزيد صحف فيها أبو بسطام . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا حجاج بن الشاعر حدثنا الفضل بن دكين حدثنا أبو عاصم يعنى محمد بن أيوب قال حدثنى يزيد الفقير قال كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج فخرجنا فى عصابة ذوى عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس ، قال فمررنا على المدينة فإذا جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما يحدث القوم جالس إلى سارية عن رسول الله ﷺ قال فإذا هو قد ذكر الجهنميين قال فقلت له ياصاحب رسول الله ﷺ ماهذا الذى تحدثون والله تعالى يقول (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) و « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » فما هذا الذى تقولون ؟ قال فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت نعم . قال فهل سمعت بمقام محمد ﷺ يعنى الذى يبعثه الله فيه ؟ قلت : نعم . قال فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذى يخرج الله به من يخرج . قال ثم نعت وضع

الصراط ومر الناس عليه ، قال وأخاف أن لاأكون أحفظ ذاك ، قال غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال يعنى فيخرجون كأنهم عيدان السماسم ، قال فيدخلون نهراً من أنهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون كأنهم القراطيس قلنا ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ، فرجعنا فلا والله ماخرج منا غير رجل واحد : أو كما قال أبو نعيم . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو سمع جابراً رضى الله عنه يقول سمعه من النبى ﷺ بأذنه يقول « إن الله يخرج ناساً من النار فيدخلهم الجنة » ، وفى رواية له عن حماد بن زيد قال : قلت لعمرو بن دينار « سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يحدث عن رسول الله ﷺ أن الله يخرج قوماً من النار بالشفاعة ؟ قال نعم » ورواه البخارى ، وفى رواية له أن النبى ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بالشفاعة كأنهم الثعارير » قال الضغابيس وكان قد سقط فمه . وقال : حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام عن قتادة حدثنا أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « يخرج قوم من النار بعد مامسهم منها سفع ، فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين » .

وقال رحمه الله تعالى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قلت : يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال « لقد ظننت ياأبا هريرة أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » . وهذه الشفاعة الثالثة قد فسر بها المقام المحمود أيضاً كما فى حديث أنس وحديث جابر رضى الله عنهما فيكون المقام المحمود عاماً لجميع الشفاعات التى أوتيها نبينا محمد ﷺ لكن جمهور المفسرين فسروه بالشفاعتين الأوليتين لاختصاصه ﷺ بهما دون غيره من عباد الله المكرمين ، وأما هذه الشفاعة الثالثة فهى وإن كانت من المقام المحمود الذى وعده فليست خاصة ﷺ بل يؤتاها كثير من عباد الله المخلصين ولكن هو ﷺ المقدم فيها ، ولم يشفع أحد من خلق الله تعالى فى مثل مايشفع فيه رسول الله ﷺ ولايدانيه فى ذلك ملك مقرب ولانبى مرسل ، ثم بعده يشفع من أذن الله تعالى له من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين وسائر أولياء الله تعالى من المؤمنين المتقين ، ويشفع الأفراط كل منهم يكرمه الله تعالى على قدر ماهو له أهل ، ثم يخرج الله تعالى من النار برحمته أقواماً بدون شفاعة الشافعين ، ولذا قلنا فى ذلك :

وبعـــده يشفـــع كل مرسل وكل عبـــد ذى صلاح وولى
ويخرج الله من الـــنيران جميـــع من مات على الإيمان
فى نهر الحيـــاة يطرحونـــا فحمـــا فيحيـــون وينبتونـــا
كأنما ينـــبت فى هيآتـــه حب جميل السيل فى حافاتـه

تقدم فى حديث أبى هريرة المتفق عليه فى طريق الرؤية قول النبى ﷺ « حتى إذا فرغ الله تعالى من فصل القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئاً ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار من ابن آدم ألا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون تحته كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولا الجنة » الحديث تقدم بطوله وتقدم حديث أبى سعيد المتفق عليه أيضاً بطوله — وفيه فى نعت المرور على الصراط : « حتى يمر آخرهم يسحب سحباً ، فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق ، قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم يقولون : ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ويحرم الله تعالى صورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غار فى النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا . ثم يعودون فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا . ثم يعودون فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا قال أبو سعيد ، قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى فأقرأوا (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) — فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار : بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا فيلقون فى نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون فى حافتيه كما تنبت الحبة فى حميل السيل قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وماكان إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل فى رقابهم الخواتيم فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم مارأيتم ومثله معه » .

وفى لفظ مسلم « حتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذى نفسى بيده مامنكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون معنا ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ، ثم يقولون ربنا مابقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا بهم . يقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً . ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون كثيراً . ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً » ، وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فأقرأوا إن شئتم (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً ، فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، مايكون منها إلى الشمس أصيفر وأخيضر ومايكون منها إلى الظل يكون أبيض ، فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه . ثم يقول: أدخلوا الجنة فمار أيتموه فهو لكم، فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين . فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ؟ فيقولون : ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » وفيهما من حديثه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال « يدخل الله أهل الجنة الجنة يدخل من يشاء فى رحمته ويدخل أهل النار النار . ثم يقول : انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون منهبا حمما قد امتحشوا فيلقون فى نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية — وفى رواية لمسلم : كما تنبت الغثاءة فى جانب السيل » وله عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لايموتون فيها ولايحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر

فيثوا على أنهار الجنة ثم قيل ياأهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية » وللترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً لاحساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربى » هذا حديث حسن غريب . وله عن عبد الله بن شقيق قال : كنت مع رهط بإيلياء فقال رجل منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم ، قيل : يارسول سواك ؟ قال : سواى » فلما قام قلت : من هذا ؟ قالوا هذا ابن أبى الجذعاء . هذا حديث صحيح غريب ، وابن أبى الجذعاء هو عبد الله ، وإنما يعرف له هذا الحديث الواحد ورواه ابن ماجه ، وللترمذى أيضاً عن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أمتى من يشفع للفئام من الناس ، فمنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل . حتى يدخلوا الجنة . هذا حديث حسن .

وروى أبو داود عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين » ورواه ابن ماجه . وله عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فأخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، ترونها للمتقين ، لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين » . وله عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتدرون ماخيرنى ربى الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله ﷺ أعلم ، قال : فإنه خيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة . قلنا : يارسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها . قال : هى لكل مسلم » ورواه الترمذى بلفظ « فاخترت الشفاعة ، وهى لمن مات لايشرك بالله شيئاً » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً مشهورة مستفيضة بل متواترة ، وقد ذكرنا منها مافيه كفاية ، وتقدم فى أحاديث الرؤية جملة منها عن جماعة من الصحابة ، وبقى من النصوص فى هذا الباب كثير ، وبالله التوفيق .

باب الإيمان بالقضاء والقدر

والسادس الإيمان بالأقـــــدار	فأيقنـــــــــــن بها ولا تمار
فكـــــل شىء بقضاء وقــــــدر	والكـل فى أم الكتـاب مستطر

والسادس من أركان الإيمان المشروحة فى حديث جبريل وغيره هو الإيمان بالقدر خيره وشره ، قال تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر) الآيات . وقال تعالى (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) وقال تعالى (وكان أمر الله مفعولا) وقال تعالى (ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وقال تعالى (ماأصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله) وقال تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقال تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) وقال تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . أياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة .
وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الأعلى بن حماد قال : قرأت على مالك بن أنس (ح) . وحدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك فيما قرى عليه عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاوس أنه قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون « كل شىء بقدر » قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل شىء بقدر ، حتى العجز والكيس » ، أو « الكيس والعجز » . حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا حدثنا وكيع بن سفيان عن زياد بن إسماعيل عن محمد بن عياد بن جعفر المخزومى عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر . فنزلت (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر) ورواه الترمذى وابن ماجه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب (وكان أمر الله قدراً ومقدوراً) حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لاتسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ولتنكح فإن لها ماقدر لها » حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا إسرائيل عن عاصم عن أبى عثمان عن أسامة قال : كنت عند النبى ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته وعنده سعد وأبى بن كعب ومعاذ أن ابنها يجود بنفسه ، فبعث إليها « لله ماأخذ ولله ماأعطى ، كل بأجل ، فلتصبر ولتحتسب » . حدثنا حيان بن موسى أخبرنا عبد الله أخبرنا يونس عن الزهرى قال أخبرنى عبد الله محيريز الجمحى أن أبا سعيد الخدرى أخبره أنه بينما هو جالس عند النبى ﷺ جاءه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله إنا نصيب سبياً ونحب المال كيف ترى فى العزل ؟ فقال رسول الله ﷺ « أو إنكم تفعلون ذلك ؟ لا عليكم أن لاتفعلوا فإنه ليست نسمة كتب الله أن

تخرج إلا هى كائنة » وقال رحمه الله تعالى : حدثنا بشر بن محمد أخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لايأتى ابن آدم النذر بشيء لم يكن قد قدرته ولكن يلقيه القدر وقد قدرته له أستخرج به من البخيل » . وقال أيضاً : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ « لايأتى ابن آدم النذر بشيء لم يكن قد قدر له ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قدر له فيستخرج الله تعالى به من البخيل فيؤتى عليه مالم يكن يؤتى عليه من قبل » . وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وابن نمير قالا حدثنا عبد الله بن إدريس عن ربيعة ابن عثمان عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال : رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فان لو تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى الترمذى وغيره قول النبى ﷺ له « واعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وماأخطأك لم يكن ليصيبك » الحديث . والأحاديث فى القدر كثيرة جداً قد تقدم منها أشياء متفرقة وسنذكر منها مايسره الله عز وجل فى هذا الباب .

(فصل) وأعلم رحمك الله تعالى ووفقنا وإياك لما يحبه ويرضاه وهدانا وإياك صراطه المستقيم أن الإيمان بالقدر على أربع مراتب : المرتبة الأولى الإيمان بعلم الله عز وجل المحيط بكل شيء من الموجدات والمعدومات والممكنات والمستحيلات ، فعلم ماكان ومايكون ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه علم ماالخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم فى جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار ، علم دق ذلك كله وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتهاه ، كل ذلك بعلمه الذى هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) وقال تعالى (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) وقال تعالى (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) وقال تعالى (عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) وقال تعالى (إن ربك هو أعلم

بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطن أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وقال تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين ــ أليس الله أعلم بما فى صدور العالمين) وقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إنى أعلم مالاتعلمون) الآيات ، وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون) .
وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « سئل النبى ﷺ عن أولاد المشركين فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين » وحدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب قال وأخبرنى عطاء بن يزيد أنه سمع أبا هريرة يقول « سئل رسول الله ﷺ عن ذرارى المشركين فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين » . حدثنا إسحاق أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « مامن مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها . قالوا يارسول الله فرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال الله أعلم بما كانوا عاملين » ، وقال أيضاً رحمه الله تعالى حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا يزيد الرشك قال : سمعت مطرف بن عبد الله بن الشخير يحدث عن عمران بن حصين قال « قال رجل : يارسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار ؟ قال نعم . قال فلم يعمل العاملون ؟ قال : كل يعمل لما خلق له » أو « لما يسر له » . وقال رحمه الله أيضاً : حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو غسان حدثنى أبو حازم عن سهل أن رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين فى غزوة غزاها مع النبى ﷺ ، فنظر إليه النبى ﷺ فقال : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا » فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح فاستعجل الموت فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه ، فأقبل الرجل إلى النبى ﷺ مسرعاً فقال : أشهد أنك رسول الله . فقال : وماذاك ؟ قال : قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه ، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين ، فعرفت أنه لايموت على ذلك . فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه . فقال النبى ﷺ عند ذلك : إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل

أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وإنما الأعمال بالخواتيم » . وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا معتمر ابن سليمان عن أبيه عن رقبة بن مستقلة عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي كعب قال : قال رسول الله ﷺ « إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً » . حدثنى زهير بن حرب حدثنا جرير عن العلاء بن المسيب عن فضيل بن عمرو عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت « توفى صبى فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة . فقال رسول الله ﷺ أو لاتدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا » . حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا وكيع عن طلحة بن يحيى عن عمته عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت « دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار ، فقلت : يارسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، قال : أو غير ذلك ياعائشة ، إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا عبد العزيز — يعنى ابن محمد — عن العلا عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة » قلت : وهذا الحديث ومافى معناه تفسيره عند أهل العلم والسنة على حديث سهل بن سعد عند مسلم رحمه الله تعالى قال : حدثنا قتيبة ابن سعيد حدثنا يعقوب — يعنى بن عبد الرحمن القارى — عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » الحديث يفسره الأول أن عمل المختوم له بالشقاوة إذا ظهر صلاحه إنما هو فيما يبدو للناس .

وقال رحمه الله تعالى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى حدثنا عثمان ابن عمر حدثنا عزرة بن ثابت عن يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن أبى الأسود الدؤلى قال : قال لى عمران بن الحصين : أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم من قدر ماسبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم . فقلت : بل شىء قضى عليهم ومضى عليهم ، قال : فقال أفلا يكون ظلماً ؟ قال ففزعت من ذلك فزعاً شديداً وقلت : كل شىء خلق الله وملك يده فلا يسئل عما يفعل وهم يسألون ، فقال

لى : يرحمك الله تعالى إنى لم أرد بما سألتك إلا حرز عقلك ، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يارسول الله أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أفى شىء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ﷺ وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال لا بل شىء قضى عليهم ومضى فيهم ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل (ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها) . وفيه عن على رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالساً وفى يده عود ينكت به ، فرفع رأسه فقال : مامنكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار . قالوا يارسول الله فلم نعمل ، أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، إلى قوله ـــ فسنيسره للعسرى) والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة شهيرة يطول استقصاؤها ، وقد تقدم منها جملة فى إثبات علم الله عز وجل من توحيد المعرفة والإثبات .

(فصل) المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بكتاب الله تعالى الذى لم يفرط فيه من شىء ، قال الله عز وجل (مافرطنا فى الكتاب من شىء) وقال تعالى (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) وقال تعالى (وكل شىء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكل كبير مستطر) وقال تعالى عن موسى حين قال له فرعون (فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى) وقال تعالى (ألم تر أن الله يعلم مافى السماء الأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها إلا هو ـــ إلى قوله ـــ ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وقال تعالى (وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ، ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين إثبات العلم والكتاب ، أو يذكر كل حدته . وكتابه تعالى من علمه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عبدان بن أبى حمزة عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال : « كنا جلوساً مع النبى ﷺ ومعه عود ينكت فى الأرض وقال : مامنكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : ألا نتكل يارسول الله ؟ قال : لا ، اعملوا فكل ميسر . ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى) الآية . ورواه مسلم بأبسط منه فقال رحمه الله تعالى :

حدثنا عثمان بن أبى شيبة وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم ــ واللفظ لزهير ــ قال إسحاق : أخبرنا وقال الآخران : حدثنا جرير عن منصور عن سعدة بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصره ، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : مامنكم من أحد ، مامن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله تعالى مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة . قال فقال رجل : يارسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ (فأما منَ أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقال رحمه الله تعالى حدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير. حدثنا أبو الزبيرُ (ح) . وحدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو خيثمة عن أبى الزبير عن جابر قال « جاء سراقة بن مالك بن جعثم قال : يارسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيما نعمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما نستقبل ؟ قال : لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل ؟ قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشىء لم أفهمه ، فسألت ماقال ؟ فقال اعملوا فكل ميسر » ــ وفى رواية قال رسول الله ﷺ « كل عامل ميسر لعمله » . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون ــ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ــ ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً) وقال منصور بن النعمان عن عكرمة عن بن عباس رضى الله عنهما : وحرم بالحبشية وجب . حدثنى محمود بن غيلان حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن بن طاوس عن أبيه عن بن عباس رضى الله عنهما قال « مارأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ إن الله تعالى ,كتب على بن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لامحالة ، فزنى العين النظر ، زنى اللسان المنطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » ورواه مسلم بهذااللفظ وبلفظ قال ﷺ « كتب على بن آدم نصيبه من الزنى مدرك ذلك لامحالة . فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك والفرج يكذبه » . وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا يونس حدثنا الليث عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعانى عن

عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ ياغلام إنى معلمك كلمات ينفعك الله بهن : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » ورواه الترمذى بنحوه وقال : حسن صحيح ،وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ليث حدثنى أبو قبيل المعافرى عن شفى الأصبحى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان فقال : أتدرون ماهذان الكتابان ؟ قال قلنا : إلا أن تخبرنا يارسول الله قال للذى فى يده اليمنى : هذا كتاب من رب العالمين تبارك وتعالى بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً . ثم قال للذى فى يساره هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لايزاد فيهم ولاينقص منهم أبداً . فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فلأى شىء إذاً نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه ؟ قال رسول الله ﷺ : سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم بعمل الجنة وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار ليختم بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل ، ثم قال بيده فقبضها ثم قال : فرغ ربكم عز وجل من العباد . ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال : فريق فى الجنة . ونبذ باليسرى فقال : فريق فى السعير » ورواه الترمذى بنحوه وقال حديث حسن صحيح غريب ، وغير ذلك من الأحاديث كثير .

(فصل) والإيمان بكتابة المقادير يدخل فيه خمسة تقادير : (الأول) التقدير الأزلى قبل خلق السموات والأرض عندما خلق الله تعالى القلم ، كما قال ربنا تبارك وتعالى (قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا) الآية ، وقال سبحانه وتعالى (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاَّ فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ، وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عمر ابن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش حدثنا جامع بن شداد عن صفوان بن محرز أنه حدثه عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : « دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم . قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ،

قالوا : قد قبلنا يارسول الله . قالوا : جئناك نسألك عن أول هذا الأمر ، قال : كان الله ولم يكن شئ غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السموات والأرض . فنادى مناد : ذهبت ناقتك ياابن الحصين ، فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب ، فو الله لوددت أنى كنت تركتها » وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح حدثنا ابن وهب أخبرنى أبو هانئ الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء » ولهما عن أبى هريرة حديث احتجاج آدم وموسى ، وهذا اللفظ لمسلم : قال رسول الله ﷺ « احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض . فقال آدم : أنت موسى الذى أصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجياً . فبكم وجدت الله تعالى كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى بأربعين عاماً . قال آدم فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى ؟) قال نعم . قال أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة . قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى » وله عندهما وغيرهما ألفاظ من طرق كثيرة . وقال أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا جعفر بن مسافر الهذلى حدثنا يحيى بن حسان حدثنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبى عبلة عن أبى حفصة قال : قال عبادة بن الصامت لابنه يابنى إنك إن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وماأخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول ماخلق الله القلم فقال له : اكتب . قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : أكتب مقاديركل شئ حتى تقوم الساعة » . يابنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات على غير هذا فليس منى » وقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن موسى أخبرنا أبو داود الطيالسى أخبرنا عبد الواحد بن سليم قال : قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبى رباح فقلت له : ياأبا محمد أن أهل البصرة يقولون فى القدر . قال : يابنى أتقرأ القرآن ؟ قلت نعم . قال فاقرأ الزخرف . قال فقرأت (حم والكتاب المبين . إن جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) قال أتدرى ماأم الكتاب ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال فإنه كتاب كتبه الله

قبل أن يخلق السماء وقبل أن يخلق الأرض . فيه : إن فرعون من أهل النار ، وفيه تبت يدا أبى لهب وتب ، قال عطاء : فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فسألته : ماكانت وصية أبيك عند الموت ؟ قال دعانى فقال : يابنى اتق الله ، وأعلم أنك لن تتقى الله تعالى حتى تؤمن بالله وبالقدر كله خيره وشره ، فإن مت على غير هذا دخلت النار . إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول ماخلق الله تعالى القلم فقال اكتب ، قال : ماأكتب ؟ قال اكتب القدر ماكان وماهو كائن إلى الأبد » هذا حديث غريب . وقال البخارى رحمه الله تعالى : قال اصبغ أخبرنى بن وهب عن يونس بن يزيد عن بن شهاب عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنى رجل شاب وأخاف على نفسى العنت ولا أجد ماأتزوج به من النساء ، فسكت عنى . ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبى ﷺ « ياأبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاختصر على ذلك أو ذر) ، وغير ذلك من الأحاديث .

(فصل) التقدير (الثانى) من تقادير الكتابة كتابة الميثاق يوم ألست بربكم قال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) . وقال تبارك وتعالى (وماوجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد أبو إسحاق حدثنا الأوزاعى حدثنى ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن الديلى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن أصابه من نوره يومئذ أهتدى ومن أخطأه ضل . فذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » حسنه الترمذى . وقال أحمد رحمه الله عز وجل : حدثنا هشيم وسمعته أنا منه قال حدثنا أبو الربيع عن يونس عن أبى إدريس عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى ، وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » وقال رحمه الله تعالى : حدثنا الحسن ابن سوار حدثنا الليث ــ يعنى بن سعد ــ عن

معاوية بن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى . قال فقال قائل يارسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر » وفى الباب عن معاذ ونضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وحديث عبد الرحمن هذا رجاله رجال الصحيحين إلى الصحابى . وروى إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله تعالى عن زيد بن أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أنه أخبره عن مسلم ابن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل رضى الله عنه عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال رسول الله ﷺ « إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يارسول الله ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله ﷺ « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار » . وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير — يعنى ابن أبى حازم — عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « أخذ الله تعالى الميثاق من ظهر آدم بنعمان — يعنى عرفة — فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا (قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) صححه الحاكم . وروى ابنه عبد الله فى زوائده على مسند أبيه حدثنا محمد بن يعقوب الربالى حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبى يحدث عن الربيع بن أنس عن رفيع أبى العالية عن أبى كعب رضى الله عنه فى قول الله عز وجل (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم) الآية قال « جمعهم فجعلهم أوراحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى — قال فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد

عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بذلك ، اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى فلا تشركوا بى شيئاً ، إنى سأرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاق وأنزل عليكم كتبى قالوا شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك . فأقروا بذلك » الحديث . وقال الإمام الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى عمران قال : سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ماف الأرض من شيء أكنت تفتدى به ؟ فيقول نعم ، فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لاتشرك بى ، فأبيت إلا أن تشرك بى » ورواه مسلم وغيره ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وقد قدمنا منها جملة وافية فى أول هذا الشرح عند الكلام عن الميثاق . ولله الحمد والمنة .

(فصل) التقدير (الثالث) العمرى عند تخليق النطفة فى الرحم ، فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها والأجل والعمل والشقاوة والسعادة والرزق وجميع ماهو لاق فلا يزاد فيه ولاينقص منه . قال الله تبارك وتعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلوقة وغير مخلوقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) الآيات ، وقال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وماتحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال تعالى (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) وقال تبارك وتعالى (إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) وغيرها من الآيات . وروى البخارى ومسلم بإسناديهما إلى سليمان الأعمش قال : سمعت زيد بن وهب عن عبد الله ــ يعنى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ــ قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد . فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل

بعمل أهل النار فيدخلها ، وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون مابينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » وهذا لفظ مسلم ، ولهما من حديث حماد بن زيد عن عبيد الله بن أبى بكر بن أنس عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « وكل الله تعالى بالرحم ملكاً فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة . فإذا أراد الله أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه » ، وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنى أبو الطاهر أحمد بن عمرو ابن سرح أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن أبى الزبير المكى أن عامر بن وائلة حدثه أنه سمع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره ، فأتى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى فحدثه بذلك من قول ابن مسعود فقال : وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟ فقال له الرجل : أتعجب من ذلك ؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ماشاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب أجله ؟ فيقول ربك مايشاء ويكتب الملك . ثم يقول يارب مارزقه ؟ فيقضى ربك ماشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ماأمر ولا ينقص » وفى رواية له من طريق آخر « فيقول : يارب أذكر أو أنثى ؟ فيجعله الله ذكراً أو أنثى . ثم يقول : يارب أسوى أو غير سوى فيجعله الله تعالى سوياً أو غير سوى . ثم يقول : يارب مارزقه ، ماأجله ، ماخلقه ؟ ثم يجعله الله تعالى شقياً أو سعيداً » وفى رواية لأحمد « فيقول يارب ماذا أشقى أم سعيد ؟ فيقول الله تبارك وتعالى فيكتبان ، فيقول : ماذا أذكر أم أنثى ؟ فيقول عز وجل فيكتبان . فيكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على مافيه ولاينقص وله عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إذا استقرت النطفة فى الرحم أربعين يوماً أو أربعين ليلة بعث الله إليه ملكاً فيقول يارب مارزقه فيقال له . فيقول يارب ماأجله فيقال له فيقول يارب ذكر أم أنثى ؟ فيعلمه . فيقول يارب شقى أو سعيد ؟ فيعلمه » ، تفرد به وإسناده حسن . وله عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « فرغ الله إلى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره وشقى أم سعيد » والأحاديث فى ذلك كثيرة .

(فصل) والرابع التقدير الحولى فى ليلة القدر ، يقدر فيها كل مايكون فى السنة إلى مثله ، قال الله تبارك وتعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين). الآيات .

قال مجاهد : ليلة القدر ليلة الحكم ، وقال سعيد بن جبير يؤذن للحجاج فى ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد ولايزاد فيهم ولاينقص منهم ، وقال الحسن البصرى : والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان وإنها لليلة القدر ، ويفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها ، وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر مايكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان ، وقال مقاتل : يقدر الله تعالى فى ليلة القدر أمر السنة فى بلاده وعباده إلى السنة القابلة ، وقال أبو عبد الرحمن السلمى : يقدر أمر السنة كلها فى ليلة القدر ، وذكر عن سعيد بن جبير فى هذه الآية : إنك لترى الرجل غشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ، وروى عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك والضحاك : فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ومايكون فيها من الآجال والأرزاق ومايكون فيها إلى آخرها . والآثار فى ذلك عن الصحابة وأئمة التفسير من تابعيهم بإحسان كثيرة شهيرة .

(فصل) والخامس التقدير اليومى وهو سوق المقادير إلى المواقيت التى قدرت لها فيما سبق ، قال الله تبارك وتعالى (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) وروى ابن جرير رحمه الله تعالى عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى عن أبيه قال « تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (كل يوم هو فى شأن) فقلنا : يارسول الله وماذاك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » . وروى ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « قال الله عز وجل (كل يوم هو فى شأن) قال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين » ، وعلقه البخارى موقوفاً ، وروى البزار عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ (كل يوم هو فى شأن) قال « يغفر ذنباً ويكشف كرباً » . وله هو وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوته حمراء قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه مابين السماء

والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق فى كل نظرة ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل مايشاء . وروى ابن أبى حاتم عن سويد بن جبلة الفزارى قال : إن ربكم كل يوم هو فى شأن فيعتق رقاباً ، ويعطى رغاباً ، ويقحم عقاباً ، وقال الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير (كل يوم هو في شأن) قال : من شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطى سائلا أو يفك عانياً ، أو يشفى سقيماً . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً . ويجيب مضطراً ويغفر ذنباً . وقال قتادة : لايستغنى عنه أهل السموات والأرض يحيى حيا ويميت ميتاً . ويربى صغيراً ويفك أسيراً . وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم ، وقال الحسين بن فضل : هو سوق المقادير إلى المواقيت ، وقال أبو سليمان الدارانى فى هذه الآية : كل يوم له إلى العبيد بر جديد . وذكر البغوى رحمه الله تعالى قول المفسرين : من شأنه أن يحيى ويميت ويخلق ويرزق ويعز قوماً ويذل قوماً ويشفى مريضاً ويفك عانياً ويفرج مكروباً ويجيب داعياً ويعطى سائلا ويغفر ذنباً إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه فى خلقه مايشاء . وجملة القول فى ذلك أن التقدير اليومى هو تأويل المقدور على العبد وأنفاذه فيه ، فى الوقت الذى سبق أنه يناله فيه ، لايتقدمه ولايتأخره . كما أن فى الآخرة يأتى تأويل الجزاء الموعود إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . ولهذا قال سفيان بن عيينة فيما ذكره عند البغوى رحمه الله تعالى : الدهر كله عند الله يومان أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ، فالشأن الذى هو فيه اليوم الذى هو مدة الدنيا الأختبار بالأمر والنهى والأحياء والإماتة والإعطاء والمنع يعنى وغير ذلك ، وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب والعقاب أهـ . ثم هذا التقدير اليومى تفصيل من التقدير الحولى ، والحولى تفصيل من التقدير العمرى عند تخليق النطفة ، والعمرى تفصيل من التقدير العمرى الأول يوم الميثاق ، وهو تفصيل من التقدير الأزلى الذى خطه القلم فى الإمام المبين . والإمام المبين هو من علم الله عز وجل . وكذلك منتهى المقادير فى آخريتها إلى علم الله عز وجل ، فانتهت الأوائل إلى أوليته وانتهت الأواخر إلى آخريته (وأن إلى ربك المنتهى) .

(فصل) والمرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، وهما يجتمعان فيما كان وماسيكون ، ويفترقان فى مالم يكن ولا هو كائن ، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لامحالة (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ومالم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله تعالى إياه ليس لعدم قدرته عليه (ولو

شاء لجمعهم على الهدى ــ ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ــ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ــ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ــ ولو شاء الله مااقتتلوا ــ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) فالسبب فى عدم وجود الشىء هو عدم مشيئة الله تعالى إيجاده ، لا أنه عجز عنه ، تعالى الله وتقدس وتنزه عن ذلك (وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً) .

(فصل) والمرتبة الرابعة مرتبة الخلق وهو الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء ، فهو خالق كل عامل وعمله ، وكل متحرك وحركته ، وكل ساكن وسكونه ، ومامن ذرة فى السموات ولا فى الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها ، سبحانه لاخالق غيره ولا رب سواه ، وهاتان المرتبتان قد تقدم بسط الكلام عليهما فى توحيد المعرفة والإثبات بما أغنى عن إعادته . ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

(فصل) وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة ، والله تعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وأقوالهم وأعمالهم ، وهو تعالى الذى منحهم إياها وأقدرهم عليها وجعلها قائمة بهم مضافة إليهم حقيقة ، وبحسبها كلفوا وعليها يثابون ويعاقبون ، ولم يكلفهم الله تعالى إلا وسعهم ولم يحملهم إلا طاقتهم ، وقد أثبت الله تعالى ذلك لهم فى الكتاب والسنة ، ووصفهم به ، ثم أخبر تعالى أنهم لايقدرون إلا على ماأقدرهم الله تعالى عليه ولايشاءون إلا أن يشاء الله عز وجل ، ولايفعلون إلا مايجعله إياهم فاعلين ، كما جمع تعالى بين ذلك فى غير ماموضع من كتابه كقوله عز وجل (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) وقال تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً) وقوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله تعالى (لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت) الآية ، وقال تعالى (لايكلف الله نفساً إلا ماآتاها) وقال تعالى (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) أى بسببه ، وقال تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) وقال النبى ﷺ « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب (وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ــ لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) حدثنا أبو النعمان أخبرنا

جرير هو ابن حازم عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : رأيت النبى ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول : « والله لولا الله مااهتدينا ، ولا صمنا ولاصلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، والمشركون قد بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا » . وقال ﷺ فى الحمر « ماأنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وغير ذلك مالايحصى ، وقد تقدم منها جملة وافية فى إثبات الإرادة والمشيئة والخلق ، فكما لم يوجد العباد أنفسهم لم يوجدوا أفعالهم . فقدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم وأفعالهم ، تبع لقدرة الله سبحانه وإرادته ومشيئته وأفعاله ، إذ هو تعالى خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم وإرادتهم وأفعالهم ، وليس مشيئتهم وإراداتهم وقدرتهم وأفعالهم هى عين مشيئة الله تعالى وإرادته وقدرته وفعله ، كما ليسوا هم إياه تعالى الله عن ذلك بل أفعالهم المخلوقة لله قائمة بهم لائقة بهم مضافة إليهم ، حقيقة ، وهى من آثار أفعال الله تعالى القائمة به اللائقة به المضافة إليه حقيقة ، فالله فاعل حقيقة والعبد منفعل حقيقة ، والله تعالى هاد حقيقة ، والعبد مهتد حقيقة ، ولهذا أضاف تعالى كلا من الفعلين إلى من قام به فقال عز وجل (من يهد الله فهو المهتد) فإضافة الهداية إلى الله تعالى حقيقة ، وإضافة الاهتداء إلى العبد حقيقة ، وكما إن الهادى تعالى ليس هو عين المهتدى ، فكذلك ليست الهداية هى عين الاهتداء ، وكذلك يضل الله تعالى من يشاء حقيقة ، وذلك العبد يكون ضالاً حقيقة، وهو سبحانه وتعالى خالق المؤمن وإيمانه والكافر وكفره كما قال جلا وعلا (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) أى هو الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك كوناً لا شرعاً ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال وهو شهيد على أعمال عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء ، ولهذا قال تعالى (والله بما تعملون بصير) فأضاف الله تعالى الخلق الذى هو فعله القائم به إليه حقيقة ، وأضاف الإيمان والكفر الذى هو عملهم القائم بهم إليهم حقيقة ، والله تبارك وتعالى هو الذى جعلهم كذلك ، وهم فعلوه باختيارهم وقدرتهم ومشيئتهم التى منحهم الله إياها وخلقها فيهم وأمرهم ونهاهم بحسبها . والمقصود أن الله سبحانه فى جميع تصرفاته فى عباده فاعل حقيقة ، والعبد منفعل حقيقة ، فمن أضاف الفعل والانفعال كلاهما إلى المخلوق كفر ، ومن إضافهما كلاهما إلى الله تعالى كفر ، ومن أضاف الفعل إلى الله تعالى حقيقة والانفعال إلى المخلوق حقيقة كما أضافهما الله تعالى فهو المؤمن حقيقة ، فالأول قول القدرية

النفاة ، وأول من أحدثه فى هذه الأمة معبد الجهنى فى آخر عصر الصحابة كما قدمنا عن يحيى بن يعمر فى سياق حديث جبريل السابق فى سؤاله النبى ﷺ عن الدين ، وأنكر عليه ذلك بقية الصحابة وأئمة التابعين وتبرءوا من هذا الاعتقاد وكفروا منتحليه ونفوا عنه الإيمان وأوصى بعضهم بعضاً بمجانبته والفرار من مجالسته ، ثم تقلد عنه ذلك المذهب الفاسد والسنة السيئة التى انتحلها هو رءوس المعتزلة وأئمتهم المضلون كواصل بن عطاء الغزال ، وعمرو بن عبيد ومن فى معناهم وعلى طريقتهم حتى بالغ بعضهم فأنكر علم الله تعالى وأنكر كتابة المقادير السابقة وجعل العباد هم الخالقين لأفعالهم ، ولهذا كانوا هم مجوس هذه الأمة ، فأما واصل بن عطاء فقال فيه أبو الفتح الأزدى : رجل سوء كافر ، قال الذهبى : كان من أجلاد المعتزلة ولد سنة ثمانين بالمدينة ، ومما قيل فيه :

ويجعل البر قمحا فى تصرفه ... وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً فى القول يجعله ... فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

وكان يتوقف فى عدالة أهل الجمل ويقول : إحدى الطائفتين فسقت لابعينها ، فلو شهدت عندى عائشة وعلى وطلحة على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم . هلك سنة إحدى وثلاثين ومائة . وأما عمرو بن عبيد فهو ابن ثوبان ــ ويقال ابن كيسان ــ التيمى مولاهم أبو عثمان البصرى من أبناء فارس قال ابن كثير : هو شيخ القدرية والمعتزلة ، روى الحديث عن الحسن البصرى وعبيد الله بن أنس وأبى العالية وأبى قلابة ، وعنه الحمادان وسفيان ابن عيينة والأعمش وكان من أقرانه وعبد الوارث بن سعيد ، وهارون بن موسى ويحيى القطان ويزيد بن زريع ، قال الإمام أحمد : ليس بأهل أن يحدث عنه ، وقال على بن المدينى ويحيى بن معين : ليس بشىء . وزاد ابن معين : وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه . وكان ابن مهدى لايحدث عنه ، وقال أبو حاتم : متروك ، وقال النسائى : ليس بثقة ، وقال شعبة عن يونس بن عبيد : كان عمرو بن عبيد يكذب فى الحديث ، وقال حماد بن سلمة قال لى حميد : لاتأخذ عنه فإنه كان يكذب على الحسن البصرى ، وكذا قال أيوب وعوف بن عون ، وقال أيوب : ماكنت أعد له عقلا ، وقال مطر الوراق : والله لاأصدقه فى شىء ، وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر ، وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون فى عبادته وزهده وتقشفه .

قال الحس البصرى : هذا سيد شباب القراء مالم يحدث ، قالوا فأحدث والله أشد الحدث ، وقال ابن حبان كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ماأحدث ، واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة . وكان يشتم الصحابة ويكذب فى الحديث وهماً لاتعمداً . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت (تبت يدا أبى لهب) فى اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة ، وروى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدوق « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً — حتى قال — فيؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » إلى آخره ، فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ، ولو سمعته من زيد بن وهب لما أجبته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله ﷺ لرددته ، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت : ماعلى هذا أخذت علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ، لعنه الله إن كان قال هذا ، وإذا كان مكذوباً عليه فعلى من كذبه عليه مايستحقه وقد قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى :

أيها الطـــالب علمـــا   إئت حماد بن زيـــــد
فخـــذ العلـــم بحلـــم   ثم قيـــده بقيـــد
وذر البدعـــــة من   آثار عمـــرو بن عبيـــد

وقال ابن عدى : كان عمرو يغر الناس بتقشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جداً معلن بالبدع ، وقال الدار قطنى : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادى : جالس الحسن واشتهر بصحبته ، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة ، وقال بالقدر ودعا إليه واعتزل أصحاب الحديث رحمهم الله تعالى .

ثم توارث القدرية هذا المذهب الفاسد بعد هؤلاء وتواصوا به ، ثم منهم من نفى علم الله تعالى كأوليهم ، ففيهم من نفى علمه بالكليات والجزئيات ، ومنهم من أثبت العلم بالكليات دون الجزئيات ، ثم افترقوا فى أفعال الله كما افترقوا فى علمه ، ففرقة قالت : كل أفعال العباد ليست مقدورة لله ولا مخلوقة له ، لاخيرها ولاشرها ، والأخرى قالت : الخير من أفعالهم مخلوق له تعالى ومقدور له ، وأما الشر فليس عندهم مخلوقاً لله ولا مقدوراً له . فأثبتوا نصف القدر ونفوا نصفه ، وأثبتوا خالقين ، فهم فى الحقيقة مجوس ثنوية ، بل أعظم منهم ، فإن الثنوية أثبتوا خالقين للكون كله وهؤلاء أثبتوا خالقين لكل فرد من الأفراد ولكل فعل من الأفعال بل جعلوا المخلوقين كلهم خالقين ، ولولا تناقضهم لكانوا أكفر من المجوس ، فإن

اطراد قولهم ولازمه وحاصله هو إخراج أفعال العباد عن خلق الله عز وجل وملكه وأنها ليست داخله فى ربوبيته عز وجل ، وأنه يكون فى ملكه مالايريد ويريد مالايكون ، وأنهم أغنياء عن الله عز وجل فلا يستعينون على طاعته ولاترك معصيته ولايعوذون به من شرور أنفسهم ولاسيئات أعمالهم ولايستهدونه الصراط المستقيم ، فقول إياك نعبد وإياك نستعين وقول لاحول ولاقوة إلا بالله لامعنى له عندهم وربما استنكروه كما جحدوا قوله تعالى (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) هذا مع إنكارهم علم الله عز وجل وقدرته ومشيئته وإرادته وغير ذلك من صفاته تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

(فصل) والقول الثانى وهو إضافة الفعل والانفعال كلاهما إلى الله عز وجل هو قول الجبرية الغلاة الجفاة الذين يقولون : إن العبد مجبور على أفعاله مقسور عليها كالسعفة يحركها الريح العاصف وكالهاوى من أعلى إلى أسفل . وأن تكليف الله سبحانه وتعالى عباده — من أمرهم بالطاعات ونهيهم عن المعاصى — كتكليف الحيوان البهيم بالطيران وتكليف المقعد بالمشى وتكليف الأعمى بنقط الكتاب ، وأن تعذيبه إياهم على معصيتهم إياه هو تعذيب لهم على فعله لاعلى أفعالهم ، وأن ذلك كتعذيب الطويل لم لم يكن قصيراً والقصير لم لم يكن طويلا والأسود لم لم يكن أبيض والأبيض لم لم يكن أسود ، فسلبوا العبد قدرته وأختياره ، وأخرجوا عن أفعال الله تعالى وأحكامه حكمها ومصالحها » ونفوا عن الله تعالى حكمته البالغة ، وجحدوا حجته الدامغة ، وأثبتوا عليه تعالى الحجة لعباده ، ونسبوه تعالى إلى الظلم وطعنوا فى عدله وشرعه . فلا قيام عندهم لسوق الجهاد ، ولا معنى لإقامة الحدود ولا للثواب والعقاب ، بل ولا لإرسال الرسل والكتب إلا التكليف فى غير وسع وتحميل مالايطاق والظلم الذى حرمه الله تعالى على نفسه وجعله بين عباده محرماً فأقاموا عذر إبليس اللعين وعذر فرعون وهامان وقارون وسائر الأمم العصاة الممقوتين المقبوحين المغضوب عليهم المخسوف بهم المعدة لهم جهنم وساءت مصيراً ، وإن غضب الله عليهم ولعنه وعقابه إياهم على فعله لا على أفعالهم ، بل قالوا إنه عاقبهم ومقتهم على طاعتهم إياه ، لأنهم إن كانوا خالفوا شرعه فقد أطاعوا إرادته ومشيئته . هذا معنى إثبات القدر عند هذه الفرقة الإبليسية . وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى كثيراً من عباراتهم التى لايستطيع المؤمن حكايتها لولا أن الله تعالى حكى فى كتابه أقوال الكفار قبحهم الله ، فمن ذلك قول بعضهم :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وقول آخر قبحه الله :

دعانى وسد الباب عنى فهل إلى دخولى سبيل بينوا لى قضيتى

وقول كافر آخر فض الله فاه :

وضعــوا اللحـم للبـزا ة على ذروتى عدن
ثم لامــوا البـزاة إذ خلعــوا عنهم الـرسن
لو أرادوا صيانتـــى ستروا وجهك الحسن.أه

وقال بعضهم وقد ذكر له من يخاف أفساده فقال : لى خمس بنات لأأخاف على إفسادهن غيره ، وصعد رجل يوماً على سطح دار له فأشرف على غلام له يفجر بجاريته فنزل وأخذهما ليعاقبهما ، فقال الغلام : إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك ، فقال : لعلمك بالقضاء والقدر أحب إلى من كل شىء ، أنت حر لوجه الله ، ورأى آخر يفجر بامرأته فبادر ليأخذه فهرب فأقبل يضرب المرأة وهى تقول القضاء والقدر . فقال : ياعدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا ، فقالت : أوه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس . فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر إليها وقال : لولاك لضللت ، ورأى آخر رجلا يفجر بامرأته فقال : ماهذا ؟ فقالت : هذا قضاء الله وقدره . فقال : الخيرة فيما قضى الله . فلقب بالخيرة فيما قضى الله ، وكان إذا دعى به غضب . وقيل لبعض هؤلاء : أليس هو يقول ولايرضى لعباده الكفر ؟ فقال : دعنا من هذا ، رضيه وأحبه وأراده ، وماأفسدنا غيره . ولقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى قال : القدر عذر لجميع العصاة ، وإنما مثلنا فى ذلك كما قيل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وبلغ بعض هؤلاء أن علياً مر بقتلى النهروان فقال : بؤساً لكم ، لقد ضركم من غركم . فقيل : من غرهم ؟ فقال : الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والأمانى . فقال هذا القائل : كان على قدرياً ، وإلا فالله غرهم وفعل بهم مافعل وأوردهم تلك الموارد ، واجتمع جماعة من هؤلاء يوماً فتذاكروا القدر ، فجرى ذكر الهدهد وقوله (وزين لهم الشيطان أعمالهم) فقال : كان الهدهد قدرياً ، أضاف العمل إليهم والتزيين إلى الشيطان وجميع ذلك فعل

الله . وسئل بعض هؤلاء عن قول الله تعالى لإبليس (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أيمنعه ثم يسأله مامنعه ؟ قال : نعم قضى عليه فى السر مامنعه فى العلانية ولعنه عليه . قال له : فما معنى قوله عز وجل (وماذا عليهم لو آمنوا بالله) إذا كان هو الذى منعهم ؟ قال : استهزاء بهم . قال : فما معنى قوله (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟) قال : فعل ذلك بهم من غير ذنب جنوه ، بل ابتدأهم بالكفر ثم عذبهم عليه وليس للآية معنى . وقال بعض هؤلاء وقد عوتب على ارتكابه معاصى الله فقال : إن كنت عاصياً لأمره فأنا مطيع لإرادته . وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم ، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه فقال : إلى متى هذا اللوم ؟ ولو خلى لسجد ، ولكن منع . وأخذ يقيم عذره ، فقال بعض الحاضرين : تباً لك سائر اليوم ، أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن ؟ وجاء جماعة إلى منزل رجل من هؤلاء فلم يجدوه ، فلما رجع قال : كنت أصلح بين قوم . فقيل له : وأصلحت بينهم ؟ قال : أصلحت إن لم يفسد الله . فقيل له : بؤساً لك أتحسن الثناء على نفسك وتسىء الثناء على ربك . ومر بلص مقطوع اليد على بعض هؤلاء فقال : مسكين مظلوم أجبره على السرقة ثم قطع يده عليها ، وقيل لبعضهم : أترى الله كلف عباده مالايطيقون ثم يعذبهم عليه ؟ قال : والله قد فعل ذلك ، ولكن لانجسر أن نتكلم . وقال بعض هؤلاء : ذنبة أذنبها أحب إلى من عبادة الملائكة . قيل : ولم ؟ قال : لعلمى بأن الله قضاها على وقدرها ، ولم يقضها إلا والخيرة لى فيها ، وقال بعض هؤلاء : العارف لاينكر منكراً لاستبصاره بسر الله فى القدر . قال وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء ، فقال لى : المحبة نار تحرق من القلب ماسوى مراد المحبوب ، والكون كله مراده ، فأى شىء أبغض منه ؟ قال فقلت له : إذا كان المحبوب قد أبغض من فى الكون وعاداهم ولعنهم ، فأحببتهم أنت وواليتهم ، أكنت ولياً للمحبوب ، أو عدواً له ؟ قال فكأنما ألقم حجراً . وقرأ قارىء بحضرة بعض هؤلاء (قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) فقال : هو والله منعه ، ولو قال أبليس ذلك لكان صادقاً . وقد أخطأ إبليس الحجة ، ولو كنت حاضراً لقلت له : أنت منعته . وسمع بعض هؤلاء قارئاً يقرأ (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فقال : ليس من هذا شىء ، بل أضلهم وأعماهم أهـ — إلى أن قال : فيقال : الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقاً الذين ماقدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته ، ولاعظموه حق تعظيمه ، ولا نزهوه عما لايليق به ، وبغضوه إلى عباده وبغضوهم إليه

سبحانه وأساءوا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم ، وهؤلاء خصماء الله حقاً الذين جاء فيهم الحديث « يقال يوم القيامة أين خصماء الله ؟ فيؤمر بهم إلى النار » . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النـــار طراً فرقـــة القدريـــة
سواء نفـوه أو سعـوا ليخاصمـوا به الله أو ماروا به للشريعـــــة

قال وسمعته يقول : القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث : نفاته وهم القدرية المجوسية ، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا (لو شاء الله ماأشركنا) وهم القدرية المشركون . والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله تعالى وخصومه وهم القدرية الإبليسية وشيخهم إبليس.وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : (بما أغويتنى) ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما أعترف به آدم . فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ، ومن أشبه أباه آدم فما ظلم . ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس . ثم ساق كلاماً طويلا فى فرق القدرية وضلالهم إلى أن قال رحمه الله تعالى : فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم إما فى جميع تركتهم وإما فى كثير منها وإما فى جزء منها ، وهدى الله بفضله ورثه أنبيائه ورسله لميراث نبيهم ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة وأنه ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمناً والمصلى مصلياً والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه تعالى حال بين الكفار وقلوبهم فإنه تعالى يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ، ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد ، ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون .

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم ﷺ وأخبر بها عن ربه تعالى : الأول علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم ، الثانية كتابته ذلك فى الذكر عنده قبل خلق

السموات والأرض ، الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن عن مشيئته كما لاخروج له عن علمه ، الرابعة خلقه له وإيجاده وتكوينه فإنه لاخالق إلا الله ، والله خالق كل شيء ، فالخالق عندهم واحد وماسواه فمخلوق ، ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق . ويؤمنون مع ذلك بحكمته وأنه حكيم في كل مافعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلقه ، وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها ، بل أهي أمر وراء ذلك ، وهي الغاية المحبوبة المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده ولأجلها خلق فسوى وقدر فهدى وأمات وأحيا وأسعد وأشقى وأضل وهدى ومنع وأعطى ، وهذه الحكمة هي الغاية والفعل وسيلة إليها ، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفي للغايات وهو محال ، إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة ، فنفي الوسيلة وهي الفعل لازم لنفي الغاية وهي الحكمة ونفي قيام الفعل والحكمة به نفي لهما في الحقيقة ، إذ فعل لايقوم بفاعله وحكمة لاتقوم بالحكيم شيء لايعقل ، وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته ، وهذا لازم لمن نفى ذلك ولا محيد له عنه وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته تعالى وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة ولما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة بل قوله حق ولازم الحق حق كائناً ماكان .

والمقصود أن ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب تعالى وأوامره ، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي وصدقوا بالوعد والوعيد ، فآمنوا بالخالق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة ، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ، فصدقوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ، وكانوا أسعد الناس بالحق وأقربهم عصبة في هذا الميراث النبوي ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى ماسقنا من كلامه رحمه الله تعالى . وقد بسط الكلام قبل ذلك وبعده فشفى وكفى . رحمه الله تعالى .

والمقصود أن الإيمان بالقدر مرتبط بامتثال الشرع ، وامتثال الشرع مرتبط بالإيمان بالقدر ، وانفكاك أحدهما من الآخر محال ، فإن الإقرار بالقدر مع الاحتجاج به على الشرع ومحاربته مخاصمة لله تعالى في أمره وشرعه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه ، وطعن في

حكمته وعدله ، وإنتقاد عليه فى إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وخلق الجنة لأوليائه المصدقين بها ، وخلق النار لأعدائه المكذبين ، ونسبة لأحكم الحاكمين وأعدل العادلين — الحكيم فى خلقه وشرعه ، العدل فى قوله وفعله وحكمه إلى العبث والظلم فى ذلك كله .
كذلك الانقياد فى الشرع مع نفى القدر وإخراج أفعال العباد عن قدرة البارى وجعلهم مستقلين بها مستغنين عنه طعن فى ربوبية المعبود وملكوته ونسبته إلى العجز ووصفه بما لايستحق الإلهية ولايتصف بها مما لايبدىء ولايعيد ولايغنى عنك شيئاً ، تعالى ربنا وتقدس وتنزه وجل وعلا عما يقول الظالمون الجاحدون الملحدون علواً كبيراً ، بل الإيمان بالقدر ، خيره وشره ، هو نظام التوحيد . كما أن الإتيان بالأسباب التى توصل إلى خيره وتحجز عن شره واستعانة الله عليها هو نظام الشرع ولاينتظم أمر الدين ولا يستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل للشرع كما قرر النبى ﷺ الإيمان بالقدر ثم قال لما قيل له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : لا « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . فمن نفى القدر رغم منافاته للشرع فقد عطل الله تعالى عن علمه وقدرته ومعانى ربوبيته ، وجعل العبد مستقلا بأفعاله خالقاً لها ، فأثبت خالقاً آخر مع الله تعالى ، بل أثبت أن جميع المخلوقين خالقون ، ومن أثبته محتجاً به على الشرع محارباً له نافياً عن العبد قدرته واختياره التى منحه الله تعالى إياها وأمره ونهاه وأخبره بحسبها زاعماً أن الله تعالى كلف عباده مالايطاق فقد نسب الله تعالى إلى الظلم وإلى العبث وإلى مالايليق به ، ورجح حجة إبليس وأثبتها وأقام عذره وكان هو إمامه فى ذلك إذ يقول (رب بما أغويتنى) وأما المؤمنون حقاً فيؤمنون بالقدر خيره وشره وأن الله تعالى خالق ذلك كله لاخالق غيره ولا رب سواه ، وينقادون للشرع أمره ونهيه ، ويصدقون خبر الكتاب والرسول ، ويحكمونه فى أنفسهم سرا وجهراً ، وأن الهداية والإضلال بيد الله يهدى من يشاء بفضله ورحمته ويضل من يشاء بعدله وحكمته وهو أعلم بمواقع فضله وعدله (وهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن أهتدى) وله فى ذلك الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وأن الثواب والعقاب مترتب على الشرع فعلا وتركا لا على القدر . ويعزون أنفسهم بالقدر عند المصائب ، ولايحتجون به على المعاصى والمعايب ، فإذا وفقوا لحسنة عرفوا الحق لأهله فقالوا الحمد لله الذى هدانا سبلنا (وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) ولم يقولوا كما قال الفاجر (إنما أوتيته على علم عندى) وإذا اقترفوا سيئة باءوا بذنبهم وأقروا به وقالوا كما قال الأبوان (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ولم يحملوا ذنبهم وظلمهم على القدر ويحتجوا به عليه ، ولم يقولوا كما قال إبليس لعنة الله عليه (رب بما

أغويتنى) وإذا أصابتهم مصيبة رضوا بقضاء الله وقدره واستسلموا لتصرف ربهم ، ومالكهم تبارك وتعالى وقالوا كلمة الصابرين (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) ولم يقولوا كما قال الذين كفروا (وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزاً لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصيرا) .

(فصل) واتفقت جميع الكتب السماوية والسنن النبوية على أن القدر السابق لايمنع العمل ولايوجب الاتكال ، بل يوجب الجد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح ، ولهذا لما أخبر النبى ﷺ أصحابه بسبق المقادير وجريانها وجفوف القلم بها فقيل له : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال « لا اعملوا فكل ميسر » ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب الحسنى فسنيسره للعسرى) كما فى الأحاديث التى قدمنا وغيرها . فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهيأ لها أسباباً وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب فى المعاش والمعاد ، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له فى الدنيا والآخرة ، فهو مهيأ له ميسر له ، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاداً فى فعلها والقيام بها وأعظم منه فى أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سبباً فى وجود الزرع ، والنكاح سبباً فى وجود النسل ، وكذلك العمل الصالح سبب فى دخول الجنة ، والعمل السيىء سبب فى دخول النار . وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر « ماكنت بأشد اجتهاداً منى الآن » وقال النبى ﷺ فى الحديث المتقدم « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجزن ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل » ، وفى المسند والترمذى وابن ماجه من حديث الزهرى عن ابن أبى خزامة عن أبيه أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدرالله شيئاً ؟ قال « هى من قدر الله » يعنى أن الله تبارك وتعالى قدر الخير والشر وأسباب كل منهما .

ذكر ماجاء من الأحاديث فى ذمّ القدرية

تقدم فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة أن هذه الآية (إن المجرمين فى ضلال وسعر ، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر)

أنها نزلت فى المخاصمين فى القدر ، وتقدم فيهم أحاديث الصحابة من روايتهم سؤال جبريل عن الدين وغير ذلك من الأحاديث التى سقناها متفرقة فى مواضع من هذا المجموع ، وقال أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم قال حدثنى بمنى عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ورواه الإمام أحمد عنه بلفظ أن رسول الله ﷺ قال « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتى الذين يقولون لاقدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، الخ » وفى رواية « إن لكل أمة مجوساً وإن مجوس أمتى المكذبون بالقدر » إلخ وله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « سيكون فى هذه الأمة مسخ ، ألا وذاك فى المكذبين بالقدر والزنديقية » . وله عن نافع قال : كان لابن عمر رضى الله عنهما صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه مرة عبد الله بن عمر : إنه بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر ، فأياك أن تكتب إلى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر » وللترمذى عن نافع عنه رضى الله عنه جاءه رجل فقال إن فلاناً يقرأ عليك السلام ، فقال : إنه بلغنى أنه قد أحدث ، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه منى السلام فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « فى هذه الأمة — أو فى أمتى ، الشك منه — خسف أو مسخ أو قذف فى أهل القدر » هذا حديث حسن صحيح غريب . وقال أبو داود رحمه الله أيضاً : حدثنا محمد بن أبى كثير أخبرنا سفيان عن عمر ابن محمد عن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لاقدر . من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوهم ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال » ، وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا عبد الله بن يزيد المقرى أبو عبد الرحمن قال : حدثنى سعيد أن أبى أيوب قال : حدثنى عطاء بن دينار عن حكيم بن شريك الهذلى عن يحيى بن ميمون الحضرمى عن ربيعة الحرشى عن أبى هريرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لاتجالسوا أهل القدر ولاتفاتحوهم » صحيح ، وقال رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن أبى سنان عن وهب بن خالد الحمصى عن ابن الديلمى قال : أتيت أبى بن كعب فقلت له : وقع فى نفسى شىء من القدر فحدثنى بشىء لعل الله أن يذهبه من قلبى ، فقال : لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالمهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو

أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل الله ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك وأن ماأخطاك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال ؛ ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثنى عن النبى مثل ذلك . وتقدم ذكر وصية عبادة لابنه فى ذلك . وقال الترمذى رحمه الله تعالى : حدثنا واصل بن عبد الأعلى أخبرنا محمد بن فضيل عن القاسم بن حبيب وعلى بن نزار عن نزار عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « صنفان من أمتى ليس لهما فى الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية » هذا حديث حسن غريب ، وقال رحمه الله تعالى حدثنا محمود بن غيلان أخبرنا أبو داود أنبأنا شعبة عن منصور عن ربعى بن حراش عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر » .
وقال رحمه الله تعالى : باب ماجاء من التشديد فى الخوض فى القدر . حدثنا عبد الله بن معاوية الجمحى أنبأنا صالح المرى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ فى وجنتيه حب الرمان ، فقال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه » . ولأحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال « خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر ، قال وكأنما تفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب ، قال فقال لهم : مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم . قال فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غبطت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده » ، ورواه ابن ماجه . ولأحمد عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة عاقّ ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر » . وله عن محمد بن عبيد المكى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قيل لابن عباس رضى الله عنهما إن رجلا قدم علينا يكذّب بالقدر ، فقال : دلونى عليه ، وهو يومئذ قد عمى ، قالوا وماتصنع به ياأبا عباس ؟ قال والذى نفسى بيده لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبته فى يدى لأدقنها فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « كأنى بنساء بنى فهر يطفن بالخزرج تصطفق إلياتهن مشركات » هذا أول شرك هذه الأمة ، والذى نفسى بيده لينتهين بهم سوء

رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيراً كما أخرجوه من أن يكون قدر شراً » . وروى البزار عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : مانزلت هذه الآيات « إن المجرمين فى ضلال وسُعر . يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، إلا فى أهل القدر . ولابن أبى حاتم عن ابن زرارة عن أبيه عن النبى ﷺ أنه تلا هذه الآية (ذوقوا مس سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، قال « نزلت فى أناس من أمتى يكونون فى آخر الزمان يكذبون بقدر الله » . وروى الحسن بن عرفة عن عطاء بن أبى رباح قال : أتيت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه ، فقلت له : تُكلم فى القدر . فقال : أو قد فعلوها ؟ قلت نعم . قال : فو الله مانزلت هذه الآية إلا فيهم « ذوقوا مس سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر » أولئك شرار هذه الأمة ، فلا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم . إن رأيت أحداً منهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين .

ذكر أقوال الصحابة فى هذا الباب

تقدم قول ابن عمر ليحيى بن يعمر ، وقول أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت لابن الديلمى ، ووصية عبادة بن الصامت لابنه ، وروى عبد الله بن أحمد عن ابن عباس قال : أول ماخلق الله القلم ثم قال اكتب ، قال ماأكتب ؟ قال : اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة . وله عنه فكتب فيما كتب « تبتْ يدا أبى لهب » . وله عنه قال : أخرج الله ذرية آدم من ظهره مثل الذر فسماهم ، قال هذا فلان وهذا فلان . ثم قبض قبضتين فقال للتى فى يمينه : أدخلوا الجنة ، وقال للتى فى يده الأخرى : ادخلوا النار ولا أبالى . وله عنه قال : إن الرجل ليمشى فى الأسواق وإن اسمه لفى الموتى ، وله عنه « يمحو الله مايشاء ويثبت » قال : إلا الشقاوة والسعادة والحياة والموت ، وله عنه إن أول ماخلق الله القلم فأمره أن يكتب مايريده أن يخلق فالكتاب عنده ، ثم قرأ « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم » ، وله عن عكرمة قال : سئل ابن عباس كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلا فلم يدر مابعد الماء وكان الهدهد مهندساً قال فأراد أن يسأله عن الماء ففقده . قلت وكيف يكون مهندساً والصبى ينصب له الحبالة فيصيده . قال إذا جاء القدر حال دون البصر . وله عن أبى الزبير أنه كان يطوف مع طاوس بالبيت فمر بمعبد الجهنى . فقال قائل لطاوس : هذا معبد الجهنى الذى يقول فى القدر ، فعدل إليه طاوس حتى وقف عليه ، فقال : أنت المفترى على الله القائل .

مالا تعلم . قال معبد : يكذب على . قال أبو الزبير فعدلت مع طاوس حتى دخلنا على ابن عباس ، فقال له طاوس : ياأبا عباس الذين يقولون فى القدر . فقال ابن عباس أرونى بعضهم ، قال قلنا صانع ماذا ؟ قال إذن أجعل يدى فى رأسه ثم أدق عنقه ، وله عنه قال : ليس قوم أبغض إلى من القدرية إنهم لا يعلمون قدرة الله ، إن الله تعالى يقول « لا يُسئل عما يفعل وهم يُسألون » . وله عن طاوس قال : كنت مع ابن عباس فى حلقة قال فذكروا أهل القدر ، قال فقال : أفى الحلقة منهم أحد فآخذ برأسه ثم أقرأ عليه « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ فى الأرض مرتين ولتعلنّ علواً كبيراً » وأقرأ عليه آية كذا وآية كذا . وله عنه وذكر عنده القدرية قال فقال : لو رأيت أحداً منهم لعضضت أنفه . وله عنه قال : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن وكذب بالقدر فهو نقض للتوحيد . وفى لفظ : فمن وحد وكذب بالقدر فقد نقض التوحيد . وله عن أبى يحى مولى ابن عفراء قال : أتيت ابن عباس ومعى رجلان من الذين يذكرون القدر أو ينكرونه ، فقلت : ياابن عباس ماتقول فى القدر لو أن هؤلاء أتوك يسألونك — وقال مرة — يسألونك عن القدر إن زنا وإن سرق أو شرب ؟ فحسر قميصه حتى أخرج منكبيه وقال : ياأبا يحيى لعلك من الذين ينكرون القدر ويكذبون به ، والله لو أعلم أنك منهم أو هذين معك لجاهدتهم ، إن زنا فبقدر ، وإن سرق فبقدر ، وإن شرب فبقدر ، وروى إسحاق بن الملائى عنه فى قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » قال : إن الله تعالى أخذ على آدم ميثاقه أنه ربه ، وكتب رزقه ، وأجله ، ومصيباته ، ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم ، وكتب رزقهم وأجلهم ومصيباتهم . وفى تفسير اسباط عن السدى عن أصحابه أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس . وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم فى قوله « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الآية قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتى ، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال : ادخلوا النار ولا أبالى . فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، ثم أخذ منهم الميثاق فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقيَّة ، فقال هو والملائكة « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل »

الآية فلذلك ليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف ان الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » ، فذلك قوله عز وجل « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » ، وذلك حين يقول تعالى « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً » وذلك حين يقول « قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين » ، قال يعنى يوم الميثاق . وعن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما « إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون » ، قال : تستنسخ الحفظة من أم الكتاب مايعمل بنو آدم ، فإنما يعمل الإنسان على مااستنسخ الملك من ام الكتاب . وعنه رضى الله عنه قال : كتب فى الذكر عنده كل شيء هو كائن ، ثم بعث الحفظة على آدم وذريته وكل ملائكته ينسخون من الذكر مايعمل العباد ، ثم قرأ « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون » ، وفى تفسير الضحاك عنه رضى الله عنه فى هذه الآية قال : هى أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات تنزل من السماء كل غداة وعشية مايصيب الإنسان فى ذلك اليوم أو الليلة الذى يقتل والذى يغرق والذى يقع من فوق بيت والذى يتردى من جبل والذى يقع والذى يحرق بالنار فيحفظون عليه ذلك كله ، وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء فيجدونه كما فى السماء مكتوباً فى الذكر الحكيم ، وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : خلق الله الخلق قبضتين فقال لمن فى يمينه : ادخلوا الجنة بسلام ، وقال لمن فى يده الأخرى : ادخلوا النار ولاأبالى . ولعبد الله بن الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يزال أمر هذه الأمة قواماً ، أو مقارباً ، مالم يتكلموا فى القدر ، وله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال حين طعن : « وكان أمر الله قدراً مقدورا » ، وله عن عبد الله بن الحارث الهاشمى قال : خطب عمر رضى الله عنه بالجابية وفى لفظ بالشام والجاثليق ماثل فتشهد فقال : « من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له » فقال الجاثليق بقميصه هكذا يعنى نفضه ، وقال : إن الله لا يضل أحداً . فقال : مايقول ؟ فقالوا ماقال . فقال كذبت عدو الله ، الله خلقك ، والله أضلك ثم يميتك فيدخلك النار إن شاء الله ، والله لولا عقد لك لضربت عنقك ثم قال : إن الله خلق آدم فنثر ذريته فى يديه ثم كتب أهل الجنة وماهم عاملون ، وكتب أهل النار وماهم عاملون ، ثم قال : هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه . قال فتصدع الناس ومايتنازع فى القدر . وقال على رضى الله عنه : مامن آدمى إلا ومعه ملك يقيه مالم يقدر له ، فإذا جاء القدر خلاه وإياه . وقال على رضى الله عنه قال وذكر عنده القدر يوماً فأدخل إصبعيه السبابة والوسطى فى فيه فرقم بهما باطن يديه

فقال : اشهد ان هاتين الرقمتين كانتا فى أم الكتاب ، وله عن اسير بن جابر قال : طلبت علياً فى منزله فلم أجده ، فنظرت فإذا هو فى ناحية المسجد ، قال فقلت له — كأنه خوفه — قال فقال : أيه ليس احد إلا ومعه ملك يدفع عنه مالم ينزل القدر . فإذا نزل القدر لم يغن شيئاً . وله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما — وقال له رجل إنا نسافر فنلقى قوما يقولون لا قدر — قال إذا لقيت اولئك فأخبرهم ان ابن عمر منهم برىء وهم منه برآء ثلاث مرات . ولعبد الرزاق عن يحيى بن يعمر قال قلت لابن عمر : إن اناسا عندنا يقولون الخير والشر بقدر . وناس عندنا يقولون الخير بقدر والشر ليس بقدر . فقال ابن عمر : إذا رجعت إليهم فقل لهم : إن ابن عمر يقول إنه منكم برىء وانتم منه برآء . ولعبد الله بن احمد عنه رضى الله عنه قال : من زعم ان مع الله بارئا او قاضيا او رزاقا او يملك لنفسه ضراً او نفعا او موتا او حياة او نشوراً بعثه الله يوم القيامة فأخرسه واعمى بصره وجعل عمله هباء منثوراً وقطع به الأسباب وكبه على وجهه فى النار . وله عن نافع قال قيل لابن عمر : إن قوما يقولون لا قدر . فقال : اولئك القدريون . اولئك مجوس هذه الأمة .

وله عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : مضت الكتب وجفت الأقلام فشقى او سعيد . فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وله عن الحسن بن على رضى الله عنه قال : رفع الكتاب وجفت الأقلام وامور تقضى فى كتاب قد خلا . وفى رواية قضى القضاء وجف القلم وامور تكفى فى كتاب قد خلا . وله عنه رضى الله عنه قال : سيكون ناس يصدقون بقدر ويكذبون بقدر فيلعنهم ابو هريرة عند قوله هذا . وله عن عمار مولى بنى هاشم قال : سألت أبا هريرة عن القدر فقال : اكتفى بآخر سورة الفتح . وله عن أبى حجاج الأزدى عن سلمان رضى الله عنه قال لقيته بماء سبذان ، قال فقلت له : أخبرنى كيف الإيمان بالقدر ؟ قال : أن تعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وماأخطأك لم يكن ليصيبك ، ولا تقل لو كان كذا لكان كذا ولو نفعل كذا لكان كذا . وروى عبد الرازق عن معمر قال : قال عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى : وددت أنى وجدت من أخاصم إليه ربى . فقال أبو موسى : أنا . فقال عمرو بن العاص : أيثدر عبد الرازق عن معمر قال : قال عمرو بن العاص لأبى موسى الأشعرى : وددت على شيئاً يعذبنى عليه ؟ فقال أبو موسى نعم ، قال لم ؟ قال لأنه لا يظلمك . فقال عمرو : صدقت . وله عن ابن الديلمى سألت عبد الله بن عمرو عن « جف القلم » فقال : إن الله حين خلق الخلق ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه شىء منه اهتدى ، وكلام الصحابة فى هذا الباب يطول ذكره . وقد جمعت فيه التصانيف الكثيرة .

ذكر أقوال التابعين

قال عبيد بن عمير : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم ونجواكم وحلالكم ومجالسكم . وقال سعيد بن جبير (يحول بين المرء وقلبه) قال : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان . وقال رحمه الله تعالى فذكر قصة بخت نصر وملك ابنه فرأى كفاً فرجت بين لوحين ثم كتبت سطرين . فدعا الكهان والعلماء فلم يجد عندهم منه علماً ، فقالت له أمه : إنك لو أعدت لدنيال منزلته التى كانت له من أبيك — وكان قد جفاه — أخبرك . فدعاه فقال : إنى معيد لك منزلتك من أبى فأخبرنا ماهذان السطران ؟ قال أما ماذكرت أنك معيد لى منزلتى من أبيك فلا حاجة لى بذلك . وأما هذان السطران فإنك تقتل الليلة . فأخرج من فى القصر أجمعين وأمر بقفلة جلاد فقفلت بها الأبواب عليه ، وأدخل معه آمن أهل القرية فى نفسه ، معه سيف ، وقال له : من جاء من خلق الله فاقتله وإن قال أنا فلان . وبعث الله عليه البطن فجعل يمشى والآخر مستيقظ ، حتى إذا كان على شطر الليل رقد ورقد صاحبه ، ثم نبهه البطن فذهب يمشى والآخر راقدفرجع فاستيقظ فقال : أنا فلان ، وضربه بالسيف فقتله ، وقال ابن المسيب : ماقدَّر الله فهو قدر . وكان إياس بن معاوية يقول : أعلم الناس بالقدر ضعفاؤهم ، يقول : إن كل من لم يدخل فى خصومة القدر كان من قوله إذا تكلم : كان من قدر الله كذا وكذا . وقال معمر : إن ابن شبرمة كان يغضب إذا قيل له مَدَّ الله فى عمرك ، يقول : إن العمر لا يزاد فيه ولا ينقص ، وقال أبو حازم : قال الله تعالى « فألهمها فجورها وتقواها » ، قال : فالفاجرة ألهمها الله الفجور ، والتقية ألهمها الله التقوى ، وقال مجاهد : قول الله « إنى أعلم مالا تعلمون » قال علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وعن ابراهيم بن أبى عبلة قال : وقف رجاء بن حَيْوَة على مكحول وأنا معه فقال : يامكحول بلغنى أنك تكلمت فى شىء من القدر ، ووالله لو أعلم ذلك لكنت صاحبك من بين الناس ، فقال مكحول : لا والله أصلحك الله ، ماذاك من شأنى ولا من قولى أو نحو ذلك . وقال ابراهيم النخعى : إن آفة كل دين كان قبلكم — أو قال :— آفة كل دين القدر . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : لم يوكل فى القرآن إلى القدر ، وأخبرنا أنا إليه نصير . وكان طاوس بمكة يصلى ورجلان خلفه يتجادلان فى القدر ، فانصرف إليهما فقال : يرحمكما الله تجادلان فى حكم الله ؟ وقال ميمون : لا تسبوا أصحاب النبى ﷺ ، ولا تعلموا النجوم ، ولا تجادلوا أهل القدر . وقال طاوس أيضاً :

أدركت ناساً من أصحاب النبى ﷺ يقولون : كل شىء بقدر . وقال أبو حازم : لعن الله ديناً أكبر منه — يعنى التكذيب بالقدر — يقول هذا عندما يروى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال « لا يؤمن المرء حتى يؤمن بالقدر خيره وشره » . وعن عمرو بن محمد قال : كنت عند سالم بن عبد الله فجاءه رجل فقال : الزنا بقدر ؟ فقال : نعم . قال كتبه على ؟ قال نعم ، قال : ويعذبنى عليه ؟ قال فأخذ له الحصى . وقال الحسن : من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » ، قال : أعمال لابد لهم من أن يعملوها . وعن أبى صالح « ماأصابك من حسنَة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك » وأنا قدرتها عليك ، وقال حميد : قدم الحسن مكة ، فقال لى فقهاء مكة — الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد — لو كلمت الحسن فأخلانا يوماً — فكلمت الحسن فقلت : ياأبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوما . قال نعم ونعمت عين ، فواعدهم يوما فجاءوا واجتمعوا ، وتكلم الحسن ومارأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم ، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطىء فيها شيئاً إلا فى مسألة ، فقال له رجل : ياأبا سعيد من خلق الشيطان ؟ قال : سبحان الله ، سبحان الله ، وهل من خالق غير الله ؟ ثم قال : إن الله تعالى خلق الشيطان وخلق الشر وخلق الخير . فقال رجل منهم : قاتلهم الله يكذبون على الشيخ . وقال أيضا : قرأت على الحسن فى بيت أبى خليفة القرآن أجمع من أوله إلى آخره . وكان يفسره على الإثبات . وقال خالد الحذاء : قلت للحسن أرأيت آدم أللجنة خلق أم للأرض ! قال : للأرض . قال قلت : أرأيت لو أعتصم ، قال : لم يكن بد من أن يأتى على الخطيئة . وقال إياس بن معاوية : ماكلمت أحداً من أهل الأهواء بعقلى كله . إلا القدر ، فإنى قلت لهم : ماالظلم فيكم ؟ فقالوا : أن يأخذ الإنسان ماليس له . فقلت لهم : فإن الله على كل شىء قدير . ولعبد الرزاق عن معمر قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة « أما بعد فإن استعمالك سعد بن مسعود على عُمان كان من الخطايا التى قدَّر الله عليك وقدَّر أن تبتلى بها » . ولعبد الله بن أحمد عنه رضى الله عنه . قال : لو أراد الله أن لا يُعصى لم يخلق إبليس . ثم قرأ « ماأنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صالى الجحيم » . وله عنه رضى الله عنه أنه قال لغيلان : ألست تقرُّ بالعلم ؟ قال : بلى . قال : فما تريد مع أن الله يقول « فإنكم وماتعبدون ماأنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صالى الجحيم » وله عن أبى جعفر الخطمى قال : شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان

لشيء بلغه فى القدر ، فقال ويحك ياغيلان ماهذا الذى بلغنى عنك ؟ قال : يكذب على ياأمير المؤمنين ويقال على مالم أقل ، قال : ماتقول فى العلم ؟ قال : قد نفذ العلم . قال فأنت مخصوم . إذهب الآن فقل ماشئت . ويحك ياغيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت ، وإن جحدته كفرت . وإنك أن تقرّ به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر . قال ثم قال له : تقرأ يس ؟ فقال : نعم . فقال له اقرأ « يس والقرآن الحكيم » فقرأ « يس والقرآن الحكيم — إلى قوله — لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » قال : قف ، كيف ترى ؟ قال كأنى لم أقرأ هذه الآية ياأمير المؤمنين . قال : زد . قال « انا جعلنا فى اعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً » قال له عمر : قل سداً فأغشيناهم . قال ، قال له عمر قل « فأغشيناهم فهم لا يبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » قال : كيف ترى ؟ قال كأنى لم أقرأ هذه الآيات ، وإنى أعاهد الله أن لا أتكلم فى شيء مما كنت أتكلم فيه أبداً . قال : أذهب . فلما ولى قال : اللهم إن كان كاذباً فيما قال فأذقه حرّ السلاح . قال فلم يتكلم زمن عمر ، فلما كان زمن يزيد بن عبد الملك جاء رجل لا يهتم لهذا ولاينظر فيه ، قال فتكلم غيلان ، فلما ولى هشام أرسل إليه فقال : أليس قد عاهدت الله تعالى لعمر أن لا تتكلم فى شيء من هذا الأمر أبداً ؟ قال : أقلنى ، فلا والله لا أعود . قال : لا أقالنى الله إن أقلتك ، هل تقرأ فاتحة الكتاب ؟ قال نعم . قال : أقرأها . فقرأ « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين » قال : قف علام تستعينه ؟ أعلى أمر بيده لا تستطيعه إلا به ، أو على أمر فى يدك أو بيدك ؟ اذهبا فه فاقطعا يديه ورجليه ، واضربوا عنقه واصلبوه ، قال ابن عون : أنا رأيت غيلان مصلوباً على باب دمشق ، وعنه قال فى أصحاب القدر : فإن تابوا وإلا نفوا من دار المسلمين . وقال مالك عن عمه سهل قال : كنت مع عمر بن عبد العزيز فقال لى : ماترى فى هؤلاء القدرية ؟ قال قلت : أرى أن تستتيبهم فإن قبلوا وإلا عرضتهم على السيف . فقال عمر بن عبد العزيز : ذلك رأيى . قلت : أسألك فما رأيك أنت ؟ قال : هو رأيى . القائل لمالك فما رأيك ؟ هو إسحاق بن عيسى . وكان نافع مولى ابن عمر يقول لأمير كان على المدينة : أصلحك الله أضرب أعناقهم . يعنى القدرية . وقال ابن سيرين . إن لم يكن أهل القدر من الذين يخوضون فى آيات الله فلا أدرى من هم . وقال مجاهد : لا يكون مجوسية حتى يكون قدرية ، ثم تزندقوا ثم تمجسوا . وقال منصور بن عبد

الرحمن سألت الحسن عن قوله تعالى « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » فقال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، ومن رحم غير مختلف فيه ، فلقنته.« ولذلك خلقهم » قال : نعم ، خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره . وخلق هؤلاء لرحمته وهؤلاء لعذابه ، وقال أيضاً : قلت للحسن : قوله تعالى « ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » قال : قسمة الله ، ومن يشك فى هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففى كتاب الله تعالى قبل أن تبرأ النسمة . وقال محمد بن كعب القرظى : نزلت هذه الآية « يوم يسحبون فى النّار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، فى أهل القدر . وفى رواية عنه قال : نزلت تعييراً لأهل القدر . وعنه أن الفضل الرقاشى قعد إليه فذاكره شيئاً من القدر ، فقال له محمد بن كعب القرظى تشهّده فلما بلغ « من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » رفع محمد عصا معه فضرب بها رأسه وقال : قم . فلما قام فذهب قال : لا يرجع هذا عن رأيه أبدا . وقال مطر رحمه الله : لقينى عمرو بن عبيد فقال : والله إنى وإياك لعلى أمر واحد . قال وكذب والله . إنما عنى على الأرض . وقال : والله ماأصدقه فى شىء . وعن ثابت البنانى قال : رأيت عمرو بن عبيد وهو يحك المصحف ، فقلت : ماتصنع ؟ فقال : أثبت مكانه أخير منه . وعن حماد بن زيد قال : كنت مع أيوب ويونس وابن عون وغيرهم ، فمر بهم عمرو بن عبيد فسلم عليهم ووقف وقفته فما ردوا عليه السلام ، ثم جاز فما ذكروه ، وعن الحسن بن شقيق قال قلت : لعبد الله يعنى ابن المبارك سمعتَ من عمرو بن عبيد ؟ قال هكذا بيده ، أى كثيراً . قلت : فلم لا تسميه وأنت تسمى غيره من القدرية ؟ قال : لأن هذا كان رأساً . وعن معاذ بن مكرم قال : رآنى ابن عون مع عمرو بن عبيد فى السوق فأعرض عنى ، قال فاعتذرت إليه ، قال : أما إنى قد رأيتك فما زادنى . وعن أبى بحر البكراوى قال : قال رجل لعمرو — يعنى ابن عبيد — وقرأ عنده هذه الآية « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » فقال له : أخبرنى عن « تبت يد أبى لهب » كانت فى اللوح المحفوظ ؟ قال ليست هكذا كانت . قالوا : وكيف كانت ؟ قال : كانت تبت يدا من عمل بمثل ماعمل أبو لهب ، فقال له الرجل : وهكذا ينبغى لنا أن نقرأ إذا قمنا إلى الصلاة ؟ فغضب عمرو . فتركه حتى سكن ثم قال له : ياأبا عثمان أخبرنى عن تبت يد أبى لهب كانت فى اللوح المحفوظ ؟ فقال : ليس هكذا كانت . قال فكيف كانت ؟ قال تبت يدا من عمل بمثل عمل أبى لهب ، قال فرددت عليه ، قال عمرو : إن علم الله ليس بسلطان ، إن علم

الله لايضر ولا ينفع . قلت إن كان قال هذا ومات عليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وإن كان ذلك مكذوباً عليه فلعنة الله على الكاذبين ، وعن سلام بن أبى مطيع قال : كنت أمشي مع أيوب فى جنازة وبين أيدينا ثلاثة رهط قد كانوا مع عمرو بن عبيد فى الاعتزال ثم تركوا رأيه ذلك وفارقوه ، قال فقال لى أيوب من غير أن أسأله : لا ترجع قلوبهم إلى ماكانت عليه . وعن أبى رجاء قال : رأيت رجلين يتكلمان فى المربد فى القدر ، فقال فضل الرقاشي لصاحبه : لاتقر له بالعلم ، إن أقررت له بالعلم فأمكنت من نفسك ، يسحبك عرض المربد . وعن حوثرة بن أشرس قال سمعت سلاما أبا المنذر غير مرة وهو يقول : سلوهم عن العلم ، هل علم أو لم يعلم ؟ فإن قالوا قد علم فليس فى أيديهم شيء ، وإن قالوا لم يعلم فقد حلت دماؤهم . قال حوثرة : وحدثنا حماد بن سلمة عن أبى جعفر الخطمي قال قيل لعمر بن عبد العزيز : إن غيلان يقول القدر كذا وكذا ، قال فمرَّ به فقال : أخبرني عن العلم ، قال : سبحان الله فقد علم الله كل نفس ماهى عاملة وإلى ماهي صائرة . فقال عمر بن عبد العزيز : والذى نفسي بيده لو قلت غير هذا لضربت عنقك ، اذهب الآن فجاهد جَهدك . وعن معاذ بن معاذ قال : صليت خلف رجل من بنى سعد ، ثم بلغني أنه قدرى ، فأعدت الصلاة بعد أربعين سنة أو ثلاثين سنة . وقال ابراهيم بن طمهان : الجهمية كفار ، والقدرية كفار . وقال عمرو بن دينار قال لنا طاوس : اخزوا معبدا الجهني فإنه قدرى . وقال الحسن بن محمد بن على : لا تجالسوا أهل القدر . وقال عكرمة ابن عمار : سمعت القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله يلعنان القدرية الذين يكذِّبون بقدر الله حتى يؤمنوا بخيره وشره . وقال مرحوم بن عبد العزيز العطار : سمعت أبى وعمي يقولان سمعنا الحسن — وهو ينهى عن مجالسة معبد الجهني — يقول : لا تجالسوا معبداً فإنه ضال مضل . قال مرحوم قال أبى : ولا أعلم أحداً يؤمئذ يتكلم فى القدر غير معبد ورجل من الأساورة يقال له سسويه ، وقال عكرمة : سألت يحيى بن أبى كثير عن القدرية فقال : هم الذين يقولون إن الله لم يقدر الشر وقال مسلم بن يسار : إن معبداً يقول بقول النصارى . وقال عمارة بن زاذان : بلغني أن القدرية يحشرون يوم القيامة مع المشركين ، فيقولون : والله ماكنا مشركين ، فيقال لهم : إنكم أشركتم من حيث لا تعلمون ، قال وبلغني أنه يقال لهم يوم القيامة أنتم خصماء الله عز وجل . وقال عبد الله بن أحمد سمعت أبى يقول : لا يصلى خلف القدرية والمعتزلة والجهمية . وسألت أبى مرة أخرى عن الصلاة خلف القدرى ، فقال : إن كان يخاصم فيه أو يدعو إليه فلا يصلى

خلقه . سمعت أبى يسأله على بن الجهم عمن قال بالقدر يكون كافراً ؟ قال : إذا جحد العلم ، إذا قال : إن الله لم يكن عالماً حتى خلق علماً فعلم فجحد علم الله فهو كافر اهـ من كتاب السنة .

وكلام الصحابة والتابعين وسائر الأئمة من القرون الثلاثة المفضلة يطول ذكره ، ومحله كتب النقل الجامعة ، وفيما ذكرنا كفاية ، ولله الحمد والمنة .

اللهم يا ربنا ومليكنا وإلهنا قد علمت من سعد بطاعتك والجنة ، ومن شقى بمعصيتك والنار ، وكتبت ذلك وسطرته وقدرته وقضيته وشملت الجميع قدرتك ونفذت فيه مشيئتك ، ولك الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، ولايدرى عبدك فى أى القسمين ولا فى أى القبضتين هو وأنت تعلم . اللهم إياك نعبد إيماناً بكتبك وتصديقاً لرسلك وانقياداً لشرعك وقياماً بأمرك ودينك ، وإياك نستعين إيماناً بربوبيتك واستسلاماً لقضائك وقدرك وافتقاراً إليك وتوحيداً لك فى إلهيتك وربوبيتك وأسمائك وصفاتك وخلقك وتكوينك . ولا مشيئة إلا أن تشاء ، ولا قدرة لنا إلا على ماأقدرتنا عليه ، ولا معصوم إلا من عصمت ، ولا حول ولا قوة إلا بك . اللهم اجعلنا ممن أعطى واتقى وصدق بالحسنى فيسرته لليسرى ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . غير المغضوب عليهم ممن علم الحق وكتمه وتركه وأباه واشترى بآياتك ثمناً قليلا ، ولا الضالين الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . اللهم يامن يحول بين المرء وقلبه حل بيننا وبين معصيتك والكفر ، يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك حتى نلقاك به ، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

(لا نوء لا عدوى ولا طير ولا   عمـــا قضى الله تعـــالى حولا)
(لا غول لا هامــة لا ولا صفـــر   كذا بذا خبر سيــــد الـــبشر)

هذان البيتان من تتمة بحث القدر فإن نفى هذه الخصال الست ومافى معناها إيمان بالقدر وتوكل على خالق الخير والشر . الذى بيده النفع والضر . واعتقاد صحة شىء منها شرك مناف للتوحيد أو لكماله ، مناقض للتوكل على الله عز وجل عياذا بالله منه .

الكلام على النوء

فأما النوء فهو من الاعتقاد فى النجوم الذى سبق بسط القول فى بيان بطلانه فانهم يعتقدون أن لمطالع الكواكب ومغاربها وسيرها وانتقالها واقترانها وافتراقها تأثيرا فى هبوب الرياح وسكونها ، وفى مجىء المطر وتأخره ، وفى رخص الاسعار وغلائها وغير ذلك . فإذا وقع شىء من الحوادث نسبوه إلى النجوم فقالوا : هذا بنوء عطارد أو المشترى أو المريخ أو كذا أو كذا . وردَّ الله تعالى ذلك عليهم وأكذبهم بما أنزله على رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفا فترى الوَدْق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) ، وقال تعالى « الله الذى خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزل من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » ، وقال تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم — إلى قوله تعالى — وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . وقال الإمام مالك بن انس فى موطئه رحمة الله تعالى : باب الاستمطار بالنجوم عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : « صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل ، فلما أنصرف أقبل على الناس فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » . ورواه الشيخان من طريقه بلفظه ، وعليه ترجم البخارى رحمه الله تعالى : باب قول الله تعالى « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . وقال مسلم ابن الحجاج رحمه الله تعالى : حدثنا حرملة بن يحيى وعمرو بن سواد العامرى ومحمد بن سلمة المرادى . قال المرادى : حدثنا عبد الله بن وهب عن يونس ، وقال الآخران أخبرنا ابن وهب ، قال أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال حدثنى عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة أن أبا هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ألم تروا إلى ماقال ربكم ؟ قال ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين يقولون الكواكب

وبالكواكب » ، وحدثني محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث (ح) . وحدثني عمرو بن سواد أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن أبا يونس مولى أبي هريرة حدثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « ماأنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الله الغيث فيقولون : الكوكب كذا وكذا » . وفى حديث المرادى « بكوكب كذا وكذا » . وحدثني عباس بن عبد العظيم العنبرى حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة ــ وهو ابن عمار ــ حدثنا أبو زميل قال حدثنا ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ « أصبح من الناس شاكر ومنه كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال فنزلت هذه الآية « فلا أقسم بمواقع النجوم ــ حتى بلغ ــ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . وقال الترمذى رحمه الله تعالى حدثنا أحمد بن منيع حدثنا الحسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » قال : شكركم تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا ، هذا حديث حسن غريب . ورواه الإمام احمد وابن أبي حاتم ، وقال ابن جرير : حدثني يونس أخبرنا سفيان عن محمد بن اسحاق عن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمى عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسيهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا » قال محمد هو ابن ابراهيم فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب فقال : ونحن قد سمعنا من أبي هريرة . وقال رحمه الله تعالى : حدثني يونس أخبرنا سفيان عن اسماعيل ابن أمية ــ فيما أحسبه أو غيره ــ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا ومطروا يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد ، فقال ﷺ « كذبت بل هو رزق الله عز وجل » ، وقال رحمه الله تعالى : حدثني أبو صالح الصرارى حدثنا ابو جابر محمد بن عبد الملك الأودى حدثنا جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : « مامطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين . ثم قال « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » يقول قائل مطرنا بنجم كذا وكذا » وعن الإمام مالك بن أنس رحمه الله أنه بلغه أن أبا هريرة رضى الله عنه كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، ومايمسك فلا مرسل له من بعده » وروى ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مامطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون مطرنا بنوء

كذا وكذا ، وقرأ ابن عباس « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

ماورد فى العدوى

واما العدوى. فكانوا يعتقدون سريان المرض من جسد إلى جسد بطبيعته ، فنفى الله تعالى ذلك ورسوله ﷺ قال الله تعالى « قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، وقال تعالى « ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ، وقال تعالى « قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » ، وقال تعالى « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيده » ، الآيات ، وقال تعالى « قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه ملاقيكم » ، وروى البخارى عن الزهرى قال : أخبرنى سنان بن أبى سنان الدؤلى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال « لا عدوى » فقام أعرابى فقال أرأيت الإبل تكون فى الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب ، قال النبى ﷺ « فمن أعدى الأول » ورواه مسلم من طريق آخر بنحوه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنى محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لا عدوى ولا طيرة » ، ويعجبنى الفأل . قالوا ومأالفأل ؟ قال كلمة طيبة » ورواه مسلم . ولهما من طرق عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » ، هذا لفظ البخارى ، والأحاديث فى نفى العدوى كثيرة فى الصحيحين والسنن وغيرهما ، ولايعارض ذلك حديث « لا يورد ممرض على مصح » وحديث « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وكلاهما فى الصحيح متصلا بحديث « لا عدوى ولا طيرة » ، فإن البخارى رحمه الله تعالى قال : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال « لا عدوى » . قال أبو سلمة بن عبد الرحمن سمعت أبا هريرة عن النبى ﷺ قال « لا توردوا الممرض على المصح » وقال رحمه الله تعالى قال عفان حدثنا سليم بن حيان حدثنا سعيد بن ميناء قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » .

والجمع بين نفى العدوى وبين النهى عن إيراد الممرض على المصح والأمر بالفرار من

المجذوم ومافى معناها من ثلاثة أوجه كلها نفى العدوى فيها على إطلاقه . الوجه الأول : أنه ﷺ أمر بالفرار من المجذوم لئلا يتفق للمخالط شىء من ذلك ابتداء لا بالعدوى المنفية فيظن أنه بسبب المخالطة فيعتقد ثبوت العدوى التى نفاها رسول الله ﷺ فيقع فى الحرج ، فأمر ﷺ بتجنب ذلك شفقة منه على أمته ورحمة بهم وحسما للمادة وسداً للذريعة لا إثباتاً للعدوى كما يظن بعض الجهلة من الأطباء ، والدليل على ذلك قوله ﷺ للأعرابى الذى استشهد لصحة العدوى يكون البعير الأجرب يدخل فى الإبل الصحاح فتجرب ، فقال له ﷺ « فمن اعدى الأول » يعنى أن الله تعالى ابتدأ المرض فى الباقى كما ابتدأه فى الأول لا أن ذلك من سريان المرض بطبيعته من جسد إلى آخر . الوجه الثانى : أن نهيه ﷺ عن المخالطة لأنها من الأسباب التى أجرى الله تعالى العادة بأنها تفضى إلى مسبباتها لا استقلالا بطبعها ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الأسباب ومسبباتها فإن شاء تعالى أبقى السبب وأثر فى مسببه بقضاء الله تعالى وقدره ، وإن شاء سلب الأسباب قواها فلا تؤثر شيئاً ، ومن قوى إيمانه وكمل توكله وثقته بالله ، وشاهد مصير الأمور كلها إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب كما أن مصدرها من عنده عز وجل فنفسه أبية وهمته علية وقلبه ممتلىء بنور التوحيد فهو واثق بخالق السبب ليس لقلبه إلى الأسباب أدنى التفات سواء عليه فعلها أو لم يفعلها ، والدليل على ذلك على ماروى أبو داود رحمه الله تعالى حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا يونس بن محمد حدثنا مفضل بن فضالة عن حبيب بن الشهيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها معه فى القصعة وقال « كل ثقة بالله وتوكل عليه » ففى أمره ﷺ بمجانبة المجذوم إثبات للأسباب التى خلقها الله عز وجل وفى أكله ﷺ معه تعليم لنا بأن الله هو مالكها فلا تؤثر إلا بإذنه ولا يصيب العبد إلا ماكتب الله له . الوجه الثالث أن النفوس تستقذر ذلك وتنقبض عند رؤيته وتشمئز من مخالطته وتكرهه جداً لاسيما مع ملامسته وشم رائحته فيحصل بذلك تأثير بإذن الله فى سقمها قضاء من الله وقدرا لا بانتقال الداء بطبيعته كما يعتقده أهل الجاهلية ، والدليل على هذا مارواه أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا مخلد بن خالد وعباس العنبرى قالا حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن عبد الله بن بحير قال : أخبرنى من سمع فروة بن مسيك قال : قلت يارسول الله أرض عندنا يقال لها أرض أبين هى أرض ريفنا وميرتنا وإنها وبئة ـــ أو قال وباؤها شديد ـــ فقال النبى ﷺ « دعها عنك فإن من القرف التلف » والقرف بالتحريك هو مقاربة الوباء ومداناة المريض ، والتلف بوزنه هو الهلاك

يعنى أنه سبب فيه قد يؤثر بإذن الله تعالى لا سيما مع كراهة النفس له واشمئزازها منه « والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » .

فإذا تبين لك هذا الجمع بين نفى العدوى وبين الأمر بمجانبة الداء ، تبين لك الجمع بينهما وبين النهى عن إيراد الممرض على المصح ، فإنه إذا كان ﷺ قد أمر المصح بمجانبة الداء فلأن ينهى الممرض عن إيراده على المصح من باب أولى ، فإن العلل التى قدمنا أنها من سبب النهى عن القدوم على الوباء والأمر بمجانبته موجودة فى إيراد الممرض على المصح بزيادة كونها ليست باختيار المصح كقدومه هو بل مع كراهته لها وانقباضه من ذلك الممرض وربما أدى ذلك إلى بغضه إياه وغير ذلك . والمقصود أن نفى العدوى مطلق على عمومه ، وفيه إفراد الله سبحانه وتعالى بالتصرف فى خلقه ، وأنه مالك الخير والشر وبيده النفع والضر ، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، ولا مغالب له فى شىء من خلقه وأمره ، وفى ذلك تقوية لقلوب المؤمنين ، وإمداد لهم بقوة التوكل وصحة اليقين ، وحجة لهم على المشركين وسائر المعاندين ، وليس فى الأمر بمجانبة البلاء ولا فى النهى عن إيراده على المعافى منه منافاة ولا مناقضة ، بل ذلك مع الثقة بالله والتوكل عليه من فعل الأسباب النافعة وتوقى الأسباب المؤذية ودفع القدر بالقدر والإلتجاء من الله إليه ، وليس فى فعل الأسباب ماينافى التوكل مع اعتماد القلب على خالق السبب ، وليس التوكل بترك الأسباب ، بل التوكل من الأسباب ، وهو أعظمها وأنفعها وأنجحها وأرجحها ، كما أن من اضطربت نفسه ووجل قلبه فرقاً وخوفاً وارتياباً وعدم يقين بالقدر لا يكون متوكلا على الله بمداناته المرضى والمبتلين وتركه فعل الأسباب ، فكما لا يكون المرتاب متوكلا بمجرد تركه الأسباب ، كذلك لا يكون الموحد تاركا التوكل أو ناقصه بمجرد فعل الاسباب النافعة وتوقى المضرة وحرصه على ماينفعه ، فإنما الشأن فيما وقر فى القلوب وسكنت إليه النفوس ، والتوفيق بيد الله ، والمعصوم من عصمه الله تعالى ، ومن هذا الباب نهيه ﷺ عن القدوم على البلاد التى بها الطاعون وعن الخروج منها فراراً منه ، فإن فى القدوم عليه تعرضا للبلاء ، وإلقاء بالأيدى إلى التهلكة وتسبباً للأمور التى أجرى الله تعالى العادة بمضرتها . وفى الفرار منه تسخط لقضاء الله عز وجل وارتياب فى قدره وسوء ظن بالله عز وجل ، فأين المهرب من الله وإلى أين المفر ، لا ملجأ من الله إلا إليه ، كما روى مالك فى موطئه عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه خرج إلى الشام حتى

إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس فقال عمر بن الخطاب ادع إلى المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء . فقال عمر : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى الأنصار ، فدعوهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم . فقال : ارتفعوا عنى ، ثم قال : ادع لى من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوهم فلم يختلف عليه منهم رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر فى الناس : إنى مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها ياأبا عبيدة نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان غائباً فى بعض حاجته فقال : إن عندى من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه . وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » قال فحمد الله عمر ثم انصرف ، وأخرجه الشيخان من طريقه بلفظه ، وقوله ﷺ « فلا تخرجوا فراراً منه » تقييد للنهى بخروج لقصد الفرار ، فلا يدخل فى ذلك من خرج لحاجته اللازمة ، كما قيد ﷺ الشهادة به للماكث ببلده بما إذا كان صابراً محتسباً صحيح اليقين ثابت العزيمة قوى التوكل مستسلماً لقضاء الله عز وجل ، كما قال البخارى رحمه الله تعالى : باب أجر الصابر فى الطاعون . حدثنا إسحاق أخبرنا حبان حدثنا داود بن أبى الفرات حدثنا عبد الله ابن بريدة عن يحيى بن يعمر عن عائشة زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها أنها أخبرتنا أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها نبى الله ﷺ أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابراً يعلم أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد ، فخرج بهذه الأوصاف من مكث فى أرضه مع نقصان توكله وضعف يقينه فليس له هذه الفضيلة ، ومع هذا فلا يحل له الفرار منه لعموم النهى وله أجره على امتثال الشرع بحسب نيته وقوة إيمانه ، وإن خرج فراراً منه فهى معصية أضافها إلى ارتيابه وضعف يقينه والعياذ بالله وعلى هذا يحمل حديث أنس عن البخارى أيضاً قال :

قال رسول الله ﷺ « الطاعون شهادة لكل مسلم » فإن مفهوم الحديث الأول أن من لم يتصف بالصفات المذكورة لا يكون شهيداً وذلك لضعف يقينه ، وقد يقال هو شهيد فى الصورة وليس مثل المتصف بتلك الصفات ، كما أن شهداء المعركة الذين يقتلون فى معركة الكفار ليسوا سواء ، بل يتفاوتون بتفاوت نياتهم ومافى قلوبهم ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة والله تبارك وتعالى أعلم .

الكلام على الطيرة والتطير والغول

وأما الطيرة فهى ترك الإنسان حاجته ، واعتقاده عدم نجاحها ، تشاؤماً بسماع بعض الكلمات القبيحة كيا هالك أو يا ممحوق ونحوها . وكذا التشاؤم ببعض الطيور كالبومة وما شاكلها إذا صاحت ، قالوا إنها ناعبة أو مخبرة بشر ، وكذا التشاؤم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء ، وكثير من الناس إذا لقيه وهو ذاهب لحاجة صده ذلك عنها ورجع معتقداً عدم نجاحها ، وكثير من أهل البيع لا يبيع ممن هذه صفته إذا جاءه أول النهار ، حتى يبيع من غيره تشاؤماً به وكراهة له . وكثير منهم يعتقد أنه لاينال فى ذلك اليوم خيراً قط ، وكثير من الناس يتشاءم بما يعرض له نفسه فى حال خروجه كما إذا عثر أو شيك يرى أنه لا يرى خيراً ، ومن ذلك التشاؤم ببعض الأيام أو ببعض الساعات كالحادى والعشرين من الشهر وآخر أربعاء فيه ونحو ذلك فلا يسافر فيها كثير من الناس ولا يعقد فيها نكاحاً ولا يعمل فيها عملا مهماً ابتداء ، يظن أو يعتقد أن تلك الساعة نحس ، وكذا التشاؤم ببعض الجهات فى بعض الساعات فلا يستقبلها فى سفر ولا أمر حتى تنقضى تلك الساعة أو الساعات . وهى من أكاذيب المنجمين الملاعين ، يزعمون أن هناك فلكاً دواراً يكون كل يوم أو ليلة فى جهة من الجهات فمن استقبل تلك الجهة فى الوقت الذى يكون فيها هذا الفلك لاينال خيراً ولا يأمن شراً ، وهم فى ذلك كاذبون مفترون قبحهم الله ولعنهم ، قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل . ومن ذلك التشاؤم بوقوع بعض الطيور على البيوت يرون أنها معلمة بشر . وكذا صوت الثعلب عندهم ، ومن ذلك الاستقسام بتنفير الطير والظباء فإن تيامنت ذهبوا لحاجتهم وإن تياسرت تركوها . وهذا من الاستقسام بالأزلام الذى أمر الله تعالى باجتنابه وأخبر أنه رجس من عمل الشيطان ، وهذا وما شاكله كثير منه كان فى الجاهلية قبل النبوة وقد أبطله الإسلام فأعاده الشيطان فى هذا الزمان أكثر مما كان عليه فى الجاهلية بأضعاف مضاعفة ، ووسع دائرة ذلك وساعده عليه

ياطين الإنس من الكهنة والمنجمين وأضرابهم وأتباعهم ، أرداهم الله وألحقهم به آمين .

قال الله تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون) وقال تعالى (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ، قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، قالوا اطَّيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) وقال تعالى فى قصة الثلاثة رسل عيسى (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيرنا بكم) قال مجاهد فى قوله تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه) قالوا : العافية والرخاء نحن أحق بها (وإن تصبهم سيئة) قال بلاء وعقوبة (يطيروا بموسى) قال : يتشاءموا به . وأخرج بن جرير عن ابن عباس (ألا إنما طائرهم عند الله) قال الأمر من قبل الله . وقال رضى الله عنه فى قوله (طائركم عند الله) قال : الشؤم أتاكم من عند الله لكفركم ، وتقدم ذكر الطيرة ونفيها فى الأحاديث السابقة . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنى عبد الله بن محمد حدثنا عثمان ابن عمر حدثنا يونس عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « لا عدوى ولا طيرة » والشؤم فى ثلاث : فى المرأة والدار والدابة، والشؤم ضد اليمن ، وهو عدم البركة ، والمراد به الأمر المحسوس المشاهد كالمرأة العاقر التى لاتلد أو اللسنة المؤذية أو المبذرة بمال زوجها سفاهة ونحو ذلك . وكذا الدار الجدبة أو الضيقة أو الوبيئة الوخيمة المشرب أو السيئة الجيران وما فى معنى ذلك ، وكذا الدابة التى لاتلد ولا نسل لها أو الكثيرة العيوب الشينة الطبع وما فى معنى ذلك ، فهذا كله شىء ضرورى مشاهد معلوم ليس هو من باب الطيرة المنفية فإن ذلك أمر آخرٌ عند من يعتقده ليس من هذا لأنهمْ يعتقدون أنها نحس على صاحبها لذاتها لا لعدم مصلحتها وانتفائها فيعتقدون أنه إن كان غنياً افتقر ليس بتبذيرها بل لنحاستها عليه ، وإنه إن يأخذها يموت بمجرد دخولها عليه لا بسبب محسوس بل عندهم أن لها نجماً لا يوافق نجمه بل ينطحه ويكسره ، وذلك من وحى الشيطان يوحيه إلى أوليائه من المشركين ، قال الله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقال تعالى (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون) حتى إن رجلا فى زماننا هذا كان يشعوذ على الناس بذلك ويفرق به بين المرء وزوجه . فتنبه له بعض العامة ممن يحضر مجالس الذكر ويسمع ذم المنجمين وتكذيبهم بالآيات والأحاديث فقال له : إنى أريد أن أنكح امرأة،

ما ترى فيها هل هى سعد لى أو نحس على ؟ فعرض ذلك على قواعده الشيطانية ثم قال له: دعها فإنك إن أخذتها لا تبلى معها ثوباً ، يعنى تموت سريعاً لا تطول معها صحبته ، وكانت تلك المرأة التى سأله عنها وسماها له هى زوجته وقد طالت صحبته معها وله منها نحو خمسة من الأولاد ، فدعاهم كلهم بأسمائهم حتى حضروا فقال له : هؤلاء أولادى منها . ولهذا نظائر كثيرة من خرافاتهم . والمقصود أن الشؤم المثبت فى هذا الحديث أمر محسوس ضرورى مشاهد ليس من باب الطيرة المنفية التى يعتقدها أهل الجاهلية ومن وافقهم .

وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عبيدالله بن عتبة أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا طيرة . وخيرها الفأل . قالوا وما الفأل ؟ قال : الكلمة الصالحة . يسمعها أحدكم » . قال حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا عدوى ولا طيرة . ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة »، قلت ومن ذلك قوله ﷺ يوم صلح الحديبية حين جاء سهيل بن عمرو قال « سهل الله أمركم » الحديث وما شاكله .

ومن شرط الفأل أن لا يعتمد عليه وأن لا يكون مقصوداً ، بل أن يتفق للإنسان ذلك من غير أن يكون له على بال . ومن البدع الذميمة والمحدثات الوخيمة مأخذ الفأل من المصحف فإنه من اتخاذ آيات الله هزواً ولعباً ولهواً ، ساء ما يعملون . وما أدرى كيف حال من فتح على قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل) وقوله (وغضب الله عليه ولعنه) وأمثال هذه الآيات . ويروى أن أول من أحدث هذه البدعة بعض المروانية وأنه تفاءل يوماً ففتح المصحف فاتفق لاستفتاحه قول الله عز وجل (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) الآيات فيقال إنه أحرق المصحف غضباً من ذلك وقال أبياتاً لا نسود بها الأوراق . والمقصود أن هذه بدعة قبيحة ، والفأل إذا قصده المتفائل فهو طيرة كالاستقسام بالأزلام،وقد روى الإمام أحمد فى تعريف الطيرة حديث الفضل بن العباس رضى الله عنهما « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك ، وروى فى كفارتها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه وقفه « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : أن تقول : اللهم لاخير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » . وقال أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن سلمة ابن كهيل عن عيسى بن عاصم عن زربن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال «

« الطيرة شرك » ثلاثاً « وما منا إلا ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » وقوله « وما منا إلا » إلخ هو من يذهبه بالتوكل » كل هذا عندى قول عبد الله بن مسعود ، وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن حنبل وأبو بكر بن أبى شيبة قالا حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن عروة بن عامر عن أحمد القرشى قال ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال « أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وأما الغول فهى واحد الغيلان وهى من شر شياطين الجن وسحرتهم والنفى لما كان يعتقده أهل الجاهلية فيهم من الضر والنفع ، وكانوا يخافونهم خوفاً شديداً ويستعيذون ببعضهم من بعض كما قال تعالى عنهم (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) زاد الإنس الجن جرأة عليهم وشراً وطغياناً ، وزادهم الجن إخافة وخبلا وكفراناً . وكان أحدهم إذا نزل وادياً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهائه فيأتى الشيطان فيأخذ من مال هذا المستعيذ أو يروعه فى نفسه ، فيقول : ياصاحب الوادى ، جارك أو نحو ذلك . فيسمع منادياً ينادى ذلك المعتدى أن اتركه أو دعه أو ماأشبه ذلك . فأبطل الله تعالى ورسوله ﷺ ذلك ونفى أن يضروا أحداً إلا بإذن الله عز وجل ، وأبدلنا عن الاستعاذة بالمخلوقين الاستعاذة بجبار السموات والأرض ، رب الكون وخالقه ومالكه وإلهه وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا وكلماته التامات التى لا يجاوزهن جبار ولا متكبر ، فقال الله تبارك وتعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) إلى آخر السورة ، (قل أعوذ برب الناس) إلى آخر السورة . وغيرها من الآيات ، وقال رسول الله ﷺ فى هاتين السورتين « ما سأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها » ، وقال ﷺ « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شىء حتى يرحل من منزله ذلك » وهو فى الصحيح . وفى الأحاديث « إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان » وفى الحديث الصحيح « إن الشيطان إذا سمع النداء أدبر وله ضراط . وفى لفظ حصاص » وأحاديث الاستعاذة والأذكار فى طرد الشيطان وغيره كثيرة مشهورة مسبورة فى مواضعها من كتب السنة ، وأما قول من قال إن المراد فى الحديث نفى وجود

الغيلان مطلقا فليس بشيء لان ذلك مكابرة للأمور المشاهدة المعلومة بالضرورة فى زمن النبى ﷺ وقبله وبعده من إثباتهم وانصرافهم ومخاطرتهم وتشكيلهم . والله أعلم .

وأما الهامة والصفر فقال أبو داود رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن المصفى حدثنا بقية قال : قلت لمحمد ـــ يعنى ابن راشد ـــ قوله « هام » قال كانت الجاهلية تقول : ليس أحد يموت فيدفن إلا خرج من قبره هامة . قلت فقوله « صفر » قال : سمعت أهل الجاهلية يستشئمون بصفر ، فقال النبى ﷺ « لا صفر » قال محمد : وقد سمعنا من يقول هو وجع يأخذ فى البطن ، فكانوا يقولون هو يعدى فقال « لا صفر » ، وقال رحمه الله : حدثنا يحيى بن خلف حدثنا أبو عاصم حدثنا ابن جريج عن عطاء قال: يقول الناس الصفر وجع يأخذ فى البطن . قلت فما الهامة ؟ قال يقول الناس : الهامة التى تصرخ هامة الناس ، وليست بهامة الإنسان ، إنما هى دابة . وقال رحمه الله : قرىء على الحارث بن مسكين وأنا شاهد أخبركم أشهب قال : سئل مالك عن قوله « لا صفر » قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحلون صفر ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، فقال النبى ﷺ « لا صفر » . قلت وكل هذه المعانى لهذه الألفاظ قد اعتقدها الجهال وكلها بجميع معانيها المذكورة منفية بنص الحديث . ولله الحمد والمنة .

مرتبة الإحسان

وثـــالث مرتبــــة الإحسان   وتـلك أعلاهـــا لدى الـــرحمن
وهـى رسوخ القـلب فى العرفـان   حتـى يكـون الغيـب كالعيـــان

هذه المرتبة هى الثالثة من مراتب الدين المفصلة فى حديث جبريل المتقدم وهى أعلى مراتب الدين وأعظمها خطراً وأهلها هم المستكملون لها السابقون بالخيرات المقربون فى علو الدرجات ، وقد قدمنا أن الإسلام هو الاركان الظاهرة عند التفصيل واقترانه بالإيمان ، والإيمان إذ ذاك هو الأركان الباطنة والإحسان هو تحسين الظاهر والباطن ، وأما عند الإطلاق فكل منها يشمل دين الله كله ، وقد جاء الإحسان فى القرآن فى مواضع كثيرة ، تارة مقترناً بالإيمان وتارة بالتقوى ، وتارة بهما معاً ، وتارة بالجهاد ، وتارة بالإسلام ، وتارة بالعمل الصالح مطلقاً . قال الله تبارك وتعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين) وقال

تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) وقال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وقال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) . وتارة بالإنفاق فى سبيل الله وهو من الجهاد كقوله تعالى (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) . وقد فسره النبى ﷺ تفسيراً لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم فقال ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » أخبر ﷺ أن مرتبة الإحسان على درجتين، وأن للمحسنين فى الإحسان مقامين متفاوتين:

المقام الأول ــ وهو أعلاهما ــ أن تعبد الله كأنك تراه . وهذا مقام المشاهدة ، وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله عز وجل بقلبه ، وهو أن يتنور القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة فى العرفان حتى يصير الغيب كالعيان ، فمن عبد الله عز وجل على استحضار قربة منه وإقباله عليه وأنه بين يديه كأنه يراه أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتعظيم ، وفى حديث حارثة المرسل أن النبى ﷺ قال له « ياحارثة كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : أنظر ما تقول . فإن لكل قول حقيقة. قال يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر أهل الجنة فى الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار فى النار كيف يتعاوون فيها. قال : أبصرت فالزم » عبدٌ نوَّر الله تعالى بصيرته .

المقام الثانى مقام الإخلاص ، وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه ، فإذا استحضر العبد هذا فى عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى، لأن استحضاره ذلك فى عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل ، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول . ولهذا أتى به النبى ﷺ تعليلا للأول فقال « فإن لم تكن تراه فإن يراك » ، وفى بعض ألفاظ الحديث « فإنك إلا تكن تراه فإنه يراك » فإذا تحقق فى عبادته بأن الله تعالى يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شىء من أمره فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثانى وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله تعالى من عبده ومعيته حتى كأنه يراه . وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المعنى فى غير

ماموضع من القرآن، كما قال تبارك وتعالى:(وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا يحزنون،الذين آمنوا وكانوا يتقون،لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الموز العظيم) وقال تبارك وتعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إدا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) وقال تبارك وتعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه السميع العليم) وغير ذلك من الآيات ، فأولياء الله المتقون المحسنون ، هم الذين آمنوا بالله عز وجل وبإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأفردوه بالعبادة محبة وتذللا وانقياداً وخوفاً ورجاء ورغبة ورهبة وخشية وخشوعاً ومهابة وتعظيماً وتوكلا عليه وافتقاراً إليه واستغناء به عما سواه ، واتقوه بامتثال أوامره ومحبة مرضاته وترك مناهيه وموجبات سخطه سراً وعلناً وظاهراً وباطناً قولا وعملا واعتقاداً ، واستشعرت قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله عز وجل بهم علماً وقدرة ولطفاً وخبرة بأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وأسرارهم وعلانياتهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم كيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا ، فكان عملهم خالصاً لله موافقاً لشرعه مناطاً بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه ، مستحضرين ذلك بقلوبهم نافذة فيه بصائرهم فأخلصوا لله العمل وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه لكمان علمهم بأن الله ينظر إليهم ويرى حالهم ويسمع مقالهم، فطرحوا النفوس بين يديه وأقبلوا بكليتهم عليه والتجأوا منه إليه وعاذوا به منه وأحبوه من كل قلوبهم فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره ، فبه يبصرون وبه يسمعون وبه يبطشون وبه يمشون وبرؤيتهم يذكر الله تعالى وبذكره يذكرون .

وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبى حدثنا الأعمش سمعت أبا صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه يقول : قال النبى ﷺ « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » وقال رحمه الله تعالى : حدثنى محمد بن عثمان ابن كرامة حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان بن بلال حدثنى شريك بن عبد الله ابن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال

عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها . وإن سألنى لأعطيته ، ولئن عاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » ذكروا الله تعالى فذكرهم، وشكروه فشكرهم ، وتولوه ، ووالوا فيه فتولاهم . وعادوا أعداءه لأجله فآذن بالحرب من عاداهم ، وأحسنوا عبادة ربهم فأحسن جزاءهم وأجزله ، عبدوه على قدر معرفتهم به فجازاهم بفضله وزادهم (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة — هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ولما ذكر أهل الجنة وما وعدهم به من النعم وصفهم أن ذلك جزاء إحسانهم فقال (إن المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) ، ثم فسر إحسانهم (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) وقدمنا فى الفصل الأول أن الحسنى التى وعد الله عز وجل المحسنين هى الجنة ، والزيادة هى النظر إلى وجه الله عز وجل كما رواه مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ . فلما كانوا يعبدون الله عز وجل فى الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنهم يرونه بقلوبهم وينظرون إليه فى حال عبادتهم إياه كان جزاؤهم على ذلك النظر إلى وجهه تبارك وتعالى فى الآخرة عياناً بأبصارهم ، وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فقال تعالى فيهم (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) لما كان حالهم فى الدنيا التكذيب وأعقبهم ذلك التكذيب تراكم الران على قلوبهم حتى حجبت عن معرفته ومراقبته فى الدنيا فكان جزاؤهم على ذلك أن حجبوا عن رؤيته فى الآخرة ، وذلك قول الله عز وجل (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) . (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

هذا آخر ما يسر الله تعالى من الكلام على مفردات حديث جبريل ، وقد قال ابن رجب رحمه الله تعالى فى شرح الأربعين بعد كلامه على مراتب الدين فى هذا الحديث، قال: فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دل عليه هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف يرجع إلى هذا الحديث ويدخل تحته ، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التى يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دل عليه مجملا ومفصلا ، فإن الفقهاء إنما يتكلمون فى العبادات التى هى من جملة خصال الإسلام ، ويضيفون إلى ذلك الكلام فى أحكام الأموال والأبضاع والدماء ، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام — من الآداب والأخلاق وغير ذلك — لا يتكلم عليه إلا القليل منهم ،

ولا يتكلمون على معنى الشهادتين وهما أصل الإسلام كله . والذين يتكلمون على أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره ، والذين يتكلمون على علم المعارف ومقامات العباد يتكلمون على مقام الإحسان وعلى الأعمال الباطنة التى تدخل فى الإيمان أيضاً كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك . فانحصرت العلوم الشرعية التى يتكلم عليها فرق المسلمين فى هذا الحديث ورجعت كلها إليه ، ففى هذا الحديث وحده كفاية ولله الحمد والمنة . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

ست مسائل تتعلق بمباحث الدين

(فصل) فى مسائل تتعلق بما تقدم من مباحث الدين : الأولى كون الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . والثانية تفاضل أهله فيه . والثالثة أن فسق أهل الملة الإسلامية لا يكفر بذنب دون الشرك ولوازمه إلا إذا استحله . والرابعة أنه لا يخلد فى النار . والخامسة أنه فى العقاب وعدمه تحت المشيئة . والسادسة أن التوبة فى حق كل فرد مقبولة ما لم يغر غر سواء من كفر أو دونه من أى ذنب كان .

١ ـــ الإيمان يزيد وينقص

إيماننـــا يزيـــد بالطاعـــــات ونـــقصه يكـــون بالـــزلات

هذه هى المسألة الأولى من مسائل الفصل ، وهى أن الإيمان يزيد وينقص وعلى ذلك ترجم البخارى رحمه الله تعالى فى كتابه فقال فى جامعه : كتاب الإيمان ، باب قول النبى ﷺ (بنى الاسلام على خمس) وهو قول وفعل ويزيد وينقص قال الله تعالى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) (وزدناهم هدى) (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) وقوله تعالى (وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) وقال الترمذى رحمه الله تعالى : باب فى استكمال الإيمان والزيادة والنقصان وساق فيه حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله » وحديث « يا معشر النساء تصدقن » إلخ وهو فى الصحيحين . والشاهد منه قوله ﷺ « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب وذوى الرأى منكن » وذكر حديث أبى هريرة

وهو فى الصحيحين أيضاً قال : رسول الله ﷺ « الإيمان بضع وسبعون باباً فأدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله » . هذا لفظ الترمذى وقال : حسن صحيح ولفظه « بضع وستون » ولمسلم رواية « بضع وسبعون » لكن قالا « شعبة » بدل « بابا » . وقال النسائى: باب زيادة الإيمان ـــ وذكر فيه حديث الشفاعة ودلالته منطوقاً على تفاضل أهل الإيمان فيه . وأما الزيادة والنقص فدلالته عليها مفهوماً لا منطوقاً ومثله حديث أبى سعيد الخدرى « رأيت الناس وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدى » الحديث . وفيه « وعرض على عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : الدين » ثم ذكر حديث عمر فى نزول قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) ودلالتها على ذلك منطوقا ، وعلى ذلك ترجم البخارى رحمه الله تعالى وقال : حدثنا الحسن بن الصباح سمع جعفر ابن عون حدثنا أبو العميس قال أخبرنا قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رجلا من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً قال : أى آية ؟ قال (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى نزلت فيه على النبى ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة . وعلى ذلك ترجم أبو داود وغيره من أئمة السنة، وساقوا فى ذلك أحاديث تتضمنه منطوقاً ومفهوماً . قال مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن التيمى وقطن بن نسير واللفظ ليحيى أخبرنا جعفر بن سليمان عن سعيد بن إياس الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسيدى قال وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال : لقينى أبو بكر رضى الله عنه فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قال قلت : نافق حنظلة . قال سبحان الله . ما تقول ؟ قال قلت . نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا ازواج والأولاد الصغار ، فنسينا كثيراً . قال أبو بكر رضى الله عنه : فوالله إنا لنلقى مثل هذا . فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت : نافق حنظلة يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، نسينا كثيراً . فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فر شكم وفى طرقكم،

لكن يا حنظلة ، ساعة وساعة » ثلاث مرات . حدثنى إسحاق بن منصور أخبرنا عبد الصمد سمعت أبى يحدث حدثنا سعيد الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا فذكر النار . قال ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة . قال فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له قال وأنا قد فعلت مثل ما تذكر . فلقينا رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله نافق حنظلة . فقال : مه ! فحدثته بالحديث فقال أبو بكر : وأنا قد فعلت مثل ما فعل فقال : يا حنظلة ساعة وساعة . ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق . ومن طريق ثالث فذكرنا الجنة والنار الحديث . وعلى هذا إجماع الأئمة المعتد بإجماعهم ، وأن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وإذا كان ينقص بالفترة عن الذكر فلأن ينقص بفعل المعاصى من باب أولى كما سيأتى إن شاء الله تبارك وتعالى بيانه قريباً .

٢ ــ تفاضل أهل الإيمان

وأهلـه فيـه على تفـاضل ‌ ‌ ‌ هل أنت كالأملاك أو الـرسل

هذه هى المسألة الثانية ، وهى تفاضل أهل الإيمان فيه ، كما ذكر الله تبارك وتعالى أقسامهم التى قسمهم عليها بمقتضى حكمته فقال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآيات، فقسم تعالى الناجين منهم إلى مقتصدين ، وهم الأبرار أصحاب اليمين الذين اقتصروا على التزام الواجبات واجتناب المحرمات فلم يزيدوا على ذلك ولم ينقصوا منه . وإلى سابق بالخيرات ، وهم المقربون الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض وتركوا مالا بأس به خوفاً مما به بأس ، وما زالوا يتقربون إلى الله تعالى بذلك حتى كان سمعهم الذى يسمعون به وبصرهم الذى يبصرون به إلى آخر معنى الحديث السابق ، فبه يسمعون وبه يبصرون وبه يبطشون وبه يمشون وبه ينطقون وبه يعقلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وأما الظالم لنفسه ففى المراد به عن السلف الصالح قولان : أحدهما أن المراد به الكافر . فيكون كقول الله عز وجل فى تقسيمهم فى سورة الواقعة عند البعث (وكنتم أزواجاً ثلاثة : فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك

المقربون) إلى آخر الآيات وقسمهم عند الاحتضار كذلك فقال عز وجل (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة ونعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم) فإن تفاضل أهل الإيمان فى تقسيم هذه السورة إنما هو على درجتين : سابقين مقربين ، وأبرارهم هم أصحاب اليمين . وأما أصحاب الشمال الذين هم المكذبون الضالون فليسوا من أهل الإسلام باتفاق ، وإنما الخلاف فى الظالم نفسه فى آية فاطر . والقول الثانى أن المراد به عصاة الموحدين فإنهم ظالمون لأنفسهم ، ولكن ظلم دون ظلم ، لا يخرج من الدين ولا يخلد فى النار ، فعلى هذا يكون قسم ثالث فى تفاضل أهل الإيمان . ورجع هذا القول بن القيم رحمه الله تعالى ، فإذا كان هذا التفاوت بين أتباع الرسل فكيف تفاوت ما بينهم وبين رسلهم ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن الرسل متفاضلون فقال (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وقد تقدم تقرير ذلك فى موضعه ، وكما أخبر الله تبارك وتعالى عن تفاوتهم فى الإيمان فى دار التكليف كذلك جعل الجنة التى هى دار الثواب متفاوتة الدرجات مع كون كل منهم فيها ، فقال فى سورة الرحمن (ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلى آخر السورة . وكذا فى سورة الواقعة أخبر بصفة الجنة التى يدخلها السابقون أعظم وأعلى من صفات الجنة التى يدخلها أصحاب اليمين ، وكذلك فى سورة المطففين . قال تبارك وتعالى (إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم . عيناً يشرب بها المقربون) ولغير ذلك من الآيات . وقال النبى ﷺ « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » . وأهل الجنة متفاوتون فى الدرجات حتى إنهم يتراءون ، أهل عليين يرون غرفهم من فوقهم كما يرى الكوكب فى الأفق الشرقى أو الغربى ، ومتفاوتون فى الأزواج ومتفاوتون فى الفواكه من المطعوم والمشروب ، ومتفاوتون فى الفرش والملبوسات ، ومتفاوتون فى الملك ، ومتفاوتون فى

الحسن والجمال والنور ، ومتفاوتون فى قربهم من الله عز وجل ، ومتفاوتون فى تكثير زيارتهم إياه ، ومتفاوتون فى مقاعدهم يوم المزيد ، ومتفاوتون تفاوتاً لايعلمه إلا الله عز وجل ، وقد قدمنا أحاديث الشفاعة وفيها أن عصاة الموحدين الذين تمسهم النار بقدر ذنوبهم ، متفاوتون تفاوتاً بعيداً : متفاوتون فى مقدار ما تأخذ منهم ، فمنهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذه كله إلا مواضع السجود وكذلك يتفاوتون فى مقدار لبثهم فيها وسرعة خروجهم منها ، لأنهم متفاوتون فى الإيمان والتوحيد الذى بسببه يخرجون منها ولولاه لكانوا مع الكافرين خالدين مخلدين أبداً . فيقال للشفعاء أخرجوا من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم من كان فى قلبه نصف دينار من إيمان ، ثم من كان فى قلبه وزن برة من إيمان، ثم من كان فى قلبه ذرة من إيمان ، ثم من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال ذرة من إيمان.
فأين هذا ممن الإيمان فى قلبه مثل الجبل العظيم ، وأين من نوره على الصراط كالشمس ، ممن نوره على إبهام قدمه ينو نص تارة ويطفأ أخرى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون) . وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « بينما أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص ، فمنها مايبلغ الثدى ، ومنها ما يبلغ دون ذلك ، وعرض على عمر وعليه قميص يجره : قالوا فما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين » وقال بن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه . ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل.
ذكره البخارى تعليقاً مجزوماً به . وقال النبى ﷺ « ملىء عمار إيماناً إلى مشاشه » وقال ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح . وقرأ الفضيل بن عياض رحمه الله أول الأنفال حتى بلغ (أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) قال حين فرغ : إن هذه الآية تخبرك أن الإيمان قول وعمل ، وأن المؤمن إذا كان مؤمناً حقاً فهو من أهل الجنة ، فمن لم يشهد أن المؤمن حقاً من أهل الجنة فهو شاك فى كتاب الله مكذب ، أو جاهل لا يعلم . فمن كان على هذه الصفة فهو مؤمن حقاً مستكمل الإيمان ، ولا يستكمل الإيمان إلا بالعمل، ولا يستكمل عبد الإيمان ولا يكون مؤمناً حقاً حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه ، يا سفيه ما أجهلك ، لا ترضى أن تقول أنا مؤمن

حتى تقول أنا مؤمن حقاً مستكمل الإيمان، والله لا تكون مؤمناً حقاً مستكمل الإيمان حتى تؤدى ما افترض الله عليك وتجنب ما حرم الله عليك وترضى بما قسم الله لك ثم تخاف مع هذا لا يقبل الله منك . ووصف فضيل الإيمان بأنه قول وعمل ، وقرأ (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فقد سمى الله تعالى دين القيمة بالقول والعمل ، فالقول الإقرار بالتوحيد والشهادة للنبى ﷺ ، والعمل أداء الفرائض واجتناب المحارم ، وقرأ (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً) وقال (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا) فالدين التصديق بالعمل كما وصفه الله تعالى ، وكما أمر أنبياءه ورسله بإقامته . والتفرق فيه ترك العمل والتفريق بين القول والعمل ، قال الله تبارك وتعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) فالتوبة من الشرك جعلها الله تعالى قولا وعملا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقال أصحاب الرأى : ليس الصلاة ولا الزكاة ولا شىء من الفرائض من الإيمان ، افتراء على الله وخلافاً لكتابه وسنة نبيه ، ولو كان القول كما يقولون لم يقاتل أبو بكر أهل الردة ، وقال فضيل : يقول أهل البدع : الإيمان الإقرار بلا عمل، والإيمان واحد ، وإنما يتفاضل الناس بالأعمال ولا يتفاضلون بالإيمان . وقال : فمن قال ذلك فقد خالف الأثر ، ورد على رسول الله ﷺ قوله ، لأن رسول الله ﷺ قال « الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وتفسير من يقول الإيمان لايتفاضل يقول إن فرائض الله ليست من الإيمان فميز أهل البدع العمل من الإيمان وقالوا إن فرائض الله ليست من الإيمان ، ومن قال ذلك فقد أعظم الفرية ، أخاف أن يكون جاحداً للفرائض راداً على الله أمره، ويقول أهل السنة : إن الله تعالى قرر العمل بالإيمان وإن فرائض الله من الإيمان قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فهذا موصول العمل بالايمان ، ويقول أهل الإرجاء : لا ولكنه مقطوع غير موصول ، وقال أهل السنة : قال الله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فهذا موصول ، وأهل الإرجاء يقولون بل هو مقطوع ، وقال أهل السنة : قال الله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فهذا موصول ، وكل شىء فى القرآن من أشبه هذا فأهل السنة يقولون : هو موصول مجتمع . وأهل الأرجاء يقولون : بل هو مقطوع متفرق . ولو كان الأمر كما يقولون كان من عصى وارتكب المعاصى والمحارم ولم

يكن عليه سبيل فكان إقراره يكفيه من العمل ، فما أسوأ هذا من قول وأقبحه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقال فضيل : أصل الإيمان عندنا وفرعه ـــ بعد الشهادة لله بالتوحيد ، والشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ ، وبعد أداء الفرائض ـــ صدق الحديث ، وحفظ الأمانة وترك الخيانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، والنصيحة لجميع المسلمين ، والرحمة للناس عامة . قيل له ـــ يعنى فضيلا ـــ هذا من رأيك تقوله أو سمعته ؟ قال : بل سمعناه وتعلمناه . ولو لم آخذه من أهل الفقه والفضل لم أتكلم به . وقال فضيل : يقول أهل الإرجاء : الإيمان قول بلا عمل ، ويقول الجهمية : الإيمان المعرفة بلا قول ولا عمل ، ويقول أهل السنة : الإيمان المعرفة والقول والعمل . فمن قال الإيمان قول وعمل فقد أخذ بالتوثقة . ومن قال الإيمان قول بلا عمل فقد خاطر ، لأنه لايدرى أيقبل إقراره أو يرد عليه بذنوبه . وقال يعنى فضيلا : قد بينت لك إلا أن تكون أعمى . وقال فضيل : لو قال لى رجل : مؤمن أنت ؟ ما كلمته ما عشت . وقال : إذا قلت آمنت بالله فهو يجزيك من أن تقول أنا مؤمن . وإذا قلت أنا مؤمن لا يجزيك من أن تقول آمنت بالله لأن آمنت بالله أمر قال الله تعالى (قولوا آمنا بالله) الآية ، وقولك أنا مؤمن تكلف لا يضرك أن لا تقوله ولا بأس إن قلته على وجه الإقرار وأكرهه على وجه التزكية ، وقال فضيل سمعت الثورى يقول : من صلى إلى هذه القبلة فهو عندنا مؤمن ، والناس عندنا مؤمنون بالإقرار فى المواريث والمناكحة والحدود والذبائح والنسك ، ولهم ذنوب وخطايا الله حسبهم ، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم ، لا ندرى ما لهم عند الله عز وجل ، وقال فضيل سمعت المغيرة الضبى يقول : من شك فى دينه فهو كافر وأنا مؤمن إن شاء الله ، قال فضيل : الاستثناء ليس بشك . وقال فضيل : المرجئة كلما سمعوا حديثاً فيه تخويف قالوا : هذا تهديد . وإن المؤمن يخاف تهديد الله وتحذيره وتخويفه ووعيده ويرجو وعده ، وإن المنافق لا يخاف تهديد الله ولا تحذيره ولا تخويفه ولا وعيده ولا يرجو وعده . وقال فضيل : الأعمال تحبط الأعمال والأعمال تحول دون الأعمال ، قال عبد الله قال أبى : أخبرت عن فضيل عن ليث عن مجاهد فى قوله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) قال : الفقه والعلم ا. هـ من كتاب السنة ، وفيه عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال القلوب أربعة : قلب أجرد كأنما فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر . وقلب مصفح ، فذلك قلب المنافق . وقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل شجرة يسقيها ماء طيب ، ومثل النفاق فيه كمثل قرحة يمدها قيح ودم ، فأيهما غلب عليه » ا. هـ وهذا الموقوف قد روى مرفوعاً إلى النبى ﷺ بإسناد جيد حسن ،

فقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية حدثنا شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البختري عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر . وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح ، فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . والآيات والأحاديث وآثار الصحابة والتابعين فى هذا الباب أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر . والمقصود بيان أن الناس متفاوتون فى الدين بتفاوت الإيمان فى قلوبهم ، متفاضلون فيه بحسب ذلك . فأفضلهم وأعلاهم أولو العزم من الرسل . وأدناهم المخلطون من أهل التوحيد . وبين ذلك مراتب ودرجات لا يحيط بها إلا الله عز وجل الذى خلقهم ورزقهم . وكما يتفاوتون فى مبلغ الإيمان من قلوبهم يتفاوتون فى أعمال الإيمان الظاهرة ، بل والله يتفاضلون فى عمل واحد يعمله كلهم فى آن واحد وفى مكان واحد ، فإن الجماعة فى الصلاة صافون كلهم فى رأى العين ، مستوون فى القيام والركوع والسجود ، والخفض والرفع ، والتكبير والتحميد ، والتسبيح والتهليل ، والتلاوة وسائر الأذكار والحركات والسكنات ، فى مسجد واحد ووقت واحد وخلف إمام واحد ، وبينهم من التفاوت والتفاضل ما لايحصى فهذا قرة عينه فى الصلاة يود إطالتها مادام عمره ، وآخر يرى نفسه فى أضيق سجن يود انقضاءها فى أسرع من طرفة عين ، أو يود الخروج منها ، بل يتندم على الدخول فيها ، وهذا يعبد الله على وجه الحضور والمراقبة كأنه يشاهده ، وآخر قلبه فى الفلوات قد تشبعت به الضيعات وتفرقت به الطرقات حتى إن يدرى ما يقول ولا ما يفعل ولا كم صلى . وهذا ترفع صلاته تتوهج بالنور حتى تخترق السموات إلى عرش الرحمن عز وجل . وهذا تخرج مظلمة لظلمة قلبه فتغلق أبواب السماء دونها فتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها ، وهذا يكتب له أضعافها وأضعاف مضاعفة ، وهذا يخرج منها وما كتب له إلا نصفها إلا ربعها إلا ثمنها إلا عشرها ، وهذا يحضرها صورة ولم يكتب له منها شيء . وهذا منافق يأتيها رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . هذا والناظر إليهم يراهم مستوين فى فعلها ، ولو كشف له الحجاب لرأى من الفرقان ما لا يقدر قدره إلا الله الرقيب على كل نفس بما كسبت الذى أحاط بكل شيء علما لا تخفى عليه خافية ، وكذلك الجهاد ترى الأمة من

الناس يخرجون فيه مع إمام واحد ويقاتلون عدواً واحداً على دين واحد متساوين ظاهراً فى القوى والعدد ، فهذا يقاتل حمية وعصبية . وهذا يقاتل رياء وسمعة لتعلم شجاعته ويرى مكانه . وهذا يقاتل للمغنم ليس له هم غيره ، وهذا يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا . وذا هو المجاهد فى سبيل الله لا لغيره . وهذا هو الذى يكتب له بكل حركة أو سكون أو نصب أو مخمصة عمل صالح . وهكذا الزكاة والصوم والحج والأمر بالمعروف النهى عن المنكر وجميع أعمال الإيمان ، الناس فيها على هذا التفاوت والتفاضل حسب ما وقر فى قلوبهم من العلم واليقين . وعلى ذلك يموتون ، وعليه يبعثون ، وعلى قدره يقفون فى عرق الموقف ، وعلى ذلك الوزن والصحف وعلى ذلك تقسم الأنوار على الصراط . وبحسب ذلك يمرون عليه . ومن يبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . وبذلك يتسابقون فى دخول الجنة . وعلى حسبه رفع درجاتهم . وبقدره تكون مقاعدهم من ربهم تبارك وتعالى فى يوم المزيد وبمقدار ذلك ممالكهم فيها ونعيمهم ، والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم.

٣ ــ فاسق أهل القبلة مؤمن ناقص الإيمان

والفاسق الملى ذو العصيان	لم ينف عنه مطلق الإيمان
لكن بقدر الفسق والمعاصى	إيمانه مازال فى انتقاص

هذه هى المسألة الثالثة . وهى أن فاسق القبلة لاينفى عنه مطلق الإيمان بفسوقه . ولا يوصف بالإيمان التام . ولكن هو مؤمن ناقص الإيمان . أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. فلا يعطى الاسم المطلق ولايسلب مطلق الاسم . والمراد بالفسق هنا هو الأصغر . وهو عمل الذنوب الكبائر التى سماها الله ورسوله فسقاً وكفراً وظلماً مع إجراء أحكام المؤمنين على عاملها ، فإن الله تعالى سمى الكاذب فاسقاً فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) ومع هذا لم يخرج ذلك الرجل الذى نزلت فيه الآية من الدين بالكلية ولم ينف عنه الإيمان مطلقاً ولم يمنع من جريان احكام المؤمنين عليه . وكذلك قال النبى ﷺ « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . وقال ﷺ « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » الحديث وغيره . وقد استبّ كثير من الصحابة على عهده ومن حضوره . فوعظهم وأصلح بينهم ولم يكفرهم بل بقوا أنصاره ووزراءه فى الدين . وقال الله سبحانه (وإن

طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله) . فسمى الله تعالى كلا من الطائفتين المقتتلتين مؤمنة وأمر بالإصلاح بينهما ولو بقتال الباغية . ثم قال (فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) ثم لم ينف عنهم الأخوة أخوة الإيمان لا فيما بين المقتتلين ولا فيما بينهما وبين بقية المؤمنين بلى أثبتت أخوة الإيمان لهم مطلقاً فقال عز وجل (إنما المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) . وكذلك فى آية القصاص أثبت الإيمان للقاتل والمقتول من المؤمنين وأثبت لهم أخوة الإيمان فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى . الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) . وكذلك الذين قال لهم النبى ﷺ « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» سماهم أيضاً مسلمين بعد أن رجعوا كذلك فقال فى صفة الخوارج « تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق » ، ومعلوم أن أصحاب على بن أبى طالب وأهل الشام هما الفرقتان اللتان مرقت الخوارج من بينهما قد اقتتلا قتالا عظيماً ، فسمى الجميع مسلمين ، وقال ﷺ فى سبطه الحسن بن على « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله تعالى به بين فرقتين عظيمتين من المسلمين » فأصلح الله تعالى به بين هاتين الفرقتين بعد موت أبيه رضى الله عنهما فى عام الجماعة ، ولله الحمد والمنة .

ولا منافاة بين تسمية العمل فسقاً أو عامله فاسقاً ، وبين تسميته مسلماً وجريان أحكام المسلمين عليه ، لأنه ليس كل فسق يكون كفراً ، ولا كل ما سمى كفراً وظلماً يكون مخرجاً من الملة حتى ينظر إلى لوازمه وملزوماته ، وذلك لأن كلا من الكفر والظلم والفسوق والنفاق جاءت فى النصوص على قسمين : أكبر يخرج من الملة لمنافاته أصل الدين بالكلية ، وأصغر ينقص الإيمان وينافى كماله ولايخرج صاحب منه، فكفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسوق دون فسوق ، ونفاق دون نفاق . قال الله تعالى فى بيان الكفر (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وقال (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً) وقال النبى ﷺ فى بيان الكفر الأصغر « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وقال الله تعالى فى الظلم الأكبر (إن الشرك لظلم عظيم) وقال فى الظلم الأصغر (واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين

بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) وقال فى الفسوق الأكبر (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) وقال تعالى (والكافرون هم الفاسقون) . وقال تعالى فى النفاق الأكبر (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) . وقال (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) وقال النبى ﷺ فى النفاق الأصغر « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذ عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » فهذه الخصال كلها نفاق عمل لا يخرج من الدين إلا إذا صحبه النفاق الاعتقادى المتقدم . وما تمسك به الخوارج والمعتزلة وأضرابهم من التشبث بنصوص الكفر والفسوق الأصغر واستدلالهم به على الأكبر فذلك مما جنته أفهامهم الفاسدة وأذهانهم البعيدة وقلوبهم الغلف ، فضربوا نصوص الوحى بعضها ببعض ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . فقالت الخوارج: المصر على كبيرة من زنى أو شرب خمر أو ربا كافر مرتد خارج من الدين بالكلية لايصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين ، ولو أقر الله تعالى بالتوحيد وللرسول ﷺ بالبلاغ ، وصلى وصام وزكى وحج وجاهد وهو مخلد فى النار أبداً مع إبليس وجنوده ومع فرعون وهامان وقارون . وقالت المعتزلة: العصاة ليسوا مؤمنين ولا كافرين ولكن تسميهم فاسقين . فجعلوا الفسق منزلة بين المنزلتين . ولكنهم لم يحكموا له بمنزلة فى الآخرة بين المنزلتين . بل قضوا بتخليده فى النار أبداً كالذين قبلهم . فوافقوا الخوارج مآلا وخالفوهم مقالا ، وكان الكل مخطئين ضلالا . وقابل ذلك المرجئة فقالوا . لا تضر المعاصى مع الإيمان لا بنقص ولا منافاة،ولا يدخل النار أحد بذنب دون الكفر بالكلية.ولا تفاضل عندهم بين إيمان الفاسق الموحد وبين إيمان أبى بكر وعمر ، حتى ولا تفاضل بينهم وبين الملائكة ، لا ولا فرق عندهم بين المؤمنين والمنافقين ، إذ الكل مستوفى النطق بالشهادتين كما قدمنا اعتقادهم فى بحث الإيمان . نسأل الله تعالى العافية .

٤ ــ العاصى لايخلد فى النار وأمره إلى الله

ولا نقـــول إنـــه فى النـــار مخلـــد بل أمـــره للبـــارى

تحت مشيئة الإله النافذه إن شاء عفا عنه وإن شاء آخذه
بقدر ذنبه إلى الجنان يخرج إن مات على الإيمان

(ولا نقول إنه) أى الفاسق بالمعاصى التى لا توجب كفراً (فى النار مخلد) هذه هى المسألة الرابعة من مسائل الفصل.(بل نقول أمره) مردود حكمه (للبارى) فى الجزاء والعفو (تحت مشيئة الإله النافذة) فى خلقه (إن شاء) الله عز وجل (عفا عنه) وأدخله الجنة من أول وهلة برحمته وفضله (وإن شاء آخذه) أى جازاه وعاقبه (بقدر ذنبه) الذى مات مصراً عليه ، كما فى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عليه فهو إلى الله : إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك . (وإلى الجنان يخرج) من النار (إن) كان (مات على الإيمان) كما تقدم فى أحاديث الشفاعة وإنه لا يخلد فى النار أحد مات على التوحيد بل يخرج منها برحمة أرحم الراحمين ثم بشفاعة الشافعين .

والعرض تيسير الحساب فى النبا ومن يناقش الحساب عذبا

فى هذا البيت إشارة إلى تفسير رسول الله ﷺ لقول الله عز وجل (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) الآيات كما فى صحيح البخارى وغيره من طرق عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « ليس أحد يحاسب إلا هلك ، قالت : قلت يا رسول الله جعلنى الله فداءك أليس يقول الله عز وجل (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) قال : ذلك العرض ، يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك» وفى رواية « عذب » وقد قدمنا من نصوص الحشر وأحوال الموقف والميزان ونشر الصحف والعرض والحساب والصراط والشفاعات وغيرها ما يعلم به تفاوت مراتب الناس وتباين أحوالهم فى الآخرة بحسب تفاوتهم فى الدار الدنيا فى طاعة ربهم وضدها من سابق ومقتصد وظالم لنفسه .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الذى أثبتته الآيات القرآنية والسنن النبوية ودرج عليه السلف الصالح والصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أئمة التفسير والحديث والسنة أن العصاة من أهل التوحيد على ثلاث طبقات : الاولى قوم رجحت حسناتهم بسيآتهم فأولئك يدخلون الجنة من أول وهلة ولا تمسهم النار أبداً . الطبقة الثانية قوم تساوت حسناتهم وسيآتهم وتكافأت فقصرت بهم سيآتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، وهؤلاء هم أصحاب الأعراف الذين ذكر الله تعالى أنهم يوقفون بين الجنة والنار ما شاء الله أن يوقفوا ، ثم يؤذن لهم فى دخول الجنة ، كما قال تبارك وتعالى بعد أن دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (ونادى أصحابُ الجنة أصحابُ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا نعم ، فأذَّن مؤذِّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحابَ الجنة أن سلام عليكم ، لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحابُ الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله رحمة ، ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) . الطبقة الثالثة : قوم لقوا الله تعالى مصرين على كبائر الاثم والفواحش ، ومعهم أصل التوحيد ، فرجحت سيئاتهم بحسناتهم ، فهؤلاء هم الذين يدخلون النار بقدر ذنوبهم ، فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم فوق ذلك ، حتى إن منهم من لم يحرم منه على النار إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، وهؤلاء هم الذين يأذن الله تعالى بالشفاعة فيهم لنبينا محمد ﷺ ولغيره من الأنبياء من بعده والأولياء والملائكة ومن شاء الله أن يكرمه، فيحد لهم حداً فيخرجونهم ثم يحد لهم حدا فيخرجونهم ، ثم هكذا فيخرجون من كان فى قلبه وزن دينار من خير ، ثم من كان فى قلبه نصف دينار من خير . ثم برة . ثم خردلة . ثم ذرة . ثم أدنى من ذلك إلى أن يقول الشفعاء: ربنا لم تذر فيها خيراً . ويخرج الله تعالى من النار أقواماً لا يعلم عدتهم إلا هو بدون شفاعة الشافعين ، ولم يخلد فى النار أحد من الموحدين ولو عمل أى عمل ، ولكن كل من كان منهم أعظم إيماناً وأخف ذنباً كان أخف عذاباً فى النار وأقل مكثا فيها وأسرع خروجاً منها ، وكل من كان أضعف إيماناً وأعظم ذنباً كان بضد ذلك والعياذ بالله . والأحاديث فى هذا

الباب لا تحصى كثرة ، وقد قدمنا منها ما فيه كفاية . وإلى هذا المعنى أشار النبى ﷺ بقوله « من قال لا إله إلا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه » وهذا مقام ضلت فيه الأفهام ، وزلت فيه الأقدام . وهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله تعالى فى كتاب التوحيد بعد سرده أحاديث الشفاعة بأسانيدها قال : قد روينا أخباراً عن النبى ﷺ بحسب كثير من أهل الجهل والعناد أنها خلاف هذه الأخبار التى ذكرناها مع كثرتها وعدالة ناقليها فى الشفاعة وفى إخراج بعض أهل التوحيد من النار بعد ما دخلوها بذنوبهم وخطاياهم ، وليست بخلاف تلك الأخبار عندنا بحمدالله ونعمته . وأهل الجهل الذين ذكرتهم فى هذا الفصل صنفان : صنف منهم من الخوارج والمعتزلة أنكرت إخراج أحد من النار ممن يدخل النار وأنكرت هذه الأخبار التى ذكرناها فى الشفاعة . الصنف الثانى الغالية من المرجئة التى تزعم أن النار حرمت على من قال لا إله إلا الله تتأول هذه الأخبار التى رويته عن النبى ﷺ فى هذه اللفظة على خلاف تأويلها .

فأول ما نبدأ بذكر الأخبار بأسانيدها وألفاظ متونها ثم نبين معانيها بعون الله ومشيئته ونشرح ونوضح أنها ليست بمخالفة للأخبار التى ذكرناها فى الشفاعة وفى إخراج من قضى الله إخراجهم من أهل التوحيد من النار . ثم ساق منها حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال ذرة إيمان » ، وحديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنى لأعلم كلمة لايقولها عبد حقاً من قلبه فيموت على ذلك إلا حرم على النار : لا إله إلا الله » . وحديث عتبان بن مالك : قال رسول الله ﷺ « لن يوافى عبد يوم القيامة وهو يقول لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله إلا حرم الله على النار — وفى رواية : فإن الله قد حرم على النار — أن تأكل من قال لا إله إلا الله » . وحديث عثمان عن النبى ﷺ قال « من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وحديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً من قلبه دخل الجنة » . وحديث عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من لقى الله يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله دخل الجنة » ، وفى رواية

« حرمه الله على النار » وحديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعثه فقال « اذهب فناد فى الناس أن من شهد أن لا إله إلا الله موقنا ـــ أو مخلصاً ـــ دخل الجنة » . وحديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال « قال : يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة إلا أتيت عليها ، قال : أو تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : فإن هذا يأتى على ذلك كله » . وحديث عمر رضى الله عنه « إن رسول الله أمره أن يؤذن فى الناس أن من يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصاً فله الجنة . قال عمر : يا رسول الله إذاً يتكلوا . قال : فدعهم » ، وحديث عبد الله بن سلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وجبت له الجنة » . وحدثت أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « قال لى جبريل : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ولم يدخل النار . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق » . وحديث أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه قرأ (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ، قال : فقرأها رسول الله ﷺ (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قلت فإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قلت يا رسول الله وإن زنى وسرق يا رسول الله ؟ قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) قلت : يا رسول الله وإن زنى وسرق ؟ قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وإن زنى وسرق ، ورغم أنف أبى الدرداء » فلا أزال أقرؤها كذلك حتى ألقاه . وحديث ابن مسعود رضى الله عنه « قال رسول الله ﷺ كلمة وأنا أقول أخرى ، قال : وهو يجعل لله نداً دخل النار . قال وأقول : من مات وهو لايجعل لله نداً دخل الجنة » . قال أبو بكر : قد كنت أمليت أكثر هذا الباب من كتاب الإيمان وبينت فى ذلك الموضع معنى هذه الأخبار وأن معناها ليس كما يتوهمه المرجئة . وبيقين يعلم كل عالم من أهل الإسلام أن النبى ﷺ لم يرد بهذه الأخبار أن من قال لا إله إلا الله أو زاد معها شهادة أن محمداً رسول الله ولم يؤمن بأحد من الأنبياء غير محمد ﷺ ولا آمن بشىء من كتاب الله عز وجل ولا بجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب أنه من أهل الجنة لا يعذب بالنار ولئن جاز للمرجئة الاحتجاج بهذه الأخبار ، وإن كانت هذه الأخبار ظاهرها خلاف أصلهم وخلاف كتاب الله عز وجل وخلاف سنن النبى ﷺ لجاز للجهمية الاحتجاج بأخبار رويت عن النبى ﷺ إذا تؤولت على ظاهرها استحق من يعلم إن الله ربه وأن محمداً نبيه وإن ينطق بذلك لسانه ولا يزال يسمع أهل الجهل والعناد يحتجون بأخبار مختصرة غير متقصاه وبأخبار مجملة غير مفصلة لا يفهمون أصول

العلم فيستدلون بالمتقصى من الأخبار على مختصرها وبالمفسر منها على مجملها . قد ثبتت الأخبار عن النبى ﷺ بلفظة لو حملت على ظاهرها كما حملت المرجئة الأخبار التى ذكرناها فى شهادة أن لا إله إلا الله على ظاهرها لكان العالم بقلبه أن لا إله إلا الله مستحقا للجنة وإن لم يقر بذلك بلسانه ولا أقر بشىء مما أمر الله تعالى بالإقرار به ، ولا آمن بقلبه بشىء مما أمر الله بالإيمان به . ولا عمل بجوارحه شيئاً أمر الله به ، ولا انزجر عن شىء حرمه الله من سفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم واستحلال حرمهم ، فاسمع الخبر الذى ذكرت أنه غير جائز أن يحمل على ظاهره كما حملت المرجئة الأخبار التى ذكرناها على ظاهرها، ثم ذكر حديث عثمان عن النبى ﷺ قال : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » وحديث عمران بن حصين سمعت رسول الله ﷺ يقول « من علم أن الله ربه وأنى نبيه صادقاً من قلبه ـــ وأومأ بيده إلى فلذة صدره ـــ حرم الله لحمه على النار » . وحديث معاذ رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « من مات وهو يوقن بقلبه أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من فى القبور . قال ابن سيرين : إما دخل الجنة ، وإما قال نجا من النار » كيف جاز للجهمى الاحتجاج بهذه الأخبار أن المرء يستحق الجنة بتصديق القلب أن لا إله إلا الله وبأن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من فى القبور ، ويترك الاستدلال بما سنبينه بعد إن شاء الله تعالى من معنى هذه الأخبار ، لم يؤمن أن يحتج جاهل لم يعرف دين الله ولا أحكام الإسلام بخبر عثمان عن النبى ﷺ « من علم أن الصلاة عليه حق واجب دخل الجنة » فيدعى أن جميع الإيمان هو العلم بأن الصلاة عليه حق واجب وإن لم يقر بلسانه مما أمر الله بالإقرار به ولا صدق بقلبه بشىء مما أمر الله بالتصديق به ولا أطاع فى شىء أمر الله به ولا انزجر عن شىء حرمه الله ، إذ النبى ﷺ قد أخبر أن من علم أن الصلاة عليه حق واجب داخل الجنة كما أخبر أن من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة ثم ذكر حديث عثمان بسنده ، قال أبو بكر : فإن جاز الاحتجاج بمثل هذا الخبر المختصر فى الإيمان واستحقاق المرء به الجنة وترك الاستدلال بالأخبار المفسرة المتقصاة لم يؤمن أن يحتج جاهل معاند فيقول : بل الإيمان إقام صلاة الفجر وصلاة العصر وأن مصليها يستوجب الجنة ويعاذ من النار وإن لم يأت بالتصديق ولا بالإقرار بما أمر أن يصدق به ويقربه ، ولا يعمل بشىء من الطاعات التى فرض الله على عباده ، ولا انزجر عن شىء من المعاصى التى حرمها الله ، ويحتج بخبر عمار بن روبية فذكره بإسناده إلى عمار ابن روبية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها حرمه الله

على النار » فقال رجل من أهل البصرة : وأنا سمعته عن رسول الله ﷺ . قال أبو بكر : قد أمليت طرق هذا الخبر فى كتاب المختصر من كتاب الصلاة مع أخبار النبى ﷺ « من صلى الصبح فهو فى ذمة الله » وكل عالم يعلم دين الله وأحكامه يعلم أن هاتين الصلاتين لا توجبان الجنة مع ارتكاب جميع المعاصى ، إنها إنما رويت فى فضائل هذه الأعمال ، وإنما رويت أخبار النبى ﷺ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » فضيلة لهذا القول ، لا أن هذا القول كل الإيمان ، قلت للا إله إلا الله لوازم ومقتضيات وشروط مقيد دخول الجنة بالتزام قائلها لجميعها واستكماله إياها كما قدمنا بسطه ولله الحمد . قال رحمه الله تعالى : ولئن جاز لجاهل أن يقول إن شهادة أن لا إله إلا الله جميع الإيمان إذ النبى ﷺ أخبر أن قائلها يستوجب الجنة ويعاذ من النار لم يؤمن أن يدعى جاهل معاند أيضاً أن جميع الإيمان القتال فى سبيل الله فواق ناقة فيحتج بقول النبى ﷺ « من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة دخل الجنة » كاحتجاج المرجئة بقول النبى ﷺ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ، ويقول معاند آخر جاهل إن الإيمان بكماله المشي فى سبيل الله حتى تغبر قدما الماشى ، ويحتج بقول النبى ﷺ « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار » بقوله ﷺ « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى رجل مسلم » . ويدعى جاهل آخر أن الإيمان كله عتق رقبة مؤمنة ويحتج بأن النبى ﷺ قال « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار » . ويدعى جاهل آخر أن جميع الإيمان البكاء من خشية الله تعالى ويحتج بقول النبى ﷺ « لايدخل النار من بكى من خشية الله تعالى » . ويدعى جاهل آخر أن جميع الإيمان صوم يوم فى سبيل الله ويحتج بأن النبى ﷺ قال « من صام يوماً فى سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً » . ويدعى جاهل آخر أن جميع الإيمان قتل كافر ويحتج بقول النبى ﷺ « « لايجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً » ثم ذكره بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ثم قال رحمه الله تعالى: وهذا الجنس من فضائل الأعمال يطول بتقصيه الكتاب ، وفى قدر ما ذكرناه غنية وكفاية لما له قصدنا أن النبى ﷺ إنما أخبر بفضائل هذه الأعمال التى ذكرناها وما هو مثلها لا أن النبى ﷺ أراد أن كل عمل ذكره أعلم أن عامله يستوجب بفعله الجنة أو يعاذ من النار أنه جميع الإيمان، وكذلك إنما أراد النبى ﷺ بقوله « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » أو « حرم على النار » فضيلة لهذا القول لا أن جميع الإيمان كما ادعى من لا يفهم العلم ويعاند فلا يتعلم هذه الصناعة من أهلها . ومعنى قوله ﷺ « لايجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً » هذا لفظ

مختصره الخبر المقتضى لهذه اللفظة المختصرة ما حدثنا الربيع بن سليمان قال حدثنا شعيب بن الليث قال حدثنا الليث عن محمد بن العجلان عن سهيل ابن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « لا يجتمعان فى النار اجتماعاً » يعنى أحدهما مسلم قتل كافراً ثم سدد المسلم وقارب ، قال أبو بكر : لذاك نقول فى فضائل الأعمال التى ذكرناها : من عمل من المسلمين بعض تلك الأعمال ثم سدد وقارب ومات على إيمانه دخل الجنة ولم يدخل النار موضع الكفر منها وإن ارتكب بعض المعاصى ، لذاك لا يجتمع قاتل الكافر إذا مات على إيمانه مع الكافر المقتول فى موضع واحد من النار ، لا إنه لايدخل النار ولا موضعاً منها وإن ارتكب جميع الكبائر خلا الشرك بالله عز وجل إذا لم يشأ تعالى أن يغفر له ما دون الشرك ، فقد أخبر الله عز وجل أن للنار سبعة أبواب فقال لإبليس (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين — إلى قوله تعالى — لكل باب منهم جزء مقسوم) فأعلمنا ربنا عز وجل أنه قسم تابعي إبليس من الغاوين سبعة أجزاء على عدد أبواب النار ، فجعل لكل باب منهم جزءاً معلوماً ، واستثنى عباده المخلصين من هذا القسم ، فكل مرتكب معصية زجر الله عنها فقد أغواه إبليس ، والله عز وجل قد يشاء غفران كل معصية يرتكبها المسلم دون الشرك وإن لم يتب منها لذاك أعلمنا فى محكم تنزيله قوله (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأعلمنا خالقنا عز وجل أن آدم الذى خلقه الله بيده وأسكنه جنته وأمر ملائكته بالسجود له عصاه فغوى ، وأنه عز وجل برأفته ورحمته اجتباه بعد ذلك فتاب عليه وهدى ، ولم يحرمه الله بارتكاب هذا الحوب بعد ارتكابه إياه ، فمن لم يغفر الله له حوبته التى ارتكبها وأوقع عليه اسم غاو فهو داخل فى الأجزاء جزءاً وقسما لأبواب النار السبعة ، وفى ذكره آدم ﷺ وقوله عز وجل (وعصى آدم ربه فغوى) ما يبين ويوضح أن اسم الغاوى قد يقع على مرتكب خطيئة قد زجر الله عن إتيانها وإن لم تكن تلك الخطيئة كفراً ولا شركاً ولا ما يقاربهما ، ومحال أن يكون المؤمن الموحد لله عز وجل قلبه ولسانه المطيع لخالقه فى أكثر ما فرض الله عليه وندبه إليه من أعمال البر غير المفروض عليه والمنتهى عن أكثر المعاصى وإن ارتكب بعض المعاصى والحوبات فى قسم من كفر بالله ودعا معه آلهة له أو صاحبه أو ولداً — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — ولم يؤمن بشيء مما أمر الله تعالى بالإيمان به ولا أطاع الله فى شيء أمر به من الفرائض والنوافل ولا انزجر عن معصية نهى الله عنها محال أن يجتمع هذان فى درجة واحدة من النار ، والعقل مركب على أن يعلم أن كل من كان أعظم خطيئة وأكثر ذنوباً لم يتجاوز الله عن ذنوبه كان أشد عذاباً فى النار ،

كما يعلم كل عاقل أن كل من كان أكثر طاعة لله عز وجل وتقرباً إليه بفعل الخيرات واجتناب السيئات كان أرفع درجة فى الجنان وأعظم ثواباً وأجزل نعمة ، فكيف يجوز أن يتوهم عاقل مسلم أن أهل التوحيد يجتمعون فى النار فى الدرجة مع من كان يفترى على الله عز وجل فيدعو له شريكاً وشركاً فيدعو له صاحبة وولداً ويكفر به ويشرك ويكفر بكل ما أمر الله بالإيمان به ويكذب جميع الرسل ويترك جميع الفرائض ويرتكب جميع المعاصى فيعبد النيران ويسجد للأصنام والصلبان ، فمن لم يفهم هذا الباب لم يجد بدأ من تكذيب الأخبار الثابتة من التى ذكرتها عن النبى ﷺ فى إخراج أهل التوحيد من النار ، إذ محال أن يقال أخرجوا من النار من ليس فيها ، وأكثر استحالة من هذا أن يقال يخرج من النار من ليس فيها ، وفى إبطال أخبار النبى ﷺ اضمحلال الدين وإبطال الإسلام ، والله عز وجل لم يجمع بين جميع الكفار فى موضع واحد من النار ولا سوى بين عذاب جميعهم ، قال الله عز وجل (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) وقال (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب).

ثم لما انتهى من الكلام على ما احتج به المرجئة على باطلهم وكفر به الخوارج وردوه بباطل آخر ، شرع رحمه الله فى بيان ما تشبث به الخوارج واحتجوا به على باطلهم ، وما كفر به المرجئة وردوه بباطل آخر ، فقال رحمه الله تعالى : باب ذكر أخبار رويت عن النبى ﷺ ثابتة من جهة النقل جهل معناها فرقتان : فرقة المعتزلة والخوارج احتجوا بها وادعوا أن مرتكب الكبيرة إذا مات قبل التوبة منها مخلد فى النار محرم عليه الجنان . والفرقة الأخرى المرجئة كفرت بهذه الأخبار وأنكرتها ودفعتها جهلا منها بمعانيها . وأنا ذاكرها بأسانيدها وألفاظ متونها ومبين معانيها بتوفيق الله .

ثم ذكر بأسانيده حديث أسامة بن زيد وسعد بن أبى وقاص وأبى بكرة وسعد بن أبى مالك رضى الله عنهم ، قال رسول الله ﷺ « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » . وحديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال « من انتسب لغير أبيه فلن يرح بريح الجنة ، وريحها يوجد من مسيرة سبعين عاماً » . وحديث حذيفة قال : قال رسول الله « لايدخل الجنة قتات » وفى رواية « نمام » وحديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك » . وحديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « لايدخل الجنة نمام ولا عاق ولا مدمن خمر » . وحديث جبير بن

مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة قاطع » وحديث عمرو بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لايدخلون الجنة : العاق لوالديه، والديوث ورجلة النساء » وحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومدمن خمر ، والمنان بما أعطى » وحديث أبى بكرة عن النبى ﷺ قال « من قتل نفساً معاهدة بغير حقها حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها » .

ثم قال رحمه الله تعالى : معنى هذه الأخبار إنما هو على أحد معنيين : أحدهما لايدخل الجنة أى بعض الجنان ، إذ النبى ﷺ قد أعلم أنها جنان من جنة ، واسم الجنة واقع على كل جنة منها ، فمعنى هذه الأخبار التى ذكرها من فعل كذا لبعض المعاصى حرم الله عليه الجنة أو لم يدخل الجنة معناه لايدخل بعض الجنان التى هى أعلى وأشرف وأنبل وأكثر نعيما وسروراً وبهجة وأوسع لأنه أراد لايدخل شيئاً من تلك الجنان التى هى فى الجنة ، وعبد الله بن عمرو قد بين خبره الذى روى عن النبى ﷺ « لايدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر » أنه إنما أراد حظيرة القدس من الجنة على ما تأولت على أحد المعنيين. ثم ساق بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه قال : « لايدخل حظيرة القدس سكير ولا عاق ولا منان » . قال : والمعنى الثانى ما قد أعلمت أصحابى ما لا أحصى من مرة أن كل وعيد فى الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة ، أى إلا أن يشاء الله تعالى أن يغفر ويصفح ويتكرم ويتفضل فلا يعذب على ارتكاب تلك الخطيئة ، إذ الله عز وجل قد خبر فى محكم كتابه أنه قد يشاء أن يغفر دون الشرك من الذنوب فى قوله تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) قد أمليت هذه المسألة فى كتاب معانى القرآن الكتاب الأول ، واستدللت أيضاً بخبر عن النبى ﷺ بهذا المعنى وساق بإسناده إلى قيس بن محمد بن الأشعث أن الأشعث وهب له غلاماً ، فغضب عليه وقال: والله ما وهبت لك شيئاً ، فلما أصبح رده عليه وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من حلف على يمين صبراً ليقتطع مال امرىء مسلم لقى الله يوم القيامة وهو مجتمع عليه غضبان ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، قلت وتقدم حديث عبادة بن الصامت فى قصة البيعة ، وهو دليل على هذا المعنى ، قال أبو بكر : فاسمعوا الخبر المصرح بصحة ما ذكرت أنها جنان فى جنة، واسم الجنة واقع على كل جنة منها على الانفراد لتستدلوا بذلك على صحة تأويلنا الأخبار التى ذكرناها عن النبى ﷺ من فعل كذا وكذا لبعض المعاصى لم يدخل الجنة إنما أراد

بعض التى هى أعلى وأشرف وأفضل وأنبل وأكثر نعيما وأوسع ، إذ محال أن يقول النبى ﷺ من فعل كذا وكذا لم يدخل الجنة لايريد شيئاً من الجنان ، ويخبر أنه يدخل الجنة فتكون إحدى الكلمتين دافعة الأخرى وأحد الخبرين دافعاً الآخر ، لأن هذا الجنس مما لايدخله التناسخ ، ولكنه من ألفاظ العام الذى يراد به الخاص ، ثم ساق بإسناده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه « أن الربيع أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله أنبئنى عن حارثة أصيب يوم بدر فإن كان فى الجنة صبرت واحتسبت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت فى البكاء . فقال : يا أم حارثة إنها جنان فى جنة وإنه أصاب الفردوس الأعلى » قال أبو بكر : قد أمليت أكثر طرق هذا الخبر فى كتاب الجهاد ، وقد أمليت فى كتاب ذكر نعيم الجنة ذكر درجات الجنة وبعد ما بين الدرجتين . منها أن إخبار النبى ﷺ أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما ترون الكوكب الدرى فى أفق من آفاق السماء لتفاضل ما بينهما . وقول بعض أصحابه : تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال « بلى رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . وأمليت أخبار النبى ﷺ بين كل درجتين من درج الجنة مسيرة مائة عام . فمعنى هذه الأخبار التى فيها ذكر بعض الذنوب الذى يرتكبه بعض المؤمنين أن مرتكبه لا يدخل الجنة . معناها لايدخل العالى من الجنان التى هى دار المتقين الذين لم يرتكبوا تلك الذنوب والحوبات والخطايا . ثم قال : وقد يجوز أن يقول ﷺ من فعل كذا وكذا لم يدخل الجنة يريد لم يدخل الجنة التى يدخلها فيه من لم يرتكب هذه الحوبة . لأنه يحبس عن دخول الجنة إما للمحاسبة على الذنب أو لإدخاله النار ليعذب بقدر ذلك الذنب . إن كان ذلك الذنب مما يستوجب به المرتكب النار إن لم يعف الله ويصفح ويتكرم فيغفر ذلك الذنب فمعنى هذه الأخبار على هذه المعانى لأنها إذا لم تحمل على هذه المعانى كانت على وجه التهاتر والتكاذب|وعلى العلماء أن يتأولوا أخبار رسول الله ﷺ على ما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ فظنوا به الذى هو أهناه وأهداه وأتقاه ، ثم ساقه بإسناده عن على رضى الله عنه فذكره . انتهى كلامه رحمه الله تعالى باختصار بعض مكرره فلا تستطله فإنه كلام متين من إمام متضلع من معانى الكتاب والسنة ذى خبرة وعلم لمواردها ومصادرها . وقوله رحمه الله تعالى . وعلى العلماء أن يتأولوا أخبار رسول الله ﷺ لم يعن رحمه الله التأويل الذى اصطلحه المتكلمون لصرف النصوص عن معانيها إلى الاحتمالات البعيدة التى هضموا بها معانى النصوص بما اقتضته عقولهم السخيفة وليس ذلك من طريقته ولا من شأنه رحمه الله وإنما عنى ما أشار إليه فى غير موضع من كتبه من حمل

المجمل على المفسر ، والمختصر على المقتضى ، والمطلق على المقيد ، والعموم على الخصوص ، وما أشبه ذلك من التأليف بين النصوص ومدلولاتها لئلا تكون متناقضة يرد بعضها معنى بعض ، لأن ذلك مما ينزه عنه كلام الله وكلام رسوله ﷺ . وهذه طريقة جميع أئمة المسلمين من علماء التفسير والحديث والفقه فى أصول الدين وفروعه رحمهم الله تعالى ورضى عنهم .

مسألة . فإن قيل وما الجمع بين ما تقدم من حديث عبادة بن الصامت فيمن ارتكب حداً لم يقم عليه قال فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، وبين ما صرحت به النصوص التى فى الميزان والحساب والجنة من أن من رجحت خطاياه وسيئاته بحسناته تمسه النار ولابد . قلنا لا إشكال فى ذلك ولا منافاة ولله الحمد . وقد حصل الجمع الفاصل للنزاع بحديث عائشة رضى الله عنها الذى ذكرنا فى شرح البيت الأدنى بأن من يشأ عز وجل أن يعفو عنه يحاسبه الحساب اليسير الذى فسره النبى ﷺ بالعرض وقال فى معنى العرض فى الأحاديث السابقة فى صفته : « يدنو أحدكم من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، ويقول أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ، فيقرره ثم يقول : إنى سترت عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم » . وأما الذين يدخلون النار بذنوبهم فهم ممن يناقش الحساب وقد قال رسول الله « من نوقش الحساب عذب » . نسأل الله عز وجل أن ييسر حسابنا ويتجاوز عنا ويغفر لنا بمنه وكرمه آمين .

ولا نكفــر بالمعــاصى مؤمنــاً   إلا مع استحلالــه لما جنــى

(ولا نكفر بالمعاصى) التى قدمنا ذكرها وأنها لا توجب كفراً . والمراد بها الكبائر التى ليست بشرك، ولا تستلزمه ولا تنافى اعتقاد القلب ولا عمله (مؤمناً) مقراً بتحريمها معتقداً له ، مؤمناً بالحدود المترتبة عليها ، ولكن نقول يفسق بفعلها ويقام عليه الحد بارتكابها وينقص إيمانه بقدر ما تجارأ عليه منها ، والدليل على فسقه ونقصان إيمانه قول الله عز وجل (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلده ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وما فى معناها من آيات الحدود والكبائر ، وقول النبى ﷺ ولا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد «

الحديث فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريره رضى الله عنه . والدليل على أن النفى فى هذا الحديث وغيره ليس لمطلق الإيمان بل لكماله هو ما قدمنا من النصوص التى صرحت بتسميته مؤمناً وأثبتت له أخوة الإيمان ، وأبقت له أحكام المؤمنين .

(إلا مع استحلاله لما جنى) هذه هى المسألة الخامسة وهو أن عامل الكبيرة يكفر باستحلاله إياها بل يكفر بمجرد اعتقاده بتحليل ما حرم الله ورسوله لو لم يعمل به لأنه حينئذ يكون مكذباً بالكتاب ومكذباً بالرسول ﷺ وذلك كفر بالكتاب والسنة والإجماع. فمن جحد أمراً مجمعاً عليه معلوماً من الدين بالضرورة فلا شك فى كفره .

وتقبل التوبة قبل الغرغره   كما أتى فى الشرعة المطهرة

هذه هى المسألة السادسة وهى أن التوبة إذا استكملت شروطها مقبولة من كل ذنب كفراً كان أو دونه . وقد دعا الله تبارك وتعالى إليها جميع عباده فدعا إليها من قال المسيح هو الله ، ومن قال هو ثالث ثلاثة،ومن قال يد الله مغلولة ، ومن قال إن الله فقير ونحن أغنياء، ومن دعا لله الصاحبة والولد فقال لهم جميعاً (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ودعا إليها من هو أعظم محادة لله من هؤلاء وهو من قال أنا ربكم الأعلى ما علمت لكم من إله غيرى فقال الله تبارك وتعالى لرسوله موسى (اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى) وقال له فى الآية الأخرى « ان ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون » وفى الآية الأخرى (اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) ودعا إلى التوبة من عمل أكبر الكبائر وهى الشرك وقتل النفس بدون حق والزنى ، فقال تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) ودعا إليها من كتم ما أنزل الله من البينات والهدى فقال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) ودعا إليها المشركين قاطبة فقال بعد الأمر بقتلهم حيث وجدوا (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ودعا إليها المنافقين قاطبة فقال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين) ودعا إليها

جميع المسرفين بأى ذنب كان فقال تعالى (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) الآيات وغيرها ما لايحصى، بل لم يرسل الله الرسل وينزل الكتب إلا دعوة منه لعباده إلى التوبة ليتوب عليهم إنه هو التواب الرحيم .

وفى الصحيح من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح » وفيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال « أذنب عبدى ذنباً فقال : اللهم اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب . ثم عاد فأذنب فقال: أى ربى اعفر لى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك » وفيه عن أبى موسى عن النبى ﷺ : « قال إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس عن مغربها » وفيه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفس : فسأل عن أعلم أهل الأرض . فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال :إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى الأرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم . ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت،فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلا بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم . فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له . فقاسوه ، فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » قال قتادة فقال الحسن : ذكر لنا أنه « لما أتاه الموت ناء بصدره » وفى رواية « فلما كان فى بعض الطريق أدركه الموت فناء بصدره ، ثم مات ، فاختصمت فيه

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها شبراً فجعل من أهلها » . وفيه من حديث بن عباس رضى الله عنهما : أن أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا هل لما عملنا كفارة ، فنزل (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون) ونزل (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) . وقال محمد بن إسحاق : قال نافع عن عبد الله بن عمر عن عمر رضى الله عنهما فى حديثه قال « وكنا نقول: ما الله يقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلا ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم . قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم . قال : فلما تقدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم : (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) قال عمر رضى الله عنه : فكتبتها بيدى فى صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضى الله عنه . قال فقال هشام : لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى ، أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها ، حتى قلت : اللهم أفهمنيها . قال : فألقى الله عز وجل فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا ، فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة » .

والأحاديث فى شأن التوبة والحث عليها وفى تكفيرها للذنوب كثيرة جداً لها مصنفات مستقلة ، وحيث ذكرت من الآيات والأحاديث فإنما المراد بها التوبة النصوح ، وهى التى اجتمع فيها ثلاثة شروط : الأول الإقلاع عن الذنب ، الثانى الندم على فعله ، الثالث العزم على أن لا يعود فيه . فإن كان فى ذلك الذنب حق لآدمى لزم استحلاله منه إن أمكن ، للحديث الذى قدمنا « من كان عنده لأخيه مظلمة فليتحلل منه اليوم ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم » الحديث فى الصحيح ، وهذه الشروط فى كيفية التوبة، وأما الشرط فى زمانها فهو ما أشرنا إليه فى المتن بقولنا « قبل الغرغرة » وهى حشرجة الروح فى الصدر ، والمراد بذلك الاحتضار عندما يرى الملائكة ويبدأ بها السياق ، قال الله تبارك وتعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت

الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً) . وعن أبى العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة ، رواه ابن جرير ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتاده قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ . فرأوا أن كل شىء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره . وقال مجاهد : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها . وقال بن عباس رضى الله عنهما : من جهالته عمل السوء ، وعنه رضى الله عنه قال (ثم يتوبون من قريب) قال : بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت . وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال قتادة والسدّى : مادام فى صحته . وهو مروى عن ابن عباس . وقال الحسن البصرى : ثم يتوبون من قريب مالم يغرغر. وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب ، وروى الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وله عن عبد الرحمن بن البيلمانى قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت بيوم » فقال الآخر أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بنصف يوم » فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد قبل أن يموت بضحوة » وقال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه » ، وروى بن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » . وهذا توقيت زمان التوبة فى حق كل فرد من العباد ، وأمل فى حق عمر الدنيا ، فقد تقدمت فى الآيات والأحاديث أنها تنقطع بطلوع الشمس من مغربها ، لأنها أول آيات القيامة العظام وحين الإياس من الدنيا، كما أن رؤية ملك الموت آية الانتقال من الدنيا وحين الإياس من الحياة ، وكذلك الأمم المخسوف بها انقطعت التوبة عنهم برؤيتهم العذاب . قال الله تبارك وتعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) .

فصـــــل
فى معرفة نبينا محمد ﷺ وتبليغه الرسالة

وإكمال الله لنا به الدين ، وأنه خاتم النبيين ، وأفضل الخلق أجمعين
وأن من ادعى النبوة بعده فهو كاذب يكفر من صدقه واتبعه

نبينـــــا محمـــــد من هاشم   إلى الذبيح دون شك ينتمــــى

(نبينا محمد) ﷺ (من) ولد (هاشم) ، وهو ﷺ أبو القاسم محمد ابن عبد الله بن عبدالمطلب واسمه شيبة الحمد بن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف واسمه مغيرة بن قصى واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وأمه ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى . وأم عبد الله فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى . وأم عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم ابن عدى بن النجار . وأم هاشم عاتكة بنت مرة بن هلال . وأم عبد مناف حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى . وأم قصى فاطمة بنت سعيد بن سيل أحد الجدرة من جعثمة الأسد من اليمن . وأم كلاب هند بنت سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة . وأم مرة حبشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر . وأم كعب ماوية بنت كعب بن القين بن الجسر من قضاعة ، وأم لؤى سلمى بنت عمرو الخزاعى ، وأم غالب ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة ، وأم فهر بن مالك جندلة بنت الحارث بن مضاض الجرهمى ، وأم مالك عاتكة بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ، وأم النضر برة بنت مر بن أد بن طابخة بن إلياس ابن مضر وأم كنانة عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان بن مضر ، وأم خزيمة امرأة من قضاعة ، وأم مدركة بن إلياس خندف بنت عمران بن الحاف بن قضاعة . وأم إلياس بن مضر جرهمية ، وأم مضر سودة بنت عك بن عدنان ، وأم ربيعة أخى مضر شقيقة بنت عك بن عدنان ، وهاتان القبيلتان المضروب بهما المثل ــ ربيعة ومضر ــ ابنا نزار بن معد بن عدنان ، ولمضر أخ شقيق وهو إياد بن نزار ، ولربيعة أخ شقيق أيضاً وهو أنمار بن نزار .

وهذ هو النسب المتفق على سرده ، لا خلاف فيه لأحد ، وكذا لا خلاف فى أن نسب عدنان إلى الذبيح إسماعيل الحليم بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام . وكذا لا خلاف فى أن إبراهيم ينتمى إلى سام بن نوح وهو أبو العرب قاطبة ، وكذا لا خلاف فى أن نوحاً ينتمى إلى شيث بن آدم وهو وصى أبيه عليهم السلام . وإنما الخلاف فى كمية الآباء بين عدنان وإسماعيل بن إبراهيم ، وبين إبراهيم وسام بن نوح ، وبين نوح وشيث بن آدم ، وقد كان كثير من أئمة الدين — كمالك بن أنس الإمام وغيره — يكرهون تعداد الآباء من فوق عدنان ، ويقولون : هو رجم بالغيب ، وما يدرى من يفعل ذلك ، والله تعالى يقول (وقروناً بعد ذلك كثيراً) وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله : كان قوم من السلف — منهم عبد الله بن مسعود وعمرو بن ميمون الأودى ومحمد بن كعب القرظى — إذا تلوا (والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله) قالوا : كذب النسابون ، وروى عن بن عباس رضى الله عنهما أنه كان إذا بلغ عدنان يقول : كذب النسابون . قال السهيلى : وقد رأى جماعة جواز ذلك ، منهم ابن إسحاق والبخارى والزبير بن بكار والطبرى وغيرهم من العلماء ، قال أبو عمر بن عبد البر : والذى عليه أئمة هذا الشأن فى نسب عدنان قالوا : عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

والمقصود أن نبينا محمداً ﷺ أخرجه الله تعالى من أوسط العرب نسباً وأكرمهم حسباً ، وأعلاهم كعباً ، وأعظمهم جرثومة ، وأشرفهم أصلا وأطيبهم فرعاً ، وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن مهران الرازى ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم جميعاً عن الوليد ، قال بن مهران : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى عن أبى عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » ، وروى الترمذى عن العباس بن عبد المطلب قال : قلت يا رسول الله إن قريشاً جلسوا فتذاكروا أحسابهم بينهم فجعلوا مثلك مثل نخلة فى كبوة من الأرض ، فقال النبى ﷺ « إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم خير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة، ثم خير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » وفى رواية فقام النبى ﷺ على المنبر فقال « من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله عليك السلام . قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم،

ثم جعلهم فرقتين فجعلنى فى خيرهم فرقة ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً » هذا حديث حسن . وحمى الله تبارك وتعالى أصول نبينا من سفاح الجاهلية فلم يشب نسبه شىء من ذلك لا من جهة آبائه ولا من جهة أمهاته ولم يولد إلا من نكاح كنكاح الإسلام كما رواه جماعة عن جعفر الصادق عن أبائه مرفوعاً « إنى ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح » .

وكان مولده ﷺ عام الفيل كما روى الترمذى وغيره عن عبد المطلب ابن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل . قال : وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بنى يعمر ابن ليث : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله أكبر منى ، وأنا أقدم منه فى الميلاد ، قال : ورأيت حدق الفيل أخضر محيلا ، قال الترمذى : حديث حسن .

مولده بمكة المطهرة	هجرته لطيبة المنورة
بعد أربعين بدا الوحى به	ثم دعا إلى سبيل ربه
عشر سنين أيها الناس اعبدوا	رباً تعالى شأنه ووحدوا
وكان قبل ذاك فى غار حرا	يخلو بذكر ربه عن الورى

(مولده) ﷺ (بمكة المطهرة) من كل رجس حساً ومعنى (هجرته) ﷺ (لطيبة) المدينة (المنورة) وكان ذلك موجوداً فى الصحف التى بشرت به ﷺ من التوراة والإنجيل وغيرهما ، والآيات فى ذلك والدلائل على ذلك لا تحصى ، ثم كان الأمر كما بشرت ، فولد بمكة وأوحى إليه فيها وبعث بالدعوة إلى الله فيها ، ثم كانت هجرته إلى المدينة كما سيأتى إن شاء الله عز وجل .

(بعد أربعين) سنة من عمره ﷺ (بدأ الوحى) من الله عز وجل إليه (به) ﷺ كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ ربعة من القوم، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم ، ليس بجعد قطط ولا سبط رجل ، بعثه الله على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين » الحديث ، وكيفية بدء الوحى ما ذكره البخارى رحمه الله تعالى قال : حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن بن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت

« أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد ــ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيراً قد عمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى . يا ليتنى فيها جذع . ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى. وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى » . قال بن شهاب وأخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى . فقال فى حديثه « بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى . فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله والرجز فاهجر) فحمى الوحى وتتابع » . تابعه عبد الله بن يوسف وأبو صالح وتابعه هلال بن رداد عن الزهرى . وقال يونس ومعمر « بوادره » . حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا أبو عوانة قال حدثنا موسى بن أبى عائشة قال حدثنا سعيد بن جبير عن بن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ولا تحرك به لسانك لتعجل به) قال « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه. فقال ابن عباس:

فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله ﷺ يحركهما . وقال سعيد : وأنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما . فحرك شفتيه . فأنزل الله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) قال جمعه لك بصدرك وتقرأه (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال فاستمع له وأنصت (ثم إن علينا بيانه) ثم إن علينا أن نقرأه وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه » وقال رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها « إن الحارث ابن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

(ثم دعا إلى سبيل ربه) وهو على دين الإسلام الذى أرسل الله تعالى به رسله وأنزل به كتبه ، وهو دينه فى السماء والأرض ولن يقبل الله تعالى من أحد ديناً سواه ، (عشر سنين) دعوته إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان فقط قبل أن يفرض عليه الصلوات الخمس ولا غيرها قائلا : « أيها الناس اعبدوا رباً تعالى شأنه » لا تعبدوا إلا الله (ووحدوا) تفسير لذلك . وهذه دعوة من قبله من نوح إلى خاتمهم محمد ﷺ كلهم يقول (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وكانت الدعوة فى أول البعثة سراً ثلاث سنين فيما ذكر ابن إسحاق وغيره قال ابن مسعود رضى الله عنه : مازال النبى ﷺ مستخفياً حتى نزلت (واصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) . وقال البخارى رحمه الله تعالى فى تفسير سورة الشعراء : قوله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحيك) حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبى حدثنا الأعمش قال حدثنى عمرو بن مرة عن سعد جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو . فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا: نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : فإنى نذير لم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم،

ألهذا جمعتنا فنزلت (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب) . حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب وأبو سلمة عن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال « قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال : يامعشر قريش — أو كلمة نحوها — اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبد مناف ، لاأغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد ﷺ ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » . ورواهما مسلم أيضاً وقال رحمه الله : حدثنا قتيبة بن سعيد وزهير بن حرب قالا : حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى هاسم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلاها » . وله عن عائشة رضى الله عنها قالت « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » ، وله عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمر قالا « لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) انطلق رسول الله ﷺ إلى رضمة من جبل فعلا أعلاها حجراً ثم نادى: يا بنى عبد مناف إنى نذير ، إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله ، فخشى أن يسبقوه ، فجعل يهتف: يا صباحاه ، وكان قبل ذلك فى غار حراء إلخ » تقدم معناه فى حديث الحارث بن هشام .

حديث الإسراء والمعراج

وبعـد خمسين من الأعـوام	مضت لعمـر سيـد الأنـام
أسرى به الله إليـه فى الظلـم	وفـرض الخمس عليـه وحتم

وكان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، والمعراج من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ثم إلى حيث شاء عز وجل ، قال الله تبارك وتعالى فى ذكر الإسراء : (بسم الله الرحمن الرحيم ، سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وقال تبارك وتعالى فى ذكر المعراج (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ..

وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب حديث الإسراء وقول الله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل ابن شهاب حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لما كذبنى قريش ، قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » . باب المعراج . حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما أن بنى الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : « بينما أنا فى الحطيم — وربما قال فى الحجر — مضطجعاً إذ أتانى آت ، فقد قال وسمعته يقول ، فشق ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود وهو إلى جنبى ما يعنى به ؟ قال من ثغرة نحره إلى شعرته. وسمعته يقول : من قصه إلى شعرته « فاستخرج قلبى . ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبى ، ثم حشى ، ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض » فقال الجارود هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس نعم « يضع خطوه عند أقصى طرفه ، فحملت عليه ، فانطلق بى جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء ، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه . فسلمت عليه فرد السلام ، ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح . ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجىء جاء . ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح. قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل

ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا يوسف، قال هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح . قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت إذا إدريس ، قال هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم ، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا هارون . قال هذا هارون فسلم عليه ، فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ،قيل أو قد أرسل إليه،قال نعم ، قال مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى ، قال هذا موسى فسلم عليه . فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، فلما تجاوزت بكى ، قيل له ما يبكيك ؛ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى . ثم صعد بى إلى السابعة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال نعم ، قال مرحباً به فنعم المجيء جاء . فلما خلصت فإذا إبراهيم قال : هذا أبوك فسلم عليه، فسلمت عليه فرد على السلام قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح، ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذ ورقها مثل آذان الفيلة ، قال هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت ماهذان يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ، ثم رفع لى البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن فقال هى الفطرة أنت عليها وأمتك ثم فرضت على الصلوات خمسين صلاة كل يوم ، فرجعت فمررت على موسى فقال : بما أمرت ؟ قال أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت فقال

مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت ؟ قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإنى قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، قال سألت ربى حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم ، قال فلما جاوزت نادانى مناد : أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى » ، رواه مسلم مختصراً . قلت وقوله فى هذه الرواية عن إدريس مرحباً بالأخ الصالح هذا قد يشكل ، لأن إدريس من آبائه والمعنى والله أعلم على ما فى الحديث « نحن معاشر الأنبياء أبناء علات » . إلخ . وقال البخارى رحمه الله تعالى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى سليمان عن شريك بن عبد الله أنه قال : سمعت ابن مالك ــ يعنى أنساً رضى الله عنه ــ يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة « إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم ، فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولاتنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق ما بين نحره إلى لبته حتى أفرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده ــ يعنى عروق حلقه . ثم أطبقه ، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبوابها فناداه أهل السماء : من هذا؟ فقال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد قال وقد بعث إليه ؟ قال نعم ، قالوا مرحباً به وأهلا ، فيستبشر أهل السماء لايعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يعلمهم ، فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك فسلم عليه ، فسلم ورد عليه آدم وقال مرحباً وأهلا يابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان ، فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال هذا النيل والفرات ، ثم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك ، فقال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك . ثم عرج إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى : من هذا ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ، قالوا مرحباً به وأهلا . ثم عرج به إلى السماء الثالثة وقالوا مثل ما قالت الأولى والثانية ، ثم عرج به إلى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء

السادسة فقالوا له مثل ذلك ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك ، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فأوعيت منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله ، فقال موسى رب لم أظن أن يرفع علىّ أحد ، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله تعالى حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة ، قال إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت ، فعلا به إلى الجبار فقال وهو مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة فقال : يا رب إن أمتى ضعفاء أجسامهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا . فقال الجبار : يا محمد ، قال لبيك وسعديك ، قال إنه لايبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب . قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى: قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً ، قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت إليه ، قال فاهبط باسم الله . فقال واستيقظ وهو فى المسجد الحرام » .

ورواه مسلم بعد حديث ثابت النبانى أصله وقال نحو حديث ثابت النبانى وقدم فيه شيئاً وآخر وزاد ونقص : وهذا السياق روايته لحديث ثابت وقال رحمه الله تعالى : حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ، قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، قال فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ، قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت ، فجاءنى جبريل عليه

السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما وسلامه ، فرحبا ودعوا لى بخير ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذ هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام . قيل من هذا ؟ قيل جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قال وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث ، ففتح الباب فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحب ودعا لى بخير ، قال الله عز وجل (ورفعناه مكاناً علياً) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بهرون ﷺ ، فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا بموسى ﷺ فرحب بى ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ﷺ ، قيل وقد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال ، قال فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إلى ما أوحى . ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى ﷺ فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة ، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم . قال فرجعت إلى ربى فقلت يا رب خفف عن أمتى ، فحط عنى خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت حط عنى خمساً ، قال إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، قال فلم أزل أرجع بين ربى تبارك

وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن كتبت سيئة واحدة ، قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فقال رسول الله ﷺ فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب كيف فرضت الصلاة فى الإسراء . حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان أبو ذر رضى الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال : فرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ملىء حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدى فخرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح . قال : من هذا ؟ قال جبريل ، قال/هل معك أحد ؟ قال نعم معى محمد ﷺ ، فقال أرسل إليه؟ قال نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسورة وعلى يساره أسورة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل يساره بكى ، فقال مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح ، قلت لجبريل من هذا ؟ قال هذا آدم وهذه الأسورة عن يمينه وشماله ذريته ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسورة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى ، حتى عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال الأول ، ففتح ، قال أنس فذكر أنه وجد فى السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم ، ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس : فلما مر جبريل بالنبى ﷺ بإدريس قال مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح ، فقلت من هذا؟ قال هذا إدريس، ثم مررت بموسى فقال مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح، قلت من هذا ؟ قال هذا موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح ، قلت من هذا ؟ قال هذا عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح، قلت من هذا ؟ قال هذا إبراهيم ﷺ قال ابن شهاب فأخبرنى ابن حزم ان ابن عباس وأباحبة الأنصارى كانا يقولان : قال النبى ﷺ « ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام قال ابن حزم وأنس بن مالك قال النبى ﷺ « فرض الله على أمتى خمسين صلاة ، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت

فرض خمسين صلاة ، قال فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعت فوضع شطرها ، فرجعت إليه فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته فقال هى خمس وهى خمسون لايبدل القول لدىّ ، فرجعت إلى موسى فقال : راجع ربك ، فقلت استحييت من ربى ثم انطلق بى حتى انتهى بى إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدرى ما هى ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك . وافقه عليه مسلم رحمه الله تعالى. وله عن مرة عن عبد الله قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال فراش من ذهب ، قال فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات . وله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كربة ما كربت مثلها قط، قال فرفعه الله لى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم » الحديث . وهذا الذى ذكرنا من حديث أنس وجابر ومالك بن صعصعة وأبى ذر وابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس وأبى حبة هى من أصح ماورد وأقواه وأجوده وأسنده وأشهره وأظهره لاتفاق الشيخين على إخراجهما ، وعن هؤلاء روايات أخر لم نذكرها استغناء عنها بما فى الصحيحين ، وفى الباب أحاديث أخر عن جماعة من الصحابة منهم من لم نذكر : عمر بن الخطاب وعلى وأبو سعيد وشداد بن أوس وأبى بن كعب وعبد الرحمن بن قرظ وأبو ليلى وعبدالله بن عمرو وحذيفة وبريدة وأبو أيوب وأبو أمامة وسمرة بن جندب وأبو الحمأ وصهيب الرومى وأم هانىء وعائشة وأسماء ابنتا أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين . ثم الذى دلت عليه الآيات والأحاديث أن الإسراء والمعراج كانا يقظة لا مناما ، ولا ينافى ذلك ما ذكر فى بعض الروايات فى قوله ﷺ بينا أنا نائم فإن ذلك عند أول ما أتياه ولا يدل على أنه استمر نائماً ولذا كانت رؤيا الأنبياء وحيا ، ولكن فى سياق الأحاديث من ركوبه ونزوله وربطه وصلاته وصعوده وهبوطه وغير ذلك ما يدل على أنه أسرى بروحه وجسده يقظة لا مناما ، وكذا لا ينافى ذلك رواية شريك « فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام » فإن رواية شريك فيها أوهام كثيرة تخالف رواية الجمهور عن أنس فى أكثر من عشرة مواضع سردها فى الفتح ، وسياقه يدل على أنه بالمعنى ، وصرح فى مواضع كثيرة أنه لم يثبتها ، وتصريح الآية (سبحان الذى أسرى بعبده) شامل للروح والجسد ، وكذلك قوله

تعالى فى سورة النجم (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) جعل رؤية النبى ﷺ لجبريل عند سدرة المنتهى مقابلا لرؤيته إياه فى الأبطح ، وهى رؤية عين حقيقة لامناما ، ولو كان الإسراء والمعراج بروحه فى المنام لم تكن معجزة ولا كان لتكذيب قريش بها وقولهم كنا نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس شهراً ذهاباً وشهراً إياباً ، ومحمد يزعم أنه أسرى به إليه وأصبح فينا ، إلى آخر تكذيبهم واستهزائهم به ﷺ ، لو كان ذلك رؤيا مناما لم يستبعدوه ولم يكن لردهم عليه معنى ، لأن الإنسان قد يرى فى منامه ما هو أبعد من بيت المقدس ولا يكذبه أحد استبعاداً لرؤياه ، وإنما قص عليهم رسول الله ﷺ مسرى حقيقة يقظة لا مناما فكذبوه واستهزءوا به استبعاداً لذلك واستعظاماً له ، مع نوع مكابرة لقلة علمهم بقدرة الله عز وجل وأن الله يفعل ما يريد ، ولهذا لما قالوا للصديق وأخبروه الخبر قال : إن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا وتصدقه بذلك ؟ قال نعم ، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك فى خبر السماء يأتيه ، يأتيه بكرة وعشيا ، أو كما قال .

واختلف السلف الصالح هل رأى نبينا محمد ﷺ ربه ليلة المعراج ، فروى ابن خزيمة وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ ؟ وعن عكرمة قال: سمعت ابن عباس وسئل هل رأى محمد ﷺ ربه؟ قال نعم ، قال فقلت لابن عباس: أليس يقول الله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ؟ قال لا أم لك ، ذلك نوره إذا تجلى بنوره لم يدركه شىء . وروى عنه من طرق لا تحصى كثرة قال : رأى محمد ﷺ ربه . وعنه رآه بقلبه . وفى رواية : رآه بفؤاده مرتين ، رواه مسلم وغيره ، وله عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : نور أنى أراه ؟ وفى رواية قال : رأيت نوراً ، قال ابن خزيمة فى قوله « نور أنى أراه »: هذا يحتمل معنين على سعة لسان العرب : أحدهما الإثبات ومعناه أنى أراه ، أو كيف أراه فهو نور ، أو فإن ما أرى نور . ويؤيد هذا رواية « رأيت نوراً » المعنى الثانى النفى قال : والعرب قد تقول « أنى » على معنى النفى كقوله عز وجل (قالوا أنى يكون له الملك علينا)، الآية، يريدون كيف يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ثم روى عن أبى ذر قال : رآه بقلبه ولم يراه بعينه ، وله عن عباد بن منصور قال : سألت الحسن فقلت (ثم دنا فتدلى) من ذا يا أبا سعيد ؟ قال ربى . وله عن المبارك بن فضالة قال : كان الحسن يحلف بالله لقد رأى محمد ﷺ ربه . وله عن كعب قال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد صلوات

الله عليهما فرآه محمد مرتين وكلم موسى مرتين . وروى ابن أبى حاتم عن عباد بن منصور قال : سألت عكرمة عن قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) فقال عكرمة تريد أن أخبرك أنه قد رآه ؟ قلت نعم . قال قد رآه ، ثم قد رآه ، وروى ابن جرير عن محمد بن كعب عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : قلنا يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال « لم أره بعينى ، ورأيته بفؤادى مرتين » ثم تلا (ثم دنا فتدلى) وقال البغوى : وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه ، وهو أنس والحسن وعكرمة قالوا: رأى محمد ربه . قال ابن كثير : وقول البغوى فيه نظر . وروى البخارى ومسلم عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قف شعرى مما قلت ، أين أنت من « ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب ـــ ثم قرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) ، (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) ـــ ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ـــ ثم قرأت (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) ـــ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ـــ ثم قرأت (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية ـــ ولكنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته مرتين » هذا لفظ البخارى ، ولفظ مسلم عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة رضى الله عنها فقالت « يا أبا عائش ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظرينى ولا تعجلينى ، ألم يقل الله عز وجل (ولقد رآه بالأفق المبين) ، (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ، منهبطاً من السماء ساداً أعظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . فقالت أو لم تسمع أن الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أو لم تسمع أن الله يقول (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم) قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول (قلْ لا يعلم ما فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وزاد فى رواية ـــ قالت : ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل إليه لكتم هذه الآية (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت

عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . وعن أبى هريرة وابن مسعود فى آية النجم مثل قول عائشة ، قال أبو بكر بن خزيمة رحمه الله فى قول عائشة رضى الله عنها : « فقد أعظم على الله الفرية » قال : هذه لفظة أحسب عائشة تكلمت بها فى وقت غضب كانت لفظة أحسن منها يكون فيها درك لبغيتها ، كان أجمل بها ، ليس يحسن فى اللفظ أن يقول قائل أو قائلة قد أعظم ابن عباس الفرية وأبو ذر وأنس بن مالك وجماعات من الناس الفرية على ربهم ، ولكن قد يتكلم المرء عند الغضب باللفظة التى يكون غيرها أحسن وأجمل منها ، أكثر ما فى هذا أن عائشة رضى الله عنها وأبا ذر وابن عباس رضى الله عنهما وأنس بن مالك رضى الله عنه قد اختلفوا : هل رأى النبى ﷺ ربه ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : لم ير النبى ﷺ ربه ، وقال أبو ذر وابن عباس رضى الله عنهما قد رأى النبى ﷺ ربه ، وقد أعلمت فى مواضع من كتبنا أن النفى لايوجب علماً والإثبات هو الذى يوجب العلم ، لم تحك عائشة عن النبى ﷺ أنه خبرها أنه لم ير ربه عز وجل ، وإنما تلت قوله عز وجل (لا تدركه الأبصار) وقوله (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) ومن تدبر هاتين الآيتين ووفق لإدراك الصواب علم أنه ليس فى واحدة من الآيتين ما يستحق من قال إن محمداً رأى ربه الرمى بالفرية على الله. كيف بأن يقول قد أعظم الفرية على الله — ثم قال رحمه الله تعالى : فقد ثبت عن ابن عباس إثباته أن النبى ﷺ قد رأى ربه ، وبيقين يعلم كل عالم أن هذا ليس من الجنس الذى يدرك بالعقول والآراء والجنان والظنون ، ولا يدرك مثل هذا العلم إلا من طريق النبوة إما بكتاب أو بقول نبى مصطفى ، ولا أظن أحداً من أهل العلم يتوهم أن ابن عباس قال رأى النبى ﷺ ربه برأى ولا ظن ولا أبو ذر ولا أنس بن مالك ، نقول كما قال معمر بن راشد لما ذكر اختلاف عائشة رضى الله عنها وابن عباس فى هذه المسألة : ما عائشة عندنا أعلم من ابن عباس ، نقول عائشة الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله عالمة فقيهة ، كذلك ابن عباس رضى الله عنهما ابن عم النبى ﷺ قد دعا النبى ﷺ له أن يرزق الحكمة والعلم . وهذا المعنى من الدعاء وهو المسمى ترجمان القرآن ، وقد كان الفاروق رضى الله عنه يسأله عن معانى القرآن فيقبل منه وإن خالفه غيره ممن هو أكبر سناً منه وأقدم صحبة للنبى ﷺ ، وإذا اختلفا فمحال أن يقال قد أعظم ابن عباس الفرية على الله لأنه قد أثبت شيئاً نفته عائشة رضى الله عنها ، والعلماء لا يطلقون هذه اللفظة ، وإن غلط بعض العلماء فى معنى الآية من كتاب الله عز وجل أو خالف سنة أو سنناً من سنن النبى ﷺ لم تبلغ المرء تلك

السنن ، فكيف يجوز أن يقال أعظم الفرية على الله من أثبت شيئاً لم ينفه كتاب ولا سنة ، فتفهموا هذا لا تغالطوا . ثم قال رحمه الله تعالى : وقد كنت قديماً أقول إن عائشة حكت عن النبى ﷺ ما كانت تعتقد فى هذه المسألة أن النبى ﷺ لم ير ربه جل وعلا وأن النبى ﷺ أعلمها ذلك وذكر ابن عباس رضى الله عنهما وأنس ابن مالك وأبو ذر رضى الله عنهم عن النبى ﷺ أنه رأى ربه لعلم كل عالم يفهم هذه الصناعة أن الواجب من طريق العلم والفقه قبول قول من روى عن النبى ﷺ أنه رأى ربه إذ جائز أن تكون عائشة رضى الله عنها سمعت النبى ﷺ يقول لم أر ربى قبل أن يرى ربه عز وجل ، ثم يسمع غيرها أن النبى ﷺ يخبر أنه قد رأى ربه بعد رؤيته ربه ، فيكون الواجب من طريق العلم قبول خبر من أخبر أن النبى ﷺ رأى ربه . انتهى كلامه رحمه الله .

حديث الهجـــــرة

وبعـد أعـوام ثلاثـــة مضت	من بعد معراج النبى وانقضت
أوذن بالهجـــــرة نحو يثربـــــا	مع كل مسلـم له قد صحبـــا

(وبعد أعوام ثلاثة) وقيل خمسة ، وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر ، وهذا الذى فى المتن هو اختيار الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فى الثلاثة الأصول ، وله فيه سلف ، وليست مسألة التاريخ اعتقادية فى هذا الباب ، والإسراء والمعراج ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة فلا تأثير لاختلاف أهل السير فى تاريخه وتعيين سنته ووقته . غير أن الراجح فيه كونه بين عاشر البعثة وبين هجرته ﷺ إلى المدينة ، وعلى قول من يقول إن خديجة رضى الله عنها أدركت فريضة الصلوات فالمعراج فى سنة عشر أو قبلها والله أعلم ، لأنها توفيت هى وأبو طالب فى ذلك العام .

(أوذن بالهجرة) أمره الله عز وجل بها (نحو يثرب) وهى المدينة المنورة (مع كل مسلم) فى ذاك الزمن (له قد صحبا) على الإسلام ، وكانت هجرة النبى ﷺ بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . قال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مطر بن الفضل حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام حدثنا عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم

آمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ، ومات وهو ابن ثلاث وستين . وقال البغوى رحمه الله تعالى فى تفسير قول الله عز وجل (وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) : وهذه الآية معطوفة على قوله (واذكروا إذ أنتم قليل) واذكر (إذ يمكر بك الذين كفروا) (وإذ قالوا اللهم) وأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كان بمكة ، ولكن الله ذكرهم بالمدينة كقوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله) وكان هذا المكر على ماذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير أن قريشاً فرقوا لما أسلمت الأنصار إن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ ، فاجتمع نفر من كبارهم فى دار الندوة ليتشاوروا فى أمر رسول الله ﷺ ، وكانت رءوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان والمطعم بن عدى وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه بن الحجاج وأمية بن خلف ، فاعترضهم إبليس لعنه الله فى صورة شيخ ، فلما رأوه قالوا من أنت ؟ قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأياً ونصحاً ، قالوا ادخل ، فدخل . فقال أبو البخترى : أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه فى بيت وتشدوا وثاقه ، وتسدوا باب البيت ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه كما هلك من قبله من الشعراء . قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدى وقال : بئس الرأى رأيتم ، والله لئن حبستموه فى بيت فخرج أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم . قالوا صدق الشيخ النجدى . فقال هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وإلى أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه. فقال إبليس لعنه الله: ما هذا لكم برأى تعتمدونه، تعمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن وليستميلن قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم. قالوا صدق الشيخ النجدى. فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى ما أرى غيره ، إنى أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسيطاً فتياً ثم يعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، ولا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدى قريش ديته . فقال إبليس لعنه الله : صدق هذا الفتى وهو أجودكم رأياً ، القول ما قال لا أرى رأياً غيره . فتفرقوا على قول

أبى جهل وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبى ﷺ وأخبره بذلك ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى يبيت فيه ، فاذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة ، فأمر رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب أن ينام فى مضجعه وقال له « اتشح ببردتى هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه »، ثم خرج النبى ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه، فجعل ينثر التراب على رءوسهم وهو يقرأ (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا — إلى قوله — فهم لايبصرون ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر ، وخلف علياً بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده ، وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته ، وبات المشركون يحرسون علياً فى فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبى ﷺ فلما أصبحوا ساروا إليه فرأوا علياً رضى الله عنه فقالوا أين صاحبك ؟ قال لا أدرى ، فاقتصوا أثره وأرسلوا فى طلبه ، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسيج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة ، فذلك قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا) وبسط حديث الهجرة ما ساقه البخارى رحمه الله تعالى قال : حدثنا يحيى بنى بكير قال حدثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرنى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت « لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار وبكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقوى الضعيف وتعين على نوائب الحق ، فأنا لكَ جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، تخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضعيف ويعين على نوائب الحق . فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر، فلبث أبو بكر بمكة يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غيره داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لايملك عينيه إذا قرأ،

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا[1] كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان. قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه . فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت رجلا عقدت له . فقال أبو بكر فأنا أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل — والنبى ﷺ يومئذ بمكة — فقال النبى ﷺ للمسلمين « إنى رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين » وهما الحرتان ، فهاجر من هاجر قبل المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة . وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ « على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى » فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال نعم . فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر وهو الخبط أربعة أشهر ، قال بن شهاب قال عروة قالت عائشة رضى الله عنها : فبينما نحن فى يوم جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله متقنعاً فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر: فدى له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر . قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال النبى ﷺ لأبى بكر : اخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، قال فإنى قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت وأمى يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى هاتين : قال رسول الله ﷺ بالثمن . قالت عائشة : فجهزناها أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطته على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاق. قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله ابن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف لقن ، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام . ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهم حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل ، وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة

بغلس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث . «استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عبد بن عدى هادياً خرّيتاً ، والخريت الماهر بالهداية ، قد غمس حلفاً فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش ، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث . وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل . قال ابن شهاب : واخبرنى عبدالرحمن بن مالك المدلجى — وهو ابن أخى سراقة بن جعشم يقول : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج اقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : يا سراقة إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه . فقال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له : إنهم ليسوا هم. ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم. ثم لبثت فى المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على ، وأخذ رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجة الأرض وخفضت عالية حتى أتيت فرسى فركبتها فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فرسى فخررت عنها ، فقمت فأهويت يدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام فاستسقمت بها : أضرهم ؟ أم لا ؟ فخرج الذى أكره ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام تقرب بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنان ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وأخبرتهم إخبار ما يريد الناس بهم ، وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يرزآنى ولم يسألانى إلا أن قال : اخف عنا ، فسألته أن يكتب لى كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أديم ، ثم مضى رسول الله ﷺ . قال ابن شهاب فأخبرنى عروة ابن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً . وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظاره فلما أووا إلى بيوتهم أو فى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر

برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب ، هذا جدكم الذى تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته فسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد النبى ﷺ بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : لا بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن فى بنيانه ، ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمـــال لا حمال خيبر هذا أبـــر ربنـــا وأطهـــر

ويقول :

اللهـم إن الأجر أجـــر الآخره فارحـــم الأنصار والمهاجـــره

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لى ، قال ابن شهاب : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام إلا هذا البيت .

وهذا الكلام كما ترى ليس من باب الشعر ، ولا هو فى شىء من بحوره وأوزانه ، وإنما هو كلام منثر اتفقت تقفيته لا عن قصد كما يقع كثيراً .

وقال رحمه الله تعالى : حدثنى محمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثناعبد العزيز بن صهيب حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أقبل نبى الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر ، وأبو بكر شيخ يعرف ونبى الله ﷺ شاب لايعرف ، قال فيلقى الرجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هذا الرجل يهدينى السبيل . قال فيحسب الحاسب أنه إنما يعنى الطريق ، وإنما يعنى سبيل الخير ، فالتفت أبو بكر فإذا

هو بفارس قد لحقهم فقال يارسول الله هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت نبى الله ﷺ فقال « اللهم اصرعه » فصرعه الفرس،ثم قامت تحمحم ، فقال : يا نبى الله مرنى بما شئت . قال : فقف مكانك لا تتركن أحداً يلحق بنا . قال : فكان أول النهار جاهداً على نبى الله ﷺ وكان آخر النهار مسلحة له ، فنزل رسول الله ﷺ جانب الحرة ، ثم بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبى الله ﷺ وأبى بكر فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنين مطاعين ، فركب نبى الله ﷺ وأبو بكر وحفوا بهما بالسلاح ، فقيل فى المدينة جاء نبى الله ، جاء نبى الله ﷺ فأشرفوا ينظرون ويقولون : جاء نبى الله جاء نبى الله ﷺ فأقبل يسير حتى نزل دار أبى أيوب فإنه ليحدث أهله إذا سمع به عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم ، فعجل أن يضع الذى يخترف لهم فيها فجاء وهى معه فتسمع من نبى الله ﷺ ثم رجع إلى أهله ، فقال نبى الله ﷺ : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله صلى الله عليك وسلم ، هذه دارى وهذا بابى ، قال : فانطلق فهيىء لنا مقيلا . قال قوما على بركة الله تعالى . فلما جاء نبى الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى . فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا . قالوا : ما نعلمه . قالوا للنبى ﷺ قالها ثلاث مرات . قال فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . قال أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم . قال : يا ابن سلام اخرج إليهم . فخرج فقال يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أن رسول الله وأنه جاء بحق. فقالوا كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ . وقال رحمه الله تعالى : حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يحدث قال : ابتاع أبوبكر من عازب رجلا فحملته معه ، قال فسأله عازب عن مسير رسول الله ﷺ ، قال أخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلا فأحثثنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، ثم رفعت لنا صخرة أتيناها ولها شىء من ظل ، قال ففرشت لرسول الله ﷺ فروة معى ثم اضطجع عليها النبى ﷺ فانطلقت أنفض ما حوله فإذا أنا

براع قد أقبل فى غنمه يريد من الصخرة مثل الذى أردنا ، فسألته لمن أنت ؟ ياغلام؟ فقال أنا لفلان، فقلت هل فى غنمك من لبن؟ قال نعم. قلت له هل أنت حالب قال نعم. قال فاخذ شاة من غنمه فقلت له انفض الضرع قال فحلب كثبة من لبن ومعى إداوة من ماء عليها خرقة قد روأتها لرسول الله ﷺ ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ثم أتيت به النبى ﷺ فقلت اشرب يارسول الله ، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت . ثم ارتحلنا والطلب فى أثرنا . قال البراء فدخلت مع أبى بكر على أهله فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حُمى . فرأيت أباها أقبل وقال : كيف أنت يابنية ؟ وقال حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال سمعت البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : أول ما قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب فى عشرين من أصحاب النبى ﷺ ثم قدم النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم برسول الله حتى جعل الإماء يقلن : قدم رسول الله ﷺ ، فما قدم حتى قرأت (سبح اسم ربك الأعلى) فى سورة من المفصل .

الإذن بالقتـــال

وبعدهـا كلـف بالقتـــال ... لشيعـة الكفـــران والضلال
حتى أتـوا للديــن منقادينـا ... ودخلـوا فى السلـم مذعنينـا

(وبعدها) أى بعد الهجرة (كلف) أى أمر (بالقتال) فى سبيل الله عز وجل (لشيعه) أعوان (الكفر) بالله وما أرسل الله به رسله ونزل به كتبه (والضلال) عن صراطه المستقيم . وكان الجهاد بمكة بإقامة الحجة والبيان بما يتلوه عليهم من القرآن من حين أنزل عليه ﷺ (يأيها المدثر قم فأنذر) الآيات ، وهى أول ما نزل بعد فترة الوحى ، وبينها وبين نزول الآيات من صدر سورة الفلق ثلاث سنين فيما ذكر ابن إسحاق رحمه الله ، وذلك مدة الفترة ، وسمى الله تعالى تلاوة القرآن على المشركين جهاداً لهم ، فقال تعالى لنبيه ﷺ (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ، فلا تطع الكافرون وجاهدهم به جهاداً كبيراً) . وأما الجهاد المحسوس بالسيف فلم يكن بمكة مأموراً إلا بالعفو أو الإعراض عن الجاهلين والصبر على أذاهم واحتمال ما يلقى منهم كقوله تعالى (خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين) الآيات وقوله (فاصدع بما تؤمر

وأعرض عن المشركين) الآيات وغيرها . ولهذا قال أئمة التفسير إن آيات الإعراض عن المشركين نسختها آيات السيف ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وصارت لهم دار منعة وإخوان صدق وأنصار حق ، أذن الله تعالى لهم فى الجهاد فقال عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله قوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور) ، وقال تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) الآيات ، وقال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختنموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآيات ، وقال تعالى (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) ، وقال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) ، وقال تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) — إلى أن قال عز وجل : (يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ، يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون

نحن أنصار الله) الآية وقال النبى ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله » الحديث ، وقال ﷺ « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له بأن يقولوا لا إله إلا الله » ، أو كما قال ، وقال ﷺ « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله » الحديث ، والآيات والأحاديث فى الجهاد أكثر من أن تحصى ، وقد أفردت لها مصنفات مستقلات ، والجهاد ذروة سنام الإسلام ، ولايقوم إلا به ، كما أن بيان شرائعه لا تقوم إلا بالكتاب ، ولهذا قرن الله تعالى بينهما فقال (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) فالكتاب لبيان الحق والهداية إليه ، والحديد لحمل الناس على الحق وأطرهم عليه .

والمقصود أن النبى ﷺ حين أذن الله له بالقتال وأمره به ، شمر عن ساعد الاجتهاد فى شأنه وكان بينه وبين المشركين ما كان من الوقائع المشهورة والغزوات المذكورة كبدر وأحد والخندق وخيبر والفتح وغيرها فوق عشرين غزوة وفوق أربعين سرية ، ونصرة الله بالرعب فى قلوب أعدائه منسافة شهر ، حتى فتح الله به وبكتابه وأنصاره البلاد والقلوب وعمرها ، ففتح البلاد بالسيف والقلوب بالإيمان وعمر البلاد بالعدل والقلوب بالعلم ، فلله الحمد والمنة . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : بعث النبى ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين (واقتلوا المشركين حيث ثقفتوهم) ، وسيف للمنافقين (يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ، وسيف لأهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرّمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) ، وسيف للبغاة (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) وقد بذل المهاجرون والأنصار مع رسول الله ﷺ أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله كما وصفهم الله تبارك وتعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) ، وبذل المشركون جهدهم ومجهودهم فى عداوته وقتاله وألبوا وتحزبوا كما قال الله تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) الآيات . وقال تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) فقد فعل تبارك وتعالى .

(حتى أتوا للدين) دين الإسلام ، (منقادينا) الألف للاطلاق طوعاً وكرهاً ، (ودخلوا فى السلم) أى الإسلام (مذعنينا) مستسلمين ، وكان معظم ظهوره بعد الفتح لأن الناس كانوا ينتظرون بإسلامهم قريشاً لأنهم فى الجاهلية هم سادة العرب وقادتها ، وكذلك هم فى الإسلام ، فلما أسلموا بادر كل قوم بإسلامهم ، وتواترت الوفود إلى رسول الله ﷺ من كل فج عميق ، وانتشر الإسلام وجرت أحكامه ، وانتشرت أعلامه فى كل جزيرة العرب والنبى ﷺ حىّ ، وأنزل الله عز وجل عليه (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) ولهذا علم هو أصحابه أن ذلك أجله ، أعلمه الله به ، كما قال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟فقال عمر : إنه من حيث علمتم . فدعاه ذات يوم فادخله معهم فما رؤيت انه دعانى يومئذ إلا ليريهم . قال : ما تقولون فى قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ « أعلمه له قال (إذا جاء نصر الله والفتح) وذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . وفرض الله عليه بعد الهجرة جميع الفرائض التى لم تفرض منَ قبل ، فالجهاد فى السنة الأولى ، وأتمت صلاة السفر فى الأولى ، وشرع الأذان والصيام وزكاة الفطر وزكاة النصب وتحويل القبلة إلى الكعبة كلها فى الثانية ، وشرع التيمم سنة ست وصلاة الخوف سنة سبع . والحج فى السادسة وقيل فى التاسعة وقيل فى العاشرة وفيها حج ﷺ وأنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة يوم الجمعة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) كما قدمنا الحديث فى الصحيحين .

وفاته صلوات الله وسلامه عليه

وبعد أن قد بلغ الرسالة	واستنقذ الخلق من الجهالة
وأكمل الله له الإسلاما	وقام دين الحق واستقاما
قبضه الله العلى الأعلى	سبحانه إلى الرفيق الأعلى

(وبعد أن قد بلغ) الرسول محمد ﷺ (الرسالة) من القرآن وبيانه أمراً ونهياً وخبراً ووعداً ووعيداً وقصصاً (واستنقذ الخلق) حتى أنقذهم الله به (من الجهالة) من الشرك وما دونه (وأكمل الله له الإسلاما) بجمع شرائعه ظاهرها وباطنها ، (وقام) ظهر (دين الحق) الذى بعثه الله ليظهره على الدين كله ، (واستقاماً) اعتدل فلم يبق عليه غبار ولا عنه معدل ، وذهبت عنه غياهب الشرك وظلم الغى وطخاية الشبهات ، وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (وقل جاء الحق وزهق الباطل كان زهوقا) ، (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) ، وتبين الرشد من الغى والشرك من التوحيد والصدق من النفاق واليقين من الشك وسبيل النجاة من سبل الشك وطريق الجنة من طريق جهنم (ليميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه فوق بعض فيركمه جميعاً فى جهنم أولئك هم الخاسرون) ولم يبق من خير آجل ولا عاجل إلا دل الأمة عليه ، ولا شر عاجل ولا آجل إلا وحذرهم منه ونهاهم عنه حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعده إلا هالك ، وترك فيهم ما لم يضلوا إن تمسكوا به كتاب الله ، وبعد هذا (قبضه الله العلى) بجميع معالى العلو ذاتاً وقهراً وقدراً (الأعلى) بكل تلك المعانى ، فلا شىء أعلى منه عز وجل (سبحانه) وكان قبضه إياه (إلى الرفيق الأعلى) وهى أعلى عليين ، وهى الوسيلة التى هى أعلى درجة فى الجنة ولا تنبغى إلا له ﷺ ، وقد أمرنا أن نسأل الله له ذلك ، اللهم آت نبينا محمداً الوسيلة والفضيلة آمين ، وكانت وفاته ﷺ فى ربيع الأول نهار الاثنين بعد حجة الوداع بفوق ثمانين ليلة ، قال تبارك وتعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين . وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين) ، قال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) ، وقال (إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) .

وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير قال ابن عباس : يوم الخميس وما الخميس ، واشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال « آتونى أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع ، فقالوا : ما شأنه ، استفهموه فذهبوا يردون عليه فقال : دعونى فالذى أنا فيه خير مما

تدعونى إليه . وأوصاهم بثلاث قال « أخرجو المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » وسكت عن الثالثة ، أو قال : فنسيتها . وله عن عائشة رضى الله عنها : دخل عبد الرحمن بن أبى بكر على النبى ﷺ وأنا مسندته إلى صدرى ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به ، فأبده رسول الله ﷺ بصره ، فأخذت السواك فقصمته ونفضته وطيبته ثم دفعته إلى النبى ﷺ فاستن به ، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن ، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال « فى الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى ، وكانت تقول : مات ورأسه بين حاقنتى وذاقنتى ، وفى رواية قالت : وبين يديه ركوة فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات » ، ثم نصب يده فجعل يقول « فى الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده ، وفى أخرى قالت : فجمع الله بين ريقى وريقه فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخره ، وفى الصحيحين وهذا لفظ مسلم عن عبيد الله بن عبد الله قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ألا تحدثينى عن مرض رسول الله ﷺ . قالت : بلى ، ثقل النبى ﷺ فقال « أصلى الناس » ؟ قلنا : لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله . قال « ضعوا لى ماء فى المخضب » ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق . فقال : « أصلى الناس » ؟ قلنا : لا ، وهم ينتظرونك يارسول الله . فقال « ضعوا لى ماء فى المخضب » ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال « أصلى الناس » فقلنا : لا ، وهم ينتظرونك يارسول الله . فقال « ضعوا لى ماء فى المخضب » ففعلنا : فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه ، ثم أفاق فقال : أصلى الناس ؟ فقلنا : لا ، وهم ينتظرونك يارسول الله . قال والناس عكوف فى المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، قالت : فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى بكر أن يصلى بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلى بالناس . فقال أبو بكر — وكان رقيقاً — يا عمر صل بالناس . قال ، فقال عمر : أنت أحق بذلك . قالت فصلى أبو بكر بالناس تلك الأيام . ثم إن رسول الله ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلى بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه النبى ﷺ أن لا يتأخر ، وقال لهما « أجلسانى إلى جنبه » ، فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، وكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة النبى ﷺ ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر ، والنبى ﷺ قاعد . الحديث . وفيه عن أنس رضى الله عنه أن أبا بكر كان

يصلى لهم فى وجع رسول الله ﷺ الذى توفى فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة ، فنظرنا إليه وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً فبهتنا ونحن فى الصلاة من فرح خروج رسول الله ﷺ ، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم . قال : ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر ، قال : فتوفى رسول الله ﷺ من يومه ذلك . وفى رواية قال : لم يخرج إلينا نبى الله ﷺ ثلاثاً فأقيمت الصلاة فذهب أبو بكر يتقدم ، فقال نبى الله ﷺ بالحجاب فدفعه ، فلما وضح لنا وجه نبى الله ﷺ ما نظرنا منظراً قط كان أعجب إلينا من وجه النبى ﷺ حين وضح لنا . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن بكر حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى أبو سلمة . أن عائشة رضى الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضى الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجه ، ثم أكب عليه فقبله وبكى ، ثم قال : بأبى أنت وأمى ، والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها . قال الازهرى: وحدثنى أبو سلمة عن عبد الله بن عباس أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس فقال : اجلس يا عمر ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لايموت . قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل — إلى قوله — الشاكرين) وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله تعالى أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها الناس منه كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها : فأخبرنى سعيد بن المسيب أن عُمر رضى الله عنه قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى لا تقلنى رجلاى ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته قالها أن النبى ﷺ قد مات .

تبليغه صلوات الله عليه رسالة الله

نشهد بالحق بلا ارتياب بأنـــه المرسل بالكتـــاب

وأنه بلغ ماقد أرسلا به وكل ما إليه أنزلا

(نشهد بالحق) بيقين وصدق (بلا ارتياب) بدون شك (بأنه المرسل بالكتاب) بالقرآن إلى كافة الناس من الجن والإنس بشيرا ونذيراً . وقال الله تبارك وتعالى ممتناً على عباده المؤمنين ببعثه رسول الله ﷺ (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آيائه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى (يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم . هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ، وقال تبارك وتعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) يمتن تبارك وتعالى بأجل نعمه على عباده وأعظمها وأعلاها وأتمها وأكملها إرساله فيهم محمداً ﷺ رسولا من عند الله تبارك وتعالى العلى العظيم الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، بكلامه الذى هو صفته ، وهو كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ليهديهم به من الضلالة ، ويبصرهم به من العمى ، وينقذهم به من دركات الردى ، ويخرجهم به من الظلمات إلى النور بإذنه (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) يا لها نعمة ما أعظمها وأجلها ، ومنة ما أكملها وأجزلها (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) أكمل تلك النعمة وأتمها وزادها إجلالا يكون ذلك الرسول من أنفسهم يعرفون شخصه ونسبه ورحمه ، ما من أهل بيت من العرب إلا وله ﷺ فيهم نسب (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) ثم جعل الرسالة بلسانهم الذى به يتحاورن ، ومن جنس كلامهم الذى فيه يتفاخرون ، معجزاً بالفصاحة التى فى ميدانها يتسابقون بأوضح المبانى وأفصحها وأكمل المعانى وأصحها ، مع اتساق سياقه وسلاسة ألفاظه ، وانتساق تراكيبه وملاحة مفرداته . ثم مع هذا التالى له من أنفسهم رسول من عند ربهم ثم هو ﷺ مؤد لتلك الأمانة مبلغ كلام ربه كما قاله رب العزة لم يقله النبى ﷺ بالمعنى فقط بل كما قال عز وجل (يتلو عليهم آياته) الضمير لله عز وجل ، ليسمعوا لذيذ خطابه . ويتأملوا لطيف عنايته (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته

وليذكر أولو الألباب ويزكيهم) يطهرهم ظاهراً أو باطناً حساً ومعنى لمن التزمه واتبعه ، أما قلوبهم فيزكيها بالإيمان من دنس ورجس الشرك ورجزه كما قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) ، و (والرجز فاهجر) ، وكذا يطهرهم بمحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة من مساوئها ، وكذا يطهرهم من جميع الذنوب بالتوبة النصوح ، وكذا يطهر ظواهرهم بما أمرهم به وأرشدهم إليه من الطهارات الحسية من الأحداث والأنجاس على اختلاف أضربها (ويعلمهم الكتاب) القرآن المجيد (والحكمة) السنة النبوية التى هى تبيان القرآن وتفسيره وتوضيحه ، وتدل كما قال الله تعالى له ﷺ (وأنزلنا عليك القرآن بين للناس ما نزل إليهم) وقال النبى ﷺ « أوتيت القرآن ومثله » يعنى السنة (وإن كانوا من قبل) إرساله إليهم وبعثه فيهم (لفى ضلال مبين) من الشرك وعبادة الأصنام وغير ذلك من السبل المضلة عن الصراط المستقيم الموجبة لدخول جهنم ، والخلود فى عذابها الأليم المقيم ، أجارنا الله منها . وذلك تأويل دعوة أبينا إبراهيم عليه السلام إذ يقول فيما أخبر الله عنه (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) .فاستجاب الله لهخ تلك الدعوة المباركة كما قضى الله عز وجل ذلك فى الأزل وسبق علمه وسطره فى كتابه وأخذ على رسله الميثاق فى الإيمان به والقيام بنصره كما قال تبارك وتعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين . فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) ، وقال النبى ﷺ فيما روى الترمذى « كنت نبياً وآدم منجدل فى طينته »[1] وفى رواية أخرى « وآدم بين الروح والجسد » يعنى وجبت له فى الكتاب ، ولأن السائل قال له : متى وجبت لك النبوة ؟ هذا معنى الحديث . وقال ﷺ « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى » أو كما قال : فأما دعوة إبراهيم فما فى الآية السابقة ، وأما بشرى عيسى فقول الله عز وجل (وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) الآية . وأما رؤيا أمه فإنها رأت كأنه خرج منها نور أضاء له بصرى من أرض الشام . الحديث. وقد شهد الله تبارك

(١) على تقدير صحته ، ليس معناه أنه كان قد نبىء يومئذ ، ولا أنه ولد نبياً ، ولم يبدأ الوحى إلا بعد تمام الأربعين من عمره وذلك العمر الذى قال الله تعالى (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله) ، وقال (وما كنت تتلو من قبل من كتاب) الآية وقال (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) وقال (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) ولعله قد بسط هذا المعنى فى موضع غير هذا ا.هـ ، مؤلفه .

وتعالى له بالرسالة كما شهد لنفسه بالإلهية فقال تعالى (والله يعلم إنك لرسوله) وقال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) وقال تعالى (إنا أرسلناك بالحق بشراً ونذيراً . ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) الآيات . وقال تعالى (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) الآيات ، وقال تعالى (إنا أرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً . من يطع الرسول فقد أطاع ﷲ . ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) وغير ذلك من الآيات . وقال تبارك وتعالى فى عموم رسالته إلى الأحمر والأسود والجن والإنس (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) ، وقال تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ، قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) ومعنى كونه أمياً : لا يقرأ ولا يكتب ، وكذلك أمته أمية لا يقرءون ولا يكتبون ، قال الله تبارك وتعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين) وقال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) الآيات ، وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله) وقال تعالى (تلك أنباء الغيب نوحيها إليك وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وغير ذلك من الآيات ، وقال تعالى أيضاً فى ذكر عموم رسالته إلى أهل الشرائع من قبله (يأأهل الكتاب قد جاءكم رسلنا يبين لكم كثيراً مما تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) الآيات ، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) وقال تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقاً لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب

كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) وقال (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقا لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وغير ذلك من الآيات ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وفيه عنه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « والذى نفسى محمد بيده ، لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » ، وفى حديث الخصائص « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وهو فى الصحيحين ، وقال رسول الله ﷺ « لو كان موسى حياً واتبعتموه وتركتمونى لضللتم » وقال ﷺ « لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى » وأخبر ﷺ أن عيسى ينزل حكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ يقيم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فلا ناسخ ولا مغير لشريعته ، ولا يسع أحداً الخروج عنها . ولله الحمد والمنة .

والمقصود أن الله تبارك وتعالى اختصه بعموم الرسالة إلى الثقلين ، ولم يقبل من أحد صرفاً ولا عدلا إلا باتباعه ، ولا يصل أحد دار السلام التى دعا الله إليها عباده إلا من طريقه ، فهو ﷺ أكرم الرسل ، وأمته خير الأمم ، وشريعته أكمل الشرائع ، وكتابه مهيمن على كل كتاب أنزل ، لا نسخ له بعده ولاتغيير ، ولا تحويل ولا تبديل وأيده الله تعالى بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة التى أعظمها هذا القرآن الذى تحدى الله به أفصح الأمم وأبلغها وأقدرها على المنطق وأكثرها فيه اتساعاً وأطولها فيه باعاً . وأكملها على أضربه وأنواعه اطلاعاً ، مع عظم محادتهم له ومشاقتهم فيه وشدة حرصهم على رده . وهو ينادى عليهم بأبلغ عبارة وأوجزها ، وأمتنها وأجزلها (أم يقولون تقوّله ، بل لايؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) ، (أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) ، (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) ثم نادى عليهم بالعجز عن ذلك كله فلايقدر أحد منهم على شىء منه لا مجتمعين ولا متفرقين ، لا فى زمن واحد ولا فى أزمان ، فقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ، وذلك من الآيات ، ولهذا لما أراد مسيلمة الكذاب معارضته مكابدة ومباهاة مع علمه أنه لايقدر على شىء البتة فلما فعل

ذلك جعل الله تعالى كلامه أسمج ما يسمع وأرك ما ينطق به ، وصار أضحوكة للصبيان فى كل زمان ومكان ، حتى إنه لايشبه كلام العقلاء ولا المجانين ولا النساء ولا المخنثين ، وصار كذبه معلوماً عند كل أحد ، ووسمه الله عز وجل على لسان نبيه محمد ﷺ باسم الكذاب فلا يسمى إلا به ، ولا يعرف إلا به ، حتى صار أشهر عليه من العلم ، بل لا علم له غيره أبداً ، ويروى عن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاماً ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا ، قلت ، وهذا الذى قاله الفيلسوف مقدار فهمه ومبلغ علمه ، وإلا فبلاغة القرآن فوق ما يصف الواصفون ، وكيف يقدر البشر أن يصفوا صفات من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . ومن ذلك انشقاق القمر قال الله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) الآيات . وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال « سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر » وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال « انشق القمر على عهد رسول ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا » زاد فى رواية « ونحن مع النبى ﷺ » . ومنها حنين الجذع إليه ﷺ كما فى الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل : يارسول الله ألا نجعل لك منبراً ؟ قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبراً فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبى ، ثم نزل النبى ﷺ فضمها إليه تئن أنين الصبى الذى يسكن ، قال : كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها » وفى رواية « قال فلما صنع له المنبر وكان عليه فسمعنا من ذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليها فسكنت .

فيا جامداً معنى بصورة عاقل   أمالك من قلب شهيد ولا سمع
يحن إليه الجذع شوقاً وما لنا   ألسنا بذاك الشوق أولى من الجذع

ومنها تسبيح الطعام وتكثير القليل بإذن الله عز وجل ، ونبع الماء من أصابعه الشريفة ﷺ ، كما فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم

تعدونها تخويفاً . كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ثم قال : حى على الطهور المبارك والبركة من الله عز وجل . فلقد رأيت الماء ينبغ من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » . وعن أنس رضى الله عنه قال « أتى النبى ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده فى الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال وكانوا ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة » ، وعن سالم بن أبى الجعد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ ، فجهش الناس نحوه فقال : ما لكم ؟ قالوا ليس عندنا ما نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يديه فى الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا ، قلت كم كنتم ؟ قال لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة » وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة والحديبية بئر فنزحناها حتى لم نترك فيها قطرة ، فجلس النبى ﷺ على شفير البئر فدعا بماء فمضمض ومج فى البئر فمكثنا غير بعيد ، ثم استقينا حتى روينا ورويت وأصدرت ركائبنا » وعن أنس بن مالك قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ قالت : نعم فأخرجت أقراصاً من شعير ثم أخرجت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدى ولا ثتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ﷺ ، قال فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد ومعه الناس فقمت عليهم فقال لى رسول الله ﷺ « أرسلك أبو طلحة » ؟ فقلت : نعم . قال « بطعام » ؟ قلت : نعم . فقال رسول الله ﷺ لمن معه « قوموا » فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : ياأم سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه فقال رسول الله ﷺ « هلم يا أم سليم ما عندك » فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ففت وعصرت أم سليم عكة فأدمته ، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول ثم قال « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ثم قال « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا . وعن جابر رضى الله عنه أن أباه توفى وعليه دين ، فأتيت النبى ﷺ فقلت : إن أبى ترك دينا وليس عندى إلا ما يخرج نخله ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه فانطلق معى لكيلا يفحش على الغرماء ، فمشى حول بيدر من -

بيادر التمر ، فدعا ثم آخر ثم جلس فقال انزعوه فأوفاهم الذى لهم وبقى مثل ما أعطاهم وفى حديث أبى قتادة الطويل فى تلك الغزوة : ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء فتوضأ منها وضوءاً دون وضوء ، قال وبقى منها شىء من ماء . ثم قال لأبى قتادة « احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ » الحديث ، إلى أن قال : فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمى كل شىء وهم يقولون : يا رسول الله هلكنا عطشنا فقال « لاهلك عليكم ـــ ثم قال ـــ اطلقوا لى غمرى » قال ودعا بالميضأة فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فلم يعد أن رأى الناس ماء فى الميضة تكابوا عليها ، فقال رسول الله ﷺ « أحسنوا الملء كلكم سيروى » قال ففعلوا ، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم حتى ما بقى غيرى وغير رسول الله ﷺ قال ثم صب رسول الله ﷺ فقال لى « اشرب » فقلت لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله ، قال « إن ساقى القوم آخرهم شربا » قال فشربت وشرب رسول الله ﷺ قال فأتى الناس الماء جامين رواء . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : الله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعنى فمر ولم يفعل ، ثم مر بى عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعنى فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ثم قال «أباهر» قلت لبيك يارسول الله. قال « الحق » ومضى فتبعته فدخل فاستأذن لى فدخل فوجد لبنا فى قدح فقال « من أين هذا اللبن » قالوا أهداه لك فلان أو فلانة ، قال « أبا هر » قلت : لبيك يارسول الله ، قال « الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى » ، قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك فقلت وما هذا اللبن فى أهل الصفة ، كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاء أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت . قال « أبا هر » قلت لبيك يارسول الله ، قال « خذ فأعطهم » قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح ، فأعطى الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح ، حتى انتهيت إلى النبى ﷺ وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده

فنظر إلى فتبسم فقال «ياأباهر» قلت لبيك يارسول الله قال «بقيت أنا وأنت» قلت صدقت يارسول الله ، قال « اقعد فاشرب » فقعدت فشربت ، فقال « اشرب » فشربت ، فمازال يقول اشرب حتى قلت « لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً » قال « فأرنى » فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة . وقال أبو داود رحمه الله : حدثنا سليمان بن داود المهر حدثنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال : كان جابر بن عبد الله يحدث أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها لرسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ « ارفعوا أيديكم » وأرسل رسول الله ﷺ إلى المرأة فدعاها فقال لها « أسممت هذه الشاة » قال اليهودية . من أخبرك ؟ قال « أخبرتنى هذه التى فى يدى » وهى الذراع . قالت نعم قال « فما أردت بذلك » ؟ قالت : قلت إن كنت نبياً فلن تضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك . الحديث وهو فى صحيح البخارى عن أبى هريرة فى مواضع مختصراً ومطولا . لكن الشاهد منه فى هذه الرواية أصرح وهو قوله « أخبرتنى هذه » للذراع . وقد رواه جماعة من الصحابة فى عامة الأمهات وغيرها . ودلائل نبوته ﷺ أكثر من أن تحصى فى الأسفار فضلا عن هذا المختصر ، وقد جمعت فيها التصانيف المستقلات من المختصرات والمطولات وبالله التوفيق . وكذا قد صنفت التصانيف الجمة فى صفاته الخلقية والخلقية وسيرته وشمائله ومعاملاته مع الحق ومع الخلق فلتراجع لها مصنفاتها . وكذا خصائصه التى انفرد بها فى الدنيا والآخرة عن غيره من الرسل السماويين والأرضيين وقد تقدم التنبيه على مهمات من ذلك .

(و) نشهد (أنه بلغ) إلى الناس كافة (ما) أى الذى (قد أرسلا) بالنباء للمفعول والألف للإطلاق (به) من ربه (وكل ما إليه أنزلا) من الكتاب والحكمة . وفى هذا البحث مسائل عظيمة الخطر جليلة القدر :

الأولى ـــ أنه أى الرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل ، لم يقل شيئاً من رأيه فيما يتعلق بالتبليغ ، بل ليس عليه إلا بلاغ الرسالة من الله إلى الناس ، وتلاوة آياته على الناس ، وتعليمهم الحكمة والتبيان ، وذلك معنى كونه ﷺ رسول الله فأمره ونهيه تبليغ لأمره ونهيه ، وأخباره وقصصه تبليغ لما قصه الله وأخبر به ، ولذا كانت طاعته طاعة لله عز وجل ، ومعصيته معصية لله عز وجل ، وتكذيبه تكذيباً لإخبار الله عز وجل فى أنه رسوله . قال الله

تبارك وتعالى (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا . من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ) وقال تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وقال تعالى (إن أنت إلا نذير) وقال (قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار) وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) وقال (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وقال تعالى (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) وقال (فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وقال تعالى (فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى) وقال تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) وقال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) وغير ذلك من الآيات (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى) وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبى إمامة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين — أو مثل أحد الحيين — ربيعة ومضر » ، فقال رجل : يا رسول الله وما ربيعة من مضر ؟ قال « إنما أقول ما أقول » ، وله عن عبد الله بن عمرو قال كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يتكلم فى الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال « اكتب فو الذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » وله عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أقول إلا حقاً » . قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا ، قال « إنى لا أقول إلا حقاً » وللبزار عنه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذى لاشك فيه » وغير ذلك من الأحاديث ، ويكفى فى ذلك قول الله تعالى (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين) الآيات .

المسألة الثانية : أنه ﷺ بلغ جميع ما أرسل به لم يكتم منه حرفاً واحداً ، قال الله تعالى

(يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وفى الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يارسول الله اغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك » وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل قوله ﷺ « قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس : اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات » الحديث . وفيهما من حديث ابن عباس فى ذلك الجمع الأعظم حين خطب : اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ؟ ومن حديث أبى بكرة فى تلك الخطبة أيضاً ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم . قال اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » وفى صحيح البخارى من رواية أبى جحيفة وهب بن عبد الله السوائى قال : قلت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : هل عندكم شيء من الوحى مما ليس فى القرآن ؟ فقال « لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يعطيه الله رجلا فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة » قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال « العقل وفكاك الأسير وأن لايقتل مسلم بكافر » ، وفيه من رواية الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبى ﷺ « المدينة حرم ما بين عير إلى كذا ، من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » الحديث . وفى رواية قال : خطبنا على رضى الله عنه على منبر من آجر وعليه سيف فيه صحيفة معلقة فقال « والله ما عندنا من كتاب يقرأ إلا كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها أسنان الإبل ، وإذا فيها : المدينة حرم من عير إلى كذا ، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين

لايقبل الله منه صرفاً ولاعدلا . وإذا فيه : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلا . وإذا فيها من والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل الله منه صرفاً ولا عدلا » ، ولا بن أبى حاتم عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كنت عند ابن عباس ، فجاء رجل فقال له : إن أناساً يأتون فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس . فقال ابن عباس « ألم تعلم أن الله تعالى قال (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء » وإسناده جيد . وتقدم قول عائشة رضى الله عنها قالت « من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب ، والله تعالىٰ يقول (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية » .

المسألة الثالثة : أن هذا الذى بلغه الرسول ﷺ عن ربه تعالى هو جميع دين الإسلام مكملا محكماً لم يبق فيه نقص بوجه من الوجوه فيحتاج إلى تكميل ، ولم يبق فيه إشكال فيحتاج إلى حل ، ولا إجمال فيفتقر إلى تفصيل ، قال الله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) فكما أن الإمام المبين قد أحصى كل ما هو كائن ، كما علمه الله عز وجل ، فكذلك هذا القرآن وافٍ شافٍ كافٍ محيط بجميع أصول الشريعة وفروعها وأقوالها وأعمالها وسرها وعلانيتها ، فمن لم يكفه فلا كفى ، ومن لم يشفه فلا شفى . (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ، فبأى حديث بعده يؤمنون) وكما وفى بتقرير الدين وتكميله وشرحه وتفصيله كذلك هو واف بالذب عنه وبرد كل شبهة ترد عليه ، وبقمع كل ملحد ومعاند ومشاق ومحاد ، وبدمغ كل باطل وإزهاقه (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) . (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) ، (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) ، (إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير . إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) . وكذلك السنة من جوامع كلم الرسول ﷺ التى اختصه الله بها

، هى روح المعانى والوحى الثانى ، والحكمة والبيان وتبيان القرآن . والنور والبرهان . فلم يتوف ﷺ حتى بين الشريعة أكمل بيان ، ولم يكن ليتوفاه الله تعالى قبل بيان ما بالناس إليه حاجة فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، والله تعالى يقول (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ويقول تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتذكرون) ثم يخبر أنه ما أنزل عليك الكتاب إلا لذلك ، فكيف يتوفاه قبل إنفاد ذلك وإنجازه ، مع قوله تعالى له ﷺ ولأمته كلهم (ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ، كما أرسلنا فيكم رسولا يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) فكيف يعدنا تعالى بإتمام النعمة وإكمال الدين ثم يتوفى رسوله قبل إنجاز ذلك وهو عز وجل (لايخلف الميعاد) ؟ والذى بعثه بالحق بشيراً ونذيراً ما توفاه الله عز وجل حتى بلغ ما أرسله الله به أكمل بلاغ وبينه أتم بيان وفصله أوضح تفصيل وأكمل به الدين وأتم علينا النعمة ولهذا أنزل عليه فى آخر ما أنزل فى يوم الجمعة الذى اختص به هو وأمته وهداهم له فى أشرف موقف وأفضل عشية يوم الحج الأكبر وهو واقف بعرفة فى ذلك الجمع الأعظم الذى لم يتفق وقوع مثله ولم يتفق أكثر الناس برسول الله ﷺ بعده (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) ، فأخبر فيها بإكمال دينه الذى وعدنا إظهاره فى قوله عز وجل (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وبإتمامه النعمة كما وعد فى قوله تعالى (ولأتم عليكم نعمتى) وتقدم الحديث الصحيح فيقول اليهودى لعمر فى شأنها وما رد عليه به . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وهو الإسلام ، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم شرائع الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً . قلت وفى ضمن هذا الخطاب معنى فارضوا به أنتم لأنفسكم ، ولهذا قال النبى ﷺ « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً » وأمرنا بهذا الذكر فى كل مساء وصباح ، وقال أسباط عن السدى : نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، ورجع رسول الله ﷺ فمات ، قالت أسماء بنت عميس ، حججت مع رسول الله ﷺ تلك الحجة ، فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل ، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة فلم تطق الراحلة من ثقل ما يميلها من القرآن فبركت ، فأتيته فسجيت عليه برداً كان على ، وقال ابن جرير وغير واحد : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين

يوماً ، رواهما ابن جرير ، وله عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلك يوم الحج بكى عمر رضى الله عنه ، فقال له النبى ﷺ ما يبكيك ؟ قال رضى الله عنه كنا فى زيادة من ديننا فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، فقال صدقت » . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) قال ولا يأتونك بمثل أى بما يلتمسون به غير القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق) الآية أى لإنزال جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبر شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحى من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساء وليلا ونهاراً . سفراً وحضراً ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتب قبله المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخواته الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبى أرسله الله تعالى . وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً : ففى الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجه بحسب الوقائع والحوادث (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)، (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وكما وفى بالردّ على كل مشاق لله ورسوله من الوثنيين والمنافقين والكتابيين وغيرهم ، ونزل منجما على حسب ذلك ، فكذلك هو واف برد شبهة كل ملحد إلى يوم القيامة ، اقرأ على من ادَّعى النبوة (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ، وعلى الدجال فواتح سورة الكهف وعلى المعطل والمشبه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما) ، وعلى النافى للقدر (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) ، (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، وعلى الجبرية الغلاة (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ، (قل فلله الحجة البالغة) ، (فلو شاء لهداكم أجمعين) ، وعلى نفاة الرؤية (وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة) وعلى الرافضة (ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) وعلى الناصبة (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ، وعلى الفريقين (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) وعلى كل ذى بدعة مطلقاً (اليوم أكملت لكم دينكم)

إلى ءاخرها مع قوله تعالى (أفغير دين الله يبغون) ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) .

(المسألة الرابعة) : أن هذا الدين التام المكمل الذى بلغه الرسول ﷺ إلى الناس كافة لا يقبل زيادة على ما شرع فيه من أصول الملة وفروعها ولا نقصاً منها ولا تغييراً ولا تبديلا ولا يقبل من أحد ديناً سواه، ولا تقبل لأحد عبادة لم يتعبدها محمد رسول الله ﷺ ولا أصحابه ، ولا يعبد الله تعالى إلا بما شرع ، وهذه المسألة يأتى إن شاء الله الكلام عليها فى الفصل الأخير ، والله المستعان .

محمد ﷺ خاتم الرسل ، فلا نبى بعده

المسألة الخامسة : أن محمداً ﷺ خاتم الرسل فلا نبى بعده ، وكتابه خاتم الكتب فلا كتاب بعده، فهو محكم أبداً . وهذه المسألة هى المشار إليها بهذا البيت والذى بعده :

وكا من من بعده قد ادعى نبوه فكاذب فيما ادعى
فهو ختام الرسل باتفاق وأفضل الخلق على الإطلاق

قال الله تبارك وتعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) وقال تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وقال تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وقال تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى غير ذلك من الآيات .

وقال البخارى رحمه ا تعالى : حدثنا إبراهيم بن المنذر قال حدثنى معن عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لى خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » ورواه مسلم وزاد « وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى » وله عن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة » . وقال البخارى رحمه الله تعالى : باب خاتم النبيين ﷺ ، حدثنا محمد بن سنان حدثنا سليم حدثنا سعيد بن ميناء عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ « مثلى ومثل الأنبياء

كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها يتعجبون ويقولون : لولا موضع اللبنة ». رواه مسلم وزاد : قال رسول الله ﷺ « فأنا موضع اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء » ، وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا قتيبة عن سعيد حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ » قال ﷺ « فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » رواه مسلم من طرق ، وله عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مثلى ومثل النبيين » فذكر نحوه .
وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبيّ بن كعب عن أبيه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، وجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » . ورواه الترمذى عن أبى عامر العقدى به وقال حسن صحيح .
وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً ، فقال : أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى » . ورواه مسلم من طريق مصعب هذه ومن طريق سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : رسول الله ﷺ لعلى « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبىُ بعدى » قال سعيد فأحببت أنه أشافه بها سعداً فلقيت سعداً فحدثته بما حدثنى به عامر فقال : أنا سمعته ، فقلت أنت سمعته ؟ فوضع إصبعيه على أذنيه فقال نعم وإلا سكتا . وتقدم فى حديث ذكر الدجال قوله ﷺ « أنه يبدىء فيقول إنه نبى ، وأنا خاتم النبيين . ولا نبى بعدى » الحديث . وفى حديث ثوبان الطويل عند أبى داود وغيره « وأنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى ، وأنا خاتم النبيين ولا نبى بعدى » وللبخارى ومسلم وهذا لفظه : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة ، بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الذى كتبه الله علينا هدانا الله له فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً والنصارى بعد غد » . وفى رواية « وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل

الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق » . وفى صحيح البخارى فى موضع من صحيحه من طرق عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال « إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط . فقال : من يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط، فقال: من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قراطين؟ قال: ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى المغرب الشمس على قيراطين قيراطين ، ألا لكم الأجر مرتين . فغضبت اليهود والنصارى ، فقالوا نحن أكثر عملا وأقل عطاء ، قال الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فإنه فضلى أوتيه من شئت». ولهما عن أبى حازم قال : قاعدت أبا هريرة رضى الله عنه خمس سنين سمعته يحدث عن النبى ﷺ قال « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبى خلف نبى . وإنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : فوابيعة الأول فالأول ، أعطوهم حقهم ، فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم » وروى الإمام أحمد والترمذى وصححه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال فشق ذلك على الناس ، فقال « ولكن المبشرات » قالوا : يارسول الله وما المبشرات ؟ قال « رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة » وللبخارى من حديث أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » . وقال مسلم رحمه الله تعالى : حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلى بن حجر قالوا : حدثنا إسماعيل — وهو ابن جعفر — عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » . وروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته » . وله عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً كالمودع فقال « أنا محمد النبى الأمى (ثلاثاً) ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه » . وقد وردت عدة أحاديث فى صفة خاتم النبوة بين

كتفيه آية باهرة ودلالة ظاهرة على أنه لا نبى بعده لا بأس أن نذكر ما تيسر منها . فروى البخارى ومسلم عن السائب بن يزيد رضى الله عنه قال « ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن ابن أختى وقع . فمسح رأسى ودعا لى بالبركة . وتوضأ فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم بين كتفه مثل زر الحجلة » .
ولمسلم عن جابر ابن سمرة رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ قد شمط مقدم رأسه ولحيته ، وكان إذا ادهن لم يتبين ، وإذا شعث رأسه تبين ، وكان كثير شعر اللحية ، فقال رجل : وجهه مثل السيف . قال : بل كان مثل الشمس والقمر . وكان مستديراً ، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبهه الحسن » ، وفى رواية قال : « رأيت خاتماً فى ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام » . وله عن عبدالله بن سرجس رضى الله عنه قال « رأيت النبى ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً — أو قال ثريداً — قال فقلت له : أستغفر لك النبى ﷺ ؟ قال : نعم ولك » ثم تلا هذه الآية (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) .
قال « ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عن ناغض كتفه اليسرى جمع عليه خيلان كأمثال الثآليل » وروى أبو داود الطيالسى عن معاوية بن قرة عن أبيه قال « أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أرنى الخاتم ، فقال أدخل يدك فأدخلت يدى فى جربانه فجعلت ألمس أنظر إلى الخاتم ، فإذا هو على نغض كتفه مثل البيضة ، فما منعه ذاك أن جعل يدعو لى وإن يدى لفى جربانه » ورواه النسائى . وروى الإمام أحمد عن أبى رمثه التيمى قال « خرجت مع أبى حتى أتيت رسول الله ﷺ فرأيت برأسه ردع حناء ، ورأيت على كتفه مثل التفاحة ، فقال أبى: إنى طبيب أفلا أطبها لك؟ قال: طبيبها الذى خلقها» ، قال « وقال لأبى : هذا ابنك ؟ قال : نعم . قال : أما إنه لايجنى عليك ولا تجنى عليه » .
وروى البيهقى عن سلمان الفارسى قال «أتيت رسول الله ﷺ فألقى رداءة وقال: يا سلمان انظر إلى ما أمرت به ؟ قال فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة » وروى يعقوب بن سفيان بإسناده عن التنوخى الذى بعثه هرقل إلى رسول الله ﷺ وهو بتبوك الحديث . وفيه « فحل حبوته عن ظهره ثم قال : ههنا امض لما أمرت به ، قال فجلت فى ظهره فإذا أنا بخاتم فى موضع غضروف الكتف مثل الحجمة الضخمة » . وروى الإمام أحمد عن غياث البكرى قال : كنا نجالس أبا سعيد الخدرى بالمدينة فسألته عن خاتم رسول الله ﷺ الذى كان بين كتفيه فقال بأصبعه السبابة: هكذا لحم ناشز بين كتفيه ﷺ . وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبى حسين حدثنا نافع بن

جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ فجعل يقول : أن جعل لى محمد من بعده — يعنى الأمر — تبعته . وقدمها فى بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه وقال « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك . ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإنى لأراك الذى أريت فيه ما رأيت . وهذا ثابت يجيبك عنى » . ثم انصرف عنه . قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله ﷺ « وإنى لأراك الذى أريت فى ما رأيت » فأخبرنى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب ، فأهمنى شأنهما ، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما ، فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان بعدى أحدهما العنسى والآخر مسيلمة » حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام أنه سمع أباهريرة رضى الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ «بينا أنا نائم أتيت بخزائن الأرض، فوضع فى كفى سواران من ذهب، فكبر على، فأوحى إلى أن أنفخهما، فنفختهما فذهبا ، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما : صاحب صنعاء ، وصاحب اليمامة » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً وفيما أشرنا إليه كفاية .

(فهو) محمد ﷺ (ختام الرسل) فلا نبى بعده ، والرسالة من باب أولى إذ لايرسل إلا بعد أن يتنبأ ، فالنبوة وحى مطلق مجرداً ، فإن أمر بتبليغه فرسالة ، فكل رسول نبى ولا عكس (باتفاق) من كل كتاب منزل وكل نبى مرسل وكل مؤمن بالله واليوم الآخر (وأفضل الخلق) كلهم (على الإطلاق) بلا استثناء قال الله تبارك وتعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) قال أئمة التفسير من الصحابة فمن بعدهم : هو محمد ﷺ وتقدم قوله ﷺ « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . وقد أخذ الله عز وجل على جميع الرسل الميثاق فى الإيمان به ونصرته وبشر به كل نبى قومه وبعث إلى الجن والإنس والأسود والأحمر كافة . وأوتى فى الدنيا من المعجزات ما لم يؤته نبى قبله من انشقاق القمر وحنين الجذع إليه ونبع الماء من أصابعه وتسليم الأشجار والأحجار عليه وغير ذلك .

وأعظم معجزاته هذا القرآن معجزة خالدة أبداً الآبدين ودهر الداهرين ، لاتفنى عجائبه ولا يدرك غاية إعجازه ولا يندرس بمرور الأعصار ولا يمل مع التكرار . بل يحلى مع ذلك

ويتجلى ويعلو على غيره ولا يعلى، وكل معجزة قبله انقضت بانقضاء زمانها ولم يبق إلا تذكارها. وهو كل يوم براهينه فى مزيد ومعجزاته فى تجديد (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

وقد ظهرت فضيلته ﷺ فى ليلة الإسراء والمعراج بتقدمه عليهم إماماً ، وعلوه فوق الجميع مقاماً ، حتى جاوز السبع الطباق إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله عز وجل ، واختص ﷺ بأشياء أخرى فى سماحة شريعته. ووضع الآصار عن أمته وكونه أكثرهم تابعاً، وكذلك يبدو فضله فى الآخرة بكونه أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع وأول من يستفتح باب الجنة وأول من يدخلها من الأمم أمته، وله الحوض المورود وهو الكوثر، وهو أكثر الأنبياء وارداً ، وله اللواء المعقود وهو لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ، وله المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، ويرغب إليه كل الخلائق حتى إبراهيم خليل الرحمن ، وهو وأمته أول من من يجوز الصراط وهم ثلث أهل الجنة ، لما جاء أنهم ثمانون صفاً وغيرهم من الأمم أربعون صفاً ، وهذه عدة صفوف أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ، ويشفع الواحد من أمته فى مثل ربيعة ومضر ، وله ﷺ الوسيلة وهى أعلى درجة فى الجنة ليس فوقها إلا عرش الرحمن عز وجل ، وليست هى لأحد غيره ﷺ ، وغير ذلك من مقاماته العلية التى لا ينالها غيره ولا يدركها سواه، وهذا مقام يطول ذكره ولا يقدر قدره . ولا يحيط بغايته إلا الذى اصطفاه له ، وأكرمه به . جعلنا الله عز وجل ممن اقتدى به واهتدى بهديه وكان هواه تبعاً لما جاء به آمين .

مسألة : فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله قال : بينما يهودى يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه. فقال : لا والذى اصطفى موسى على البشر . فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم خده وقال : تقول والذى اصطفى موسى على البشر والنبى ﷺ بين أظهرنا ؟ فذهب اليهودى إليه ﷺ فقال : أبا القاسم إن لى ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهى ؟ فقال : لم لطمت وجهه ؟ فذكره ، فغضب النبى ﷺ حتى رؤى فى وجهه ثم قال « لا تفضلوا بين أنبياء الله عز وجل ، فإنه ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث . فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلى ؟ ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى » ، ولهما عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « ما ينبغى لعبد أن يقول

إنى خير من يونس ابن متى » ولهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى قال « لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وفى رواية لمسلم عن النبى ﷺ أنه قال ــ يعنى الله تبارك وتعالى ــ « لاينبغى لعبد لى » الحديث . قال النووى رحمه الله تعالى فى الحديث الأول قوله ﷺ « لا تفضلوا بين أنبياء الله » جوابه من خمسة أوجه : أحدها أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فلما علم أخبر به والثانى قاله أدباً وتواضعاً . والثالث أن النهى إنما هو عن تفضيل يؤدى إلى تنقيص المفضول . والرابع إنما نهى عن تفضيل يؤدى إلى الخصومة والفتنة كما هو المشهور فى سبب الحديث . والخامس أن النهى مختص بالتفضيل فى نفس النبوة فلا تفاضل فيها ، وإنها التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى . رواه ابن كثير رحمه الله تعالى وجها أن التفضيل ليس إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل ، وعليكم الانقياد له والتسليم والإيمان به.ا هـ.قلت الوجه الأول من كلام النووى ضعيف. والثانى والخامس فيهما نظر، والرابع قريب . ويقوى عندى الوجه الثالث مع ما ذكره ابن كثير ، فليس التفضيل بالرأى ومجرد العصبية ، ولا بما يلزم منه تنقص المفضول والحط من قدره ، كل هذا وما فى معناه محرم قطعاً منهى عنه شرعاً ، وهو الذى غضب منه رسول الله ﷺ ولو لم يقصده ذلك الأنصارى رضى الله عنه ، فغضب النبى ﷺ ونهيه عن ذلك تعليم عام للأمة وزجر بليغ لجميعهم كيلا يقع ذلك أو يصدر عن أحد منهم فيهلك . وأما التفضيل بما أكرمه الله عز وجل ورفع به درجته ونوه فى الوحى بشرفه من الفضائل الشرعية والأخروية وغير ذلك مما شهد الله تعالى به ورسوله ﷺ مما ذكرنا ومما لم نذكر فهو الذى يجب اعتقاده والإيمان به والتصديق والانقياد له والتسليم ، فلا يؤخذ علم ما يختص بالله ورسوله إلا عن الله وعن رسوله ﷺ ، والله المستعان وبه التوفيق .

وقال النووى رحمه الله تعالى فيما قاله ﷺ فى شأن يونس أنه ﷺ قال هذا زاجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس ﷺ من أجمل مافى القرآن من قصته : قال العلماء وما جرى ليونس ﷺ لم يحطه من درجة النبوة مثقال ذرة وخص يونس بالذكر لما ذكرناه من ذكره فى القرآن بما ذكر . وأما قوله ﷺ « ما ينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس » فالضمير قيل يعود إلى النبى ﷺ ، وقيل يعود إلى القائل ، أى لا يقول ذلك بعض الجاهلين من المجتهدين فى عبادة أو غير ذلك من الفضائل فإنه لو بلغ من الفضائل ما بلغ لم يبلغ درجة النبوة . ويؤيد هذا التأويل الرواية التى فيها قوله ﷺ « لاينبغى لعبد أن يقول أنا خير من يونس بنى متى » والله أعلم .

فصل فى من هو أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وذكر الصحابة بمحاسنهم ، والكف عن مساويهم وما شجر بينهم رضى الله عنهم

وأهم ما فى هذا الفصل خمس مسائل : الأولى مسألة الخلافة . والثانية فضل الصحابة وتفاضلهم بينهم . والثالثة تولى أصحاب النبى ﷺ وأهل بيته سلام الله ورحمته وبركته عليهم ومحبة الجميع والذب عنهم . الرابعة ذكرهم بمحاسنهم والكف عن مساويهم . والخامسة السكوت عما شجر بينهم وأن الجميع مجتهد : فمصيبهم له أجران أجر على اجتهاده وأجر على إصابته ، ومخطؤهم له أجر الاجتهاد وخطؤه مغفور .

وبعـــده الخليفـــة الشفيـــــق نعم نقيب الأمـة الصديـــق
ذاك رفيـق المصطفى فى الغـار شيـــخ المهاجرين والأنصار
وهـــو الـــذى بنـــفسه تولى جهـــــاد من عن الهدى تولى

(وبعده) أى بعد رسول الله ﷺ (الخليفة) له فى أمته (الشفيق) بهم وعليهم (نعم) فعل مدح (نقيب) فاعل نعم ، والنقيب عريف القوم وأفضلهم (الصديق) هو المخصوص بالمدح وهو النقابة منه لجميع الأمة . وهو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن مرة التيمى ، أول الرجال إسلاماً ، وأفضل الأمة على الإطلاق رضى الله عنه ، فلنسق الكلام أولا فى خلافته ، ثم فى مقاماته أيام خلافته رضى الله عنه .

فأما خلافته فقد تقدم الحديث فى تقديم النبى ﷺ إياه إماماً فى الصلاة مقامه أيام مرضه ﷺ ، وهو فى الصحيحين من طرق عن عائشة بألفاظ ، وعن جماعة غيرها من الصحابة رضى الله عنهم فى الصحيحين وغيرهما ، منهم أنس وابن عباس وسهل بن سعد وأبو موسى الأشعرى وعمر بن الخطاب ، وقد راجعته عائشة وحفصة رضى الله عنهما مراراً وهو يكرر مراراً عديدة يقول « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، مروا أبا بكر فليصل بالناس ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » ولما أشير بغيره حرك يده وقال « ليصل بالناس ابن أبى قحافة » وفى رواية « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » رضى الله عنه . وروى البخارى ومسلم عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال « أتت امرأة النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، قالت أرأيت إن جئت ولم أجد ؟ كأنها تقول الموت قال ﷺ : إن لم تجدينى فأتى أبا بكر »

وفيها عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « بينما أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غرباً ، فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن » وفيهما عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يحدث « أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال إنى رأيت الليلة فى المنام ظلة تنطف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكففون منها فالمستكثر والمستقل ، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء فأراك أخذت به فعلوت ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به ، ثم أخذ به رجل آخر فينقطع ، ثم وصل فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبى أنت والله لتدعنى فأعبرها ، فقال النبى ﷺ : اعبرها ، قال : أما الظلة فالإسلام ، وأما الذى ينطف السمن والعسل فالقرآن حلاوته تنطف ، فالمستكثر من القرآن والمستقل ، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذى أنت عليه تأخذ به فيعليك الله عز وجل ، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع ثم يوصل فيعلو به . فأخبرنى رسول الله بأبى أنت أصبت أم أخطأت ؟ قال النبى ﷺ : أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً . قال فو الله يا رسول الله لتحدثنى بالذى أخطأت قال أتقسم » وفيهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال « إن الله تعالى خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله عز وجل . قال : فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : « إن منأمنَّ الناس علىَّ فى صحبته وماله أبا بكر رضى الله عنه ، ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبابكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لايبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبا بكر رضى الله عنه» فروى عن عائشة رضى الله عنها قالت « قال رسول الله ﷺ فى مرضه : ادعى لى أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فإنى أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . وروى أبو داود عن عبد الله بن زمعة رضى الله عنه قال « لما ثقل برسول الله ﷺ وأنا عنده فى نفر من المسلمين دعاه بلال إلى الصلاة فقال : مروا من يصلى للناس . فخرج عبد الله بن زمعة فإذا عمر فى الناس ،وكان أبو بكر غائباً ، فقلت : يا عمر قم فصل بالناس. فتقدم فكبر ، فلما سمع رسول الله ﷺ صوته وكان عمر رضى الله عنه رجلا مجهراً قال: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون .

فبعث إلى أبى بكر رضى الله عنه فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس » وفى رواية قال « لما سمع النبى ﷺ صوت عمر رضى الله عنه قال ابن زمعة : خرج النبى ﷺ حتى أطلع رأسه من حجرته ثم قال ﷺ : لا ، لا ، لا . ليصل للناس ابن أبى قحافة » .
وله عن الحسن عن أبى بكرة رضى الله عنه « أن النبى ﷺ قال ذات يوم : من رأى منكم رؤيا ؟ قلت أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت بأبى بكر ، ووزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر ، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ، ثم رفع الميزان . فرأينا الكراهية فى وجه رسول الله ﷺ » ورواه من طريق عبد الرحمن بن أبى بكرة بمعناه ولم يذكر الكراهية قال « فاستاء لها رسول الله ﷺ » يعنى فساءه ذلك فقال « خلافة نبوة ، ثم يؤتى الله الملك من يشاء » وله عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه أنه كان يحدث أن رسول ﷺ قال « رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبى بكر ونيط عثمان بعمر » قال جابر فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا : أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما تنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه ﷺ . وله عن سمرة بن جندب رضى الله عنه « أن رجلا قال : يا رسول الله إنى رأيت كأن دلوا دلّيت من السماء ، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها شرب شرباً ضعيفاً ، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء عثمان بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء على فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منها شىء » ؛ وروى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « إنى لأرى ما بقائى فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدى » وأشار إلى أبى بكر وعمر . حديث حسن . وله عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول ﷺ «لاينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره».
وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها وسئلت : من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه ؟ قالت أبو بكر . فقيل لها ثم من بعد أبى بكر ؟ قالت عمر ، قيل لها : من بعد عمر ؟ قالت أبو عبيده بن الجراح .

وصفة بيعته رضى الله عنه بخلافة النبوة ما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أن رسول الله مات وأبو بكر بالسنح ، فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت وقال عمر والله ما كان يقع فى نفسى إلا ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله فقال : بأبى أنت وأمى،

طبت حياً وميتاً . والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً . ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك. فلما تكلم جلس عمر رضى الله عنه ، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت وقال (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزى الله الشاكرين) قال فنشج الناس يبكون .

قال واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا : منا أمير ومنكم أمير ، فذهب إليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأبو عبيده بن الجراح رضى الله عنه ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ثم تكلم أبلغ الناس ، فقال فى كلامه : نحن الأمراء وأنتم الوزراء . فقال حباب : والله لا نفعل ، منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر : لا ولكن نحن الأمراء وأنتم الوزراء إن قريشاً هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً ، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح . فقال عمر : بل نبايعك أنت ، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ . فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس ، فقال قائل : قتلتم سعد بن عبادة ، فقال عمر : قتله الله . زاد فى رواية : فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها ، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم النفاق ، فردهم الله بذلك ، ثم بصر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذى عليهم وخرجوا به يتلون (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ــ إلى ــ الشاكرين) .

وفيه أيضاً عن عمر رضى الله عنه من خطبته الطويلة قال: ثم إنه بلغنى أن قائلا منكم يقول: والله لو مات عمر بايعت فلاناً . فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبى بكر فلتة وتمت ، ألا إنها قد كانت كذلك ، ولكن الله وقى شرها . وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبى بكر . من بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذى بايعه تغره أن يقتلا ، وإنه قد كان من خيرنا حين توفى الله نبينا ﷺ . إلا أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم فى سقيفة بنى ساعدة ، وخالف عنا على والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت لأبى بكر: ياأبابكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار. فانطلقنا نريدهم ، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلا صالحاً فذكر لنا ماتمالأ عليه القوم ، فقال أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلنا : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فقال : لا عليكم أن

لا تقربوهم ، اقضوا أمركم ، فقلت : والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى أتينا سقيفة بنى ساعدة فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا هذا سعد بن عبادة . فقلت : ماله ؟ قالوا يوعك . فلما جلسنا قليلا تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم معشر المهاجرين رهط ، وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر . فلما سكت أردت أن أتكلم ، وكنت زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر ، وكنت أدارى منه بعض الحد فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر : على رسلك . فكرهت أن أغضبه ، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر ، والله ما ترك كلمة أعجبتني فى تزويرى إلا قال فى بديهته مثلها وأفضل منها ، حتى سكت فقال : ما ذكر فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . هم أوسط العرب نسبا وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم . فأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ، فلم أكره مما قال غيرها . كان والله أن أقدَّم تضرب عنقى ولا يقربني ذلك من إثم أحب إلى أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلا أن تسول إلى نفسى عند الموت شيئاً لا أجده الآن . فقال قائل من الأنصار : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش . فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقتُ من الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار ، ونزونا على سعد بن عبادة . فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عبادة ، فقلت قتل الله سعد بن عبادة . قال عمر : وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبى بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا ، فإما بايعناهم على مالا نرضى وإما نخالفهم فيكون فساد ، فمن بايع رجلا على غير مشورة المسلمين فلا يتابع هو والذى بايعه تغرة أن يقتلا .

وروى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه فى صائفة من المدينة ، قال فجاء فكشف عن وجهه فقبله وقال : فداك أبى وأمى ، ما أطيبك حياً وميتاً ، مات محمد ورب الكعبة . فذكر الحديث . فانطلق أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يتعادان حتى أتوهم، فتكلم أبو بكر فلم يترك شيئاً أنزل فى الأنصار أو ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذكره ، وقال : لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال «

لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً لسلكت وادى الأنصار » ولقد علمت ياسعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد «قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم » فقال له سعد : صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وله بإسناد جيد عن رافع الطائى رفيق أبى بكر الصديق فى غزوة ذات السلاسل قال : وسألته عما قيل فى بيعتهم فقال وهو يحدث عما تقاولت به الأنصار وما كلمهم به وما كلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأنصار وماذكر به من إمامتى إياهم بأمر رسول الله ﷺ فى مرضه، فبايعونى لذلك وقبلتها منهم ، وتخوفت أن تكون فتنة بعدها ردة . وروى البخارى عن أنس بن مالك أنه سمع خطبة عمر الأخيرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر صامت لا يتكلم قال : كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا ، يريد بذلك أن يكون آخرهم ، فإن يك محمد قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به ، به هدى الله محمداً ﷺ ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثانى اثنين وإنه أولى المسلمين بأموركم فقدموا فبايعوه ، وكانت طائفة قد بايعوه قبل ذلك فى سقيفة بنى ساعدة ، وكانت بيعة العامة على المنبر ، قال الزهرى عن أنس بن مالك سمعت عمر يقول يومئذ لأبى بكر : اصعد المنبر ، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه عامة الناس . وقال محمد بن إسحاق حدثنى الزهرى حدثنى أنس بن مالك قال : لما بويع أبو بكر فى السقيفة وكان الغد جلس أبو بكر رضى الله عنه على المنبر ، وقام عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس ، إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت وما وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهدها إلى رسول الله ﷺ ولكنى أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا — يقول يكون آخرنا — وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله تعالى قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس أبا بكر رضى الله عنه بيعة العامة بعد بيعة السقيفة . ثم تكلم أبو بكر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوى عندى حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله عز وجل . لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله عز وجل إلا ضربهم بالذل ، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا

عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وروى البيهقى من طريق ابن خزيمة بإسناد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس فى دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر ، قال فقام خطيب الأنصار فقال : أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره . قال فقام عمر بن الخطاب فقال : صدق قائلكم ، أما لو قلتم غير هذا لم نبايعكم . وأخذ بيد أبى بكر وقال : هذا صاحبكم . فبايعوه فبايعه عمر وبايعه المهاجرون والأنصار . قال فصعد أبو بكر المنبر فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير ، قال فدعا بالزبير فجاء فقال : قلت ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه ، أرادت أن تشق عصا المسلمين . فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ ، فقام فبايعه ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير علياً ، فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء فقال : قلت ابن عم رسول الله ﷺ ، وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين . قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فبايعه . وروى مسلم من طريق ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها أخبرته أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أرسلت إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنهما تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر : إن رسول الله ﷺ قال « لا نورث ، ما تركناه صدقة » إنما يأكل آل محمد ﷺ فى هذا المال ، وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ عن حالتها التى كانت عليها فى عهد رسول الله ﷺ ولأعملن فيها بما عمل رسول الله ﷺ . فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً ، فوجدت فاطمة على أبى بكر فى ذلك. قال فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت ، وعاشت بعد النبى ﷺ ستة أشهر ، فلما توفيت دفنها زوجها على بن أبى طالب ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر وصلى عليها على . وكان لعلى رضى الله عنه من الناس وجهة حياة فاطمة رضى الله عنها ، فلما توفيت استنكر على وجوه الناس، فالتمس مصالحه أبى بكر : ومبايعته ولم يكن بايع تلك الأشهر ، فأرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتينا معك أحد — كراهية أن يحضر عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فقال عمر لأبى بكر : والله لا تدخل عليهم وحدك ، فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بى ، إنى والله لآتيهم . فدخل عليهم رضى الله عنه ، فتشهد على بن أبى طالب رضى الله ثم قال : إنا عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ، ولم ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددت علينا بالأمر ، وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ . فلم يزل يكلم

ابا بكر حتى فاضت عينا أبى بكر رضى الله عنه ، فلما تكلم أبو بكر رضى الله عنه قال : والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتى . وأما الذى شجر بينى وبينكم من هذه الأموال فإنى لم آل فيها عن الحق ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيها إلا صنعته . فقال على لأبى بكر رضى الله عنهما: موعدك العشية للبيعة . فلما صلى رضى الله عنه صلاة الظهر رقى على المنبر فتشهد وذكر شأن على وتخلفه عن البيعة وعذره بالذى اعتذر إليه ، ثم استغفر وتشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه فعظم حق أبى بكر رضى الله عنه وأنه لم يحمله على الذي صنعه نفاسة على أبى بكر ولا إنكار للذى فضله به ، ولكنا كنا نرى لنا فى الأمر نصيباً فاستبد علينا به فوجدنا فى أنفسنا . فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت ، فكان المسلمون إلى على قريباً حين راجع الأمر بالمعروف ، وهذا لاينافى ما ذكر فى بيعته إياه حين أرسل إليه لما افتقده ليلة السقيفة أو صبحتها ، ولفظة « لم يكن بايع تلك الأشهر » إن كان من قول عائشة فلعلها لم تعلم بيعته الأولى التى أثبتها أبو سعيد وغيره، لأن الرجال فى مثل هذه المسألة أقوم وأعلم بها إذ لا يحضرها النساء . وأيضاً فقد قدمنا مراراً أن مجرد النفى لا يكون علماً وعند المثبت زيادة علم انفرد بها عن النافى ، إذ فائدة ما عند النافى أنه لايعلم . ولعل عائشة تيقنت عدم حضوره بيعة السقيفة من العشى ولم يبلغها حضوره صبحتها فى البيعة العامة . وإن كان هذا كلام بعض الرواة فهو بمجرد ما فهمه من البيعة الأخرى ظن أنه لم يبايع قبل ذلك فقال مصرحاً بظنه « ولم يكن بايع تلك الأشهر » وإنما كانت هذه البيعة بعد موت فاطمة رضى الله عنها لإزالة ما كان حصل من الوحشة والمشاجرة بسبب دعواها ، ويشهد لذلك أن على بن أبى طالب رضى الله عنه لم يفارق الصديق رضى الله عنه فى وقت من الأوقات ولا ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه ، وكان خروجه معه إلى ذى القصة حين عقد ألوية الأمراء الأحد عشر فى حياة فاطمة رضى الله عنها فى الشهر الثالث من وفاة رسول الله ﷺ كما روى الدارقطنى من طريق مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر رضى الله عنهما : لما برز أبو بكر إلى ذى القصة واستوى على راحلته ، أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بزمامها وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة ، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً . فرجع . ورواه زكريا الساجى من حديث عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبدالرحمن ابن عوف والزهرى أيضاً عن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة

قالت : خرج أبى شاهرا سيفه راكباً على راحلته إلى وادى القصة فجاء على ابن أبى طالب رضى الله عنه فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك فوالله لئن أصبنا بك لايكون للإسلام نظام أبداً . فرجع وأمضى الجيش . وفى الصحيح خروجهما إلى خارج المدينة وأن أبا بكر رضى الله عنه وجد الحسن بن على يلعب مع الصبيان فحمله وهو يقول :

يا بأبى شبيـــه بالنبـــى ليس شبيهاً بعلى

وعلى رضى الله عنه يضحك . ومن تدبر النصوص فى ذلك وإجماع المهاجرين والأنصار وأهل بيت النبى ﷺ وغيرهم ظهر له تأويل قول الصادق المصدوق ﷺ « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

وأما فضله فقال تبارك وتعالى (ثانى اثنين إذ هما فى الغار) وقال الله تبارك وتعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به . أولئك هم المتقون) وقال (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى،وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) حكى جماعة من المفسرين على أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه . وفى الصحيحين من حديث الهجرة الطويل « فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له ، فقلت : هذا الطلب، قد لحقنا يارسول الله. فقال : « لا تحزن إن الله معنا » . وفيهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن أبى بكر رضى الله عنه قال « قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما وفيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال « كنا نخير بين الناس فى زمن النبى ﷺ فتخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان رضى الله عنهم » وفى لفظ قال « كنا فى زمن النبى ﷺ لا نعدل بأبى بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم » وفيهما واللفظ لمسلم عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبدالرحمن أنهما سمعا أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت : إنى لم أخلق لهذا ولكنى إنما خلقت للحرث ، فقال الناس ، سبحان الله تعجباً وفزعاً أبقرة تكلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : فإنى أؤمن به وأبو بكر وعمر » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « بينا راع فى غنمه عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعى حتى

استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب فقال له : من لها يوم السبع ، يوم ليس لها راع غيرى . فقال الناس سبحان الله . فقال رسول الله ﷺ : فإنى أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر » وفى رواية لهما « ومن ثم أبو بكر وعمر » ولمسلم « وما هما ثم » . وفى صحيح البخارى عن همام قال : سمعت عماراً يقول : « رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر » . وفيه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال « كنت جالساً عند النبى ﷺ إذ أقبل أبو بكر أخذ بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبى ﷺ : أما صاحبكم فقد غامر ، فسلم وقال : يا رسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى فأبى على فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً ، ثم إن عمر رضى الله عنه ندم فأتى منزل أبا بكر فسأل : أثم أبو بكر ؟ فقالوا لا ، فأتى إلى النبى ﷺ فسلم عليه فجعل وجه النبى ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر رضى الله عنه فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله والله أنا كنت أظلم . مرتين . فقال ﷺ : إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ مرتين . فما أوذى بعدها — وفى رواية فقال رسول الله ﷺ هل أنتم تاركوا لى صاحبى ، هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ إنى قلت يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت » قال أبو عبد الله — هو البخارى — سبق بالخير ولهما عن أبى هريرة رضى الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق زوجين من شيء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام وباب الريان ، فقال أبو بكر : ما على هذا الذى يدعى من تلك الأبواب من ضرورة . فقال : هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله ؟ قال نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » . وفيه عن عمر ابن العاص رضى الله عنه أن النبى ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت أى الناس أحب إليك ؟ قال : « عائشة ، فقلت من الرجال ؟ فقال : أبوها . قلت ثم من ؟ قال : ثم عمر بن الخطاب ، فعد رجالا » . وفيه عن محمد بن الحنفية قال : قلت لأبى أى الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال أبو بكر ؟ قلت ثم من ؟ قال عمر ، وخشيت أن يقول عثمان فقلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين وفيه عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرنى بأشد ما صنع

المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءتكم البينات من ربكم ، وفيهما عن سعيد بن المسيب قال : أخبرنى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقلت : لألزمن رسول الله ﷺ معه يومى هذا ، قال فجاء المسجد فسأل عن النبى ﷺ فقالوا خرج ووجه ههنا ، فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته فتوضأ ، فقمت إليه فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله ﷺ اليوم ، فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت : من هذا ؟ فقال أبو بكر ، فقلت على رسلك ، ثم ذهبت فقلت يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن ، فقال ائذن له وبشره بالجنة ، فأقبلت حتى قلت لأبى بكر : ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى ﷺ وكف عن ساقيه ، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى ، فقلت إن يرد الله بفلان خيراً — يريد أخاه — يأت به ، فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال عمر بن الخطاب ، فقلت : على رسلك ، ثم جئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت فقلت له ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ فى القف عن يساره ودلى رجليه فى البئر ، ثم رجعت فقلت أن يرد الله بفلان خيراً يأت به ، فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت من هذا ؟ فقال عثمان بن عفان ، فقلت على رسلك ، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فقلت له ادخل وبشرك رسول الله بالجنة على بلوى نصيبك ، فدخل فوجد القف قد ملىء فجلس وجاهه من الشق الآخر . قال سعيد بن المسيب : فأولتها قبورهم ، وفيهما عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم فقال « اثبت ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » . والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر « أنت صاحبى على الحوض . وصاحبى فى الغار » وقال حسن صحيح. وله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، ووافق ذلك عندى مالا ، فقلت اليوم أسبق

أبا بكر إن سبقته يوماً. قال فجئت بنصف مالى » فقال رسول الله ﷺ ماأبقيت لأهلك؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده فقال : يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت لا أسبقه إلى شيء أبداً » هذا حديث حسن صحيح . ولمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر : أنا قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر أنا . قال فمن أطعم منكم اليوم مسكينا؟ قال أبو بكر أنا . قال فمن عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر أنا . فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعن فى امرىء إلا دخل الجنة » والأحاديث فى الصديق كثيرة جداً . قد أفردت بالتصنيف ، وفيما ذكر كفاية فى التنبيه على ما وراءه ، وما أحسن ما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبابكر بما فعلا
خير البرية أوفاها وأعدلها ... بعد النبى وأولاها بما حملا
والتالى الثانى المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاش حميداً لأمر الله متبعاً ... بأمر صاحبه الماضى وما انتقلا

وأما ما منحه الله تعالى من المواقف العظيمة مع النبى ﷺ من حين بعثته إلى أن توفاه الله عز وجل من نصرته والذب عنه والشفقة عليه والدعوة إلى ما دعا إليه وملازمته إياه ومواساته بنفسه وماله ، وتقدمه معه فى كل خير ، فأمر لا تدرك غايته ، ثم لما توفى الله عز وجل نبيه ﷺ كان من رحمه الله تعالى بهذه الأمة أن ولاه أمرهم بعد نبيه ، وجمعهم عليه بلطفه ، فجمع الله به شمل العرب بعد شتاته ، وقمع به كل عدو للدين ودمر عليه وألف له الأمة وردهم إليه ، بعد أن ارتد أكثرهم عن دينه وانقلب الغالب منهم على أعقابهم كافرين . حتى قيل : لم يبق يصلى إلا فى ثلاثة مساجد الحرمين الشريفين ومسجد العلاء بن الحضرمى بالبحرين ، فردهم الله تعالى إلى الحق طوعاً وكرها وأطفأ به كل فتنة فى أقل من ستة أشهر ولله الحمد والمنة . قال الله تبارك وتعالى (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) الآيات ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن البصرى وقتادة : هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ومانعى الزكاة . وذلك أن النبى ﷺ لما قبض ارتد عامة العرب ، إلا أهل مكة والمدينة والبحرين من عبد القيس ، ومنع بعضهم الزكاة .

وهم أبو بكر رضى الله عنه بقتالهم فكره ذلك أصحاب النبى ﷺ وقال عمر رضى الله عنه كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابهم على الله عز وجل » فقال أبو بكر رضى الله عنه : فوالله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها . قال أنس بن مالك رضى الله عنه : كرهت الصحابة رضى الله عنهم قتال مانعى الزكاة وقالوا أهل القبلة ، فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده ، فلم يجدوا بداً من الخروج فى أثره . قال ابن مسعود رضى الله عنه : كرهنا ذلك فى الابتداء ، ثم حمدناه فى الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا حصين يقول: ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر رضى الله عنه. لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة، وكان قد ارتد فى حياة النبى ﷺ ثلاث فرق منهم بنو مذحج ورئيسهم ذو الخمار عبهلة بن كعب العنسي ويلقب بالأسود ، وكان كاهنا مشعبذاً فتنبأ باليمن واستولى على بلاده ، فكتب رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين وأمرهم أن يحثوا الناس على التمسك بدينهم وعلى النهوض لحرب الأسود فقتله فيروز اليلمى على فراشه قال رضى الله عنه : فأتى الخبر النبى ﷺ من السماء فى الليلة التى قتل فيها ، فقال ﷺ « قتل الأسود البارحة قتله رجل مبارك » قيل ومن هو ؟ قال « فيروز ، فاز فيروز » فبشر النبى ﷺ أصحابه بهلاك الأسود . وقبض النبى ﷺ من الغد وأتى خبر مقتل العنسى المدينة فى آخر شهر ربيع الأول بعد ما خرج أسامة وكان ذلك أول فتح جاء أبا بكر رضى الله عنه . والفرقة الثانية بنو حنيفة ورئيسهم مسيلمة الكذاب ، وكان قد تنبأ فى حياة رسول الله ﷺ فى آخر سنة عشر وزعم أنه اشترك مع محمد ﷺ فى النبوة ، وكتب إلى رسول الله ﷺ « من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله : أما بعد فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » وبعث إليه رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله ﷺ « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم أجاب « من محمد رسول الله ﷺ ، إلى مسيلمة الكذاب : أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » ومرض رسول الله ﷺ وتوفى ، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب فى جيش كثير حتى أهلكه الله على يدى وحشى غلام مطعم بن عدى الذى قتل حمزة بن عبد المطلب بعد حرب شديدة، وكان وحشى يقول: قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام . والفرقة الثالثة بنو أسد ورأسهم طليحة بن خويلد ، وكان طليحة آخر من ارتد

وادعى النبوة فى حياة النبى ﷺ وأول من قوتل بعد وفاة رسول الله ﷺ من أهل الردة ، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد فهزمهم خالد بعد قتال شديد ، وأفلت طليحة فمر على وجهه هارباً نحو الشام ، ثم إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

وارتد بعد وفاة النبى ﷺ فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه خلق كثير حتى كفى الله المسلمين أمرهم، ونصر دينه على يدى أبى بكر رضى الله عنه، قالت عائشة رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب واشرأب النفاق ونزل بأبى مالو نزل بجبار لهاضه . انتهى من تفسير البغوى رحمه الله . وروى ابن أبى حاتم عن حسن البصرى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال حسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقى فى سننه وابن عساكر عن قتادة : قال الله تعالى هذه الآية (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم) وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد أهل المدينة، وأهل مكة ، وأهل جوًاثى من عبد القيس . وقال الذين ارتدوا : نصلى الصلاة ولا نزكى ، والله لا تغصب أموالنا . فكلم أبو بكر فى ذلك ليتجاوز عنهم ، وقيل له : إنهم لو قد فقهوا أدوا الزكاة . فقال : والله لا أفرق بين شىء جمعه الله عز وجل . ولو منعونى عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه. فبعث الله عصائب مع أبى بكر فقاتلوا حتى أقروا بالماعون وهو الزكاة. قال قتادة : فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وأصحابه (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) إلى آخر الآية . ولاينافى هذا ما ورد من أنها نزلت فى أهل اليمن كما أخرج ابن جرير عن شريح بن عبيد قال : لما أنزل الله (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) . الآية ، قال عمر رضى الله عنه : أنا وقومى يا رسول الله ؟ قال « لا . بل هذا وقومه » يعنى أبا موسى الأشعرى . وأخرج ابن سعيد وابن أبى شيبة فى مسنده وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه البيهقى فى الدلائل عن عياض الأشعرى قال : لما نزلت (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال رسول الله « هم قوم هذا » وأشار إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم فى جمعه لحديث شعبة والبيهقى وابن عساكر عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال تليت على النبى ﷺ (فسوف يأتى الله بقوم) الآية فقال النبى ﷺ « قومك يا أبا موسى الأشعرى . أهل اليمن » . وأخرج ابن أبى حاتم فى الكنى والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه بسند حسن عن جابن بن عبد الله قال

: سئل رسول الله ﷺ عن قوله (فسوف يأتى الله بقوم) الآية فقال « هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم كندة ثم السكون ثم تجيب » . وأخرج البخارى فى تأريخه وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى الآية قال : هم قوم من هل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وأخرج ابن أبى شيبة عنه قال : هم أهل القادسية . قلت : وكان غالب أهل القادسية من أهل اليمن . با ، كانت بجيلة ربع الناس فضلا عن غيرهم ، وكان بأس الناس الذى هم فيه . كما رواه ابن إسحاق عن اسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم قال : وكان يمر عمرو بن معد يكرب الزبيدى فيقول : يامعشر المهاجرين كونوا أسوداً، فإنما الفارسى تيس . وقد قتل رضى الله عنه أسواراً فارس الفرس وأبلى بلاء حسناً . وكانت له اليد البيضاء يومئذ . وأخرج البخارى رحمه الله تعالى فى تأريخه عن القاسم بن مخيمرة قال : أتيت ابن عمير فرحب بى ثم تلا (من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) الآية ثم ضرب على منكبى وقال : أحلف بالله إنه لمنكم أهل اليمن ــ ثلاثاً ــ وكل هذا لاينافى ما قدمناه من نزولها فى أبى بكر أولا . فإن أهل اليمن لم يرتد جميع قبائلهم يومئذ . وإنما ارتد كثير منهم مع الأسود العنسى وثبت كثير منهم على الإيمان مع معاذ بن جبل وأبى موسى وفيروز الديلمى وغيرهم من عمال النبى ﷺ . ونشب بين مؤمنهم وكافرهم قتال عظيم حتى قتل الله الأسود على يد فيروز وأيد الله الذين آمنوا منهم على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ، ولكن لم يرجع أمرهم على ما كانوا عليه قبل العنسى إلا فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فإنه لم يزل يتابع الكتائب مدداً لمؤمنهم على كافرهم حتى راجعوا الإسلام وكانوا من أعظم أنصاره حتى صاروا رؤساء ردتهم كعمرو ابن معد يكرب وقيس بن مكشوح وغيرهما من أعظم الناس وأشدهم بلاء فى أيام الردة والفتوح . فحينئذ عاد المعنى إلى أبى بكر وأصحابه وهم من أصحابه ، وكل هذا فى شأن السبب لنزوله الآية . وإلا فهى عامة لكل مؤمن يحب الله ويحبه ويوالى فيه ويعادى فيه ولايخاف فى الله لومة لائم. وكان أبو بكر وأصحابه أسعد الناس بذلك وأقدمهم فيه وأسبقهم إليه وأول من تناولته الآية ، رضى الله عنه وأرضاه وعن أنصار الإسلام وحزبه أجمعين . وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب . قال عمر بن الخطاب لأبى بكر رضى الله عنه : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ،

فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر بن الخطاب : فوالله ماهو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق . وتفاصيل مواقفه العظام رضى الله عنه مشهورة مبسوطة فى كتب السيرة وغيرها ، وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر ، وكانت وفاته رضى الله عنه فى يوم الاثنين عشية وقيل بعد المغرب ودفن من ليلته وذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بعد مرض خمسة عشر يوماً ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يصلى بالمسلمين ، وفى أثناء هذا المرض عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب ، وكان الذى كتب العهد عثمان بن عفان وقرئ على المسلمين فأقروا به وسمعوا له وأطاعوا . وكان عمر الصديق رضى الله عنه يوم توفى ثلاثاً وستين سنة السن الذى توفى فيه رسول الله ﷺ ، وقد جمع الله بينهما فى التربة كما جمع بينهما فى الحياة ، فرضى الله عنه وأرضاه ، ومن جميع أبواب الجنة دعاه ، وقد فعل ولله الحمد والمنة .

ثانية فى الفضل بلا ارتياب الصادع الناطق بالصواب
أعنى به الشهم أبا حفص عمر من ظاهر الدين القويم ونصر
الصارم المنكى على الكفار وموسع الفتوح فى الأمصار

(ثانية) أى ثانى أبى بكر (فى الفضل) على الناس بعده فلا أفضل منه وكذا هو ثانيه فى الخلافة بالاجماع (بلا ارتياب) أى بلا شك (الصادع) بالحق المجاهر به الذى لايخاف فى الله لومة لائم ، ومنه قول الله تعالى لنبيه ﷺ (فاصدع بما تؤمر) فكان عمر رضى الله كذلك ، وبه سماه النبى ﷺ فاروقاً (الناطق بالصواب) والذى وافق الوحى فى أشياء قبل نزوله كما سيأتى (أعنى) به أى بهذا النعت (الشهم) الذكى المتوقد السيد المطاع الحكم القوى فى أمر الله الشديد فى دين الله (أبا حفص عمر) بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب العدوى ثانى الخلفاء وإمام الحنفاء بعد أبى بكر رضى الله عنهما وأول من تسمى أمير المؤمنين ، (الصارم) السيف المسلول (المنكى) من النكاية (على الكفار) لشدته عليهم وإثخانه إياهم حتى إن كان شيطانه ليخافه أن يأمره بمعصية كما قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه (وموسع) من الاتساع (الفتوح) فتوح الإسلام (فى الأمصار) فكمل فتوح بلاد الروم بعد اليرموك ثم بلاد فارس حتى مزق الله به ملكهم كل ممزق ، ثم أوغل فى بلاد الترك كما هو مبسوط فى

كتب السير وغيرها . تقدمت إشارات النصوص النبوية إلى خلافته قريباً مع ذكر أبى بكر رضى الله عنه وكثر من فضائله أيضاً التى شارك فيها أبا بكر . وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة ، وسمعت خشخشة فقلت من هذا ؟ فقال هذا بلال ، ورأيت قصراً بفنائه جارية ، فقلت لمن هذا ؟ فقال لعمر ، فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبى وأمى يا رسول الله أعليك أغار ؟ » وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال : بينا أنا نائم رأيتنى فى الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت لمن هذا القصر ؟ فقالوا لعمر ، فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟ » وعن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال « بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن فشربت منه حتى إنى لأرى الرى يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيت فضلى عمر بن الخطاب . قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال العلم » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص ، فمنها ما يبلغ الثدى . ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض على عمر بن الخطاب وعليه قميص يجتره . قالوا فما أولته يا رسول الله ؟ قال : الدين». وعن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال « استأذن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه على رسول الله ﷺ ، وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ﷺ ، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله ، فقال النبى ﷺ : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . فقال عمر : فأنت أحق أن يهبن يارسول الله . فقال : عمر ياعدوات أنفسهن ، أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ فقلن : نعم أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : إيهاً يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء . فإن يكن من أمتى منهم أحد فعمر » ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : لما توفى عبد الله ابن أبى جاء ابنه عبدالله إلى رسول الله ﷺ فأعطاه قميصه وأمره أن يكفنه فيه ، ثم قام يصلى عليه ، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال : تصلى عليه وهو منافق

وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟ قال إنما خيرنى الله ــ أو أخبرنى الله ــ فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فقال: سأزيده على سبعين. قال فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه ثم أنزل الله عليه (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) متفق على جميعها . وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لله لما مات عبد الله بن أبى ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذاوكذا ، قال اعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عنى يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : إنى خيرت فاخترت لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها . قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ــ إلى قوله ــ وهم فاسقون) . قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم » . وفى صحيح مسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنه فى قصة أسارى بدر بطوله قال : ابن عباس « فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر هم يانبى الله بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أن تضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ــ نسيباً لعمر ــ فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ماقلت ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ أبكى للذى عرض على فى أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ــ شجرة قريبة من نبى الله ﷺ ــ وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ــ إلى قوله ــ فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً) فأحل الله الغنيمة لهم . وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر رضى الله عنه : وافقت الله فى ثلاث ــ أووافقنى الله فى ثلاث ــ قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم

مصلى) ، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن قلت إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيراً منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت ياعمر ما فى رسول الله ﷺ مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله تعالى (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات) وعنه رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ عن الساعة فقال متى الساعة ؟ قال وماذا أعددت لها ؟ قال لا شىء ، إلا أنى أحب الله ورسوله ﷺ . فقال : « أنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرحنا بشىء كما فرحنا بقول النبى ﷺ « أنت مع من أحببت » قال أنس : فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم . وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله ﷺ من حين قبض كان أحد وأجود حتى انتهى من عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وعن المسور بن مخرمة قال : لما طعن عمر رضى الله عنه جعل يألم ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما وكأنه يجزعه : ياأمير المؤمنين، ولئن كان ذلك لقد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض . ثم صحبت صحبتهم ، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه فإنما ذاك من الله تعالى من به تعالى على ، وأما ما ذكرت من صحبة أبى بكر ورضاه فإنما ذلك من الله عز وجل ذكره من به على ، وأما ما ترى من جزعى فهو من أجلك وأجل صاحبك ، والله لو أن لى طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه . وفيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : وضع عمر على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل آخذ منكبى فإذا على رضى الله عنه فترحم على عمر وقال : ما خلفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله تعالى مع صاحبيك ، وحسبك أنى كنت أسمع النبى ﷺ يقول كثيراً : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر . زاد مسلم فى آخره أيضاً : فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله تعالى معهما . والأحاديث فى فضله كثيرة جداً قد أفردت بالتصنيف وفيما ذكرنا كفاية .

وكان قصة استشهاده ما ذكره البخارى رحمه الله تعالى قال : حدثنا موسى ابن اسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن عمرو بن ميمون قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله

عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وقال : كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض مالا تطيق ؟ قالا حملناها أمراً هى له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ، قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض مالا تطيق . قالا لا . فقال عمر لئن سلمنى الله تعالى لأدعن أرامل أهل العراق لايحتجن إلى رجل بعدى أبداً . قال فما أتت عليه رابعة حتى أصيب رضى الله عنه . قال إنى لقائم ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مر بين الصفين قال استووا ، حتى إذ لم ير فيهن خللا تقدم فكبر ، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر حتى سمعته يقول : قتلنى أو أكلنى — الكلب حين طعنه ، فطار العلج بسكين ذات طرفين لايمر على أحد يميناً ولا شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه ، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى وأما نواحى المسجد فلا يدرون غير أنهم فقدوا صوت عمر رضى الله عنه وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن ابن عوف صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس ، انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، فقال : الصنع ؟ قال : نعم . قال : قاتله الله ، لقد أمرت به معروفاً ، الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام ، فقد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رقيقاً . فقال : إن شئت فعلت ، أى إن شئت قتلنا . قال : كذبت ، بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلوا قبلتكم ، وحجوا حجكم ، فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول: أخاف عليه. فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه ، فعلموا أنه ميت ، فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة . قال : وددت أن ذلك كفاف ، لا على ولا لى . فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردوا على الغلام ، قال : ابن أخى ارفع ثوبك ، إنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك . ياعبد الله بن عمر انظر ما على من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ، قال : إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل بنى عدى بن كعب ، فإن لم تفِ أموالهم فسل فى قريش ولا تعد إلى غيرهم ،فأدِّ عنى هذا المال . وانطلق إلى

عائشة فقل : يقرأ عمر بن الخطاب السلام . ولا تل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً . وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى . فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت : كنت أريد لنفسى ولأوثرنه به اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل هذا ، عبدالله بن عمر قد جاء ، قال ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال . الذى تحب يا أمير المؤمنين. أذنت . قال : الحمد لله . ما كان من شيء أهم إلى من ذلك ، فإذا أنا قضيت فاحملونى . ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لى فأدخلونى . وإن ردتنى ردونى إلى مقابر المسلمين . وجاءت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها والنساء تسير معها ، فلما رأيناها قمنا . فولجت عليه فبكت عنده ساعة. واستأذنت الرجال فولجت داخلا لهم فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين . استخلف . قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر — أو الرهط — الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن ، وقال : ليشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شيء — كهيئة التعزية له — فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة . وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم . وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم . وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم . فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى . فسلم عبد الله بن عمر قال : يستأذن عمر بن الخطاب . قالت أدخلوه . فأدخل . فوضع هناك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : قد جعلت أمرى إلى على، فقال طلحة: قد جعلت أمرى إلى عثمان . وقال سعد : قد جعلت أمرى إلى عبدالرحمن بن عوف . فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فلنجعله إليه ، والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه . فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلىّ والله على أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا : نعم فأخذ بيد أحدهما فقال : لك من قرابة رسول الله ﷺ والقدم فى

الإسلام ماقد علمت ، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك . فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه وبايع له على رضى الله عنه ، وولج أهل الدار فبايعوه ، رضى الله عنهم أجمعين .

وكانت مدة خلافة الفاروق رضى الله عنه عشر سنين وستة أشهر ، وكانت وفاته على المشهور لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وله من العمر ثلاث وستون سنة على الأشهر ، وهى السن التى توفى لها رسول الله ﷺ ثم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وبويع لعثمان فى ثلاث من المحرم دخول سنة أربع وعشرين ، وأول من بايعه عبد الرحمن بن عوف ثم على بن أبى طالب ثم بقية أصحاب الشورى ثم بقية أهل الدار ثم بقية المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم أجمعين .

ثالثهم عثمان ذو النورينْ ذو الحلم والحيا بغير مين
بحر العلوم جامع القرآن منه استحت ملائك الرحمن
بايع عنه سيد الأكوان بكفه فى بيعة الرضوان

(ثالثهم) فى الخلافة والفضل كما فى حديث ابن عمر السابق (عثمان) بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، من السابقين الأولين إلى الإسلام بدعوة الصديق إياه ، وزوجه رسول الله ﷺ رقية ابنته رضى الله عنها،وهاجر الهجرتين وهى معه، وتخلف عن بدر لمرضها . وضرب له النبى ﷺ بسهمه وأجره ، وبعد وفاتها زوجه النبى ﷺ أم كلثوم بمثل صداق رقية على مثل صحبتها وبذلك تسمى (ذو النورين) لأنه تزوج ابنتى نبى واحدة بعد واحدة ولم يتفق ذلك لغيره رضى الله عنه . (ذا الحلم) التام الذى لم يدركه غيره (والحياء) الإيمانى الذى يقول فيه النبى ﷺ « الحياء شعبة من الإيمان » وقال « أشدكم حياء عثمان » (بحر العلوم) الفهم التام فى كتاب الله تعالى حتى إن كان ليقوم به فى ركعة واحدة فلا يركع إلا فى خاتمتها إلا ما كان من سجود القرآن ، (جامع القرآن) لما خشى الاختلاف فى القرآن والخصام فيه فى أثناء خلافته رضى الله عنه فجمع الناس على قراءة واحدة وكتب المصحف على القراءة الأخيرة التى درسها جبريل على رسول الله ﷺ سنى حياته .

وكان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان كان فى بعض الغزوات ، وقد اجتمع فيها خلق من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود وأبى الدرداء ، وجماعة من أهل العراق ممن

يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود وأبى موسى ، وجعل من لا يعلم بجواز القراءة على سبعة أحرف يفضل قراءته على قراءة غيره وربما خطأه الآخر أو كفره ، فأدى ذلك إلى خلاف شديد وانتشار الكلام السيىء بين الناس ، فركب حذيفة إلى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف فى كتابها كاختلاف اليهود والنصارى فى كتبهم ، وذكر له ما شاهد من اختلاف الناس فى القراءة فعند ذلك جمع الصحابة وشاورهم فى ذلك ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد وأن يجمع الناس فى سائر الأقاليم على القراءة دون ماسواه لما رأى فى ذلك من مصلحة كف المنازعة ودفع الاختلاف، فاستدعى بالصحف التى كان أمر زيد بن ثابت بجمعها فكانت عند الصديق أيام حياته، ثم كانت عند عمر ، فلما توفى صارت إلى حفصة أم المؤمنين . فاستدعى بها عثمان وأمر زيد بن ثابت الأنصارى أن يكتب وأن يملى عليه سعيد بن العاص الأموى بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدى وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومى ، وأمرهم إذا اختلفوا فى شىء أن يكتبوه بلغة قريش ، فكتب لأهل الشام مصحفاً ، ولأهل مصر آخر ، وبعث إلى البصرة مصحفاً ، وإلى الكوفة بآخر ، وأرسل إلى مكة مصحفاً ، وإلى اليمن مثله ، وأقر بالمدينة مصحفاً ، ويقال لهذه المصاحف « الأئمة » ، ثم عمد إلى بقية المصاحف التى بأيدى الناس مما يخالف ما كتبه فحرقه لئلا يقع بسببه اختلاف : وروى أبو داود الطيالسى وأبو بكر بن أبى داود السجستانى عن سويد بن غفلة قال : قال لى على رضى الله عنه حين حرق عثمان المصاحف : لو لم يصنعه هو لصنعته . وروى البيهقى عنه رضى الله عنه قال : قال على رضى الله عنه : أيها الناس إياكم والغلو فى عثمان تقولون حرق المصاحف ، والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ ولو وليت مثل ما ولى لفعلت مثل الذى فعل .

(منه استحت ملائك الرحمن) كما فى الصحيح عن عطاء وسليمان بن يسار وأبى سلمة بن عبدالرحمن أن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله ﷺ مضطجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث ، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه . قال محمد — يعنى ابن أبى حرملة الراوى عنهم — ولا أقول ذلك فى يوم واحد فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ودخل عمر ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك . فقال : ألا أستحى من رجل تستحى منه

الملائكة » . وعن سعيد بن العاص أن عائشة رضى الله عنها وعثمان رضى الله عنه حدثاه « أن أبا بكر رضى الله عنه استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة ، فأذن لأبى بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف ، قال عثمان ثم استأذنت عليه فجلس وقال لعائشة : اجمعى عليك ثيابك فقضيت إليه حاجتى ثم انصرفت . فقالت عائشة : يا رسول الله مالى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما كما فزعت لعثمان ؟ قال رسول الله ﷺ : إن عثمان رجل حيى وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لايبلغ إلى حاجته » . (بايع عنه) حين ذهب لمكة فى حاجة الرسول ﷺ والمسلمين (سيد الأكوان) محمد رسول الله ﷺ (بكفه) ضرب بها على الأخرى وقال : هذه لعثمان (فى بيعة الرضوان) لما غاب عنها فيما ذكرنا ، وكان انحباسه بمكة هو سبب البيعة كما قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة ، ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب من يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعزبها منى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان رضى الله عنه إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان رضى الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقال لعثمان رضى الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضى الله عنه قد قتل ، قال ابن إسحاق : فحدثنى عبدالله بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان رضى الله قد قتل « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة . فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت ، وكان جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر . فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة فكان جابر رضى الله عنه يقول : والله

لكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد مال إليها يستتر بها من الناس ، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل . وفى الصحيحين عن عثمان بن موهب قال : جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القوم ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : فمن الشيخ فيهم ؟ قالوا : عبدالله بن عمر . قال : يابن عمر ، إنى سائلك عن شىء فحدثنى عنه ، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد ؟ قال : نعم . قال : هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ، فلم يشهدها ؟ قال : نعم ، قال : الله أكبر . قال ابن عمر : تعال أبين لك ، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له . وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه . وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله ﷺ عثمان فكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذا لعثمان . فقال له ابن عمر رضى الله عنه : اذهب بها الآن معك . وروى البيهقى عن أنس رضى الله عنه قال : لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضى الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، فبايع الناس ، فقال رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى ، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضى الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح. وفى الصحيحين عن عروة أن عبد الله بن عدى بن الخيار أخبره أن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث قالا : ما منعك أن تكلم عثمان لأخيك الوليد فقد أكثر الناس فيه ، فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة ، قلت : إن لى إليك حاجة وهى نصيحة لك . قال : يا أيها المرء أعوذ بالله منك . فانصرفت فرجعت إليهم إذ جاء رسول عثمان ، فأتيته فقال : ما نصيحتك؟ فقلت : إن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، وكنت ممن استجاب لله تعالى ولرسوله ﷺ ، فهاجرت الهجرتين ، وصحبت رسول الله ﷺ ورأيت هديه . وقد أكثر الناس فى شأن الوليد . قال : أدركت رسول الله ﷺ ؟ قلت لا ، ولكن خلص إلى من علمه ما يخلص إلى العذراء فى سترها . قال : أما بعد فإن الله بعث محمداً ﷺ بالحق فكنت ممن استجاب لله ولرسوله ﷺ وآمنت بما بعث به وهاجرت الهجرتين — كما قلت — وصحبت رسول الله ﷺ وبايعته ، فوالله ماعصيته ، ولا غششته ، حتى توفاه الله عز وجل ، ثم أبو بكر مثله ، ثم استخلفت ،

أفليس لى من الحق مثل الذى لهم ؟ قلت بلى . قال : فما هذه الأحاديث التى تبلغنى عنكم ؟ أما ما ذكرت من شأن الوليد فسآخذ فيه بالحق إن شاء الله . ثم دعا علياً فأمره أن يجلده ، فجلده ثمانين .

وفى المسند والسنن عن عمرو بن جاوان قال قال الأحنف : انطلقنا حجاجاً فمررنا بالمدينة ، فبينا نحن فى منزلنا إذ جاءنا آت فقال : الناس فى المسجد . فانطلقت أنا وصاحبى ، فإذا الناس مجتمعون على نفر فى المسجد ، قال فتخللتهم حتى قمت عليهم ، فإذا على بن أبى طالب والزبير وطلحة وسعد بن أبى وقاص ، قال فلم يكن ذلك بأسرع من أن جاء عثمان يمشى . فقال : ههنا على ؟ قالوا نعم ، قال : ههنا الزبير ؟ قالوا نعم ، قال : ههنا طلحة ؟ قالوا نعم . قال : ههنا سعد بن أبى وقاص ؟ قالوا نعم . قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال « من يبتاع مربد بنى فلان غفر الله له » فابتعته ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى قد ابتعته ، فقال « اجعله فى مسجدنا وأجره لك » ؟ قالوا نعم . قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال « من يبتاع بئر رومة » فابتعتها بكذا وكذا ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى قد ابتعتها ـــ يعنى بئر رومة ـــ قال: اجعلها سقاية للمسلمين ، ولك أجرها »؟ قالوا نعم. قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ نظر فى وجوه القوم يوم جيش العسرة فقال « من يجهز هؤلاء غفر الله له » فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقالا ؟ قالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد . ثم انصرف رضى الله عنه .

وروى أحمد والترمذى والنسائى عن ثمامة بن جزء القشيرى قال : شهدت الدار يوم أصيب عثمان ، فاطلع عليه اطلاعه ، فقال : ادعوا لى صاحبيكم اللذين ألباكم علىَّ ، فدعيا له ، فقال أنشدكما الله ، تعلمان أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله فقال « من يشترى هذه البقعة من خالص ماله فيكون كالمسلمين وله خير منها فى الجنة » فاشتريتها من خالص مالى فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين. ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها غير بئر يستعذب منه إلا بئر رومة فقال رسول الله ﷺ : « من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين وله خير منها فى الجنة » فاشتريتها من خالص مالى ، وأنتم تمنعونى أن أشرب منها .

ثم قال : هل تعلمون أنى صاحب جيش العسرة ؟ قالوا : اللهم نعم . وقال الترمذى حسن.

وله عن عبد الرحمن بن خباب رضى الله عنه قال : شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله على مائتا بعير بأحلاسها واقتابها فى سبيل الله . ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال : على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل من على المنبر وهو يقول « ما على عثمان ما عمل بعد هذا ما على عثمان ما عمل بعد هذا » .

وله عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره ، فقال عبد الرحمن : فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره ويقول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » (مرتين) حسنه الترمذى .

وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف فى قصة توعدهم إياه بالقتل، قال : ولم يقتلوننى ؟ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفساً بغير نفس » . فوالله مازنيت فى جاهلية ولا إسلام قط ، ولا تمنيت بدلا بدينى منذ هدانى الله له ، ولا قتلت نفساً . فبم يقتلوننى .

وروى الإمام أحمد وغيره عن النعمان بن بشير عن عائشة رضى الله عنها قالت : أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فأقبل عليه رسول الله ﷺ فلما رأينا إقبال رسول الله ﷺ على عثمان أقبلت إحدانا على الأخرى ، فكان من آخر كلمة أن ضرب على منكبه وقال « يا عثمان ، إن الله تعالى عسى أن يلبسك قميصاً ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى » (ثلاثاً) . وروى أحمد والترمذى وقال : حسن غريب عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال « يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلوما » فنظرنا فإذا هو عثمان بن عفان .

وروى أحمد بإسناد جيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنكم تلقون بعدى فتنة واختلافاً — أو قال اختلافاً وفتنة — فقال قائل من الناس : فمن لنا يارسول الله ؟ قال : عليكم بالأمين وأصحابه ، وهو يشير إلى عثمان بذلك » .

وله عن مرة البهزى قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى طريق من طرق المدينة فقال « كيف تصنعون فى فتنة تثور فى أقطار الأرض كأنها صياصى البقر » قالوا نصنع ماذا يا رسول الله ؟ قال « عليكم هذا وأصحابه ، أو اتبعوا هذا وأصحابه » قال فأسرعت حتى عييت ، فأدركت الرجل فقلت: هذا يا رسول الله ؟ قال « هذا » فإذا هو عثمان بن عفان ، فقال هذا وأصحابه يذكره .

وروى الترمذى فى جامعه عنه رضى الله عنه قال لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ماتكلمت ، وذكر الفتن فقر بها ، فمر رجل متقنع فى ثوب فقال « هذا يومئذ على الهدى » فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان . فأقبلت عليه بوجهه فقلت : هذا ؟ قال « نعم » ثم قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

وفى الباب عن ابن عمر وعبد الله بن حوالة وكعب بن عجرة . وروى أحمد وابن ماجه وغيرهما عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال « ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقر بها وعظمها ، قال : ثم مر رجل مقنع فى ملحفة فقال : هذا يومئذ على الحق . قال فانطلقت مسرعاً — أو محضراً — وأخذت بضبعيه فقلت : هذا يا رسول الله ؟ قال : هذا .

وروى أبو داود الطيالسى بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن حوالة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تهجمون على رجل معتجر ببردة من أهل الجنة يبايع الناس » قال فهجمنا على عثمان بن عفان معتجراً يبايع الناس .

وقد تقدم من الأحاديث التى تشير إلى خلافته وأشياء من فضائله مع ذكر صاحبيه رضى الله عنهما ، وفى فضائله منفرداً ومع غيره من السابقين أحاديث كثيرة ، وفيما أشرنا إليه كفاية .

وكان الاعتداء على حياته رضى الله عنه يوم الجمعة لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين على الصحيح المشهور ، وكانت خلافته ثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً ، لأنه بويع له فى مستهل المحرم سنة أربع وعشرين . وأما عمره رضى الله عنه فإنه قد جاوز اثنتين وثمانين سنة . والله أعلم.

والرابع ابن عم خير الرسل أعنى الإمام الحق ذا القدر العلى
مبيد كل خارجي مارق وكل خب رافضى فاسق

من كان للرسول فى مكان هارون من موسى بلا نكران
ولا فى نبوة فقد قدمت ما يكفى لمن من سوء ظن سلما

(والرابع) فى الفضل والخلافة (ابن عم) محمد ﷺ (خير الرسل) أكرمهم على الله عز وجل (أعنى) بذلك (الإمام الحق) بالإجماع بلا مدافعة ولا ممانعة (ذا) صاحب (القدر العلى) الرفيع ، وهو أمير المؤمنين أبو السبطين على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم رضى الله عنه وأرضاه . كان أبو طالب عم النبى ﷺ أخاً شقيقاً لأبيه عبد الله وأمه فاطمة بنت عمرو ، كفل أبو طالب رسول الله ﷺ بعد موت جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين ، ولما بعث آواه الله تعالى به وحماه ، وهو مع ذلك على دين قومه ، ولله فى ذلك حكمة ، وقد حرص النبى ﷺ على هداية عمه كل الحرص ، ولم يكن ذلك حتى خرجت روحه وهو يقول : على ملة عبد المطلب ، وأنزل الله تعالى فى ذلك تعزية لنبيه ﷺ (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء) وقال النبى ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنهاه الله تعالى عن الاستغفار له بقوله عز وجل (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) الآيات . وفى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال « يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشىء ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ، قال : نعم ، هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار » ، وفى لفظ « وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح » ، وفيه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه » ، وفيه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه » . وكفل النبى ﷺ علياً رضى الله عنه وهو صغير ، فلما بعث آمن به وهو ابن ثمان سنين ، وهو أول من آمن من الصبيان ، كما أن أبا بكر رضى الله عنه أول من آمن به من الرجال ، وخديجة رضى الله عنها أول من آمن به من النساء ، وورقة بن نوفل رضى الله عنه أول من آمن به من الشيوخ وزيد بن حارثة رضى الله عنه أول من آمن به من الموالى . وبلال رضى الله عنه أول من آمن به من الأرقاء ﷺ ورضى عنهم أجمعين . وكان على رضى الله عنه صاحب دعوة قريش حين نزلت على الرسول ﷺ (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأمر علياً أن يدعوهم له فيجتمعون للنذارة . وهو الذى فاداه بنفسه

فنام على فراشه ليلة مكر المشركين كما قدمنا فى حديث الهجرة . وهو الذى أدى الأمانات عنه بعدها . وهو الذى برز مع حمزة وعبيدة لخصمائهم يوم بدر وكان يقول : أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الرحمن يوم القيامة . وشهد مع الرسول ﷺ المشاهد كلها إلا تبوك على ما يأتى . وهو صاحب عمرو بن ود وخيله يوم الخندق . وفتح الله على يديه يوم خيبر بعد قتله فارسهم مرحب . وكان مع حماة النبى ﷺ يوم أحد . وكان صاحب النداء بسورة براءة تبليغاً عن الرسول ﷺ فى الموسم ، وشريكه فى هديه فى حجة الوداع ، وخليفته فى أهله فى غزوة تبوك ، وصاحب تجهيزه حين توفى مع جماعة من أهل البيت رضى الله عنهم . وقد ثبت له فى الأحاديث الصحاح والحسان من الفضائل الجمة ما فيه كفاية وغنية عن تلفيق الرافضة وخرطهم وكذبهم عليه وعلى رسول الله ﷺ وقولهم عليه ما لم يقل قبحهم الله .

(مبيد) أى مدمر (كل خارجى) نسبة إلى الخروج من الطاعة ، ولكن صار هذا الاسم علماً على الحرورية الذين كفروا أهل القبلة والمعاصى وحكموا بتخليدهم فى النار بذلك ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، حتى الصحابة من السابقين الأولين من أهل بدر وغيرهم ، حتى على بن أبى طالب وعمار بن ياسر وخباب وأقرانهم رضى الله عنهم ، ثم صار هذا الاسم عاماً لكل من اتبع مذهبهم الفاسد وسلك طريقتهم الخائبة ، وكل ذنب يكفرون به المؤمنين فهو تكفير لأنفسهم من وجوه عديدة وهم لايشعرون . فمنها أن تكفير المؤمن إن لم يكن كذلك كفر فاعله كما فى الحديث « أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال ، وإلا رجعت عليه » . ومنها أن من أكبر الكبائر التى يكفرون بها المؤمنين قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وهم أسرع الناس فى ذلك يقتلون أهل الإيمان ويدعون أهل الأوثان . ومنها أن المؤمن وإن عمل المعاصى فهو لايستحلها وإنما يقع فيها لغلبة نفسه إياه وتسويل شيطانه له وهو مقر بتحريمها وبما يترتب عليه من الحدود الشرعية فيما ارتكبه ، وهم يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ويأخذون الأموال التى حرم الله أخذها إلا بالحق ، ويفعلون الأفاعيل القبيحة مستحلين لها ، والذى يعمل الكبيرة مستحلا لها أولى بالكفر ممن يعملها مقراً تحريمها بل لا مخالف فى ذلك إذ هو تكذيب بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله عليهم السلام ، وإنما توقف الصحابة عن تكفير أهل النهروان لأنهم كانوا يتأولون فحكموا أنهم بغاة .

(مارق) اسم فاعل من المروق وهو الخروج من جانب غير مقصود الخروج منه، وسمى الخوارج « مارقة » لقول النبى ﷺ فيهم (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وقوله « تمرق مارقة » الحديث . ففى الصحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال « أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفة من حنين ، وفى ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطى الناس ، فقال : يا محمد اعدل : قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق ، فقال « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية » . وفيه عن أبى سعيد فى قصة الذهيبة « فجاء رجل كث اللحية مشرف الوجنتين غائر العينين نأتىء الجبين محلوق الرأس فقال : اتق الله يا محمد قال فقال رسول الله ﷺ : فمن يطع الله إن عصيته ؟ أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى ؟ قال ثم أدبر الرجل فاستأذن رجل من القوم فى قتله — يرون أنه خالد بن الوليد — فقال رسول الله ﷺ : إن من ضئضىء هذا قوماً يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وفى لفظ « ثمود » وفى لفظ « فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله ائذن لى فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شىء وهو القدح ، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شىء ، سبق الفرث والدم ، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر ، يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد : فأشهد أنى سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معهم ، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد ، فأتى به حتى نظرت إليه على نظرة رسول الله ﷺ الذى نعت » . وفيه عنه رضى الله عنه أن النبى ﷺ ذكر قوماً يكونون فى أمته يخرجون فى فرقة من الناس سيماهم التحالق قال « هم شر الخلق ، أو من أشر الخلق ، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » قال فضرب النبى ﷺ لهم مثلا — أو قال قولا — الرجل يرمى الرمية أو قال الفوق فينظر فى النصل فلا يرى بصيرة ، وينظر فى النضى فلا يرى بصيرة ، وينظر فى الفوق فلا يرى بصيرة . قال قال أبو سعيد وأنتم قتلتموهم

يا أهل العراق . وفيه عنه رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق — وفى رواية — يكون فى أمتى فرقتان فتخرج من بينهما مارقة يلى قتلهم أولاهم بالحق . وفى لفظ قال قال ﷺ « تمرق مارقة فى فرقة من الناس، فيلى قتلهم أولى الطائفتين بالحق » . وفى رواية « يخرجون على فرقة مختلفة ، يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق » . وفيه عن سويد بن غفلة قال : قال على رضى الله عنه « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ من المساء أحب إلى من أن أقول عليه ما لم يقل ، وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم فإن الحرب خدعة . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج فى آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يقرءون القرآن لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة » وفيه عن عبيدة عنه رضى الله عنه قال « ذكر الخوارج فقال : فيهم رجل مخدج اليد — أو مودن اليد ، أو مودون اليد — لولا أن تطروا لحدثتكم بما وعد الله تعالى الذين يقتلونهم على لسان محمد ﷺ . قال قلت : أنت سمعت من محمد ﷺ ؟ قال : إى ورب الكعبة ، إى ورب الكعبة ، إى ورب الكعبة » . وفيه عن زيد بن وهب الجهنى أنه كان فى الجيش الذين كانوا مع على رضى الله عنه الذين ساروا إلى الخوارج ، فقال على رضى الله عنه : أيها الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء ، يقرءون القرآن يحسبونه أنه لهم وهو عليهم ، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم ﷺ لا تكلوا عن العمل . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى ، عليه شعرات بيض ، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم فى ذراريكم وأموالكم ؟ والله إنى لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام ، وأغاروا فى سرح الناس ، فسيروا على اسم الله ، قال سلمة بن كهيل فنزلنى زيد بن وهب منزلا حتى مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبى فقال لهم : ألقوا الرماح وسلوا سيوفكم من جفونها فإنى أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء ، فرجعوا فوحشوا برماحهم وسلوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم ، قال وقتل بعضهم على بعض ، وما أصيب من الناس يومئذ إلا رجلان . فقال على رضى الله عنه التمسوا فيهم المخدج

فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام على رضى الله عنه بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض قال أخروهم ، فوجدوه مما يلى الأرض فكبر ثم قال : صدق الله وبلغ رسوله ، قال فقام إليه عبيدة السلمانى فقال : يا أمير المؤمنين ، والله الذى لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقال أى والله الذى لا إله إلا هو . حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له »، وفيه عن عبيد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية لما خرجت وهو مع على بن أبى طالب رضى الله عنه قالوا : لا حكم إلا لله ، قال على : كلمة حق أريد بها باطل . إن رسول الله وصف لنا وإنى لأعرف صفتهم فى هؤلاء ، يقولون الحق بألسنتهم ولا يجوز هذا منهم — وأشار إلى حلقه — من أبغض خلق الله إليه ، منهم أسود إحدى يديه طبى شاة أو حلمة ثدى . فلما قتلهم على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : انظروا ، فنظروا فلم يجدوا شيئاً ، فقال : ارجعوا فوالله ما كذبت ولا كذبت — مرتين أو ثلاثاً — ثم وجدوه فى خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه ، قال عبد الله : وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول على رضى الله عنه فيهم » وفيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن بعدى من أمتى قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه ، هم شر الخلق والخليقة » ومثله عن رافع ابن عمر الغفارى رضى الله عنه . وفى سنن أبى داود عن أبى سعيد الخدرى وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة يحبون القتل ويسيئون الفعل ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، لايرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم ، قالوا يا رسول الله ما سيماهم ؟ قال : التحليق». وله عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « سيماهم التحليق والتسبيد ، فإذا رأيتموهم فأيتموهم » قال أبو داود : التسبيد استئصال الشعر . والأحاديث فى ذم الخوارج والأمر بقتالهم والثناء على مقاتليهم كثيرة جداً وفيما ذكرنا كفاية .

(و) مبيد (كل خب رافضى فاسق) الخب الخداع الخائن . والرافضى نسبة إلى الرفض وهو الترك بازدراء واستهانة . سموا بذلك لرفضهم الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وزعموا أنهما ظلما علياً واغتصبوه الخلافة ومنعا فاطمة رضى الله عنها فدك ، وبذلك يحطون عليهما ثم على عائشة ثم على غيرها من الصحابة . وهم أقسام كثيرة لاكثرهم الله تعالى .

أعظمهم غلوا وأسوأهم قولا وأخبثهم اعتقاداً بل وأخبث من اليهود والنصارى هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى قبحه الله ، كانوا يعتقدون فى على رضى الله عنه الإلهية كما يعتقد النصارى فى عيسى عليه السلام ، وهم الذين أحرقهم على رضى الله عنه بالنار ، وأنكر ذلك عليه ابن عباس كما فى صحيح البخارى والمسند وأبى داود والترمذى والنسائى عن عكرمة رضى الله عنه قال : أتى على رضى الله عنه بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ « لا تعذبوا بعذاب الله » ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » . حكى عن أبى المظفر الإسفراينى فى الملل والنحل أن الذين أحرقهم على رضى الله عنه طائفة من الروافض ادعوا فيه الإلهية وهم السبئية وكان كبيرهم عبدالله بن سبأ يهودياً ثم أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة . وتفصيل ذلك ما ذكره فى الفتح من طريق عبد الله بن شريك العامرى عن أبيه قال : قيل لعلى رضى الله عنه إن هنا قوماً على باب المسجد يزعمون أنك ربهم ، فدعاهم فقال لهم : ويلكم ما تقولون ؟ قالوا أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ، قال : ويلكم إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، إن أطعت الله أثابنى إن شاء وإن عصيته خشيت أن يعذبنى ، فاتقوا الله وأرجعوا ، فأبوا . فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر فقال : قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام ، فقال أدخلهم فقالوا كذلك ، فلما كان الثالث قال لئن قلتم ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة فأبوا إلا ذلك ، فأمر على رضى الله عنه أن يخدّ لهم أخدود بين المسجد والقصر ، وأمر بالحطب أن يطرح فى الأخدود ويضرم بالنار ثم قال لهم : إنى طارحكم فيها أو ترجعوا . فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم حتى إذا احترقوا قال :

إنى إذا رأيت أمراً منكراً أوقدت نارى ودعوت قنبراً

قال الحافظ ابن حجر : إسناده صحيح ، ومنهم طائفة يعتقدون أن لا إله إلا على ، وهم النصيرية الذين يقول شاعرهم الملعون قبحه الله .

أشهد ألا إله إلا حيدرة الأذرع البطين
ولا سبيل إليه إلا محمد الصادق الأمين
ولا حجاب عليه إلا سلمان ذو القوة المتين

ومنهم من يدعى فيه الرسالة وأن جبريل خانها فنزل بها على محمد ﷺ .

ومنهم من يدعى فيه العصمة ، ويرى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان باطلة ، ويشتمون طلحة والزبير وعائشة ويرمونها بما رماها به ابن سلول قبحهم الله .

ومنهم من يدعى أنه رفع إلى السماء كما رفع عيسى وسينزل كما ينزل عيسى وهم أصحاب الرجعة .

ومنهم من يدعى أنه وصى رسول الله ﷺ بأمته ، وأنه عهد إليه ما يعهده إلى غيره وبلغه ماكتمه الناس ، وغير ذلك من فرقهم الضالة وشيعهم الخاطئة .

وأما الزيدية الذين يدعون أنهم أصحاب زيد بن على وأتباعه فهؤلاء لايشتمون الشيخين ولا عائشة ولا سائر العشرة ، ولكنهم يفضلون علياً رضى الله عنه ويقدمونه فى الخلافة ثم أبو بكر ثم عمر ثم يسكتون عن عثمان رضى الله عنه ويحطون على معاوية غفر الله له . هذا الذى وقفنا عليه فى بعض رسائلهم ، ثم رأيتُ فى بعضها السكوت عن أبى بكر وعمر ، فلا يذكرونهما بخير ولا شر ، ولا بخلافة ولاغيرها ، ثم يحصرون الخلافة فى على رضى الله عنه وذريته ، ففرقة تدعى عصمتهم ، وأخرى لا تدعى ذلك . والمقصود أنهم فرق كثيرة متفاوتون فى أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم وأخفهم بدعة الزيدية ، هذا فى شأن أهل البيت طهرهم الله تعالى ، وأما فى مسألة الصفات والقرآن والقدر والوعد والوعيد وسائر المعتقدات فقد دهى كل فرقة منهم مادهى غيرهم من الناس،ولكن المشهور من غالبهم الاعتزال واعتمادهم كتب العلاف والجبائى وأشباهه ، والزيدية عمدتهم فى تفسير القرآن كشاف الزمخشرى وقد شحنه بقول القدرية المعتزلة ، وهم أخف وأهون ممن يكفر بكثير من القرآن بالكلية نعوذ بالله ، ومحل بسط مقالاتهم وفرق ضلالاتهم كتب المقالات . هذا وقد قال على رضى الله عنه فى تفضيل أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ماقدمناه فى الصحيح ، وفى كتاب السنة عن علقمة فى خطبة على رضى الله عنه على منبر الكوفة : ألا إنه بلغنى أن قوماً يفضلوننى على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولو كنت تقدمت فى ذلك لعاقبت فيه ، ولكن أكره العقوبة قبل التقدم . من قال شيئاً من ذلك فهو مفتر ، عليه ما على المفترى ، وخير الناس كان بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ، ثم أحدثنا بعدهم أحداثاً يقضى الله فيه ما شاء . وهذا الكلام مشهور عنه من طرق لا تحصى ، لأنه رضى الله عنه وكرم الله وجهه كان يجهر به ويظهره فى المحافل وعلى المنابر ، ويذم الرافضة كثيراً ، وقد جلد من قيل له إنه تكلم فى عرض أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها جلده مائة جلدة وكان من أشد الناس على الرافضة وأسطاهم بهم رضى الله عنه .

(من كان) بمعنى صار (للرسول) ﷺ (فى مكان) أى منزلة (هارون من موسى) عليهما السلام فى الاستخلاف، فموسى استخلف هارون فى مدة الميعاد ، ومحمد ﷺ استخلف علياً فى غزوة تبوك . ففى الصحيحين عن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى » ؟ وفيها من رواية مصعب بن سعد عن أبيه أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً رضى الله عنه، فقال : أتخلفنى فى الصبيان والنساء ؟ قال : ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه ليس بنبى بعدى » هذا الاستثناء يزيل الإشكال من الرواية الأولى ويخصص عموم المنزلة بخصوص الإخوة والاستخلاف فى أهله فقط لا فى النبوة كمشاركة هارون لموسى فيها إذ يقول الله تعالى لموسى (أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) ، وقال لهما (فأتيا فرعون فقولا إنا رسولا ربك) ولهذا قلنا فى المتن (لا فى نبوة) لمنزلة هارون من موسى فيها ، فلا تتوهم ذلك من اقتصارى على الراوية الأولى ، (فقد قدمت) فى فصل النبوة (ما يكفى) فى هذا الباب (لمن من سوء ظن) بأخيه المسلم (سلماً) وهو قولى :

وكل من من بعده قد ادعى نبوة فكاذب فيما ادعى

وما بعده. وفى الصحيحين فى تفسير قوله الله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) عن قيس بن عدى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقسم فيها أن هذه الآية نزلت فى حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه ، برزوا فى يوم بدر . وفيهما عنه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة . قال قيس : وفيهم نزلت (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال : هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . وفيهما عن سهل ابن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . قال فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقيل هو يا رسول الله يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه . فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال على : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدى الله بك

رجلا واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم» وعن سلمة بن الأكوع نحوه مختصرا ، ونحوه عند مسلم أيضاً ، وفيهما عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه أن رجلا جاء إلى سهل ابن سعد فقال : هذا فلان لأمير المدينة يدعو علياً عند المنبر . قال : ماذا يقول له ؟ قال : يقول أبو تراب ؟ فضحك وقال : والله ما سماه إلا النبى ﷺ وما كان له اسم أحب إليه منه ، فاستطعمت الحليب سهلا وقلت : يا أبا العباس كيف ؟ قال « دخل على رضى الله عنه على فاطمة ، ثم خرج فاضطجع فى المسجد ، فقال النبى ﷺ : أين ابن عمك ؟ قالت : فى المسجد فخرج إليه فوجد رداءه قد سقط عن ظهره وخلص إلى ظهره ، فجعل يمسح التراب عن ظهره ، فيقول ؛ اجلس يا أبا تراب مرتين » ، وفى رواية مسلم عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال « استعمل على المدينة رجل من آل مروان ، قال فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً قال فأبى سهل فقال له أما إذا أبيت فقل لعن الله أبا تراب ، فقال سهل : ما كان لعلى اسم أحب إليه من أبى تراب وإن كان ليفرح إذا دعى به . فقال له أخبرنا عن قصته أسمى أبا تراب فذكره » وفى صحيح البخارى عن سعيد بن عبيدة قال « جاء رجل إلى ابن عمر رضى الله عنهما فسأله عن عثمان ، فذكر من محاسن عمله وقال لعل ذلك يسوؤك ؟ قال نعم . قال فأرغم الله بأنفك . ثم سأله عن على فذكر محاسن عمله وقال هو ذاك بيته أوسط بيوت النبى ﷺ ، ثم قال : لعل ذاك يسوؤك؟ قال: أجل ، قال فأرغم الله بأنفك . انطلق واجهد على جهدك » . وفيهما عن ابن أبى ليلى قال: حدثنا على رضى الله عنه أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى ، فأتى النبى ﷺ سبى ، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة رضى الله عنها فأخبرتها ، فلما جاء النبى ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم ، فقال : على مكانكما . فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى وقال : ألا أعلمكما خيراً مما سألتمانى ؟ إذ أخذتما مضاجعكما ؟ تكبران أربعاً وثلاثين وتسبحان ثلاثاً وثلاثين وتحمدان ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم » وفى البخارى عن ابن سيرين عن عبيدة عن على رضى الله عنه قال « اقضوا كما كنتم تقضون ، فإنى أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة أو أموت كما مات أصحابى . فكان ابن سيرين يرى أن عامة ما يروى عن على رضى الله عنه الكذب » . قلت وأكثر ما يكذب على على رضى الله عنه الرافضة الذين يدعون مشايعته ونشر فضائله ومثالب غيره من الصحابة ، فيسندون ذلك إليه رضى الله عنه وهو برىء منهم .وهم أعدى عدو له. وفى الصحيحين من طرق عنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تكذبوا على فإنه من كذب على

فليلج النار » . وفى فضائله رضى الله عنه من الأحاديث الصحاح والحسان ما يغنى عن أكاذيب الرافضة ، وهم يجهلون غالب ما له من الفضائل فيها ، وفى صحيح مسلم عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه رضى الله عنه قال : أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال : ما منعك أن تسب أبا تراب ؟ فقال : أما ما ذكرت فثلاث قالهن رسول الله ﷺ لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول له وقد خلفه فى مغازيه فقال له على رضى الله عنه : يا رسول الله خلفتنى مع النساء والصبيان ، فقال له رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى ؟ وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله قال فتطاولنا لها قال ادعوا لى علياً ، فأتى به أرمد فبصق فى عينيه ودفع إليه الراية ليلة فتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال « اللهم هؤلاء أهلى » وفى صحيح مسلم عن زر قال : قال على رضى الله عنه : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبى ﷺ إلى أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق . والأحاديث فى فضله كثيرة جداً ، وقد تقدم الحديث فى الإشارة إلى خلافته رضى الله عنه فى رؤيا الرجل الصالح الدلو التى شرب منها أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم جاء على وأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منها شىء ، وكان تأويل ذلك ما أصابه رضى الله عنه من اختلاف الناس عليه والفتن الهائلة والدماء المهرقة والأمور الصعاب والأسلحة المسلولة بين المسلمين بسبب السبئية ومن وافقهم من أهل الأمصار على قتل عثمان ، وكان غالبهم منافقين ، وقليل منهم من أبناء الصحابة مغرورون ، فحصل من ذلك فى يوم الجمل وصفين وغيرهما وقائع يطول ذكرها .

فأما وقعة الجمل فكانت بمحض فعل السبئية قبحهم الله تعالى ، ليس باختيار على رضى الله عنه ولا طلحة ولا الزبير ولا أم المؤمنين رضى الله عنهم ، بل بات الفريقان متصالحين بخير ليلة ، فتواطأ أهل الفتنة ، وتمالؤا على أن يفرقوا بين الفريقين وينشبوا الحرب بين الفئتين من الغلس ، فثار الناس من نومهم إلى السلاح فلم يشعر أصحاب رسول الله ﷺ إلا بالرءوس تندر والمعاصم تتطاير ما يدرون ما الأمر حتى عقر الجمل وانكشف الحال عن عشرة آلاف قتيل فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنما أنشب أهل الفتنة الحرب بين الفريقين لعلمهم أنهما إن تصالحا دارت الدائرة عليهم وأخذوا بدم عثمان وأقيم عليهم كتاب ، فقالوا نشغلهم بأنفسهم ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

. وأما فى قتاله أهل الشام فكانوا هم مع معاوية، وكان هو رضى الله عنه متأولا يطلب بدم عثمان ويرى أنه وليه وإن قتلته فى جيش على ، فكان معذوراً فى خطئه بذلك ، وأما على رضى الله عنه فكان مجتهداً مصيباً وفالجاً محقاً يريد جمع كلمة الأمة حتى إذا كانوا جماعة وخمدت الفتن وطفئت نارها أخذ بالحق من قتلة عثمان ، وكان رضى الله عنه أعلم بكتاب الله من المطالبين بدم عثمان ، وكان السبئية يخافونه أعظم من خصمائه ، وذلك الذى حملهم على ما فعلوه يوم الجمل فكان أهل الشام بغاة اجتهدوا فأخطئوا وعلى رضى الله عنه يقاتلهم ليرجعوا إلى الحق ويفيئوا إلى أمر الله ، ولهذا كان أهل بدر الموجودون على وجه الأرض كلهم فى جيشه وعمار قتل معه رضى الله عنه كما فى الصحيحين من حديث أبى سعيد فى بناء المسجد ، فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين ، فرآه النبى ﷺ فينفض التراب عنه ويقول : ويح عمارا تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، قال يقول عمار أعوذ بالله من الفتن فقتله أهل الشام مصداق ما أخبرهم به الصادق المصدوق ﷺ وهو يدعوهم إلى الجماعة والائتلاف وإلى طاعة الإمام التى هى من أسباب دخول الجنة ويدعونه إلى الفتنة والفرقة التى هى من أسباب دخول النار ، وكان على رضى الله عنه أسعد منهم وأولاهم بالحق لقتله الخوارج بالنهروان ، وقد قال النبى ﷺ تقتلهم أولى الطائفتين بالحق كما قدمنا . وفى سنن أبى داود عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بعثنى عمر إلى الأسقف[1] فدعوته فقال له عمر : وهل تجدنى فى الكتاب ؟ قال نعم . قال : كيف تجدنى ؟ قال أجدك قرناً ، فرفع عليه الدرة فقال : قرن مه ؟ فقال: قرن حديد، أمين شديد . قال كيف تجد الذى يجىء من بعدى ؟ فقال : أجده خليفة صالحاً غير أنه يؤثر قرابته ، قال عمر : يرحم الله عثمان (ثلاثاً) . فقال : كيف تجد الذى بعده ؟ قال أجده صدأ حديد ، فوضع عمر يده على رأسه فقال : يادفراه يادفراه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ، ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق ».

وكان الأمر كما أخبر ، وكان رضى الله عنه أيام خلافته على طريق الحق والاستقامة والتمسك بكتاب الله وهدى محمد ﷺ مجتهداً فى جمع شمل الأمة وإطفاء الفتن والتذفيف على أهل البدع حتى اعتدى على حياته رضى الله عنه الشقى ابن ملجم الخارجى قبحه الله وقد فعل ، وذلك يوم الجمعة فى وقت الفجر وهو يقول : الصلاة الصلاة ، فمكث يوم الجمعة وليلة السبت ، وتوفى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة . فكانت مدة خلافته كلها أربع سنين وتسعة أشهر إلا ليال ، وهو يومئذ

(١) لعله يريد كعب الأحبار .

أفضل من على وجه الأرض بالإجماع . وذلك مصداق ما روى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن سفينة أبي عبدالرحمن مولى رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تكون بعد ذلك ملكاً » قال سفينة : فخذ سنتى أبى بكر وعشر عمر واثنتى عشرة عثمان وست على رضى الله عنهم أجمعين . قلت : سفينة رضى الله عنه حذف الزائد والناقص عن السنين من الأشهر على ما جرت به عادات العرب فى حذف الكسور فى الحساب ، وعلى ما قدمنا ضبطه فأيام كل منهم لا تكمل ثلاثين إلا بخلافة الحسن بن على رضى الله عنه ، وهى ستة أشهر ، ثم أصلح الله به الفئتين من المسلمين أخبر النبى ﷺ ، وولى معاوية بذلك واجتمع الناس عليه وكان ذلك العام يسمى « عام الجماعة » وكان معاوية رضى الله عنه أول ملوك الإسلام وخيرهم ، وروى الإمام أحمد عن على رضى الله عنه قال : سبق رسول الله ﷺ ، وصلى أبو بكر ، وثلث عمر . ثم خبطتنا بعده فتنة فهو ما شاء الله . وفى رواية : يقضى الله فيها ما يشاء . وله عنه رضى الله عنه ليحبنى قوم حتى يدخلوا النار فى حبى ، وليبغضنى قوم حتى يدخلوا النار فى بغضى له عنه رضى الله عنه قال : يهلك فى رجلان مفرط غال ، ومبغض قال . وله عنه رضى الله عنه قال : يهلك فى رجلان محب مفرط ومبغض مفتر . وله عن الشعبى عن علقمة قال : أتدرى ما مثل على فى هذه الأمة ؟ قال قلت : وما مثله ؟ قال : مثله كمثل ابن مريم ، أحبه قوم حتى هلكوا فى حبه ، وأبغضه قوم حتى هلكوا فى بغضه . وقد روى عبد الله بن أحمد هذا المعنى مسنداً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: دعانى رسول الله ﷺ فقال « إن فيك من عيسى مثلا ، أبغضته يهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به » ألا وإنه يهلك فىَّ اثنان : محب مفرط يقرظنى بما ليس فىَّ ، ومبغض مفتر يحمله شنآنى على أن بهتنى ، ألا وإنى لست بنبى ولا موصى إلىَّ ، ولكن أعمل بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ما استطعت ، فما أمرتكم به من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم . وكان رضى الله عنه يخبر أصحابه بولاية معاوية رضى الله عنه ويقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ، والذى نفسى بيده ما بينكم وبين أن تنظروا إلى جماجم الرجال تندر عن كواهلهم كأنها الحنظل إلا أن يفارقكم معاوية . وكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول : لا أعلم أحداً يحفظ له من الفضائل فى الأحاديث الصحاح ما يحفظ لعلى ، رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين .

فالستـة المكمـلـون العـشرة وسائر الصحب الكرام البررة

(ف ـ) يليهم فى الفضل (الستة المكملون) عدد (العشرة) المشهود لهم بالجنة كما فى السنن عن عبد الرحمن بن الأخنس أنه كان فى المسجد ، فذكر رجل علياً عليه السلام ، فقام سعيد بن زيد فقال : أشهد على رسول الله ﷺ أنى سمعته وهو يقول « عشرة فى الجنة: النبى ﷺ فى الجنة ، وأبو بكر فى الجنة ، وعمر فى الجنة ، وعثمان فى الجنة ، وعلى فى الجنة ، وطلحة فى الجنة ، والزبير ابن العوام فى الجنة ، وسعد بن مالك فى الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة » ولو شئت لسميت العاشر . قال فقالوا : من هو ؟ فسكت ، قال فقالوا : من هو ؟ فقال « هو سعيد بن زيد » رضى الله عنه . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة . وفى الصحيح عن أبى عثمان قال : لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى قاتل فيها رسول الله ﷺ غير طلحة وسعد . وفيه عن قيس بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحة التى وقى بها النبى ﷺ قد شلت .

وفيه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا . ثم قال « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا . ثم قال « من يأتينا بخبر القوم ؟ » فقال الزبير : أنا . ثم قال « إن لكل نبى حوارياً ، وحوارى الزبير » . وفيه عن مروان بن الحكم قال : أصاب عثمان رضى الله عنه رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج وأوصى ، فدخل عليه رجل من قريش قال : استخلف . قال : وقالوه ؟ قال نعم . قال ومن ؟ فسكت . فدخل عليه رجل آخر ــ أحسبه الحارث ــ فقال : استخلف . فقال عثمان وقالوا ؟ فقال نعم . قال ومن هو ؟ فسكت ، فلعلهم قالوا الزبير ، قال : نعم ، أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لاحبهم إلى رسول الله ﷺ .وفى رواية قال: أما والله انكم لتعلمون أنه خيركم (ثلاثاً).وفيه عن عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما قال : كنت يوم الأحزاب جعلت آنا وعمر بن آبى سلمة فى النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة مرتين أو ثلاثاً ، فلما رجعت قلت : يا أبتى رأيتك تختلف . قال : وهل رأيتنى يا بنى ؟ قلت نعم . قال : كان رسول الله ﷺ قال : من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ، فانطلقت ، فلما رجعت جمع لى رسول الله بين أبويه فقال : فداك أبى وأمى ، وعن هشام بن عروة عن أبيه أن أصحاب النبى ﷺ قالوا للزبير يوم وقعة اليرموك : ألا شد فنشد معك ، فحمل عليهم ، فضربوه ضربتين على عاتقه

بينهما ضربة ضربها يوم بدر ، قال عروة : فكنت أدخل أصابعى فى تلك الضربات ألعب وأنا صغير . قلت : وقد اخترق صفوف الروم يومئذ أربع مرات ، مرتين دخولا فيهم ومرتين رجوعاً ، وكانت الضربتان فى رجعته من المرة الأخرى ، كما هو مبسوط فى موضعه من السير . وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ « اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد » . زاد فى رواية : وسعد ابن أبى وقاص .

وفيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : أرق رسول الله ذات ليلة فقال « ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة » قالت وسمعنا صوت السلاح ، فقال رسول الله ﷺ « من هذا » ؟ قال : سعد بن أبى وقاص يا رسول الله ، جئت أحرسك . قالت عائشة : فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه . وفيهما عن عبد الله بن شداد قال : سمعت علياً يقول : ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك ، فإنه جعل يقول له يوم أحد « ارم فداك أبى وأمى » . وعن عامر بن سعد عن أبيه أن النبى ﷺ جمع له أبويه يوم أحد ، قال كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين فقال لى النبى ﷺ « ارم فداك أبى وأمى » قال : فنزعت له بسهم ليس فيه نصل ، فأصبت جنبه ، فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله ﷺ نظرت إلى نواجذه ، وفيه عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن ، قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب ، قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك ، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا قال : مكثت ثلاثاً حتى غشى عليها من الجهد ، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت تدعو على سعد ، فأنزل الله عز وجل فى القرآن هذه الآيات (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً . وإن جاهداك على أن تشرك بى) وفيها (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) قال : وأصاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة فإذا فيها سيف ، فأخذته فأتيت به الرسول ﷺ فقلت : نفلنى هذا السيف فأنا من قد علمت حاله ، فقال « رده من حيث أخذته » فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه فى القبض لامتنى نفسى فرجعت إليه فقلت : أعطنيه . قال فشد لى صوته « رده من حيث أخذته » قال فأنزل الله عز وجل (يسألونك عن الأنفال) قال ومرضت فأرسلت إلى النبى ﷺ فأتانى فقلت : دعنى أقسم ما لى حيث شئت . قال فأبى . قلت : فالنصف ، قال فأبى ، قلت فالثلث ، قال فسكت فكان بعد الثلث جائزاً . قال

وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمراً ، وذلك قبل أن تحرم الخمر ، قال فأتيتهم فى حش ـــ والحش البستان ـــ فإذا رأس جزور مشوى عندهم وزق من خمر ، قال : فأكلت وشربت معهم ، قال فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت : المهاجرون خير من الأنصار ، قال فأخذ رجل أحد لحيى الرأس فضربنى به فجرح بأنفى ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأنزل الله عز وجل فى ـــ يعنى نفسه ـــ بشأن الخمر (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) . وعنه رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لايجترئون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع فتحدث فى نفسه ، فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وعنه رضى الله عنه أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا : ابعث معنا رجلا يعلمنا السنة والإسلام ، قال فأخذ بيد أبى عبيدة فقال « هذا أمين هذه الأمة » . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله ابعث إلينا رجلا أمينا فقال : لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين حق أمين ، قال فاستشرف لها الناس ، قال فبعث أبا عبيدة بن الجراح .

وروى ابن إسحاق فى قصة خالد مع بنى جذيمة فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام . فقال : إنما ثأرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت قد قتلت قاتل أبى ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة ، حتى كان بينهما شر ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « مهلا ياخالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم انفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحة » .

(وسائر الصحب) بقيتهم (الكرام البررة) الذين هم خير القرون من هذه الأمة اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ونصرة دينه ، ثم هم على مراتبهم : أفضلهم السابقون الأولون من المهاجرين ، ثم من الأنصار ، ثم أهل بدر ، ثم أهل أحد ، ثم أهل التبات فى غزوة الأحزاب التى نجم فيها النفاق ، ثم بيعة الرضوان ، ثم من هاجر من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى .

وأهل بيت المصطفى الأطهار وتابعيه السادة الأخيار
فكلهم فى محكم القرآن أثنى عليهم خالق الأكوان
فى الفتح والحديد والقتال وغيرها بأكمل الخصال
كذاك فى التوراة والإنجيل صفاتهم معلومة التفصيل
وذكرهم فى سنة المختار قد سار سير الشمس فى الأقطار

(وأهل بيت) الرسول محمد ﷺ (المصطفى) تقدم معناه ، (المختار) اسم مفعول من الاختيار بمعنى التفضيل ، وهن زوجاته اللاتى هن أمهات المؤمنين كما قال الله تعالى فيهن (وأزواجه أمهاتهم) وخيرهن الله تعالى بين إرادة زينة الحياة الدنيا وبين إرادة الله ورسوله فاخترن الله تعالى ورسول الله ﷺ وقال الله تعالى فيهن (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) وهن زوجاته فى الدنيا والآخرة . فمنهن خديجة أم المؤمنين الصديقة الأولى التى هى أول من صدقه ﷺ فيما بعث به على الإطلاق قبل كل أحد رضى الله عنها ، وقرأ جبريل عليها السلام من ربها وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا وصب ، ومازالت تؤويه وتسكن جأشه وتعاضده بالنفس والمال توفاها الله عز وجل .

وعائشة رضى الله عنها الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله ﷺ المبرأة من فوق سبع سماوات بأربع عشرة آية تتلى فى المحاريب والكتاتيب فى كل زمان ومكان ، التى كان ينزل الوحى عليه وهو فى حجرها ، وتوفى فى حجرها وقد خلط ريقها بريقه ﷺ فى آخر ساعة من الدنيا وأولها من الآخرة . ودفن فى حجرتها ، وكانت من أفقه الصحابة فى الحديث والتفسير وغير ذلك ، حتى كان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن أشياء كثيرة فيجدون منها عندها علماً ، لاسيما ماقاله الرسول ﷺ أو فعله فى الحضر . أقرأها جبريل السلام أيضاً كما أقرأه على خديجة .

ومنهن أم سلمة رضى الله عنها ذات الهجرتين مع زوجها أبى سلمة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ثم تزوجها نبى الله ﷺ بعد وفاة زوجها رضى الله عنه ، وقد رأت جبريل عند النبى ﷺ فى صورة دحية بن خليفة رضى الله عنه .

ومنهن زينب أم المؤمنين التى زوجه الله إياها من فوق سبع سماوات . وهى أطولهن يداً لإنفاقها من كسب يدها ، وأسرعهن لحوقاً به ﷺ . وبسببها نزل الحجاب .

وصفية بنت حيى من ولد هارون بن عمران رسول الله وأخى رسوله موسى الكليم عليهما السلام .

وجويرية بنت الحارث ملك بنى المصطلق التى كانت هى السبب فى عتق السبى من قبيلتها .

وسودة بنت زمعة التى كانت أيضاً من أسباب الحجاب ، ولما كبرت اختارت نبى الله عز وجل أن تبقى فى عصمة نكاحه ، ووهبت يومها لعائشة تستحقه مع قسمها .

وأم حبيبة ذات الهجرتين أيضاً . وميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها التى نكحها النبى ﷺ فى عمرة القضاء وهما حلالان على ما حدثت به هى والسفير بينهما . وكلهن زوجاته فى الدنيا والآخرة رضى الله عنهن .

ويدخل أهل بيته فى هذه الآية من باب أولى بل بنص الحديث الخمسة الذين جللهم النبى ﷺ بكسائه كما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرج النبى ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن على فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء على فأدخله ثم قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . ويدخل فى أهل بيته آله الذين حرمت عليهم الصدقة بنو هاشم وبنو المطلب كما فى الصحيح عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين ابن سبرة وعمر بن سالم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغدوت معه وصليت خلفه . لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ ، قال : يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعرف من رسول الله ﷺ ،فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بما يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . فحث على كتاب الله تعالى ورغب فيه ثم قال : وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل

على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس . قال كل هؤلاء حرم الصدقة ؟ قال نعم — وفى رواية — أحدهما كتاب الله عز وجل هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة . وفيه : فقلنا من أهل بيته ، نساؤه ؟ قال : لا وايم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . وفى الصحيح أيضاً عن المسور بن مخرمة قال : قال رسول الله ﷺ « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » . وفيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : اجتمع نساء النبى ﷺ فلم يغادر منهن امرأة فجاءت فاطمة تمشى كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال مرحباً بابنتى فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم إنه أسر إليها حديثاً فبكت فاطمة ، ثم إنه سارها فضحكت أيضاً ، فقلت لها ما يبكيك ؟ فقالت ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ . فقلت ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن . فقلت لها حين بكت أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين ، وسألتها عما قال فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ حتى إذا قبض سألتها فقالت : إنه حدثنى أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة وإنه عارضه به فى العام مرتين ولا أرانى إلا قد حضر أجلى . وإنك أول أهلى لحوقا بى ونعم السلف أنالك فبكيت لذلك . ثم إن سارنى فقال ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ فضحكت لذلك . وفيه عن أبى هريرة رضى الله عن النبى ﷺ أنه قال لحسن « اللهم إنى أحبه فأحبه وأحبب من يحبه » ونحوه عن براء بن عازب وفيه عن أبى بكرة رضى الله عنه سمعت النبى ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة يقول « ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » . وفيه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه كان يأخذه والحسن ويقول « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » أو كما قال . وللترمذى عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » وقال حسن صحيح ، وفى الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « إن الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا ، وللترمذى — وقال حسن — عن بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال « صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » . وله عن على رضى الله عنه قال : الحسن أشبه برسول الله ﷺ ما بين

الصدر إلى الرأس ، والحسين أشبه برسول الله ﷺ ما كان أسفل من ذلك . هذا حديث حسن غريب .

(وتابعيه) تابعو الرسول ﷺ وأصحابه (السادة) من ساد يسود (الأخيار) على مراتبهم كما قال الله تعالى فيهم على الترتيب (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) الآية . وقال تعالى فى سورة الجمعة فى ذكر التابعين بعد ذكر الصحابة (وهو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) هذا فى الصحابة ، ثم قال فى التابعين (وآخرين منهم لما يلقوا بهم وهو السميع الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وغير ذلك من الآيات . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أن قد رأينا إخواننا ، قالوا أو لسنا إخوانك يا رسول الله . قال أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بعد » الحديث . وفى المسند عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « وددت أنى لقيت إخوانى » قال فقال أصحاب النبى ﷺ : نحن إخوانك قال « أنتم أصحابى ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى » إسناده حسن وقد صحح . وفيه عن أبى أمامة وأنس بن مالك رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى لمن آمن بى ولم يرنى سبع مرات » وروى الحاكم وغيره عن عبد الرحمن بن يزيد قال : كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبى ﷺ وما سبقونا به ، فقال عبد الله : إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه ، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب) إلى قوله (المفلحون) وقال : على شرطهما .

وبالجملة :

(فكلهم فى محكم القرآن   أثنى عليهم خالق الأكوان)

فى مواضع من كتابه (كالفتح) أى سورة الفتح من أولها إلى آخرها (و) سورة (الحديد) كقوله تعالى فيها (فآمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) إلى قوله (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لايستوى منكم من أنفق

من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) الآيات (و) القتال) كقوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وإن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) الآيات . (و) سورة (الحشر) إلى آخرها ، وقد رتب تعالى فيها الصحابة على منازلهم وتفاضلهم ثم أردفهم بذكر التابعين فقال تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم) أخرج الله بهذه الآية وغيرها شاتم الصحابة من جميع الفرق الذين فى قلوبهم غلّ لهم إلى يوم القيامة ، ولهذا منعهم كثير من الأئمة الفيء وحرموه عليهم . (و) فى سورة (التوبة) وسورة (الأنفال) بكمالها تارة فى الثناء عليهم وتارة فى تحذيرهم من عدوهم ووصف المشركين والمنافقين بأنواعهم وسماهم ليحذروهم ، وتارة فى حثهم على الطاعة والجماعة والجهاد فى سبيل الله والاثخان فى الكفار والثبات لهم عند لقائهم إياهم وعدم فرارهم منهم ، ووعده تعالى إياهم بالنصر على عدوهم ، وتارة بتذكيرهم بنعم الله عليهم وامتنانه عليهم أن هداهم للإسلام وجنبهم السبل المضلة . وألف بين قلوبهم وآواهم وأيدهم بنصره بعد إذا كانوا مستضعفين أذلة ، وتارة يخبرهم ويهيجهم ويشوقهم بما أعد لهم فى الدار الآخرة على قيامهم بطاعته تعالى وطاعة رسوله ، وجهادهم بأموالهم فى سبيله وله الحمد والمنة ، وغير ذلك من سور القرآن وآياته (كذلك فى التوراة) الكتاب المنزل على موسى عليه السلام (و) فى (الانجيل) الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام (صفاتهم) التى جعلهم الله عليها (معلومة التفصيل) كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله عز وجل (محمد رسول الله) ﷺ (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة) هنا تم الكلام ثم قال تعالى (ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقة يعجب الزراع ليغبظ بهم الكفار ، وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) وتقدم قول الأسقف لعمر وصفة الخلفاء رضى الله عنهم وغير ذلك (وذكرهم) بالمناقب الجمة

والفضائل الكثيرة (فى سنة المختار) محمد ﷺ عموماً وخصوصاً من الأحاديث الصحاح والحسان . (وقد سار) انتشر وأعلن (سير الشمس فى الأقطار) تمثيلا لشهرة فضائلهم ووضوحها لا تحصيها الأسفار الكبار . وفى الصحيح عن أبى بردة أبيه رضى الله عنه قال : صليت المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء ، قال فجلسنا فخرج علينا فقال « مازلتم ههنا » قلنا يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلى معك العشاء قال « أحسنتم » أو « أصبتم » قال فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء فقال « النجوم أمنة السماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ماتوعد، وأنا أمنة لأصحابى فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون ، وأصحابى أمنة لأمتى فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون » . وفيه عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله ﷺ ؟ فيقولون نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : هل فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ ؟ فيقولون نعم فيفتح لهم » . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس خير ؟ قال « أقرانى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء قوم تبدر شهادة أحدهم يمينه وتبدر يمينه شهادته » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتى القرن الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم » والله أعلم أذكر الثالث أم لا « ثم يخلف قوم يحبون السمانة ، يشهدون قبل أن يستشهدوا » وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « إن خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدرى أقال رسول الله ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً « ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن » زاد فى رواية « ويحلفون ولا يستحلفون » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سأل رجل النبى ﷺ أى الناس خير ؟ قال « القرن الذى أنا فيه ثم الثانى ثم الثالث » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تسبوا أصحابى . فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » . وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شىء فسبه خالد ، فقال رسول الله ﷺ « لاتسبوا أحداً من أصحابى ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . وفى الصحيحين من حديث، على رضى الله

عنه فى قصة كتاب حاطب مع الظعينة ـــ وفيه ـــ فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال « أليس من أهل بدر » فقال ﷺ « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة » أو « فقد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر رضى الله عنه وقال : الله ورسوله أعلم . وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : حدثنى أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر : بضعة عشر وثلاثمائة ، قال البراء : لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) قال : الحديبية ، قال أصحابه هنيئاً مريئاً فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها ...) وكل هذا فى الصحيح . وروى الترمذى عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة . وقال الترمذى حسن صحيح . وقد وردت أحاديث فى فضائل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم منها عامة ومنها خاص بالمهاجرين ومنها خاص بالأنصار ومنها خاص بالآحاد فرداً فرداً ، ومنها القطع لأحدهم بالجنة مطلقاً ، ومنها القطع ببعضهم بمجاورة رسول الله ﷺ فى الجنة ليس هذا موضع بسطها .

ثم السكوت واجب عما جرى	بينهم من فعل ما قد قدرا
فكلهم مجتهد مثاب	وخطئهم يغفره الوهاب

أجمع أهل السنة والجماعة الذين هم أهل الحل والعقد الذين يعتد بإجماعهم على وجوب السكوت عن الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة رضى الله عنهم بعد قتل عثمان رضى الله عنه والاسترجاع على تلك المصائب التى أصيبت بها هذه الأمة والاستغفار للقتلى من الطرفين والترحم وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر مناقبهم ، عملا بقول الله عز وجل (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) الآية واعتقاد أن الكل منهم مجتهد إن أصاب فله أجران أجر على اجتهاده وأجر على إصابته ، وإن أخطأ فله أجر الاجتهاد والخطأ مغفور ، ولا نقول إنهم معصومون بل مجتهدون إما مصيبون وإما مخطئون لم يتعمدوا الخطأ فى ذلك . وما روى من الأحاديث فى مساويهم الكثير من مكذوب ، ومنه ما قد زيد فيه أو نقص منه وغير عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى معتقد أهل السنة : وهم مع ذلك لايعتقدون أن

كل واحد من الصحابة معصوم عن الكبائر للإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب فى الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ، حتى إنهم يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم ، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون وإن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً من بعدهم ، ثم إذا كان قد صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنة تمحوه أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذى هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء فى الدنيا كفر به عنه فإذا كان هذا فى الذنوب المحققة فكيف بالأمور التى كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران وإن اخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور ، ثم القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح . ومن نظر فى سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التى هى خير الأمم وأكرمهم على الله عز وجل .

وقال القاضى عياض فى ذكر الصحابة رضى الله عنهم وفضائلهم : وأما الحروب التى جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب نفسها بسببها ، وكلهم عدول رضى الله عنهم ومتأولون فى حروبهم وغيرها ، ولم يخرج شىء من ذلك أحدا منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا فى مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف بعدهم فى مسائل من الدماء وغيرها، ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم .

وأعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة ، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام : قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه ، ففعلوا ذلك ، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخير عن مساعدة إمام العدل فى قتال البغاة فى اعتقاده . وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى الطرف الآخر فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغى عليه . وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين فكان هذا الاعتزال هو الواجب فى حقهم ، لأنه لايحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك ، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين وأن الحق معه لما جاز

لهم التأخير عن نصرته فى قتال البغاة عليه فكلهم معذورون رضى الله عنهم . ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به فى الإجماع على قبول شهادتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم رضى الله عنهم أجمعين ، وكلام الأئمة فى هذا الباب يطول ، وما أحسن ما قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وقد سئل عن الفتن أيام الصحابة فقال تاليا قول الله عز وجل (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون) .

الخاتمـــة

فى وجوب التمسك بالكتاب والسنة
والرجوع عند الاختلاف إليهما ، فما خالفهما فهو رد

شرط قبول السعى أن يجتمعا فيه إصابة وإخلاص معا
لله رب العرش لاسواه موافق الشرع الذى ارتضاه

(شرط) فى (قبول) الله تعالى (السعى) أى العمل من العبد وخبر المبتدأ (أن يجتمعا) الألف للإطلاق (فيه) أى فى السعى ، شيئان : أحدهما (إصابة) ضد الخطأ ، والثانى (إخلاص) ضد الشرك (معاً) أى لم يفترقا ، وتفسيره فى البيت الذى بعده ، فتفسير الإخلاص كون العمل (لله رب العرش) خالصاً (لا) شرك فيه لـ (سواه) ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله ، وتفسير الإصابة كونه (موافق الشرع) الثابت عن الله (الذى ارتضاه) الله تعالى لعباده ديناً وأرسل به رسله إليهم وأنزل به كتبه عليهم ولم يقبل من أحد دينا سواه ولا أحسن دينا ممن التزمه ، وقد سفه نفسه من رغب عنه . وقد جمع بين هذين الشرطين فى قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً) وقد تقدم الكلام على الإخلاص مستوفى فى بابه .

وأما مسألة التمسك بالكتاب والسنة فنذكر فيه فصولا :

الفصل الأول : فى ذكر وجوب طاعة الله ورسوله : قال الله تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) وقال تعالى (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين) وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) ، وقال تعالى (ومن

يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وقال تعالى (وأرسلناك للناس رسول وكفى بالله شهيداً. من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ، وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال تعالى (ومن يطع الله والرسول يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) وقال (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) وقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وقال تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون) وقال تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعو فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين) وقال تعالى (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) وقال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (ولا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ، إن الله غفور رحيم) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) وقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) وقال تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) وقال (يأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا

الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) ، وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) وقال تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليماً) وقال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب) وقال تعالى (وأطيعوا الله والرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) وقال تعالى (فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) ، وقال (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) وغير ذلك من الآيات .

وقال البخارى رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن سنان حدثنا فليح حدثنا هلال بن على عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . حدثنا محمد بن عبادة أخبرنا يزيد حدثنا سليم بن حيان وأثنى عليه حدثنا سعيد بن ميناء حدثنا ــ أو سمعت ــ جابر بن عبدالله يقول « جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم » الحديث تقدم ، وفيه « فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين الناس » . وله عن حذيفة قال : يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً . وإن أخذتم يميناً وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيداً . وله عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أُتى قوماً فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ؟ وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق» . وفيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « دعونى ما تركتكم ، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ». وفيه عن عائشة رضى الله عنها قالت « صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إنى أعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . وفيه عن المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال « لايزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » . وعن

معاوية رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، ويعطى الله عز وجل . ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى » . وفى المسند وابن ماجه وغيرهما قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ فخط خطاً هكذا أمامه فقال « هذا سبيل الله عز وجل » وخطين عن يمينه وخطين عن شماله قال « هذه سبيل الشيطان » ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . وفى المسند والترمذى وحسنه عن النواس ابن سمعان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ضرب الله صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه . فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » . وفى جامع الترمذى عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال رجل : إن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا يارسول الله؟ قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشى ، فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً ، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ » وقال هذا حديث حسن صحيح . وروى أحمد وزاد « وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » وفى رواية . قلنا يارسول الله إن هذه لموعظة . فماذا تعهد إلينا قال « قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك » وفى رواية « فعليكم بما عرفتم من سنتى » . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان خردل » . ولأحمد عن مجاهد بإسناد جيد قال : كنا مع ابن عمر رضى الله عنهما فى سفر بمكان فحاد عنه ، فسئل لم فعلت ؟ فقال :

رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت . وله عن الحسن بن جابر قال : سمعت المقدام بن معديكرب رضى الله عنه يقول : حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر أشياء ثم قال « يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكىء على أريكته يحدث بحديثى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدناه فيه من حلال استحللناه وما وجدناه فيه من حرام حرمناه ، ألا وإنما حرم رسول الله ﷺ مثل ماحرم الله » . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل ينثنى شبعان على أريكته يقول : عليكم القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولاكل ذى ناب من السباع ، ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغنى صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه . فإذا لم يقروهم فعليهم أن يعقبوهم بمثل قراهم». ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وإسناد أحمد جيد ، وسكت عليه أبو داود وحسنه والترمذى ، ولأحمد عن أبى هريرة نحوه ، والأحاديث فى هذا الباب كثيرة وفيما أشرنا إليه كفاية.

الفصل الثانى : فى تحريم القول على الله بلا علم ، وتحريم الإفتاء فى دين الله بما يخالف النصوص (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وقال تعالى) وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) وقال تعالى (ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) وقال تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) وقال تعالى (اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقال تعالى (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين) وقال (له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع مالهم من دونه من ولى ولايشرك فى حكمه أحداً) وقال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ـــ ومن لم يحكم بما أنزل فأولئك هم الظالمون ـــ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وقال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . إن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) الآيات ، وقال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)

وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنت مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لاتسألوه لئلا يسمعكم ماتكرهون ، فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر ، فعرفت أنه يوحى إليه ، فتأخرت عنه حتى صعد الوحى ثم قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وفيه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة المتلاعنين لما جاءت به على النعت المكروه فقال النبى ﷺ « لولا مامضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن » وفيه عن جابر رضى الله عنه قال « مرضت فجاءنى رسول الله ﷺ يعودنى وأبو بكر وهما ماشيان ، فأتانى وقد أغمى على ، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صب وضوءه على فأفقت فقلت : يارسول الله كيف أقضى فى مالى كيف أصنع فى مالى ؟ قال فما أجابنى بشىء حتى نزلت آية الميراث ، وعلى هذا ترجم البخارى رحمه الله تعالى : باب ما كان النبى ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحى فيقول لا أدرى أو لم يجب حتى ينزل عليه الوحى ولم يقبل برأى ولا بقياس لقوله تعالى (بما أراك الله) الآية . وترجم رحمه الله تعالى : باب مايذكر من ذم الرأى وتكلف القياس (ولا تقف ماليس لك به علم) ثم ذكر فيه حديث عبدالله ابن عمر وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى لاينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون ».

وحدث سهل بن حنيف قال : يا أيها الناس أتهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتنى يوم أبى جندل لو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته . الخبر وفى خطبه ﷺ مالا يحصى أن يقول « أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » وروى أبو داود عن يزيد بن عميرة وكان من أصحاب معاذ بن جبل قال : كان لايجلس مجلساً للذكر حين يجلس إلا قال : الله حكم قسط ، هلك المرتابون . فقال معاذ بن جبل يوماً : إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر ، فيوشك قائل يقول : ما للناس لايتبعونى وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعى حتى أبدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة . وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم ، وقد يقول المنافق كلمة الحق . قال قلت لمعاذ : ما يدرينى رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال : بلى

اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال لها ما هذه ولا يثنينك ذلك عنه فإنه لعله أن يراجع ، وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نوراً . وله من طرق عن سفيان الثورى قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز سأله عن القدر ، فكتب : أما بعد أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد ماجرت به سنته وكفوا مؤنته ، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة . ثم أعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى ما هو دليل عليها أو عبرة فيها ، فإن السنة إنما سنها من قد علم ، أما فى خلاف من الخطأ والزلل والحمق والتعمق فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم ، فإنهم على علم وقعوا ، وببصر نافذ كفوا ، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى ، وبفضل ما كانوا فيه أولى . فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقوكم إليه . ولئن قلتم إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم ، فإنهم هم السابقون فقد تكلموا فيه بما يكفى ، ووصفوا منه ما يشفى ، فما دونهم من مقصر . وما فوقهم من محسر ، وقد قصر قوم من دونهم فجفوا ، وطمح عليهم أقواماً فغلوا ، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم . كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر ، فعلى الخبير بإذن الله وقعت ، ما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هى أبين أثراً ، ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر . لقد كان ذكره فى الجاهلية الجهلاء ..لايتكلمون به فى كلامهم وفى شعرهم يعرون به أنفسهم على مافاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شده . ولقد ذكر رسول الله ﷺ فى غير حديث ولا حديثين وقد سمعته منهم المسلمون فتكلموا به فى حياته وبعد وفاته يقينا وتسليما لربهم وتضعيفا لأنفسهم أن يكون شىء لم يحط به علمه ولم يحطه كتابه ولم يمض فيه قدره ، وإنه مع ذلك لفى محكم كتابه ، منه اقتبسوه ومنه تعلموه . ولئن قلتم لم أنزل الله آية كذا، ولم قال كذا ؟ لقد قرءوا منه ما قرأتم ، وعلموا من تأويل ما جهلتم، .وقالوا بعد ذلك كله : بكتاب وقدر ، وكتبت الشقاوة ، وما يقدَّر يكن ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً .

الفصل الثالث : فى عظم إثم من أحدث فى الدين ما ليس منه . قال تبارك وتعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون) وقال تبارك وتعالى (ليحملن أثقالهم واثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وفى الصحيح عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « ليس من نفس

تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ، لأنه أول من سن القتل » ولأحمد ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سن سنة ضلال فاتبع عليها كان عليه مثل أوزارهم من غير أن ينقص من مثل أوزارهم شيء ، ومن سن سنة هدى فاتبع عليها كان له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ولأحمد بإسناد جيد عن حبيب بن عبيد الرحبى عن غضيف بن الحارث الثمالى رضى الله عنه قال : بعث إلى عبد الملك بن مروان فقال : يا أبا أسماء إنا قد جمعنا الناس على أمرين . قال : وما هما ؟ قال : ترفع الأيدى على المنابر يوم الجمعة ، والقصص بعد الصبح والعصر . فقال : أما إنهما أمثل بدعتكم عندى ولست مجيبك إلى شيء منهما . قال : لم ؟ قال : لأن النبى ﷺ قال « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة » فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة . وفى حديث الحوض عن جماعة من الصحابة تقدم أكثرهم قال « ليردن عليَّ الحوض رجال ممن صحبنى ورآنى حتى إذا رفعوا إلىَّ ورأيتهم اختلجوا دونى فلأقولن: ربى أصحابى، فيقال: إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك » . وفى بعضها زيادة « فأقول سحقاً سحقاً لمن بدل بعدى » . وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (وهو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب) قالت : قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » . وعن جرير بن عبد الله قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف ، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة ، فحث الناس على الصدقة ، فأبطأوا عنه حتى رؤى ذلك فى وجهه ، قال : ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق ، ثم جاء آخر ،ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه فقال رسول الله ﷺ «من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ، ولا ينقص من أجورهم شيء . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء » ورواه الترمذى بلفظ : قال رسول الله ﷺ « من سن سنة خير فاتبع عليها فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقوص من أجورهم شيئاً : ومن سن سنة شر فاتبع عليها كان عليه وزرها ومثل أوزار من اتبعه غير منقوص من أوزارهم شيئاً » . وله عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال لبلال بن الحارث « اعلم » قال أعلم يا رسول الله

قال « إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لايرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لاينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً » قال هذا حديث حسن . والأحاديث فى هذا كثيرة وفى هذا كفاية .

الفصل الرابع والخامس : ما فى هذه الأبيات :

وكل ما خالف للوحيين ... فإنــــه رد بغير مين
وكل ما فيه الخلاف نصبا ... فرده إليهما قد وجبـا
فالديـن إنما أتى بالنقـل ... ليس بالأوهام وحدس العقل

(وكل ما) أى أمر كان (خالف للوحيين) نصوص الكتاب والسنة لأن السنة وحى ثان أيضاً كما قال تعالى (وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى) وقال النبى ﷺ « أوتيت القرآن ومثله معه » الحديث (فإنه) أى ذلك الأمر المخالف (رد) أى مردود على مبتدعه من كان (بغير مين) بدون شك ، قال الله تبارك وتعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) ودين الإسلام هو الذى أنزل الله تعالى به كتابه على رسوله ليبينه للناس ، فتلاه الرسول ﷺ على أمته وبينه لهم بسنته من أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ ، وتقدم فى الأحاديث قوله ﷺ « وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) وقال تعالى (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً) وقال تعالى (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها) وقال تبارك وتعالى (اتبعوا ماأنزل إليكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون) وقال تبارك وتعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) الآيات وقال تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وقال تبارك وتعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية ، وقال تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) الآية وغير ذلك من الآيات . وفى الصحيحين من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وفى رواية مسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، وقال ﷺ « لقد تركتكم على المحجة البيضـاء ليلها كنهـارها ،

لايزيغ عنها بعـــــدى إلا هــــالك » وفى السنن عن أبى هـــــريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » وفيها عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أنه قال : ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة » ـــ زاد فى رواية ـــ « وانه سيخرج من أمتى أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه » وفى لفظ « بصاحبه ، لايبقى منه عرق ولامفصل إلا دخله » .
وفى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبراً بسبر وذراعا بذراع » فقيل : يارسول الله كفارس والروم ؟ فقال « ومن الناس إلا أولئك » . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموه » قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال « فمن » . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم اعلم أن البدع كلها مردودة ليس منها شىء مقبول ، وكلها قبيحة ليس فيها حسن ، وكلها ضلال ليس فيها هدى ، وكلها أوزار ليس فيها أجر ، وكلها باطل ليس فيها حق . ومعنى البدعة هو شرع مالم يأذن الله به ولم يكن عليه أمر النبى ﷺ ولا أصحابه ، ولهذا فسر النبى ﷺ البدعة بقوله « كل عمل ليس عليه أمرنا » ووصف الطائفة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة بقوله « هم الجماعة » وفى رواية « هم من كان مثل ما أنا عليه وأصحابى » .

ثم البدع بحسب إخلالها بالدين قسمان : مكفرة لمنتحلها ، وغير مكفرة ، فضابط البدعة المكفرة من أنكر أمراً مجمعاً عليه متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة من جحود مفروض أو فرض ما لم يفرض أو إحلال محرم أو تحريم حلال أو اعتقاد ما ينزه الله ورسوله وكتابه عنه من نفى أو إثبات ، لأن ذلك تكذيب بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ﷺ كبدعة الجهمية فى إنكار صفات الله عز وجل والقول بخلق القرآن ، أو خلق أى صفة من صفات الله ، وإنكار أن يكون الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وغير ذلك ، وكبدعة القدرية فى إنكار علم الله عز وجل وأفعاله وقضائه وقدره ، وكبدعة

المجسمة الذين يشبهون الله تعالى بخلقه ، وغير ذلك من الأهواء . ولكن هؤلاء منهم من علم أن عين قصده هدم قواعد الدين وتشكيك أهله فيه فهذا مقطوع بكفره بل هو أجنبى عن الدين من أعدى عدو له . وآخرون مغرورون ملبس عليهم ، فهؤلاء إنما يحكم بكفرهم بعد إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بها . والقسم الثانى البدع التى ليست بمكفرة وهى ما لم يلزم منه تكذيب بالكتاب ولا بشىء مما أرسل الله به رسله كبدع المروانية التى أنكرها عليهم فضلاء الصحابة ولم يقروهم عليها ولم يكفروهم بشىء منها ولم ينزعوا يداً من بيعتهم لأجلها كتأخيرهم بعض الصلوات إلى أواخر أوقاتها ، وتقديمهم الخطبة قبل صلاة العيد ، وجلوسهم فى نفس الخطبة فى الجمعة وغيرها وسبهم كبار الصحابة على المنابر ونحو ذلك مما لم يكن منهم اعتقاد على شرعية ، بل بنوع تأويل وشهوات نفسانية وأغراض دنيوية . كما روى الإمام أحمد والترمذى وحسنه عن أبى عمر الجونى قال : سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : ما أعرف شيئاً اليوم مما كنا عليه على عهد رسول الله ﷺ ، قال قلنا : فأين الصلاة ؟ قال أو لم تصنعوا فى الصلاة ما قد علمتم ؟ وله عن ثابت البنانى بإسناد نير قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه : ما أعرف فيكم اليوم شيئاً كنت أعهده على عهد رسول الله ﷺ ، ليس قولكم لا إله إلا الله . قال قلت : يا أبا حمزة الصلاة ؟ قال قد صليت حين تغرب الشمس ، أفكانت تلك صلاة رسول الله ﷺ ؟ وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شىء يبدأ به الصلاة ، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم ، فإن كان يريد أن يقطع بعثا قطعه أو يأمر بشىء أمر به ثم ينصرف . قال أبو سعيد : فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة فى الأضحى أو الفطر فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت فإذا مروان يريد يرتقيه قبل أن يصلى، فجبذت بثوبه ، فجبذنى فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : غيرتم والله ، فقال أبا سعيد قد ذهب ماتعلم . فقلت : ما أعلم والله خير مما لا أعلم . فقال : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة . وفى رواية مسلم : فلما رأيت ذلك منه قلت الابتداء بالصلاة ؟ فقال : يا أبا سعيد قد ترك ما تعلم ، قلت كلا والذى نفسى بيده لا تأتون بخير مما أعلم — ثلاث مرات — ثم انصرف . وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى سعيد رضى الله عنه أيضاً قال : أخرج مروان المنبر فى يوم عيد فبدأ بالخطبة قبل الصلاة ، فقام رجل فقال : يا مروان خالفت السنة ، أخرجت المنبر فى يوم

عيد ولم يكن يخرج فيه ، وبدأت الخطبة قبل الصلاة ولم يكن يبدأ بها . فقال أبو سعيد الخدرى : من هذا ؟ قالوا فلان ابن فلان ، فقال : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « من رأي منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . قلت : والمرفوع من قول النبى ﷺ فى صحيح مسلم ، ولعل تغيير هذا الرجل على مروان كان تارة أخرى فى غير المرة التى غير فيها أبوسعيد بيده ولسانه ، لأن تغيير أبى سعيد كان عند أول ما ابتدع ذلك ابتداء والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً ثم يجلس ، ثم يقوم فيخطب قائماً ، فمن نبأك أنه يخطب جالساً فقد كذب فقد والله صليت معه أكثر من ألفى صلاة . وفيه عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحكم يخطب قاعداً ، فقال انظر إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً ، وقال الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً) . وفيه عن عمار بن رويبة قال : رؤى بشر بن مروان على المنبر رافعاً يديه فقال : قبح الله هاتين اليدين . لقد رأيت رسول الله ﷺ ما يزيد على أن يقول بيده هكذا . وأشار بأصبعه المسبحة . وتقدم فى فضائل الصحابة نصيحة سعد بن أبى وقاص وسهل بن سعد وغيرهم من الصحابة وعظته إياهم عن سب الصحابة . وعن عامر بن سعد رأى جماعة عكوفاً على رجل فأدخل رأسه من بين اثنين فإذا هو يسب علياً وطلحة والزبير فنهاه عن ذلك فلم ينته فقال أدعو عليك . فقال الرجل تتعهدنى كأنك نبى ، فانصرف سعد فدخل دار آل فلان فتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع يديه فقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواماً قد سبق لهم منك سابقة الحسنى وأنه قد أسخطك سبه إياهم فاجعله اليوم آية وعبرة. قال فخرجت بختية نادرة من دار آل فلان لايردها شىء حتى دخلت بين أضعاف الناس فافترق الناس فأخذته بين قوائمها فلم تزل تتخبطه حتى مات ، قال فلقد رأيت الناس يستعدون وراء سعد يقولون : استجاب الله دعاءك يا أبا إسحاق . وعن مصعب نحوه . وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب نحوه ، وغير ذلك من إنكار الصحابة عليهم ، وكان الصحابة رضى الله عنهم لايخافون فى الله لومة لائم . رضى الله عنهم وأرضاهم آمين .

فصل : ثم تنقسم البدع بحسب ما تقع فيه إلى بدعة فى العبادات، وبدعة فى المعاملات: فالبدع فى العبادات قسمان أيضا الأول التعبد بما لم يأذن الله تعالى أن يعبد به البتة ، كتعبد

جهلة الصوفية بآلات اللهو والرقص والصفق والغناء وأنواع المعازف وغيرها مما هم فيه مضاهئون فعل الذين قال الله تعالى فيهم (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية). والثانى التعبد بما أصله مشروع ولكن وضع فى غير موضعه ، ككشف الرأس مثلا هو فى الإحرام عبادة مشروعة ، فإذا فعله غير المحرم فى الصوم أو فى الصلاة أو غيرها بنية التعبد كان بدعة محرمة ، وكذلك فعل سائر العبادات المشروعة فى غير ما شرعت فيه كصلوات النفل فى أوقات النهى ، وكصيام الشك والعيدين ونحو ذلك ، وفى الصحيح عن أنس فى الرجل الذى رآه النبى ﷺ يمشى بين ابنيه فقال ﷺ « إن الله لغنى عن تعذيب هذا نفسه » . وفيه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر وهو يطوف بالكعبة بإنسان يقود إنساناً بخزامة فى أنفه فقطعها النبى ﷺ بيده ثم أمره أن يقوده بيده . وفيه عنه رضى الله عنه قال : بينا النبى ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال ﷺ « مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » فأمره النبى ﷺ بإتمام الصوم الذى هو عبادة مشروعة وضعت فى محلها ، وإلغاء قيامه وسكوته لكونه وإن كان عبادة فى بعض الأحوال لكن ليس هذا محله ، وأمره بالاستظلال لكون عدمه ليس بعبادة مشروعة . وفيه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما سئل عن رجل نذر أن لا يأتى عليه يوم إلا صام فوافق يوم الأضحى أو الفطر فقال (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) لم يكن يصوم يوم الأضحى والفطر ولا يرى صيامهما. وعن زياد بن جبير قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما فسأله رجل فقال : نذرت أن أصوم كل يوم ثلاثاء أو أربعاء ما عشت ، فوافقت هذا اليوم يوم النحر ، فقال : أمر الله بوفاء النذر ونهينا أن نصوم يوم النحر ، فأعاد فأعاد عليه ، فقال مثله لا يزيد عليه . والمعنى أن النذر قربة من القربات إذا كان مشروعاً كصوم مالم ينه عنه من الأيام، فإن نذر صوم يوم منهى عنه كان ناذراً معصية لا طاعة ، وقد قال ﷺ « لا نذر فى معصية الله » وقال ﷺ « من نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . وعن عطاء أن ابن عباس رضى الله عنهما أرسل إلى ابن الزبير فى أول ما بويع له : إنه لم يكن يؤذن بالصلاة يوم الفطر ، وإنما الخطبة بعد الصلاة . قال ذلك رداً لبدعة المروانية فى ذلك . وفيه عن البراء بن عازب قال : قال النبى ﷺ « إن أول ما نبدأ فى يومنا هذا أن نصلى ، ثم نرجع فننحر . فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن نحر قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك فى شىء » الحديث . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى نساء النبى ﷺ

يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله أنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال ﷺ « ليس من البر الصيام فى السفر » وقال ﷺ للذين صاموا بعد أمره بالإفطار « أولئك العصاة ، أولئك العصاة » وغير ذلك من الأحاديث فى هذا الباب مالا يحصى ، وهذا مثال يدل على ما بعده .

ثم البدعة الواقعة فى العبادة قد تكون مبطلة للعبادة التى تقع فيها لمن صلى الرباعية خمساً . أو الثلاثية أربعاً ، أو الثنائية ثلاثاً وما شابه ذلك . وقد تكون معصية ولا تبطل العمل الذى تقع فيه كالوضوء أربعاً أربعاً ، لأن النبى ﷺ قال فى الوضوء المشروع « فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » ولم يقل فقد بطل وضوءه . وكذا قراءة القرآن راكعاً أو ساجداً منهى عنه شرعاً ولايبطل الصلاة .

والبدعة فى المعاملات كاشتراط ما ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ﷺ كما فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت جاءت بريرة رضى الله عنها قالت : إنى كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعينينى ، فقالت عائشة رضى الله عنها : إن أحب أهلك أعدها لهم عدة واحدة وأعتقك فعلت ويكون ولاؤك لى ، فذهبت إلى أهلها فأبوا ذلك عليها فقالت عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم ، فسمع بذلك رسول الله ﷺ فسألنى فأخبرته فقال « خذيها فأعتقيها واشرطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق » فقالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فما بال رجال منكم يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله . فأيما شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط ، فقضاء الله حق وشرط الله أوثق . ما بال رجال منكم يقول أحدهم أعتق يافلان ولى الولاء ، إنما الولاء لمن أعتق » وأمثاله كثيرة .

(وكل ما فيه الخلاف) بين الصحابة فمن بعدهم (نصب) من فروع العبادات والمعاملات (فرده) أى المختلف فيلف فيه من ذلك (إليهما) أى إلى الكتاب والسنة (قد وجب) على المعتبر ، قال الله تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول ذلك خير وأحسن تأويلا)

والرد إلى الله تعالى هو الرد إلى كتابه وإلى الرسول إلى سنته بعد انقطاع الوحى ، فما وافقهما قبل وما خالفهما رد على قائله كائنا من كان (فالدين) الإسلام وشرائعه (إنما أتى) حصل بيانه (بالنقل) عن الله ورسوله (ليس) هو (بالأوهام) من آحاد الأمة (وحدس) تخمين (العقل) ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ وهو أرجح الخلائق عقلا وأولاهم بكل صواب (إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) الآيات ، ولم يقل بما رأيت . ويقول الله تعالى له (ولا تقف ما ليس لك به علم) وقال تعالى له (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على هدى مستقيم) وأمثال هذا من الآيات. مالا يحصى ، وتقدم فى الأحاديث جملة واحدة ، وأنه ﷺ لايقول فى التشريع إلا عن الله عز وجل ، ولهذا لم يجب اليهود فى سؤالهم إياه عن الروح ، ولا جابراً فى سؤاله عن ميراث الكلالة والمجادلة فى سؤالها عن حكم الظهار حتى نزل عليه القرآن ذلك وبيانه ، وأمثال هذا كثير (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وفى قصة عمرو رضى الله عنه قال لرسول الله ﷺ وفيه قال : فعملت لذلك أعمالا وقال عثمان بن حنيف : اتهموا الرأى فى دينكم ، لقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ الله يمسح على ظاهر خفه . وأفتى عمر السائل الثقفى فى المرأة التى حاضت بعد أن زارت البيت يوم النحر أن لاتنفر ، فقال له الثقفى : إن رسول الله ﷺ أفتانى فى مثل هذه المرأة بغير ماأفتيت به، فقام إليه عمر يضربه بالدرة ويقول له: لم تستفتينى فى شىء قد أفتى فيه رسول الله ﷺ ؟ وكان ابن مسعود أفتى بأشياء فأخبره بعض الصحابة عن النبى ﷺ بخلافه ، فانطلق عبد الله إلى الذين أفتاهم فأخبرهم أنه ليس كذلك . قال عمر بن عبد العزيز : لا رأى لأحد مع سنة سنها رسول الله ﷺ والآثار فى هذا عن الصحابة والتابعين لا تحصى . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس . وصح عنه أنه قال : لاقول لأحد مع سنة رسول الله ﷺ ، وقال رحمه الله : إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت . وفى لفظ : فاضربوا بقولى عرض الحائط . وقال رحمه الله : إذا وجدتم سنة رسول الله ﷺ خلاف قولى فخذوا بالسنة ودعوا قولى فإنى أقول بها . وقال رحمه الله تعالى : كل مسألة تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبى ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها

فى حياتى وبعد موتى . وقال رحمه الله تعالى — وروى حديثاً فقال له رجل : تأخذ بهذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : — متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلى قد ذهب . وأشار بيده على رءوسهم . وسأله رجل مسألة فأفتاه وقال : قال النبى ﷺ كذا ، فقال الرجل : أتقول بهذا ؟ قال : أرأيت فى وسطى زناراً ؟ أترانى خرجت من الكنيسة ؟ أقول قال النبى ﷺ وتقول لى أتقول بهذا ! أروى عن النبى ﷺ ولا أقول به ! وفى لفظ : فارتعد الشافعى رحمه الله واصفر ولونه وقال : ويحك ، أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً فلم أقل به . نعم على الرأس والعينين . وقال رحمه الله تعالى : ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول وأصلت فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولى . وجعل يردد هذا الكلام . وقال الشافعى رحمه الله أيضاً : لم أسمع أحداً نسبته العامة أو نسب نفسه إلى علم يخالف فى أن فرض الله تعالى اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه ، فإن الله لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه ، وأنه لايلزم قول رجل قال إلا بكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وأن ما سواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا فى قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد لايختلف فيه . وقال الربيع سألت الشافعى عن الطيب قبل الإحرام بما يبقى ريحه بعد الإحرام وبعد رمى الجمرة والحلاق وقبل الإفاضة ، فقال : جائز وأحبه ولا أكرهه ، لثبوت السنة فيه عن النبى ﷺ والأخبار عن غير واحد من الصحابة . فقلت وما حجتك فيه ؟ فذكر الأخبار فيه والآثار ثم قال : أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن سالم قال : قال عمر رضى الله عنه : من رمى الجمرة فقد حل له ما حرم عليه إلا النساء والطيب. فقال سالم وقالت عائشة رضى الله عنها: طيبت رسول الله ﷺ بيدى . وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع . قال : وهكذا ينبغى أن يكون الصالحون وأهل العلم ، فأما ماتذهبون إليه من ترك السنة وغيرها وترك ذلك لغير شىء بل لرأى أنفسكم فالعلم إذا إليكم تأتون منه ما شئتم وتدعون ما شئتم . وقال رحمه الله تعالى : من تبع سنة رسول الله ﷺ وافقته ، ومن خلط فتركها خالفته . صاحبى الذى لا أفارق الملازم الثابت مع رسول الله ﷺ وإن بعد ، والذى أفارق هو من لم يقل بحديث رسول الله ﷺ وإن قرب .

وقال رحمه الله تعالى فى خطبة كتاب (إبطال الاستحسان) : الحمد لله على جميع نعمه بما هو أهله وكما ينبغى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده

ورسوله بعثه بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فهدى بكتابه ثم على لسان رسوله ، ثم أنعم عليه وأقام الحجة على خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقال (وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة) وقال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وفرض عليهم اتباع ما أنزل إليهم وسن رسول الله ﷺ فقال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) فأعلم أن معصيته فى ترك أمره وأمر رسول الله ﷺ ولم يجعل لهم إلا اتباعه ، وكذلك قال لرسول الله ﷺ (ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله) مع ما علم نبيه . ثم فرض اتباع كتابه فقال (فاستمسك بالذى أوحى إليك) وقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) وأعلمهم أنه كمل لهم دينهم فقال عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً).

إلى إن قال : ثم من عليهم بما آتاهم من العلم فأمرهم بالاقتصار عليه وأن لايقولوا غيره إلا ما علمهم فقال لنبيه (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) وقال لنبيه ﷺ (قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم) وقال لنبيه ﷺ (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) ثم أنزل على نبيه أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ورضوانه عنه وأنه أول شافع ومشفع يوم القيامة وسيد الخلائق وقال لنبيه ﷺ (ولا تقف ما ليس لك به علم) وجاءه ﷺ رجل فى امرأة رجل رماها بالزنى فقال له يرجع ، فأوحى الله إليه آية اللعان فلاعن بينهما ، وقال (قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقال (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام) الآية ، وقال لنبيه ﷺ (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها) فحجب عن نبيه علم الساعة ، وكان من عدا ملائكة الله المقربين وأنبيائه المصطفين من عباد الله أقصر علماً من ملائكته وأنبيائه ، والله عز وجل فرض على خلقه طاعة نبيه ولم يجعل لهم من الأمر شيئاً . وكلامه رحمه الله تعالى فى هذا الباب كثير مشهور مذكور . وهذا الذى قاله من تحكيم نصوص الكتاب والسنة وطرح ماخالفهما هو الذى نطقا به وصرحت به نصوصهما وأجمع عليه الصحابة والتابعون فمن بعدهم كما حكى إجماعهم هو وغيره وكما هو المشهور من سيرتهم فى الأقوال والأفعال ، ونصوصهم فى هذا الباب ملء الدنيا ، وتصانيفهم فى ذلك قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، ولو رأوا ما عليه

مقلدوهم فى هذا الوقت لتبرءوا منهم ومقتوهم أشد المقت ، فإنهم ليسوا على ما كانوا عليه ، ولا اهتدوا إلى ما أرشدوهم إليه ، بل اختلفوا اختلافاً شديداً وافترقوا افتراقاً بعيداً ، وكل منهم يحصر الحق فى إمامه ويرى ماخالفه باطلا ، ويرى سائر أهل العلم مفضولين وإمامه فاضلا ، وإذا خالف مذهبه نصاً ضرب له الأمثال وتكلف له التأويل المحال ، ويقابله الآخر بمثل ذلك ، فهم بين راد ومردود وحاسد ومحسود ، وكان فيهم شبه من الذين قال الله تعالى فيهم (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) ، لم يعلم هؤلاء المساكين أن سلفهم الصالح الذين يزعمون الاقتداء بهم كانوا أبعد من هذه الصفة بعد ما بين المشارق والمغارب ، بل كانوا رضى الله عنهم وأرضاهم أجل شأناً وأكمل إيماناً من أن يقدموا بين يدى الله ورسوله ، بل هم تبع له فى أوامره ونواهيه ، ولنصوص الشرع أعظم عندهم من أن يقدموا عليها آراء الرجال ، وهى أجل قدراً فى صدورهم من أن تضرب لها الأمثال ، وأعلى منزلة من أن تدفع بالأقيسة والتأويل المحال ، وإنما المقتدى بهم على الحقيقة من اقتفى أثرهم واتبع سيرهم وحفظ وصيتهم وأحيا سنتهم فى طلب الحق وأخذه أين وجده ، والوقوف عند كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كما بلغته ، فكما كان اجتهاد السلف رحمهم الله الأدلة واستنباط الأحكام منها فالواجب عند الخلاف تتبع تلك الأدلة والاستنباطات والأخذ بالأصح منها مع من كان وبيد من وجد ، فإن الحق واحد لايجزئه الاختلاف ، وكل واحد من أولئك الأئمة يدأب فى طلبه جاداً مجتهداً إن أصابه فله أجران وإن أخطأه فله أجر والخطأ مغفور ، وهذه أقوالهم مدونة فى كتبهم ، كلها تذم الرأى فى الدين ، وتحث من بعدهم على اقتفاء أثرهم فى طلب الحق أينَ ما كان ، ولم يدع أحد منهم إلى تقليده ولم يكن أحد منهم معصوماً ولا ادعى ذلك ولا قال إن الحق معى لايفارقنى فتمسكوا بما أقول وأفعل ، ولا كان لأحد منهم التزام قول أحد من آحاد الأمة لا ممن هو مثلهم ولا من هو أفضل منهم فضلا عمن هو دونهم ، ولم يكن لهم أن يلتزموه فيما خالف النص الذى لم يبلغه أو لم يستحضره ، ولو كان ذلك خيراً لسبقونا إليه ، بل كان إمام الجميع محمد رسول الله ﷺ الذى بين للناس ما نزل إليهم ، ويتبعون آثاره من الأفعال والأقوال والتقريرات يتلقونها من حفاظها من كانوا وأين كانوا وبيد من وجدوها وقفوا عندها ولم يعدوها إلى غيرها . وكانت طريقتهم فى تلقى النصوص أنهم يردون المتشابه إلى المحكم ويأخذون ما يفسر لهم المتشابه ويبينه لهم فتتفق دلالته مع دلالة المحكم وتوافق النصوص بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً ، فإنها كلها من عند الله وما كان من عند الله

فلا اختلاف فيه ولا تناقض ، وإنما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره ، قال الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

ثم إلى هنا قد انتهيت — وتم ما بجمعه عُنيتُ
سميته بسلم الوصول — إلى سما مباحث الأصول
والحمد لله على انتهائى — كما حمدت الله فى ابتدائى
أسأله مغفرة الذنوب — جميعها والستر للعيوب
ثم الصلاة والسلام أبدا — تغشى الرسول المصطفى محمدا
ثم جميع صحبه والآل — السادة الأئمة الأبدال
تدوم سرمداً بلا نفاد — ما جرت الأقلام بالمداد
ثم الدعا وصية القراء — جميعهم من غير ما استثناء
أبياتها « يسر » بعدّ الجمل — تأريخها «الغفران» فافهم وادع لى

٢٧٠ — ١٣٦٢

(ثم إلى هنا) الإشارة إلى آخر الكلام على الاعتصام بالكتاب والسنة ، وناسب جعل ذلك هو الخاتمة يكون الآية فيها الإشارة إلى ذلك هى من آخر ما نزل وهى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) بل السورة كلها من آخر مانزل ، وروى أنها نزلت جملة ، ومن جهة أنها الاعتصام بها آخر ما أوصى به النبى ﷺ فى خطبته فى حجة الوداع ثم فى خطبته فى غدير خم ثم كان من آخر ما تكلم به عند خروجه من الدنيا : (قد انتهيت) أى اقتصرت على هذا القدر ، وفيه إن شاء الله تعالى كفاية ، (وتم) أى قضى (ما) أى الذى (بجمعه) فى نظمى (عنيت) اهتممت له . (سميته) حين تم (بسلم) أى المرقاة التى يصعد فيها لأجل (الوصول إلى سما) بتثليث السين (مباحث) جمع مبحث وهو مايحصل به فهم الحكم (الأصول) جمع أصل وهو ماينبنى عليه ، والمراد بها عند الإطلاق أصول الدين ، وهو ما يجب اعتقاده فيه وهو المراد هنا ،، وأما إذا أضيفت فهى بحسب المضاف إليه : فأصول الحديث علم الاصطلاح الذى يبحث فيه عن تفاصيل أحوال السند والمتن وأحكامها . وأصول الفقه علم يبحث فيه عن الدليل والمدلول وحال المستدل وغير ذلك . وأصول العربية والنحو والصرف والمعانى والبديع كل بحسبه وتعريفه فى

أنه . وقولنا « سما مباحث الأصول » وصف له بالسمو وهو العلو إشارة الى أنه أعلى العلوم وأهمها وأوجها وألزمها لأنه معرفة ما خلق الله له الخلق والدنيا والآخرة والجنة والنار ، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، وفيه وله شرع الجهاد ، وعليه يرتب الجزاء من الثواب والعقاب وغير ذلك ، فحقيق بعلم هذا قدره أن يكون هو أول ما يهتم به العبد وأعظم مايبذل فيه جهده وينفق فيه عمره حتى يموت على ذلك ، وناسب تسمية الشرح بمعارج القبول لأن الخروج هو الصعود والمعارج المصاعد فكان القارىء فى هذا الشرح يصعد فى هذا السلم . وأضيفت المعارج إلى القبول لمناسبة الوصول لأن من لم يقبل لم يصل بل يرد أو ينقطع . (والحمد لله على) جزيل النعمة التى منها أن قدر (انتهائى) أى إتمامى هذا المتن المشتمل على معرفة الله تعالى ودينه ورسوله ﷺ (كما حمدت الله فى ابتدائى) فى نظمه كما تقدم ، وذلك اقتداء بكلام الله تعالى حيث افتتح ذكر الخلق بالأمر فقال (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) وختم ذكرهم فيما ينتهون إليه من الدارين بالحمد فقال (وقضى بينهم بالحق وقيل لله الحمد رب العالمين) ، وقال تعالى (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) . (أسأله) أى أسأل الله (مغفرة) أى مغفرته تعالى (الذنوب) ذنوبى وجميع المسلمين ، والمغفرة ستر الذنب فى الدنيا والآخرة والعفو عنه وعدم المؤاخذة به (جميعها) من صغائر وكبائر ، والاستغفار من أعلى أنواع الذكر (والستر) منه تعالى (للعيوب) منى ومن جميع المسلمين . (ثم) عطف على الحمد والاستغفار (الصلاة والسلام) تقدم معناهما (تغشى الرسول المصطفى محمدا) تغمره من ربه عز وجل (ثم) تغشى (جميع صحبه والآل) تقدم تعريفهما (السادة) جمع سيد وهو النقيب المقدم (الأئمة) المقتدى بهم فى الدين (الإبدال) أى الأولياء لله تعالى (تدوم) متواصلة متواترة (سرمدا) تأكيداً للدوام يفسره (بلا نفاد) فناء وانقطاع (ما جرت الأقلام بالمداد) أى عدد ماجرت به . (ثم الدعا) لجامع هذا العقد متناً وشرحاً (وصية) منه يلتمسه من (القراء) أن يدعوا له بخيرى الدنيا والآخرة (جميعهم) شاهدهم وغائبهم معاصريه ومن يأتى بعد عصره (من غير ما) صلة أى من غير (استثناء) إخراج أحد منهم من هذه الوصية . (أبياتها) أى عدتها رمز حروف (يسر) وذلك مائتان وسبعون (بعد الجمل) الحروف الأبجدية المعروفة عند عامة العرب ، وبما زدت فيها أقول (أبياتها المقصود) أى الذى فيه الأحكام والمسائل (يسرفاعقل) عنى . (تأريخها) الذى ألفت فيه رمزه حروف (الغفران) وذلك ألف وثلاثمائة واثنان وستون ،

أى عامئذ . نسأل الله الغفران (فافهم) ما فى ذا المعتقد (وادع لى) بصالح الدعوات فى أوقات الإجابة كما أوصيتك ، فإن ذلك من أعظم الصدقات (إن الله يجزى المتصدقين) .

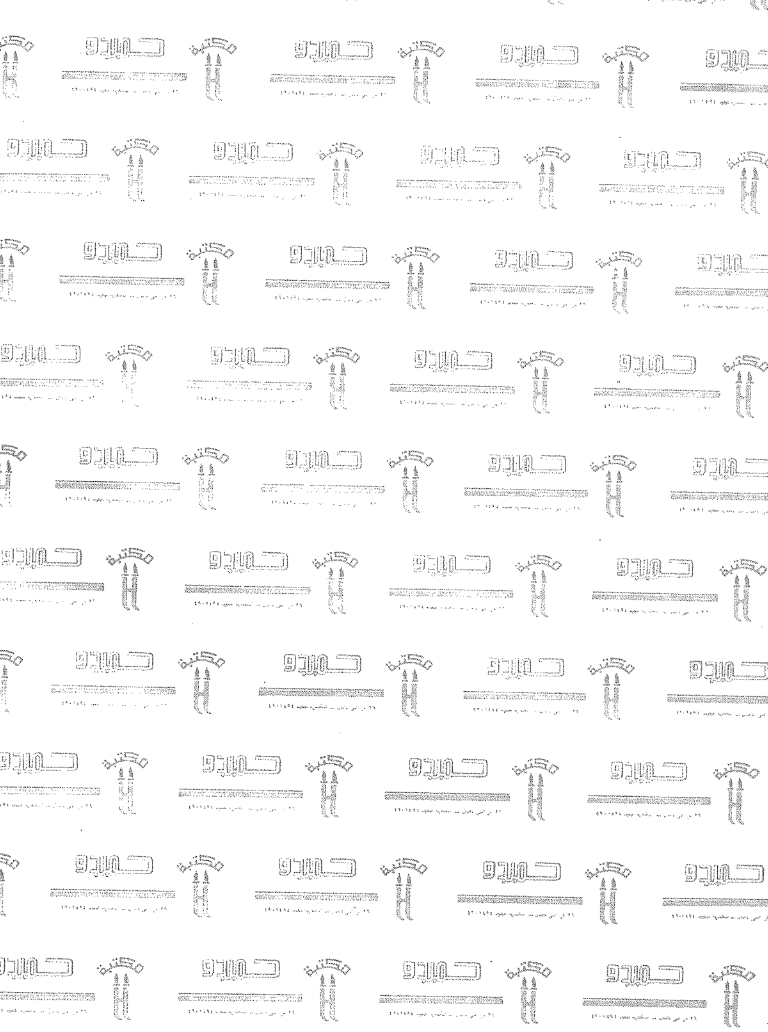
اللهم يا حى يا قيوم ياذا الجلال والإكرام ، يا بديع السماوات والأرض ، برحمتك نستغيث . اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين ، وأصلح لنا شأننا كله ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ، ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا ، فاغفر لنا وارحمنا إنك الغفور الرحيم . اللهم ما كان هذا فى السفر من حق وصواب فبتعليمك وإلهامك ، وفضلك وإنعامك ، أنت أهله ووليه ، فلك الحمد كما أنت أهله ، فانفعنا اللهم بتفهمه ، وارزقنا العمل بما علمنا وجميع المسلمين . وما كان فيه من خطأ وزلل فمن نفسى وشيطانى ، فألهمنى اللهم رشدى ، وأعذنى من شر نفسى ، وقيض له من يصلحه ويسد خلله ، وأعذنى أن أضل عن سواء صراطك المستقيم ، أو يضل بخطئى أحد من عبادك ، واغفر لى ولوالدى ولجميع المسلمين . سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وصل اللهم على سيدنا ونبينا محمد عبدك ورسولك سيد الأولين والآخرين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وقائد الغر المحجلين ، ورضى الله عن آله وأصحابه وأهل بيته أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا معهم بفضله ورحمته ووالدينا وإخواننا وجميع المسلمين آمين .

وكان الفراغ من تسويده نهار الاثنين بعد صلاة العصر السادس عشر من جمادى الأولى ١٣٦٦ للهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

فهرس الكتاب

الجزء الثانى من معارج (القبول)

صفحة






Bibliotheca Alexandrina
0588843